

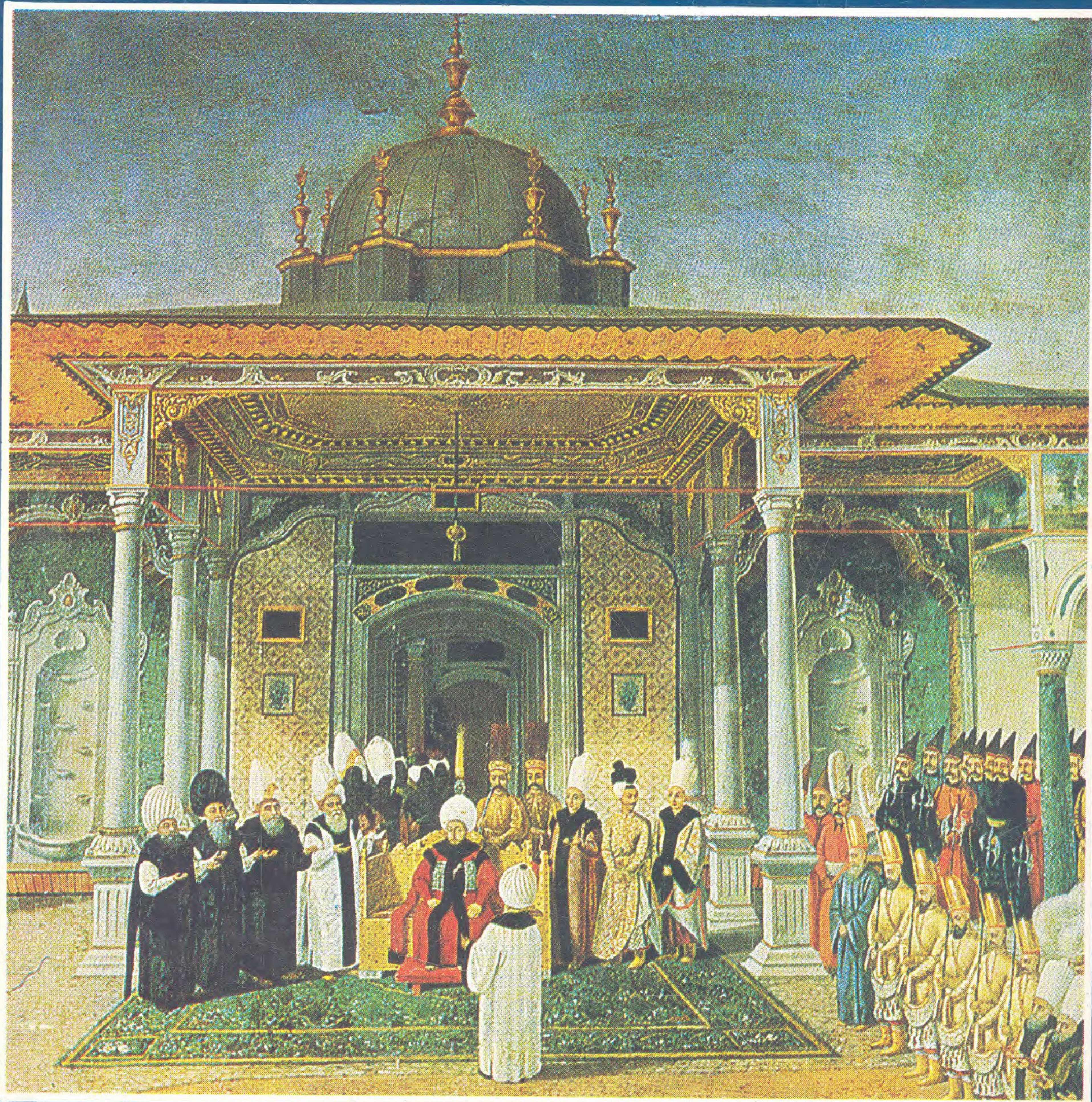
تاريخ الدولة العثمانية

الجزء الثاني



دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع


إشراف: روبيرمانتران - ترجمة: بشير السباعي



تاريخ الدولة العثمانية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٩٢
جميع الحقوق محفوظة


دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - هليوب
القاهرة، ش.م.س. ١١/١٤
مدينة نصر - المنطقة الثامنة
تليفون: ٢٧٣٥٠٧٤

الفلاف عمار ءللم
لوحه الفلاف : السلطان سللم مع الءاشله والأعلان


مدرسة الكاء بالعلم مع
المشة الفرنسة
للأبحاث والقوان
قسم الترجمة - القاهرة

تاريخ الدولة العثمانية

الجزء الثاني

إشراف: روبيرمان تران

ترجمة: بشير السباعي

ترجمة كتاب

Sous la direction de
Robert MANTRAN

HISTOIRE DE L'EMPIRE OTTOMAN

*Publié avec le concours du
Centre national des lettres*

FAYARD

© Librairie Arthème Fayard 1989

الفصل الحادى عشر

بدايات المسألة الشرقية

(١٧٧٤-١٨٣٩)

بقلم : روبير هانتراڭ

يتطابق ما نسميه بـ «المسألة الشرقية» مع جملة من الوقائع التى تدور بين عامى ١٧٧٤ (معاهدة كوتشوك - كاينارجا) و ١٩٢٣ (معاهدة لوزان). وتتلخص السمتان الأساسيتان لهذه الوقائع فى التمزق التدريجى للامبراطورية العثمانية وتنافس الدول العظمى بهدف فرض سيطرتها أو نفوذها على اوروبا البلقانية والبلدان الواقعة على الجانب الشرقى للبحر المتوسط (حتى الخليج الفارسى والمحيط الهندى) وعلى ضفافه الجنوبية. فالروس، متذرعين بحماية الارثوذكس والسلاف، يرمون الى مد سيطرتهم على البلقان والى الوصول الى البحر المتوسط. والانجليز يسعون الى حماية طريق الهند، ومن ثم إلى السيطرة على الممر الذى يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندى، ومن هنا الاهتمام الذى يبدونه بالبلدان العربية فى تلك المنطقة. والفرنسيون يريدون الدفء عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى مسيحيى المشرق ويجدون أنفسهم فى تعارض، بحسب الظروف، مع الروس أو مع الانجليز. والنمساويون، الخائفون من توسع النفوذ الروسى فى البلقان، يحاولون اقامة سد هناك، خاصة فى البوسنة والهرسك. وفيما بعد، سوف يهتم الألمان هم ايضاً بالامبراطورية العثمانية من منظور سياسة الدرائج ناش اوستين (الاندفاع نحو الشرق).

والحال ان الحروب التى سيخوضها العثمانيون خلال القرن التاسع عشر سوف تكون كلها تقريباً خاسرة وسوف تؤدى الى حرمان الامبراطورية، قطعة

قطعة، من شبه اجمالى اراضيها فى حين أن انتقال جانب كبير من مواردها تحت سيطرة الشركات الغربية سوف يسهم فى اختزالها وفى تأكيد تبعيتها.

على أن القادة العثمانيين يجتهدون فى تعزيز الاصلاحات (التنظيمات) فى المجالات الادارية والاجتماعية والسياسية والثقافية. لكن لعبة الدول الكبرى قد أدت الى تحجيم، إن لم يكن الى تبديد، أثر هذه الجهود. فمنذ غداة ابرام معاهدة كوتشوك - كاينارجا، عمل السلطان عبدالحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩)، ثم خليفته سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧)، على تحديث الدولة العثمانية و، فى المقام الأول، على انشاء جيش قادر على حماية حدود الامبراطورية. كما يمر هذا التحديث عبر انفتاح العالم العثمانى على التقنيات كما على الأفكار الغربية، وخلال عهد عبدالحميد الأول بالفعل، يرى مثقفون عثمانيون، أتراك ومصريون بشكل خاص، أن بالامكان إدخال تجديدات على الفكر الاسلامى، لكن هؤلاء المثقفين قلائل ولا يجدون تفهماً واسعاً. إلا أنه ليس من المؤكد أن عملهم كان عديم النتائج بالكامل.

عبدالحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩)

بعد ارتقائه العرش العثمانى فى ظروف صعبة، أدرك عبدالحميد الأول بسرعة ضرورة الاصلاحات. ومن هذه الزاوية، فإنه يظهر بوصفه المبادر الحقيقى بسياسة جديدة مدفوعة بتصور واقعى لوضع الامبراطورية : فهو يوجه هذه السياسة شخصياً بالاعتماد على رجال تولوا منصب الصدر الأعظم يتميزون بالكفاءة ويشاركونه مفاهيمه ويظل بعضهم فى المنصب فترة طويلة نسبياً كمحمد باشا چييجى زاده (يناير ١٧٧٧ - سبتمبر ١٧٧٨) ومحمد باشا السيد (اغسطس ١٧٧٩ - فبراير ١٧٨١) و خليل حميد باشا (ديسمبر ١٧٨٢ - مارس ١٧٨٥) ويوسف باشا كوچا (يناير ١٧٨٦ - يونيو ١٧٨٩).

الوضع الداخلى

إذا كان عبدالحميد الأول يمسك بزمام الحكومة المركزية، وإذا كان الهدوء يسود فى العاصمة على مدار عهده، فإن سلطته تتمتع بالاعتراف التام بها، من جهة اخرى، فى الولايات، أكانت الولايات الأوروبية أم الآسيوية أم الأفريقية التى كان بعض الأعيان قد اكتسبوا فيها مكانة داخلية جد قوية، مستفيدين من المصاعب التى واجهتها الحكومة على المستوى الخارجى.

تلك هى الحالة فى مناطق مختلفة من الاناضول، وفى سوريا حيث يتمكن أحمد باشا الجزار، بعد الشيخ ضاهر العمر، من فرض نفسه فى سوريا الجنوبية ولبنان وفلسطين، بعد أن سحق التمردات المحلية، وتلك هى الحالة فى العراق حيث تمكن عمر باشا (١٧٤٤ - ١٧٥١) وسليمان باشا (١٧٨٠ - ١٨٠٢) من إعادة البو الى الطاعة، ولكن ايضاً مع ابدائهما لتباعد معين عن حكومة اسطنبول - خاصة الثانى بعد انتصاره على الايرانيين الذين كانوا قد غزوا جنوب العراق - ، وتلك هى الحالة فى مصر حيث يتمكن المماليك على بك الكبير (١٧٦٨ - ١٧٧٣)، ثم مراد بك وابراهيم بك (من عام ١٧٧٩ حتى حملة بونابارت، ١٧٩٨) من السيطرة على البلد ويكسبون موافقة الحكومة بعد فشل هذه الأخيرة فى استعادة سلطتها. أما ولايات المغرب («ايلات البربر») فهى تواصل التمتع بدرجة جد كبيرة من الاستقلال وتتجنب قطع الصلات مع اسطنبول. وفى الولايات الأوروبية، فإن التوتر ليس أقل شأنأ حيث توجد حركات استقلالية الى هذا الحد أو ذاك، إن لم تكن قومية بالفعل، فى ثراس وصربيا وايبيروس (مع والى چانينا الشهير، على باشا تيبيدلين) والبانيا والجبل الأسود.

ولا يحاول السلطان عندئذ، إلا فى حالات استثنائية نادرة، استعادة سلطة الحكومة المركزية بالقوة، وذلك بقدر ما أن الخطر الخارجى ينيخ بكله دائماً على

الامبراطورية. فهو يسعى إلى التوافق مع قادة هذه الحركات، حيث يمنحهم القاباً رسمية أو يخولهم عدداً من المسؤوليات. على أن النتائج تظل هزيلة، ويدفع الطابع الاستعراضي لهذه المحاولات المعارضين الى الاعراب بشكل أقوى عن ميولهم الاستقلالية، خاصة في المجال المالى والاقتصادى : فهم يحتفظون لأنفسهم ولممتلكاتهم بالجانب الرئيسى من الضرائب والايادات التى كان يجب، عادة، أن تشق طريقها الى خزانة الدولة، ويتعاملون بشكل مباشر مع التجار الأجانب فيما يتعلق بالتبادلات التجارية. فما الذى يتبقى عندئذ من السلطة الحكومية؟

الاصلاحات العسكرية، الاصلاحات المدنية

بعد معاهدة كوتشوك - كاينارجا ، نجد أن عبدالحميد الأول، المنشغل بالحرص على تأكيد الدفاع عن امبراطوريته بامكانات حديثة (كانت الهزائم البرية والبحرية، امام الروس، قد شكلت درساً قاسياً مثلما اتاحت الفرصة لاستيعاب الموقف)، قد كرس جهوده لانشاء مدفعية وبحرية جديدتين بالكامل. وقد وكلت أمور المدفعية الى البارون لوتوت، وهو نبيل مجرى كان قد انتقل الى خدمة فرنسا وجاء فى عام ١٧٥٥ إلى تركيا مع فيرچان الذى عهد اليه بمهمات مختلفة لمجمع المعلومات فى الامبراطورية العثمانية وفى القرم. ولما كان قد راقب حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤ الروسية - التركية، فقد استخلص منها عدداً من الاستنتاجات واقترح اصلاحات شدت انتباه مصطفى الثالث ثم عبدالحميد الأول : وهكذا فإنه ينظم، منذ عام ١٧٧٤، بمساعدة الاسكتلندى كامبيل والفرنسى أوبير، قوة مدفعية جديدة سريعة الطلقات (سُرْعَة تويتشولارى) ذات عدد أقل من الجنود، الا انهم أحسن تدريباً وأحسن تنظيماً ومزودين بمدافع قدمت فرنسا جانباً منها؛ وهو ينشئ ورشة سباكة جديدة للمدافع فى هاسكوى ويعيد الحياة الى مدرسة المهندسين القديمة (هندسة خانة) التى كان بونفال باشا قد أسسها. وعلى الرغم من أن لوتوت

قد غادر تركيا فى عام ١٧٧٦، فإن عمله قد استمر تحت قيادة كامبيل - الذى تحول الى اعتناق الاسلام - وأوبير.

ويرجع تحديث البحرية الى حسن باشا الجزايرلى الغازى، الذى نجا من معركة تشيكم ورقى الى رتبة الاميرال الاكبر فى عام ١٧٧٤. فهو، مستفيداً من دمار جانب كبير من السفن العثمانية، يدشن فى مختلف ترسانات الامبراطورية بناء سفن حديثة ويستعين فى ذلك بفنيين أجانب يرأسهم مهندسان فرنسيان، لوروا ودوريه. ويجرى بذل جهود لتجنيد وتدريب رجال البحرية. كما يجرى انشاء مدرسة لمهندسى البحرية السلطانية، لكنها لن تتوصل الى تأهيل عدد كبير من الضباط، وإذا كانت نوعية السفن الجديدة تتحسن، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لنوعية أطقم البحرية. لكن التحرك الى الأمام كان قد بدأ و ، خلال وزارة خليل حميد، سوف يصل التحديث الى حد التأثير على فيلق الانكشارية وفيلق السباهيين، دون انقلابات عميقة، ولكن مع خلق مزاج جديد على الأقل يتميز بالطاعة والانضباط : فالانكشارية يرضخون لممارسة تدريب عسكرى متواصل، وحائزو التيمارات يتعهدون بالاقامة فى اراضيهم. وباختصار، فإن عهد عبدالحميد يشهد انشاء جيش من نوع حديث، غربى فى عدد من جوانبه. وسوف يستكمل سليم الثالث هذا العمل.

والى جانب اعادة تنظيم القوات التقليدية للجيش، يوجه خليل حميد اهتمامه وجهوده الى تحسين الأحوال الاقتصادية : فهو يشجع الصناعات المحلية، ويسعى الى تنشيط صناعة النسيج، التى تتعرض لمزاحمة قوية من جانب المنتوجات الأوروبية، ويشجع الحرف ويحقق انطلاقة جديدة للطباعة ونشر الكتب. وهذه الاعادة لتنظيم الدولة تستثير معارضة من جانب المحافظين ومن جانب عدد من العلماء وعدد من القادة العسكريين الذين شلت حركتهم. والمصلحون الحازمون ليسوا كثيرين وهم علاوة على ذلك متهمون بتخريب الأسس الدينية والاجتماعية

للدولة، وذلك بسبب الاعتماد على فنيين أوروبيين، فرنسيين غالباً. وهذه المعارضة للاتصالات تلقى تأييداً خفياً من جانب الروس والنمساويين، الذين لا يجدون مصلحة لهم في أن تتغلب الدولة العثمانية على مظاهر ضعفها وتصبح مرة أخرى قوية ومنظمة؛ وخلافاً لذلك، فإن الانجليز والهولنديين والفرنسيين، انصار أوروبا التنوير، يساندون المصلحين، ليس دون اعتبارات تتصل بمصالحهم.

ومما يدعو للدهشة أن من بين خصوم خليل حميد حسن باشا الجزائري الغازي الذي، رغم كونه من دعاة الإصلاح، يتميز بالطموح ويسعى الى ان يصبح صديراً أعظم؛ وهو يشن ضد خليل حميد حملة تنتهي بأن تجد أذنا صاغية لدى السلطان، الذي جرى اقناعه بوجود تحركات لخلعه لحساب سليم، ابن اخيه. ويجري تنحية خليل حميد عن مناصبه في ٣١ مارس ١٧٨٥ واعدامه بعد ذلك بأقل من شهر، ويبلغ انتصار خصومه منتهاه بترحيل الفنيين الأجانب، في عام ١٧٨٧.

ضغط روسيا

يتزايد الاحساس بضرورة انشاء جيش عثماني قوى بقدر ما ان الامبراطورة كاترين الثانية تفصح عن نواياها: فهي، في يناير ١٧٧٧، تتدخل في خانية القرم وتزيل الخان بولة چيراي وتنصب على العرش شاهين چيراي. وعلى مدار عامين، يتنازع الروس والعثمانيون على السيادة على القرم من خلال الخانات؛ وفي نهاية الأمر، في يناير ١٧٧٩، تتغلغل القوات الروسية في القرم، التي يتم عندئذ ضمها. وبالرغم من جهود حزب الحرب العثماني، الذي يقوده حسن باشا الغازي، فإن السلطان، بدعم من خليل حميد، يعترف بضم القرم من جانب الروس بتوقيع معاهدة آينالي كاواك (يناير ١٧٨٤)

وبالنسبة لكاترين الثانية، فإن هذا الضم ليس غير مرحلة، اتخذت شكلاً ملموساً أكثر باحتلال جيورجيا، في اتجاه هدف اوسع بكثير : تشكيل دولة

ارثوذكسية، يرأسها عاهل روسى تشمل جميع البلدان البلقانية، فيما عدا الجزء الغربى من البلقان الذى يجب تسليمه فى المقابل للنمسا، فى حين يجب للبندقية ان تحصل على المورة وكريت وقبرص، بينما يجب لفرنسا ان تحصل على مزايا فى سوريا ومصر. وهكذا فإن الأمر يتعلق بمشروع تمزيق - واعادة اقتسام - للامبراطورية العثمانية فى أوروبا، لحساب الامبراطورية الروسية أساساً. وتتصدى لهذا المشروع انجلترا وبروسيا، المنزعجتان من الاندفاع الروسى، واللذان تحرضان الحكومة العثمانية على مقاومة هذا الضغط، وذلك بقدر ما أن الروس قد اقاموا قواعد بحرية فى سيياستوبول وخيرسون، بما يشكل تهديداً مباشراً للبحر الأسود العثمانى.

وينتصر حزب الحرب فى اسطنبول مع تعيين الصدر الأعظم الجديد يوسف باشا كوجا : إذ يجرى توجيه انذار الى روسيا، يدعوها الى الجلاء عن جيورجيا والقرم (١٤ أغسطس ١٧٨٧)، وهو انذار ترد عليه روسيا باعلان الحرب بعد ذلك بشهر (١٥ سبتمبر)، حيث تدخل النمسا الحرب فى فبراير ١٧٨٨. وتنتهى هذه الحرب بون خسائر بالنسبة للعثمانيين، وذلك بسبب احداث فى بولندا وخاصة فى فرنسا تحول انتباه النمساويين والروس صوب الغرب: ويؤدى صلح تم توقيعه مع النمسا فى سفيتشوف (سيستوفا، ٤ أغسطس ١٧٩١) الى الحفاظ على الوضع القائم بين الامبراطوريتين اللتين لن تتحاربا مرة اخرى حتى عام ١٨٧٨. ومع روسيا، يعترف صلح ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) بضم القرم وجيورجيا من جانب الروس، ويصبح نهر الدنيستر خط الحدود الجديدة بين الامبراطوريتين. وعلى مدار اكثر من عشرين سنة، سوف تحيا الدولة العثمانية فى سلام نسبى مع جارتها الشمالية : فالثورة الفرنسية، ثم ناپوليون الأول، يمثلان عندئذ خطراً أكبر بكثير بالنسبة للدول الأوروبية.

وفى تلك الاثناء، كان قد ارتقى العرش العثمانى سلطان جديد، هو سليم الثالث، الذى سوف يستأنف ويعزز مشروع الاصلاحات الذى دشنه عبدالحميد الأول.

سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧)

إن سليم الثالث ، المولود في عام ١٧٦١ ، قد أبدى، بأكثر مما أبداه محمود الأول وعبد الحميد الأول، عزمًا على تحديث الدولة العثمانية جعل منه السلف الحقيقي لمصلحي القرن التاسع عشر من السلاطين والرجال الذين تولوا منصب الصدر الأعظم. كما أن نهاية عهده المأساوية قد رسخت في الأذهان الفكرة القائلة بأنه قد خلع وأعدم بسبب المفاهيم السياسية التي تمسك بها وطورها بعد ذلك خلفاؤه، خاصة محمود الثاني : وقد زاد ذلك من سمو مكانة شخصيته. وبما أن عهده قد تزامن، علاوة على ذلك، مع عدد من الأحداث الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فإن بالامكان القول أن مرحلة جديدة من تاريخ الدولة العثمانية تبدأ معه. والواقع ان سليم الثالث، حتى وإن كان قد وقف وراء عدد معين من التجديدات، فإنه يظل رجلاً ينتمي الى القرن الثامن عشر، ويمكن اعتباره أحد أولئك السلاطين «المستنيرين» الذين تميز بهم ذلك العصر.

والحال ان سليم الثالث لا ينبهر فحسب بالتجديدات التي يجرى ادخالها على الجيش العثماني، بل انه يرغب ايضاً في تكوين دراية بنظم الحكم الأخرى في العالم، خاصة في فرنسا، وذلك بسبب المكانة التي يحتلها في اسطنبول الفنيون الفرنسيون؛ بل إنه يجرى مراسلات مع الملك لويس السادس عشر كما أنه أول سلطان عثماني يرسل سفراء دائمين الى العواصم الأوروبية الكبرى. ولما كان قد واجه منذ بداية عهده صعوبات تتصل بالحرب ضد روسيا، فقد كان مضطراً الى تأخير تدشين الإصلاحات، ولكن لحساب وضع انصاره في مناصب المسئولية حيث سوف يمضي بعض هؤلاء الأنصار الى حد التفكير في اتخاذ تدابير ذات طابع اقتصادي واجتماعي، علاوة على الإصلاحات العسكرية والادارية. وكما هو الحال دائماً، فإن هذه الحركة سوف تستثير معارضات : وسوف تنتهي هذه المعارضات الى الانتصار في عام ١٨٠٧، لكن انتصارها لن يدوم طويلاً.

الاصلاحات : النظام الجديد (١٧٨٩ - ١٨٠٢)

بالنظر الى الظروف السائدة، فإن الجيش هو هدف تدابير التحديث الاولى. وفيلق الانكشارية لا يتعرض لانقلاب بالمعنى الدقيق للمصطلح؛ على ان تجنيد الفيلق يخضع لقواعد أكثر صرامة، ويجرى انشاء مراتبية جديدة، أما المرتبات، التى تدفع على اساس شهرى، فهى تحدد وفقاً للمراتب والقدرات، بينما يصبح التدريب إلزامياً ومنتظماً. وفى داخل الفيلق، يجرى الفصل بين الوظائف العسكرية والوظائف الادارية. وبالمثل، يخضع السباهيون لسيطرة أكثر صرامة، حيث يجرى اتخاذ تدابير ضد التغيب، ويتم التوقف عن منح التيمارات عن طريق المحسوبية.

وهذه الاصلاحات، الجيدة فى حد ذاتها، لا تلقى غير نجاح قليل، ذلك لأن ثقل عادات وتقاليد الانكشارية والسباهيين يعرقل أى تحديث. وهذا هو السبب فى أن سليم الثالث ينشئ فى عام ١٧٩٤ قوة جديدة من المشاة، تحمل اسم نظام - إى جديد (النظام الجديد)، تتلقى تدريباً أوروبياً على ايدى ضباط فرنسيين وانجليز وألمان، وتحوز امكانيات مالية خاصة بها، ويتم تجنيدها من الأناضول أساساً؛ وهى تضم، فى عام ١٧٩٧، ٩٢٠٠ جندى وسبعة وعشرين ضابطاً؛ وفى عام ١٨٠٢ يجرى فى الأناضول ادخال نظام تجنيد موجه الى تحسين اختيار وتأهيل هؤلاء العسكريين الجدد؛ وفى عام ١٨٠٦، تضم القوة ٢٢٦٨٥ جندياً و ١٥٩٠ ضابطاً. وقد تعاون الأعيان والموظفون المسئولون فى الأناضول (عن طيب خاطر؟) مع هذا المشروع الذى فشل فى البلقان، خلافاً لذلك، بسبب معارضة الوجهاء المحليين. وفى عام ١٧٩٥، انشأ سليم الثالث مدرسة للهندسة الحربية، موجهة الى تأهيل ضباط متخصصين، خاصة فى مجال المدفعية.

كما تمس الاصلاحات العسكرية البحرية التى كان حسن باشا الغازى قد جدها بالفعل. والحال أن خليفته، الأميرال الأكبر حسين باشا كوتشوك، يواصل عمله، فيجعل من البحرية العثمانية بحرية حديثة بفضل التحسينات التى ادخلت

فى مجال تجنيد وتأهيل البحارة : تحديث المدرسة البحرية، اعادة تنظيم الترسانات، انشاء مدرسة للصحة البحرية و ، كما هو الحال بالنسبة للانكشارية، الفصل بين الشئون العسكرية والشئون الادارية. وسعيًا الى تأمين تكلفة الاصلاحات العسكرية، يلجأ سليم الثالث الى تخفيض قيمة العملة والى مصادرة ممتلكات التجار الاثرياء والى زيادة الضرائب، وهى عملية تقليدية الى حد بعيد لدى العثمانيين.

أما الاصلاحات المدنية فهى أقل عمقاً بكثير : فهى تتعلق باعادة تنظيم خدمات الشئون المالية وتزويد المدن بالمنتجات الأساسية والزام الفلاحين الفارين بالعودة الى قراهم ومراعاة التقاليد فيما يتعلق بارتداء اللبس «الشرعى» بالنسبة لمختلف فئات السكان.

على أن هناك مجالاً أحدث فيه السلطان تجديداً فعلياً : ذلك هو مجال الدبلوماسية. فبعض السلاطين كانوا قد ارسلوا بالفعل مراقبين الى الغرب، ولكن بشكل مؤقت واستثنائى، أو جندوا فنيين أجانب للعمل فى مجالات نشاط محددة : الجيش والبحرية. والواقع أن هذه البداية للانفتاح على الغرب كانت مؤشر اعتراف بتأخر الامبراطورية وكذلك بضرورة معرفة البلدان الغربية على نحو أفضل. وفى اسطنبول وبعض المدن الأخرى فى الامبراطورية، كسميرن والاسكندرية وعكا وسالونيك، أخذت الصلات بين العناصر الممثلة للسكان المحليين (كبار الموظفين، الأعيان، التجار) والسفراء والقناصل والتجار الأجانب تتطور بشكل متواصل. ويعتبر سليم الثالث نصيراً للانفتاح على الغرب، وبشكل أخص على فرنسا التى يحترم ثقافتها؛ والأفكار الجديدة التى ظهرت مع الثورة الفرنسية تنتشر وتصل الى اسطنبول حيث تتولى مطبعة موجودة فى سفارة فرنسا نشر الصحف والكراسات، لكن العثمانيين لا يحسنون فهم محتواها أو لا يفهمونه على الاطلاق. وهذه الرغبة فى الانفتاح تتقاسمها شخصيات مختلفة، خاصة رئيس الكتاب (أى الموظف

المسئول عن الشؤون الخارجية) رشيد محمد أفندى، الذى عين سفراء دائمين فى عواصم مختلفة، وذلك باستثناء باريس نظراً لاعدام الملك لويس السادس عشر، الذى استنكره سليم الثالث. وفى اكتوبر ١٧٩٢، يجرى تعيين يوسف أغا أفندى فى لندن، حيث يبقى حتى عام ١٧٩٧، وهو العام الذى يحل فيه محله اسماعيل قروح. وفى عام ١٧٩٥، يجرى تعيين سيد على أفندى فى بروسيا وابراهيم أفندى فى النمسا، ثم فى سبتمبر ١٧٩٦، يجرى تعيين سيد على فى باريس حيث يصل فى يوليو ١٧٩٧ مع حاشية تتألف من ثمانية عشر رجلاً؛ وسوف تتاح له الفرصة فيما بعد للالتقاء فى مناسبات كثيرة بتاليران، الذى أصبح وزيراً للشؤون الخارجية. لكن حملة بونابارت على مصر فى عام ١٧٩٨ تجر الى قطع العلاقات، وهو قطع يدوم مدة تزيد قليلاً عن ثلاث سنوات

ولابد من الاشارة الى ان السفراء المعينين فى لندن وبرلين وفيينا والذين يتركون مناصبهم فى عامى ١٧٩٨ و ١٨٠٠ لا يجرى إحلال آخرين محلهم. ويحدث الشيء نفسه فى باريس فى عام ١٨١١. وحتى عام ١٨٢١، لن يعود هناك فى العواصم الغربية غير قائمين بالأعمال، اغلبهم من الاتراك المسلمين وليس من الفناريين كما كان الحال فى السابق. ويمكن تفسير هذا الانسحاب العثماني بالمشكلات السياسية الداخلية، التى تحتل مكانة هامة، إلا ان بالامكان ايضاً تفسيرها بواقع ان هذه التجربة لم تؤد الى ارتياح كبير. فالواقع ان السفراء المعينين لم يبدوا أى ميل الى وظائفهم الجديدة : فبسبب انتمائهم الى وسط كبار الموظفين، واعتيادهم شغل وظائف لا تمس غير الحياة الداخلية للدولة، وعدم درايتهم باللغات الأجنبية، وعدم تلقيهم لى تأهيل خاص قبل رحيلهم، يجدون انفسهم عاجزين عن الاضطلاع فى الخارج بتوضيح وتفسير السلوك السياسى للحكومة العثمانية، كما يجدون أنفسهم عاجزين عن فهم الأحداث التى تدور فى الغرب فهماً جيداً. والفائدة الوحيدة المستمدة من هذه السفارات إنما تكمن فى واقع أن بعض الأمناء الشبان المنتمين الى الجهاز الدبلوماسى المرسل الى الخارج

سوف يتعلمون اللغات الأجنبية ويرصدون العالم المحيط بهم ويجتهدون فى فهم النظم السياسية والادارية الأوروبية. وبعد ذلك بوقت قصير، سوف تسمح مشاهداتهم واستنتاجاتهم بتحريك الاصلاحات الموجهة الى تحديث الدولة العثمانية وفق النموذج الغربى؛ وسوف يلعب بعضهم دوراً بارزاً فى هذا الصدد.

المصاعب الداخلية، الضغوط الخارجية

تتطلب الاصلاحات التى يضطلع بها السلطان، والحرب ضد روسيا والنمسا، امكانات مالية وبشرية تطلبها الحكومة العثمانية من أعيان الأناضول، وكذلك من أعيان الولايات العربية والولايات الأوروبية، وهو ما يقابل باستياء، بل ويجر الى تمردات، كتمرد على باشا الجانيماوى فى اليونان الشمالية وفى البانيا وتمرد عثمان بازوان أوغلو فى بلغاريا والذى يمد سلطته على صربيا وفالاشيا ويحشد الأعيان والانكشارية المعارضين للاصلاحات. ومع سحق تمردات بلغاريا (١٧٩٨) يعرض سليم الثالث شروط صلح مفيدة بسبب الحرب التى تنشب مع فرنسا. أما اليونانيون فقد حافظوا على هويتهم فى ظل السيطرة العثمانية؛ وعلاوة على ذلك، فإن الدور السياسى والاقتصادى الذى لعبته العائلات اليونانية الكبيرة (الفناريون) فى اسطنبول قد رسخ اعتقادهم بأنها تمثل قوة قادرة على نيل الاستقلال لهم. وتؤدى الافكار التى نشرتها الثورة الفرنسية الى اثارة حماس المثقفين اليونانيين وخاصة الشاعر كونستانتين ريجاس، مؤسس الجمعية الوطنية الاولى، جمعية هيتاريا. فبعد أن علق الآمال، بلا طائل، على الحصول على عون من بونابارت، يشن ريجاس من فيينا اعمالاً تهدف الى انشاء جمهورية يونانية تتسع فيما بعد لتشمل شعوباً اخرى خاضعة للعثمانيين. وبعد الدس له عند النمساويين، يجرى اعتقاله ثم تسليمه الى العثمانيين الذين يقومون باعدامه (٢٤ يونيو ١٧٩٨). ومنذ تلك اللحظة، يبدو أن الاصلاحات التى يريدها السلطان لا تتمتع بقبول اجماعى، بل وتستثير ردود فعل معادية، خاصة فيما يتعلق بالقوة العسكرية الجديدة، التى

يرى البعض انها موجهة بالدرجة الاولى الى محاربة المعارضين الداخليين وليس الى محاربة الخصوم الخارجيين.

وفى حين أن العلاقات مع فرنسا تعتبر طيبة، خاصة بعد عام ١٧٩٤ وعلى الرغم من احتلال الفرنسيين لضفاف البحر الادرياتي في دالماتيا، فإن العلاقات مع روسيا تتحسن من جراء موت كاترين الثانية فى عام ١٧٩٦ ومحاولات التقارب مع العثمانيين التى يضطلع بها خليفتها بطرس الأول، الذى يسعى الى مواجهة النفوذ الفرنسى. على ان حملة بونابارت فى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) سرعان ما تسبب الى العلاقات التركية - الفرنسية الطيبة؛ فهى ترغم سليم الثالث على عقد تحالف مع البريطانيين والروس وكذلك على اعلان الحرب على فرنسا (سبتمبر ١٧٩٨). وتعتبر آثار هذه الحرب كارثية بالنسبة للتجارة الفرنسية فى المشرق : إذ جرى اعتقال القناصل والتجار، ومصادرة الممتلكات الفرنسية، ويعيد الاتراك فتح الجزر الأيونية. ويقف الجيش الفرنسى والجيش العثمانى وجهاً لوجه فى فلسطين، لكن بونابارت يضطر الى رفع الحصار عن عكا (مارس - مايو ١٧٩٩). ويجرى الحاق الهزيمة بجيش تركى آخر فى أبى قير فى يوليو ، لكن الجنرال كليبر، الذى خلف بونابارت، يجرى اغتياله فى يونيو ١٨٠٠ بينما يجلو خليفته، الجنرال مينو، عن مصر فى أول سبتمبر ١٨٠١. ويتم توقيع الصلح فى يونيو ١٨٠٢ : فتسترد فرنسا كل ما اضطرت الى التنازل عنه، بل وتحصل على حق الملاحة فى البحر الأسود. وسوف تستمر سياسة الصداقة مع فرنسا (فيما عدا خلال فترة قصيرة، فى ١٨٠٤ - ١٨٠٥، حيث رفض سليم الثالث الاعتراف باتخاذ نابليون لقب الامبراطور وقطع العلاقات)، وذلك على الرغم من محاولات روسيا وانجلترا الرامية الى مواجهة علاقات الصداقة هذه.

وبعد رحيل الفرنسيين عن مصر، يسعى الانجليز الى احتلال البلد عسكرياً، لكن والى محمد على ينجح فى التوصل الى انسحابهم ويستعيد سلطته. وعندئذ

يبدو ان الحكومة العثمانية تملك إمكانية لاستعادة سلطتها على الولايات، مستفيدة من صدى هزيمة الفرنسيين، ومن العلاقات الطيبة، المثقلة بالاغراض والمصالح، والتي تحتفظ بها روسيا وبريطانيا العظمى، ثم فرنسا، معها. وفي تلك الفترة من عهده، يبدو سليم الثالث في مظهر عاهل موفق، تكلل سياسته الداخلية والخارجية على حد سواء بالنجاح.

التمردات في الولايات

الواقع أن سليم الثالث، المهوم بالكامل بالمشكلات الخارجية وبسياسة الدفاع عن الامبراطورية التي جرت الى تركيز كل انتباهه على الاصلاحات العسكرية، قلما تحرك على المستوى الداخلى حيث لم يكن بوسعه أو لم يكن يدرى كيف يمكن استعادة السلطة الكاملة للدولة. فمستفيدين من المصاعب، التي ولدتها الحرب، يحاول عدد من الولاة والأعيان، بل وزعماء العصابات أن يدشنوا في ولاياتهم سلطتهم الخاصة، المنفصلة الى هذا الحد أو ذاك عن وصاية الدولة التي يخشون من استخدام جيشها الجديد ضدهم، ولا يتردد بعضهم في البحث عن دعم من جانب الروس.

وهذه التمردات لها دوافع مختلفة وتتخذ طابعاً سياسياً أو شخصياً أو قومياً أو دينياً بشكل محدد. وهكذا يظهر تمرد نو طابع دينى فى شبه الجزيرة العربية، فى قبيلة الوهابيين : فقد اتبعت هذه الأخيرة مذهب محمد ابن عبدالوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢) الذى يهدف الى ان يرد للاسلام كل نقائه الأول، الذى افسدته قرون من تطور جرى اعتباره مناقضاً لتعاليم النبى. وقد قوبلت هذه الحركة باستحسان خاص من جانب أمير نجد، ابن سعود، الذى يفجر انتفاضة مسلحة ضد العثمانيين ويستولى على مدينتى مكة والمدينة المقدستين، اللتين يجرى وضعهما عندئذ تحت سيطرة عربية أصيلة (١٨٠٣ - ١٨٠٤). وسوف يتطلب الأمر حرباً

مدتها سبع سنوات (١٨١١ - ١٨١٨)، خاضتها قوات محمد علي، والى مصر، للقضاء على هذه الانتفاضة.

وفي اتجاه الشمال، نجد أن أحمد باشا الجزار، الذي عين والياً على دمشق، تراوده فكرة انشاء دولة تستوعب سوريا وفلسطين تحت سلطته : ويؤدي موته، في عام ١٨٠٤، الى وضع نهاية لهذه المحاولة، وذلك لحساب سلطة اسطنبول الشرعية. وفي الاناضول الشمالية، نجد ان طيار باشا چانيكلي، الذي يسانده الروس، يسعى هو أيضاً الى الاستقلال عن اسطنبول.

لكن التمردات تعتبر أكثر خطورة في الولايات الأوروبية : فإذا كانت عصابات النهابين، الكيرچالية، في بلغاريا، تنشر الفوضى والرعب، دون ان تبدى مع ذلك أبسط مقصد سياسى، فإن الأمر ليس كذلك في الأقاليم الأخرى حيث نجد أن الميل الى الحكم الذاتى، إن لم يكن الى الاستقلال، والمستندة الى نزعة قومية وليدة يشجعها في هذا المكان أو ذاك النمساويون والروس، تكتسب اتساعاً ملحوظاً أحياناً. وفي بلغاريا الشرقية وثراس الغربية، يفرض اسماعيل باشا ترسانكلي ونائبه مصطفى بيرقتار سيطرتهما المباشرة على السكان المحليين، شأنهما في ذلك شأن عثمان بازوان أوغلو في بلغاريا الغربية وفي صربيا الشرقية، وخاصة على تيبيديلين، باشا چانينا، الذي تتطور انتفاضته في البانيا وفي ايبيروس، والذي يتصرف كحاكم مستقل في كل هذا الأقليم. والشىء الأكثر تميزاً ايضاً هو الحركة التى تنشعب في صربياً، والناشئة عن التجاوزات وأعمال العنف التى ارتكبها الانكشارية في عام ١٨٠٣ : فنحن هنا امام انتفاضة حقيقية ذات طابع قومى تمس الجزء الأكبر من السكان الصربيين، ويتزعمها أحد قادتها، جورج پتروفيتش، الملقب بقره چورج. والواقع ان هذه الانتفاضة، المدعومة من النمساويين والروس، سوف تستمر حتى عام ١٨١٢، وهو العام الذى يحصل فيه الصربيون، بموجب معاهدة بوخارست، على قدر من الاستقلال : وتعتبر هذه

الانتفاضة استثنائاً، ولكن بقدر من النجاح، للمحاولة الفاشلة التي قام بها ريجاس بالنسبة لليونان في أواخر القرن السابق.

وهذه الحركات الانتفاضية تتجاوز بالفعل، بالنسبة لبعضها، إطار الانتفاضة المحلية لتصل الى مستوى انتفاضة من أجل الاستقلال القومى. ومن المؤكد ان الافكار تظل غالباً مشوشة في غالبية الأذهان التي لا ترى في حركتها غير وسيلة لارغام القادة العثمانيين على اعادة النظر في نظام سيطرتهم. لكن افكار الاستقلال والتحرر الجديدة تجد عند البعض صدى أوسع. ومن المثير للانتباه أن هذه الحركات، في هذه الظروف، لا تلقى دعماً من فرنسا، على الرغم من انها مصدر الهام هذه الافكار، وذلك بسبب سياسة الصداقة القائمة بعد عام ١٨٠٥ بين الفرنسيين والعثمانيين، الذين يعتبر النمساويون والروس خصوماً مشتركين لهم. والحال أن ضرورات السياسة الخارجية هي التي توجه هؤلاء وأولئك، وإذا كان الروس والنمساويون يؤيدون الثوار، فإن ذلك ليس من باب الموافقة على الثورة، بل من باب الحرص على استخدام كل ما من شأنه الحاق الضرر بالدولة العثمانية : وإذا كان «مبدأ القوميات» لا يحتل الصدارة بعد، فإن بوسعنا تصور أنه يعبر عن نفسه بالفعل في أقاليم معينة، بشكل حذر، لكنه مؤثر.

وفي هذه الظروف الصعبة، لا يبدو أن السلطان سليم الثالث قد أحسن المناورة. فهو إذ يرى ان من اللازم اعادة الولايات الأوروبية الى الصف وحمايتها، يفكر في ان ينشئ في ادرنه (أندرينوبل) في عام ١٨٠٥ قوة من الجيش الجديد، يتعين تجنيدها في روميليا. ويؤدي هذا القرار الى إثارة انزعاج دعاة الاستقلال وأعيان البلقان، خاصة دعاة الاستقلال وأعيان بلغاريا، الذين يخشون من استخدام هذه القوة ضدهم. ويتصل اسماعيل باشا ترسانكلى بالمعارضين المحافظين في اسطنبول ويعد لإجراء ضد السلطان، لكن سليم الثالث يتراجع ويتخلى عن مشروعه. ويعد موت اسماعيل باشا في تلك الاثناء، يتولى مصطفى

بيرقتار خلافته، ويعترف به السلطان، في نفس الوقت الذي يتجه فيه، سعياً الى استرضاء العناصر المحافظة، الى تخويل بعضهم قيادة عناصر مختلفة من قوات النظام الجديد. ويعتبر ذلك تنازلاً حقيقياً من جانب السلطان في مواجهة المعارضين ومنذ ذلك الحين فإن مشاريعه الاصلاحية تنذر بشدة بأن تذهب ادراج الرياح.

سقوط سليم الثالث

إذا كان سليم قد تصرف بهذا الشكل، فإن ذلك يرجع الى ظهور تهديدات جديدة في مواقع مختلفة من حدود الامبراطورية. فالانجليز والروس لا يرتاحون الى اتساع النفوذ الفرنسي في اسطنبول وفي البلقان. وهم يرغبون السلطان على ان يمنح الروس حق المرور في المضائق (سبتمبر ١٨٠٦)، لكن انتصارات نابليون في الخريف تجعله يرجع عن هذا الاتفاق. وسرعان ما يرد الروس على ذلك ويغزون مولداقيا، على الرغم من معارضة مصطفى بيرقتار وبازوان أوغلو اللذين يشعران أنهما مهددان هما أيضاً بهذا الزحف من جانب الروس، الذين يحتلون بعد ذلك فالاشيا وبيسارابيا (١٨٠٦ - ١٨٠٧).

ويتعزز الضغوط الروسى بضغط البريطانيين الذين يصل اسطولهم، بعد قيامه بتظاهرة امام اسطنبول، الى مصر (مارس ١٨٠٧) بهدف تقديم دعم الى المعاليك المتمردين على العثمانيين. وبعد الحاق الهزيمة بالاولاثل على يد محمد على، يتخلى الانجليز عن عزمهم وينسحبون (سبتمبر ١٨٠٧).

وبعد تحرره من التهديد الانجليزى، يتهىء سليم الثالث لمواجهة الروس والصربيين؛ ويتسنى له الاعتماد على دعم فرنسا، التى يتمتع سفيرها في اسطنبول، هوراس سيباستيانى، بنفوذ كبير، وعلى عون متمردي بلغاريا السابقين، خاصة مصطفى بيرقتار، المنزعجين من اندفاع الروس صوب البلقان.

والحال ان سليم الثالث، الذى استوعبته بالكامل مشكلات الدفاع عن الامبراطورية، متصدياً لأكثرها إلحاحاً، لم يتسن له توظيف العناصر الضرورية

لسياسته الاصلاحية : الرجال المتحمسين، نوى التأهيل الجيد والمعدد الكافى، إلى جانب دعم مالى راسخ. وشأنه فى ذلك شأن عدد من اسلافه، فقد لجأ إلى اجراءات استثنائية (الضرائب الاضافية، الاستيلاء على الممتلكات) تجر الى ارتفاع للأسعار. وهكذا فإنه يثير سخط جانب كبير من السكان، اولئك الذين تمسهم الاصلاحات العسكرية والتدابير المالية، وكذلك اولئك الذين يرون أن الدولة ما كان لها أن تأخذ طريق التحديث وخاصة التغريب لأنها يهددان التقاليد الاسلامية والعثمانية. والى النور الذى لعبه هوارس سيباستيانى اضاف بعض الكتاب دور سيدة من سيدات الحريم يقال انها من أصل فرنسى ويجرى المطابقة بينها وبين ايميه دويوك نو ريفيرى، ابنة خال جوزفين دو بوارنيه : ولا يوجد ما يسمح بتأكيد ان ايميه دويوك كانت من بين الحريم السلطانى وانها أصبحت، تحت اسم ناكشيديل، محظية السلطان عبدالحميد الأول. والواقع أنه كانت هناك امرأة من الخاهيكي تحمل اسم ناكشيديل : وهذه المرأة هى أم السلطان محمود الثانى، ولا يبدو أن من اللائق الخلط بينها وبين هذه الفرنسية التى جعل البعض منها مستشارة لسليم الثالث وملهمة لسياسته الممالئة لفرنسا.

وفى مايو ١٨٠٧، يضطر سليم الثالث الى مواجهة تمرد مفاجىء، نشب فى صفوف الانكشارية المتمردين على ضباط الجيش الجديد. ويتردد السلطان فى استخدام القوة، ويسعى الى التفاوض مع المتمردين الذين يرفضون التفاوض ويذحفون على القصر، حيث ينضم اليهم المعارضون من كل نوع. وتعتبر التنازلات التى يقدمها غير كافية: فالمطلوب هو الغاء الاصلاحات، ثم خلع السلطان: ويجرى اصدار فتوى فى هذا الاتجاه. ويتخلى سليم الثالث عن الدفاع عن نفسه ويتنحى، تاركاً العرش لمصطفى الرابع، ابن عمه (٢٩ مايو ١٨٠٧).

والحال ان هذا العصيان، غير الخطير فى بداياته، ولكن الذى اتخذ أبعاداً جد واسعة، إنما يعبر عن هشاشة السلطة السلطانية، ومحدودية أثر الاصلاحات على

عدد معين من العناصر الأساسية للدولة العثمانية (العناصر العسكرية والحقوقية- الدينية) وثقل المحافظين، في اسطنبول خاصة، وافتقار السلطان الى قوة الشخصية، أو على الأقل روحه المسالمة.

الردة والردة المضادة

إن مصطفى الرابع، الذي لا يبدى قدراً يذكر من قوة الشخصية، يستسلم لمطالب الأوساط المحافظة والرجعية: فجميع التجديدات التي تم إدخالها في ظل سليم الثالث، بدءاً بالنظام الجديد، تتعرض للإلغاء، بينما يجرى رد الاعتبار الى المؤسسات والقوانين السابقة. وجميع أولئك الذين كانوا، بدرجات متباينة، ضحايا للنظام السابق أو يمكن اعتبارهم كذلك، يستردون ممتلكاتهم أو يحصلون على تعويضات. أما مطاردة انصار سليم الثالث - وخاصة ضباط النظام الجديد - فيجرى تنظيمها عبر مجمل الأمبراطورية. ويشعر انكشارية اسطنبول، الذين كانوا وراء الاطاحة بالسلطان، بأن كل شيء مباح؛ فهم ينشرون الرعب والنهب في العاصمة، الى درجة ان القادة الجدد يجدون أنفسهم مضطرين الى ابعادهم عنها مع تقديم الوعود لهم ومنحهم عدداً من المزايا.

وهؤلاء القادة الجدد هم بوجه خاص الصدر الأعظم ابراهيم حلمى باشا وشيخ الاسلام عطاء الله افندى، اللذان يمثلان زمرتين لا تتماثلان، بعد تحالفهما، من الاتفاق على السياسة التي يجب إتباعها؛ وهما يخاصمان مصطفى بيرقتر الذي ينفصل عملياً، وسط هذه الفوضى، وينصب نفسه حاكماً في روستشوك.

والى هذه المصاعب الداخلية تضاف اشكال الانزعاج الناشئة عن احداث خارجية بالنسبة للامبراطورية. ففي ٨ يوليو ١٨٠٧، عقد نابوليون الأول والقيصر الكسندر بالفعل الصلح في تيلسيت: والى جانب عد معين من البنود التي تتعلق بأوروبا الغربية، فإن الامبراطور الفرنسي يتعهد بالتدخل كوسيط بين الروس

والأتراك ؛ وفى حالة الفشل، سوف يتفاهم الامبراطوران على تجريد العثمانيين من سيطرتهم على أوروبا البلقانية. والواقع ان نابوليون الأول لن يضطلع بشيء ضد العثمانيين. وفى المقابل، فإن الروس يواصلون ضغطهم، ويدعمون الصربيين والمولدافيين فى نضالهم، ولن يتم توقيع الصلح إلا فى عام ١٨١٢ (معاهدة بوخارست).

وفى اسطنبول، يؤدى انعدام كفاءة القادة وغياب تدابير ايجابية من جانبهم وتنافسهم الى استئثار اعادة تجمع المصلحين والأعيان الذين يخشون من تدهور الوضع. وعندئذ فإنهم يجرون اتصالاً مع مصطفى بيرقتار، الذى يظهر بوصفه رجل الساعة القوى، وذلك بهدف دفعه الى التحرك بقواته للعمل على اعادة سليم الثالث الى العرش. إلا انه لما كان هذا الأخير فى ايدى خصومه، فقد كان عليهم المناورة بحكمة تجنباً لاعدامه. ويجرى أخذ ورد بين المصلحين والسلطان مصطفى الرابع والصدر الأعظم الجديد مصطفى باشا شلبى، الأكثر عداوة من سلفه لشيخ الاسلام ولقائد الانكشارية مصطفى كاباتشى. ويدخل مصطفى بيرقتار اسطنبول مع قواته (١٨ يوليو ١٨٠٨)، ويعزل عدداً معيناً من الأشخاص المعادين للإصلاح ويعيد الانكشارية الى الطاعة بينما يجرى اعدام مصطفى كاباتشى.

ومع اكتساب بيرقتار لقدر زائد عن الحد من الأهمية، يسعى السلطان والصدر الأعظم الى ابعاده عن اسطنبول بارساله للدفاع عن الحدود الدانوبية. لكنه يرفض ذلك، بل، وعلى العكس من ذلك، يطلب خلع مصطفى الرابع واعادة سليم الثالث الى العرش. لكن هذا الأخير يجرى اغتياله بينما ينجح الأمير محمود فى الهرب ويلجأ الى بيرقتار الذى يعلنه سلطاناً (٢٨ يوليو ١٨٠٨) : والحال أن هذا الأمير، وهو أحد ابناء عبدالحميد الأول، سوف يحكم تحت اسم محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩). وسوف يصبح المبادر الحقيقى بالتغييرات فى الامبراطورية العثمانية، فعندئذ يبدأ العهد المسمى بالتنظيمات (الاصلاحات).

والواقع انه مع موت سليم الثالث تنتهى فترة من التاريخ العثمانى يتضح خلالها ضغط الدول العظمى بهدف اختزال الامبراطورية وسيطرتها الاقليمية، بينما تتجلى المحاولات الاولى للاصلاح، والتي تصطدم بعدم تكيف الرجال والأذهان، المتميزة الى حد بعيد بالتمسك بالتقاليد والعادات وبالخوف من فقدان الامتيازات. على أن عهد سليم الثالث يشكل فترة انتقال. وعلى الرغم من ان النتائج لا تبدو ايجابية، إلا أنه يبقى مع ذلك ان محاولات ترمى الى التحديث والانفتاح قد بذلت، وأن الامبراطورية قد حققت خروجاً معيناً من عزلتها، وأن عدداً من الشبان العثمانيين قد تسنى لهم أن يرصدوا عن قرب هياكل ونظم حكم الدول الأوروبية، وأنهم قد نقلوا منها عدداً معيناً من الأفكار بالنسبة للمستقبل. إلا أنه فى التو والحال، لم يحدث شىء، أو لم يكد يحدث شىء، من اجل تحسين سير عمل إدارة متكسفة أو فاسدة أو عديمة الكفاءة. فالمجالات الوحيدة التى يحدث فيها تحديث هى مجالات الجيش والبحرية؛ ثم إن هذا التحديث لا يتم دون حوادث، ابرزها تمرد عام ١٨٠٧.

والواقع ان الادارة المركزية يتم تجنيد عناصرها من بين صفوف الطبقة العلمية، أى من بين صفوف الاشخاص الذين تعلموا فى المدرسة على يد العلماء. والحال، من جهة، ان تجنيد المرشحين لأن يصبحوا موظفين للدولة لا يتحقق بعد بين صفوف الشبان القادمين من الديار البعيدة وحدهم، بل يتحقق بشكل متزايد بين صفوف افراد العائلات المسلمة المنخرسة فى النظام، حيث تلعب المحسوبية والزمروية دوراً حاسماً. ومن جهة اخرى، فإن التعليم المقدم فى المدارس أو فى مدارس القصر لم يتطور منذ قرنين؛ والضغط السياسى والعسكرى الذى تمارسه الدول الغربية يعزز، على العكس من ذلك، نفوذ العلماء الذين يريدون الظهور فى مظهر المدافعين عن التقاليد الاسلامية فى وجه انتهاكات الدول المسيحية. ويحتفظ هؤلاء العلماء بسلطة أكيدة على الحكام والقادة - الذين غالباً ما يجيئون من صفوفهم - ، وعلى موظفى الدولة الذين يمكنهم تسهيل صعودهم، وعلى طلاب

المدارس والجماهير الشعبية. وهم لا يملكون سلطات فكرية ودينية فحسب وإنما يمتلكون أيضاً إمكانات سيكولوجية و ، بوجه خاص، إمكانات مالية بفضل الأوقاف الخيرية الملحقة بالمؤسسات الدينية.

وإدارة الولايات ، الموضوعة تحت سلطة الولاة، هي ، بحسب الأحوال، تابعة بالكامل لهؤلاء الآخرين، أو لأعيان محليين أقوياء أو ، فى نهاية الأمر، لهؤلاء وأولئك. والمناصب الرئيسية للهيراركية الادارية للولايات، مناصب المدن الكبرى، يحوزها أشخاص معينون من جانب الحكومة المركزية، فى حين أن الوظائف الحقوقية - الدينية، وظائف القضاة والنواب، ترجع الى شيخ الاسلام. والجميع، أو الجميع تقريباً، يسعون إلى انتزاع أقصى فائدة من مناصب المسئولية التى لا يعرفون متى ينحون عنها. والاحكام الخاصة بكل ولاية تطبق بهذا القدر أو ذاك من الصرامة، خاصة فيما يتعلق بتحصيل الضرائب والايادات المختلفة التى يذهب جزء منها الى خزانة الدولة بينما يذهب الجزء الآخر الى الوكيل المسئول. ومن الواضح ان التجاوزات، فى هذا المجال، عديدة وصارخة؛ فالفلاحون، بوجه خاص، يعانون منها، فى الوقت الذى يتبعون فيه ملاك الأرض تبعية شديدة، علاوة على ذلك: ومن المفهوم أن يتمرد الفلاحون، فى مناسبات معينة، كما نرى ذلك بشكل خاص فى الأناضول، وهى بلد تركى ومسلم بشكل أكثر تحديداً، لكنهم يتمردون أيضاً فى كردستان.

وفى الولايات، يتولى الولاة أيضاً تأمين النظام، إلا انه كثيراً ما يحدث أن الانكشارية، خاصة انكشارية الحاميات النائية، لا يقيمون اعتباراً للسلطة ويتصرفون تجاه السكان كما يحلو لهم أو كذلك بالاتفاق، أو فى تعارض، مع الأعيان المحليين. وفى هذه الظروف، غالباً ما يجرى اختزال سلطة الدولة الى ادنى حد، إلى شكليات.

وفى البلقان، تبدأ التمردات ضد السلطة العثمانية فى التطور، فى أواخر القرن، بتحريض من الروس ومن النمساويين. وفى البلدان العربية، فإن استقلال

المغرب، وأحياناً مصر وسوريا والعراق، يعتبر واقعاً مكتسباً؛ ويميل عدد من الولايات الى ان تكون له حياة خاصة، أكان ذلك على المستوى السياسى أم على المستوى الاقتصادى، وتتم التبادلات التجارية مع التجار الأجانب على أسس محلية بشكل متزايد، دون رجوع الى الحكومة المركزية، التى يتعين عليها العثور على إمكانات لتأمين تمويل العاصمة والتجارة العامة الضرورية لأنشطة الدولة.

وتجدر الإشارة من جهة أخرى الى المكانة المتعاظمة التى يحتلها الممولون الأرمن منذ منتصف القرن الثامن عشر: فمن وضعية التجار التى كانوا عليها فى القرن السابع عشر يصبحون متعاملين فى النقود والعملات (صيارفة)، ثم رجال بنوك. وإذا حل الأرمن محل الممولين اليهود، المتمتعين بالنفوذ حتى اوائل القرن الثامن عشر، فإنهم يدخلون فى الأوساط الحاكمة للامبراطورية، أكان ذلك فى العاصمة أم فى الولايات، حيث يقدمون قروضاً ضخمة غالباً إلى شخصيات ذات مكانة رفيعة - بمن فى ذلك السلاطين - ، ويحصلون على اختصاص ادارة التزامات هامة، كالتزام سك النقود. ولا يحدث ذلك دائماً دون ربود فعل من جانب الحكومة العثمانية، خاصة فى الفترات الصعبة : فمصادرة الممتلكات، والاعتقال، والنفى، بل والاعدام، تعتبر عندئذ السبل التى تستخدمها السلطة. إلا أنه لا يبدو أن مخاطر المهنة، ولا حتى اصلاحات سليم الثالث ومحمود الثانى الادارية، قد دفعت الممولين الأرمن الى التخلي عن مهنة جد مربحة، تجعلهم، علاوة على ذلك، على اتصال فى القسطنطينية وفى الثغور الكبرى مع ممثلى وتجار الدول الأوروبية. وفيما بعد، فإن لائحة عام ١٨٣٩ وبشكل أكبر لائحة عام ١٨٥٦ سوف تكرسان دورهم الاقتصادى والسياسى - بل والاجتماعى، من حيث كونهم ينتمون الى طائفة غير اسلامية - فى الدول العثمانية.

وعشية ارتقاء محمود الثانى العرش، تظل الدولة العثمانية دولة مرهوبة الجانب، مهيمنة على اراضٍ شاسعة. على انها ليست غير صورة لقوة تنتمى الى

الماضى، دون أن تتكيف مع الظروف السياسية والاقتصادية الجديدة : فهي ماتزال تحيا مثلما كانت فى القرن السادس عشر أو فى القرن السابع عشر وتجر ثقل ماض مجيد، إلا أن أوانه قد فات. وهى، على جميع الجبهات، تجد نفسها فى موقف دفاعى؛ فجهود سليم الثالث لم تكن كافية لتمكينها من اتخاذ الخطوة الحاسمة نحو دولة حديثة.

محمود الثانى وتقلبات السلطة (١٨٠٩ - ١٨٢١)

لابد بلا جدال من ارجاع التدشين الحقيقى للإصلاحات فى الامبراطورية العثمانية الى السلطان محمود الثانى. فعلى مدار عهده (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وبالرغم من الصعوبات الجسيمة مع الدول العظمى وفى بعض الولايات، انتهج سياسة ترمى الى تجديد النظام الادارى المتكلس للدولة، وأدخل تغييرات هامة فى الجيش وسعى الى تحويل أذهان الأوساط المؤثرة فى المجتمع العثمانى. ولا يحدث هذا دون مضايقات ولا دون مقاومات، بل ولا دون تمردات على المستوى الداخلى. وبوجه خاص فإن الامبراطورية تشهد حرمانها من عدة اجزاء من اراضيها إما انها حصلت على الاستقلال (اليونان)، أو على درجة جد عظيمة من الحكم الذاتى (صربيا ، مصر) : ففى تلك اللحظة نشهد بداية تمزق الامبراطورية العثمانية الذى تلعب فيه الشخصيات المحلية دوراً رئيسياً، من جهة، إلا انها، من جهة اخرى، تحصل من أجل تحقيقه على دعم غير نزيه من جانب الدول العظمى (روسيا، انجلترا، فرنسا). كما أن محمود الثانى، مدفوعاً أيضاً من جانب الدول العظمى، يعد فى نهاية الأمر مرسوم الإصلاحات الكبير الأول، ميثاق جولخانه، الذى لن يعلن إلا بعد أربعة شهور من موته (٣٠ يونيو / ٣ نوفمبر ١٨٣٩).

والحال أن هذه الوثبة ما كان يمكن لها ان تتم دون المساعدة، المهيمنة غالباً، من جانب القادة الشبان، القادمين الجدد على المسرح السياسى الذى سوف

يتصدرونه على مدار عدة عقود : إنهم المصلحون، الذين اطلعوا على وجوه التقدم المحرزة في الغرب حيث كان بعضهم قد اقام هناك، في مهمات تتعلق بالشئون الخارجية : والمثال الأكثر نموذجية هو مثال مصطفى رشيد باشا الذي يلعب، من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٥٨، دوراً من الدرجة الأولى في السياسة العثمانية، بعد أن كان سفيراً في باريس وفي لندن. الا أنه عند موت محمود الثاني، كان ثقل العادات والتقاليد ما يزال من القوة بحيث أن حركة الاصلاحات، على الرغم من النوايا المعلنة بشكل سافر وعدد من الانجازات، لم تمس غير عدد محدود من الأفراد ولم تكن لها أصداء واسعة في غالبية الولايات التي كانت ماتزال خاضعة للسلطة العثمانية.

ضغوط النظام السياسي

يرتقى محمود الثاني العرش وهو في الثالثة والعشرين من العمر. وخبرته السياسية آنئذ محدودة، إلا أنه كان قد تلقى تعليماً ممتازاً في القصر وهو يملك قدراً من الدراية بما يحدث في داخل الامبراطورية وخارج حدودها. وفي يوليو ١٨٠٨ لم يكن بعد رجل الدولة القوي : فهذا الدور يلعبه آنذاك الصدر الأعظم الجديد، مصطفى باشا بيرقتر، الرجل الذي يدين له السلطان بارتقائه العرش، والذي ادرك ضرورة وجود سلطة قوية، تستند الى جيش حديث، منظم ومنضبط وجيد التدريب، قادر على مواجهة تحركات الروس في الولايات الدانوبية؛ سلطة يمكنها الاعتماد على ادارة يمسها الاصلاح، سلطة يتوجب عليها أيضاً فهم مكانة ودور الأعيان الذين يتمتعون، في ولايات مختلفة، بنفوذ بعيد عن أن يكون تافهاً.

والواقع ان السلطان، بعد ان أزاح خصوم سليم الثالث، المدنيين والعسكريين على حد سواء، وبعد أن تسلم بسلطته المكتسبة في الساحة، يجمع في اسطنبول الأعيان الرئيسيين لولايات الامبراطورية لكي يقترح عليهم خطة للاصلاحات ولكي يناقشها معهم. وقد وافق على الدعوة عدد من أعيان الأناضول وروماليا، لكن

الأعيان الأكثر تميزاً بينهم تجنبوا الاستجابة لها : على باشا الجانيانوى، ومحمد على، الوالى الكلى الجبروت بالفعل فى مصر، وعدد من أعيان بلغاريا الذين يعتبرون خصوماً لبيرقتار، وغالبية قادة الولايات العربية.

إلا أنه يتم فى ٧ أكتوبر ١٨٠٨ توقيع مرسوم اتفاق (سند - اى اتفاق) تتمثل بنوده الرئيسية فيما يلى : الولاء للسلطان وللمثله الصدر الأعظم، تنظيم جيش جديد، التحصيل المنتظم والفعال للضرائب، تأمين حكم الولايات من خلال احترام الشرعية والعدالة، الاحترام المتبادل لأراضى ولنظام حكم كل ولاية، الموافقة على دعم الاصلاحات وعلى اتخاذ تدابير ضد المعارضين. ويتعهد السلطان من جهته بالأخذ غير الضرائب الشرعية والعادية. لكن هذه الوثيقة، التى كان يمكن لها ان تكون اساس دستور حقيقى للدولة العثمانية، لم يكن لها فى نهاية الأمر غير أثر محدود، وذلك لأنها، من جهة، لا تتضمن اى بند خاص باصلاح الجيش ولأنها، من جهة اخرى، لم يتم التوقيع عليها من جانب السلطان، الذى يرى انها تقدم للأعيان مزايا زائدة عن الحد؛ وأخيراً لأنها لم يتم التوقيع عليها إلا من جانب أربعة من القادة أو الأعيان، حيث غادر الآخرون الاجتماع قبل ان ينتهى، معلنين أن النص المقترح من شأنه تقييد سلطتهم الشخصية.

وفى ذات الوقت الذى يسعى فيه مصطفى بيرقتار الى ايجاد اتفاق بين قادة الامبراطورية، فإنه يجتهد فى اعادة تنظيم القوة العسكرية السابقة التى انشأها سليم الثالث، النظام الجديد. وهو يتوصل فعلياً الى تجنيد ٥٠٠٠ رجل، إلا أنه، سعياً منه الى تجنب أية معارضة أو مقاومة من جانب الانكشارية، يمنح هذه القوة اسم سييجبان - اى جديد (أو سيمين - اى جديد، الذى يعنى حرفياً : القوة الجديدة لخفر الكلاب، من اسم وحدة قديمة من وحدات الانكشارية)؛ وبسرعة بالغة يرتفع عدد هؤلاء الجنود الى ١٠٠٠٠ رجل، يقودهم ضباط سابقون فى النظام الجديد. كما تمس الاصلاحات البحرية. ويجرى التخطيط لادخال اصلاحات اخرى

على فيلق الانكشارية، لكن السلطان، خوفاً منه من ان يستغل هؤلاء ادخالها للتمرد من جديد، يحد منها بدرجة ملحوظة. والحال أن المشكلة التي يمثلها الانكشارية لن تحل إلا بعد ثمانية عشر عاماً.

والواقع ان بيرقتار يتصور أنه اقوى مما هو عليه فى الواقع. وهو يضايق السلطان بموقفه المتسلط والحاد، ويستثير سخط سكان العاصمة من جراء تصرفات أنصاره، ويزعج أعيان بعض الولايات (خاصة بلغاريا) بسبب أطماعه، كما يستثير سخط الانكشارية من جراء انشاء السيجبان - إى جديد ويفجر الانكشارية تمرداً جديداً يلقي خلاله مصطفى باشا بيرقتار حتفه (١٤ نوفمبر ١٨٠٨). ويعبر المتمردين عن عدد من المطالب، لكن السلطان يرد بحزم وتستمر المعارك بين الانكشارية والقوات الموالية للسلطان، وهى معارك يسقط خلالها العديد من الضحايا المدنيين (١٥ - ١٦ نوفمبر). وبينما يتم عقد تسوية فى ١٧ نوفمبر، تتضمن حل قوة السيجبان، فإن عدداً من هؤلاء الأخيرين يتعرضون للاعتداء والقتل على يد الانكشارية، شأنهم فى ذلك شأن بعض القادة المصلحين.

والحال أن محمود الثانى، الذى نجح فى انقاذ عرشه، يدرك منذ ذلك الحين انه لا سبيل الى تحقيق أى اصلاح اذا ما ظل المسكون بزمام نظام يعتبره عديم الصلاحية باقين فى مواقعهم، أكانوا عسكريين أم وكلاء حكوميين أم من الأوساط الحقوقية - الدينية. ويبدو له أن من الضرورى استعادة سلطته و ، ترتيياً على ذلك، سلطة الدولة. لكن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا اذا كانت الحكومة قادرة على الاعتماد على قوة عسكرية وعلى وكلاء عازمين على الدفاع عن الدولة لا عن امتيازاتهم. وفى المدى المباشر، ليس من الوارد الاعتماد على الانكشارية، عديمى الانضباط الى حد بعيد، ولا على السباهيين، جد المرتبطين بأعيان الولايات ؛ وفى المقابل، يتمتع السلطان بتأييد رجال المدفعية، الذين كان فيلقهم قد اعيد تنظيمه وتعزيزه فى مناسبات مختلفة فى القرن الثامن عشر، خلال عهد سليم الثالث، وعلى يديه هو

نفسه، كما كان يتمتع بتأييد البحرية، التي جردها القابودان باشا، محمد باشا خسرو، الذي تولى المنصب من عام ١٨١١ إلى عام ١٨١٨ ومن عام ١٨٢٢ إلى عام ١٨٢٧.

وبين صفوف الطبقة السياسية، كانت العقبات الرئيسية التي يواجهها محمود الثانى فى مجال تحديث الدولة مائة فى أعيان الولايات والعلماء. وفى مواجهة الأوائل، يحصل على عون واحد من أبرز الشخصيات العثمانية، محمد سعيد خالد افندى، السفير السابق فى باريس، ولكن المناصر أيضاً للنظام القديم فى ذات الوقت الذى يناصر فيه تعزيز السلطة المركزية وفيلق الانكشارية والعلماء: وهو ما يعنى أنه خصم لكل تحديث. وضد الأخيرين، يعتمد محمود الثانى على عدد من العثمانيين المنفتحين على التغريب، كالأميرال الأكبر محمد باشا خسرو، ورئيس الكتاب (المستول عن العلاقات الخارجية) جانب محمد بسيم افندى، الذى يحتل المنصب من عام ١٨١٧ إلى عام ١٨٢١، وخاصة محمد سعيد غالب باشا، النصير الحازم للإصلاحات، والخصم الثابت لخالد افندى والذى يسهم اسهاماً مباشراً فى ازاحته (نوفمبر ١٨٢٢). ومنذ تلك اللحظة، يضع محمود انصاره فى مناصب المسئولية فى الحكومة المركزية وفى مختلف الفيالق العسكرية. وساعتها يحوز السلطان إمكانات فرض الإصلاحات التى لا غنى عنها.

محمد على فى مصر : نموذج يجب الاقتداء به ؟

كان محمد على القوّلى، والى مصر، قد سبق السلطان فى هذا المجال. فإثر تنصيبه فى هذا المنصب فى يوليو ١٨٠٥، بعد أربع سنوات من انتهاء الحملة الفرنسية، كان عليه أن يستعيد السلطة العثمانية التى هددها الأعيان المحليون - المماليك - المدعومون من الانجليز. وقد انتصر فى نهاية الأمر على خصومه فى مارس ١٨١١ وفى أعقاب ذلك انتصر على الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية وانتزع منهم المدينتين المقدستين فى عام ١٨١٢؛ على أن الوهابيين لن يهزموا بشكل حاسم إلا خلال حملة أخرى، بين عامى ١٨١٨ و ١٨٢٠.

وفى مصر نفسها، يستميل محمد على العلماء الذين كانوا ضحايا للمماليك. وإذا يدرك ضعف ومصاعب حكومة اسطنبول الخاضعة لكثير من التقلبات، فإنه يقرر بسرعة بالغة تحويل مصر فى أن واحد إلى نموذج للتنظيم الحديث وقلعة لسلطته الخاصة، دون أن ينبذ مع ذلك السيادة العثمانية. ومستفيداً من خبرات الضباط وضباط الصف الفرنسيين الذين اختاروا البقاء فى مصر بعد عام ١٨٠١، يجتهد فى انشاء جيش حديث الطراز. إلا أنه لما كان الجنود العثمانيون قد أبدوا ما هو أكثر من مجرد التحفظ على اتباع هذا المفهوم العسكرى الجديد، فإن محمد على يبحث عن طريق آخر : فانشاء فيلق عسكرى من نوع النظام الجديد (النظامية)، يتألف من مجندين قادمين من القوقاز أو من افريقيا السوداء، سرعان ما يتكشف أنه غير مناسب، لأن ذلك يعنى احياء النظام المملوكى القديم. وإذا يستلهم آنذاك النماذج الفرنسية والانجليزية، فإنه ينظم جيشاً «قومياً»، مؤلفاً من فلاحين مصريين يتم اختيارهم عبر التجنيد ويتم تنظيمهم على ايدى ضباط اجانب ويجرى تدريبهم وتسليحهم وفق المبادئ الغربية (١٨٢٣). والحال أن هذا الجيش الجديد سوف يبرز تفوقه فى كريت، ثم فى اليونان تحت قيادة ابراهيم باشا، ابن محمد على، وفيما بعد فى سوريا بل وفى الأناضول.

كما سوف يجتهد محمد على فى تحديث الادارة وتنمية استغلال موارد مصر وإدخال محاصيل وصناعات جديدة، وفتح المجتمع المصرى على العالم الخارجى، وارسال طلاب الى اوربا وانشاء نظام تعليم جد حديث وتسهيل ظهور صحافة «قومية».

وخلال السنوات الخمس والعشرين الأولى لحكمه، سوف ينجز محمد على اصلاحات أكثر بكثير من الاصلاحات التى انجزها السلطان وسوف يدفع مصر فى طريق التحديث. وفى عام ١٨٣٠، لم يكن قد صاغ بعد كل مطالبه الاقليمية والسياسية : وسوف يكون العقد التالى شاهداً على اطماعه وانتصاراته واخفاقاته؛

على انه سوف ينجح فى ان يجعل من مصر ملكية وراثية متميزة عن بقية الامبراطورية العثمانية، وإن لم تكن منفصلة عنها تماماً.

وسوف يحنو محمود الثانى حذوه فى قطاعات مختلفة. وهكذا فإن نوعاً من التنافس فى الاتجاه الى التحديث سوف ينشأ بين الرجلين اللذين يبدوان الأكثر تمثيلاً لتطور العالم الشرقى فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

حروب أم إصلاحات؟

أدت معاهدة تيلسيت بين نابوليون الأول والقيصر الكسندر الى دفع انجلترا الى عقد صلح وتحالف مع الامبراطورية العثمانية (١٨٠٩). ويجرى استئناف الحرب بين العثمانيين والروس، إثر فشل مفاوضات ياسى بسبب دعاوى الروس الاقليمية. ويستولى هؤلاء الاخيريون على مواقع عثمانية فى اقليم الدانوب ويشجعون الصربيين، الذين يقودهم قره جورج، على النضال من أجل استقلالهم (١٨١٠). وإثر حملة كارثية فى البلقان (١٨١١)، يجرى العثمانيون مع الروس مفاوضات صلح يقبله هؤلاء الاخيريون بسهولة وذلك بالنظر الى أن نابوليون الأول يغزو روسيا. وتؤدى معاهدة بوخارست (مايو ١٨١٢) إلى إعادة مولداقيا وقلالاشيا الى العثمانيين، بينما يأخذ الروس بيسارابيا، لكنهم يعيدون الاراضى المحتلة فى القوقاز وعلى البحر الأسود؛ كما يحصلون على استعادة امتيازاتهم الدبلوماسية والتجارية وحماية المسيحيين الأرثوذكس؛ وأخيراً يتوصلون الى كسب اعتراف العثمانيين باستقلال صربيا الذاتى.

وعندئذ يودى استبعاد الخطر الروسى الى السماح لمحمود الثانى بتعزيز سلطته وسلطة الدولة العثمانية على الولايات البلقانية، عبر القضاء على الأعيان أو اختزال سلطتهم الى حد بعيد (١٨١٤ - ١٨٢٠). ويحدث الشيء نفسه فى الاناضول الشمالية والغربية، حيث يودى موت اعيان محليين مهمين الى المساعدة

على استعادة سلطة الولاة (١٨١٢ - ١٨١٧)، كما يحدث الشيء نفسه في العراق وفي سوريا الشمالية.

وفي صربيا، حيث لم يتم الحصول على الاستقلال التام المنشود، نجد أن قره جورج، بسبب سياسته التوحيدية المسرفة، يستثير ضده عدداً من الأعيان الذين يرحبون عن طيب خاطر بعودة العثمانيين (أكتوبر ١٨١٣). وبينما يهرب قره جورج إلى المجر، يتم الاعتراف بأحد خصومه المحليين، وهو ميلوش أوبرينوفيتش، أميراً لوسط صربيا. وعلى الرغم من أن ميلوش أوبرينوفيتش كان نصيراً لأجراء مفاوضات مع العثمانيين، فإنه ينجر إلى حركة عصيان جديدة (أبريل ١٨١٥)، تستفيد من تطور الأحداث في أوروبا : فالواقع أن هزيمة نابليون الأول في ووترلو تحرر القوات الروسية التي ترغب محمود الثاني على أن يجعل من صربيا إمارة تابعة - يتم الاعتراف بأوبرينوفيتش أميراً لها - وتتمتع بجمعية وطنية خاصة بها ويجيشها الخاص؛ على أن العثمانيين يجرى تمثيلهم في بلجراد عن طريق والٍ كما يمكنهم الاحتفاظ بحاميات في مواقع مختلفة من البلد (١٨١٧). وفي عام ١٨٢٩ فقط، عن طريق معاهدة ادرنه (آندرينوبل) يمنح العثمانيون الصربيين استقلالهم الكامل ويتم الاعتراف بميلوش أوبرينوفيتش عاهلاً وراثياً، وهو ما يدفع الصربيون في مقابله جزية سنوية مع السماح للعثمانيين بالاحتفاظ بعدد من الحاميات على الحدود. ويشكل اتفاق عام ١٨١٧ مرحلة، محدودة لكنها فعالة، على طريق تمزيق الامبراطورية العثمانية، كما يشكل تراجعاً لسلطات الدولة على إحدى ولاياتها.

وفي اتجاه الشرق، في إيران، أدت الأحداث السياسية إلى وصول سلالة حاكمة جديدة إلى السلطة، هي سلالة القاجاريين، التي سوف تظل على رأس البلد من عام ١٧٩٤ إلى عام ١٩٢٥. وفي عام ١٧٩٧، يرتقى العرش فتح علي شاه، الذي يتنازع الانجليز والفرنسيون على كسب وده بينما يطمع الروس في اقاليم القوقاز (١٨٠٠ - ١٨١٥). وتحت ضغط الروس، بعد عام ١٨١٥، يبحث فتح علي شاه عن تعويضات في اتجاه الغرب ويشن هجمات في العراق، الأمر الذي يدفع

محمود الثانى إلى اعلان الحرب عليه (اكتوبر ١٨٢٠). وتمنى الحملة العثمانية بهزيمة كارثية : فالإيرانيون يستولون على الأناضول الشرقية ويتقدمون فى كردستان (١٨٢١ - ١٨٢٢)، لكن وباء كوليرا جسيماً ينزل بالجيش الإيرانى. وفى نهاية الأمر، يتم توقيع اتفاق فى أرضروم (يوليو ١٨٢٣) يحصل فتح على شاه بمقتضاه على عدد من المزايا الإقليمية فى الأقليم الحدودى كما يحصل على حرية ممارسة التجارة والتوزيع فى الأناضول من جانب التجار الإيرانيين. ومنذ ذلك الحين سوف يؤدى الخطر الروسى المستمر على الحدود الشمالية للبلد الى حرمان شاهات ايران من أية محاولة جديدة للتوسع نحو أرض السلاطين العثمانيين الذين سوف يحافظون على الصلح معهم.

وترجع المحاولة الأولى التى قام بها اليونانيون بهدف الحصول على استقلالهم الى نشاط الشاعر كونستانتين ريجاس. وقد رأينا أن هذا الأخير قد أسس جمعية وطنية، هى جمعية هيتاريا، وانخرط فى أعمال ضد العثمانيين. والحال أن مغامرته، التى انتهت نهاية مأساوية فى عام ١٧٩٨، لم ينسها اليونانيون، وقد أعيد تأسيس جمعية هيتاريا قبل وقت قصير من مؤتمر فيينا، أولاً فى اوديسا (١٨١٤)، ثم فى القسطنطينية، تحت اسم جمعية الأصدقاء (فيليكى هيتاريا)؛ وقد سعت، بتحريك من شخصيات فنارية، الى الاتصال بقره چورچ، ثم بعلى تيبديدلين، ولكن دون أن يؤدى ذلك الى نتائج ايجابية. وعندئذ اتجه اعضاء الجمعية الى الحصول على دعم من الروس وروادتهم الرغبة فى ان يضعوا على رأسهم يونانياً من الجزر الايونية، قريباً من القيصر لأنه وزير الشؤون الخارجية، چان كاپوديستريا. وعند رفض هذا الأخير لعرضهم، وقع اختيارهم على الكسندر يبسيلانتى، وهو هوسبودار فنارى سابق فى فالاشيا وياور للقيصر. وتخطط الجمعية لشن عملياتها فى الپيلوپونيز بالارتباط مع عمليات يقوم بها الصربيون. لكن الزعيم الصربى الجديد، ميلوش أوبرينوفيتش، يميل الى اجراء مفاوضات مع الأتراك، وتختار الجمعية ويبسيلانتى العمل فى امارتى مولداقيا وفالاشيا، حيث يسيطر الفناريون على الادارة

ويحتفظون بصلات وثيقة مع رجال الدين المحليين ؛ وعلاوة على ذلك فقد كانت القوات العثمانية هناك جد ضعيفة ولم تكن القوات الروسية بعيدة.

ويجرى فى الآن نفسه اعداد خطة لانتفاضة فى اليونان، لكن تفجيرها يجب أن يتم عندما يجد العثمانيون أنفسهم منشغلين فى مولداقيا - فالاشيا بمواجهة الهجوم الذى يشنه يبسيلانتى وبالتصدى لعلى باشا فى ايبيروس. وفى فبراير ١٨٢١، ينتقل يبسيلانتى الى رومانيا ويحاول دون نجاح اثارة المسيحيين الأرثوذكس ضد العثمانيين ؟ ويكون رد الفعل العثمانى عنيفاً. وفى الوقت نفسه ينعقد مؤتمرا لايياش وتروپاو حيث يتنصل اعضاء التحالف المقدس من الحركات الانتفاضية : فالقيصر يُسَرَّحُ يبسيلانتى الذى يلجأ الى المجر (يونيو ١٨٢١) بعد الحاق الهزيمة به على يد الأتراك.

وقبيل ذلك، كان العثمانيون قد شنوا هجوماً عثمانياً قوياً ضد على الجانيانوى، ويتم حصار مدينة چانينا منذ اغسطس ١٨٢٠. وفى نهاية الأمر، يقبل على الاستسلام بشروط، يرفضها العثمانيون؛ ويجرى قتله فى ٢٤ يناير ١٨٢٢، الأمر الذى يضع حداً لمحاولة الانفصال فى البانيا الجنوبية وفى ايبيروس، ويحرر القوات العثمانية التى سوف يكون بوسعها التحرك فى اليونان ضد المتمردين.

والواقع أن چيرمانوس، بطريك پاتراس، سوف يستفيد من عمليات التشييت التى قام بها يبسيلانتى وعلى الجانيانوى ومن الحرب التركية- الايرانية لكى يعلن حرب التحرير فى ٢٥ مارس ١٨٢١. لكن هذه الحرب تدار بشكل غير منسق فى الپيلوپونيز وفى جزر بحر ايجى، ويتمثل احد الأعمال الأولى للمتمردين فى ذبح المدنيين الأتراك فى الموره، خاصة ذبح السكان المسلمين فى تريپوليتسا فى اكتوبر ١٨٢١. ومن جهتهم، فإن انكشارية اسطنبول قد اعتقلوا ثم شنقوا البطريرك الارثوذكسى وعدداً من رجال الدين الآخرين، بينما جرت مطاردة اليونانيين فى جميع انحاء الامبراطورية. وإذا كان المعسكران قد اقتربا اعمالاً فظيعة، فإنه يجب

التأكيد على أن الرأي العام الغربى لم يرد إلا على المذابح التى تعرض لها اليونانيون، والتى بلغت ذروتها فى مذابح شيو فى ابريل ١٨٢٢. ولم يرتفع صوت واحد للاعراب عن الأسف للمذابح التى تعرض لها الاتراك، وعلى العكس من ذلك تفجرت فى اوروىا حركة تعاطف مؤزارة للمتمردين.

والحال أن هؤلاء الأخيرين، فى مرحلة أولى تمتد الى عام ١٨٢٣، ينجحون فى السيطرة على جزء هام من الپيلوپونيز وعلى عدد معين من جزر بحر ايجه، وعلى ميسولونفى واثينا وثيبيس، شمالى خليج كورنثه. وفى ديسمبر ١٨٢١، ينعقد اجتماع لنواب يونانيين فى ايبيدور، يعلن استقلال اليونان ويصدر دستوراً، على غرار الدستور الذى صاغته الادارة فى فرنسا، ويشكل حكومة ويختار الكسندر مافروكرداتو رئيساً (٢١ يناير ١٨٢٢). وسرعان ما تصطدم الحكومة اليونانية الفتية بعداوة ثيودور كولوكوترونييس، المستاء من استبعاده من السلطة؛ وعندئذ يتشكل معسكران؛ على أن جمعية وطنية ثانية، منعقدة فى أستروس فى ديسمبر ١٨٢٢، تتصل من كولوكوترونييس. ولن ينتهى هذا الصراع الداخلى إلا فى اواخر عام ١٨٢٤، وسوف يكون ذلك لحساب مافروكرداتو وحكومته.

والواقع ان فشل اصلاحات سليم الثالث والهزائم العسكرية وبداية عملية انفصال مختلف الولايات قد دلت على ضرورة تجديد الامبراطورية من حيث مؤسساتها ومن حيث قواها الأساسية وضرورة استعادة سلطة السلطان وتسليم الحكومة لأشخاص مثقفين بالمفاهيم الجديدة وقادرين على تطبيقها. على أنه لم يكن من السهل النضال ضد ثقل التقاليد والامتيازات ومن أجل تغيير العقليات. وعلاوة على ذلك، فقد كان على السلطان ان يتمكن من الاعتماد على دعم القوى الأكثر تأثيراً فى الدولة، بدءاً بقوة العلماء، الذين تمكن من كسب تعاطفهم عن طريق موقف شديد التدين وعن طريق تشجيع التعليم التقليدى وترقية العلماء الأكثر تعاوناً. وفى الوقت نفسه، فقد لحق العار بالانكشارية، العاجزين عن حماية

الامبراطورية، ولكن الأكثر قدرة على العصيان والنهب. واقتداءً بما نجح محمد على فى الاضطلاع به فى مصر، كان يتوجب اصلاح الجيش و ، فى المقام الأول، فيلق الانكشارية.

وفى ١٢ يونيو ١٨٢٦، تظهر محاولة أولى لاعادة التنظيم مع انشاء الايشكينچيان، فيلق العسكريين المختارين من بين صفوف كتائب انكشارية العاصمة والمكرسين لتكوين نواة للجيش الجديد، عبر عدد من المزايا ولكن ايضاً عبر تكيف مع التزامات جديدة. وبعد ذلك بيومين، يتمرد الانكشارية، وينهبون قصر الصدر الأعظم ويطالبون برأس المصلحين. والحال أن محمود الثانى، مبدىاً القوة والاصرار، يحصل على دعم رجال المدفعية والضباط المؤيدين للاصلاحات، كما يحصل، اخيراً، على دعم العلماء الذين يتصلون من المتمردين. وفى ١٥ يونيو، بناءً على أمر من الصدر الأعظم، تقصف المدفعية الثكنات التى يتجمع فيها الانكشارية حيث يتم قتل غالبيتهم؛ وفى الأيام التالية، يتعرض من بقى منهم فى العاصمة للمطاردة والاعتقال والاعدام. كما تتم بسرعة تصفية البؤر القليلة للمقاومة فى الريف.

وفى اثر هذه الاحداث، يتم الالغاء الرسمى لفيلق الانكشارية، وكذلك لفيلق السباهيين، بينما يجرى اعتقال واعدام زعماء الطريقة البكتاشية الذين كانوا قد قدموا الدعم لهم وكانوا يعتبرون ملهمين لمعارضة الانكشارية للسلطان (يوليو ١٨٢٦). كما يجرى القضاء على جميع القوى والأجهزة المرتبطة بالانكشارية من قريب أو من بعيد. وقد نال هذا الانقلاب الاساسى اسم الوقائع الخيرية (الحدث السعيد)،

وبعد وقت قصير من ذلك جرى البدء بتنظيم جيش جديد، تحت قيادة سرعسكر (قائد عام). ويمس جهد التحديث سلاح الفرسان وسلاح المدفعية والاسلحة الأخرى على حد سواء والتى تشكل فى عام ١٨٢٧ الجيش المسمى

بالعساكر المنصورة المحمدية. كما يجرى تحديث البحرية وتحصل مدارس مهندسى الجيش والبحرية على قوة دفع جديدة ، و ، فى مارس ١٨٢٧، يتم انشاء مدرسة للطب العسكرى. وفى غضون ثلاثة اعوام، يحل محل الجيش العثمانى جيش جديد ، مدرب تدريباً أوروبياً على ايدى مدربين اجانب، لكنه يفتقر بعد الى تنظيم جيد والى التلاحم، بل والى المران. وسوف تظهر هذه العيوب خلال المعارك التى سوف يجرى شنها فى السنوات التالية ضد الروس وضد المصريين.

ولم يكن بالامكان الاضطلاع بمحاولة تحديث الدولة العثمانية دون مشاركة الأوساط ذات النفوذ، أكانت عسكرية أم مدنية أم دينية. وحتى قبل القضاء على فيلق الانكشارية، كان محمود الثانى قد تمكن من أن يكسب تأييداً لسياسته من جانب عدد معين من الضباط والعلماء والشخصيات من بينهم خالد افندى وغالب باشا وحسين باشا أغا وخاصة محمد خسرو باشا الذى تسنى له رصد الاصلاحات التى ادخلها على الجيش المصرى محمد على. وقد قدم اثنان من شيوخ الاسلام دعمهما الى السلطان خلال تلك الفترة الاولى للاصلاحات: السيد عبدالوهاب افندى (١٨٢١ - ١٨٢٢) ومصطفى عاصم (١٨١٨ - ١٨١٩ و ١٨٢٣ - ١٨٢٥). وكان على الاول والاخير التصدى لرود فعل العلماء التقليديين والمحافظين الذين كان عليهما الأذعان لهم احياناً، إلا انهما قد سمحا للسلطان مع ذلك بمواصلة سياسته التحديثية.

والحال أن هذه السياسة كانت تتطلب امكانات مالية هامة، كان يتعين تدبيرها إما عن طريق موارد جديدة أو عن طريق اعادة تنظيم الموارد القديمة. وهكذا فإن موارد ممتلكات وايرادات الخزانة السلطانية، التى كانت موجهة حتى ذلك الحين الى اوقاف خيرية ذات ادارة جيدة الى هذا الحد أو ذاك، يجرى منذ ذلك الحين نقل المسئولية عنها الى ادارة اوقاف خيرية (نظارة - اي اوقاف)، تدار بشكل صارم سعياً الى إمداد خزانة الدولة بمكاسب هذه الأوقاف. كما ان عدداً معيناً من

الالتزامات وعمليات جمع الرسوم والضرائب يجرى انتزاعها من المسؤولين عنها وتسليمها لإدارة جديدة، هي إدارة مقاطعات خزينيسى (حرفياً : خزانة الالتزامات)، والتي تتمثل مهمتها في تأمين انتظام مالية الجيش الجديد؛ كما ينطبق الشيء نفسه على البحرية. وتؤدي ضريبة أخرى، وسومات - أي جهادية (ضريبة الجهاد)، مفروضة على الحوانيت والأسواق، إلى المساهمة أيضاً في تأمين تمويل الجيوش. والحال أن هذه الموائمات المالية لم تكن دائماً تقبل عن طيب خاطر، خاصة من جانب العلماء الذين حرموا أحياناً من إيرادات غير تافهة، ومن جانب الملتزمين الذين شهدوا اختفاء مصدر هام للأرباح وكذلك من جانب التجار والحرفيين الذين جرى إخضاعهم لضريبة جديدة.

على أن تحديث الجيش، بفضل جميع هذه التدابير، يمكنه أن يمتد تدريجياً إلى المدفعية، التي تحتل مكانة أكثر أهمية في الجيش بشكل محدد، ولكونها أيضاً دعامة فعالة للحكومة، تساعد الخدمات المرتبطة بالجيش، كخدمات صناع الأسلحة، وتساعد الترسانات والمصانع المعنية. كما أن سلاح فرسان التيماريين يتوجب إدخال تغيير عميق عليه وأحكام السيطرة عليه وتسجيله، لكن المقاومة حيوية بين صفوف التيماريين الذين لا يقبل إتباع القواعد الجديدة من بينهم غير عدد قليل (١٨٢٨). وتؤدي ضرورات الحرب إلى إرغام السلطان وخسرو باشا، ملهم هذا التحديث، على أرجاء هذه التغييرات. ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للقوات غير النظامية، المجندة بين صفوف قبائل البدو الموجودة في روميليا (أولاد - أي فاتحان)؛ ويعاد تنظيمها في جماعات مكونة بالاعتماد على القرى التي يتوجب عليها تقديم عدد معين من الرجال ومساندة مالية يسهم فيها بشكل خاص السكان غير المسلمين في هذه القرى (١٨٢٨) . وبين عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٨، تحصل البحرية أيضاً على إعادة تنظيم، بفضل خسرو باشا وعزت محمد باشا طوبال. ويجري تعزيز المدرسة البحرية التي أنشأها سليم الثالث، ويتم تحديد هيراركية الضباط واختيار جنود البحرية وتحديث مدرسة مهندسي البحرية.

وتعرقل كارثة ناغارين البحرية (اكتوبر ١٨٢٧) هذه الجهود، لكن الوثبة كانت قد بدأت وسياسة التحديث تواصل مسيرتها. إلا أنها لا تستطيع تحقيق نتائج اكيدة فورية، كما تشهد على ذلك الانتكاسات أمام الروس فى ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وأمام المصريين بين عامى ١٨٣٢ و ١٨٣٩،

الحروب (١٨٢١ - ١٨٣٩)

اليونان : من الانتفاضة الى الاستقلال

فى عام ١٨٢٤، خلال الصراع بين الفصيلين اليونانيين، كان مايزال من المستحيل على محمود الثانى التدخل لاستعادة سلطته على البلد؛ ومن ثم فقد طلب العون من محمد على، الذى كان قد ابلى بلاءً حسناً فى شبه الجزيرة العربية ودفع مصر على طريق التحديث. وقد استجاب محمد على لهذا الطلب، وذلك بشرط الاعتراف به والياً على كريت والمورة (علاوة على مصر). والواقع أنه يرسل قوات تتمكن، تحت قيادة ابنه، ابراهيم باشا، من الاستيلاء على جزيرة كريت ومن النزول الى المورة (فبراير ١٨٢٥) ومن احراز انتصارات كثيرة على القوميين اليونانيين، بينما تنتهى قوات السلطان فى ختام عام بالاستيلاء على ميسولونقى (ابريل ١٨٢٥ - ابريل ١٨٢٦). وهكذا يبدو أن التمرد اليونانى قد سحق بسرعة.

وتثير النجاحات العثمانية قلق نيقولا الاول، قيصر روسيا الجديد، الذى توجد له مقاصد فى البلدان الأرثوذكسية (ديسمبر ١٨٢٥). وفى مارس ١٨٢٦، يوجه الى السلطان انذاراً لالزامه بمراعاة مقاصده وبالتسليم له بحق حماية مولدافيا وفالاشيا وصربيا: ويسلم محمود بذلك؛ كما أنه يضطر الى الاعتراف بالسيادة الروسية على القوقاز وإلى السفن الروسية حرية الملاحة فى المياه العثمانية (معاهدة آكيرمان، ٧ أكتوبر ١٨٢٦). وفى اسطنبول، تنشب مواجهة بين معسكرين: معسكر انصار الحرب، الذين لا يقبلون تنازل الدولة، ومعسكر دعاة

التريث، الذين يأملون في وساطة من جانب دولة أوروبية. وفي نهاية الأمر، يميل محمود الثانى إلى قهر التمرد اليونانى؛ وفي يونيو ١٨٢٧ ، تستولى قواته على اثينا.

وفي يوليو، يشكل الانجليز والفرنسيون والروس حلفاً يهدد بتدخل «لموازرة اليونانيين» إذا ما رفض السلطان كل وساطة، وهو ما يحدث في واقع الأمر. وعندئذ يتدخل اسطول فرنسى- انجليزى، ويحاصر الاسطول العثمانى، الذى انضم اليه الاسطول المصرى، فى ميناء نافارين : ويؤدى حادث الى تفجير المعركة التى يتم خلالها تدمير الاسطول التركى - المصرى وقتل ٨٠٠ من البحارة والجنود (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧). ويعيد هذا الحدث الأمل الى اليونانيين، ويعزل ابراهيم باشا فى الموره ويؤدى، بوجه خاص، إلى تشجيع تدخل الدول العظمى فى الشئون العثمانية، وهو تدخل توازره ايضاً فى الغرب صحافة ورأى عام سياسى مؤيدان بالكامل لليونانيين.

ويشدد السلطان موقفه ويرفض كل وساطة. وفي ٢٨ ابريل ١٨٢٨، يعلن نيقولا الأول الحرب عليه. وتتغلغل قواته فى آن واحد فى الأناضول الشرقية (الاستيلاء على كارس، يوليو ١٨٢٨، وعلى ارضروم ، يوليو ١٨٢٩)، وفى مولداقيا ودوبروجا وبلغاريا (يونيو - اكتوبر ١٨٢٨) وفى ثراس حيث تستولى على ادرنه (أندرينوپل، ٢٢ أغسطس ١٨٢٩)، بينما تنجح فرنسا وانجلترا فى اعادة ابراهيم باشا الى مصر وتتجهان، بعد تشكيل حكومة يونانية جديدة برئاسة چان كاپودستيريا، الى انشاء دولة يونانية مستقلة،

وفي نهاية الأمر، تنجح فرنسا وانجلترا، من خلال معاهدة أندرينوپل (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) المستكملة بمؤتمر لندن (فبراير ١٨٣٠) فى الحيلولة دون بتر الولايات الأوروبية للامبراطورية العثمانية لحساب روسيا. إلا أنه يتم اعلان استقلال اليونان الذى تضمنه الدول العظمى، كما يتم الاعتراف بالاستقلال الذاتى

لصربيا ومولدافيا وڤالاشيا؛ وتنتقل بيساربيا الى ايدي الروس الذين يحصلون على مزايا تجارية وعلى حرية مرور سفنهم التجارية فى المضائق.

ولاجدال فى أن العنصر الأكثر تمييزاً للنزاع اليونانى - التركى هو التدخل المباشر من جانب نول عظمى، غير روسيا أو النمسا، فى الشئون العثمانية. وكانت حملة بونابارت على مصر والمحاولات الانجليزية التى تلتها قد أشارت بالفعل الى اهتمام فرنسا وانجلترا بـ «المشرق»، الطريق المؤدى الى الهند وبلدان المحيط الهندى. وإذا كان هذا الجانب واضحاً باستمرار، فإن جوانب اخرى تأخذ فى الظهور، وتتمثل فى تغلغل نفوذ هذا البلد أو ذاك فى الامبراطورية العثمانية، أولاً عن طريق وجود الفنين والمستشارين وكذلك التجار، ثم عن طريق تكوين عملاء أكان ذلك فى اوروبا البلقانية أم فى الشرق الأدنى (فى هذا المجال، حقق الروس تقدماً كبيراً فى الولايات الدانوبية). كما أن التدخلات الدبلوماسية ووساطات فرنسا أو انجلترا تعتبر وسائل للتأثير على السياسة العثمانية وفرض وجهات النظر الغربية أكان ذلك فيما يتعلق بالشئون الخارجية أم بالادارة الداخلية للدولة: وتنشأ التنظيمات (الاصلاحات) عن ذلك بشكل مباشر.

ولا تقتصر الأطماع الغربية على شرقى البحر المتوسط: ففي يونيو ١٨٣٠، ينزل الفرنسيون قرب مدينة الجزائر، بهدف الاستيلاء على الجزائر، التى كانت ماتزال ولاية عثمانية. وسوف تكون عملية الفتح طويلة، لكن الدولة العثمانية، المنشغلة بالمسألة المصرية، ثم بالصعوبات الماثلة فى سوريا وفى لبنان، لن تتمكن من عرقلة تلك العملية: وهكذا فإن تمزيق الامبراطورية العثمانية يجرى الآن على قدم وساق.

الحرب مع مصر

فى المسألة اليونانية، خسر محمد على، والى مصر، الكثير: فقد تم تدمير أسطوله فى نافارين و، بينما كان يأمل فى حكم كريت والمورة، اضطر الى الجلاء

عن هذين البلدين تحت ضغط الفرنسيين والانجليز، ولم يحصل من السلطان على شيء لقاء العون الذي قدمه اليه. وهو يطلب منه حكم سوريا من باب التعويض، لكن محمود الثانى يرفض ذلك ويعرض عليه حكم كريت. ويجيب رفض محمد على الذى يدفع، تحت حجج مختلفة، قوات ابراهيم باشا الى فلسطين وسوريا: وفى اقل من عام تسقط فلسطين كلها ولبنان وولاية دمشق فى ايدى المصريين (نوفمبر ١٨٣١ - يونيو ١٨٣٢). وعندئذ يجرد محمود محمداً علياً من وظائفه ويعد حملة ضده: ويلحق ابراهيم باشا الهزيمة بالجيش العثمانى فى شمالى سوريا. على أن محمد على لا يدفع مكاسبه الى أبعد من ذلك، آملاً فى نيل سوريا عن طريق المفاوضات. ويرفض محمود الثانى من جديد: ويجهز جيشاً آخر تحت قيادة الصدر الأعظم محمد باشا رشيد، وهو ما لا يمنع ابراهيم باشا من الانتقال الى الأناضول، واحتلال قونية التى يتم الحاق الهزيمة بالجيش العثمانى على مقربة منها (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) ثم الاندفاع الى كوتاهيه (فبراير ١٨٣٣) حيث تراوده فكرة الوصول الى بورصا نفسها.

وأمام هذا الخطر، يطلب السلطان العون من القيصر نيقولا الأول. ويستجيب هذا الأخير لهذا الطلب لأنه ينظر بعين الخطر الى قيام دولة مصرية قوية فى الشرق الأدنى، من شأنها تهديد مراميه فى المنطقة. لكن الفرنسيين والانجليز يتدخلون لفرض اتفاق بين الأتراك والمصريين، بينما ترابط قوات روسية على ضفاف البسفور، بهدف حماية اسطنبول من هجوم محتمل. إلا أنه يتم توقيع معاهدة فى ٢٩ مارس ١٨٣٣ فى كوتاهيه بين الأتراك والمصريين: وبموجب هذه المعاهدة يصبح ابراهيم باشا والياً على سوريا وقيليقيا والحجاز، فى حين أن محمد على، الذى يتم تثبيتته فى منصبه كوال على مصر، يحصل أيضاً على كريت. على أن هذا الاتفاق لا يرضى نيقولا الأول؛ وعن طريق الضغط على السلطان وسحب اسطوله من البسفور، يتوصل الى توقيع معاهدة هونكار ايسكليسى (٨ يوليو ١٨٣٣)، التى تؤكد معاهدة آندرينوپل لكنها تنص بوجه خاص على اغلاق

المضائق أمام جميع السفن الحربية، وهو ما يحرر روسيا من كل تهديد فرنسي أو انجليزى فى البحر الأسود.

والواقع ان أحداً، ماعدا الروس، لا يرضى بهذه المعاهدات. فمحمود الثانى يدرك أن الاصلاحات العسكرية لم تؤت النتائج المتوقعة وأنه بحاجة الى الصلح لمواصلة الاصلاحات المدنية؛ وهو يجتهد فى مواجهة سياسة ابراهيم باشا، وفى التحالف مع سكان سوريا بالتشجيع على نشوب تمردات هناك. أما الانجليز فإنهم يسعون الى زيادة توتر العلاقات بين الأتراك والروس؛ وبسبب انزعاجهم من تقدم محمد على فى الشرق الأدنى، خاصة صوب جنوبى شبه الجزيرة العربية وعدن، وكذلك بسبب انزعاجهم من تطور مصر الاقتصادى، فإنهم يتخذون موقفاً ضده، يدعمه الفرنسيون، من جهة اخرى؛ أما محمد على فهو لا يريد الاكتفاء بالحكم الذاتى ويسعى الى نيل الاستقلال التام.

وتعتبر سنوات ١٨٣٥ - ١٨٣٨ فترة سلم مسلح، يعزز محمود الثانى خلالها جيشه ويتقارب مع البريطانيين (معاهدة بالتا ليماى، فى اغسطس ١٨٣٨، التى تمنحهم مزايا اقتصادية). وفى ابريل ١٨٣٩، تزحف القوات العثمانية صوب سوريا الشمالية، لكنها تمنى بهزيمة قاسية فى نصيبين (٢٤ يونيو ١٨٣٩) ويستسلم الاسطول العثمانى فى الاسكندرية، بينما يستولى الانجليز على عدن. ويموت محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ١٨٣٩، تاركاً لخليفته عبدالمجيد الأول وضعاً صعباً.

وفى يوليو ١٨٤٠، توجه الدول العظمى، باستثناء فرنسا، انذاراً الى محمد على يرد عليه بالرفض. وعندئذ تتدخل الحكومة الفرنسية وتدعو محمد على الى التفاوض، وذلك بقدر ما أن الانجليز يمارسون تهديداً خطيراً على سواحل لبنان وعلى الاسكندرية. وفى نهاية الأمر يتم عقد اتفاق : وبموجب هذا الاتفاق يعترف السلطان لمحمد على بالولاية الوراثية على مصر، بلقب الخديوى؛ وفى المقابل، يلتزم هذا الأخير باعادة الاسطول التركى ويتنازل عن سوريا ويخفض جيشه (نوفمبر).

وبعيد ذلك، يجلو عن الحجاز من تلقاء نفسه ويحصل من السلطان على الاعتراف بسلطته على وادى النيل حتى جنوب السودان.

وفى يوليو ١٨٤١، تلغى معاهدة لندن معاهدة هونكار اسكيليسى، وتنص بشكل رئيسى على استمرار اغلاق المضائق امام السفن الحربية الأجنبية مادام الباب (العالى) فى حالة سلم (الاتفاق بشأن المضائق). وفى هذه المسألة المصرية، تخسر الدولة العثمانية من جديد لأن ولاية اخرى تنفصل عنها؛ وسوف تنفصل عنها أكثر فأكثر الى ان يحتلها الانجليز (١٨٨٢).

والحال ان محمد على، مع اتباعه سياسة خارجية نشطة، يضطلع بتحديث مصر وبتعزيز سلطات الحكم فيها. ويؤدى اصلاح زراعى الى تجريد الممالك من شبه جميع اراضيهم التى تصبح ملكية للدولة التى تتيح للفلاحين الانتفاع بها؛ ويحدث الشىء نفسه بالنسبة لأراضى الأوقاف. ويتوجب على الفلاحين زراعة المحاصيل وفقاً لتوجيهات الحكومة التى تتسلم منهم محاصيلهم. وهذه النزعة التوجيهية تشجع على زراعة القطن طويل التيلة، بمبادرة من الفرنسى جوميل، وزراعة منتجات التصدير.

ويعتبر تقدم الصناعة أقل ثباتاً وذلك بسبب عدم تكيف المصريين مع التقنيات الجديدة، ومن هنا اللجوء الى فنيين اجانب. وفى الآن نفسه، يتم وضع التجارة المصرية ايضاً تحت سيطرة الحكومة التى تنزع الى القضاء على آثار الامتيازات، ولكن، هنا ايضاً، قاد عدم التكيف والاسراف فى النزعة التوجيهية إلى حالات من الفشل احياناً. وفى نهاية الأمر تشهد التجارة الخارجية عودة الى الليبرالية التى تناسب الأجانب ووسطائهم المحليين، اليونانيين والسوريين.

وبشكل موازٍ لهذه الاصلاحات، يتجه محمد على الى تحويل وتحديث نظام التعليم التقليدى ويفتح الأبواب امام اطلاع المثقفين على الثقافات الغربية، الايطالية ثم الفرنسية. ويصل المثقفون المصريون الأوائل الى فرنسا فى عام ١٨٢٦ تحت

اشراف رفاعة الطهطاوى، الذى سوف يتأثر تأثراً عميقاً باقامته هناك (١٨٢٦ - ١٨٣١). كما يطلب محمد على عون الفنانين الفرنسيين : كلوت بك ، فى مجال الطب، والكولونيل سيف (سليمان باشا فيما بعد)، فى المجال العسكرى ولينان دو بيلفوند، فى مجال السدود والقنوات. والحال أن روح الاصلاح والتجديد هذه، المعروفة فى فرنسا، تحفز عدداً من السان - سيمونيين، مع الأب انفانتان، الى محاولة غرس مذهبهم فى مصر. ولا يكتب لمشروعهم النجاح، لكن ذلك لا يقلل من واقع أنه قد تم منذ ذلك الحين إيجاد علاقات وثيقة مع الغرب وأن مصر قد أصبحت بيدقاً مهماً فى اللعبة السياسية والاقتصادية فى شرقى البحر المتوسط والواقع ان شق قناة السويس فى عام ١٨٦٩ يعتبر شاهداً أكيداً على ذلك.

الضغط الدولى. فتح الجزائر

ترتبت على الأحداث التى دارت منذ أواخر القرن الثامن عشر نتائج يستحيل معها دراسة تاريخ الامبراطورية العثمانية دون الاشارة الى الدور الذى لعبته الدول العظمى: ففى وجه محاولات الزحف الروسى صوب البحر المتوسط نجد رغبة الانجليز فى حماية طريق الهند، لكننا نجد ايضاً عزم الفرنسيين الذى لا يريدون الغياب عن تلك المنطقة باسم حضور قديم وباسم حماية المسيحيين.

وهذا الضغط من جانب الدول العظمى يتم إما بشكل مباشر على الحكومة العثمانية، أو بشكل غير مباشر عن طريق الدعم الذى يجرى تقديمه الى التمردات أو الانتفاضات المحلية: وهو يظهر تحت شكل حروب واحتلالات للاراضى يتم تقنين نتيجتها، أولاً يتم، عن طريق معاهدة، وبشكل غادر احياناً، يجرى تمزيق الامبراطورية تحت ستار حماية الاقليات الدينية أو الاثنية، أو المصالح الديبلوماسية أو التجارية لهذه الدولة أو تلك. وفى أعقاب التوسع الاقتصادى فى القرن السابع عشر، والتوسع السياسى وقبل الكولونىالى فى القرن الثامن عشر،

يجب التوسع الاقليمي الذي يتم على حساب الامبراطورية الأقرب، والأكثر تشتتاً والأكثر هشاشة. وفي هذه الصراعات التوسعية، تظهر الحكومة العثمانية بوصفها بيدقاً يتم استخدامه بحسب الاحتياجات أو الظروف، دون تمكينه ابداً من أن يكسب شيئاً. وهكذا ينهمك الروس والفرنسيون والانجليز في تنافس على مكاسب دبلوماسية جديدة : وتصبح المسألة الشرقية احتكراً لدول الغرب.

والحال ان استخفاف الغربيين بالسيادة العثمانية يجد تعبيراً واضحاً بشكل خاص عنه في احتلال الجزائر على ايدي الفرنسيين. فولاية الجزائر، التابعة للامبراطورية العثمانية، تتمتع، شأنها في ذلك شأن ولايات المغرب الأخرى (تونس، طرابلس الغرب)، بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي، لكن العلاقات الرسمية، على الرغم من إحتزالها الى ادنى حد، تستمر قائمة بين الجزائر واسطنبول. وكانت القرصنة، حتى نهاية القرن الثامن عشر، أحد أهم موارد داي الجزائر؛ على ان ربود الفعل، العنيفة احياناً، من جانب الدول، قد عرقلت هذا النشاط، الذي حلت محله شيئاً فشيئاً تبادلات تجارية طبيعية أكثر مع مختلف الدول. وهكذا فقد قام الجزائريون بتصدير القمح الى فرنسا خلال عهد الادارة، لكن الحكومة الفرنسية لم تسدد ثمن هذه الشحنات؛ وفيما بعد، تأخذ العلاقات بين الجزائر وفرنسا النابوليونية في التدهور ويأخذ الدين الفرنسي في التزايد. وعلى الرغم من اتفاق في عام ١٨١٧، ثم في عام ١٨٢٠، فإن العلاقات لا تشهد تحسناً وينشأ توتر يلعب فيه القنصل الفرنسي بوقال دوراً أساسياً؛ وتضاف الى ذلك مشكلات تتعلق بالمنشآت الفرنسية على الساحل الجزائري، بون ولاكال، وتتعلق بحقوق امتياز شركة افريقيا.

كما أن دولاً عظمى أخرى تتدخل في الحياة السياسية والاقتصادية للجزائر. وسرعان ما يأخذ الانجليز مكان الفرنسيين في تجارة القمح في بداية القرن التاسع عشر، لكن عدم تجديد الاتفاقات ورفض دفع الديون الجزائرية للانجليز

والهولنديين يجران الى قصف مدينة الجزائر من جانب اسطول انجلو - هولندي (١٨١٦). وفي العام نفسه، تتوصل الولايات المتحدة الى دفع الجزائر الى التخلي عن تحصيل اتاوة سنوية. وفي عام ١٨١٩، يحاصر اسطول انجلو - فرنسي الاسطول الجزائري؛ وفي عام ١٨٢٤، يساند الفرنسيون تمرداً من جانب قبائل البربر ضد حكام الجزائر، وفي عام ١٨٢٧ يتم تدمير اسطول الداي خلال معركة نافارين.

ويجد شن التدخل الفرنسي في الجزائر ذريعتة في حادث ٣٠ ابريل ١٨٢٧ بين الداي حسين وقنصل فرنسا («ضربة المنشة»). ويقع عدد من الحوادث اثر قطع العلاقات في يونيو ١٨٢٧. وبوجه خاص، يؤدي ضغط الأوساط السياسية والاقتصادية الفرنسية الى اتخاذ قرار بارسال جيش للاستيلاء على الجزائر: ويتم أول انزال للقوات في ١٤ يونيو ١٨٣٠. وفي ٥ يوليو، يستسلم الداي حسين. ويعيد ذلك، يعلن باي تيتيرى وباي وهران خضوعهما، بينما يتمسك باي قسنطينة بموقف الحذر. وفي اثر ذلك، ينتشر الاحتلال الفرنسي، لكن قسنطينة تقاوم (١٨٣٦)؛ والحال ان باي تلك المدينة، حاجي أحمد، يسعى عبثاً الى المساومة بانتصاره، لدى الفرنسيين ولدى السلطان على حد سواء. وفي عام ١٨٣٧، تسقط قسنطينة، لكن ذلك لا يدفع حاجي أحمد الى الكف عن النضال، فهو يطلب نون توقف، ودون نجاح، عون السلطان العثماني. والحال أن هذا الأخير، المنشغل الى أقصى حد بشئون البلقان وخاصة بالنزاع مع مصر، لا يستطيع تقديم شيء لحاجي أحمد ولا تنجح الدبلوماسية العثمانية، في باريس كما في اسطنبول، في التدخل بشكل فعال لدى الحكومة الفرنسية.

وفي ولاية تونس المجاورة، يحتفظ البايات بعلاقات طيبة مع حكومة اسطنبول وذلك الى اللحظة التي يتدخل فيها السلطان في طرابلس الغرب، حيث تتم اعادة الادارة العثمانية المباشرة عبر ازالة سلالة الكرمانلية الحاكمة، إثر الاحداث

الجسيمة التي تدور في طرابلس الغرب بين عامي ١٨٣٢ و ١٨٣٥، وبالنظر الى تخطيط حسين، باي تونس، للاحاق هذا البلد، وفي ظل حكم الباي أحمد (١٨٣٧ - ١٨٥٥)، تتوتر العلاقات من جديد، حيث حصل أحمد على دعم من الفرنسيين الذين وصل بهم الأمر الى حد التخطيط لتوليته على قسنطينة، وهو مشروع لم يكتب له النجاح. وعلى الرغم من عدد من الحوادث، ومن ان العلاقات التركية - التونسية تشهد توترات معينة، فإن العثمانيين لا يريدون لتونس ان تفلت من سيادتهم في وقت تتلاشى فيه هذه السيادة في اقاليم مختلفة، خاصة في الجزائر؛ ومن جهتهم، لا يريد التونسيون ان يجدوا انفسهم محرومين من تلك السيادة التي تشكل بالنسبة لهم ضمانا معينة ضد الدول الغربية.

الاصلاحات (١٨٣٠ - ١٨٣٩)

ليس هناك ما يدعو الى الشك في نوايا محمود الثاني الاصلاحية ولا في قدراته على تحقيقها. وقد كابد هو نفسه في صباه وشبابه الكثير من الأحداث، التي وصل بعضها الى حد تهديد حياته، مما جعل من المستحيل عليه السماح باستمرار التمزيق الداخلي للحكومة العثمانية والفوضى التي ينذر ذلك باغراق الدولة فيها. وإذا كانت الاصلاحات العسكرية قد سادت خلال الجزء الأول من السلطنة، فإن الجزء الثاني، من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٣٩، قد تم تكريسها، في المقابل، للاصلاحات «المدنية»، بوجه خاص.

الشخصيات الفاعلة

إن هذه الرغبة في الاصلاحات لا تقتصر على السلطان وحده : ذلك ان عدداً معيناً من الشخصيات العثمانية يتقاسم بحزم هذه الوجة من النظر، ومما له دلالة ان السلطان محمود قد اعتمد على هذه الشخصيات خلال تلك الفترة، حيث يرد الاعتبار ايضاً للاستمرارية في تولي الوظائف الرئيسية : وهكذا فبين عامي ١٨٢٩ و ١٨٣٩ لا يتولى منصب الصدر الأعظم غير رجلين : محمد باشا رشيد

من عام ١٨٢٩ الى عام ١٨٣٣ ومحمد أمين روف باشا من عام ١٨٣٣ إلى عام ١٨٣٩، وكلاهما من انصار الاصلاحات. أما الوظائف الاساسية الأخرى فيتولاها رجال في صدر الشباب نسبياً منفتحون على تحديث الدولة بدافع من الوعي الشخصي أو بدافع من العلم الذي حصلوا عليه أو تحت تأثير اتصالاتهم بالأوساط الأجنبية أكان ذلك في العاصمة أم في السفارات الموجودة في أوروبا حيث تسنى لعدد منهم العمل كأمناء ورصد سير عمل مختلف الدول الأوروبية عن قرب.

والحال أن عدداً من هؤلاء الرجال قد تركوا بصماتهم بشكل فعال على ذلك العهد: وقد رأينا بالفعل دور محمد خسرو باشا، الأكبر سناً بينهم، والذي انكب على تحديث البحرية ثم انكب بعد عام ١٨٢٦ على تحديث الجيش؛ ومحمد سعيد پيتريف باشا، الذي كان رئيساً للكتاب (مستولاً عن الشئون الخارجية) من عام ١٨٢٧ إلى عام ١٨٣٠، ومساعداً للصدر الأعظم من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٣٦، ثم وزيراً للداخلية من عام ١٨٣٦ إلى عام ١٨٣٧، تاريخ وفاته؛ وعاكف باشا، رئيس الكتاب من عام ١٨٣٢ إلى عام ١٨٣٥، والوزير الأول للشئون الخارجية من عام ١٨٣٥ إلى عام ١٨٣٧ (خارجية ناظرى) عند انشاء تلك الوزارة، ثم وزيراً للداخلية (داخلية ناظرى) بعد عام ١٨٣٧؛ وبشكل خاص مصطفى رشيد باشا، زعيم الحركة الاصلاحية منذ الثلاثينيات، والسفير لدى باريس (١٨٣٤ - ١٨٣٥ و ١٨٣٥ - ١٨٣٦)، ولدى لندن (١٨٣٦ - ١٨٣٧)، ووزير الشئون الخارجية (١٨٣٧ - ١٨٣٩) والذي سوف يكون بعد عام ١٨٣٩ صداراً أعظم عدة مرات.

والواقع أن مصطفى رشيد باشا كانت لديه تصورات جد محددة عن الاصلاحات التي يجب الاضطلاع بها. وقد سمحت له وظائفه في الادارة المركزية، ثم في مجال العلاقات الخارجية، بالتعرف على عيوب النظام، والاختفاء التي يجب تصحيحها والمشكلات المطروحة وكان امامه ايضاً مثال البلدان الأوروبية. وقد أصبح شيئاً فشيئاً الشخصية الأولى في الدولة بعد السلطان. وكان نفوذه عظيماً،

وقد عرف جيداً كيف يمارس عمله ممارسة عميقة وقد وضع لهذا الهدف الرجال المشمولين بحمايته، المسئولين الذين يمكنه الاعتماد عليهم، فى المناصب ذات المسئولية فى الدولة. وأخيراً فإنه هو الذى يعد سلسلة الاصلاحات المنصوص عليها فى خط جولخانه الشريف، فى عام ١٨٣٩، والذى يقدمه باحتفاء الى ممثلى الدول العظمى. ولاجدال فى أن مصطفى رشيد باشا قد ترك بصماته على حياة الدولة من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٥٨، تاريخ وفاته؛ وسوف يواصل عمله محمد أمين على باشا ومحمد فؤاد باشا.

التجديدات

تمس الاصلاحات التى ادخلت بعد عام ١٨٣٠ الادارة المركزية وادارة الولايات بالدرجة الأولى. واذا كان بعضها لا يعدو ان يكون شكلياً بصورة خالصة، فإنها تتعلق فى واقع الأمر بتحول حقيقى فى الحالة الذهنية، ويتحول محسوس لهيكل وسير عمل الدولة يمس ليس فقط الأشخاص، وانما ايضاً العادات وتصور الدولة نفسه.

فالحكومة المركزية، التى جرت العادة على تسميتها بالباب العالى، يرأسها صدر أعظم يتخذ خلال وقت معين لقب الوزير الأول (باش وکیل). وتتقسم الحكومة الى وزارات وادارات : وعندئذ يصبح النظار وكلاء (وزراء)؛ والشئون الداخلية يختص بها مساعد الصدر الأعظم (صدارة كيتخوداسى) الذى يصبح، فى عام ١٨٣٦، امور - اي ملكيه ناظرى (مدير شئون الدولة)، ثم وكيل - اي داخلية (وزير الداخلية) فى عام ١٨٣٧؛ اما نظارة - اي دعاوى (ادارة الشئون القضائية) فتحل محلها نظارة - اي عدليه (ادارة العدل)، ثم وكالة - اي عدليه (وزارة العدل). وأما الشئون المالية (خزانة الجيش، الخزانة السلطانية، النقود) فيجرى تجميعها فى نظارة - اي امور - اي مالية، وفيما بعد وكالة - اي مالية (وزارة المالية). وأما

الشئون الخارجية الموضوعة تحت سلطة رئيس الكتاب فتصبح فى عام ١٨٣٦ وزارة حقيقية (وكالة - اى خارجية)، التى تتبعها ايضاً التجارة الخارجية (منذ عام ١٨٣٦ ، جرى توقيع معاهدات تجارية من نوع حديث مع دول مختلفة). وفى عام ١٨٣٨ ، يجرى انشاء مجلس للزراعة والتجارة (مجلس - اى زراعة وتجارة)، الذى يتم تحويله الى مجلس للاشغال العامة (مجلس - اى نافعه)، الذى تفصل عنه وزارة التجارة (نظارة - اى تجاره).

ويجرى فحص نشاطات الوزارات واتخاذ قرارات بشأنها فى مجلس وزراء السلطان (مجلس - اى خاص - اى وكلاء)، المسمى ايضاً بمجلس - اى خاص (مجلس السلطان) وبمجلس - اى وكلاء (مجلس الوزراء). وفى عام ١٨٣٨ ، يجرى انشاء مجلس للباب العالى (مجلس - اى شورى باب - اى عالى) تتمثل مهمته فى دراسة مشاريع القوانين.

والحال ان هذه التحويلات للحكومة المركزية كانت مصحوبة باصلاحات تمس رعايا الامبراطورية : وهكذا يجرى الاتجاه الى اجراء تعدادات للسكان والى مسح للأراضى بهدف ايجاد توزيع أكثر عدالة للضرائب، التى تحدد من حيث المبدأ بحسب دخول كل واحد. ولا يجرى بعد جمع الضرائب على ايدى ملتزمين مختصين، بل على ايدى موظفين يحصلون على مرتبات من الحكومة المركزية، هم المحصلون، الذين يشرف عليهم حكام الولايات؛ وهؤلاء الآخرون لا يحوزون بعد سلطة على الحاميات التى تتبع اسطنبول مباشرة منذ ذلك الحين. لكن جميع هذه الاصلاحات لا يتم تطبيقها إلا بشكل تدريجى (ان ولاية بورصا، أو خوداقينديجار، هى التى تصبح ساحة أولى للتجربة)، ويتطلب تطبيقها بشكل خاص كوادى لا وجود لها بعد أو ذات تأهيل غير كاف، خاصة فى الولايات.

وبناءً على ذلك، فإن عدداً من الاصلاحات يمس ايضاً موظفى الدولة الذين يجرى فى عام ١٨٣٥ تصنيفهم فى ثلاث فئات : الكوادى المدنية (قلميه - وهى كلمة سوف تحل محلها بعيد ذلك كلمة ملكية)، الكوادى العسكرية (سيفيه) والكوادى

الحقوقية - الدينية (علمية) والتي تتبع، بحسب الترتيب، الصدر الأعظم، والقائد العام للجيش (سر عسكر) وشيخ الاسلام. ويتم تأسيس هيراركية من تسع درجات بين هؤلاء الموظفين، الذين لا يحملون بعد لقب قول (خادم السلطان)، بل لقب مأمور، ويحصلون على راتب محدد بحسب وظيفة ودرجة كل واحد؛ ويمكن معاقبتهم، في حالة المخالفة، عن طريق إعمال تشريع خاص (جزاء قانوناميسى).

وفي وزارة الشؤون الخارجية يتم انشاء مدرسة للمتترجمين وانشاء مكتب للترجمات (ترجمة أوضاسى) حيث يعمل بشكل رئيسى عدد من الاتراك - أو من المستوعبين - وليس بعد من اليونانيين، ويتخرج موظفون تحركهم حالة ذهنية جديدة، ويتميزون باصرارهم على تطبيق الاصلاحات؛ كما تظهر المدرسة الأولى الموجهة الى تأهيل موظفين مدنيين.

اما الجيش، الذى لم يتألق فى المعارك ضد قوات محمد على، فإنه يصبح، هو أيضاً، موضع اصلاحات جديدة، يدفع فى اتجاهها ويطبقها مستشارون وفنيون اجانب، روس وانجليز وبروسيون (بينهم الملازم فون مولتكه)، إلا أنه لا يوجد بينهم فرنسيون، وذلك بسبب المساعدة التى قدمتها فرنسا الى محمد على. فالجيش، الموضوع تحت قيادة السر عسكر وحده، يسمى بالعساكر المنتظمة («القوات المنظمة» ١٨٣٨)؛ وهو يتألف من سلاح (آلاى) المشاة وسلاح الفرسان المشكل من وحدات ريفية، وسلاح المدفعية الذى يدربه خبراء بروسيون؛ وفى ١٨٣٣ - ١٨٣٤ يجرى انشاء قوة احتياط (رديف) تتم تعبئتها وقت الحاجة، لكنها موجهة بشكل خاص الى ضمان الأمن المحلى للسكان. ومن المؤكد أن القضاء على الانكشارية قد قوبل بالترحيب من جانب مجموع السكان، الذين غالباً ما كانوا ضحية لتجاوزاتهم. ويرتدى جنود الجيش الجديد زياً موحداً، وغطاء رأس أبسط، هو الطربوش الفاسى، الذى يعتبر تعديلاً للشيشيا التونسية يحل محل العمامة القديمة. اما جميع الخدمات فهى تتبع الجيش : فالترسانات، ومصانع السلاح

ومختلف المصانع يجرى اعادة تنظيمها وتحديثها؛ وفي ابريل ١٨٣٩، تنتقل الشؤون المالية العسكرية الى الادارة المباشرة لوزير المالية. ولا تبدأ كل هذه التدابير فى إحداث اثرها الفعلى إلا بعد عام ١٨٣٩.

أما الخدمات الحضرية التى كانت فى السابق من اختصاص الانكشارية، كخدمات الشرطة أو رجال المطافىء، فهى تصبح منذ ذلك الحين من اختصاص اجهزة متخصصة : فالمحتسب، المسئول السابق عن شرطة الأسواق، يتخذ لقب احتساب أغاسى (١٨٢٨) ويصبح أحد العناصر الرئيسية للمدن، حيث يخضع لسلطته مسئولو الأحياء (مختار، كخيا)؛ وفيما بعد يساعد مجلس كبار، يمثل مختلف العناصر المكونة للمدينة (الطوائف الدينية والاثنية والاقتصادية).

ويرتهن تطبيق اصلاحات محمود الثانى بوجود جهاز من الموظفين قادر على فهمها وإعمالها. والحال ان تأهيل موظفى الادارة السلطانية، حتى ذلك العهد، كان من اختصاص العلماء وكان يتم عبر التعليم الذى يقدمونه فى المدارس أو فى مدارس القصر. وهذا التعليم يبدو الآن غير كاف وغير مناسب. ويصبح مما لا غنى عنه ايجاد تعليم آخر، متحرر من التقاليد ومن الأعباء القديمة، لكن العلماء ينظرون بعين الخوف الى نظام تعليم وتربية علمانيين. ولذا يصبح من الضرورى التحرك على مراحل. والمرحلة الأولى هى انشاء مدارس وشيخية (مدارس ثانوية)، مفتوحة للطلاب الذين يريدون، بعد التخرج من المدارس التقليدية، الاتجاه الى المهنة العسكرية؛ وفى تلك المدارس الثانوية يتلقون تعليماً يعتبر فى آن واحد أكثر انفتاحاً وأكثر تخصصاً فى مجالات معينة. وبالنسبة لأولئك الذين تجذبهم الادارات المدنية، يجرى انشاء مدرسة التعليم القضائى (مكتب - اى معارف - اى عدلية) ومدرسة التعليم الأدبى (مكتب - اى معارف - اى أدبية). إلا انه حتى عام ١٨٣٩، كانت المدارس الأساسية قليلة جداً، ولم تكن نوعية التعليم الذى تقدمه ذات مستوى مناسب دائماً، وذلك بسبب نقص المدرسين الأكفاء.

وقد تم انشاء أو اعادة تنظيم عدد من المدارس العليا. وتلك هي حالة مدرسة الطب (طب خانه - اي عامره) التي تَلَحَّقُ بها مدرسة للجراحة (جراح خانه) في عام ١٨٣٢ والتي تصبح في عام ١٨٣٩ مدرسة الطب الامبراطورية (مكتب - اي شاهانه - اي طبيه)؛ كما انها حالة مدرسة المهندسين والعسكريين، التي تشهد في عام ١٨٢٨ اعادة تنشيط، شأنها في ذلك شأن مدرسة مهندسى البحرية، كما يجرى انشاء مدرسة للعلوم العسكرية (مكتب - اي علوم - اي حربية)، تتحول الى مدرسة حربية (مكتب - اي حربية)، ومدرسة للطب العسكرى (مكتب - اي طبيه - اي عسكرية). وخلافاً لمحمد على الذى يرسل الى فرنسا مجموعة من الطلاب المصريين لتعليمهم وتأهيلهم، تحت اشراف رفاعة الطهطاوى، لا يشجع محمود الثانى هذه العملية. إلا أنه مع عودة الدبلوماسيين الاتراك الى مواقعهم بعد عام ١٨٣٠، نجد ان الدبلوماسيين الشبان وابناء افراد البعثات الدبلوماسية يلتحقون فى البلدان الأجنبية بمدارس فرنسية وانجليزية، الخ. وعند عودتهم الى تركيا، فإنهم يظهرون فيما بعد بين صفوف العناصر الداعية الى تحريك عجلة الاصلاحات.

إلا أنه لا يمكن فى غضون عشر سنوات، أو عشرين سنة، تغيير ادارة غارقة فى موروثاتها وميوعتها، وتغيير نظام تعليم لم يبذل جهداً من أجل التكيف، ومن اجل الانفتاح على الظروف الجديدة، وتغيير جيش تأسست خبرته على نماذج جد عتيقة. لكن الوثبة تبدأ كما يحصل المصلحون على دعم عوامل جديدة : الصحافة والرأى العام.

الصحافة والمجتمع

لا يمكن لنا ان نعتبر الصحف الفرنسية الصادرة فى الامبراطورية العثمانية صحفاً عثمانية بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد صدرت اولى هذه الصحف فى اسطنبول

فى عام ١٧٩٥ برعاية السفارة الفرنسية تحت اسم بوليتين دى نوفييل، ثم صدرت فى عام ١٧٧٦ صحيفة اخرى تحت اسم لا جازيت فرانسيز دى كونستانتينوپل وفى عام ١٧٩٧ صدرت صحيفة ثالثة تحت اسم ميركور اورينتال؛ وسرعان ما تختفى هذه الصحف. وفى عام ١٨٢٤ تظهر صحيفة لوسميرونين، التى تتلوها فى العام نفسه صحيفة سبيكتاتير اورينتال، ثم تتلوها فى عام ١٨٢٨ صحيفة كوريير لوسميرون. وخارج تركيا، صدرت فى القاهرة خلال الوجود الفرنسى فى مصر، من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٠١، صحيفتا كوريير بوجيت و ديكاد ايجيپسيان. وكانت هذه الصحف كلها موجهة الى قراء فرنسيين وكانت تنشر بعض اخبار فرنسا كما كانت تنشر بعض المعلومات عن العالم العثمانى آنذاك : وكان جمهورها محدوداً للغاية.

وفى عام ١٨٢٩، يصدر محمد على فى القاهرة اول صحيفة عثمانية : وقائع - اى مصرية (الوقائع المصرية). ومحتذاً حنوه، يقرر محمود الثانى عندئذ اصدار صحيفة تقويم - اى وقائع (تقويم الوقائع)، باللغة التركية، والتى يصدر عددها الاول فى اول نوفمبر ١٨٣١؛ والحال أن هذه الصحيفة التى كانت صحيفة اسبوعية من حيث المبدأ، تتولى نشر القوانين والمراسيم الصادرة الى جانب اخبار الأحداث الرئيسية التى تحدث فى داخل الامبراطورية وفى خارجها. وبعد ذلك بعدة ايام، تصدر طبعة فرنسية من هذه الصحيفة تحت اسم مونيتير اوتوما. وتتميز هذه الصحيفة بطابع رسمى، ويشير ظهور طبعة فرنسية فى آن واحد إلى نفوذ اللغة الفرنسية ورغبة السلطان فى التأثير على الأجانب المقيمين فى العاصمة الملمين عموماً بهذه اللغة. ويصدر محمد على بدوره طبعة فرنسية من صحيفته تحت اسم مونيتير ايجيپسيا (١٨٣٣). ومن الواضح ان توزيع الصحف العثمانية الصادرة فى العاصمة يقتصر على جمهور محدود: فعدد النسخ الصادرة بالتركية ٥٠٠٠ نسخة وعدد النسخ الصادرة بالفرنسية ٣٠٠ نسخة. ولا تصدر الصحيفة العثمانية الثانية، جريدة - اى حوادث (حرقيا : سجل الحوادث)، إلا بعد ذلك بعشر سنوات،

فى عام ١٨٤٠. ولن تشهد الصحافة التركية انطلاقها الحقيقى إلا فى الشطر الثانى من القرن التاسع عشر. ولا يقلل ذلك من واقع اننا بازاء تجديد هام، يشهد هو أيضاً على انفتاح العالم العثمانى. على ان الصحافة لا تمس غير جزء ضئيل من السكان، يتواجد بشكل اساسى فى العاصمة وفى سمرين (أزمير)، المركزين التجاريين الرئيسيين للامبراطورية، ثم فى بعض الثغور الأخرى، كبيروت مثلاً.

ويمتد هذا التغريب تدريجياً الى مختلف فئات السكان، اقتداءً بما يفعله السلطان نفسه. فمن الناحية الفعلية، يرتدى هذا الأخير الملابس الأوروبية، ويهجر قصر طب قابى ليسكن قصر دولما باخشى (١٨١٤)، الذى يجرى تنظيمه وفق النموذج الغربى (سوف يعاد بناؤه فى عام ١٨٥٣)، ويتنقل فى عربة، ويظهر على الملأ ويقوم برحلات الى الريف. وهو يتعلم الفرنسية، وينظم حفلات استقبال ومهرجانات، بمساعدة جيوزيبى نونيزيتى، شقيق المؤلف الموسيقى الايطالى الشهير، ويدخل الموسيقى الغربية الى البلاط، حيث يجرى احياء حفلات موسيقية وتقديم عروض باليه وعروض اوپراليه، كما يدخل الموسيقى الغربية الى الجيش من خلال موسيقى عسكرية من نوع غربى.

واقْتداءً بهذا المثل، يرتدى الموظفون الحكوميون والوجهاء النزي الأوروبى (الذى يصبح من جهة اخرى الزامياً بالنسبة للموظفين اعتباراً من عام ١٨٢٩) والطربوش الفاسى. وتصبح اللغة الفرنسية علامة الحضارة؛ وتنتشر بشكل متزايد بين صفوف «النخبة» التى تظل مع ذلك جد محدودة عند اختفاء محمود الثانى. لكن اسطنبول تشهد تزايد عدد الأجانب: فالمستشارون والديبلوماسيون والتجار يشكلون وسطاً يبدأ فى التردد عليه بشكل أكثر نشاطاً كبار موظفى الحكومة وكبار التجار والأعيان. إلا أنه لا يمكن الحديث بعد عن تطور كبير للعادات، إذ يوجد دائماً وسط تقليدى قوى يتمسك بعرقلة حركة التغريب وبالحفاظ على المؤسسات الدينية والثقافية. لكن الطريق يفتح و ، بعد عام ١٨٣٩، سوف يتزايد

اتساع وثبة المصلحين، بالاستفادة من فترة أكثر هدوءاً على مستوى العلاقات مع الدول العظمى.

خط جولخانه الشريف

فى الأول من يوليو ١٨٢٩، يموت محمود الثانى. ويخلفه ابنه عبدالمجيد الأول، البالغ من العمر ستة عشر عاماً، بينما يصبح محمد باشا خسرو صدرأ أعظم. وكان محمود الثانى قد أمر، قبل موته، بأعداد نص، على يد مصطفى رشيد باشا بوجه خاص، يعلن الاصلاحات المستهدفة. ويجرى تقديم هذا النص رسمياً فى ٣ نوفمبر ١٨٢٩ ويتلوه مصطفى رشيد باشا امام أعلى سلطات الدولة، والشخصيات الدينية ومسئولى الأنشطة الاقتصادية والقيادات الدبلوماسية: ذلك هو الخط الشريف أو الخط الهمايونى (الميثاق السلطانى) المسمى بخط جولخانه، نسبة الى المكان الذى عرض فيه على المستمعين فى قصر طب قابى.

ويتميز هذا الميثاق بتعدد سماته : فهو ميثاق حقوقى ومالى وإدارى وعسكرى. وقد أعلن فيه بوجه خاص أن جميع رعايا الامبراطورية العثمانية يعتبرون منذ تلك اللحظة متساوين، دون تمييز على أساس الدين أو القومية، وهو ما يتعارض مع القانون الاسلامى؛ كما أعلن فيه أن كل فرد يمثل أمام القضاء سوف يحاكم وفقاً للقانون المعمول به ولن يحاكم ويحكم عليه دون استئناف ودون تحقيق مثلاً كان يحدث من قبل؛ وسوف يدفع كل فرد للدولة بشكل مباشر ضرائب تتناسب مع ثروته ودخله؛ ويتم الغاء التزام تحصيل الضرائب؛ وسوف يتعين على كل وحدة محلية تقديم وحدة عسكرية بحسب قانون قيد الاعداد وسوف لا تزيد مدة الخدمة العسكرية عن خمس سنوات.

وترمز كل هذه القرارات الى ارادة التغيير التى تحرك قادة الامبراطورية؛ وتلاوتها امام ممثلى الدولة وممثلى الطوائف الدينية وممثلى الدول العظمى تعطى

طابع تعهد سافر يؤكد هذه الارادة. ولاجدال فى ان الامبراطورية العثمانية تسلك منذ ذلك الحين درب تطور سوف يسعى السلاطين المتعاقبون، حتى نهاية عهد عبدالحميد الثانى، الى تمييزه باجراءات هامة. لكن هذا التطور لا يسر الجميع، خاصة الدول العظمى المهتمة بتدمير الامبراطورية. وسوف توضع عقبات عديدة فى وجه تحولها، وهذه الدولة التى سوف يسميها ديبلوماسى روسى بـ «رجل أوروبا المريض» سوف تجد نفسها بين ايدي اطباء احرص على امانتها مما على اعادة الحيوية والازدهار اليها.

تتحمل الدول العظمى، فى أمور المسألة الشرقية، مسئولية ضخمة، لكن ذلك لا يعنى أن الدولة العثمانية لم تقدم هى نفسها العصى التى ضربت بها.

لقد سعى سليم الثالث، ثم محمود الثانى، الى استعادة سلطة الحكم ورد الهيبة والعظمة الى الدولة. وقد أبدى الثانى، خاصةً ، وصايته على الولايات الاسلامية لامبراطوريته (فيما عدا الجزائر)، وقام بتنشيط المركزة القديمة للسلطة وأظهر للأوروبيين، عبر ادخال الاصلاحات المستلهمة من الغرب، أن الامبراطورية العثمانية ليست دولة أسيرة ماضيها وأن بوسعها الانفتاح على روح العصر الحديث.

وفى الممارسة العملية، كان على محمود الثانى أن يأخذ فى الحسبان القوى الرجعية (التي كانت قد تغلبت على سليم الثالث) والتي رأت فى هذه التدابير عدواناً على مبادئ الاسلام وعلى التقاليد العثمانية. ولم يجد انصاراً له غير عدد صغير من الرجال القادرين على تطبيق قراراته؛ ومما لاجدال فيه ان محاولات الاصلاح لم تجد عندئذ غير صدى محدود وأنها لم تؤثر إلا على بعض الأوساط الادارية فى العاصمة. وفى الولايات، على الرغم من بعض التدابير كإلغاء

التيماارات، فإن الأمور قلما تتحرك - إلا في مصر - ، وتبقى الهياكل على ما كانت عليه في القرن الثامن عشر، وذلك لعجز الحكومة عن التزود بموظفين مؤهلين، قادرين على ادراك معنى التطور الذي ينشده السلطان، وكذلك للعجز عن نشر مبادئ تحديث الامبراطورية عبر ربوع الامبراطورية، خاصة في الولايات الاسلامية، من خلال تعليم حديث ومن خلال الصحافة، شبه المعدومة.

لكن جهد محمود الثانى لم يكن بلا جدوى. وقد قيل ان خط جُكخانة الشريف قد فرض بهذه الدرجة أو تلك من جانب الدول الأوروبية. إلا أنه لو لم تكن قد وجدت مقدمات له، لما كان قد تم اصداره بالسرعة التي صدر بها : فهو ليس ثمن تسوية للنزاع التركى - المصرى، بل هو النتيجة المنطقية لسياسة جرى تدشينها منذ نحو عشرين سنة. على ان اصداءه في خارج الامبراطورية كانت أوسع مما في داخلها، لأنه اذا كان قد تم الشروع في اصلاحات ادارية وقضائية جديدة، فإنها لم يتسن لها مع ذلك أن تجد تطبيقاً كاملاً لها، بسبب غياب مشاركة السكان - فيما عدا بعض الأوساط التي تشكل اقلية، وبسبب العدد جد المحدود للمصلحين الحقيقيين وبسبب عداوة فصيل من الأوساط السائدة. إلا أنه لا يمكننا مع ذلك تجريد محمود الثانى وكل اولئك الذين ساعدوه من مآثرة هذه المحاولة.

الفصل الثانى عشر

فترة التنظيمات

(١٨٣٩ - ١٨٧٨)

بقلم : يول بومون

ان مرسوم جولخانه السلطانى، الصادر فى الثالث من نوفمبر ١٨٣٩، بعد أشهر قليلة من ارتقاء عبدالمجيد الأول العرش، إنما يشكل انعطافة كبرى فى تاريخ الامبراطورية العثمانية. فهو يمثل نقطة الانطلاق لبرنامج واسع لاصلاحات سوف تؤدى، فى غضون بضعة عقود، الى تبديل المشهد المؤسسى والاقتصادى والاجتماعى للبلاد. وكان سليم الثالث ومحمود الثانى قد شقا الطريق. أما السلطان الجديد وخلفاؤه، عبدالعزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) ومراد الخامس (١٨٧٦) وعبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩)، فسوف ينخرطون فيه بجسارة.

والحال أن هذه الحركة الاصلاحية المعروفة تحت اسم التنظيمات، والتي سوف تبلغ أوجها فى إصدار اول دستور عثمانى، فى عام ١٨٧٦، إنما تحاول الإجابة على سؤال طرحه السلاطين ورجال حاشيتهم منذ زمن بعيد : «كيف يمكن انقاذ الامبراطورية؟». ويتلخص الحل المقترح فى بضع كلمات رئيسية : المركزة الادارية، تحديث جهاز الدولة، تغريب المجتمع، علمنة القانون والتعليم - ضمن حدود كثيرة. والواقع أن الدولة العثمانية تبحث عن خلاصها - والأعين مثبتة على أوروبا - فى إقتباس النماذج التى تقدمها هذه الأخيرة كغذاء ثقافى. وتبدو النتائج مذهلة : ففى فجر عهد عبد الحميد الثانى، نجد أن الرومانتيكيين المتأخرين الذين سوف يكون شأنهم فى ذلك شأن بيير لوتى، إختفاء تركيا القديمة، ضحية حداثة كلية الحضور واخطبوطية، سوف يصبحون حشداً غفيراً.

على ان التنظيمات لن تتوصل الى وضع حد لانهطاط الامبراطورية. فهذه الأخيرة، المعرضة لأطماع الدول العظمى، والتي يمزقها انبثاق النزعات القومية، وتجتأحها رياح الانشقاق والثورة، سوف تمضى من أزمة الى أزمة وتستسلم لتقاذف الأمواج لها فى دوامات المسألة الشرقية. وليس النزاع مع مصر والذي ورثه عبدالمجيد غير الحريق الأول فى سلسلة طويلة من الحرائق - فى لبنان وفى كريت وفى البلقان وأماكن أخرى - التى لا تكف عن اضعاف الدولة التى سرعان ما سوف تسمى بـ «الرجل المريض». وهو ما يعنى أن فترة التنظيمات لا تظهر فقط بوصفها مجرد عهد تجديد. فهى ايضاً عهد تمزقات كبرى.

المصلحون

غالباً ما جرى تصوير التنظيمات على أنها ثورة فوقية. ولاجدال فى أن مصطلح الثورة قابل للنقاش، إلا إذا كنا مستعدين لأن نضيف عليه معنى بالغ الاتساع. وفى المقابل، فمما لا جدال فيه ان الاصلاحات قد تمت بمبادرة من فريق جد محدود من الرجال. أما أن ضغوط الدول «التمديدية» وفورانات المجتمع العثمانى كان لها شأن ما فى التوجه الذى تبنته تركيا بعد عام ١٨٣٩ فهذا مما لا مرأى فيه، إلا أنه لولا تحرك القصر وتحرك الباب العالى لكان من الأرجح للأمور أن تسير بشكل آخر، أو ، على الأقل، وفق ايقاع مختلف.

سلاطين وباشاوات

يستحق الدور الذى لعبه السلاطين فى تحريك عملية الاصلاح اشارة خاصة. ذلك أنه لا عبدالمجيد ولا من خلفوه كانوا سلاطين شكليين يكتفون بالبصم على قرارات متخذة فى مكاتب الصدر الأعظم. فشأنهم فى ذلك شأن ملوك الغرب المصلحين - والذين يبرز بينهم بطرس الأكبر بوصفه النموذج الأكثر اثارة

للاعجاب - ، نجد أنهم يشاركون فى العمل الحكومى، ويساندونه و ، فى حالة الضرورة، يوجهونه. وصحيح أن ملك عصر التنظيمات كان مايزال يشبه كثيراً أولئك الذى سبقوه على عرش العثمانيين. فهو يشارك فى مهرجانات السلالة، ويخضع لبروتوكول تشريفات البلاط، ويهر الشعب بجولاته عبر العاصمة، ويستقبل الرسل الأجانب... لكنه بلباسه المستمد الى حد بعيد من اللباس الأوروبى، وبأسلوب حياته، وبشكل تصوره لدوره على رأس الدولة، يجسد ايضاً، على نحو بليغ، روح العصر. وتتمثل هذه الروح فى الحداثة والواقعية والانفتاح على افكار التقدم. والحال أن السلطان الحديث الطراز يحيا حياة مشابهة لحياة الملوك الأوربيين، فهو يفتتح التكنات والمدارس، ويحب أن يجد نفسه محاطاً بالأعمال الفنية القادمة من باريس وڤيينا، ويحضر جلسات مجلس الوزراء، ويستمع الى الخبراء ويظهر على الملأ وصدره مزين بالأوسمة الغربية. بل إن عبدالعزيز سوف يتميز بقيامه، فى عام ١٨٦٧، برحلة عبر أوروبا، وهو ما يشكل حدثاً غير مسبق فى تاريخ الامبراطورية.

والحال أن ورثة محمود الثانى قد تشربوا منذ طفولتهم فن الحكم الجديد. ولدى ارتقاء عبدالمجيد الأول العرش، وهو فى الثامنة عشرة من العمر، يحس أن بوسعه التباهى بدراية معقولة باللغة الفرنسية والتميز بتعلم جيد نسبياً، يعطى مكانة متساوية للفنون والعلوم. أما أخوه عبدالعزيز، الذى سوف يخلفه فى عام ١٨٦١، فهو يبدى مزاجاً أكثر ريفية، ويعشق الرياضة والصيد ويهتم بتربية الحيوانات. لكن ذلك لن يمنعه من التحمس، بدرجة تفوق تحمس أخيه الأكبر، للروح الأوروبية، ولا من العمل بنشاط من أجل إنجاز الاصلاحات.

ولعل مراد الخامس، الذى لم يدم حكمه إلا بضعة أشهر (يونيو - اغسطس ١٨٧٦)، كان مؤهلاً أكثر من الآخرين لدوره كملك مصلح. فهذا الابن البكر لعبدالمجيد كان قد تلقى، شأنه فى ذلك شأن ابيه، تعليماً متنوعاً يشتمل برنامجه،

بين دروس أخرى، على دروس فى اللغة الفرنسية وفى الموسيقى الغربية. وعند بلوغه، اتاحت له فرصة المشاركة فى رحلات عبدالعزيز وخاصة فى الجولة الأوروبية التى لا تنسى والتى قادت السلطان العثمانى إلى باريس ولندن. وسرعان ما تسنى له الاستفادة من نصائح وآراء لفيف من الأصدقاء - من المثقفين ورجال الأعمال والضباط وكبار الموظفين... وفى عام ١٨٧٢، يصل به الأمر الى حد طلب ادخاله الى عالم الماسونية الحافل بالاسرار. أما أنه قد اختار، للاطلاع على هذه الاسرار، محفلاً تابعاً للمحفل الشرقى الفرنسى الكبير، فإن ذلك لما يمثل حدثاً بالغ الدلالة. فالرمان على الماسونية الفرنسية كان، فى ذلك العصر، اختياراً للعقلانية وللروح القولتيرية ولأفكار الثورة الكبرى؛ كما كان مغامرة بايلاى العالم الاسلامى ايلاماً عميقاً.

والواقع ان عبدالحميد الثانى، أخ وخليفة مراد الخامس، هو وحده الذى يبدو نشازاً فى هذه الكوكبة من السلاطين العصريين. وقد احتفظ له الاخلاف بصورة طاغية دموى، يحيا محاطاً برجال الشرطة وبالجواسيس. على ان «السلطان الأحمر» ينتمى الى ذات النموذج الذى ينتمى اليه اسلافه. والحال أن طفولة تتميز بالاجتهاد فى الدراسة وشباباً عامراً بالمناقشات الطويلة مع مختلف الجلساء قد جعل منه أميراً عليمًا بأحوال الدنيا، مدركاً للمشاكل العديدة التى تواجهها الامبراطورية العثمانية. وعندما يأخذ مكان مراد، فى أواخر صيف عام ١٨٧٦، فإنه يصبح واحداً من اكثر انصار التحديث الذين وصلوا الى السلطة حماساً. أما أنه قد أدار ظهره بسرعة باللغة الليبرالية السياسية لكى يتجه الى أساليب حكم أوتوقراطية بشكل مطرد، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً : ففي عهده - الذى تميز من جهة اخرى بالعديد من الشوائب - عرفت التنظيمات أوجها.

وإذا كان ورثة محمود الثانى قد تمكنوا من أخذ الاصلاحات على عاتقهم، فجعلوا من القصر أحد البؤر الأكثر وضوحاً للتحديث، فإن من اللائق على أية حال

الاعتراف بأن الدفعة الأولى غالباً ما كانت تجيء من المكاتب الوزارية للباب العالي. ففي حين أن السلاطين قد لعبوا بحماس دورهم كواجهة للتنظيمات، نجد أن الوزارات قد شهدت عمليات إعداد المشاريع وتكوين اللجان وتحرير مسودات المراسيم. والحال أن الوزراء، الذين قادوا هذا النشاط كله، قد احتلوا في تطبيق التجديدات مكانة تعتبر، على الأقل، مماثلة في أهميتها للمكانة التي تخص السلاطين الذين كانوا يخدمونهم.

ومن بين المؤسسين الرئيسيين لحركة الإصلاح، تجب الإشارة في المقام الأول إلى مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ - ١٨٥٨)، ملهم مرسوم جولخانه السلطاني. فهذا الرجل الرئيسى للأزمة الجديدة، والذي يعتبر «أب» التنظيمات، كان قد سار على درب مماثل للدرب الذي سار عليه كثيرون من رجال الدولة الآخرين في ذلك العصر. ولما كان قد انحدر من أسرة جد متواضعة - كان والده أحد مديري الأوقاف الخيرية للسلطان بايزيد الثاني - ، فقد بدأ بالانخراط في سلك دراسات علوم الدين. وفيما بعد، بفضل مساندة أحد اعمامه، السيد علي باشا، تسنى له العمل كأمين للباب العالي. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد امامه إلا أن يرتقى، واحدة اثر أخرى، مختلف المراتب التي سوف تسمح له بالصعود الى أعلى وظائف الدولة. ففي عام ١٨٣٢، يشغل منصب السكرتير الأول للأمدى، وهي خدمة مسئولة عن إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للامبراطورية. وبعد ذلك بعامين، يجرى ارساله سفيراً الى باريس، مما يشكل خطوة أولى لعمل ديبلوماسى سوف تكون الإقامة في لندن أبرز علاماته. وفي عام ١٨٣٧، يجرى تعيينه وزيراً للشؤون الخارجية. وسوف يتعين عليه الانتظار الى عام ١٨٤٦ لى يصعد الى منصب الصدر الأعظم، لكنه يبدو منذ ذلك الحين بوصفه واحداً من أبرز شخصيات الباب العالي، حيث يتميز على نحو خاص بمثابرته على تحقيق الاصلاحات الأكثر جسارة. وهو يلعب بورقتين رئيسيتين : إمتلاك ناصية اللغة الفرنسية والدراية الجيدة بالشؤون الأوروبية. وخلال سنوات خدمته كسفير، يطلع أيضاً على الأفكار التي تهم

الشباب، وذلك، جزئياً، من خلال الماسونية التي سوف يصبح، لدى عودته الى تركيا، أحد دعايتها المتحمسين. والواقع أن اعلان مرسوم جولخانه السلطاني، في بداية عهد عبدالمجيد، قد جعل منه الشخصية البارزة للتنظيمات. على أن مسيرته العملية لن تكون مع ذلك اقل تقلباً، فهي تتأرجح بحسب الظرف السياسي، وتقلبات مزاج السلطان المفاجئة والمؤامرات. وعند وفاته، في عام ١٨٥٨، يخلف وراءه خمس توليات لمنصب الصدر الأعظم، وعدة بعثات الى الخارج وفترتي تعيين، لمدتين طويلتين نسبياً، على رأس وزارة الشؤون الخارجية.

أما ائمة التنظيمات الآخرون - محمد أمين على باشا (١٨١٥ - ١٨٧١)، محمد فؤاد باشا (١٨١٥ - ١٨٦٩)، مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٤) - فإن سيرة كل منهم تظهر تشابهات عديدة مع سيرة مصطفى رشيد : شباب مكرس للدراسات الدينية، فترة إعداد في المراتب الدنيا للبيروقراطية العثمانية، إقامة أو عدة اقامات في أوروبا، وظائف ادارية متنوعة، وأخيراً دخول المجالات القيادية في أغلب الأحوال عبر وزارة الشؤون الخارجية. وفي جميع الحالات، يمر النجاح عبر انفتاح على الغرب. لكن الدراسات الكلاسيكية - التي تتمثل هنا في التعليم الذي تقدمه المدارس الدينية - يبدو أنها قد أسهمت ايضاً في نجاح المصلحين. فهؤلاء الرجال، حتى وإن كانت أعينهم تنظر الى أوروبا، انما يدينون لهذا الانغراس في الثقافة القديمة بما سوف يمثل مأمّنهم الرئيسي - احترام القيم التقليدية - وإن لم يكن غير مظهر خارجي.

وبعد مصطفى رشيد، ربما كان محمد أمين على باشا هو الذي لعب الدور الأنشط في تطبيق الاصلاحات. فهو، على أية حال، يمسك بزمام الأمور مدة أطول. والحال أن هذا الابن لتاجر صغير من تجار اسطنبول قد عرف صعوداً بالغ السرعة. ولما كان قد دخل في خدمة الباب (العالي) وهو لم يزل دون العشرين من عمره، فإنه لم يكن أمامه غير عشر سنوات لكي يتم تعيينه سفيراً في لندن

(١٨٤١)، وذلك بفضل ميله الى اللغات الأجنبية. ومنذ ذلك التاريخ، تتقاطع مسيرته العملية مع مسيرة مصطفى رشيد، أكان ذلك عندما يخلف هذا الأخير فى منصب وزير الشؤون الخارجية أم عندما يحل محله فى منصب الصدر الأعظم، وهو المنصب الذى سوف يشغله مع انقطاعات منذ عام ١٨٥٢ وحتى موته فى عام ١٨٧١. وقد ربط مصطفى رشيد اسمه باعلان مرسوم جولخانه. أما على باشا فسوف يكون أحد المخططين لوثيقة ذات أهمية مساوية، هى الخط الهمايونى (المرسوم السلطانى) الصادر فى عام ١٨٥٦، والذى يشكل برنامجاً جديداً للإصلاحات أصدره السلطان عبدالمجيد بعيد انتهاء حرب القرم. كما أنه سوف يكون أحد المحركين الرئيسيين للمجلس الأعلى للإصلاحات (مجلس - اى على - اى تنظيمات)، الذى انشئ فى عام ١٨٥٤ من اجل الاشراف على الاجراءات التحديثية وتطويرها.

أما محمد فؤاد باشا، المعاصر لعلى باشا وأحد أقرب معاونيه، فإن مسيرته العملية كانت أقل سرعة من مسيرة راعيه وصديقه، لكنها كانت رائعة مثلاً. وهو ينحدر من أسرة العلماء، وقد بدأ بالتوجه الى دراسة الطب و ، بعد دراسات فى هذا المجال، التحق بالجهاز الطبى للجيش. إلا أنه سرعان ما سمحت له درايتة باللغة الفرنسية بتغيير توجهه. ويتمثل الحدث الحاسم فى حياته فى دخوله، فى عام ١٨٣٧، الى تلك البيئة التحضيرية الحقيقية لرجال الدولة والتى تتمثل فى مكتب الترجمات (ترجمة أوقاسى) التابع للبواب العالى والذى كان محمود الثانى قد انشأه قبل ذلك التاريخ بوقت قصير. وفى عام ١٨٤٠، جرى تعيينه ترجمانا للسفارة العثمانية فى لندن. ويمثل ذلك بداية لمسيرة سوف تسمح له بعد ذلك باثنتى عشرة عاماً بالصعود الى منصب وزير الشؤون الخارجية، استناداً الى دعم من جانب على باشا. ومنذ ذلك الحين، يصبح جزءاً لا يتجزأ من فريق الرجال الذين يمسكون بمقاليد أمور الامبراطورية. ولما كان صدراً أعظم عدة مرات، وعضواً فى المجلس الأعلى للإصلاحات - الذى سوف يتولى رئاسته خلال بضع سنوات - ،

فإنه سوف يلعب حتى موته، فى عام ١٨٦٩، دور الذات الأخرى لعلى باشا، حيث يتبادل معه الحظوات والوظائف، ويحل محله فى كل فترة غضب عليه، وإن كان يواصل بحزم عين سياسة الاصلاح المؤسسى والاقتصادى والاجتماعى التى سار عليها.

أما آخر كبار المصلحين فى ذلك العصر، مدحت باشا، فهو الوحيد الذى سار، فى درب تولى المسئوليات، مسيرة مختلفة الى حد ما عن مسيرة اسلافه. وصحيح اننا نجد فى مسيرته معطيات ليس فيها ما هو غير عادى : طفولة تقضى فى المدارس الدينية؛ شباب يتميز بالحصول على وظيفة صغيرة فى الصدارة العظمى؛ بداية مسيرة عملية تتميز برحلة لعدة أشهر عبر أوروبا. إلا أنه فى حين ان مصطفى رشيد وعلى باشا وفؤاد باشا قد التحقوا بالسلك الدبلوماسى، فإن مدحت باشا قد ارتقى مدارج السلطة بتميزه فى مجال ادارة الولايات. فبعد أن شغل وظائف ثانوية مختلفة، عُنِّنَ فى عام ١٨٦١ والياً على ولاية نيش. وبعد ذلك بثلاث سنوات، يتم التكريس : فقد عهد اليه بولاية الدانوب - التى تشمل من الناحية العملية كل بلغاريا الحالية - ، مع حرية العمل هناك على انجاز جميع الاصلاحات التى تعتبر ضرورية. وهنا، وفى بغداد التى سوف ينقل اليها فى عام ١٨٦٩، سوف يتمكن من البرهنة على مواهبه الاستثنائية كإدارى، حيث يبرز بوصفه أحد الممثلين الأكثر كفاءة للمركزة العثمانية. ومنذ ذلك الحين، يتوالى التشريف والتكريم بايقاع سريع. وفى عام ١٨٧٢، سوف يصل الأمر بالسلطان عبدالعزيز الى حد وضعه لعدة أشهر على رأس الحكومة العثمانية. إلا أنه لن يصل الى تحقيق الهدف الذى يتقاسمه مع عدد معين من الشخصيات الأخرى : اصدار دستور، إلا فى عام ١٨٧٦، عندما يصبح الصدر الأعظم لعبدالحميد الثانى.

ومع مدحت باشا، تكتسب الصورة النمطية للمصلح العثمانى بعداً جديداً بلا جدال : الانغراس فى ما يمكن تسميته بالامبراطورية العميقة الأغوار. فعمل

مصطفى رشيد ومهندسى التنظيمات الآخرين كان مستمداً من الافتتان الذى أحسوا به تجاه الحضارة الأوروبية. وبالنسبة لهم، كان الإصلاح يعنى أن يستوردوا من الغرب الوصفات التى اثبتت فيه نجاحها. أما بالنسبة لأب دستور ١٨٧٦، فإنه يعنى أيضاً التمسك بالانصتات الى صوت الولايات. وصحيح انه لا مصطفى باشا ولا على باشا ولا فؤاد باشا كانوا يجهلون أن بقاء الامبراطورية مرهون بمراعاة المشكلات الاقليمية. فكل واحد منهم يرجع اليه الفضل فى عدد من التدابير الرامية الى تجديد نسيج عالم الولايات. لكن مدحت باشا هو أول مصلح كبير يجعل من هذا العالم المختبر الرئيسى للتنظيمات.

ادباء وايدولوجيون

إذا كانت المبادرة بالاصلاحات تجيىء، أساساً، من القصر والمكاتب الوزارية، فإن الطبقة المثقفة لا تبقى مع ذلك سلبية. ففترة التنظيمات تتميز بظهور كوكبة كاملة من الأدباء الذين يجربون شيئاً فشيئاً الاشكال الأدبية المأخوذة عن الغرب - الراوية، المسرح، البحث الفلسفى، فن الكتابة الصحفية - ويستخدمون هذه الوسائل التعبيرية لتوجيه النقد والسجال ولتقديم الدرس الى القادة ولتهذيب القراء. وقد يتصور المرء أن هؤلاء الكتاب ليسوا غير مجرد نشطاء بلا فائدة. لكن ذلك غير صحيح. فإذا كانت عجلة الإصلاح تتحرك، فالفضل فى ذلك إنما يرجع اليهم هم أيضاً. فعبر الحماس الذى يحتفون به بالحضارة الغربية وعبر الحمية التى ينادون بها بتحولات أكثر جسارة باستمرار، يسهمون إسهاماً فعالاً فى تحريك الأمور.

وعبر الصحافة بوجه خاص، والتى تأخذ فى التطور اعتباراً من اربعينيات القرن التاسع عشر، تأخذ الانتلجنتسيا الجديدة فى التعبير عن نفسها. وكانت لغالبية الجماعات الاثنية والطائفية فى الامبراطورية صحفها. وهذه الصحف تعبر، بلغات مختلفة، عن ايمان مشترك بالتقدم وتتبنى أفكاراً مشتركة عن العدالة

والاخاء. إلا انه، هنا وهناك، تظهر ايضاً بشكل تدريجى أفكار تقويضية أكثر بشكل واضح، بما يؤدى الى ترعرع النزعة القومية : فمن جميع اطراف البلاد يتكاثر رسل إحياء للغات والثقافات الأصلية، يصل بهم الأمر أحياناً الى حد المطالبة بإيجاد استقلال ادارى، فى الولايات ذات التركيب السكانى المختلط، يحترم الخصوصيات المحلية.

والى جانب الصحافة، سوف يجرى دفع المسرح أيضاً الى لعب دور هام. وهو فى البداية مسرح مأخوذ بالكامل عن أوروبا: اذ يجرى ترجمة شيلر وفيكتر هيجو، واقتباس مولير؛ وهكذا يتعرف المشاهدون على الهجاء الاجتماعى وموضوعات الدراما البورجوازية. وعند أواخر عهد عبدالمجيد، يتشكل أيضاً برنامج عروض مسرحية عثمانى، تؤديه فى البداية فرق أرمنية، ثم تؤديه فيما بعد فرق تضم عدداً من الممثلين المسلمين. والحال أن هذه المسرحيات، المبنية بالكامل فى أغلب الأحيان على نجاحات المشاهد الأوروبية، تتحدث عن ايجابيات الحضارة الغربية وتعالى من شأن الأفكار وأساليب الحياة الواردة من أوروبا وتشيد، على نحو مواز، بمبادئ كالحب والوطن، وحس الشرف، وعشق الحرية والعدالة. على أنه لا مجال للنظر الى الذات بانشداه فى مرآة الغرب. ذلك ان عدداً من الأعمال المسرحية لا يتردد فى الهجوم على المجنونين بالنزعة الأوروبية، المستعدين للاستسلام للدين الجديد دون أبسط تمييز. فعلى غرار كبار مهندسى التنظيمات، يبرز مسرحيو ذلك العصر بوصفهم دعاة توليف : فإذا كانوا يسخرون من عادات الماضى، فإنهم لا يبدون مع ذلك أقل ثباتاً فى تعلقهم بالقيم التقليدية.

ومما يدعو الى الدهشة أن الرواية، وهى الوسيلة التعبيرية الرئيسية للأدب الأوروبى، لن تظهر فى ترسانة الكتاب العثمانيين إلا نحو عام ١٨٧٠. وهنا ايضاً، فإن الأمور قد بدأت بالترجمات : تيليماك لفنيليون (ترجمت الى التركية فى عام ١٨٥٩)، البؤساء لهيجو (١٨٦٢)، روبنسون كروزو لدانييل ديفو (١٨٦٤)،

ميكروميجا لفولتير (١٨٧١)... والحال أن المحاولات الروائية الأولى خلال فترة التنظيمات، والمستندة الى هذه النماذج، لا تشكل بالتأكيد أعمالاً كبرى : فالسذاجات والروح العاطفية المبتذلة الباكية تشكل قوامها الرئيسى. على أنها تحسن تماماً أداء وظيفتها التربوية، إذ تدعو بفعالية الى الحضارة الحديثة. ويعلى هذا النوع من الروايات من شأن العلاقات بين الجنسين ويستمتع بتناول مشكلة التحرر الانثوى. لكن عدداً من الأعمال سوف يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ويجتهد فى رصد عيوب مجتمع موزع بين الشرق والغرب.

وبين رواد الأدب الجديد، تحتل ثلاثة أسماء مكانة مميزة بشكل خاص : منيف باشا (١٨٢٨ - ١٩١٠)، ابراهيم شينازى (١٨٢٦ - ١٨٧١) وضياء باشا (١٨٢٥ - ١٨٨٠). أما الأول، رئيس تحرير جريدة - اى حوادث - جريدة الحوادث)، فهو يدخل فى عداد آباء الصحافة العثمانية. وشأنه فى ذلك شأن غالبية الكتاب الاجتماعيين فى ذلك العصر، فإنه يهتم بكل شىء - القانون، الاقتصاد، الأدب، الفلسفة - وينكب على نشر المعارف الغربية بكل حماس عصامى ثقف نفسه بنفسه. وعمله الأكثر أهمية هو مجموعة حوارات مترجمة عن فينيلون وفونتينيل وفولتير. ويتميز هذا العمل، المنشور فى عام ١٨٥٩، بطابع ثورى حقيقى. ولما كان عبارة عن تجميع لأفكار جديدة، فإنه يعرض على الانتلجنتسيا العثمانية موضوعات للتأمل كطبيعة الانسان ومفهوم الوطن أو الأسس الاخلاقية للمجتمع، والتي لم يسبق قط طرحها بهذا الشكل. كما يتميز منيف باشا بتأسيسه، فى عام ١٨٦٢، للجمعية العثمانية للعلوم واللسان حالها، مجمع - اى فنون (مجمع الفنون). وخلال السنوات التى ظهرت فيها هذه المجلة، نجد أنها قد لعبت فى تركيا دوراً مماثلاً فى أهميته لأهمية الدور الذى لعبته الانسيكلوبيديا الكبرى فى فرنسا فى القرن الثامن عشر. ولم تكن مهمتها تتمثل فى مجرد الاسهام فى ترويج مجموعة كاملة من المعارف. فهى، بشكل اساسى اكثر، تشكل احد اول المختبرات التى رأت النور فى الامبراطورية العثمانية للفكر المستند الى المشاهدة والتجربة.

كما أن ابراهيم شينازى وضياء باشا، المعاصرين لمنيف باشا، قد كرسا هما أيضاً جانباً كبيراً من حياتهما للصحافة، حيث جعلاً من المقال الافتتاحى السلاح المميز للمعركة التى خاضاها من أجل تبديل حال البلاد. وتتميز مسيرة كل منهما بسمات مشتركة كثيرة. فقد دأب كل منهما على النضال من اجل الاصلاحات. كما ان كلا منهما لم يتردد فى الهجوم على نظام حكم الصدرين الأعظمين الرئيسيين لعبدالعزیز : على وفؤاد، اللذين اعتبرهما كل منهما جد محافظين. وأخيراً، فإن كلا منهما قد كابد عنت السلطة، حيث دفع كل منهما ثمن انتقاداته المتواصلة للحكومة باجتياز تجربة المنفى لسنوات عديدة. على أن شيئاً واحداً يفصل بينهما : تباين موقف كل منهما من التراث الاسلامى. فشينازى، الشديد الاعجاب بفلسفة التنوير، نادراً ما يتخذ من الاسلام مرجعاً، بل ويبدو أنه يدير ظهره له. أما ضياء، على الضد من ذلك، فإنه يستمد جانباً مهماً من الهامه من الفكر الصوفى الاسلامى ويبدى نزعة محافظة دينية وثقافية تجعل منه أحد اصوات الحداثة العثمانية الأكثر اشكالية. على ان مثقفى التنظيمات لا يقيمون لذلك وزناً كبيراً. فالرجل الواحد - وتلك هى حالة ضياء - قد يحس تماماً بأكبر قدر من الارتياح فى النماذج الواردة من الغرب ويتميز، من جهة اخرى، بوصفه أحد المدافعين الأكثر تحمساً عن الأفكار الجديدة.

ولما كان شينازى وضياء قد تصدرا السجال السياسى والأدبى، فإنهما قد مارساً تأثيراً ملحوظاً على الانتلجنسيا العثمانية فى عهد عبدالعزیز. على أن أحد تلامذتهما، وهو نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨)، هو الذى سوف يتميز بوصفه الكاتب الأكثر تمثيلاً للتنظيمات. الأكثر تمثيلاً، ولكن أيضاً الأكثر موهبة والأكثر إنتاجاً: فقد خلف روايات ومسرحيات و ، بشكل خاص، إنتاجاً صحفياً غزيراً نجد فيه كل ايمانات العصر، مصاغة بقوة.

والواقع أن مجلة عبريت (العبرة)، الصادرة بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٣، كانت المصب الرئيسى لهذه الكتابات النثرية الغزيرة. لكن نامق كمال كان قد تمكن قبل

ذلك بالفعل من تقديم برهان موهبته فى مجلة تصوير - اى افكار (تصوير الأفكار)، وهى مجلة انشأها شينازى فى عام ١٨٦٢، وفى عشر صحف أخرى. والحدث الأكثر أهمية، فى هذه المسيرة الواسعة الحركة، هو مشاركته، قرب أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، فى مجلة حُریت (الحرية) ، الصادرة فى لندن بمعاونة ضياء باشا وعدد من الرجال الآخرين. فهنا، فى المنفى، نجد أن المثقف المعارض، المتحرر منذ ذلك الحين من ضغوط الباب العالى، سوف يجد الفرصة لشحذ اسلحته : كتابة نثرية إن لم تكن رائقة تماماً، فإنها على الأقل تتميز بالحمية والحماس؛ ذخيرة من الأفكار التقويضية الرامية بشكل خاص الى لبرلة نظام الحكم والمؤسسات.

وعبر مقالاته الصحفية، كما عبر أعماله الأدبية بشكل محدد، يبرز نامق كمال على نحو خاص بوصفه مدافعاً متحمساً عن فكرة الحرية. ومن خلال تبنيه لأحد المبادئ العظيمة لاعلان حقوق الانسان، كان أول من اتجه، بين مثقفى جيله، الى تأكيد أن الانسان يولد حراً وأن هذه الحرية «ضرورية ضرورة الماء والهواء». وفى مقال شهير فى مجلة هبريت ظهر فى زمن شدد فيه نظام عبدالعزيز ضغوطه على المثقفين، لن يتردد (نامق كمال) فى الاعلان بشكل أوضح : «إن حق وواجب الانسان ليس هو أن يحيا فحسب، بل ان يحيا حراً».

ولما كان نامق كمال قد ولد لأسرة غارقة فى التصوف الاسلامى، فإنه، بوصفه مسلماً صالحاً، يعتبر هذه الحرية هبة من الله. لكنه يشير ايضاً اشارة قوية الى أن المجتمع - وبشكل أكثر تحديداً الدولة التى تتوج البناء الاجتماعى والسياسى - يرجع اليه واجب اصدار القوانين بما يكفل لكل انسان احترام حقوقه الأساسية و ، بشكل موازٍ ، المساواة أمام القانون. إلا أن من السابق لأوانه كثيراً، فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر هذه، ان يكون بوسع انسان شديد التعلق بالاسلام كنامق كمال أن يفكر فى قانون علمانى بشكل خالص، مستقل عن

الشريعة. على أنه كان بوسعه القول، بشكل جد بليغ، أن المجتمع الحديث لا يمكنه التمشي مع التعسف والجور؛ وأن قوانين عامة، يعترف بها الجميع وتطبق على الجميع، دون تمييز في المرتبة أو على أساس الانتماء الإثني أو الطائفي، يجب أن تنظم عمل الهيئة الاجتماعية.

وإذا كان نامق كمال، في مرافعاته المؤيدة لدولة تحترم القانون، يستند عن طيب خاطر إلى الإسلام، فإنه يتخذه مرجعاً له باصرار أكثر بكثير عندما يدعو إلى فصل صارم بين السلطات وإلى تدشين نظام حكم دستوري، في الامبراطورية العثمانية، قادر على أن يتيح للمجتمع المدني امكانية التعبير عن تطلعاته. ومستمداً من المؤسسات الإسلامية مفهوم المشورة، تشاور الجماعة، فإنه لا يتردد في تأكيد أن فكرة الحكومة التمثيلية تجد إقراراً لها في التراث الإسلامي ولا تتطلب غير إعادة الحيوية إليها لكي تنسجم انسجاماً تاماً مع متطلبات الدولة الحديثة. إلا أنه تحت غطاء العودة إلى التراث هذا، فإن ما يدور الحديث عنه في الواقع هو القضاء على الحكم المطلق وتطبيق برنامج ليبرالي، تعتبر الملكية الدستورية مدعوة إلى أن تشكل أحد أعمدته الرئيسية. أما النموذج الذي يراه نامق كمال فإنه لا يفوح برائحة تمرد زائدة : فهو نموذج دستور الامبراطورية الثانية الذي قدمه نابوليون الثالث إلى فرنسا، مع مزجه الذي يتميز بالدهاء بين السلطة الأوتوقراطية والأجهزة التمثيلية. ومن الواضح أن نامق كمال، باستبعاده النظم الأخرى الأكثر جذرية، إنما يرمى إلى اللعب بورقة الاعتدال. لكن ذلك لا يقلل من واقع أن نزعته الدستورية الكفاحية تحمل في طياتها انقلابات سياسية ليس من شأنها إلا أن تؤدي إلى تخفيف ضغط، بل إلى اختفاء، الملكية العثمانية.

ومن المؤكد أن في ذلك ما يدعو إلى إثارة انزعاج السلطان ووزرائه. وسوف ينتاب القلق هؤلاء بقدر ما أن نامق كمال وعدداً من المثقفين الليبراليين الآخرين، يبرز بينهم بشكل خاص ضياء باشا، والأمير المصري مصطفى فاضل (١٨٢٩)

(١٨٧٥-) والكاتب الاجتماعى على سواوى (١٨٣٨ - ١٨٧٨)، قد شكوا فى عام ١٨٦٥ نوعاً من جمعية سرية على غرار جمعية الكاربونارى، بهدف ترويج الأفكار الجديدة. والواقع ان هذه الجماعة، التى سرعان ما تأخذ اسم «العثمانيين الشبان»، مثلما كانت هناك من قبل جماعة «ايطاليا الفتاة» أو «المانيا الفتاة»، إنما تتخذ من بلاغة الأدباء الذين تتألف منهم سلاحاً رئيسياً لها. والحال أن هذا السلاح سلاح رهيب. ولم يتأخر الباب العالى فى التعرض لسيل متواصل من الانتقادات والمطالب. وشيئاً فشيئاً يصبح الصراع بين المعارضين والسلطة بالغ الحدة بحيث ان الحكومة تنتهى الى الرد رداً قاسياً.

والواقع أن النشر الذى تم فى عام ١٨٦٧ لرسالة مفتوحة موجهة الى السلطان من أحد المحركين الرئيسيين لحركة العثمانيين الشبان، وهو مصطفى فاضل باشا، هو الذى اشعل البارود. ففي هذا الكراس الذى صدر فى عدة عشرات من آلاف النسخ ووزع على نطاق واسع فى الامبراطورية، شجب الأمير المصرى بلا مواربة مثالب السلطة ودعا الى برنامج اصلاحات يتمثل بنده الرئيسى فى اقامة نظام حكم دستورى. وفى وجه هذه المطالب، كان رد فعل الصدر الأعظم، على باشا، فورياً : فقد خير على سواوى ونامق كمال وضياء وعدة رجال آخرين بين وظائف تافهة بلا عمل فى الولايات النائية أو النفى الى اوربا.

وبالنسبة للعثمانيين الشبان، كانت السنوات الخمس التى قضوها خارج الامبراطورية سنوات اكتساب للنضج. ففي العواصم الأوروبية التى وجدوا انفسهم فيها، واصلوا بشكل متزايد دعايتهم ضد الأوتوقراطية العثمانية. وبشكل خاص، اتاحت لهم الفرصة هناك للتعرف على الأفكار والتقنيات وأساليب الحياة التى لم يكونوا يملكون عنها من قبل غير معرفة مستمدة من الكتب. وطبيعى ان هذا الاتصال المباشر بالعالم الغربى لم يكن من شأنه إلا ان يشكل اضافة الى قوة الاقناع التى تتميز بها كتاباتهم.

والحال أن الحرب الدائرة بين الحكومة والعثمانيين الشبان سوف تستمر، مع انقطاعات تتميز بمبادرات العفو التي تتلوها ترحيلات جديدة الى المنفى، حتى ارتقاء عبدالحميد الثانى العرش. ويدور نزاع ثنائى الأطراف حول الوسائل التي يجب استخدامها والغايات التي يجب تحقيقها. والواقع، بشكل اساسى، هو أن الانتلجنتسيا الليبرالية تسعى الى ذات الهدف الذى يسعى اليه الباشا والمصلحون والذين تصطدم بهم : إبراء الرجل المريض بتزويده بجرعة قوية من الأفكار السياسية والقيم الثقافية والتجديدات التقنية المأخوذة عن الغرب. ولكن كيف يتم تقدير الجرعة؟ إن السلطان ووزراءه، بوصفهم رجال السلطة، يتفوهون عن طيب خاطر ببيانات ليبرالية لكنهم يحترسون من تقديم تنازلات كثيرة. أما العثمانيون الشبان، على الضد من ذلك، فإنهم، لكونهم متعطشين الى الحرية والى العدالة، يرون أن نظام الحكم النيابى هو وحده القادر على تجسيد ما ينشدون. ويبدو لهم أن من المستحيل الاكتفاء بالنزعة الاصلاحية السلطوية التي كانت الحكومة، من جهتها، مستعدة للاكتفاء بها.

وفى هذه المواجهة بين نهجين متباينين للتنظيمات، فإن جهاز الدولة هو الذى سوف تكون له - مؤقتاً - الكلمة الأخيرة. والواقع ان الدستور الذى كان أعز امانى العثمانيين الشبان لن يصدر، غداة ارتقاء عبدالحميد الثانى العرش، إلا لى يجرى تعطيل العمل به بسرعة واسدال الستار عليه. فهل يعنى ذلك ان النضال الذى خاضه نامق كمال ورفاقه كان بلا طائل؟ من المؤكد ان عدم نجاح العثمانيين الشبان فى ان ينتزعوا من السلطة نظام حكم نيابى دائم انما يشكل فشلاً. إلا ان من المناسب ان نحسب لهم، بالمقابل، نجاحهم فى تعبئة جزء من الرأى العام لحساب الأفكار الجديدة. ومن الواضح أنه لا شينازى ولا ضياء ولا نامق كمال كانوا سياسيين محنكين. لكنهم تمكنوا من أن يكونوا مربين جيدين.

جنود الاصلاح المجهولون

سلاطين، صدور عظام، ايدىولوجيون، أدباء مشهورون.. هؤلاء هم الممثلون البارزون للتنظيمات. والى جانبهم، كان هناك أيضاً جنود الاصلاح المجهولون : البيروقراطيون، الخبراء، الحقوقيون، الفنيون؛ ضباط الجيش الجديد، المدرسون، اعضاء مختلف اللجان الاستشارية، باختصار ، كل اولئك الذين شاركوا فى صوغ أو تطبيق مشاريع الاصلاح، كل اولئك الذين اسهموا، من شتى ارجاء الامبراطورية، فى نشر الحداثة العثمانية.

ولتكوين فكرة عن هذه الكوادر المجهولة الاسماء لحركة الاصلاح، يمكننا، على سبيل المثال، الالتفات الى أحد المحافظ الماسونية العديدة التى ازدهرت عبر مختلف ارجاء الامبراطورية منذ عهد عبدالمجيد والقاء نظرة سريعة على قائمة الأعضاء. وصحيح أن هذه الماسونية العثمانية، الجياشة بالحركة، قلما تحتل مقارنة مع الماسونيات الغربية فى العصر نفسه، والتى تشكل كنائس حقيقية للروح الجديدة. فهى لم تلعب دوراً سياسياً إلا نادراً ولم تشارك فى التحريض الايدىولوجى إلا بوصفها قوة مساندة. على أن ذلك لا يقلل من واقع انها شكلت احد التجليات الأكثر دلالة للجيشان الاجتماعى والثقافى الذى قادت اليه التنظيمات.

وهناك حالة بين حالات اخرى : تلك هى حالة محفل اتحاد الشرق الذى اسس فى اسطنبول فى عام ١٨٦٣. فهذا المحفل، المرتبط بمحفل الشرق الكبير الفرنسى يستظل، كما يشير الى ذلك اسمه، بظل فكرة من الافكار الهادية للتنظيمات : التعايش الأخوى، الوفاق بين الأجناس. وفى عام ١٨٦٩، سوف يضم مائة وثلاثة وأربعين عضواً قادمين من مختلف أفاق المجتمع العثمانى. فبين المنتمين اليه، نلاحظ وجود عدة فرنسيين وعدة منحدرين من بلدان أوروبية أخرى قدموا للبحث عن حظ سعيد فى الشرق: حرفيون متخصصون فى صنع منتجات فاخرة، صيارفة، تجار، محام ليس شخصاً آخر غير لوى أميابل، احد الشخصيات

الرئيسية للماسونية الفرنسية. لكن المحفل يجمع بشكل خاص عدداً كبيراً من المنتسبين الى الاقليات في الامبراطورية. ونحن نجد فيه في البداية فريقاً هاماً من وجهاء الطائفة الاسرائيلية. كما ان اليونانيين ممثلون فيه من خلال الصحفي چان فريتوس، والوسيط الكسندر إزميريديس، والتاجر الكريتي كلياتى سكاليري ونصف دزينة لا بأس بها من الشخصيات الأخرى. أما الأرمن، الأوفر عدداً بكثير، والذين يشكلون جزءاً منه، فإنهم ينتمون هم ايضاً، في غالبيتهم، الى عالم الصرافة أو التجارة، لكننا نجد في عدادهم ايضاً مأمورى قضاء (خاصة نرسييس داديان، المعروف بأنه «عضو مجلس التحقيق الجنائى التابع لوزارة الشرطة») وموظفين وأعضاء مهن حرة.

لكن الشيء الأكثر اثارة في عضوية المحفل هو وجود خمسين من المسلمين. وغالبية هؤلاء الآخرين ينتمون الى الجيش. إلا اننا نجد بينهم أيضاً عدداً من مأمورى القضاء وعدداً معيناً من رجال الدين. وقد نجح المسئولون عن المحفل في تجنيد اشخاص يحتلون، غالباً، مناصب رئيسية. وتضم قائمة الأعضاء في عام ١٨٦٩ - بين اعضاء آخرين - الياور الأول للسلطان (رؤوف بك) وكذلك المسئول الأول عن غرفته (جميل بك)، وأحد مفتشى وزارة الشرطة (عبدالرحمن حلمى افندى) واثنين من الولاة (محمد رمزى افندى، والى شيو، وعزت باشا، والى القدس السابق)، وعدة عسكريين من المراتب العليا وأربعة قضاة للمحكمة التجارية ونحو خمس عشرة من الموظفين من مختلف المستويات. وفي السنة السابقة، كان المحفل قد تمكن من تجنيد عضوين مهمين بشكل خاص: ابراهيم ادهم، رئيس مجلس الدولة، والأمير مصطفى فاضل، إمام العثمانيين الشبان.

ومن الواضح ان المائة وثلاثة واربعين شخصية الذين يضمهم اتحاد الشرق في اواخر ستينيات القرن التاسع عشر هذه لا يشكلون غير جزء ضئيل من عدد الرجال المستنيرين الذين اسهموا في تحقيق الاصلاحات. لكنهم يشكلون، كما يجب الإشارة الى ذلك، عينة ممثلة لهم إلى أقصى حد.

وكما يشهد على ذلك قوام اتحاد الشرق، فإن البيروقراطية والجيش يقدمان نسبة هامة من جنود الاصلاح. وليس فى ذلك ما يدعو الى الاستغراب. فقد كانت مكاتب الادارة والثكنات المختبرات الاولى للتنظيمات. ومنذ عهد محمود الثانى، جرى اعطاء الاولوية لتكوين موظفين مؤهلين، يملكون زمام اللغات الغربية، وكذلك لتكوين جيش حديث، خاضع لاشراف مدربين فرنسيين أو انجليز أو ألمان. ولم تتأخر هذه الجهود فى إتيان ثمارها. فنحو عام ١٨٧٠، يتميز البيروقراطى من النموذج العثمانى، فى المراتب المتوسطة والعليا على الأقل، بدرايته الحسنة بالفرنسية وباستعداداته لتمثل اساليب العيش والأفكار المأخوذة عن الغرب. وبالمثل، فإن الضابط لم يكتف بتغيير زيه العسكرى، فهو يكتسب ايضاً شخصية جديدة. ولكونه على اتصال دائم بالتقنيات وبالعلوم الرئيسية، فإنه يظهر بوصفه رأس حربة التحديث. وهو تحديث يتمشى مع جرعة معينة من الميل الى الهدم: فرجل الحرب المنتمى الى عصر التنظيمات، والذي يقرأ، فى اوقات فراغه، فولتير وروسو - اللذين يلتهم اعمالهما سرّاً - ، انما يفتح الباب امام الثورات التى سوف تحدث فى المستقبل.

والى جانب العسكريين وموظفى الدولة المدنيين، يبرز فريق آخر دفعة واحدة: ذلك هو فريق التجار والصيارفة. والحال أن هؤلاء الرجال، المنحدرين كلهم تقريباً من طوائف الاقليات، كان عليهم أن يلعبوا دوراً يعرفونه جيداً : دور وسطاء من الدرجة الاولى بين اوربا والامبراطورية العثمانية. وإذا كانوا متخصصين فى تبادل السلع وفى تحركات رأس المال، فإنهم يقومون ايضاً بترويج اساليب الحياة والفنون التقنية والفلسفات. لكنهم يتولون ايضاً اداء مهمة أخرى: مهمة تمويل التغيير. فبالاعتماد على اموالهم جزئياً تبنى الدولة القصور والثكنات والمدارس التى ترمز الى الروح الجديدة. وهم الذين يفتحون مضخة القروض التى سوف تعتمد عليها الدولة لتجديد الجيش وبناء المرافق الضرورية للانطلاق الاقتصادى للبلاد.

وبين جمهرة أولئك الذين اسهموا في نشر الاصلاحات، يمكننا أن نميز ايضاً دون صعوبة كوكبة واسعة من الأفراد الذين يمارسون حرفاً مختلفة أو مهناً حرة: صحفيين، أطباء، صيادلة، مهندسين، محامين، ساعاتية، ميكانيكيين... إنها حرف جديدة، نشأت عن التغريب. وهؤلاء الممارسون، أكانوا قد حصلوا على تأهيلهم في أوروبا أم في اسطنبول، يتقاسمون كلهم روح التنظيمات ويبرزون بين المدافعين الأكثر فعالية عن المعارف الجديدة والتقنيات الجديدة. وبفضلهم، سوف تكفى عدة عقود لأن تتمكن الروح العصرية، في الوسط الحضري على الأقل، من الاندراج في نسيج الحياة اليومية.

والواقع ان عدداً معيناً من هؤلاء المجددين كانوا أوروبيين اختاروا النزوح (الى الامبراطورية العثمانية)، ورصيدهم الرئيسى هو الدراية. فصانع الأحذية يجيىء من اقليمه الفرنسى بنموذج نعل. والصيدلى الذى تخرج من جامعة باريس يجيىء بمعادلاته الكيميائية. والمهندس الذى تعلم فى برلين يصل ومعه كرتونات مليئة بالمشاريع. ولم تتأخر غالبية هؤلاء الأجانب عن التأقلم مع المناخ الجديد، فهم يملكون جنوراً لهم فى البلد، ويربون متعلمين أو تلامذة مستعدين لحمل المشعل. وربما كان الطب العثمانى هو المستفيد الأول من هذا التدفق للعقول والمعارف صوب الشرق. فخلال عهد عبدالعزیز، كان فى تركيا عشرات من الأطباء القادمين من أوروبا، الحريصين كلهم على اداء عملهم بما يتمشى مع آخر اكتشافات العلم.

وهناك فريق آخر جدير بالانتباه، هو فريق رجال الدين. ونحن لا نجد من بينهم غير عدد جد ضئيل فى قائمة اعضاء اتحاد الشرق. لكن من قدموا عونهم الى تحقيق التنظيمات، كانوا فى الواقع كثيرين جداً، فى مختلف ارجاء الامبراطورية. ويظهر العلماء بوصفهم قوة متلاحمة فى غالبية الأجهزة المركزية التى انشأها الباب العالى من أجل تحقيق الاصلاحات. كما ان العلماء هم الذين يكفلون، بشكل رئيسى، سير عمل القضاء، بالرغم من التحولات التى حدثت فى

هذا المجال منذ عهد عبدالمجيد، وأخيراً، فإن العلماء ينتشرون فى المدارس - حتى فى المدارس التى تتميز بلمح جد علمانى - ، كما ينتشرون بشكل أوفر فى خدمات وزارات معينة وكذلك فى الادارة المحلية.

فكيف يمكن تفسير احتلال رجال الدين مكانة مهمة كهذه بين كوادى التنظيمات؟ إن الاجابة الاولى التى تتبادر الى الذهن هى أن الدولة العثمانية، لكونها لم تكن قد حازت بعد فى ذلك العصر عدداً كافياً من العناصر المدنية لأداء جميع الوظائف الجديدة التى أنشئت، قد اتجهت بشكل طبيعى تماماً الى الممثلين التقليديين للادارة وللدراسة، العلماء. إلا أن من المناسب أيضاً الاشارة الى أن الروح العصرية المميّزة للتنظيمات لم تكن معادية للدين ولا لرجال الدين. على العكس تماماً: فالمصلحون العثمانيون يتميزون، فى غالبيتهم، بتعلقهم بالتراث الاسلامى. ورجال الدين، من جهتهم، نادراً ما كانوا، فى مجموعهم، معادين للتجديدات، خاصة عندما يجرى تقديمها لهم تحت غطاء إحياء للقيم القديمة. وفى هذه الظروف، فليس هناك ما يدعو الى الاستغراب فى انضمامهم الجماعى الى جيش الاصلاح.

إلا أن مما له أهميته ابراز مسألة : إن أياً من المكونات الاثنية أو الدينية للامبراطورية لم يكن يملك احتكاراً للتنظيمات فقد شارك العالم المسلم فى التحديث جنباً الى جنب التاجر الأرمنى والطبيب اليهودى والصحفى اليونانى والساعاتى القادم من چورا. وبالنسبة لغالبية وجهاء العصر، كما بالنسبة للسلطان ووزرائه، فإن ما كان يدور الحديث عن انقاذه عبر الاصلاحات هو هذه الدولة المتعددة الأجناس والمتعددة الطوائف التى تطل على شرقى البحر المتوسط منذ غابر الزمان.

الإصلاحات الباب العالي

فى اواخر القرن الثامن عشر كان عدد الكتبة الذين يخدمون الحكومة السلطانية ما بين ألف وألف وخمسمائة. وخلال عهد عبدالحميد الثانى، سوف تستوعب مكاتب الباب العالي ما يصل الى ١٠٠٠٠٠ من الأمناء والكتبة من كل لون. وهذه الأرقام تكفى فى حد ذاتها لاعطاء فكرة عن التضخم المثير الذى شهدته المؤسسات الحكومية فى عصر التنظيمات وتسمح بتفسير تعقدها المتزايد. ومن فرط التشكيل وإعادة التشكيل فى الخدمات القائمة، ومن فرط ضم مكاتب جديدة ومستويات جديدة للأجهزة القائمة بالفعل، نجح المصلحون العثمانيون فى ان يخلقوا، فى غضون بضعة عقود، ادارة مركزية تماثل فى طابعها الاخطبوطى الادارة المركزية لدولة ذات تراث بيروقراطى غنى كفرنسا.

ومن الواضح ان النموذج مأخوذ عن اوربا. فالدول الأوروبية الكبرى لها وزارات متخصصة فى ادارة قطاع محدد من الشئون العامة ومن ثم يجرى انشاء وزارات. وعلى غرار ما هو حادث فى الغرب، فإن كل وزارة يجرى تزويدها ايضاً بادارات عديدة وبمكاتب مكلفة بأداء مهمة محددة، وبمجالس تتمثل رسالتها فى توجيه الوزير فى قراراته. على ان ذلك كله قد أخذ وقتاً. وقد تطلب الأمر أكثر من ثلاثين سنة حتى يتحول ديوان الشئون القضائية، الذى انشأه محمود الثانى، الى وزارة حقيقية للعدل، نحو منتصف عهد عبدالعزيز. وبالمثل، فإن وزارة الداخلية لم تظهر الى الوجود إلا فى عام ١٨٦٩. وحتى ذلك الحين، كانت ادارة الولايات تتم من خلال خدمة ملحقة بالصدارة العظمى.

على ان التغيير يكتمل تقريباً عند اوائل سبعينيات القرن التاسع عشر. ففى ذلك العهد يتمتع الباب العالي بسلسلة كاملة من الادارات الوزارية تشمل قطاعات جد متباينة كالشئون الخارجية، والداخلية، والعدل، والمالية، والأوقاف الخيرية،

والتجارة، والزراعة والاشغال العمومية. ويدار كل جهاز من هذه الاجهزة إما من جانب وزير (ناظر) أو من جانب مستشار يشكل جزءاً لا يتجزأ من مجلس الوزراء جنباً الى جنب شخصيات اخرى كشيخ الاسلام والضباط المسئولين عن الهيئات العسكرية (الجيش، المدفعية، البحرية) ورؤساء المجالس الاستشارية المختلفة. والحال أن الجهاز المركزي للسلطة التنفيذية المشكل على هذا النحو إنما يشبه الى حد بعيد المجالس الخاصة السابقة التي اعتاد السلطان العثماني دعوتها الى الانعقاد بهدف ايجاد توافق للآراء بين الممثلين الرئيسيين للسلطة. لكنه، من حيث أسلوب عمله، يقدم بالفعل ملمح «مجلس وزراء» من النمط الأوروبي : فهو يجرى مداولات حول الشئون الجارية ويدرس مشروعات القوانين ويعتمد ميزانية الدولة و ، عند الاقتضاء، يصدر قرارات تمس مجموعة متنوعة كبيرة من الأمور.

ومن بين جميع هيئات الباب العالي، فإن الهيئة التي تحمل بشكل اقوى بصمة الغرب هي وزارة الشئون الخارجية. فهذا الجهاز، الذي يشكل الوصلة الرئيسية بين الدولة العثمانية والخارج، والذي أرسيت أسسه في عهد محمود الثاني، يتميز، نحو عام ١٨٧٠، ببنية جد متنوعة ويجمع عشرين من الأقسام المختلفة. والقسم الأكثر ظهوراً بينها هو مكتب الترجمات (ترجمة اوضاسي) الذي تتمثل مهمته في ترجمة الوثائق المتعلقة بالشئون التي يجرى تصريفها بلغة اخرى غير التركية، وإن كان يكفل ايضاً، عبر ذلك، تكوين صفوات جديدة. فالمرء لا يكتسب فيه مجرد فن صوغ الترجمات. ذلك ان المكتب يشكل في الواقع نوعاً من نادٍ أدبي وسياسي يتعلم فيه أولئك الذين اتاحت لهم فرصة الالتحاق به فك شفرة العالم الحديث. والدور نفسه تلعبه السفارات والمفوضيات. والحال أن الخدمات الدبلوماسية العثمانية بعيدة عن تغطية مجمل المعمورة - فالامبراطورية ليست ممثلة إلا في عشرة بلدان - ، لكنها تكفل على الأقل اتصالاً فعالاً مع العواصم الكبرى : لندن، باريس، فيينا، سان بطرسبورج، برلين، واشنطن، روما... ومن خلالها بشكل رئيسي تصل المعلومات والتحليلات الموجهة الى ان تكون ركيزة لمشروعات الإصلاح التي يضطلع بها الباب العالي.

وبشكل مواز لمختلف الوزارات، فإن الإدارة المركزية للامبراطورية كانت قد زودت هي أيضاً بعدة أجهزة مداولات مهمتها صوغ القوانين والاحكام التي يمكن لمجتمع التنظيمات ان يكون بحاجة اليها. والجهاز الأقدم، والأهم بلاشك، بين هذه الأجهزة، هو المجلس الأعلى للقضاء (مجلس - اي اعلى - اي احكام - اي عدلية)، الذي اسس في عام ١٨٣٨، قبيل موت محمود الثاني، والذي جرى توسيع اختصاصاته في مستهل العهد التالي. ويتمثل دوره في اعداد النصوص التشريعية التي يجب ان تنظم الاصلاحات والسهر على تطبيقها. والحال أن الحقوقيين والأعيان الذين يشكلون جزءاً لا يتجزأ منه يؤدون عملهم بجدية بالغة بحيث أنهم سرعان ما يصبحون المزودين الرئيسيين لنظام الحكم بالقوانين، مع قيامهم في الوقت نفسه بدور محكمة استئناف تنتظر في الخلافات الناشئة عن الأحكام الجديدة.

إلا أنه سرعان ما يكف هذا المجلس عن ان يكون قادراً على مواجهة الحاجات الناشئة عن التنوع المتزايد للمؤسسات ويتعين انشاء أجهزة متخصصة، ذات قوام متواضع غالباً، توكل اليها مهمة دراسة المشكلات التي تتطلب خبرة خاصة. وهكذا، مثلاً، يتم انشاء لجنة مسئولة عن المسائل التجارية، ولجنة أخرى مكرسة لدراسة التدابير التي يتعين اتخاذها لتنمية الزراعة، ولجنة ثالثة تغطي قطاع الاشغال العمومية. وفي عام ١٨٥٤، يتجه الباب العالي أيضاً الى انشاء مجلس اعلى للاصلاحات (مجلس - اي عالي - اي تنظيمات) يتمتع، على غرار المجلس الأعلى للقضاء، بصلاحيات تشريعية وقضائية، وإن كان ينظر اليه بالدرجة الأولى على أنه مجمع بحوث للتنظيمات. وإن يجتمع هذا الجهاز إلا خلال عشر سنوات وسوف ينتهي الى الذوبان في المجلس الأعلى للقضاء الذي كانت رسالته تتمثل في مساعدته، ولكن ليس دون أن يكون قد اثبت، في السابق، فعاليته.

ومن بين الأجهزة التشريعية الأكثر أهمية في ذلك العصر، من المناسب الإشارة أيضاً الى مجلس الدولة (شورى - اي دولة) الذي اسس في عام ١٨٦٨

لكى يحل محل مجلس الاصلاحات الذى كان قد حل فى بداية العقد. ومن حيث الوظائف التى يؤديها، فإن هذا المجلس الجديد المكون من خمس لجان (الداخلية - الشئون العسكرية، المالية، العدل، الأشغال العمومية - التجارة - الزراعة، التعليم) لا يتميز تميزاً ملحوظاً عن الأجهزة التى سبقته. والواقع أن جزءاً من الأعضاء الخمسين الذين يشكلونه يمثل الطوائف غير المسلمة فى الامبراطورية. وعلاوة على ذلك، فإنه يضم أيضاً مندوبين عن مجالس الولايات وعن الطوائف الحرفية. ويشكل هذا المجلس خطوة أولى، جد متروكة، فى اتجاه انشاء جهاز نيابى. على أن دستور ١٨٧٦ ونظام حكم المجالس الذى ينص عليه لن يكونا منذ ذلك الحين جد بعيدين.

ولتسيير عمل هذا الجهاز الادارى الذى يتزايد ثقله، كان من اللازم القيام، فى مدة زمنية قصيرة نسبياً، بتجنيد عدد ملحوظ من الموظفين. ولم يكن بوسع مكتب الترجمات ومدارس الصفوة القليلة التى كانت قد انشئت أن تلبى غير جزء محدود من الاحتياجات. ومن ثم فإن الباب العالى يجد نفسه مضطراً الى التوجه الى طوائف الأقليات - اليونانيين، الأرمن، اليهود - التى يجيد افرادها بوجه عام اللغات الأجنبية ويتكيفون بون صعوبة مع المناهج الحديثة للادارة. كما أنه قد جند الكثيرين من بيئته المعتادة، بيئة الرجال الذين تلقوا تعليماً فى المدارس الاسلامية التقليدية. والخلاصة انه كان عليه أن يصنع سهاماً من جميع انواع الخشب. وهذه الكوادر المتنافرة ليست فوق الشبهات. ولن تتأخر اللوائح التنظيمية التى يصدرها من تولوا منصب الصدر الأعظم بشأن مكاتب الباب العالى فى رصد مختلف صور انعدام الأخلاق المهنية : التغيب عن العمل، الفساد، الأهمال، سرقة الممتلكات العامة، اساءة استخدام السلطة، انعدام الانضباط، الخ، لكن هذه النقائص - التى ينكب ادباء العصر أيضاً على شجبها - لا تبدل شيئاً من حيث الجوهر. فهذه البيروقراطية، غير المؤهلة تأهيلاً ممتازاً للعب الدور الموكل اليها، قد تمكنت، مع وضع كل شىء فى الحسبان، من أن تضع نفسها فى خدمة الاصلاحات.

نحو توحيد للقانون

كانت احدى المهام الرئيسية التى كان على مكاتب الباب العالى انجازها تتمثل فى صوغ قوانين جديدة، تتمشى مع روح التنظيمات. قوانين تليق بدولة حديثة. قوانين يمكن، بشكل خاص، تطبيقها على جميع مواطنى الامبراطورية العثمانية ، دون تمييز فى العرق أو الدين، كما وعدت بذلك المراسيم السلطانية. ولم تكن المهمة سهلة . فقد كان ذلك يعنى تنحية العرف، وتجريد الأقليات من جزء من الامتيازات التى تتمتع بها من الناحية القضائية سعياً إلى اخضاعها للقانون الموحد، كما كان يعنى أخيراً، إعمال قوانين يمكن قبولها من جانب جميع الطوائف، مع الاستمرار فى احترام المبادئ التشريعية الاسلامية.

وبشكل يتميز بقدر كبير من الحذر، فإن الباب العالى لن يتقدم على الطريق الخطر لتوحيد القانون والقضاء إلاً بخطوات صغيرة. وسوف تبدأ الأمور بالاتجاه، فى عام ١٨٤٠، إلى اعتماد قانون عقوبات (جزء قانون ناميسى) مشوش وملتبس الى حد ما، لكنه يستلهم مع ذلك بشكل بالغ الوضوح الأفكار الجديدة. والواقع ان الديباجة تبرز أحد المبادئ الكبرى للتنظيمات، مبدأ مساواة جميع المواطنين أمام القانون، بل انها تنص على ان «الراعى فى الجبل والوزير» سوف يلقيان منذ ذلك الحين معاملة واحدة. وهكذا فإن المساواة لم تعد، فى مجال العقوبات، مسألة ركون الى قرارات تعسفية صادرة عن السلطات. فالتجاوزات المنصوص عليها لا يمكن أن تطبق بشأنها غير العقوبات المنصوص عليها فى القانون، بما يستبعد أى لجوء الى احكام العرف المتقلبة.

والحال أن هذا القانون الأول، المعدل فى عام ١٨٥١، سوف يحل محله، فى عام ١٨٥٨، قانون جديد فرنسى الأصغر. وفى السنوات نفسها، سوف تقدم فرنسا ايضاً الى الدولة العثمانية نموذج قانون تجارى (١٨٥٠، عدل فى عام ١٨٦١) ونموذج قانون تجارة بحرية (١٨٦٣) وجميع هذه النصوص - التى ماتزال جد

متواضعة - تهدف الى غاية واحدة : تزويد الامبراطورية بقوانين مستقرة وشاملة، تتمشى مع حاجات بلد فى معمان التحول.

وصحيح أنه، بالرغم من الاحتياطات التى اتخذها الحقوقيون المكلفون باعداد القوانين الجديدة، فإن هذه القوانين قد صدمت العلماء احياناً. فالقانون التجارى، خاصة، والذي اجاز التسليف مقابل فائدة وأدخل اشكال مشاركة لم يعرفها القانون الاسلامى، سوف يكون بعيداً عن ان يحقق الاجماع وسوف يستثير سجالات حارة. لكن مثل هذه المواجهات، بوجه عام، سوف تظل نادرة، ذلك ان تشريعات التنظيمات تعرف بوجه عام المزج جيداً بين الاسلام والتجديد.

وتلك هى، بوجه خاص، حالة الأثر الحقوقي الرئيسى للتنظيمات، المجلة، وهى المرادف العثمانى للقانون المدنى. فعندما تعلق الأمر بتدشين عمل من هذا النوع، كان الصدر الأعظم على باشا يود التحرك بذات الأسلوب الذى تم التحرك به فيما يتعلق بالنصوص الأخرى المعتمدة بالفعل وكان يود الاكتفاء بتكييف القانون المدنى الفرنسى. على ان الفقهاء الذين اسند اليهم هذا العمل قد ربوا على ذلك رداً قوياً بحيث ان الباب (العالى) قد اضطر الى تغيير رأيه والانحياز الى رأى اولئك الذين دعوا الى تشريع مستند الى الشريعة. والحال ان المجلة، التى اعدت تحت اشراف احمد جودت باشا (١٨٢٣ - ١٨٩٥)، وهو مؤرخ وحقوقي ورجل دولة عظيم الكفاءة، انما تحمل بقوة بصمة هذا التمسك بالتراث الاسلامى وتبدو، من حيث الجوهر، بوصفها سجل قوانين اسلامية تستند الى مذهب ابى حنيفة. على ان هذا العمل الكبير الشأن المؤلف من ستة عشر كتاباً - والذي امتد نشره من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٧٧ - لا يقدم مع ذلك ملمحاً مختلفاً للغاية عما كان قائماً حتى ذلك الحين. فهو من حيث وضوح بنيته الداخلية، ومن حيث الأسلوب المنهجى الذى عولجت به مختلف المسائل فيه، ومن حيث دقة صياغاته، إنما يبرز بوصفه نظيراً اسلامياً مناسباً للقانون النابوليونى واتجلياته المختلفة.

ونحن نجد الخصائص نفسها فى وثيقة اخرى مميزة للعصر، هى القانون الزراعى لعام ١٨٥٨. فهذه الوثيقة المؤلفة من ١٣٢ مادة، والتي تحترم العرف والأحكام الحقوقية الاسلامية، لا تفعل غير تقنين الوضع الفعلى السائد فى الريف العثمانى ولا تغير شيئاً يذكر لا فى اشكال الملكية ولا فى أساليب استقلال الأراضى. أما الجديد بالفعل فهو شكلها. فهى، بدلاً من التشوشات المعقدة للقوانين وللأعراف السارية المفعول حتى ذلك الحين، تحل مجموعة من الأحكام المنظمة، الصالحة للتطبيق فى جميع اقاليم الامبراطورية، والمتميزة بعقلانية مأخوذة عن الغرب.

ومن أجل إعمال القوانين الجديدة، فإن الأمر يتطلب هيئات قضائية جديدة، لأن الهيئات التقليدية، التى يسيطر عليها رجال الدين، لا تتجاوب مع التغير إلا بشكل طفيف. إلا أنه فى هذا المجال ايضاً، يتصرف المصلحون بحذر. إذ لا يمكن أن يدور حديث عن التخلص بجرة قلم من محاكم القضاة الدينية ولا من محاكم الطوائف غير المسلمة. فذلك يعنى الاطاحة بأسس المجتمع العثمانى ذاتها. إلا أن بالامكان الجمع بينها وبين الهيئات القضائية المكلفة باصدار احكام فى الشئون المتصلة بالقوانين الجديدة، على نحو تدريجى.

والحال أن محاكم التجارة، التى انشئت اعتباراً من عام ١٨٤٠، قد شكلت خطوة أولى فى اتجاه قضاء مدنى، منفصل عن الجهاز الدينى، وهذه المحاكم، المشكلة من ثلاثة قضاة معينين من جانب الحكومة ومن أربعة قضاة مساعدين يمثلون التجار المنتمين الى الاقليات والتجار الأوروبيين، إنما تطبق قانوناً مستورداً من فرنسا وتباشر عملها وفق اجراءات مناظرة لتلك المعمول بها فى أوروبا.

وسوف يتم اجتياز خطوة ثانية مع القيام، خلال ستينيات القرن التاسع عشر، بإنشاء شبكة من المحاكم المسماة بالمحاكم النظامية («القانونية» أو «المتمشية مع النظام الجديد») والمكلفة بالنظر فى جميع المسائل التى تخرج عن اختصاص

السلطات الدينية. وقد تم خوض تجربة أولى، فى بداية عهد عبدالمجيد، مع انشاء مجالس مختلطة مكلفة بالنظر فى الشئون الجنائية. وبانشاء المحاكم النظامية، سوف يتم تعميم النظام وسوف نشهد انشاء مجموعة كاملة من الهيئات القضائية، من مجلس الكبار البسيط، المؤلف من اثنى عشرة عضواً، على مستوى الناحية، الى مجلس الدولة، الموجود فى اسطنبول، مروراً بمحاكم الدائرة (قضاء، سنجق) ومحاكم الاستئناف فى مراكز الولايات. والحال ان هذه المحاكم الجديدة، التى يرأسها قضاة، والتى تضم ايضاً بين اعضائها آخرين عديدين يمثلون الجهاز الدينى، قلما تخرج عن اطار الاسلام. لكننا نجد فيها مكاناً لغير المسلمين وكذلك لعدد من غير رجال الدين المعينين من جانب السلطات المدنية. وعلاوة على ذلك، فإن القوانين الصادرة عن الباب العالى هى وحدها التى تملك فيها حق المواطنة. والواقع ان ذلك قد شكل ثورة حقيقية، لكنها صامتة، ولن تستثير بين العلماء غير مقاومة عابرة.

ومن المؤكد أن انتماء الحقوقيين المكلفين بوضع القوانين الجديدة وانشاء الهياكل القضائية الجديدة كلهم تقريباً، وعلى رأسهم جودت باشا، الى فريق العلماء قد سهل الأمور. فقد امكن بهذا الشكل لاصلاح القانون ان يظهر، الى حد بعيد، بوصفه اصلاحاً نابعاً من الداخل. وبهذا الشكل تم تمرير الكثير من اقراص العلاج، بما فى ذلك القرص المر الى حد ما والمتمثل فى اعتماد قوانين مأخوذة عن الغرب المسيحى.

علمنة التعليم

إذا كان العلماء و ، بشكل أعم ، المثقفون المسلمون قد احتلوا، خلال مجمل فترة التنظيمات، مكانة من الدرجة الأولى ليس فقط فى الجهاز القضائى وإنما ايضاً، كما رأينا، فى الخدمات الادارية للدولة، فإن ذلك إنما يرجع الى حد بعيد

الى أن نظام التعليم التقليدى، بشبكة مكاتبه ومدارسه، كان ما يزال يلعب، فى ذلك العصر، دوراً أساسياً فى تكوين الصفوات. وسرعان ما أدرك المصلحون ضرورة انشاء هياكل تعليمية منفصلة عن التربية الدينية، سعياً الى تكوين اشخاص قادرين على ادارة عملية التحديث بفعالية كاملة. على أن علمنة التعليم لن تتقدم إلا ببطء شديد، وذلك بسبب قصور الامكانيات و، خاصة، بسبب عدم وجود عدد كاف من المدرسين، على الأقل فيما يتعلق بالجهاز التربوى الذى اقامته الدولة. والواقع أن الأمور تظهر بمظهر جد مختلف، بين صفوف «أمم» الأقليات. فهنا نشهد «رواجاً» تعليمياً حقيقياً. إذ تظهر الى الوجود فى غضون بضعة عقود مئات من المدارس التى تقدم تعليمًا حديثًا. لكن هذه المدارس لا تفلت من سيطرة مختلف رجال الدين الذين يشرفون على الطوائف.

وخلال عهد محمود الثانى تم انشاء المدارس العلمانية الاولى المخصصة للأطفال وللبالغين. وقرب منتصف القرن، يتميز الجهاز التعليمى للدولة بالفعل بلمح جد متماسك : ففى القاعدة، نجد تعليمًا ابتدائياً يقدم دروساً فى الحساب والتاريخ العثمانى والجغرافيا كما يقدم تربية دينية؛ ثم نجد مرتبة ثانية مؤلفة من مدارس تحمل اسم المدارس الرشدية (مدارس «البالغين») وتقدم للفتيان الذين تتراوح اعمارهم بين عشر وخمس عشرة سنة دروساً فى اللغات (التركية والعربية والفارسية) والرياضيات والهندسة والتاريخ والجغرافيا والدين؛ وأخيراً، نجد دورة «متوسطة» (اعدادية) مدتها ثلاث سنوات، ويتألف برنامجها من عدد متزايد من العلوم (اللغات الشرقية، الفرنسية، الاقتصاد، الجبر، الحساب، مسك الدفاتر، العلوم الفيزيائية، الكيمياء، الفلسفة، التاريخ، الجغرافيا، الأعمال اليدوية). لكن هذه المدارس كانت ماتزال جد قليلة. ووفقاً للكتاب السنوى الرسمى للباب العالى، فإن الامبراطورية العثمانية لم يكن بها، غداة حرب القرم، غير ستين مدرسة رشدية، لا يزيد العدد الاجمالى لتلامذتها عن ٣٣٧١ تلميذاً، فى حين أن مدارس اسطنبول التقليدية وحدها، فى العصر نفسه، كانت تضم ١٦٧٥٢ تلميذاً.

وسوف يتطلب الأمر الانتظار حتى فترة التنظيمات حتى تصبح البنية الأساسية التعليمية للدولة أكثر كثافة الى حد ما. وفى تلك الأثناء، كان فيكتور دوروى، وزير التعليم العام فى ظل نابوليون الثالث، قد زار اسطنبول وقدم الى السلطان مشروعاً لاصلاح التعليم العثمانى. وإثر هذه الزيارة، كان النظام التعليمى الجديد، فى عام ١٨٦٩، موضوع «تنظيم» يستهدف تعميمه. وبوجه خاص، فقد اضيفت درجة جديدة الى الهرم التعليمى، هى درجة المكتب السلطانى («المدرسة السلطانية»)، النظير العثمانى لليسيه.

وأول وأشهر هذه المدارس السلطانية هو ليسيه جالاتا سراى السلطانى، الذى تأسس فى عام ١٨٦٨ بمساعدة من جانب الحكومة الفرنسية. وكانت السلطات العثمانية تصبو الى تحقيق الكثير دفعة واحدة. فالأمر يتعلق بتزويد صفوة محدودة بتعليم يكاد يكون مستورداً بالكامل من فرنسا ويتم تقديمه باللغة الفرنسية. ولدى تخرج التلاميذ من المدرسة، كان من المؤكد أن يصعدوا الى منصب هام فى الادارة بل وكان بوسعهم أن يأملوا فى الوصول الى أعلى مراتب الوظائف العامة. وتمشياً مع ايدىولوجية التنظيمات، فإن المدرسة كانت مفتوحة ليس فقط للمسلمين وإنما أيضاً للأقليات. وكان ذلك اسلوباً مميزاً بشكل خاص لدعوة جميع عناصر السكان العثمانيين إلى المشاركة فى تحديث البلاد. ومن بين المدارس الأخرى من المستوى نفسه، تجدر الإشارة أيضاً إلى دار الشفقة، وهى مدرسة ليسيه لليتامى انشئت فى اسطنبول فى عام ١٨٧٣. والحال ان هذه المدرسة ذات البرنامج العلمى الغالب قد سمحت على نحو خاص بوجود شعبة مكرسة لتعليم البرق. وبهذه الصفة، فإنها قد لعبت دوراً أساسياً فى تنمية وسائل الاتصال الحديثة فى الأراضى العثمانية.

والى جانب اليسيه، فإن مشروع دوروى، الذى تبناه مرسوم عام ١٨٦٩، قد ارتأى انشاء جامعة (دار الفنون) مؤلفة من عدة كليات (الآداب والفلسفة، الحقوق،

العلوم الطبيعية، الرياضيات). والحال أن مشروعاً من هذا النمط، جرى تدشينه في الأعوام الأولى لعهد عبدالمجيد، كان قد منى بالفشل. أما الجامعة الجديدة، التي افتتحت في عام ١٨٧٠ وقيمت في مبنى شيد خصيصاً لهذا الهدف، فلن يحالفها نجاح اكبر. فقد كانت هناك في البداية تهجمات العلماء على تعليم ينظر اليه على أنه شديد العلمانية. ثم ظهرت، بشكل خاص، سلسلة طويلة من المصاعب المالية. والواقع أن موت الصدر الأعظم على باشا، المؤيد الرئيسى للمشروع، في عام ١٨٧١، لن يتأخر في وضع حد للتجربة.

ونظراً لعدم وجود جامعة، فإن الشبان العثمانيين الراغبين في مواصلة دراساتهم سيكون بوسعهم الاتجاه الى مختلف المدارس العليا التي كانت الامبراطورية قد تزودت بها منذ عهد محمود الثانى. ولن تكف قائمة هذه المنشآت عن الامتداد، فهي تشمل مجالات متزايدة التنوع. وكانت ثلاثينيات القرن التاسع عشر قد شهدت ظهور مدارس مسئولة عن تعليم مختلف كوادى الجيش: الضباط، المهندسين، الأطباء، الأطباء البيطريين، الموسيقيين. وسوف تشهد خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر انشاء مدارس عسكرية جديدة، كما سوف تشهد انشاء عدة مدارس مدنية كبرى تبرز بينها بشكل خاص مدرسة الادارة (١٨٥٩) ومدرسة الطب (١٨٦٦) ومدرسة المعلمين العليا (١٨٦٢) و ، علامة العصر، مدرسة المعلمات (١٨٧٠).

وشأنها في ذلك شأن غالبية المنشآت العامة الأخرى، فقد كانت هذه المدارس المختلفة مفتوحة من حيث المبدأ لجميع الرعايا العثمانيين، بصرف النظر عن انتمائهم العرقى أو الدينى. والواقع ان المصلحين قد حرصوا كثيراً على هذا الدمج للطوائف، لأنهم كانوا يعتبرونه أحد شروط بقاء الامبراطورية. وفي حالات معينة، سوف يحرزون انتصاراً: فمدرسة الطب، على سبيل المثال، سوف يكون من بين تلامذتها على مدار زمن طويل نسبة مرتفعة من الأقليات. لكن تعايش الأعراق

والأديان المنتظر من النصوص الوزارية سوف يجد، بوجه عام، صعوبة في التحول الى واقع. أولاً لأن غير المسلمين كانوا جد متعلقين بتراثهم اللغوي والثقافي بحيث يصعب عليهم قبول الذوبان في نظام تعليمي تحمل حداثة، برغم كل شيء، علامة التركية والاسلام. وثانياً لأنهم لهم مدارسهم الخاصة، الأفضل غالباً من المؤسسات التعليمية الموضوعة تحت اشراف الدولة.

وتكفي بضعة أرقام لتكوين فكرة عن التطور الملحوظ الذي عرفته الشبكات المدرسية للأقليات في عصر التنظيمات. ففي عام ١٨٧١، مثلاً، كان للطائفة الأرمنية وحدها ٤٨ مدرسة في اسطنبول و ٤٦٩ منشأة تعليمية منتشرة عبر الأناضول. ونحو العصر نفسه، بفضل الجهود التي اضطلعت بها الجمعية الأدبية الهيلينية (هيلينيكوس فيلولوجيكوس سيلوجوس) جد النشيط، والتي تأسست في اسطنبول في عام ١٨٦١، كان اليونانيون يملكون شبكة ذات ابعاد مماثلة. أما فيما يتعلق باليهود، الأقل عدداً، والمتأخرين الى حد ما من حيث التقدم الثقافي، فلم يكونوا يحوزون بعد غير نصف دزينة من المنشآت التعليمية العلمانية، لكن التحالف الاسرائيلي العالمي - والذي يوجد مقره الرئيسي في باريس - لن يتأخر في تغيير الأحوال بانشائه أكثر من خمسين مدرسة خلال الثلث الأخير من القرن.

وإلى جانب المنشآت التعليمية التي انشأتها الطوائف، من المناسب ان نضيف المدارس العديدة، الموجهة اساساً إلى الأقليات، والتي اقامتها مختلف الهيئات التبشيرية. والحال أن البعثات البروتستانتية الأمريكية وحدها كان ما يخصها في عام ١٨٧٠ - اذا ما صدقنا الاحصاءات التي لاشك في انها تبالغ الى حد ما - اجمالي ٢٠٥ منشأة تعليمية من بينها كلية روبرت الشهيرة التي انشئت في عام ١٨٦٣ في بيبك، احدى قرى الضفة الأوروبية للبُسفور. ومن جهتها، فإن البعثات الكاثوليكية - التي يحركها بوجه عام رجال دين فرنسيون - سوف تنسج شيئاً فشيئاً شبكة واسعة سوف تشمل عدة مئات من المدارس بحلول أواخر القرن.

استعمار ثقافى؟ بالتأكيد. ويبدو أن القادة العثمانيين قد ادركوا ذلك. وكان الوضع أكثر خطورة بقدر ما أن عدداً كبيراً من هذه المدارس سوف يسهم فى اليقظة القومية للأقليات. على أنه كان لابد من انتظار عهد عبدالحميد الثانى حتى تبدأ السلطات فى اتخاذ تدابير، جد متروكة بعد، بهدف عرقلة الظاهرة. وحتى ذلك الحين، سوف يرى الباب العالى أن الامبراطورية، بسماتها بحرية الحركة لطوائف الأقليات والبعثات المسيحية، سوف تكسب بأكثر مما سوف تخسر. ويرجع ذلك الى أن الدولة العثمانية كانت بحاجة الى تعاطف الرأى العام الغربى والى أن الحرية الممنوحة لغير المسلمين فى مجال التعليم تشكل، فى نظر هذا الرأى العام، إحدى العلامات الرئيسية لانفتاح تركيا على افكار التقدم. ومن جهة أخرى، فإن الهياكل التربوية القائمة خارج سيطرة السلطات تتميز بميزة عظيمة : هى ميزة توفير تعليم لا يكلف الدولة شيئاً، مع كونه ممتازاً.

الجيش الجديد

تكوين موظفين جيدين : ذلك هو أحد الأهداف الرئيسية للنظام التعليمى . لكن المصلحين العثمانيين كانوا يسعون ايضاً الى هدف عظيم آخر: تكوين جنود جيدين. فالخفاقات التى حلت بقوات محمود الثانى فى وجه قوات محمد على، خديوى مصر، قد شكلت بالنسبة لقادة الامبراطورية صدمة جسيمة. وهكذا، فإن مشكلة اصلاح الجيش قد أخذت، منذ بداية عهد عبدالمجيد، مأخذ جد شديد، والوصفة هى ذات الوصفة المعتمدة بالنسبة للمجالات الأخرى: التأروب. وهذه الأوربة تمر أولاً بالتعليم المقدم فى المدارس العسكرية. كما تمر باعادة تنظيم عامة للقوات البرية والبحرية. وأخيراً، فإنها تتضمن تغييراً للتسلح وللانضباط العسكرى.

وفيما يتعلق بالتعليم، فإن جيش التنظيمات يتمتع بالفعل ببنية أساسية أقيمت فى عصر محمود الثانى؛ مدرسة المهندسين العسكرية، المدرسة البحرية، مدرسة

الطب العسكرية و ، بوجه خاص، مدرسة العلوم العسكرية (مكتب - اى علوم - اى حربية) التى تأسست عند اواخر العهد. واعتباراً من منتصف القرن، سوف نشهد اضافة عدد كبير من المنشئات الجديدة المنتشرة عبر الامبراطورية الى هذه النواة الأولى. وفى المستوى الأعلى، فإن التجديدات الأكثر اهمية هو انشاء مدرسة لأركان الحرب (اركان - اى حربية مكتبى)، وهى نوع من اكااديمية عسكرية يتم تقديم التعليم فيها من جانب خبراء اوروبيين - فرنسيين وبروسيين - كما فى المؤسسات الكبيرة الأخرى. على أن غالبية المدارس الجديدة مدارس وشدية أو اعدادية تتوجه الى الفتیان الراغبين فى الاندراج فى صفوف الجيش. والخلاصة ان مسألة تكوين كوادر عسكرية يجرى الامساك بها، هذه المرة، عند المستوى الأول. ذلك أن المرشحين لأن يصبحوا ضباطاً فى المستقبل، والذين يتم دمجهم فى مهنة الحرب منذ العاشرة من العمر، يجب لهم أن يصبحوا، من حيث المبدأ، جنوداً ممتازين، على دراية تامة بالعلوم وبالتقنيات الحديثة.

وبالنسبة للجندى البسيط، فإن العزم الذى تبديه الحكومة العثمانية على تحديث الجيش انما يترجم نفسه عبر زى عسكرى موحد جديد - مستمد من الزى العسكرى الموحد للجيش البروسى - ، وأساليب جديدة للتدريب - مستعارة فى البداية من فرنسا ثم فيما بعد من بروسيا - ، وأسلحة أكثر فعالية وحياة ثكنات مشابهة لحياة الثكنات الأوروبية. إلا أنه سوف يكون هناك ما هو أكثر أهمية بكثير: التحولات التى أدخلت على أسلوب التجنيد وعلى تنظيم القوات العسكرية. ففي عام ١٨٤٣، ولأول مرة فى تاريخ الامبراطورية العثمانية، ينشئ فرمان - يستند نصه فى جانب منه الى القانون العسكرى البروسى لعام ١٨١٤ - قيادات للولايات وينشئ خمسة جيوش مكلفة بحماية العاصمة وثراس الشرقية وروميليا والأناضول والولايات العربية بحسب الترتيب. وسوف يظهر الى الوجود، فى عام ١٨٤٨، جيش سادس، يتخذ من بغداد قاعدة له، وتتمثل منطقة عملياته فى العراق والحجاز. وداخل هذه القوات المختلفة، فإن منظومة كاملة من الألوية والبلوكات

والكتائب والآليات تشكل بنياناً مركباً لا يفتقر الى شىء يذكر مما يميز الأجهزة العسكرية للغرب. ويتألف الجيش العثماني من اجمالى نحو ١٥٠.٠٠٠ رجل مجندين بالقرعة. وينتهى الزمن الذى كان المرء يدخل فيه الجيش لكى لا يخرج منه أبداً! فمنذ ذلك الحين، يخدم المجندون لمدة خمس سنوات، يجرى بعدها احالتهم الى الاحتياط (وديف) لمدة سبع سنوات. ونحو الثانية والثلاثين من العمر، تجبىء الحرية.

وسوف يؤدى قانون صادر فى عام ١٨٦٩ الى إثقال النظام بإنشائه ثلاث فئات للخدمة: خدمة عاملة (نظامية) لمدة أربع سنوات، والاحتياطى الذى يبقى فيه الجنود لمدة ست سنوات و ، أخيراً ، «الحرس» (مستحفظ) الذى لن يخرج الاحتياطيون منه إلا بعد ثمانى سنوات، عند بلوغهم الأربعين من العمر. ومن حيث المبدأ، فإن جميع الرعايا العثمانيين يخضعون للقرعة. لكن غير المسلمين - الذين لا يعتبر وجودهم فى الجيش جد مستحب، على الرغم من المقاصد المساواتية لمراسيم الإصلاح - يملكون امكانية اعفائهم بدفع بدل، وهو ضريبة تسمح بـ «التحرر من» الخدمة العسكرية.

ونحو عام ١٨٧٠، نجد أن الجيش العثماني، بمجنديه المنخرطين فى الخدمة العاملة والذين يصل عددهم الى ٢١٠.٠٠٠ مجند وبرديفه الذى يصل الى ١٩٠.٠٠٠ رجل وبحرسه الذى يصل الى ٣٠٠.٠٠٠ مستحفظ، يمثل قوة عسكرية كبيرة العدد نسبياً، حتى وإن كانت تعتبر بعيدة (من حيث العدد) عن الجيش البروسى، القادر على حشد اكثر من مليون من المقاتلين. لكن هذه الأعداد لا تشكل رصيده الوحيد. فهو يتمتع أيضاً بعتاد مماثل لعتاد الجيوش الأوروبية، حتى وإن كانت بعض الأسلحة - خاصة بندقية مارتينى التى يحملها أغلب جنوده - قد أصبحت عتيقة الى حد ما بالفعل. وبعد ارتقاء عبدالعزیز العرش، جرى توجيه اهتمام خاص إلى الاسطول الذى اظهر اداءً بالغ السوء، خلال حرب القرم، أمام الوحدات الروسية. وفى غضون بضع سنوات، فإن البحرية الحربية العثمانية،

المزودة بأحدث البوارج ويجنود مدربين خصيصاً على خدمتها، سوف تصبح ثالث قوة بحرية عالمية. وبشكل اجمالى، فإن الدفاع عن الامبراطورية، أكان فى البر أم فى البحر، لا يبدو أنه يعوزه الكثير.

ولكن ما الذى يستطيعه هذا الجيش الحديث فى وجه النزعات القومية الآخذة فى الظهور والتي تقوض البلاد من الداخل؟ لا شىء أكثر من تأجيل الأجل. وسوف تتاح الفرصة أمام القادة العثمانيين لى يرصدوا أكثر من مرة، فى هذا الشطر الثانى من القرن التاسع عشر، أن الحركات الداعية الى الاستقلال الثقافى والادارى، بل وإلى الاستقلال السياسى التام، والتي تهز بعض الولايات فى اطراف الامبراطورية، إنما تتميز بصمود ملحوظ فى وجه القمع العسكرى.

ادارة الولايات والشئون المالية

من الواضح أن تمويل الاصلاحات، أكان الأمر يتعلق بإنشاء جيش حديث أو بإنشاء بيروقراطية حديثة، إنما يتطلب المجازفة بالتجديد. وفى مجال الشئون المالية، فإن مصلحى عهد التنظيمات لن تعوزهم الأفكار. فهم إما انهم يستلهمون ما هو حادث فى اوربا أو انهم يصوغون حلولهم الخاصة. وفى اثناء ذلك، فإنهم سوف يتمسكون أيضاً بأعادة تنظيم الادارة المحلية، وذلك من اجل تحسين العوائد الضريبية؛ ولكن أيضاً من اجل تأكيد سلطة الدولة على الولايات و ، بشكل موازٍ، من أجل محاولة احتواء التمرد فى المناطق الهشة من الامبراطورية.

وفى المجال الادارى، كان امام الباب العالى نموذج مهيب: هو نموذج المركزة النابوليونية، بهرم دوائرها الصاعد من الكوميون إلى المديرية. وقد نسخ مصطفى رشيد باشا النظام، مع ادخال تعديلات عليه، منذ عام ١٨٤٠. إلا أنه سوف يتعين الانتظار لمدة تزيد عن عشرين سنة حتى تأخذ الأمور شكلاً نهائياً الى هذا الحد أو ذاك. ففى عام ١٨٦٤، بنشئ قانون ٢٧ ولاية، تنقسم كل منها إلى عدد معين من

السناجق، التي تنقسم هي نفسها الى قضايات، مؤلفة من نواح، حيث تتشكل الوحدة الأساسية - تحت النواحي - من القرية أو الحي. وعلى هذا المستوى الأخير، يعهد بالمهام الادارية الى عمدة منتخب (مختار) يساعده مجلس من الكبار. وبعد ذلك، ترتفع الهيراركية من المدير، رئيس الناحية، الى حاكم الولاية (الوالي)، مروراً بالقائم مقام (مدير القضاء) وبالمصرف (حاكم السنجق).

والجانب الأكثر جسارة للإصلاح هو أنه يدخل، على جميع درجات ادارة الولايات، اجهزة منتخبة أو معينة، تتحمل مسئوليات متباينة. فبعضها يعمل كمحاكم ويطبق، تحت رئاسة القضاة، القوانين الجديدة. والبعض الآخر يناقش المشكلات المحلية، أكان الأمر يتعلق بجباية الضرائب أم ببناء الطرق أم، على سبيل المثال، بالتدابير التي يجب اتخاذها لوقف الأعمال اللصوصية، ويصوغ مقترحات يجرى، عند الضرورة، ارسالها الى اسطنبول. وفي غالبية هذه المستويات، فإن قانون عام ١٨٦٤، مؤكداً على ترتيبات سارية المفعول بالفعل، قد نص على وجود عدد معين من غير المسلمين، حتى تتاح الامكانية لتمثيل جميع عناصر السكان. وعلى هذا النحو تجرى الأمور، بشكل خاص، في المجالس العمومية للولايات (مجلس - اى عموم - اى ولاية)، التي يشترك فيها عدد متساو من المسلمين والاقليات ينتخب من جانب السناجق. ويعتبر ذلك خطوة أولى، متواضعة لكنها غير تافهة، في اتجاه نظام حكم نيابى تتطلع اليه الصفوات الليبرالية من صميم افئدتها.

والحال أن الادارة الجديدة للولايات أمامها الكثير الذى يجب عمله : إذ يتوجب عليها العمل على صون النظام العام، وتشبيد المدارس، وشق الطرق، واصلاح الجسور، ورعاية التجارة والزراعة، وتأمين سيادة العدل... لكن إحدى هذه المهمات الاساسية تتمثل ايضاً فى السهر على حسن عمل الأجهزة الضريبية العديدة التي اقامتها الدولة.

وهنا ايضاً، لا تتحسن الأمور من تلقاء نفسها. ذلك أن الاصلاح الذى قام به رشيد باشا، فى عام ١٨٤٠، قد استتبع سلسلة كاملة من التجديدات، خاصة الغاء التزام الضرائب - وهو نظام فات أوانه وقليل العائد كان السكان، علاوة على ذلك، مستائين منه - وإنشاء جهاز من المحصلين المعيّنين من جانب الدولة والذين يحصلون على رواتب منها. إلا أنه سرعان ما تكشف ان النظام الجديد، فى السياق الادارى للعصر، ليس عملياً جداً ومن ثم فقد تعين اعادة الالتزام بالنسبة لعدد كبير من الضرائب. على أن ملمح الشئون الضريبية العثمانية، فى تلك الاثناء، كان قد بدأ فى التنوع، وذلك بفضل روح التجديد التى أظهرها الباب العالى فى هذا المجال، خاصة خلال ولايتى محمد فؤاد باشا (١٨٦١ - ١٨٦٣ و ١٨٦٣ - ١٨٦٦) لمنصب الصدر الأعظم. ونحو منتصف ستينيات القرن التاسع عشر، بدت الترسانة الضريبية التى تتمتع بها الامبراطورية مركبة الى حد ما بالفعل: فهى تشتمل على ضريبة الأغنام وضريبة الجزية التقليدية المفروضة على غير المسلمين وضريبة العشر على المحاصيل، والتى عدلت الى حد ما، وضريبة البديل التى يدفعها الرجال الراغبون فى تجنب الخدمة العسكرية ومجموعة واسعة من الضرائب الجديدة، أكثرها عائداً الضريبة على الممتلكات والضريبة على الانتفاعات والدخول. ومن بين الإيرادات الضريبية الأخرى التى غدت خزائن الدولة، يجب الإشارة أيضاً الى رسوم الدمغة - التى سوف تبرز فى الميزانية العثمانية لعام ١٨٦١ - ١٨٦٢ حيث تشكل نسبة ١٣٪ من اجمالى إيرادات الامبراطورية - ، والرسوم المحصلة عن بطاقات تحقيق الشخصية الموزعة على المواطنين بمناسبة التعدادات السكانية (نفوس تذكريسى)، والضرائب على منتجات مختلفة كالتبغ أو الملح أو المشروبات الكحولية و ، أخيراً، الرسوم الجمركية المحصلة ليس فقط عن السلع المستوردة أو المصدرة، وإنما ايضاً عن السلع التى تمر داخل البلاد.

ولأجل ضمان عائد هذه الضرائب العديدة، كان على الحكومة العثمانية بطبيعة الحال أن تنشئ خدمات ادارية مختلفة مكلفة بتحديد حالة الضرائب وبالسيطرة

على جبايتها. وأهم هذه الأجهزة الجديدة هو جهاز المساحة، الذى تأسس فى عام ١٨٥٨، والذى بدأت أعماله فى مجال تمييز وإحصاء الممتلكات فى السنة نفسها. لكن حشداً من المكاتب الأخرى يرى النور أيضاً، أكان ذلك فى اسطنبول أم على مستوى الولايات، حيث يتخصص كل مكتب فى إدارة نوع معين من الإيرادات.

والحال أن الجهود المشتركة للملتزمين ولجباة الضرائب الذين يحصلون على رواتب من الدولة ولموظفى الجمارك ولفئات أخرى عديدة من الموظفين المكلفين بتنظيم الشئون الضريبية لن تفشل فى إتيان ثمارها. فاعتباراً من عام ١٨٦٠، سوف نلاحظ زيادة ملحوظة فى إيرادات غالبية الضرائب. وهكذا فإن إيرادات ضريبة العشر على المحاصيل سوف يرتفع من ٤٣٤ مليون قرش فى ١٨٦٢ - ١٨٦٣ إلى ٦٧٥ مليون قرش فى ١٨٧٧ - ١٨٧٨. وفى المدة نفسها، سوف يرتفع اجمالى المبالغ المحصلة على شكل بدل من ٦٠ مليوناً إلى ٩٢ مليوناً، فى حين أن المتحصلات المترتبة على رسوم الدمغة سوف ترتفع ارتفاعاً هائلاً، إذ تقفز من ٢٢.٤ مليون إلى ٥٠ مليوناً.

لكن الإصلاحات - وكذلك الانفاقات الكمالية التى قامت بها الدولة، خاصة فى عهد عبدالعزیز - تتطلب الكثير من المال بحيث أنه سرعان ما يتوجب الإذعان لهذا الاستنتاج البديهي : إن من المستحيل التحرك الى الأمام دون استخلاص موارد أخرى غير الموارد التى تتيحها الضرائب. فأين يمكن العثور على هذه الموارد؟ إن المصلحين العثمانيين، إعتقاداً منهم على المثال الذى تعرضه عليهم دول الغرب، سوف يتعين عليهم اللجوء الى وصفيتين خطيرتين بشكل خاص: إصدار اوراق بنكنوت والقروض.

والحال أن اوراق القايم، التى ادخلت الى التداول لأول مرة فى عام ١٨٤٠، ليست اوراق بنكنوت بالمعنى الدقيق للمصطلح، بل هى تبدو بالأحرى بوصفها سندات خزانة تستتبع الحصول على فائدة. والنسبة المعروضة للاصدار الأول

ملحوظة : ١٢٪ فى السنة. وفيما بعد، سوف يجرى اختزالها الى النصف. ومن الناحية النظرية، تعتبر اوراق القايم مضمونة بمبلغ معدنى فى صناديق الخزانة. أما فى الواقع العملى، فإن هذا المبلغ لا وجود له وإصدار الأوراق يتحرك بنشاط. وعندما يسأل السلطان عبدالعزيز وزير خزانته كم تكلف بناء قصر دولاً باختشى، سوف يجيبه الوزير: ٣٥٠٠ قرشاً. وهو المبلغ الذى تعين انفاقه لطبع ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهاً التركية الورقية. وما يزيد من تفاقم الوضع هو أن اوراق القايم - التى كانت تنسخ فى البداية يدوياً - تعتبر قابلة على نحو مثير للتزوير. ولن تتأخر المصاعب عن التراكم : تداول أوراق مزيفة، إنخفاض رهيب لقيمة أوراق القايم بالقياس الى العملة المعدنية و ، خاصة، انهيار ثقة المواطنين فى الدولة. ومن فرط لعبهم دور مطلق الجن، فإن القادة العثمانيين، دون ان يدركوا ذلك ، قد غرسوا بذور الكارثة المالية.

وسعيّاً الى تفادى الأزمة الناجمة عن التكاثر المنفلت للنقود الورقية، وكذلك الى مواصلة تمويل الاصلاحات، سوف تتجه الحكومة، اعتباراً من اواسط القرن، الى وصفة سحرية اخرى : القروض الخارجية. والواقع أن القرض العثمانى الأول، الذى تم عقده فى عام ١٨٥٤، بمعدل فائدة نسبته ٦٪، سوف يجلب مبلغ ٣٣٠٠٠٠٠٠ جنيهاً تركياً موجهة فى جانبها الأعظم الى اخراج اوراق القايم الصادرة حتى ذلك الحين من دائرة التداول. ويشكل ذلك بالنسبة للدولة العثمانية، بداية طفرة الاستدانة. فبين عامى ١٨٥٥ و ١٨٧٥، سوف يجرى عقد أربعة عشر قرضاً جديداً، بمعدلات فائدة تتراوح بين ٤٪ و ٩٪. وفى كل مرة سوف تخطو الامبراطورية العثمانية خطوة اخرى فى اتجاه الافلاس. وسوف يحدث هذا الافلاس فى اواخر عهد عبدالعزيز.

لكنه افلاس لن يكون دون مقابل. فالمال الذى انفقته الدولة لم يخدم مجرد بناء قصور عديمة الجدوى أو شراء بوارج سوف تبلى فى قرن الذهب. فهو قد سمح

بإنشاء مدارس جديدة وبتنمية بنية أساسية إدارية وقضائية، وبتحديث الجيش و ، بشكل اعم ، وضع المجتمع العثماني على طريق التقدم. أمّا ان محركى التنظيمات لم يتمكنوا فى جميع الأحوال من ان يستخدموا الموارد المتاحة لهم استخداماً حصيفاً، فذلك مما لا شك فيه. إلا انه لا شك ايضاً فى انهم، مدفوعين بدافع مشروع عظيم، قد تصرفوا على النحو المناسب: الإقدام على مجازفات.

التطور الاقتصادى والاجتماعى

فى هذا المنتصف للقرن التاسع عشر، ليست مؤسسات وجهاز الدولة وحدها هى التى تتحول، فالتغيير يمس المجتمع كله. وفيما يتعلق بالعالم الحضرى، فإن ذلك يحدث بسهولة تقريباً. فمما لا جدال فيه ان تربة المدن أكثر ملائمة للتنظيمات من تربة الأرياف. لكن المناطق الريفية تتحرك هى أيضاً، بطريقتها. وهى تتحرك بالمعنى الحرفى للكلمة. فحركات السكان العديدة التى نشهد عبر الأراضى العثمانية تشكل احدى الظواهر الأكثر تمييزاً للعصر. وهى حركات متنوعة الانماط: النزوح الريفى، تدفق المهاجرين القادمين من الامبراطورية الروسية؛ هجرات العمل الموسمية؛ البداوة.

أرياف فى حركة

بسبب غياب احصاءات تفصيلية، فمن الصعب أن نحدد بدقة الانزياحات السكانية فى اتجاه المدن. على ان النمو الديموجرافى الذى سجلته منذ منتصف القرن مدن معينة كاستنبول وسميرن وبيروت يعطى فكرة عن الوضع. فنحو عام ١٨٤٠، من المرجح ان عدد سكان استنبول كان اقل من ٤٠٠٠٠٠ نسمة. أما فى عام ١٨٩٠، فإن هذا العدد يصل إلى ٩٠٠٠٠٠ نسمة. وفى المدة نفسها، سوف يرتفع عدد سكان سميرن من ١١٠٠٠٠ نسمة الى ٢٠٠٠٠٠ نسمة. أما بيروت،

فإن سكانها سوف يزيدون من ٤٠٠٠٠ نسمة من خمسينيات القرن التاسع عشر إلى نحو ٨٠٠٠٠ نسمة بعد ذلك بثلاثين سنة. والحال ان عدة مدن اخرى فى الامبراطورية - كسالونيك وأضنه وسامسون- تشهد تطوراً مماثلاً، حتى وإن كانت تظهر منحنيات نمو أقل أهمية. ومن المؤكد أن هذا النمو الديموجرافى إنما يرجع الى تحول ظروف الحياة وتحسن الصحة العامة. كما ان المهاجرين المسلمين القادمين من روسيا لهم دور فى هذا النمو. إلا أن من المتعذر تماماً تفسيره دون اخذ النزوح الريفى فى الحسبان.

فلماذا يرحل الفلاحون وسكان المراكز الريفية الصغيرة عن قراهم؟ إنهم يرحلون لأن الوجود فيها اصبح بالغ الصعوبة ولأنه احياناً ما يكون محصول ردىء أو غارة لصوصية أو كارثة اخرى ما كافية لدفع قرى بأكملها الى القنوط. وخلال مجاعة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ الكبرى، سوف يرى الرحالة الأوروبيون حشوداً من الفلاحين الجائعين الهائمين على وجوههم على طرق وسط الأناضول والذين تركوا ممتلكاتهم بحثاً عن اسباب للعيش فى أماكن اخرى. لكن اقدار الحياة الريفية لا تفسر كل شىء. فإذا كان سكان الأرياف يبدأون فى هجر اراضيهم، فإن ذلك إنما يرجع ايضاً الى افتتاحهم بالمدينة، مدينة التنظيمات، التى تنمى تبادلاتها التجارية مع الغرب، والتى تتزود بنواة صناعية، والتى تعمر بالمنشآت الجديدة، والتى تكفل لسكانها قدراً من الحماية من الكوارث، والتى، بوجه خاص، تتيح عملاً لكل من يبحث عن عمل. ومن الواضح أن المدن الأكثر جاذبية هى تلك التى تشكل بؤرة للتوسع الاقتصادى للامبراطورية: العاصمة، والموانئ الكبرى على بحر ايجة والبحر المتوسط، وكذلك البؤر الجديدة للتصنيع والنمو الزراعى كسامسون أو أضنه.

وغالباً ما تسبق مرحلة انتقالية الرحيل الى المدينة: الهجرة بحثاً عن عمل موسمى. و اعتباراً من اواسط القرن التاسع عشر، مع التطور التدريجى

للمحاصيل التجارية فى سهول الاناضول الساحلية، فإن التحركات المؤقتة من هذا النوع سوف تتسع أكثر فأكثر. والحالة الأكثر أهمية هى حالة الهجرات فى اتجاه قيليقيا والتي تعبىء كل سنة عدة عشرات آلاف من الأفراد القادمين من الهضبة الاناضولية ومن طوروس. ويجرى تشغيل غالبية هؤلاء العمال فى زراعة القطن، الذى أدخل حديثاً الى المنطقة. كما يشارك عدد معين منهم فى جنى المحاصيل. ومع انتهاء الموسم، فإنهم لا يعودون كلهم الى الاماكن التى جاؤا منها. فهناك دائماً من يبقون، إما لأنهم قد نجحوا فى الحصول على عمل فى ضياع السهل الشاسعة، أو لأنهم قد وجدوا عملاً فى المدينة، فى ارضه أو ميرسين.

والى جانب هذه الانزياحات لهؤلاء العمال الموسمين، لابد من اعطاء مكان ايضاً لهجرات قبائل البدو الرحل. فهذه القبائل، التى ماتزال عديدة - خاصة فى الاناضول وفى الولايات العربية - ، تواصل الانشغال بأنشطتها التقليدية، على الرغم من العداوة التى يبدونها تجاههم السكان المستقرون. لكننا أمام بداوة أخذة فى التلاشى، يبدو زوالها حتمياً. ففي أماكن كثيرة، تستقر القبائل بشكل عفوى، غالباً على أراضٍ يتم استيطانها لأول مرة، عندما تكون الأهمية الاقتصادية لمثل هذا التحول واضحة. لكن الدولة هى التى تتدخل أحياناً، مستخدمة القوة مثلاً فعلت من قبل أكثر من مرة. وبوجه خاص، فإن الأمور تسير على هذا النحو فى سهل قيليقيا ومشارفه الجبلية حيث تؤدي عملية «الاضخاع» التى كلف أحمد جودت باشا بقيادتها فى عام ١٨٦٥ ضد بعض القبائل التى ينظر اليها على انها مسرفة فى فوضويتها إلى تسكين جماعات هامة من البدو، بما يشكل نقطة انطلاق لنمو زراعى ملحوظ و ، فيما بعد، لنمو صناعى.

والواقع ان هذه السياسة الخاصة بتسكين البدو لم يكن هدفها هو مجرد تسهيل السيطرة على جماعات سكانية يمكنها تعريض النظام العام للخطر. فهى تستجيب أيضاً لحاجة ملحة، هى العثور على السواعد الضرورية لانطلاق الزراعة

العثمانية، خاصة فى الاقاليم التى يتم استغلالها لأول مرة. ومن أجل تلبية هذه الحاجة اساساً سوف يلجأ الباب العالى ايضاً الى وسيلة أخرى: التوطين الجماعى، فى الأراضى العثمانية، للمهاجرين القادمين من الخارج، من الامبراطورية الروسية أساساً.

والواقع ان هذا التدفق للمهاجرين، والذي يمثل ظاهرة ديموجرافية كبرى، لا يشكل حدثاً جديداً، فمنذ اواخر القرن الثامن عشر، بدأت فى الاتجاه الى الامبراطورية العثمانية جماعات هامة من اللاجئين، القادمين من القرم ومن القوقاز ومن ضفاف بحر قزوين وكذلك من بلدان فى وسط اوربا كالمجر أو بوهيميا أو بولندا. لكن الأبواب سوف تكون مفتوحة بشكل أوسع منذ عهد التنظيمات. فبهدف تشجيع الهجرة، سوف يمضى قانون اصدره الباب العالى فى عام ١٨٥٧ الى حد وعد أسر المهاجرين بقطعة من الأرض وكذلك بالاعفاء من الضرائب ومن الخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين ستة واثنى عشرة عاماً، بحسب مكان الإقامة. والحال أن نتائج سياسة الترحيب بالمهاجرين هذه - والتي ازدادت تعزراً بإنشاء لجنة للمهاجرين فى عام ١٨٦٠ - سوف تكون مثيرة. ويبدو أن موجة الهجرة الأكثر أهمية، وهى موجة هجرة تزار القرم، قد شملت اجمالاً قرابة ٣٠٠٠٠٠ شخص بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٧٦. كما أن التزار النوجاى وتزار الكويان سوف يجيئون بمئات الآلاف للاستقرار فى الامبراطورية العثمانية خلال وبعد حرب القرم. وفى الوقت نفسه، سوف تقدم شعوب القوقاز المختلفة من جهتها نحو ٥٠٠٠٠٠ مهاجر. وبالنسبة لعام ١٨٦٤ وحده، فقد سجلت الاحصاءات العثمانية نحو ٤٠٠٠٠٠ مهاجر قادمين من الموانئ الروسية.

والواقع ان هؤلاء المهاجرين، المستقرين فى المناطق القليلة السكان فى روميليا والأناضول وسوريا، سوف يكونون مستوطنين موفورى النشاط وسوف يسهمون إسهاماً فعالاً فى التطور الاقتصادى للامبراطورية. لكنهم، بطبيعة الحال، لا

يشكلون السلاح الوحيد الذى تتمتع به الحكومة العثمانية لإضفاء حياة جديدة على الأرياف. ففي توازٍ مع توطين يد عاملة وفيرة فى الاراضى المخصصة للاستيطان، لجأت السلطات، منذ بداية عهد عبدالمجيد، الى مجموعة كاملة من التدابير. فهناك، أولاً، فى عام ١٨٤٣، تدشين استقصاء ريفى واسع، تم القيام به فى غالبية الولايات، بهدف تحديد حاجات البلاد. وقد تزايدت المبادرات بعد ذلك: انشاء وزارة للزراعة (١٨٤٦)؛ إنشاء مدرسة للتعليم الزراعى على أطراف اسطنبول (١٨٤٧)؛ اصدار قانون زراعى، فى عام ١٨٥٨، يعمم الملكية الخاصة للأراضى، الإعفاءات الضريبية والتوزيع المجانى للبذور والنباتات بهدف تشجيع بعض المحاصيل المتخصصة كالتبغ والقطن والتوت؛ تحسين وسائل المواصلات، خاصة على الأراضى التى أدخلت حديثاً الى مجال الزراعة، القيام بمختلف أعمال التجفيف والردم وتحسين الأحوال الصحية.

فما هى النتائج؟ إن الحكومة العثمانية سوف تعرضها باعتزاز فى «المعرض الوطنى» الأول الذى افتتح فى اسطنبول فى عام ١٨٦٣: عينات ممتازة من القطن والتبغ، أوعية مملوءة بالشوفان الممتاز النوعية، سلال القمح والذرة، انواع الارز المختلفة، انواع الصوف المختلفة، ومنتجات كثيرة اخرى ايضاً تبرز بينها آلات زراعية مستوردة من فرنسا وانجلترا، تشكل ملمحاً جذاباً رئيسياً من ملامح المعرض. إحتفالية سانجة، لكنها تعطى مع ذلك فكرة عن الطريق الذى سلكته الزراعة العثمانية. والواقع أن هذه الأخيرة لن تتوقف، على مدار عهد التنظيمات، عن التقدم، خاصة فى قطاع المنتجات التصديرية: القطن، التبغ، الحبوب، الفواكه المجففة، النباتات المستخدمة فى الصباغة، الخشخاش، الحرير...

والشاهد على هذا التقدم هو تضاعف مبيعات تركيا للمملكة المتحدة وفرنسا - اكبر شريكين تجاريين لها - بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٧٥. وتعتبر بعض الأرقام مهمة بشكل خاص : ففي عام ١٨٥٥، تصدر الامبراطورية العثمانية ٤١٣.٠٠٠

كجم من القطن إلى فرنسا؛ وفي عام ١٨٧٥، تباع منه ٥٥٦٩٠٠٠ كجم للبلد نفسه. وفي المدن نفسها، تزيد صادرات الحرير من ٣٠٩٠٠٠ كجم إلى ١٢٦٥٠٠٠ كجم، وتزيد صادرات التبغ من ٤٣٤٠٠٠ إلى ٦٨١٠٠٠ كجم. وتكشف التجارة مع إنجلترا عن تطورات مماثلة بل وغالباً أكثر إثارة: تزايد مبيعات الفواكه المجففة بثلاثة أضعاف، تزايد مبيعات الحبوب بعشرة أضعاف، الارتفاع السريع لمبيعات الأفيون.

على أن هذا النمو، بالأرقام المطلقة، يظل متواضعاً. وسوف يتعين الانتظار إلى الفترة الحميدية حتى تبدى الزراعة العثمانية تحركاً حقيقياً وحتى يفتح العالم الريفى على التحديث. فحتى ذلك الحين، نجد أن غالبية أولئك الذين اتاحت لهم الفرصة لاجتياز أرياف الامبراطورية قد رسموا لها لوحة شديدة الكآبة. الفلاح؟ جاهل وبائس. ادواته؟ عتيقة. التدابير. التى تتخذها الإدارة لتحسين حالته؟ محدودة الفعالية. وصحيح انه فى هذا المكان أو ذاك تنشأ ملكيات واسعة يمكن ان نرى فيها بعض الآلات الزراعية وتطبق أساليب استغلال حديثة. لكن احداً لا يغيب عن بصره أن هذه الضياع النموذجية قد شيدت على تعاسة اليد العاملة التى تفلحها - والتى تتألف غالباً من مزارعين جردوا من أراضيهم.

الملح الجديد للمدن

إذا كانت أرياف التنظيمات تتطور مع احتفاظها بملحها التقليدى، فإن المدن، خلافاً لذلك، تشهد فى العصر نفسه تحولاً شديداً للوضوح. وبطبيعة الحال، فإننا نجد مدناً تظل فى المؤخرة وإن تبلغ منعطف الحداثة إلا فى وقت جد متأخر من القرن. أمّا المدن - الموانئ، والمدن الواقعة على المحاور الرئيسية للمواصلات وبعض عواصم الولايات فإنها تتميز منذ عهد عبدالمجيد بملح جديد. وتقدم اسطنبول المثل. على ان مدناً كآزمير وسالونيك، أو حتى مدينة ذات حجم متواضع نسبياً كبورصا، لم تتأخر فى السير على خطاها.

وتتغير مدينة عصر التنظيمات أولاً لأنها تتعاظم. فمع تدفق المهاجرين والقرويين الذين أغرتهم مغامرة النزوح، غالباً ما يتحتم تخطى حدود المدن وإنشاء أحياء جديدة، في محيطها. ولما كانت مناطق السكن الجديدة هذه تستند الى تنظيم حديث الزامى فإنه لم يكن هناك ما يجمع بينها وبين الأحياء القديمة. فالشوارع المنسقة المستعارة من الهندسة المدنية الغربية تحل محل الشبكة المعقدة من الأزقة والحارات الملتوية الضيقة. ووحدة النموذج والعقلانية تحلان محل ما بدا لأعين المخططين في ذلك العصر فوضى تدل على ارتباك وتقلب الأهواء. وفي العصر نفسه، فإن العمارات الايجارية تتكاثر في قلب المدن، بينما تبدأ الأسر المحظوظة في النزوح إلى أحياء أنسب، جد بعيدة أحياناً عن وسط المدينة، لكن الوصول إليها سهل بفضل تطور المواصلات - في بعض المدن العثمانية انتشرت العربة الخفيفة المكشوفة منذ بداية عهد التنظيمات- وشق طرق رئيسية جديدة.

لكن تغيرات أخرى كان من الأسهل رصدها. ففي المقام الأول، هناك مجمل البنى الأساسية المرتبطة بنمو وسائل المواصلات : محطات السكك الحديدية، مكاتب البريد، الأرصفة، مستودعات السلع، الفنادق. وفي اسطنبول، فإن بنايات مكاتب البريد، والتي انشئت منذ أربعينيات القرن التاسع عشر هي التي تبرز بوصفها أول علامات الانبثاق التدريجي لشبكات اتصال جديد. وسرعان ما سوف تكون هناك أيضاً الفنادق الكبرى المخصصة للمسافرين الأوروبيين. وهكذا ففي عام ١٨٥٥، لن تكف صحيفة جورنال دوكونستانتينوبل عن الثناء على فندق امباسادور، وهو مبنى مزود باجنحة رائعة وبقاعة لتناول الطعام «جد فخيمة». وسوف يتعين انتظار آخر سنوات عهد عبدالعزیز حتى تظهر الى الوجود علامات أخرى: محطة سيركيچی الأولى (التي حلت محلها في عام ١٨٨٩ المحطة الحالية)، خط سكة حديد العاصمة والذي يربط جالاتا ببيرا (١٨٧٥)، شبكة عربات الترام التي تجرها الحيوانات (١٨٧٢).

كما أن نمو التبادلات التجارية مع الغرب وانفتاح الامبراطورية على رؤوس الأموال الاجنبية يشكلان عاملاً هاماً من عوامل التغير الحضري. ففي اسطنبول وفي عدد من المدن الأخرى في الامبراطورية، يبدأ في التشكل، نحو منتصف ستينيات القرن التاسع عشر، حي للبنوك التي تؤكد واجهاتها المهيبة انتصار الرأسمالية الغربية. وحول هذه النواة الجديدة للنشاط الاستثماري - والتي تأخذ في تحويل الاسواق (البازارات) القديمة الى مرتبة الغرائب المخصصة لفرجة السياح عليها - ، سوف يتشكل حشد من الدور التجارية ومراكز الأعمال (إتش خانى). وهنا، تتركز الثروة في مكاتب ضيقة متراكمة فيما بينها. فقرب البنوك يجعل المكان باهظ الثمن.

وهذا المال الذى يتزايد وفرة يتوجب انفاقه. والحال ان مدينة التنظيمات، المفتونة بانماط الاستهلاك الأوروبية، هي أيضاً مدينة المحال الفاخرة، وقاعات المسرح والمقهاوى وأماكن التسلية من كل نوع. والواقع ان چيرار دونيرقال، الذى تواجد في اسطنبول بعيد اعلان مرسوم جولخانه، كان شاهداً هناك على حياة جد دنيوية بالفعل، تتميز على نحو خاص بمرور عدة فرق أوروبية للوبرا. وبعد ذلك بثلاثين سنة، سوف تكون امكانيات التسلية اوفر عدداً بكثير، في العاصمة بالتأكيد، ولكن أيضاً في مدن الولايات، وخاصة في المدن - الموانئ الخاضعة الى حد بعيد لنفوذ أوروبا. وفي بداية عهد عبدالحميد، فإن مدينة صغيرة كبورصا سوف يكون بوسعها هي أيضاً ان تفاخر بوجود مسرح فيها. والواقع ان حاكم المدينة في ذلك الوقت كان أحمد وفيق باشا، أحد أباء المسرح العثماني.

وأخيراً، من المناسب الإشارة الى أن الاصلاحات تجد في المدن دائماً تقريباً تجسدها الجمادية: الثكنات، المدارس، البنايات الادارية، المستشفيات، القصور.. والحال أن هذه البنايات، العديدة والمنتشرة الى حد بعيد عبر مجمل الامبراطورية، لم يكن هدفها هو مجرد تلبية ضرورات عملية. فبحكم اتساع ابعادها، وفخامة

خطوطها، وثناء عناصرها الزخرفية، نجد انها تؤكد قوة الدولة وكذلك عصريتها التي تحمل صبغة احترام التقاليد الاسلامية.

فكيف يمكن ادارة هذه المدن التي تمر بتحول سافر؟ إن رجال التنظيمات يهتمون بسرعة بالغة بهذه المسألة ويردون عليها بالاقتداء، مرة اخرى، بأوروبا. وتتمثل الخطوة الأولى، بعد العديد من التحسسات، فى الاتجاه، فى عام ١٨٥٤، الى انشاء بلدية فى اسطنبول، تحت رئاسة عمدة (شهير امينى) يتبعه مجلس من اثنى عشر عضواً. ومن بين المهام العديدة للجهاز الجديد، يبرز تحديد حالة الضرائب المحلية والرقابة على الأسواق، وإعمال تدابير النظافة، والرقابة على امدادات المياه والمؤن الغذائية وتنظيم اعمال البناء. وبعد ذلك بثلاث سنوات، سيتم اجتياز خطوة ثانية، اكثر أهمية: تقسيم العاصمة، اقتداءً بباريس، الى عدة دوائر، لن ترى النور منها على الفور غير الدائرة السادسة، والتي تتألف من حى جالاتا وحى بيرا. وهذه «الدائرة السادسة» - التي تطمح الى ان تكون نداً من حيث الازدهار والكفاءة الادارية للدائرة الباريسية التي تحمل الرقم نفسه - إنما تتميز بطابع تجريبى، وكان على أعضاء البلدية المسؤولين عنها ان يجعلوا منها قطاعاً حضرياً نموذجياً مزوداً بشوارع مرصوفة وأرصفة وشبكة اضاءة للمدينة بالغاز وشبكة توصيل للمياه، وخطوط منتظمة للبنايات، الخ، ويتأكد نجاح هذه التجربة بشكل شديد الحسم بحيث أن الأسلوب الجديد للادارة البلدية سوف يجرى البدء، منذ عام ١٨٦٨، فى تطبيقه فى الأحياء الأخرى فى اسطنبول بل وفى بعض مدن الولاية. وفى عام ١٨٧٧، سوف نشهد النتيجة المنطقية لهذه العملية : إن قانونا اصدره البرلمان الذى ظهر الى الوجود سوف ينشر نظام اسطنبول البلدى عبر جميع مدن الامبراطورية.

وفى توازٍ مع انشاء هياكل بلدية جديدة، سوف نشهد فى العقود نفسها ظهوراً - جد متروك بعد - لشكل آخر للتدخل فى حياة المدن : التخطيط الحضرى.

والحال ان مصطفى رشيد باشا، الراغب فى اعطاء العاصمة العثمانية ملمحاً مماثلاً للمح الحواضر الأوروبية، قد صاغ عدة مبادئ عامة منذ عام ١٨٣٦: يجب توسيع الشوارع، وإزالة الأزقة، وشق طرق رئيسية كبرى، وتشكيل الأحياء على نحو منسق، واستخدام الحجارة فى البناء. والواقع ان مهندساً ألمانيا سوف يصبح فيما بعد واسع الشهرة، هو هيلموت فون مولتكه، لن يتأخر فى تبني هذه المقترحات، مرسياً بذلك أسس الهندسة الحضرية للتخطيطات. وهى هندسة حضرية جد طموحة، وإن كانت قليلة الواقعية غالباً. واعتباراً من عام ١٨٤٨، تاريخ «قانون الانشاءات» الأول، سوف يجرى اقرار سلسلة بأكملها من التدابير، على فترات فاصلة منتظمة، لتحسين النسيج الحضرى. ولن تطبق بشكل عام إلا فى الأحياء التسعة لمحيط المدن.

ومن جهة أخرى، فإن التنظيم يستفيد أولاً من الحرائق. فالبنسبة للمخططين، نجد ان هذه الكوارث التى تؤدى بشكل متكرر الى تدمير الأحياء القديمة إنما تمثل نعمة مشتهاه. وفى عام ١٨٥٦، يؤدى حريق الى تدمير ٦٥٠ منزلاً فى حى أكسراى فى اسطنبول؛ وبعد ذلك بوقت قصير، نجد ان الحى، الذى اعيد بناؤه بالكامل، يعرض مشهد مربع من الشوارع ذات الاتساعات المنسجمة بشكل دقيق، كما ينص على ذلك قانون عام ١٨٤٨. وبعد ذلك بعشر سنوات، فإن وسط المدينة نفسه هو الذى يحترق، بين قرن الذهب وبحر مرمره. وتستفيد السلطات من ذلك لشق الطرق الرئيسية وإزالة الأزقة وتنظيم خطوط الشوارع. وفى عام ١٨٧٠، يتكرر السيناريو نفسه فى بايوغلو، أحد الأحياء «الأفرنجية» فى اسطنبول، حيث تأتى النيران على أكثر من ٣٠٠٠ بناية. وليست العاصمة وحدها هى التى تستفيد من جهود إعادة التنظيم هذه. ففي سالونيك وأزمير وكثير من المدن الأخرى فى الامبراطورية، تتم الأمور بالشكل نفسه. ففي كل مرة ينشب فيها حريق، يستفيد منه رجال البلدية لتطبيق القواعد الجديدة للهندسة الحضرية - وإن لم يكن ذلك بشكل ناجح فى جميع الأحوال.

على أن المخططين والمهندسين المعماريين الذين يتولون، بحكم الظروف، صوغ مدينة التنظيمات لا يكتفون بالنقل الأعمى عن الغرب. فهم يجتهدون في استحداث أسلوب أصيل يراعى التراث البيزنطى والتركى - الإسلامى للإمبراطورية. والمدعش هو أن المعماريين الأوروبيين، القادمين كخبراء، هم الذين يبرزون بوصفهم أنشط المشجعين لهذه الرغبة فى التوليف. وبالنسبة لهم، فإن المسألة فى الأغلب لا تعدو أن تكون مسألة تحقيق «بهاء للمنظر». أما بالنسبة للدولة، التى تستخدمهم، فإن ما يهمها فى الواقع هو التأكيد القوى لهوية عثمانية.

التوسع الاقتصادى

بين العوامل المختلفة التى تحكم تطور المدن فى عصر التنظيمات، يحتل تسارع الأنشطة الاقتصادية مكانة بارزة بشكل خاص. فاعادة تنظيم الموانئ وبناء المخازن ومحطات السكك الحديدية إنما يتمان من أجل التمكن من استيراد وتصدير كميات اعظم من السلع. اما البنوك فهى تبنى من أجل تسهيل التبادلات التجارية وتمويل البنى الأساسية الضرورية.

وهذه الحياة الاقتصادية الآخذة فى التوسع موجهة الى حد بعيد الى الغرب. ففي عام ١٨٣٨، جرى توقيع معاهدة تجارية مع المملكة المتحدة، ثم مع فرنسا. وبين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤١، جرى عقد اتفاقات مماثلة مع سردينيا والسويد والنرويج واسبانيا وهولندا وبروسيا والدانمرك وبوقية توسكانيا الكبرى وبلجيكا. والحال أن جميع هذه المعاهدات، والتى نصت بشكل خاص على تخفيض ملحوظ للرسوم الجمركية بالنسبة للمنتجات المستوردة والغاء الامتيازات الممنوحة للوسطاء المحليين، قد ارسى أسس نزعة ليبرالية شبه مطلقة فى مجال العلاقات التجارية للإمبراطورية. وبشكل مواز، فإنها قد اسهمت الى حد بعيد فى وضع الاقتصاد العثمانى تحت نفوذ الدول الأوروبية العظمى.

والواقع أن تطور التجارة الخارجية، الذي دشنته اتفاقات ١٨٣٨ - ١٨٤١، إنما يشكل الجانب الأكثر اثارة للنمو الاقتصادي الذي عرفتة الامبراطورية في عصر التنظيمات. واليكم بعض الارقام الهامة : في عام ١٨٤٠، بلغت القيمة الاجمالية للصادرات العثمانية ٤.٧ مليون جنيه استرليني؛ ونحو اواخر عهد عبدالعزيز، سوف تصل الى قرابة ٢٠ مليوناً؛ وفي المدة نفسها، فإن الواردات سوف تنتقل قيمتها الاجمالية من ٥.٢ مليون جنيه استرليني إلى قرابة ٢٤ مليوناً. وهذا يعنى ان قيمة التبادلات التجارية للامبراطورية قد زادت بخمسة اضعاف في غضون اربعين سنة. وتكفى مقارنة هذا التزايد السريع مع نسبة النمو التي تصل الى نحو ٨٠٪ والتي تحققت خلال نصف القرن الممتد من عام ١٧٨٠ الى عام ١٨٣٠ لتكوين فكرة عن الانطلاق الذي حدث منذ عهد عبدالمجيد.

وهو انطلاق يستند اساساً إلى الزراعة وتربية الماشية. فالواقع أن تسع سلع - التبغ والقطن والقمح والشعير والزبيب والتين والحريير والخشخاش ووبر الماعز - تمثل وحدها، في اعوام ١٨٥٠ - ١٨٧٠، نحو ٦٠٪ من مبيعات الامبراطورية العثمانية. كما ان النسبة المتبقية تتألف ايضاً، بشكل اساسي، من منتجات زراعية: النباتات التي تستخرج منها الأصباغ، زيت الزيتون، الحبوب التي يستخرج منها الزيت، الجلود، الاسفنج، الخ. وهو انطلاق لا بد من الاشارة الى انه يستفيد ايضاً من الظرف الدولي. فالتوسع الذي تعرفه الأسواق الأوروبية عند منتصف القرن التاسع عشر يعتبر مسئولاً الى حد بعيد عن دينامية الصادرات العثمانية. كما أن حرب الانفصال التي تمزق الولايات المتحدة في بداية ستينيات القرن التاسع عشر تمثل نعمة بالنسبة للامبراطورية، فاليها يتوجه المستوردون الأوروبيون - خاصة اولئك الذين ينتمون الى قطاع النسيج - الذين وجدوا انفسهم محرومين من مصدر امداداتهم التقليدي. وما ان يتبدل الموقف، مع انتهاء الحرب الامريكية، فإن التجارة العثمانية سوف تعاني من النتائج المترتبة على ذلك. والحال

ان سبعينيات القرن التاسع عشر سوف تكون بالنسبة للتجارة العثمانية، خاصة فيما يتعلق بصادرات القطن، فترة انحدار ملحوظ، لن تتسنى مواجهته إلا عبر استحداث قطاعات جديدة للأنشطة.

وفى مقابل منتجاتها الزراعية، تحصل الامبراطورية من شركائها التجاريين - وأهمهم بريطانيا العظمى (التي تجيىء منها عند اواخر السبعينيات نسبة ٤٥٪ من الواردات العثمانية) وفرنسا (١١.٨٪ من الواردات العثمانية فى الفترة نفسها) والنمسا (١١.٨٪) - على مجموعة متنوعة كاملة من المنتجات المصنعة (المنسوجات، الملابس، الأسلحة، الأثاث، الآلات، ساعات الحائط، الأدوات المختلفة، اسلاك التلغراف، المنتجات الدوائية، الخ)، وكذلك على سلع من المستعمرات (السكر، التوابل) ومواد اولية كالفحم والمعادن المختلفة. أما ان الميزان التجارى سيميل باستمرار لصالح اوربا، فإن ذلك يمثل مشكلة خطيرة لن تتمكن الامبراطورية ابدأ من حلها. لكن الأكثر مدعاة للانشغال بكثير هو الآثار السيئة لهذه الواردات على الانتاج الحرفى المحلى. وكان اوبيشينى قد اشار الى هذا الخطر، فى كتابه «رسائل عن تركيا»، منذ منتصف القرن. وفى قطاع المنسوجات، بوجه خاص، تعتبر الكوارث جسيمة. وهكذا فإن ولاية بورصا، على سبيل المثال، كانت قد انتجت فى عام ١٨٤٣ نحو ٢٠٠٠٠ قطعة من المنسوجات - من القطن والحرير. وبعد ذلك بعشرين سنة، فإنها لن تنتج غير ٣٠٠٠ قطعة من هذه المنسوجات. وفى جميع الولايات الخاضعة على نحو مباشر للتغلغل الغربى، تشير الاحصاءات إلى انهيارات مماثلة. ولا تصمد بشكل أفضل غير الاقاليم الواقعة بعيداً عن الشبكات التجارية الكبرى - وتلك هى الحالة بوجه خاص فى الأناضول الشرقية : ففى ايرزينجان وديار بكر وخربوط ومالاتيا، اذا اكتفينا بالإشارة الى عدد قليل من مراكز الانتاج من بين مراكز اخرى كثيرة، نجد ان المئات، واحياناً اكثر من ألف من ورش النسيج الحرفية تواصل العمل حتى عشية الحرب العالمية الأولى.

وفى وجه هذا التدفق للمنتجات المصنعة الأوروبية، لا تجد الامبراطورية نفسها
دون موارد. فسرعان ما سوف تتشكل، كبديل عن الحرف الأخذة فى التلاشى،
حرف «حديثة» قادرة على تحسس الحاجات الجديدة : حرف صناع الكراسى
والنجارين (الذين يقلدون الأثاث المستورد من انجلترا وفرنسا وأماكن أخرى)
وحائكى الملابس ذات الطراز الأوروبى وصانعى الأحذية والساعات والميكانيكيين،
الخ. كما سوف نشهد ظهور عدد من «الفابريقات»، التى تشكل النواة الأولى
لقطاع صناعى لن يبدأ فى التطور، إلا فى وقت متأخر من القرن. وفى غالبية
الحالات، فإن هذه الفابريقات هى منشآت تابعة للدولة تنتج منتجات مخصصة
للجيش (منسوجات، بزات عسكرية، أحذية، أغطية، طرابيش، أسلحة) كما تنتج
منتجات كمالية - فى هيريك، تنتج فابريقة نموذجية السجاد الثمين والمنسوجات
الحريرية، والمنسوجات المخملية - لتلبية حاجات القصر والفئات المحظوظة.

وفى هذا المكان أو ذاك تولد أيضاً أول المشروعات الخاصة : تلك هى حالة
مصنع المناديل الحريرية الذى أنشأه مواطن فرنسى فى بورصا فى عام ١٨٥٠، أو
حالة مصنع البياضات الايطالى الذى أنشئ فى ازمير فى عام ١٨٦٢ أو ، بشكل
خاص، حالة العشرات من ورش غزل الحرير الصغيرة التى اقيمت فى مختلف
مناطق انتاج الحرير فى الامبراطورية. وأخيراً فإن قطاعاً آخر سوف يتطور،
وبشكل أسرع من المصانع، هو قطاع الانتاج المنجمى. فغداة حرب القرم، نجد أن
المخزونات العثمانية من الفحم والنحاس والحديد ومواد أخرى مختلفة كالفضة
والكروم وحجر السن أو البُورق سوف تكون ذات جاذبية شديدة بالنسبة
للمستثمرين الأوروبيين بحيث ان الباب العالى سوف يتعين عليه، فى عام ١٨٦١،
اصدار قانون يحدد حداً اقصى من عشر سنوات لأجل الامتيازات ويرغم
الحاصلين على امتيازات التنقيب على دفع ربع اجمالى ارباحهم للدولة.

وفى النهاية، فإن الامبراطورية العثمانية تشكل، فى هذا المنتصف للقرن
التاسع عشر، بلدا يملك امكانيات ضخمة. فهى بزراعتها الأخذة فى التوسع،

وبمواردها المنجمية الضخمة، وبمتطلباتها المتنوعة الكثيرة من حيث التجهيز الصناعي والخدمات، وهي مزايا من المناسب ان نضيف اليها استقرار نظام حكمها السياسى، انما تتيح لروح الاستثمار مجالاً ممتازاً للحركة. ومن الواضح ان رجال الأعمال الغربيين لن يتأخروا فى ادراك ذلك. والحال ان المواطن الفرنسى الذى اتجه، فى عام ١٨٥٠، إلى انتاج المناديل الحريرية فى بورصا ليس غير واحد من اوروبيين عديدين جاؤا للبحث عن الثروة، خلال الفترة نفسها، فى ارض الاحلام العثمانية.

والى جانب هذه المبادرات الفردية، نجد ايضاً مبادرات المجموعات المالية والبنوك الكبرى. والحال أن العديد من هذه المؤسسات انما يدين بوجوده الى الامكانيات الجديدة التى اصبحت متاحة فى الامبراطورية، خاصة بعد حرب القرم. وتلك هى، بوجه خاص، حالة البنك السلطانى العثمانى، وهو منشأة فرنسية - انجليزية تأسست فى عام ١٨٦٣ إثر الكثير من المحن وتلعب دور بنك الدولة العثمانية. كما انها حالة الكثير من المؤسسات الأخرى التى تحمل اسماء لها دلالتها: الشركة العامة للامبراطورية العثمانية (١٨٦٤)، بنك التسليف العثمانى العام (١٨٦٩)، بنك القسطنطينية (١٨٧٢)، فرع الشركة العامة، الشركة العثمانية للاسهم والأوراق المالية (١٨٧٢)، البنك النمساوى - العثمانى (١٨٧١)، البنك النمساوى - التركى (١٨٧١). وهذه المؤسسات وكثير من المؤسسات الأخرى انما تتمثل مهمتها الأولى فى تزويد الدولة العثمانية بالمال الذى تحتاجه. إلا أنها سرعان ما تهتم ايضاً بتمويل شركات مختلفة تنتمى، كلها تقريباً، الى قطاع المواصلات والى قطاع الخدمات العامة للبلديات.

والإمام الأكبر هو القطار، الذى تعلق عليه الرأسمالية الأوروبية آمالاً عظيمة. وفى هذا المجال، كانت البدايات متواضعة، لكنها واعدة : فخط السكك الحديدية العثمانية من ازمير الى آيدين التابع لصاحب الجلالة السلطان، والذي دشن فى

عام ١٨٦٦ وشيد برؤوس اموال انجليزية وطوله ١٣٠ كيلو مترا، انما يخدم مناطق ازمير الداخلية يثبت كفاءة السكك الحديدية فى نقل السلع الى ميناء تصديرها؛ اما خط السكك الحديدية من ازمير الى كاسابا، الذى يبلغ طوله الاجمالى ١٦٩ كيلومترا، والذى دخل الخدمة فى السنة نفسها، وامتداده الى الاشهير (١٨٧٢)، والخاضعان هما ايضا لسيطرة رؤوس اموال بريطانية، فإنهما يلعبان، فى قطاع آخر من الاراضى الواقعة وراء بحر ايجة، دوراً مماثلاً لدور خط ازمير - آيدين؛ وأخيراً، فإن الشركة السلطانية لخطوط السكك الحديدية فى تركيا الأوروبية (التي سوف تصبح فيما بعد شركة استثمار السكك الحديدية الشرقية)، والتي تكونت فى عام ١٨٦٩ على يد مجموعة مالية تجمع رؤوس اموال بلجيكية وفرنسية ونمساوية، نجد انها تدير، عند اواخر عهد عبدالعزیز، خطاً يبلغ طوله الف كيلو مترا، ويشكل الجزء الأول فى شبكة مهمتها ربط تركيا بالمدن الرئيسية فى أوروبا.

لكن رأس المال الكبير لا يهتم بالسكك الحديدية وحدها. ولن تكف المشاريع عن الأزدهار وسوف ينتهى بعضها الى النجاح. وفى عام ١٨٥٨، نجد ان الكونت ادمون دو بيرثوى ينشئ شركة لبناء طريق مرصوف بين بيروت ودمشق؛ وبعد ذلك بسنوات قليلة (اعتباراً من عام ١٨٦٢)، سوف يكون بوسع مستخدمى الطريق اجتياز مسافة الـ ١١٢ كيلو مترا التى تفصل بين المدينتين فى وقت قياسى لا يزيد عن اثنى عشر ساعة! ونحو الفترة نفسها، تبدأ مشروعات استثمارية أخرى فى التركيز على المشكلات التى طرحها نمو الملاحة البحرية. والحال أن شركة ارصفا موانئ ازمير، والتى تأسست فى عام ١٨٦٧، إنما تعطى اشارة البدء للاتجاه، عبر الامبراطورية، الى الاضطلاع بسلسلة كاملة من الأعمال الخاصة بالموانئ التى سوف تستمر حتى اوائل القرن العشرين. اما شركة كولاس وميشيل، التى يوجد مقرها العام فى باريس، فهى تنهمك من جهتها، فى بداية ستينيات القرن التاسع عشر، فى اقامة مائة فنار على مواضع مختلفة من الساحل العثمانى.

وفى مجال الخدمات العامة، فإن المبادرة الأكثر أهمية هي المبادرة التي اتخذها البنك العثماني، فى عام ١٨٦٩، للمشاركة فى تمويل شركة ترام اسطنبول. وبعيد ذلك، سوف نشهد ايضاً تكوين شركة للمياه، فى المدينة نفسها، برعاية عدة بنوك فرنسية. وليس ذلك غير بداية. فبعد ذلك بعقود قليلة، سوف نشهد فى المدن الكبرى للامبراطورية امتيازات من هذا النوع نفسه.

وطبيعى ان الشئ الهام، بالنسبة لكل هذه المشاريع، هو تحقيق عائد من وراء استثماراتها. فالمشاريع الوحيدة التى ترى النور هي المشاريع التى تبدو مربحة. ولا يأخذ رأس المال الكبير الأوروبى مصالح الامبراطورية العثمانية فى اعتباره إلا بشكل ثانوى للغاية. والحق ان هذه الامبراطورية ليست فى نظر الجماعات المالية غير قطعة من الكعكة الاستعمارية الكبيرة التى تتنازع عليها الدول. وهى قطعة كبيرة الى درجة يتعذر على أية دولة اوروبية التفكير فى الاستئثار بالتها. وتبدأ مناطق النفوذ فى الارتسام بالفعل: العراق ومصر وشبه الجزيرة العربية، وربما فلسطين، لانجلترا؛ سوريا وجنوب شرقى الاناضول و ، خصوصاً ، تونس، لفرنسا؛ محيط البحر الأسود والاناضول الشرقية لروسيا؛ البلقان لروسيا والنمسا...

والباب العالى يدرك الخطر - وذلك بقدر ما أن الأزمات التى تتفجر على مدد منتظمة لا تكف عن تذكيره بهشاشة الوضع الذى تجد فيه الامبراطورية نفسها - لكنه يتظاهر بأنه لا يدركه. وذلك لأن الامبراطورية، المنهمكة فى استراتيجية نمو تستند الى الحرية الاقتصادية، تحتاج الى اوروبا ولا يمكنها التفكير فى ادارة الظهر لها. فهى تحتاج الى منتجاتها ومعارفها ورؤوس اموالها. كما انها تحتاج الى اسواقها. وأوروبا جد ضرورية بالنسبة لها الى درجة انها مستعدة، إذا تحتم ذلك، لأن تدفع لها ثمناً غالياً مقابل المساعدة التى تقدمها.

نهضة الملل

انقاذ الامبراطورية : للوصول الى ذلك راهن الباب العالي على الانفتاح -
الاقتصادى والسياسى والايديولوجى - على الغرب. لكنه مازال يملك فى جعبته
ورقة كبرى اخرى : ورقة الاتحاد الأخرى لجميع شعوب الامبراطورية، تحت
صولجان السلطان.

وسعيًا الى تأمين هذا الاتحاد، الذى لا يمكن ان يوجد فى غيابه سلم اهلى،
فإن رجال التنظيمات قد اكلثروا من ابداء دلائل العطف على الأقليات. فبموجب
مرسوم جولخانه السلطانى، وعدوا جميع رعايا الامبراطورية، اياً كان جنسهم أو
ديانتهم، بأمن تام فيما يتعلق بحياتهم وكرامتهم وثرواتهم واحترام حقوقهم
الشرعية، كما وعدوهم باصلاح للنظام الضريبى يسير فى اتجاه العدل. ثم إن
فرمان الاصلاح لعام ١٨٥٦، والذى صدر غداة حرب القرم، تحت ضغط الدول
الحليفة للامبراطورية، سوف يقطع شوطاً ابعد فى طريق تقديم التنازلات بضمانه
للأقليات حرية العبادة والمساواة مع المسلمين امام القضاء وفى مجال الضرائب،
وامكانية تولى جميع المسئوليات الادارية، والتمتع الحر بحصاناتها التقليدية، خاصة
فى مجال التنظيم الداخلى للطوائف.

على أن هذه التنازلات، التى قوبلت بارتياح عظيم من جانب غير المسلمين،
انما تمثل سلاحاً ذا حدين. فمن المؤكد، من حيث الأساس، انها تتميز بطابع
توحيدي وهى بذلك لا يمكنها إلا ان تسهم فى تأخى الجماعات السكانية الخاضعة.
لكن الحكومة العثمانية، بتركها من جهة اخرى للطوائف حق التسيير الحر لشئونها
الداخلية، إنما تبيع لها ايضاً، بحكم ذلك، أن تنغلق على نفسها فى كياناتها
الخصوصية. ونجد فى ذلك واحدة من ابرز مفارقات التنظيمات. فالمثل الأعلى
للاتحاد والاخاء الذى دافع عنه المصلحون دفاعاً سامياً يلقى ترحيب الجميع، لكنه
يترافق مع نتيجة معاكسة : نهضة مختلف «أمم» الامبراطورية (ان المصطلح

العثماني الذي يشير اليها، «الملل»، يستعيد مفهوم الطوائف الدينية)، تحت التأثير المزيج للمذاهب المستعارة من النزعات القومية الأوروبية والمبدأ العثماني الخاص بـ «حرية التصرف» في مجال ادارة شئون الطوائف.

والواقع ان الأرمن، المنخرطين منذ مستهل القرن التاسع عشر في عملية احياء اقتصادى وثقافى قوية، هم أول من يدركون الفائدة التى يمكن الحصول عليها من النوايا الحكومية الطيبة. وهناك علامة تاريخية: ففي عام ١٨٥٠ نجد أن أولئك الذين نجح المبشرون البريطانيون والامريكيون فى تحويلهم الى اعتناق البروتستانتية من بين الأرمن - وعددهم يصل الى نحو ١٥٠٠٠ فى مجمل الامبراطورية - قد حصلوا من الباب العالى على حق تكوين طائفة مستقلة، هى «الامة البروتستانتية»، يرأسها اسقف يساعده مجلس دينى، لكنها تحوز ايضاً لجنة غير اكليريكية مهمتها ادارة الشئون المدنية للعملة الجديدة. وهذا هو النموذج الذى سوف يستلهمه الأرمن الجريجوريون، الأكثر عدداً بكثير فى الامبراطورية، لاحياء طائفتهم. والحال أن المحاولات الأولى فى هذه الاتجاه كانت قد جرت حتى قبل اعلان التنظيمات، تحت تأثير عدد من الوجهاء المستنيرين الحريصين على علمنة ادارة طائفية خاضعة تماماً لسيطرة رجال الدين. والواقع ان نجاح هذه الجهود سوف يشكل لحظة مميزة اخرى للتاريخ الأرمنى : تصديق الحكومة العثمانية، فى عام ١٨٦٣، على لائحة للطائفة تتمشى مع روح التنظيمات.

على ان «لائحة الامة الأرمنية» هذه لا تبدل كثيراً وضعية الطائفة داخل الامبراطورية. فهى لا تؤدى، اساساً، إلا الى تأكيد امتيازات مكتسبة، خاصة فى مجال الادارة الداخلية. لكنها، على غرار لائحة الامة البروتستانتية، تنص على انشاء جمعية من مائة وأربعين عضواً، تتألف فى غالبيتها من مدنيين، وانتخاب هذه الجمعية لمجلسين، احدهما دينى، مسئول عن الشئون الروحية، والآخر مدنى، يهتم بالشئون الاقتصادية والتعليم. ويعتبر ذلك تجديداً سوف يتبين أنه خطير النتائج. فالواقع ان الجمعية، بدفع من العناصر الأكثر راديكالية، لن تتأخر عن

التحول الى برلمان حقيقى للطائفة ولا عن البروز على المسرح عبر اتخاذ مواقف هدامة بشكل مطرد، تصل الى حد المطالبة دون مراوغة بالاستقلال الذاتى للولايات المأهولة بالأرمن. ومن جهته، فإن البطريك - خاصة ميجيرديتش خريميان، المنتخب فى عام ١٨٦٩، وخليفته نرسييس قاريابيديان - ، مستنداً الى هذه الركيزة المواردة بالحركة، لن يتردد فى تجاوز حدود دوره الدينى ليصبح المدافع عن المطالب القومية التى تطرحها الجمعية.

وعلى المستوى المؤسسى، شهدت الملة اليهودية، مع فاصل زمنى قصير، نفس التطور الذى شهدته الطائفة الأرمنية. وهنا أيضاً، بدأت الأمور بتحسسات ويهجوم شنته الصفوات الليبرالية ضد العناصر المحافظة المصرة على عدم تغيير شىء فى النظام القائم. وهنا أيضاً، مرة اخرى، تم فى نهاية الأمر اعداد لائحة وعرضها على الحكومة للتصديق عليها. والحال ان هذه اللائحة، الصادرة فى عام ١٨٦٥، تشبه كثيراً لائحة الأرمن الجريجوريين. على انها لن تكون لها الآثار السياسية نفسها. فاليهود، المبعثرون على شكل جزر صغيرة فى مختلف ارجاء الامبراطورية ، من الصعب عليهم المطالبة، آنذاك، بوطن قومى، وكل ما يمكنهم التطلع اليه هو تحسين وضعهم المادى والثقافى. وسوف تسهم اللائحة الجديدة فى ذلك بتقييدها لدور الحاخامات، الذين يتخذون موقفاً شديد الفتور غالباً تجاه الأفكار الجديدة، وبمنحها الوجهاء غير الكليريكيين حق مراقبة جميع المؤسسات التى يسيطر عليها الحاخامات : المدارس، المستشفيات، الجمعيات الخيرية، الخ.

وتتخذ الأمور مع اليونانيين ملمحاً آخر. فبين صفوف الأمة الأرثوذكسية، يوجد بالتأكيد، كما بين صفوف اليهود والأرمن، فريق من المجددين يناضل من اجل علمنة معينة للمؤسسات الطائفية. بل اننا نجد بينهم متحمسين للفرقة الهيلينية، مستعدين لحفز حركة مماثلة للحركة التى ادت الى تنشيط الطائفة الأرمنية. على أن البطريكية تبدو متحجرة، بل ومعادية، تجاه كل هذا النشاط، وذلك دون شك، لأن المصالح محل الرهان ملحوظة. وخاصة المصالح المالية :

فرجال الدين الأرثوذكس، بفضل الضرائب الكنسية والممتلكات العديدة التي يمتلكونها، يتمتعون بموارد ملحوظة ولا يمكنهم إلا أن يفتابهم الشك في محاولة غير الكليريكيين الرامية الى التدخل في شئونهم.

لكن إعادة صوغ المؤسسات الطائفية سوف تحدث برغم كل شيء، لكنها سوف تكون محدودة. ذلك ان سلسلة من اللوائح التي صيغت بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٦٢ سوف تنشئ اجهزة لا يغيب عنها المدنيون، إلا انهم لن تكون لهم فيها سلطة كبيرة: جمعية لا تجتمع إلا بمناسبة انتخاب البطريرك؛ مجمع اساقفة مسئول عن المسائل التي تمس العقيدة والانضباط الكنسي؛ مجلس مختلط يتمثل مجال عمله في الشئون المالية والتعليم وأعمال الخير والعدل. وفي هذا المجلس الأخير، يتمتع غير الكليريكيين بالأغلبية. على ان القرارات الهامة لا يمكن اتخاذها إلا بموافقة اعضاء مجمع الاساقفة.

والخلاصة اننا امام اصلاح مجانى، يبقى على صلاحيات البطريركية دون تغيير تقريباً. لكن ذلك لا يرجع الى ان هذه الأخيرة لا يورقها شيء. فالواقع ان الكنيسة الارثوذكسية، منذ عدة عقود، تجد نفسها مواجهة بأزمات جد خطيرة: بروز التطلعات الانفصالية بين صفوف رجال الدين البلغار والرومانيين، الراغبين على حد سواء في التخلص من النير اليونانى - وهو نير يتألف من الاستبعاد الثقافى واللغوى، كما يتألف من الاضطهاد الاقتصادى - وتكوين كنائس مستقلة قادرة، إذا لزم ذلك، على تقديم اسهامها إلى حركات الاستقلال القومى التى تأخذ فى الظهور فى الممتلكات البلقانية للامبراطورية.

وفى رومانيا، نحو منتصف القرن، كانت رومنة الكنيسة تشكل بالفعل عملية جد متقدمة، وسرعان ما لن يكون امام البطريركية إلا ان تسلم بالوضع (على ان الاعتراف الرسمى بكنيسة مستقلة رومانية لن يتم إلا فى عام ١٨٨٥). وفى المقابل، فإن الوضع فى الولايات التى يسكنها البلغاريون سوف يكون اكثر تشوشاً.

فالمدافعون عن الوضع القائم والمطالبون بانشاء كنيسة مستقلة ينخرطون فى حرب مواقع حقيقية. فهم يتنازعون بضراوة على كل قبة اجراس، وعلى كل مدرسة. لكن انصار انشاء كنيسة قومية بلغارية سوف ينتهون بكسب القضية. وفى عام ١٨٦٠، ادت القطيعة بين الكنيسة البلغارية فى اسطنبول والبطريركية الى اعطاء دفعة قوية للانشقاق. وسوف يجىء الاعتراف بالأمر الواقع بعد بضع سنوات : ففى عام ١٨٧٠، وبالرغم من الحرمانات التى اصدرها البطريرك، سوف توافق الحكومة العثمانية على انشاء اسقفية بلغارية مستقلة.

والحال ان انشاء هذه الكنيسة المستقلة انما يشهد بقوة - شأنه فى ذلك شأن تكوين الأمة البروتستانتية قبل ذلك بعشرين سنة - على الاتجاه الى التفتت والذي ابدته الملل غداة اعلان التنظيمات. والى نفس الظاهرة ينتمى رفع طوائف صغيرة كالسريانيين والكلدانيين، خلال العصر نفسه، الى مستوى «الأمم».

ومن الواضح ان تكوين هذه الجماعات الطائفية المستقلة وصعود النزعات القومية المصاحب له لا يتمشيان على نحو مناسب مع الجهود التى بذلها الباب العالى من اجل تعزيز التعايش السلمى بين الأعراق والديانات. إلا انه، مع أخذ كل شىء فى الحسبان، من المناسب الاعتراف بأن المصلحين العثمانيين لم يفعلوا غير جنى ثمار ما زرعوه. وليس هناك ما يدعو الى الاستغراب فى ان جرعة معينة من الحرية ومن الانفتاح على افكار التقدم قد فتحت الطريق امام هجمات متكررة على النظام القائم.

الرجل المريض

حلقة مفرغة : فالاصلاحات تخلق مجالاً ملائماً لانبثاق المطالب. إلا انه لا غنى عن الاتجاه الى اصلاحات لمحاولة درء الاخطار المحدقة من كل جانب. ومن المؤكد ان الامبراطورية إذ تدع نفسها اسيرة لمثل هذه الدوامة، لابد وأن تكون جد مريضة. والوضع جد مثير للقلق بقدر ما ان اولئك الذين يزعمون الحرص على

الاعتناء بها، الدول العظمى للاتلاف الأوربي، قلما يبدو أنهم عازمون على انقاذها. والعبارة التاريخية التي قالها القيصر نيقولا الأول في عام ١٨٥٣ للسير هاميلتون سيمور، سفير إنجلترا، خلال حفل اقامته الدوقة الكبيرة هيلين، انما تتميز في هذا الصدد بازواجية شديدة الوضوح : «اننا مسئولون عن (...) رجل جد مريض؟ واقول لك بصراحة أنه سوف يكون من سوء الحظ البالغ أن ينجو من ايدينا، في يوم من هذه الأيام، خاصة قبل ان يتسنى لنا اتخاذ جميع الاستعدادات الضرورية».

والاخطار ماثلة، عديدة، منذ بداية عهد عبدالمجيد: حرب دائرة مع مصر، نار كامنة في لبنان، مصاعب في كريت، وضع مضطرب في البلقان. والصحف الأوروبية تنشر عنواناً مناسباً يبرز على فترات منتظمة : أزمة الشرق. لكن كلمة «الأزمة» يجب، في الواقع، فهمها في صيغة الجمع، فمن الواضح ان الامبراطورية العثمانية تجتاحها الأزمات من كل حذب وصوب.

الشرق في أزمة

بالنسبة للسلطان الجديد، تبدأ الأمور بكارثة: فنحو منتصف يوليو ١٨٣٩، بعد اسابيع قليلة من انتصار المصريين الساحق على قوات محمود الثاني في نيزيب، يسلم احمد باشا فوزي، الاميرال الأعلى للأسطول العثماني، جميع سفنه لمحمد علي، سعياً الى تفادي سقوطها في أيدي الروس، حلفاء الباب (العالى) غير المرغوب فيهم كثيراً. وفي اسطنبول، يحدث الذعر. إذ كيف يمكن صد مصر دون اسطول؟ والى اى حد سوف تمضى مصر؟ إن احداً لا ينسى ان قوات ابراهيم باشا قد وصلت في عام ١٨٣٣ الى كوتاهيه، على بعد مجرد عدة مئات من الكيلومترات من العاصمة العثمانية. والحال ان الحكومة العثمانية، التي استولى عليها الذعر، سوف تهول الى عرض الملكية الوراثية لمصر على محمد علي. لكن من يحكمون القاهرة لا يقبلون ذلك : فهم يريدون ايضاً سوريا وقيليقيا كما يريدون

تنحية الصدر الأعظم، خسرو باشا، ويتصاعد التوتر وتلوح فى الأفق بالفعل نذر حرب جديدة.

على ان المسألة جد خطيرة بحيث لا يمكن ترك الامبراطورية العثمانية ومصر تسويان خلافهما بنفسيهما. فعلى نتيجة الأزمة يتوقف كل توازن القوى فى البحر المتوسط. والحال ان الدبلوماسية الأوروبية، التى يجرى حثها على التدخل من جانب مصطفى رشيد، سفير الباب (العالى) آنذاك فى لندن، سرعان ما سوف ترى ان عليها التحرك لايجاد تسوية تتمشى مع مصالح الدول العظمى المتقاربة والمتنافرة فى آن واحد.

وسوف تستمر المساومات لمدة تزيد عن سنتين، حيث تتميز على نحو خاص بالتنافس بين فرنسا وانجلترا. فالأولى، التى ترى ان من شأن سيطرة مصرية على سوريا السماح لها بزيادة نفوذها الخاص فى المشرق، تلجأ الى مساندة محمد على. أما انجلترا، فى المقابل، والتى وقعت معاهدة تجارة مربحة مع الباب العالى، فإنها تؤيد المواقف العثمانية، لأنها تعتمد على حكومة اسطنبول فى مساعدتها على احباط الدسائس الفرنسية. كما ان دولة اخرى تحس انها معنية على نحو مباشر بالأزمة: روسيا. لكن هذه الأخيرة تهتم اساساً بوضعية المضائق. وسعيًا الى وضع ممتلكاتها الجنوبية خارج دائرة الخطر، فإنها تتحرق الى اغلاق الدردنيل والبسفور فى المستقبل بشكل دائم فى وجه السفن الحربية، كما نصت على ذلك بالفعل معاهدة هونكار - ايسكيليزى فى عام ١٨٣٣.

والحال أن انجلترا، المتحالفة لهذه المناسبة مع روسيا والنمسا وبروسيا، هى التى سوف تكسب القضية فى نهاية الأمر. وتؤدى المعاهدة الموقعة فى لندن فى ١٣ يوليو ١٨٤١ إلى اعادة سوريا الى السلطان واعطاء مصر لمحمد على، بصفة وراثية، فى مقابل دفع خزينة سنوية من اربعة ملايين قرش واعتراف شكلى خالص بالسيادة العثمانية. وفى اليوم نفسه، تؤدى وثيقة اخرى، هى «الاتفاق بشأن

المضائق»، الى تلبية المطلب الروسى و ، بشكل مواز، تضمن وحدة الامبراطورية العثمانية، ولكن على نحو يتميز بكل الالتباس اللازم : فقد اشير فيها الى ان الدول تود أن تقدم للسلطان «برهاناً صريحاً على الاحترام الذى تكنه لحرمة حقوقه السلطانية» وأن تعرب عن «رغبتها المخلصة فى تعزيز سلامة امبراطوريته». وهى كلمات جميلة، يقصد بها ان تكون مكافأة لحسن سلوك السلطان، وخاصة اصدار مرسوم جولخانه السلطانى. وللوصول الى ذلك، كان لابد من عقد الكثير من المؤتمرات وتوقيع الكثير من البروتوكولات. وبوجه خاص، كان على حلفاء الامبراطورية قصف بيروت (سبتمبر ١٨٤٠)، وانزال جيش صغير الى لبنان (اكتوبر)، واحتلال مدن الساحل الرئيسية واحدة بعد الأخرى، والاتجاه الى محاصرة الاسكندرية (نوفمبر)، وإمطار محمد على بوابل متعاقب حقيقى من الوعود والتهديدات.

وتؤدى المعاهدتان الموقعتان فى لندن، الى حل المسألة المصرية، كما تؤدىان، بشكل مؤقت، الى حل مسألة المضائق، لكنهما لا تضعان البتة نهاية لأزمة الشرق. فهذه الأزمة مثل الوحش الخرافى، فهى تتفجر حياة من جديد كلما ظن المرء انها قد انتهت. والآن فإن رؤوس الوحش الخرافى تسمى كريت ولبنان ورومانيا.

وفى كريت، تعتبر الفوضى متوطنة. فمذ عام ١٨٢١، تتعاقب القلاقل هناك دون انقطاع. وبالنسبة لسكان الجزيرة المسيحيين، الذين تحركهم الدعاية الهيلينية وتدعمهم فى ثورتهم التسللات العسكرية القادمة من القارة، فإن ما يريدونه هو الارتباط بمملكة اليونان الجديدة. ومن الواضح ان ذلك برنامج لا يمكن للعثمانيين قبوله وهم يريدون، كلما تطلبت الظروف ذلك، باللجوء الى القمع. وعلى مدار عشر سنوات، من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٠، نجد ان الجزيرة، الموضوعة تحت وصاية محمد على، قد عرفت قدراً من الهدوء. إلا أنه بعد رحيل المصريين نجد أن الدورة الجهنمية للمذابح التى تتلوها حملات تأديبية تعاود الظهور بشكل أوسع. ويتخذ

الباب (العالي) موقف الحزم، مع سعيه مع ذلك الى ادخال عدد من الاصلاحات لحساب المسيحيين. إلا ان ذلك الجهد بلا طائل. فالقلاقل سوف تتصاعد وتنتهى بأن تؤدي الى تمرد ١٨٦٦ الكبير.

اما الأزمة اللبنانية فهي احد آثار النزاع بين الامبراطورية العثمانية ومصر. فعند احتلال لبنان من جانب قوات ابراهيم باشا، ابن محمد علي، كان هناك بالفعل وقت معين عرفت فيه المنطقة توترات بين مختلف عناصر السكان، خاصة بين الموارنة والدروز. ولم يتردد المصريون في اللعب على هذه التناحرات لزيادة تعزيز سلطتهم. وسرعان ما كان لهم حزبهم، المؤلف اساساً من الموارنة. اما الدروز فقد انحازوا بشكل واسع الى معسكر اولئك المؤيدين للسلطان. والحال أن الانجليز والفرنسيين، الذين يتابعون عن كثب كل ما يجرى في هذا الجزء من العالم، ينخرطون هم ايضاً في اللعبة، حيث يتودد الانجليز للدروز، بينما يلعب الفرنسيون بالورقة المارونية. وذلك برميل بارود يمكن لأبسط شرارة تفجيره. ولن يتطلب الأمر الانتظار طويلاً. فعام ١٨٤٠ عام صعب، يتميز بالانزال الانجلو - عثماني - مع موكب دسائسه - وانسحاب القوات المصرية. وينذر ذلك بهبوب العاصفة. وسوف تهب في عام ١٨٤١، مع اعتناق بشير الثاني، امير لبنان الجديد، للمسيحية. فهذا التحول الى اعتناق المسيحية، والذي يخيف الدروز من هيمنة المسيحيين على جميع روافع السلطة، يؤدي الى مواجهات دموية يشترك فيها ليس فقط المعسكران المتخاصمان، وانما ايضاً الارثوذكس والمسلمون السنيون. ومنذ ذلك الحين، تتحرك الآلة الرهيبة لأعمال العنف بين الطوائف.

وسوف تحتاج الحكومة العثمانية الى ما يقرب من خمس سنوات لاستعادة النظام. وبعد الكثير من التحسسات، يتم التوصل اخيراً الى ترتيب في عام ١٨٤٦. وهذا الترتيب، الذي صاغه مصطفى رشيد باشا، بموافقة الدول، يرتأى انشاء سنجاقين، أحدهما درزي والآخر ماروني، تحت سلطة حكومة عثمانية، و ، بشكل

مصاحب، انشاء سلسلة كاملة من المؤسسات المختلطة المكلفة بمسؤوليات مختلفة، من بينها جمع الضرائب وإدارة القضاء.

على ان السلم الذي يستعاد بهذا الشكل هو سلم هش. ففي عام ١٨٦٠، سوف يتعرض لبنان من جديد للنار والدم على يد الطوائف التي تتقاتل بتواطؤ من جانب فرنسا وانجلترا. ولم تكن احداث عام ١٨٤١ غير نوع من البروفة. اما هذه المرة، إثر القلاقل التي تقع في شمالي البلاد، حيث يطالب الموارنة باصلاح زراعي، فسوف تحدث مجازر جماعية: قتل ما بين ٦٠٠٠ و ١٠٠٠٠ انسان، تخريب المئات من القرى، تدمير ٥٠٠ كنيسة و ٣٠ مدرسة و ٤٠ ديراً. وقلما تسلم بيروت من العاصفة. وسعيًا الى الثأر من الالهانات التي تعرض لها المسلمون هناك، سرعان ما سوف يجيء الدور على دمشق لكي تشتعل. إن نحو ٢٠٠٠٠ انسان سوف يلقون حتفهم في هذه المدينة، خاصة من بين المسيحيين.

اما الدول، التي تراقب عن كثب تطور الأزمة، فهي تنتهي الى التدخل. والسيناريو قريب الشبه بالسيناريو الذي جرى تطبيقه لحل النزاع مع مصر. أولاً ارسال للبوارج الى ميناء بيروت. ثم انزال - من جانب قوات فرنسية هذه المرة. وأخيراً، عقد مؤتمر دولي في اسطنبول يجمع ممثلي انجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا وايطاليا وروسيا. وبالنسبة لفرنسا، فإن ذلك يعتبر حدثاً بارزاً في سياستها التوسعية في الشرق الأدنى. فالواقع ان المؤتمر سوف يمنح لبنان - المختزل، حقاً، الى مناطقه الجبلية - استقلالاً ادارياً وقضائياً ومالياً كاملاً، وسوف يعهد بحكم المنطقة الى موظف كاثوليكي يعينه الباب (العالى) لكنه يخضع لاشراف الدول. وبهذا الاتفاق، الموقع في ٩ يونيو ١٨٦١، تخسر الامبراطورية العثمانية ولاية، وتكسب فرنسا عميلاً.

لقد دامت الأزمة اللبنانية من الناحية العملية عشرين سنة، مع فترات من الهجوع. إلا انه في حين انها قد خيمت على الافاق الشرقية للامبراطورية، فإن

السلطان قد وجد نفسه ايضاً عرضة لمصاعب كثيرة فى ممتلكاته الأوروبية. وهنا، فى اربعينيات القرن التاسع عشر، كانت رومانيا البلد الأكثر اثارة للقلق. وهى رومانيا التى عرفت، من عام ١٨٢٩ إلى عام ١٨٣٤، الاحتلال الروسى والتى تجد نفسها الآن منخرطة، بالرغم من الوصاية المزبوجة عليها من جانب روسيا والامبراطورية العثمانية، فى طريق اليقظة القومية.

وقد بدأت الأمور بفوران ثقافى : إذ يجرى بناء المدارس وإنشاء الصحف وإرساء أسس كتابة تاريخية قومية. ثم يتخذ الأمراء الذين يحكمون فالاشيا ومولدافيا بضع خطوات متردة فى اتجاه توحيد للولايات الرومانية فى المستقبل. وسوف يجيىء الحافز الأخير، فى عام ١٨٤٨، من ربح التمرد التى تجتاح أوروبا. فالثورة تنشب فى باريس، وتنشب فى برلين وروما وفيينا وبراغ وبودابست. كما سوف تنشب فى بلاج وفى ايسلاز وفى بوخارست. وفى ٢١ يونيو، تتخذ جمعية تمثل جميع فئات السكان قراراً بالغاء الامتيازات الاقطاعية، وتعد باصدار دستور وتعلن وحدة واستقلال رومانيا.

والحال أن القوتان الحاميتان، السلطان والقيصر، سوف يردان على ذلك رداً قوياً. فمئذ منتصف صيف ١٨٤٨، سوف يجتاح جيش عثمانى وجيش روسى الولايات الرومانية ويسحقان جميع بوء المقاومة واحدة بعد الأخرى. والواقع ان فالاشيا بوجه خاص، والتى يحتلها الروس، سوف تعرف قمعاً يتميز بقسوة نادرة. وتحدث عملية تمشيط ضخمة يشترك فيها ايضاً، فى ترانسلفانيا، الجيش المجرى. وبعد بضعة اشهر، تتم تسوية المسألة الرومانية بصورة مؤقتة. وفى مايو ١٨٤٩، سوف يكرس اتفاق بالتا - ليمانى هزيمة الثورة ويؤكد الوصاية الروسية - العثمانية على رومانيا التى اصبحت منذ ذلك الحين مجردة من عدد ملحوظ من امتيازاتها.

ولكن كيف يمكن تصور وفاق دائم بين الامبراطورية العثمانية وروسيا، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق إلا بالاتفاق على ضمان الأمن فى الولايات التى يجرى

اخضاعها؟ إن الدولتان لن تتأخرا عن ادارة الظهر احدهما للأخرى والذهاب الى حد القطيعة. فما المبرر؟ لقد رفض الباب العالى ان يسلم لروسيا الثوار المجريين والقالاشيين والبولنديين اللاجئين فى الامبراطورية العثمانية. وتبدو المسألة جد خطيرة بحيث ان فرنسا وانجلترا سوف تسارعان الى تعبئة اساطيلهما، استعداداً للمسارعة الى نجدة السلطان فى حالة وقوع هجوم روسى. وقبل اربع سنوات من نشوب حرب القرم، كانت عناصر المواجهة الكبرى ماثلة بالفعل.

حرب القرم

فى عام ١٨٤٩، كاد الصدام ينشب لأن عدداً من الأفراد الذين اعتبرهم القيصر خطرين قد وجدوا ملاذاً فى تركيا. وفى عام ١٨٥٣، ينشب الصدام لأن الآباء الكاثوليك المقيمين فى الأرض المقدسة لا يتوصلون الى اتفاق مع رجال الدين الارثوذكس حول ملكية بعض الأماكن المقدسة، خاصة كنيسة المهد فى بيت لحم.

وفى البداية، لا تعدو القصة ان تكون قصة مفاتيح. فاللاتين يطالبون باسترداد أحد «حقوقهم التاريخية»: حرية دخول كنيسة بيت لحم وحياسة أحد مفاتيح فتح البوابة الرئيسية للمحراب. لكن البطريركية الارثوذكسية لا تجد أية صعوبة فى ايضاح ان فرماناً سلطانياً يرجع الى منتصف القرن الثامن عشر قد اعترف للكنيسة اليونانية بحراسة المبنى. المسألة إذا مسألة نزاع ليس فيه أى جديد : فمنذ قرون ومختلف رجال الدين المسيحيين الموجودين فى الأرض المقدسة يتنازعون على السيطرة على الأماكن المقدسة المرتبطة بذكرى المسيح؛ ومنذ قرون ايضاً والسلطات العثمانية تعمل على ايجاد حلول - عرجاء غالباً، حقاً - يمكنها ارضاء الجميع.

على ان الدبلوماسية الأوروبية، هذه المرة، تستحوذ على القضية لأنها، بالنسبة لاثنتين من الدول العظمى، فرنسا وروسيا، تجيء فى لحظة مناسبة. ففى

فرنسا، تهتم حكومة الأمير - الرئيس لوى - نابوليون بونابارت، بمسألة الأماكن المقدسة لأنها بحاجة، فى سياستها الداخلية، الى مساندة الكاثوليك؛ وهى تعرف انها بالظهور بمظهر المدافع عن لاتيني الشرق، لا يمكنها إلا ان تكسب تعاطف الحزب الاكثريكى. وبالنسبة لروسيا نيقولا الأول، فإن ما يهمها على الضد من ذلك هو تدعيم صورتها كحامية للكنيسة الأرثوذكسية، وهى صورة تزداد تمسكاً بها بقدر ما انها قد سمحت لها بالفعل بالتدخل اكثر من مرة فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية.

واللعبة جد حرجية، وتنطوى على الكثير من المخاطر، بحيث ان فرنسا، على الرغم من انها تدعى من جديد انها الابنة البكر للكنيسة، قد ترددت فى البداية فى التدخل. على ان الجنرال اوبيك، سفير الجمهورية لدى اسطنبول، سوف يصر فى اواخر عام ١٨٥٠ على الاضطلاع بمسعى لدى الباب العالى، مطالباً باعادة الحقوق التى منحها الامتيازات ومختلف الفرمانات لللاتين اليهم. وبالنسبة للحكومة العثمانية، التى تريد ارضاء فرنسا لكنها تحرص ايضاً على عدم اثارة سخط روسيا، فإن هذا المطلب مطلب جد محرج سوف ترد عليه بالطريقة التى ترد بها جميع الحكومات فى مثل هذه الأمور، فهى تترك الأمور بلا حسم وتحول الملف الى لجنة خاصة.

لكن فرنسا وروسيا تتابعان المسألة عن قرب شديد بحيث انه لا يعود هناك مفر من المسارعة باتخاذ قرار. وهذا القرار مثال نموذجى للتصرف العثمانى فى وجه مثل هذه النزاعات: إذ ينص فرمان صادر فى ٢١ مارس ١٨٥٢ بشكل خاص على ان ثلاثة مفاتيح لكنيسة بيت لحم سوف تسلم لللاتين، لكن هؤلاء الأخيرين لن يكون لهم غير حق الدخول الى المحراب، لا الاشراف على الخدمة الدينية فيه؛ ومن جهة اخرى، فسوف يكون بوسع مختلف الطوائف المسيحية الوصول بحرية الى قبر السيدة العذراء، ولكن بشكل تناوبى ووفق جدول مواعيد محدد سلفاً؛ وأخيراً،

فيما يتعلق بالاماكن المقدسة الأخرى فى الأرض المقدسة، فإن الوضع القائم سوف يظل على ما هو عليه.

وينتاب الدهول الروس. فحقوق الكنيسة الأرثوذكسية تتعرض للاستهزاء! ويعد اشهر قليلة من ذلك سوف يجرى نيقولا الأول محادثته الشهيرة بشأن «الرجل المريض» مع سفير انجلترا فى سان بطرسبورغ. وهو يرى ان اللحظة قد حانت لتسوية المسألة الشرقية تسوية دائمة. فالامبراطورية العثمانية تتخبط منذ وقت طويل بالفعل فى مصاعب داخلية. وفى فرنسا، يبدو ناپوليون الثالث مهتماً أساساً بتوطيد الامبراطورية التى تم اعلانها. أما النمسا، التى زعزعتها بشدة حركات ١٨٤٨ الثورية، فيبدو انها تريد التزام الحياد. فلماذا لا يستفاد من الظروف لتنظيم قسمة على اثنين؟ فانجلترا يمكنها ان تضع يديها على مصر وكريت، بينما تفرض روسيا حمايتها على مولدافيا ووالاشيا وصربيا وبلغاريا وتصبح اسطنبول ميناء حراً.

ولا تستثير هذه المقترحات اى صدى فى لندن. ويعتبر القيصر هذا الصمت قبولاً ضمنياً. ومنذ ذلك الحين، يمكنه السير قدماً.

وفى مارس ١٨٥٣، ينزل كبير ياورانه، الأمير مينشيكوف، وسط ضجيج صاحب، الى العاصمة العثمانية، حاملاً مطالب تتجاوز الحدود : فهو لا يطلب فقط تسوية مسألة الاماكن المقدسة بشكل ملائم لروسيا، وإنما يطلب ايضاً توقيع معاهدة تضع الكنيسة الأرثوذكسية رسمياً تحت حماية الامبراطورية الروسية: وفى مقابل هذه التنازلات، يمكن للسلطان الاعتماد على تحالف القيصر معه.

ومنذ ذلك الحين، يتسارع ايقاع الأزمة. وفى ٤ مايو، يؤدى فرمان صادر عن الباب العالى، بشأن الاماكن المقدسة، الى تثبيت الترتيبات المتخذة فى السنة الماضية. وفى ٥ مايو، يوجه مينشيكوف انذاراً الى الحكومة العثمانية يطلب فيه الإذعان للمطالب الروسية فى ظرف خمسة ايام. وفى ٩ مايو، يجتمع السير

ستراتفورد ريدكليف، سفير إنجلترا في اسطنبول، وأحد افضل المطلعين على احوال الشرق، مع السلطان ويعدده بأن الاسطول البريطانى سوف يساعده. ذلك هو رد لندن على المقترحات المغرية التى كان نيقولا الأول قد قدمها اليها قبل ذلك بأشهر قليلة. فالواقع ان إنجلترا، المنزعجة من التحركات الروسية، والتى تهدد بالاساءة الى مصالحها التجارية والسياسية فى الشرق بشكل جسيم، قد قررت هذه المرة مساندة فرنسا و ، بوجه خاص، سد الطريق فى وجه القيصر. وفى ١٠ مايو، يتعهد السلطان بحماية العقيدة الارثوذكسية وباحترام حصاناتها، لكنه يرفض الارتباط بمعاهدة مع روسيا. وفى الأيام التالية تزداد النبرة تصاعداً. وفى نهاية الشهر، يقرر مينشيكوف أخيراً مغادرة اسطنبول، بعد انذار جديد من جانب القيصر.

وكان يمكن للأمور أن تتوقف عند هذا الحد لكن نيقولا الأول، الذى «يتحسس على خده اصابع السلطان الخمسة»، يقرر شيئاً آخر. ففي ٢٦ يونيو ١٨٥٣، يعلن عن عزمه احتلال الامارات الرومانية على سبيل الارتهان بهدف التمكن من حماية الارثوذكسية بشكل فعال. وهكذا يصبح طريق الحرب مفتوحاً.

وتجرى مع ذلك، وسط العمليات العسكرية الأولى، محاولات للوساطة. ولكن دون طائل. فالقيصر تراوده اطماع ضخمة وينوى الاستفادة من الظرف لتحقيقها. وهو لا يريد ادراك أن الامبراطورية العثمانية يمكنها الاعتماد على مساندة من جانب فرنسا وبريطانيا العظمى، وأن هاتين الدولتين عازمتان على عمل كل شيء لمنع التوسع الروسى فى الشرق.

والحق ان المساعدة الفرنسية - الانجليزية ليست مجانية. فالدول الحليفة مستعدة لضمان وحدة الامبراطورية العثمانية واستقلال السلطان، لكنها تطلب فى المقابل ان تتعهد حكومة اسطنبول بتحقيق اصلاحات تكفل المساواة. ويتم ذلك فى ١٢ مارس ١٨٥٤، مع توقيع معاهدة القسطنطينية. وبعد ذلك بعدة ايام، سوف

يكون بوسع فرنسا وبريطانيا العظمى اعلان الحرب على القيصر الذي عبر جيشه الدانوب.

وفي البلقان، فإن القوات العثمانية هي التي سوف يتعين عليها ان تتحمل، بشكل اساسى، عبء الأعمال الحربية. وبفضل مساعدة وحدات حليفة، سوف تتجنب ويلاتها بشكل معقول. فنحو اواخر الصيف، تلحق الهزيمة بالفعل بالروس. لكن الانجليز لا يريدون الاكتفاء بهذا الانتصار البرى؛ فما يريدونه هو القضاء على القوة البحرية الروسية و ، وصولاً الى ذلك، فإنهم يصرون على نقل الحرب الى القرم حيث تتواجد بشكل خاص ترسانة سيياستوپول الضخمة.

سبتمبر ١٨٥٤ - سبتمبر ١٨٥٥ : لقد تطلب الأمر نحو سنة من المعارك الضارية لسحق مقاومة الروس العنيدة. ففي البداية، سوف يحارب نحو ٦٠٠٠٠ رجل - ٣٠٠٠٠ فرنسى، ٢١٠٠٠ انجليزى ، ٦٠٠٠ عثمانى - امام سيياستوپول. وسوف يصبحون ١٤٠٠٠٠ فى ربيع ١٨٥٥. وبفضل المراسلين العسكريين والفوتوغرافيا، التي تبدأ فى الظهور فى الصحف، يصبح بوسع الرأى العام الأوروبى متابعة سير العمليات، خطوة خطوة، بذعر متزايد. فأسماء المعارك الكبرى تحفر فى الذاكرة جنباً الى جنب صور المذبحة: جرف آلما، بالاكلافا، انكيرمان، مالاكوڤ، تراكتير. إنها حرب حديثة، لا تعرف تقتيراً فى الامكانات ولا فى عدد المضحايا. والهجوم الوحيد على برج مالاكوڤ (٨ سبتمبر ١٨٥٥) سوف يكلف الحلفاء ١٠٠٠٠ قتيل، وسوف يكلف الروس ١٣٠٠٠ قتيل. وصحيح ان ذلك مجهود حربى أخير. لكن عشرات الآلاف من الرجال كانوا قد ماتوا قبل ذلك فى المعارك وكذلك تحت ضربات الاسقربوط والتيفوس والكوليرا.

ويؤدى الاستيلاء على سيياستوپول، فى ١٠ سبتمبر ١٨٥٥، الى وضع نهاية للحرب. ويتوجب الآن عقد الصلح ومحاولة الوصول، مرة اخرى، الى حل دائم للمسألة الشرقية. لكن الصلح، كالحرب، ليس مجانياً. فالسلطان يجب أن يقدم

تنازلات. ويتوجب عليه، بشكل خاص، مراعاة الوعد الذي قدمه في عام ١٨٥٤ والخاص بتطبيق سلسلة جديدة من الاصلاحات.

ويتعين لمؤتمر الصلح ان يبدأ اعماله في باريس في ٢٥ فبراير ١٨٥٦. وقبل عدة ايام من هذا الموعد، سوف يبلغ الباب العالي الدول بمرسوم سلطاني (خط همايوني) سوف يصبح علامة أساسية في تاريخ التنظيمات. وهذا النص أدق بكثير وأكثر تفصيلاً من خط ١٨٣٩ الشريف. فهو يضمن للطوائف غير المسلمة، دفعة واحدة، احترام حصاناتها التقليدية، وحرية العبادة، وحق ادارة ممتلكاتها دون أدنى عائق. ومن المؤكد أن ذلك يفوت الفرصة على أولئك الذين حاولوا، قبل ذلك بعدة سنوات، التذرع بمسألة الأماكن المقدسة لفرض حمايتهم على مسيحيي الشرق. وخلال ذلك، يدخل المرسوم تجديداً هاماً: فمنذ ذلك الحين، سوف يحصل مختلف رجال الدين من طوائفهم على اجر محدد، بشكل يؤدي الى تجنب الابتزازات العديدة التي يشكو منها رعاياهم. ومن جهة اخرى، فقد جرى النص على سلسلة من الاصلاحات : إن جميع رعايا الامبراطورية سوف يكونون متساوين فيما يتعلق بالضرائب والقضاء والتعليم؛ وسوف يكون بوسعهم تولي وظائف واحدة والالتحاق بمدارس واحدة؛ والمساواة في الحقوق تستتبع المساواة في الواجبات، فالجميع سوف يخضعون ايضاً لقانون التجنيد العسكري، على ألا يتم الاعفاء إلا عن طريق دفع البدل؛ ومن اجل اتاحة الفرصة امام كل طائفة لكي تكون ممثلة، سوف يجرى الاتجاه الى اعادة تنظيم الهياكل الادارية للولايات؛ وفي المستقبل، سوف تكون للدولة ميزانية سنوية وسوف تسهر على حسن ادارة المالية العامة؛ كما انها سوف ترتبط بتطبيق اعمال من اجل الصالح العام؛ وسوف تبيح انشاء البنوك والشركات المالية الأخرى؛ وسوف تحارب الفساد والاختلاسات، الخ.

على وجه الإجمال، فإننا ازاء برنامج كامل للاصلاحات التي يجرى بالفعل تنفيذ بعضها منذ وقت طويل والتي سوف يلعب بعضها الآخر، الجسور بدرجة

كافية، دوراً حاسماً في التطور التالى للامبراطورية العثمانية. وفي باريس، فإن الدول تسجل، بارتياح، «القيمة العظمى لهذا البلاغ». وهناك ما يدعو الى الارتياح: فمرسوم ١٨٥٦ لا يكتفى بادخال عدد معين من الاصلاحات الداخلية؛ فهو يرسى الأسس لتغلغل متزايد للنفوذ الغربى فى الامبراطورية.

والنوايا الحسنة للباب العالى جد واضحة بحيث ان عدة اسابيع سوف تكون كافية للتوصل الى اتفاق. لكن جميع الأطراف الحاضرة تجد نفسها مدفوعة الى توقيع الصلح. فقد خرجت روسيا من الحرب منهكة. وفي فرنسا، يعترف نابليون الثالث بأنه قد اعطى «اربعة اصابع من يده» للتوصل بأسرع ما يمكن الى اتفاق. أما انجلترا، التى تتحمل المسئولية عن مغامرة القرم، فهى تبدأ فى ادراك انه كان بالامكان الاستغناء عنها وأنه يجب طى الصفحة دون تأخير.

ومن الناحية الظاهرية، فإن معاهدة باريس، الموقعة فى ٣٠ مارس ١٨٥٦، تعتبر مؤاتية للسلطان. إلا انه ما ان يهتم المرء قليلاً بفك رموز اللغة الدبلوماسية، حتى تتكشف بجلاء رغبة الدول فى التدخل فى شئون الامبراطورية. وينطبق ذلك بشكل خاص على المادة ٧ التى تكفل للدولة العثمانية، على نحو زاعق، احترام استقلالها ووحدة أراضيها: «إن الاطراف المتعاقدة السامية، رغبة منها فى اشتراك الباب العالى فى مزايا الاتحاد الأوروبى المكون بين الدول الأوروبية وفق القانون العام تتعهد، كل طرف من جهته، باحترام استقلال ووحدة أراضي الامبراطورية العثمانية، وتضمن بشكل مشترك المراعاة الصارمة لهذا التعهد وتعتبر، بناءً على ذلك، أى اجراء أو حدث من شأنه ان يشكل تهديداً لها مسألة تهم أوروبا». وهذه طريقة، كآية طريقة أخرى، للقول بأن الدول تحتفظ لنفسها بحق التحرك فى جميع الظروف التى يبدو لها انها تحتم تدخلاً. أما المواد من ١٠ إلى ١٤ والتى تؤكد الاتفاق بشأن المضائق وتحظر على الأساطيل الحربية، بما فى ذلك اساطيل الدول المطلة على البحر الأسود، الملاحة فى هذا البحر، فهى تضع بالمثل

قيداً غريباً على السيادة العثمانية. وإلى النتيجة نفسها تؤدي المواد من ١٥ إلى ١٩ والتي تنص على تدويل الدانوب ومصباته، تحت إشراف لجنة تعيينها الدول. وبموجب المواد من ٢٠ إلى ٢٧، تستعيد الامبراطورية العثمانية سيادتها على الإمارات الرومانية، إلا أنه يتعين عليها التصالح مع سلسلة كاملة من القيود وقبول أن تقدم لجنة أوروبية مقترحات بشأن تنظيمها في المستقبل. وفي الاتجاه نفسه، أخيراً، تنص المادتان ٢٨ و ٢٩ على أن «إمارة صربيا سوف تظل منتسبة إلى الباب العالي»، لكن «حقوقها وحصاناتها سوف توضع من الآن فصاعداً تحت الضمان الجماعي من جانب الدول المتعاقدة».

وبالنسبة للامبراطورية العثمانية، تعتبر (المعاهدة) انتصاراً بالرغم من كل شيء. لكنه انتصار فادح الثمن. وصحيح أن السلطان لا يجد أية خسارة اقليمية يمكنه الأسف لها. بل إن معاهدة باريس قد منحته، في الولايات الرومانية، تعديلاً حدودياً يسهم في إبعاد روسيا عن مصبات الدانوب. لكن من الواضح أن الاشتراك في «مزايا الاتحاد الأوروبي» ليس مجانياً. ففي مايو ١٨٥٣، رفض السلطان إنذار الأمير مينشيكوف لكي يتفادى خطر الوصاية الروسية. والآن يواجه الوصاية، التي لا تقل خطراً حتى وإن كانت تتستر بمظاهر خادعة أكثر وداً، من جانب أوروبا المؤتلفة.

تقويض الصلح

في باريس، كان مطمح الدول هو إيجاد حل نهائي للمسألة الشرقية. لكن هذا الحل النهائي سوف يكون، في الواقع، مؤقتاً إلى أبعد حد. فالاتفاق الذي تم التوصل إليه قد استند إلى حد بعيد على احترام وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية التي يكلفها الاتحاد الأوروبي. إلا أنه سرعان ما سوف يظهر أن أوروبا ليست مستعدة للالتزام باقوالها. وسرعان ما سوف يظهر أيضاً أن فكرة «الاتحاد»

نفسها ليست غير غواية قلما يمكن للباب العالي الاعتماد عليها. فمنذ أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، كانت قد بدأت عملية تفكك الوفاق الأوروبي الذي كان قد سمح بتوقيع معاهدة باريس. والحال أن التحالفات الجديدة التي اخذت تلوح في الأفق - خاصة التقارب بين النمسا والمانيا وروسيا والذي سوف يؤدي، في عام ١٨٧٢، الى تكوين رابطة الأباطرة الثلاثة - قلما تتم لتشجيع الحفاظ على الوضع القائم في الشرق.

والواقع ان الامارات الرومانية هي أول من سوف يبدأ عملية التقويض التدريجي لما تمت اقامته في باريس. فهنا، نصت المعاهدة على الابقاء على ولايتين متميزتين، مولدافيا وقلالاشيا، على أن يكون لكل منهما اميرها ومؤسساتها الخاصة. على أنه، منذ عام ١٨٥٧، وبتحريض من اللجنة الأوروبية المكلفة بارساء أسس تنظيم جديد في الامارتين، لم تتردد الجمعيتان الاستشاريتان، المولدافية والقلالاشية، في الاعراب عن تحبيذهما للاتحاد، حيث اشتركتا في التو والحال في انشاء مؤسسات مشتركة. والحال أن الانتخاب الذي تم، في عام ١٨٥٩، لرجل واحد، هو الكولونيل الكسندر كوزا، على رأس الامارتين، سوف يشكل انتهاكاً اضافياً لأحكام معاهدة باريس. وبطبيعة الحال، فإن الباب العالي، مدعوماً من النمسا، المعادية لاتحاد الامارتين، سوف يسارع الى الاحتجاج. لكنه يضطر في نهاية الأمر، تحت ضغط من فرنسا، الى قبول الأمر الواقع. وفي عام ١٨٦١، تجيء الخاتمة: ذلك ان فرمانا سلطانيا صادراً في ٢ ديسمبر يقبل، بصفة مؤقتة، اتحاد مولدافيا وقلالاشيا تحت صولجان كوزا، كما ينص على دمج جمعيتي الامارتين وينشئ حكومة واحدة تتخذ من بوخارست مقراً لها. ولا تخامر الظنون احداً حول ما يعنيه ذلك. إننا امام مرحلة حاسمة في طريق الاستقلال الروماني.

ثم طعنة اخرى لأحكام معاهدة باريس : الاستقلال المتزايد لصربيا. والحق ان صربيا تتمتع بالفعل، منذ معاهدة ادرنه (١٨٢٩)، باستقلال كبير والوجود

العثماني فيها مختزل الى أدنى حد. على أن مؤتمر الصلح كان قد ارتأى أن بوسع السلطان ان يحتفظ فيها بحاميات وأن الامارة سوف تظل تحت سيادة الامبراطورية. ومع وصول ميشيل أوبرينوفيتش الى السلطة (١٨٦٠ - ١٨٦٨)، لن تتخلف صربيا عن السعى الى التخلص من هذه الوصاية الهزيلة. ومنذ عام ١٨٦١، تتزود صربيا بجيش صغير وتعمل على انشاء ابوات الدولة الاتحادية الكرواتية - الصربية - البلغارية التي تحلم بتأسيسها : تعليم عام ، نظام ضريبي جديد و ، فى نسق افكار آخر، شبكة تحالفات مع الأمم المجاورة (الجبل الأسود، اليونان، رومانيا، بلغاريا). وفى عام ١٨٦٧، سوف يقع حدث قليل الأهمية فى حد ذاته، لكنه يتميز ببعد رمزى: ففى اثر اشتباكات مع السكان الصربيين، تغادر الحاميات العثمانية الأخيرة البلاد. والتنازل الوحيد، والشكى الخالص، الذى يجرى تقديمه للامبراطورية هو ان العلم العثماني سوف يظل مرفوعاً على قلعة بلجراد، الى جانب العلم الصربى. ومن الناحية القانونية، تبقى صربيا تابعة للسلطان. أمّا من الناحية الفعلية، فإنها تصبح مستقلة.

وهو استقلال ينتشر شيئاً فشيئاً. فنحو اواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، بالفعل، وتحت تأثير الدعاية القومية الصربية، نجد أن البوسنة والهرسك - المسلمة الى حد بعيد مع ذلك - والجبل الأسود تعملان ايضاً على التخلص من الوصاية العثمانية. وفى البوسنة، نجد أن التمردات المحلية، ذات الاتساع المحدود غالباً، سوف يتم سحقها بسهولة بالغة من جانب حاكم الولاية، عمر لطفى باشا (١٨٦٠ - ١٨٦١)، وخليفته، عثمان الأعرج (١٨٦١ - ١٨٦٩)، اللذين سوف يستفيدان علاوة على ذلك من نجاحاتهما لادخال الاصلاحات التى ارتأتها حكومة اسطنبول فى الاقليم. أما ولاية الجبل الأسود فسوف يكون قمعها أكثر صعوبة. والحال ان أميرها - الأسقف ، دانيلو، كان مسئولاً بالفعل عن تمرد كبير (١٨٥٣)، جرى تدبيره بتحريض من الروس. وفى عام ١٨٥٧، بعد أن حاول عبثاً التوصل الى النص فى معاهدة باريس على استقلال الجبل الأسود، يثور من

جديد، قاطعاً الجسور مع السلطان من جانب واحد. وسوف يكون رد الفعل العثماني حازماً : قمع عسكري نشيط سوف تتمثل نتيجته، شبه الجديدة، شبه الهزلية، والتي املت عبر تدخل الدول، في تحقيق الاستقلال الذاتى للجبل الأسود تحت اشراف لجنة دولية (٨ نوفمبر ١٨٥٨). على ان الملف لا يغلق مع ذلك. فاغتيال دانيلو فى عام ١٨٦٠ وصعود نيكولاس بتروفيتش، ابن اخيه، الى السلطة، سوف يحركان التمرد من جديد، بالارتباط هذه المرة باندفاع قوى للنزعة القومية السلافية فى الهرسك. وكما فى عام ١٨٥٧، لن يتخلف الباب (العالى) عن التدخل، حيث يرسل القوات فى آن واحد إلى الجبل الأسود وضد متمردي الهرسك. لكنه، من جديد، يصطدم بتدخل اوروبا التى سوف تفرض عودة الوضع الذى كان قائماً، مقابل وعد من جانب سكان الجبل الأسود بالتوقف عن مساعدة الهرسك (اتفاق سكوتارى، الموقع فى ٣١ اغسطس ١٨٦٢).

وهذه المرة، تبدو التسوية دائمة، إلا ان الأمر لن يتطلب غير عدة سنوات حتى تفرق المنطقة من جديد فى الدم والنار. فهل كان السلم سائداً فى غضون ذلك؟ أبداً. فالامبراطورية سوف تجد نفسها مواجهة بأزمة كبرى اخرى: التمرد الكريتي.

وتبدأ هذه الأزمة فى مايو ١٨٥٦، عندما يطلب فريق من السكان المسيحيين للجزيرة تخفيفاً للضرائب واعادة تشكيل للهيئات القضائية. وفى مواجهة هذه المطالب، فإن الحكومة العثمانية، خوفاً منها من نشوب ثورة شاملة، ترد بارسال جنود لمراقبة المنطقة بهدف حماية المسلمين من المجازر المحتملة. وتلك هى الشرارة التى تشعل البارود. فسرعان ما يعبىء اليونانيون انفسهم ويتدفق آلاف المتطوعين القادمين من القارة وتتشكل الفرق المقاتلة. وتتطور الأمور بسرعة بالغة. ففي ٢٣ سبتمبر، تعلن جمعية سفاكيا الشعبية «اتحاد كريت الذى لا ينفصل والأبدى مع أمها اليونان». وبعد وقت قصير من ذلك، تنزل وحدات عثمانية، الى جانب قوات

ارسلها خديوى مصر. ويتولى وال جديد، هو عمر باشا، تنظيم قمع وحشى. ولما كان اليونانيون قد تسنى لهم رصد ما حدث فى الولايات البلقانية قبل ذلك بعدة سنوات، فإنهم يراهنون على تدخل سريع من جانب الدول. لكنهم سوف يتعرضون للاحباط. فالواقع ان الظرف لم يعد كما كان غداة مؤتمر باريس. فروسيا، المكتوية بنار المسار الذى اتخذته مسألة الأماكن المقدسة والمنشغلة بمشكلاتها الداخلية، تجد نفسها اقل اهتماماً بكثير من ذى قبل بحماية الأرثوذكس. وعلاوة على ذلك، فإن انظارها تتركز بشكل خاص على سكان البلقان السلاف. وبريطانيا العظمى والنمسا تخشيان الانحياز الى صف اليونان، خوفاً من اثاره أزمة كبرى. اما ناپوليون الثالث فهو وحده الذى حاول مساندة التمرد على المكشوف، لكنه لا يجد أى صدى. وفى هذه الظروف، سرعان ما لن يبقى امام المتمردين غير القاء السلاح.

وبالنسبة للباب (العالى)، البالغ الحرص دائماً على تحسين صورته، فسوف تكون تلك فرصة لكى يعرض على انظار اوربا اصلاحاً نموذجياً. ذلك ان مرسوماً صادراً بتاريخ ١٠ يناير ١٨٦٨ سينص على انشاء مجالس قضائية وادارية منتخبة وانشاء جمعية عامة مؤلفة من نواب عن جميع الأقضية ومنح المسيحيين حصة مساوية لحصة المسلمين فى جميع المؤسسات الحديثة التكوين والغاء أو تخفيف ضرائب مختلفة ووضع اليونانية على قدم المساواة مع التركية كلفة رسمية للجزيرة. وقد اتخذت هذه التدابير كلها دون أن يحتاج الاتحاد الأوروبى الى التدخل، الهم إلا إن كان ذلك من اجل تقديم طلبات ذات طابع عمومى الى الباب العالى. ولن تتحرك الدول إلا فى بداية عام ١٨٦٩، بعد محاولة جديدة للتمرد فى كريت، وذلك خوفاً من نشوب حرب بين الامبراطورية واليونان. لكن المؤتمر المنعقد فى باريس فى يناير، بمبادرة من ناپوليون الثالث، لن يجد جديداً يقترحه. وفى تلك الاثناء، فإن المرسوم الذى يمنح الجزيرة جرعة معينة من الاستقلال الذاتى يرضى أوروبا.

الباب العالى يمسك اخيراً بزمام دفة الاصلاحات وأنه فى وضع يمكنه، بفضل تدابير يتم تطبيقها بشكل حكيم، من وقف عملية تفكك الامبراطورية العثمانية. لكن الأمر ليس كذلك بالفعل. فالواقع انه بينما تستعيد الحياة فى كريت - بشكل مؤقت - مسارها العادى، فإن أزمة اخرى تنهياً للتفجر بالفعل فى البلقان. وهى أزمة سوف تفتح الطريق، عندما تتفجر، لتفاعلات كبرى وسوف تكلف عبدالعزیز عرشه.

وفى البداية، ينشب تمرد بسيط للقرويين، فى الهرسك، ضد ملتزمى الضرائب الذين يطلبون السداد الكامل لمستحقاتهم، على الرغم من المصاعب المترتبة على محصول ١٨٧٤ الكارثى. إلا أن الأمور سرعان ما تزداد اتساعاً: ذبح المسلمين، المذابح المضادة، تدفق الاسلحة القادمة من الجبل الأسود ومن الامبراطورية النمساوية، تنظيم قوات ضخمة للمتمردين. ونحو منتصف صيف عام ١٨٧٥، ليست الهرسك كلها فقط هى التى تنأهب للحرب، بل البوسنة والجبل الأسود أيضاً.

والحال أن أوروبا، التى تخشى من ان يمتد الحريق بسرعة الى مجمل البلقان، ولكن المنزعجة ايضاً، من جهة اخرى، من أن تفرق الامبراطورية فى أزمة مالية لا سابقة لها، لن تتأخر عن التدخل. ومنذ منتصف اغسطس، تتزايد المشاورات بين الدول. وسوف تتمثل ذروة هذا النشاط المحموم فى عقد مؤتمر، فى برلين، فى اواخر نوفمبر، يجمع رؤساء وزارات رابطة الأباطرة الثلاثة، بسمارك وجورتشاكوف والكونت أندراسى. والواقع ان هذا الأخير، ممثل النمسا - المجر، الدولة المعنية على نحو مباشر أكثر بالوضع فى البوسنة والهرسك، هو الذى سوف يكلف بتقديم نتائج المؤتمر الى الباب (العالى). وتطالب مذكرته المؤرخة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٥ بالغاء التزام الضرائب فى الولايات التى مسها التمرد، ومنح حرية تامة للعبادة وانشاء مجالس ادارية مختلطة واتخاذ تدابير لمصلحة الفلاحين الراغبين فى شراء الاراضى التى يفلحونها لحساب كبار الملاك.

وفى اسطنبول، حيث جرى تسليم المذكرة من جانب جميع سفراء الدول، يسجل الباب العالى علمه بها ويعد بادخال الاصلاحات المطلوبة (١٢ فبراير ١٨٧٦). ولكن كيف يمكن وقف الثورة التى اتخذت، مدعومة بتعاطف الشعوب السلافية وبالمساندة المستترة من جانب أوروبا، ملمح حملة صليبية معادية للعثمانيين؟. لقد قال الباب (العالى) ان السبيل الى ذلك هو تطبيق «الاصلاحات». لكن الواقع سوف يكون شيئاً آخر تماماً: القمع. ففي الأشهر الأولى لعام ١٨٧٦، تضطلع القوات العثمانية تحت قيادة أحمد مختار باشا بتمشيط منهجى للأقليم، وهو ما يؤدى الى نزوح الآلاف من اللاجئين المسيحيين الى الجبل الأسود وصربيا والنمسا. وفى أوروبا، حيث تتغذى الصحف على اخبار الأعمال الوحشية، ينتشر الذعر، وسرعان ما سوف يتزايد ذلك الذعر أكثر فأكثر.

والواقع ان انتفاضة كانت قد نشبت، فى ابريل، فى بلغاريا ايضاً، فى اقليم بلوفديف وبازارجيك. والسيناريو هو نفس السيناريو الذى نراه فى البوسنة والهرسك. والحال ان القمع، الذى يمارس بمساعدة فرق شركسية وميليشيات غير نظامية (باش - بوزوك)، يتحول الى مذبحة، على الأقل من وجهة نظر أوروبا.

وأمام عجز الامبراطورية عن تسوية الأزمة بالسبل السلمية، تتجه الدول الى التدخل من جديد. ففي ١٣ مايو ١٨٧٦، بمناسبة زيارة القيصر (الروسى) الى برلين، سوف يجدد مؤتمر لوزراء «الرابطة» المطالب التى كان قد سبق قبل ذلك بعدة أشهر تقديمها من جانب أندراسى، مع الدعوة، علاوة على ذلك، الى رقابة دولية للتحقق من تطبيق الاصلاحات. لكن نبرة الدبلوماسية الأوروبية، هذه المرة، تصبح تهديدية أكثر بشكل واضح: فإذا لم تحقق الامبراطورية العثمانية الاصلاحات التى وعدت بها، فإن النمسا سوف تحتل جزءاً من البوسنة فى حين أن روسيا سوف تتوسع فى بيسارابيا الجنوبية؛ وعند الضرورة، سوف يكون بوسع الدول ايضاً استخدام القوة لفرض وجهة نظرها.

على ان اوروبا ليست الوحيدة التى ينتابها الانزعاج. فالانزعاج موجود ايضاً فى اسطنبول. والصحف الأوروبية تنزعج من مصير السكان المسيحيين. أما فى تركيا، فإن ما يثير الانزعاج بشكل خاص هو سقوط ضحايا مسلمين وتؤدى التدخلات المتحيزة من جانب الدول لحساب «مرتكبي المذابح» الى اثاره استهجان عام. وتبدأ شائعات غريبة فى الانتشار: ألن يتجه الصدر الأعظم، نديم باشا، الذى يستجيب لجميع مطالب اجناتيف، سفير القيصر لدى الباب العالى، الى تسليم البلاد للقوات الروسية؟ وينتاب السكان الذعر. وبسبب الذعر الذى استولى على المسيحيين فإنهم، على الأقل اولئك الذين يملكون امكانات الهرب، سوف يجتهدون فى مغادرة العاصمة العثمانية.

وفى ١١ مايو ١٨٧٦، تمتلئ المساجد الكبرى والساحات العامة فى اسطنبول بالمتظاهرين الذين يشجبون جن الحكومة ويتهمونها بالعجز عن وضع حد للمجازر المرتكبة ضد المسلمين. ووفقاً لتقليد راسخ، فإن الصفقة، طلبة المدارس الدينية، هم الذين يتزعمون الحركة. وتتجه مسيرات صوب الباب العالى للمطالبة بعزل الوزراء. ويطالب الحشد بشكل خاص بعزل شيخ الاسلام، حسن فهمى افندى، ونديم باشا، المتهمين بالتراخى ومحاباة الروس.

وفى وجه هذا التحرك، سوف يحاول السلطان فى البداية المقاومة. وهو يبدأ بالاكتماء بتسريح شيخ الاسلام. لكنه فى ١٢ مايو، وأمام تصاعد الهياج، يضطر ايضاً الى التخلّى عن صدره الأعظم.

والحال أن الوزارة الجديدة، التى يترأسها رشدى باشا، تضم شخصيتين جد معروفتين بميولهما الليبرالية : مدحت باشا، الذى يبدأ وزيراً بلا وزارة، وحسين عونى باشا، الذى عهد اليه السلطان بوزارة الحربية. وسرعان ما تتوتر العلاقات بما يكفى بين ابطال اللحظة هؤلاء - الذين يعتبرهم السكان الأشخاص الوحيدين القادرين على حل الأزمة البلقانية بشكل مشرف - وعبدالعزيز. «انكم تحتلون هذه

المناصب لأن الشعب هو الذى طلب توليكم لها. فلنر الآن ما الذى يمكنكم عمله بالفعل!». فمئذ لقائه الأول مع وزرائه الجدد، حرص السلطان على اطلاعهم على استيائه. فما الذى يمكن ان يحدث إذا ما اعتبرهم السلطان، بعد استعادة السكينة، مسئولين عن تمرد الصُّفَّة، وانقلب عليهم ولاحقهم بسخطه؟ وسرعان ما يدب الشك والانزعاج فى افئدة الوزراء. إنهم فى مناصبهم من اجل خدمة السلطان. وهم يخدمونه، ولكن دون ان يتخلصوا ابداً من قدر من الاحساس بانعدام الثقة نحوه.

ويبدو أن حسين عونى باشا هو أول من راودته فكرة خلع عبدالعزیز، اتقاءً لانتقام وارد، وكان بالامكان عمل ذلك. فخلال سنوات عهده الخمس عشرة، قلما كان السلطان فوق الاتهام: فهو قد جر الدولة الى اتفاقات غير مدروسة وقادها الى افلاس حقيقى؛ وكثيراً ما حاول الاستعاضة عن نظام التنظيمات الليبرالى بسلطة شخصية ذات أساليب وحشية؛ وقد سمح بأن تتطور عبر البلاد مواقف خطيرة عجز عن السيطرة عليها. وفى الماضى، تم خلع سلاطين آخرين لاسباب أهون من هذه الأسباب.

وأمام مشروع كهذا، بدأ مدحت بالتردد، لأنه كان يأمل فى أن يتمكن من أن ينتزع من عبدالعزیز اصدار دستور. وهو لا ينحاز الى رأى حسين عونى إلا بعد أن يدرك استحالة ذلك. ويحنو حنوه الوزراء الآخرون، وذلك بسهولة بالغة بقدر ما أن شيخ الإسلام قد أصدر فتوى تعلن أنه ليس هناك ما يحول، من زاوية القانون الدينى، دون خلع السلطان.

وفى ٢٩ مايو ١٨٧٦، يحرك حسين عونى باشا الجيش لتطويق قصر دولما باخشى حيث يقيم السلطان بينما تحول البحرية دون أى اتصال بالخارج عن طريق البحر. وفى اليوم نفسه، يقف الأمير مراد، الابن الأكبر لعبدالمجيد، والذى ضغط عليه الوزراء الى حد ما، ليستمع الى ادائهم ليمين الولاء. وينتهى عهد

عبدالعزیز - أحد العهود الأكثر تناقضاً والأكثر انفتاحاً على التغير فى التاريخ العثمانى. وبعد أقل من اسبوع، سوف يتم العثور على السلطان المخلوع ميتاً، مفتوح الشرايين، فى غرفته بقصر فرعىه، فى اورتاكوى، الذى كانت الحكومة قد حددت إقامته فيه بعد خلعه. انتحار؟ أم اغتيال؟

الأزمة البلقانية

يبدو مراد الخامس، الذكى، المثقف، المنفتح على الأفكار الليبرالية، بوصفه العامل المثالى لعهد التنظيمات. إلا أنه، حتى قبل ارتقائه العرش، يتميز بتعرضه لنوبات عصبية زائدة عن الحد. ومع المسئوليات الجديدة التى كان عليها ان يتحملها، سرعان ما يستولى المرض تماماً على وعيه. وفى الوضع الدرامى الذى تمر به الامبراطورية، فإن المرض العقلى الذى يشكو منه السلطان يشكل خطراً اضافياً بالنسبة للبلاد. وفى ٣١ اغسطس ١٨٧٦، يسارع الوزراء مرة أخرى الى اجراء الخلع. ويحل محل مراد الخامس احد اخوته، وهو رجل ذكى مثله، ويبدو ليبرالياً مثله، هو عبدالحميد الثانى. وفى اول سبتمبر، يدشن هذا الأخير عهداً سوف يستمر ثلاثة وثلاثين عاماً.

والحال ان عهد مراد الخامس لم يكن غير فاصل مدته ثلاثة اشهر، لكنه فاصل حافل بالحركة، يتميز على نحو خاص باحتداد الأزمة فى البلقان.

والواقع أن الدوامات السياسية التى اثارها تغيير السلطان قلما تؤدي الى تحسين الوضع فى الولايات الأوروبية للامبراطورية. على العكس. فالثوار يطورون عملهم، مستفيدين من ظرف غير مستقر. وفى بلغاريا والهرسك والبوسنة، تتواصل حركات التمرد أكثر فأكثر، متحدية للقمع العثمانى. إلا أنه سرعان ما يجد الباب العالى نفسه مواجهاً بأزمة أكثر خطورة بكثير : فسعيًا الى مساندة اخوتهما فى العرق والدين، تبدأ صربيا والجبل الأسود هما أيضاً بالانخراط فى طريق الحرب.

وفى ٢٦ مايو، وبتشجيع من الروس، توقع الامارتان تحالفاً ينص على تقسيم للأراضي فى الاقليم فى حالة الانتصار على العثمانيين. وبعد ذلك بوقت قصير، يطلب الأمير ميلان، امير صربيا، من الباب العالى، تنصيبه على رأس البوسنة، مطالباً بالمناسبة نفسها بضم الهرسك الى الجبل الأسود. وفى ٢ يوليو، وأمام رفض اسطنبول الغاضب، يجيىء الاعلان الرسمى للحرب.

ومرة اخرى، سوف تحاول الدبلوماسية الأوروبية تسوية الأزمة بما يتمشى مع ما تراه. لكن الوضع كان قد تبدل كثيراً منذ مذكرة أندراسى! وعندما يجتمع القيصر الكسندر الثانى وامبراطور النمسا فرانسوا - جوزيف، فى ٨ يوليو، فى رايخستات، فى بوهيميا، فإن ما يدور الحديث عنه، فى محادثتهما، هو تقسيم البلقان الى مناطق نفوذ، بأكثر مما يدور عن تدابير ملائمة لاستعادة السلم. فالنمسا تحتفظ لنفسها بالوصاية على صربيا وتنوى التوسع اقليمياً فى البوسنة وفى الهرسك؛ اما روسيا فهى تطالب لنفسها بحماية البلغار وتنوى الاستيلاء على بيسارابيا والأناضول الشرقية؛ وأما امارة بلغاريا التى سوف تظهر فى المستقبل، وروميليا والبانيا فإنها سوف تصبح مستقلة؛ وسوف يكون بوسع اليونان التوسع فى ثيساليا وايبيروس؛ وأخيراً، فإن اسطنبول، عاصمة الامبراطورية العثمانية، سوف تصبح مدينة حرة، كخطوة اولى قبل الضم الذى يخطط له الروس منذ قرون.

• برنامج واسع. على ان ما يبدأ فى الساحة هو القتال. وحتى ذلك الحين، فإن ما يحصل عليه البلقانيون من حماتهم الاباطرة هو، بوجه خاص، مؤازرة كلامية. وصحيح أن بضع مئات من المتطوعين الروس سوف ينضمون الى الجيش الصربى وأن هذا الأخير يضع على رأسه ضابطاً من ضباط القيصر، هو تشيرنايف. لكن ذلك قليل جداً بالقياس الى الوحدات الضخمة التى نجح العثمانيون فى تعبئتها. ونحو أواخر اغسطس، يتمكن عثمان باشا، احد افضل الجنرالات العثمانيين، من

احراز انتصار هام على الصربيين، امام اليكسيناتز. وهو انتصار يدفع ليس فقط البلقانيين، وانما ايضاً الدول التي تساندهم، الى اعادة النظر فى الموقف.

إلا أنه لن يكون هناك مفر من استئناف الأعمال الحربية، بعد بضعة اسابيع من ارتقاء عبدالحميد العرش ومن اثبات العثمانيين من جديد لتفوقهم العسكرى حتى تقرر الدول الانخراط فى الأمر بكل ثقلها. وفى ٣١ اكتوبر ١٨٧٦، يذهب سفير روسيا، الكونت اجناتيف، الى الباب العالى، مكلفاً بتوجيه انذار مقتضب: إذا لم توقع الامبراطورية العثمانية فى الساعات الثمانى والأربعين القادمة هدنة مع صربيا والجبل الأسود، فإن روسيا سوف تستخلص من ذلك النتائج التى تفرض نفسها. وفى اسطنبول، يتم الاستسلام للانذار و، منذ الأيام الاولى لشهر نوفمبر، يبدأ تسريح القوات العثمانية المشاركة فى الحملة. لكن الدول قلما تكتفى بهذا الابداء لحسن النوايا. فهى تفكر بالفعل فى اقتسام الاسلاب العثمانية وتطلب عقد مؤتمر دولى على وجه السرعة. وهذا المطلب تدعمه التهديدات. إذ يعلن دزرائيلى فى مائدة : «أن انجلترا لا تخشى الحرب، وهى قادرة على القتال لمدة عشرين سنة، اذا لزم ذلك. وسوف يتم ارسال الاسطول البريطانى الى الدردنيل».

ويبدأ المؤتمر المنشود أعماله فى اسطنبول فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ ويجمع، تحت رئاسة صفوت باشا، الوزير العثمانى للشئون الخارجية، مندوبى روسيا وانجلترا وفرنسا والنمسا والمانيا وايطاليا. وبطبيعة الحال، فإن الباب العالى يدرك منذ ذلك الحين ما ينتظره : فسوف يقترح عليه استقلال البوسنة والهرسك وكذلك تكوين بلغاريا كبرى تحت النفوذ الروسى؛ ومرة اخرى تنتهى الأمور بالنسبة له بخسائر اقليمية وباختزال لموارده. إلا أن مدحت باشا، الذى اصبح الوزير الأول لعبدالحميد، يتمترس، فى وجه مطالب الاتحاد الأوروبى الجديد، بمتراس اخير: اعلان دستور.

تحول مفاجيء ففى ذات اللحظة التى يجتمع فيها مندوبو الدول لأول مرة يهدر المدفع. وفى كلمة قصيرة، يعلن صفوت باشا، رئيس المؤتمر، للمندوبين ان السلطان، مروءة منه، قد منح شعبه نظام حكم جديداً وأن المؤتمر، فى هذه الظروف، لم يعد له مبرر. ويجيىء الرد البارد من السفير الروسى: «لننتقل الى جدول الأعمال». لكن ذلك لا يحول دون تعديل المبادرة العثمانية المفاجئة بشكل فعلى لمعطيات المناقشة.

والواقع ان الدستور الذى صاغه مدحت باشا ورجال حاشيته إنما يشكل ذروة عملية الاصلاح الطويلة الجارية فى الامبراطورية منذ ميثاق جولاخانه ويحرم الدول من عدد كبير من حججها الداعية الى اعادة فحص المسألة الشرقية. فمنذ ذلك الحين، تبدو الدولة العثمانية مزودة بنظام حكم مماثل تماماً لنظام حكم أمم الغرب الحديثة. فهى تتمتع بمجلس اعيان يعين السلطان اعضاءه مدى الحياة - بما يشكل ضماناً ضد الاقصاءات التعسفية - ، وجمعية مشكلة من نواب ينتخبهم السكان، وبجهاز تنفيذى قىادى جد شبيه، فى بنيته، بوزارة أوروبية. وصحيح أن السلطان، الذى يتمتع بشخصه بطابع مقدس، يحتفظ بجانب كبير من سلطاته التقليدية: فهو ليس مسئولاً أمام احد عن اعماله، وهو الذى يعين أو يعزل الوزراء، وهو الذى يعقد البرلمان ويحلّه، وهو الذى يصدر القوانين، ويقود القوات المسلحة، ويوقع المعاهدات ويعلن الحرب أو يعقد الصلح. لكن النواب، بالمقابل، يصوتون على مشاريع القوانين ويصوتون، خاصة، على الميزانية، وهى صلاحية تسمح لهم بالسيطرة على جميع العمليات الضريبية والمالية للدولة. وعلاوة على ذلك، فإن الدستور يجدد للرعايا العثمانيين جميع الضمانات التى قدمها مرسوم ١٨٣٩ و ١٨٥٦: احترام الحريات الفردية، المساواة فى الحقوق والواجبات، حرية تولى جميع الوظائف العامة، القضاء على جميع اشكال التعسف، الخ.

ومن الواضح أنه ليس من باب الصدفة أن نظام الحكم الجديد قد تم اعلانه فى ذات يوم افتتاح مؤتمر اسطنبول. فقد كان السلطان ووزراؤه يريدون احداث

نوع من الصدمة السيكولوجية. وكانوا يأملون، بوجه خاص، فى التذرع بالدستور لإبطال جميع دعاوى الدول. التنازل عن أراضٍ للبوسنة والجبل الأسود؟ مستحيل، لأن الدستور يعلن أن الامبراطورية لا تمس. منح امتيازات خاصة للمسيحيين؟ مستحيل، لأن الدستور يعلن مساواة جميع الرعايا العثمانيين. إنشاء محاكم خاصة لغير المسلمين؟ مستحيل، لأن الدستور ينص على وجود نظام قضائى مدنى ينطبق على جميع عناصر السكان. إنشاء هيئة دولية للتحقق من تطبيق الاصلاحات؟ مستحيل، لأن الدستور لا يسمح بشئ من ذلك.

وفى الأيام التالية لمفاجأة ٢٣ ديسمبر، استمرت المفاوضات، شاقة وطويلة ويلاجدوى. فقد جاء مندوبو الدول وكافة انواع المطالب والمشاريع فى حقائبهم. وكل مطلب وكل اقتراح يصطدم بالاجابة نفسها: إن الحكومة العثمانية سوف تحقق الاصلاحات التى نص عليها الدستور. وفى نهاية الأمر، لا يكون هناك مفر من الإذعان لما هو بديهي. فمن الأنسب الاعتراف بفشل المؤتمر والافتراق. ويحدث ذلك فى ٢٠ يناير ١٨٧٧. لقد ضاع نحو شهر فى المساومات.

والحال أن هذا الانفضاض للمؤتمر دون التوصل الى اية نتيجة سوف تترتب عليه نتيجة غريبة. فالواقع ان عبدالحميد، إذ يعتبر مدحت باشا مسئولاً عن فشل المفاوضات، سوف يقرر ، فى مستهل شهر فبراير، تنحيته عن الصدارة العظمى و ، كما يجيز الدستور ذلك، ابعاده الى المنفى. والحق ان فشل المؤتمر ليس السبب الوحيد لهذا الزوال المفاجئ للخطوة. فخلال الأشهر الأولى من عهده، راكم السلطان الكثير من الشكايات الأخرى ضد وزيره. ألم يحتفظ هذا الأخير بصلات جد وثيقة مع العثمانيين الشبان؟ ألم يكن شديد المحاباة للمسيحيين الى درجة أنه قد فتح لهم ابواب الاكاديمية العسكرية؟ ألا يميل السكان و ، علاوة على ذلك، المراقبون الأجانب، الى اسناد كل ما يحدث فى الامبراطورية اليه؟

وسوف يغادر مدحت العاصمة العثمانية دون أن يشهد أول تجلٍ ملموس للثورة المؤسسية التى كان أباً لها: انعقاد البرلمان. على ان الأمور تسير بسرعة بالغة.

فبعد الانتخابات التي نظمت على عجل، للبرهنة للدول بشكل واضح على ان الامبراطورية تعتزم فعلاً تطبيق الدستور الذي اتخذته لنفسها، بدأ النواب واعضاء مجلس الاعيان اعمالهم، في صخب عظيم، منذ ١٩ مارس ١٨٧٧.

وفي التو والحال، سوف تهيمن احدى المسائل بشكل كبير على المناقشات : خطر مواجهة عسكرية مع روسيا، والواقع ان حرباً روسية - تركية تبدو مرجحة بشكل متزايد، منذ فشل مؤتمر اسطنبول، وذلك على الرغم من انه قد تم في نهاية الامر توقيع معاهدة صلح مع صربيا (أول مارس ١٨٧٧). فقد نجح القيصر شيئاً فشيئاً في اقناع الدول بضرورة اتخاذ موقف نشيط في وجه الامبراطورية وحصل منها على تأكيد بأنها سوف تفض اعينها في حالة نشوب حرب، وفي ١٥ يناير، في بودابست، كان قد عقد مع النمسا، على أساس محادثات راكسبات، اتفاقاً ينص على اقتسام البلقان. ونحو أواخر مارس، كان قد كلف الجنرال اجناتيف بالقيام بجولة توضيح عبر العواصم الأوروبية. وفي ابريل، حصل من رومانيا على موافقتها على نقل قوات عبر أراضيها. ومن الواضح ان تضيق الخناق كان بسبيله الى الاكتمال.

وسوف تعلن روسيا الحرب في ١٩ ابريل ١٨٧٧. ولم يكن من الصعب العثور على ذريعة للحرب. فقبل ذلك ببضعة أيام، كان الباب العالي قد رفض التجاوب مع تحرك أخير من جانب الدول التي طلبت، بموجب بروتوكول موقع في لندن في ٣١ مارس، ان تخضع الامبراطورية لجميع مطالبها. وبمجرد علمه برد الحكومة العثمانية، اصدر الكسندر الثاني الأمر الى قواته بالتحرك.

وفي البداية، سوف يشبه ذلك التحرك حرباً خاطفة. فالهجوم الروسى ينتشر على جبهتين. وعلى الجبهة الغربية، تتمثل المهمة في اجتياز البلقان والوصول الى اسطنبول والمضائق بأسرع ما يمكن. وعلى الجبهة الشرقية، ينوى القيصر الاستيلاء على الاناضول الشرقية. ونحو منتصف يونيو، يتم بالفعل تحقيق جزء من

هذا البرنامج: ففي أوروبا، يحتل الجيش الروسى شمال بلغاريا، ويتقدم صوب صوفيا وادرنه؛ وفي آسيا، يستولى على أردهان (١٨ مايو ١٨٧٧) وبيازيت (٢٠ يونيو). لكن العثمانيين لن يتأخروا عن تمالك انفسهم. وسوف تستمر الحرب لمدة ستة اشهر أخرى.

وعلى الجبهة الشرقية، فإن احمد مختار باشا هو الذى ينظم المقاومة ويكسر عزيمة الروس، بدفاعه المجيد عن كارس؛ وفي بلغاريا، يوقف سليمان باشا العدو فى شيبكا، ويحاصره عثمان باشا امام بليفنى. ولن تستعيد قوات القيصر ما يكفى من الحيوية لاجتياز كل هذه الحواجز، واحداً بعد الآخر، إلا اعتباراً من الخريف. ففي ١٤ نوفمبر، يضطر مختار باشا الى اتخاذ قرار بالتخلي عن كارس؛ وفي ١٠ ديسمبر، يضطر عثمان باشا، بعد أن قاوم الهجمات الروسية على مدار خمسة أشهر، الى تسليم بليفنى؛ وفي اليوم التالى، يستسلم سليمان باشا هو الآخر. وتستفيد صربيا والجبل الأسود من الظرف للانخراط فى الحرب بدورهما، فتفتحان جبهة جديدة فى مقدونيا وعلى حدود البانيا. وبالنسبة للجيش الروسى، فإن ما يتبقى تحقيقه ليس غير نزهة. ففي ٣ يناير، يصل الى صوفيا، وفي ١٦ يناير، يصل الى بلوفديف، وفي ٢٠ يناير، يصل الى ادرنه. وبعد ذلك بعشرة أيام، تظهر وحدات امامية قرب روبوستو، وهى بلدة تقع على بعد مائة كيلو متر فقط من اسطنبول.

وأمام هول الكارثة، يقرر الباب العالى توقيع هدنة فى ادرنه، فى ٣١ يناير. لكن الحرب لا تنتهى، ويصبح بمقدور الروس منذ ذلك الحين، إن لم تجر تلبية مطالبهم، محاصرة العاصمة العثمانية. وفي هذه العاصمة، يسود الذعر. فالسكان ينتابهم الهلع وتبدو الحكومة مصابة بالشلل. ويثور البرلمان.

وهذا الهجوم البرلمانى الذى لا يكف عن التزايد - ينتقد النواب الحكومة، ويفضحون عدم كفاءة الضباط، ويستتهجنون الأسلوب الذى اديرت به العمليات

العسكرية - سرعان ما سوف يفتح على أزمة فى الأزمة. فالواقع ان السلطان يجتمع، فى ١٣ فبراير ١٨٧٨، مع لجنة برلمانية لاستشارتها فى الرد الذى يجب تقديمه على عرض بريطانى بارسال اسطول الى بحر مرمرة للاسهام فى حماية اسطنبول. وتندور المناقشات فى البداية دون مشاكل، لكن احد النواب، وهو احمد ناجى افندى، رئيس طائفة صناع البطانات، يرى فجأة ان من المناسب التحدث: «كان من الأولى عقد مثل هذا الاجتماع فى حضور مولانا السلطان من قبل. فاللحظة الملائمة للحرب قد مرت. أما الآن وقد وصلت الأمور الى ما وصلت اليه، فما الجوى من استشارتنا؟» وهو ما يؤدى الى دفع عبدالحميد الى الخروج عن طوره. فهو يقول لصدره الأعظم، سعيد باشا: «رُدْ إَذَا على هذا النذل لعل اللجنة تكون فكرة!» ويقدم الوزير ايضا حات مسهبة حول أسباب الحرب وادارة العمليات. لكن مقدم السؤال قلما يقتنع. وفى اليوم التالى، يعرف النواب ان السلطان، مستنداً الى حق اعترف له به الدستور، قد قرر حل البرلمان.

تلك نهاية الفترة الدستورية الأولى. وقد دامت أقل من سنة. وبينما يتفرق النواب المنتخبون فى صمت، فإن الامبراطورية تلج، دون أن تدري ذلك، ثلاثة عقود من الاوتوقراطية.

ومن المؤكد ان ذلك يعتبر تحولاً رئيسياً فى تطور الدولة العثمانية منذ التنظيمات. فقد جاء الدستور ليتوج بنياناً تطلب نحو اربعين سنة لتشييده حجراً حجراً. ومع حل البرلمان لا ينهار البنيان. لكنه يتميز منذ ذلك الحين بلمح غريب لبناء نُسى تركيب سقف له. إلا ان قليلين، فى تلك اللحظة، هم الذين يولون أهمية كبيرة لما حدث. فالحرب مع روسيا تبقى أولوية الأولويات.

والحق أن الوضع جد خطير بحيث ان الامبراطورية العثمانية لا تملك ساعتها شيئاً غير قبول شروط القيصر. والروس يطلبون استقلال رومانيا والجبل الأسود وصربيا؛ وهم يريدون أيضاً انشاء امارة بلغارية مستقلة تمتد من البحر الأسود

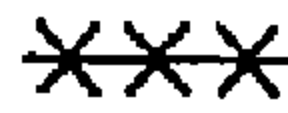
الى بحر ايجة والى جبال البانيا؛ وهم يطلبون ادخال اصلاحات فى البوسنة وفى الهرسك، وكذلك فى ايبيرس وئيساليا؛ وفى الولايات الشرقية للامبراطورية، يهدفون الى اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتحسين احوال الأرمن وضمان منهم فى مواجهة الأكراد والشراكسة؛ وأخيراً، على سبيل تعويض عن الحرب، يطالبون بالجزء الأكبر من دوبروجا وجزر الدانوب ويطالبون، فى الاناضول الشرقية، بولايات كارس وأردهان وباطوم وأرتقن، كما يطالبون بمبلغ ٤٠٠ مليون روبل. وعلى هذه الأسس تبدأ محادثات الصلح فى سان ستيفانو (يشيلكوى)، على مشارف اسطنبول. وفى ٣ مارس، سوف يوقع العثمانيون مشروع المعاهدة المقدم اليهم دون أن يتمكنوا من الحصول على أبسط تنازل.

إلا أنه اذا كان السلطان يرضخ، فإن أوروبا ليست مستعدة ابداً لأن تستسلم. وصحيح انها قد اغمضت عينيها تجاه الحرب؛ أما الآن وقد أخذ القيصر يقرر بمفرده مصير الشرق، متجاوزاً الى حد بعيد الحقوق التى اعترفت بها له الاتفاقات المعقودة قبل بدء الحرب، فإنها عازمة بحزم على سد الطريق فى وجهه. فالدول، خاصة انجلترا والنمسا، لا تقبل الأمر الواقع الذى تحقق فى سان ستيفانو. وحتى قبل توقيع المعاهدة، كانت بريطانيا العظمى قد ارسلت اسطولها للرسو قبالة اسطنبول لاثبات مساندتها للحكومة العثمانية. والنمسا تتخذ موقفاً أكثر تهديداً بكثير. ولما كانت ترى انها قد اضررت، فإنها تطلب تعديلاً فورياً للمعاهدة، ولتوضيح موقفها على أكمل وجه، فإنها تعبىء جيشها وتعلن عن استعدادها لمحاربة روسيا. والحق أن كبار مسئولى الاتحاد الأوروبى ليسوا هم وحدهم الذين يشعرون بالسخط. فالبلغاريون أيضاً يشعرون بالاستياء العميق. ولا يمكن لا لصربيا، التى حرمت من الهرسك ومن البوسنة، ولا لرومانيا، التى انتزع منها الروس بيسارابيا، ولا لليونان، التى تحلم بالتوسع فى مقدونيا أو فىئيساليا، ان تقبل اتفاقية سان ستيفانو.

وأمام كل هذا السخط، وخاصة أمام التهديد النمساوى بالحرب، لا يتأخر الكسندر الثانى عن قبول اقتراح بسمارك بعقد مؤتمر موسع للصلح فى برلين، بهدف إعادة فحص مجمل الملف الشرقى. وهذه المرة، سوف تدير الأمور بالنسبة للامبراطورية العثمانية بشكل افضل قليلاً. والحق ان السلطان، قبل بضعة ايام من بدء أعمال المؤتمر، قد دفع لانجلترا بسخاء ثمن دعمها له بالتنازل لها عن جزيرة قبرص (اتفاق اسطنبول المؤرخ فى ٤ يونيو ١٨٧٨).

والحال أن معاهدة برلين، الموقعة فى ١٣ يوليو، تستعيد بعض بنود الاتفاق المعقود فى سان ستيفانو، وتعديل بعضها الآخر. إذ يجرى الاعتراف على نحو نهائى باستقلال رومانيا وصربيا والجبل الأسود. لكن بلغاريا الكبرى التى يتطلع اليها القيصر تقسم الى عدة قطع: ففي الشمال تتشكل امارة مستقلة عاصمتها صوفيا؛ وفي الجنوب، توضع «رومليا الشرقية» تحت السلطة السياسية والعسكرية المباشرة للسلطان لكنها تتمتع باستقلال ذاتى ادارى؛ وتكون بوپروچا من نصيب رومانيا (فى مقابل بيسارابيا التى يجرى التنازل عنها لروسيا)، بينما تكون نيش وبيرو من نصيب صربيا، فى حين ترجع مقدونيا الى الامبراطورية العثمانية. ولا تعود هناك بلغاريا كبرى، خلافاً لتمنيات ميلان اوبرنيوفيتش: فالبوسنة والهرسك تظلان من الناحية الاسمية عثمانيتين، لكن النمسا - المجر سوف تحتلها وتديرهما. وكانت اليونان قد جاءت هى ايضاً الى برلين وشهيتها مفتوحة؛ وسوف يتعين عليها، مؤقتاً، الاكتفاء بالوعود. وفي الأناضول الشرقية، تحتفظ روسيا بأردهان وكارس وباطوم، إلا أنها سوف تجد نفسها مدعوة الى إعادة الاشكيرت وبيازيت الى الامبراطورية (العثمانية). وكما فى سان ستيفانو، فقد جرى النص على ضمانات للأقليات، خاصة الأرمن؛ على ان لغة المادة ٦١ التى تعالج هذه المسألة لغة جد غامضة بحيث انها تترك الباب مفتوحاً لكثير من التأويلات. واخيراً، فإن تنازلاً هاماً يتمثل فى تخفيض مبلغ التعويض عن الحرب الذى يتوجب على الامبراطورية العثمانية دفعه لروسيا.

ومن الواضح ان المعاهدة الجديدة تهدف فى مجموعها الى كسر اندفاع الوحدة السلافية لدى الروس والصربيين. فبدلاً من الوحدات الاقليمية الكبرى التى كان يحكام سان بطرسبورغ وبلجراد يحلمون بها، انشأ ديپلوماسيو الدول حشداً متبايناً من الامارات والمناطق ذات الحكم الذاتى المستعدة لتمزيق احداها الأخرى، بقدر ما ان التقسيم الاقليمى الذى نص عليه المؤتمر يولد التنافسات. لكن الدولة العثمانية، بالرغم من كل شىء، هى التى تسدد الفاتورة الأكثر فداحة. فهى، فى برلين، تخسر الجزء الأكبر من اراضيها البلقانية وجزيرة قبرص و «الولايات الثلاث» للأناضول الشرقية. كما تخسر موارد مالية هامة. وأخيراً، فإنها تخسر شعوباً تعتبر من بين أكثر الشعوب اجتهاداً ورفاهية فى الامبراطورية. وما تحصل عليه فى المقابل ليس غير وعود باطلة: تجديد غامض لمواد معاهدة باريس بشأن ضمان الدول لوحدة أراضيها.

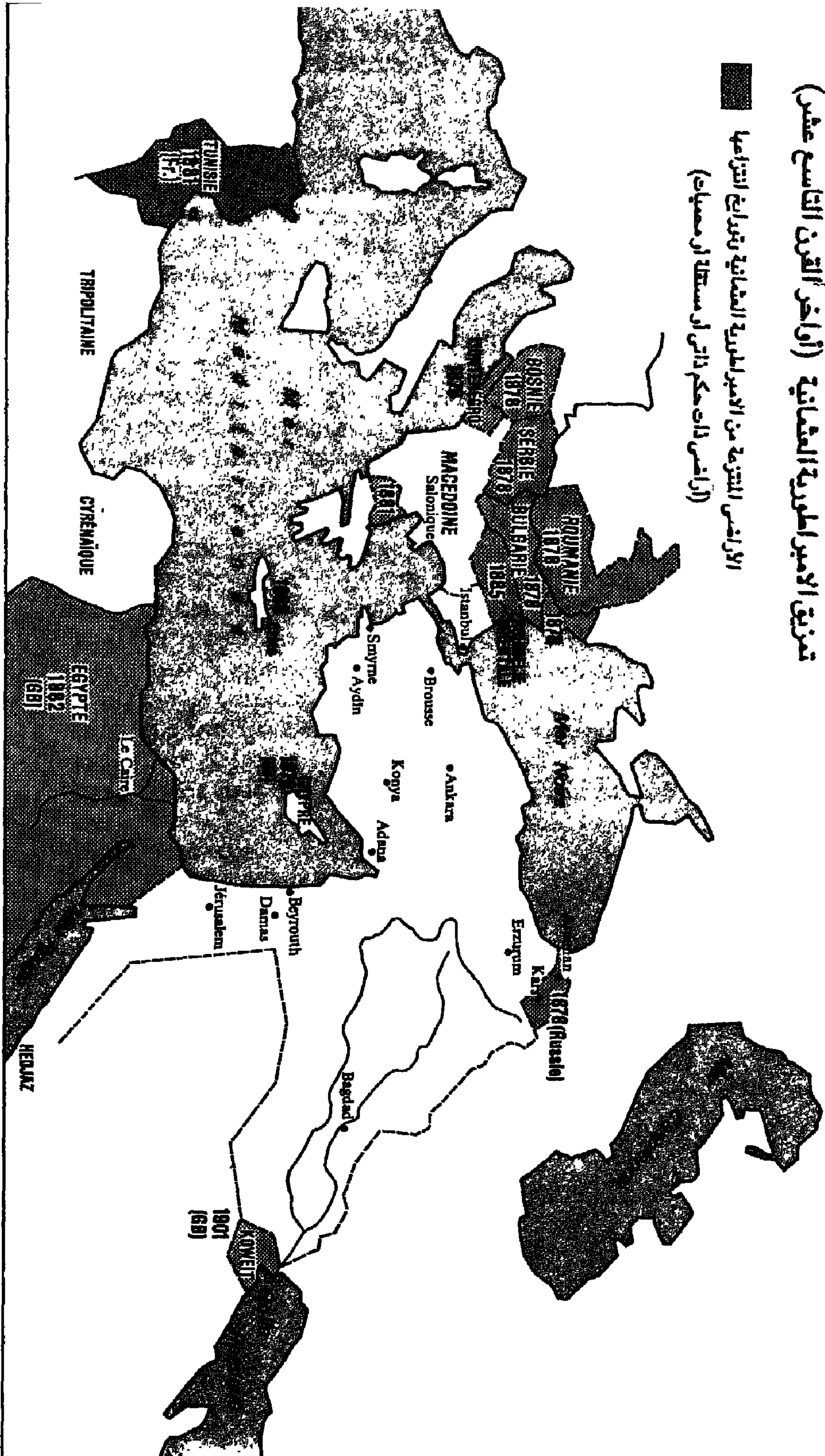


بالنسبة لرعايا عبدالحميد الثانى، يبرز عام ١٨٧٨ بوصفه علامة سوداء، شأنه فى ذلك شأن الكثير من الاعوام الأخرى منذ انخراط الامبراطورية العثمانية، فى عام ١٨٣٩، فى طريق التنظيمات. ولكن هل لا تتألف محصلة اربعين سنة من الاصلاحات إلا من أزمات داخلية وخارجية وخسائر اقليمية واستعباد اقتصادى ومسايرة متزايدة لسياسة الدول العظمى؟ للرد على هذا السؤال، يكفى تصفح احد هذه الالبومات الفوتوغرافية التى أمكن للرحالة الذين تسنى لهم القيام برحلتهم الفنية والثقافية فى الشرق، التقاط صورها، عند مستهل عهد عبدالحميد، فى غالبية المدن الكبرى للامبراطورية. إن الموضوعات «الزاهية الألوان» تحتل فيها مكانة هامة: العجائز الذين يرتدون الثياب التقليدية، النساء المحجبات بالدانتلة الشفافة، الأفراح الريفية... إلا ان بوسع المرء ان يرى فيها ايضاً رجالاً يرتدون الملابس الأوروبية، وينتظرون الترام؛ ومحطات للسكك الحديدية؛ وموانىء غاصة بالسفن البخارية؛ وبنائات عامة مهيبة ومزينة بشكل باذخ؛ ونسيجاً حضرياً جديداً أخذاً

فى التشكل يتألف من التكنات والقصور وصلات المسرح والمدارس والبنوك والبيوت المبنية بالحجارة... ومن المؤكد أن هذا أيضاً محصلة للتنظيمات لكن الأمر لا يقتصر على ذلك. فعلى أربعين سنة من الأزمة ترد أربعون سنة من الانطلاق الاقتصادى، والنهوض الثقافى، وعلمنة وتحديث المؤسسات، والتقدم فى مجال حقوق الإنسان. فإلى جانب مسألة الشرق، هناك الردود التى يحاول الشرق تقديم اجابات عليها.

تمزيق الامبراطورية العثمانية (اواخر القرن التاسع عشر)

الاراضى المنزعة من الامبراطورية العثمانية بتواريخ انتزاعها
(الاراضى ذات حكم ذاتى أو مستقلة أو مضميات)



تحلل الامبراطورية العثمانية (نهاية القرن التاسع عشر).

الفصل الثالث عشر

النزع الأخير

(١٨٧٨ - ١٩٠٨)

بقلم : فرانسوا جورجيو

الدولة العثمانية بعد معاهدة برلين

أعقاب الأزمة

تخرج الدولة العثمانية ضعيفة ومختزلة من الأزمة الطويلة المتعددة الجوانب، المالية، السياسية، العسكرية، الدبلوماسية، التي تمتد من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٨. فقد لحقت بها خسائر اقليمية ملحوظة في البلقان: إذ حصلت رومانيا وصربيا والجبل الأسود على استقلالها التام والكامل، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك وأصبحت بلغاريا امانة تتمتع بالحكم الذاتي. لكن التراجع العثماني لا يقتصر على الجزء الأوروبي من الامبراطورية: فقبرص يجرى التنازل عنها لانجلترا و ، في شرقي الأناضول، تضم روسيا ولايتي كارس وأردهان. وعلى وجه الاجمال، فإن نحو ٢١٠.٠٠٠ كم^٢ تنفصل عن الامبراطورية العثمانية، مع سكان يصل عددهم الى نحو ٥.٥ مليون نسمة، اى نحو خمس اجمالى سكان الامبراطورية. وعلاوة على هذه الاستقطاعات الاقليمية والديموجرافية، فإن الموارد المالية للامبراطورية العثمانية تتعرض للاختزال. فبعض الدول الجديدة كانت تدفع فى السابق جزية للباب (العالي)، وهذا الاختزال للايرادات يلحق ببلد يتعين عليه دفع تعويض باهظ عن الحرب لروسيا، يصل حجمه الى نحو ٨٠٠ مليون من الفرنكات.

وإضعاف الدولة العثمانية هو إضعاف ديپلوماسى أيضاً. ففي مؤتمر باريس، الذى أنهى حرب القرم (١٨٥٦)، كان قد تم الاعتراف بتركيا كجزء من الاتحاد الأوروبى، وكان قد تم الاعتراف بمبدأى احترام وحدة أراضيها وعدم التدخل فى شئونها الداخلية. وعلى الرغم من إعادة تأكيدها لهذين المبدأين، فإن معاهدة برلين قد أجازت تدخل الدول فى حالة عدم اضطلاع اسطنبول بالاصلاحات المطلوبة فى «الولايات التى يسكنها الأرمن».

وخلال السنوات التالية لمعاهدة برلين، تتعرض تركيا لاستقطاعات جديدة: ففي عام ١٨٨١، وإثر مساومات طويلة، يجرى التنازل لليونان عن ثيساليا وجزء من ابيروس. وبعد ذلك ببضع سنوات، تضم بلغاريا روميليا الشرقية، التى كانت الامبراطورية العثمانية تمارس عليها سيطرة سياسية وعسكرية. والشىء الأخطر هو أن الدول العظمى تستفيد من ضعف الامبراطورية لكى تزيد سيطرتها. وهكذا ففي عام ١٨٨١ تنتقل تونس تحت حماية فرنسا، وفى السنة التالية يتم احتلال مصر عسكرياً من جانب الانجليز «لأجل غير مسمى». وصحيح أن الأمر يتعلق ببلدين لا ينتميان بعد الى الحياة العثمانية إلا بشكل صوري، لكن ذلك لا يحول دون ان يكون ذلك ضربة جديدة لهيبة الامبراطورية، وأن تلك الضربة قد وجهتها دولتان اوروبيتان كانتا تتظاهران حتى ذلك الحين بأنهما مدافعتان عن وحدة الامبراطورية. ومن ثم فإن الوضع يدعو الى الانزعاج.

ومن جهة أخرى، فإن السكان المسلمين، فى الدول الجديدة التى تشكلت فى البلقان، يجدون انفسهم فى وضع صعب. وتؤدي المعاملات السيئة والخوف من الأعمال الانتقامية والقوانين الزراعية التى جرى سنها لمصلحة العناصر المسيحية الى نزوح آلاف الأتراك والمسلمين فى اتجاه اسطنبول، وهو ما يطرح على دولة تشكو بالفعل من ضائقة شديدة على المستوى المالى المشكلة الصعبة المتمثلة فى استقبال وتوطين هؤلاء اللاجئين.

وهكذا ففي بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر تتميز الامبراطورية العثمانية بقوام جديد: فهي إذ لا تملك بعد في أوروبا غير الممر المقدوني ولا تملك في أفريقيا غير الساحل الليبي، تبدو منذ ذلك الحين بوصفها دولة آسيوية ومسلمة أساساً. وبحكم التغيرات الإقليمية وتدفق اللاجئين، فإن نسبة المسلمين إلى إجمالي سكان الامبراطورية تنتقل في غضون بضع سنوات من ٦٨٪ إلى ٧٦٪. وهكذا تصبح الامبراطورية دولة ثلاثة أرباع سكانها من المسلمين.

وتستثير هذه الأحداث كلها وسط الطبقة الحاكمة أزمة معنوية جسيمة. والحال أن حرب «٩٣»، كما جرت العادة على تسميتها^(١)، سوف تخلف أثراً عميقاً في ذاكرة الأتراك الجماعية. فلاشك أنه لم يحدث من قبل قط أن كانت الامبراطورية جد قريبة إلى هذا الحد من نهايتها، ولم يحدث من قبل قط أن كانت الجيوش الروسية جد قريبة إلى هذا الحد من اسطنبول. والخطر لا يقتصر على الجزء الأوروبي من الامبراطورية. فهو ينتشر منذ ذلك الحين في كل مكان، في آسيا وفي أفريقيا. وهذا واقع جديد : فالأزمة توقظ لدى القادة العثمانيين احساساً بأن الامبراطورية قلعة محاصرة من جميع الجهات ومهددة من الداخل. وتعقب تفاؤل عصر التنظيمات فترة شكوك: هل ما يزال بالإمكان الثقة في أوروبا وفي القوميات المسيحية في الامبراطورية؟ هل تعتبر سياسة تغريب المؤسسات والمجتمع التي قام بها الباشاوات المصلحون سياسة مناسبة؟ صحيح أن هذه الاسئلة كانت قد طرحت بالفعل من جانب المثقفين العثمانيين الشبان ونامق كمال. لكن الشك يستولي الآن على الطبقة السياسية العثمانية التي صدمتها الكارثة.

وأول من يتساءل عن حكمة سياسة التنظيمات ويشكك فيها هو السلطان عبدالحميد الثاني. فهو، إذ يتأثر تأثراً عميقاً بالظروف المضطربة التي احاطت بتوليهِ العرش، يضطلع، منذ الأعوام الأولى لعهدهِ، بمراجعة كاملة للمبادئ التي استندت إليها سياسة عصر الإصلاحات.

ففى مجال السياسة الداخلية، يتذرع عبدالحميد بالمصاعب الجسيمة التى كان عليه التصدى لها لتهديد نظام الحكم الدستورى. وكان السلطان قد عدل بالفعل مشروع الدستور الذى وضعه مدحت باشا فى اتجاه سلطوى. وغداة مؤتمر اسطنبول، جرد السلطان مدحت باشا من وظائفه وقام بنفيه. وفى فبراير ١٨٧٨، بينما كانت الجيوش الروسية تعسكر فى ثراس، حل السلطان البرلمان. وبعد ذلك ببضعة أشهر، يضطر الى مواجهة تمردين يستلهمان المثل الليبرالية كانا يهدفان الى الاطاحة به لاعادة مراد الخامس الى العرش: فى مايو ١٨٧٨، الهجوم المسلح الذى قام به على سواوى على رأس مجموعة صغيرة من اللاجئيين من البلقان ضد قصر تشيراجان، وخلال الصيف، المؤامرة التى حاكها فى اسطنبول يونانى، هو كليانتي سكاليري، رئيس محفل پرودوس الماسونى. وهما محاولتان تمنيان بالفشل، لكنهما تعززان انعدام ثقة عبدالحميد فى الليبراليين والماسونيين ورغبته فى توطيد سلطته. وعلى مدار ثلاثين سنة، لن يدعو البرلمان الى الانعقاد. ولن يتم الغاء الدستور (سوف يتم نشره بصورة منتظمة فى صدر الكتاب السنوى للإمبراطورية العثمانية)، إلا أنه سوف يتم تعطيل العمل به. وقد أمكن القول فى مجال تعريف هذا النظام السياسى بأنه «حكم مطلق دستورى»^(٢).

ومن جهة اخرى، فإن المصير الذى اختص به السلطان ائمة الحركة الليبرالية يشير بوضوح الى التوجه الذى ينوى اعطائه لنظام الحكم. وصحيح ان مدحت باشا يستدعى من المنفى فى عام ١٨٧٨، تحت ضغط من جانب الانجليز، ويعهد اليه بمنصب والى دمشق ثم بمنصب والى أيدين. لكن نشاطاته فيهما تراقب عن كثب، لأن السلطان يشتبه فى انتهاجه سياسة شخصية تحرض السكان المحليين على التحرك. وبعد اتهام مدحت باشا بتدبير اغتيال عبدالعزيز، سوف يجرى القاء القبض عليه فى عام ١٨٨١ ونفيه الى الطائف، فى شبه الجزيرة العربية، حيث يموت بعد ذلك بثلاث سنوات مخنوقاً، بأمر من السلطان على الأرجح. أما فيما يتعلق بنامق كمال، رسول الحرية فى تركيا، فسوف يجرى ابعاده الى جزيرة فى

بحر ايجہ، حيث ينهى مسيرته العملية كموظف صغير بينما تتعرض مؤلفاته للحظر وتصادر مخطوطاته. وهذان مثالان جديران بالتأمل من جانب جميع اولئك السياسيين والكتاب الذين تحركهم الرغبة فى ان يكون صوت الحرية مسموعاً فى الامبراطورية.

ولما كان عبدالحميد قد عطل العمل بالدستور وكبح جماح المعارضين، فإنه ينجح فى فرض سلطته داخل الدولة. وخلال السنوات الست الاولى لعهدہ، يغير الصدر الأعظم ست عشرة مرة. وهو يترك قصر دولاباختشى على ضفاف البُسفور لى يقيم على تل يلدز الذى تحيط به اسوار شاهقة. ومنذ ذلك الحين يبدأ الحكم المطلق الحميدى.

وفى مجال السياسة الخارجية ايضاً، تشهد السنوات الاولى لعهد عبدالحميد اثارة الشك حول المبادئ التى استندت اليها دبلوماسية عصر التنظيمات وتطبيق توجهات جديدة. فحتى عام ١٨٧٨، كانت الدبلوماسية العثمانية تتألف من الاعتماد على فرنسا وانجلترا لمواجهة روسيا، التى كان ينظر اليها على انها العدو الرئيسى للامبراطورية. لكن الثمن الذى كان يتعين دفعه لقاء هذه السياسة، فى برلين، كان جد فادح لأنه تطلب التنازل عن قبرص لبريطانيا العظمى كإكرامية.

ومنذ ١٨٧٨ - ١٨٧٩، يبدأ عبدالحميد فى الاشتباه فى ان انجلترا تريد التخلّى عن سياستها التقليدية الخاصة بالحفاظ على وحدة الاراضى العثمانية. وهذه الشكوك تغذيها الضغوط التى تمارسها الحكومة البريطانية على السلطان حتى يضطلع بالاصلاحيات الموعودة فى الولايات الأرمنية؛ ويزيد من احتدادها تولى جلاستون، زعيم حزب الاحرار، لرئاسة الحكومة الانجليزية فى مايو ١٨٨٠، وهو عدو سافر للاتراك منذ زمن «مذابح بلغاريا». وتؤكد هذا بشكل ما هيمنة لندن على مصر فى عام ١٨٨٢. فمنذ ذلك الحين، شهدت الدبلوماسية الانجليزية، على نحو ما ينظر اليها فى اسطنبول، انقلاباً كاملاً. فلسد طريق الهند امام الروس،

وهو رهان رئيسى للسياسة البريطانية، لم يعد بالامكان الاعتماد على الامبراطورية العثمانية. ولذا فإنه يتعين التواجد بشكل راسخ فى شرقى البحر المتوسط، فى قبرص وعلى ضفاف قناة السويس، والاعتماد على عناصر اخرى فى الامبراطورية غير الاتراك، كالأرمن أو العرب بل والبلغار. ألا يتمثل هدف الانجليز، بشكل خاص، فى السعى، فى مواجهة التوسع الروسى من جهة القوقاز، الى تحقيق استقلال أرمنى تحت السيطرة الانجليزية؟ الواقع أنه ليس مؤكداً ان بريطانيا العظمى قد تخلت، كما كان يظن فى تركيا، عن الدفاع عن وحدة الامبراطورية العثمانية أو انها، بحسب الصيغة السائدة، قد تخلت عن اسطنبول ايثاراً للقاهرة^(٢). لكن ما له أهمية هو الفكرة التى يكونها العثمانيون عن تطور السياسة الانجليزية.

وتجاه امبراطورية القياصرة، ينتهج عبدالحميد سياسة جد متعقّلة، مبدىاً حرصاً فائقاً على عدم استثارة اطماع الروس التقليدية. وفى عام ١٨٧٨، كانت روسيا قد ادركت انها لا تستطيع الاستيلاء بشكل مباشر على الدردنيل؛ ولذا فهى تراهن على الامارة البلغارية الفتية، لكن هذه الأخيرة تخيب آمال سان بطرسبورغ، فى ١٨٨٥ - ١٨٨٦، بالعمل لحساب نفسها وحدها. ويمثل ذلك انتكاسة خطيرة بالنسبة للديبلوماسية الروسية التى سوف تبدأ، نحو اواخر القرن، فى الاهتمام بالشرق الأقصى. وإذ يرتقى الكسندر الثالث عرش القياصرة فى عام ١٨٨١، فإنه يهجر ليبرالية سلفه لينشئ نظام حكم سلطوياً يستند الى الشرطة والرقابة والدين وترويس «الأغراب». والخلاصة انه ينتهج سياسة لا تبعد كثيراً عن السياسة التى كان عبدالحميد بسبيله الى تطبيقها فى الدولة العثمانية ولاشك ان هناك قدراً من التواطؤ بين الامبراطورين. وأيا كان الأمر، فحتى مع أن السياسة الروسية لا تنسى الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للمضائق، فإنها تميل الى أن تصبح، فيما يتعلق بالامبراطورية العثمانية، سياسة «محافظة» ، بمعنى انها تفضل الحفاظ على الوضع القائم على المغامرة.

وهكذا، فاعتباراً من ثمانينيات القرن التاسع عشر، يبدو ان الخطر الذى يهدد الدولة العثمانية يجيىء من بريطانيا العظمى بأكثر مما يجيىء من روسيا. وفى وجه هذا الخطر، نجد أن فرنسا تتهاون، وأن المانيا البسماركية، التى يُجسَّ نبضها، تتهرب وتترك للانجليز حرية التصرف فى مصر. ومن ثم فإن الدبلوماسية الحميدية سوف تجتهد فى الحفاظ على توازن بين الدول وتأكيد نوع من الحياد الى ان يسمح لها توجه المانيا نحو سياسة عالمية بالعثور على سند جديد بين الدول الأوروبية.

الدولة الحميدية

إن النظام السياسى الذى يصوغه عبدالحميد خلال الأعوام الأولى لعهدده هو نتاج رد فعل مزدوج: ضد إضعاف سلطة السلطان الذى رافق سياسة التنظيمات، وضد النزعة الليبرالية والنزعة الدستورية لمدحت باشا، اللتين تمثلان المرحلة الأخيرة لهذا الاضعاف. ويرى عبدالحميد أن هذه السياسة قد جرت البلاد الى شفير الهاوية. وهو يرى أن الشعب العثمانى ليس ناضجاً لمحاولة خوض تجربة البرلمانية. ومن ثم فمن اللازم قيادته عن طريق «مرشد»، عن طريق «أب»، الى ان تؤتى الهياكل والاصلاحات التى تطبقها الدولة، خاصة فى مجال التعليم، ثمارها. ومن جهة أخرى، فإن النظام البرلمانى يبدو له خطيراً فى السياق المتعدد الأعراق للامبراطورية العثمانية حيث تجازف الجمعية (النيابية) بأن تكون بؤرة لارتفاع صوت الخلافات والتباينات والنزعات الانفصالية. ويتعين انشاء سلطة قوية، مركزة، قادرة على التصدى لنزعات الاستقلال لدى القوميات وعلى مواجهة تدخلات أوروبا. وبينما رأى مدحت باشا فى توفير الحرية الوسيلة المناسبة لتأمين حماية وتطور الامبراطورية، فإن عبدالحميد يعطى الأولوية لوحدة الدولة العثمانية وتكاملها. وهو يستلهم تراث عهد جده محمود الثانى، الذى تميز بالمركزة وبالاصلاحية السلطوية.

على ان الدولة الحميدية تبدو جد مختلفة عن الدولة العثمانية في اوائل القرن. وذلك، أولاً، بسبب شخصية السلطان الجديد. فهو، إذ ولد في عام ١٨٤٢، بعد بضع سنوات من ارتقاء ابيه عبدالمجيد العرش، تجرى تربيته في القصر، شأنه في ذلك شأن امثاله من الامراء، لكنه سرعان ما يكتسب قدراً من الاستقلال، خاصة وأنه يملك قدراً مناسباً من الفرص لأن يحكم الامبراطورية يوماً ما. فهو يتردد في العاصمة على أوساط جد متباينة، ويتصل بالاجانب، ويتعلم شيئاً من الفرنسية. على ان تعليمه سوف يظل مشتتاً وغير كامل. وقد وصف بأنه شاب متردد، خائف، تستولى عليه مخاوف غير مبررة. وعندما يصبح سلطاناً، فإنه يراكم ثروة ملحوظة، يترك ادارتها لأرمني من اهل الثقة، هو هاجوب زافيرى بك، وهو صراف من جالاتا، وبسبب انعدام ثقته في البنوك العثمانية، يحرص على ايداعها في الخارج؛ وبعد موته، سوف يتطلب الأمر جهود شركتين للعمل على تصفية ممتلكاته. على أنه يحيا في القصر حياة تتميز ببساطة واعتدال غير عاديين، جد ملائمين لأن يكفلاً له تعاطفات السكان الذين صدمهم بسهولة ترف رجال التنظيمات وأساليب حياتهم المستمدة من اساليب الحياة الغربية. ويفضل عبدالحميد الثانى الجاذبية شبه الريفية لاجنحة يلدز على ابهة الروكوكو التى تميز قصر دولما باختشى.

وهذه الاجنحة تتميز علاوة على ذلك بأنها اكثر منعة. والواقع أن الخوف يبدو أحد السمات المميزة لشخصية السلطان. فهذا المولع الكبير بالروايات البوليسية، الذى يأمر بتلاوة ترجمتها عليه حتى وقت متأخر من الليل فى القصر - سوف ينعم على كونان دويل بأحد اسمى نياشين الامبراطورية - ، يحيا فى خوف من مؤامرة او من محاولة اغتيال. وسوف يتزايد هذا الهاجس حدة مع محاولات الاطاحة به أو حتى اغتياله والتي قام بها المعارضون من جماعة تركيا الفتاة أو من الأرمن. وفى السنوات الأخيرة لعهد، سوف يحيا عبدالحميد حبيساً فى قصر يلدز، تحميه شبكة من الجواسيس، ويحيط به المتملقون والمداهنون، متزايد البعد عن مجريات الأمور الواقعية فى امبراطوريته.

وقد خلف عبدالحميد، خاصة لدى الرأى العام الغربى، صورة جد سلبية. فهو يبدو بوصفه قاتل الحريات وذابح الأرمن، وباختصار، بوصفه مستبداً وحشياً ودموياً، كما يشير الى ذلك نعت «السلطان الأحمر» الذى يوصف به عموماً. وقد غزت هذه الصورة الدعاية المكثفة التى انكبت عليها المعارضة فى المنفى والتى كانت الاطاحة بالسلطان قد اصبحت بالنسبة لها أولى الأولويات. فإلى أى حد تتطابق هذه الصورة مع الواقع؟ لقد ظهر اتجاه منذ بضع سنوات الى السعى الى رد الاعتبار الى ذكرى عبدالحميد. إذ يؤكد المؤرخون على الاصلاحات التى جرت مواصلتها، وعلى التحديث الذى اضطلع به السلطان بما يجعل منه مواصلاً، لا حافر قبر، للتخطيطات. وفى الأوساط التقليدية، يجرى التركيز على جهوده الرامية الى اضافة حيوية جديدة على العالم الاسلامى تسمح له بالتصدى لمشاريع الغرب. والواقع ان بوسعنا ان نرصد فى عبدالحميد شخصيتين. فهناك المستبد، الذى لا يثق فى أحد ويطمح الى التدخل فى أبسط تفاصيل شئون الدولة، المستبد الذى يجتهد فى خنق صوت المثقفين ويكبت بوحشية الطموحات القومية لسكان الامبراطورية؛ ثم هناك رجل عصره، المنفتح على المستجدات، المولع بالاوبرات الايطالية وبالعامة الحديثة، الراغب فى تطوير التعليم وتنظيم القضاء وتحسين شبكة المواصلات بفضل السكك الحديدية والتلغراف، خاصة بقدر ما يمكن لذلك ان يساعد على تعزيز الدولة.

وفى غضون بضع سنوات، ينجح السلطان فى ان يركز بين يديه سلطة ضخمة من المرجح ان اياً من اسلافه لم يتمتع بمثلها قط. وهى سلطة تستند اولاً الى ضعف سلطة الباب العالى، الى سلطة منصب الصدر الاعظم، أو كما يجرى البدء احياناً بتسمية هذا الأخير، رئيس الوزراء. وقد رأينا أنه كانت هناك «رقصة فالس» حقيقية تغير الصدور العظام بسرعة خلال الأعوام الأولى للعهد. وإذا كان ايقاع التغييرات يتباطئ إثر ذلك، فإن السمة السائدة تظل مع ذلك متمثلة فى انعدام استقرار المنصب. ففي سنوات عهده الثلاث والثلاثين، «يستخدم

عبد الحميد سبع عشرة صدراً أعظم، ويغير الحكومة ستاً وعشرين مرة، بحسب هواه أو تلبية لرغبة هذه الدولة أو تلك من الدول العظمى إذ لكل منها محاسبيها. وهكذا يحيا الصدور العظام فى خوف دائم من فقدان الخطوة، إن لم يكن فى خوف من الموت. ومن المستحيل فى هذه الظروف انتهاج سياسة متواصلة. وذلك بقدر ما أنه لا يوجد مجلس للوزراء لأن الوزراء، الذين يعينهم السلطان، ليسوا مسئولين إلا أمامه. وهكذا فإن الصدور العظام، الذين جردوا من السلطة التى كانوا قد اكتسبوها خلال عصر التنظيمات، انما يصبحون مجرد منفذين للمشية السلطانية. وينتهى «قرن الباب العالى»^(٤): فالسلطان يملك ويحكم.

ومن هذا الحشد من الصدور العظام، ذوى الشخصيات الباهتة الى حد ما بشكل لا مفر منه، تبرز شخصيتا اثنين من كبار موظفى الدولة، سعيد باشا وكامل باشا. فسعيد باشا (١٨٣٨ - ١٩١٤)، الذى كان صدراً أعظم سبع مرات، يضطلع باصلاحات هامة تتعلق بتنظيم الشرطة وباستقلال القضاء وبالتحديث البيروقراطية وبانشاء غرفة اسطنبول التجارية وبتوسيع الشبكة المدرسية الحديثة. أما كامل باشا (١٨٣٢ - ١٩١٣)، الذى ولد فى قبرص، والمؤيد لسياسة تقارب مع انجلترا، فهو يشجع الشركات الأجنبية وينشئ فى الامبراطورية طرق مواصلات وصناعات حديثة. إلا أنه أياً كانت قيمتهما الشخصية، فإن اياً من هذين الرجلين لا يتوصل الى ان يكون له نفوذ حقيقى على السلطان. بل إن كلا منهما كان عليه فى احدى لحظات مسيرته العملية ان يخشى على حياته: ففي عام ١٨٩٥، يلجأ سعيد باشا الى سفارة انجلترا فى اسطنبول، وفى عام ١٩٠٧، يضطر كامل باشا، الذى كان آنذاك والياً على ولاية أيدين، الى الإحتماء بالقنصل الانجليزى فى أزمير.

وهكذا نشهد انزلاقاً للسلطة، بدأ بالفعل فى بداية سبعينيات القرن التاسع عشر، من الباب العالى فى اتجاه القصر السلطانى. ومنذ ذلك الحين، فإن سياسة

الدولة تتقرر فى يلدز. ويحيط السلطان نفسه بعدد كبير من المستشارين، جد المتباينين من حيث اصولهم ووظائفهم، كتحسين باشا، السكرتير الخاص، وقره تودورى باشا، الذى يهتم بالسياسة الخارجية، وأحمد جلال الدين وفهيم باشا، اللذين يقودان الشرطة، الخ. وهم يشكلون ما يسميه خصوم السلطان بـ «زمرة» أو «بطانة» يلدز. وعلاوة على المستشارين، هناك «ضيوف» القصر الدائمون، الاعيان أو الوجهاء الدينيون القادمون من ولايات عربية أو من وسط آسيا أو من الهند، والذين من المفترض انهم يكفلون ارتباط رعاياهم بالخليفة. كما تتعين الاشارة الى حالة بعض افراد اسرة شريف مكة، الذين يجرى الاحتفاظ بهم من الناحية العملية كرهائن لدى القصر، بشكل يهدف الى إنهاء نزعات استقلال الأماكن المقدسة. وبوجه عام، فإن اياً من افراد حاشية السلطان لا يتوصل فعلاً الى ان يكون محل الحظوة، ولا حتى ابو الهدى الشهير، الشيخ الرفاعى المنحدر من سوريا، والذى وصف، ليس دون مبالغة، بأنه «الراسبوتين العثماني».

وخارج دائرة القصر، يمارس عبدالحميد سلطته على البلاد بواسطة بيروقراطية تنمو بسرعة. فتطور جهاز الدولة والمدن والخدمات البلدية يؤدى الى تزايد عدد الموظفين بسرعة بالغة، ليصل الى ١٠٠٠٠٠ عند نهاية القرن. ويجرى ضبط تنظيم للوظائف العامة، يعطى منذ ذلك الحين لموظفى الدولة وضعية حديثة. ويتم اعداد كبار الموظفين فى مدرسة الادارة (الملكية) التى انشئت فى عصر التنظيمات، وكذلك فى المنشآت المتخصصة الجديدة كمدرسة الحقوق ومدرسة الشئون المالية. ويبدأ تجنيد الموظفين، عادة، من زاوية الجدارة وفق نظام مسابقات وامتحانات. لكن الكثير من الممارسات السابقة يبقى، فى الواقع، كالتدريب فى المكاتب والمحسوبيات والوساطة والرشاوى. واذا كانت الدولة العثمانية تجزل العطاء لكبار موظفيها (راتب الصدر الأعظم اعلى خمساً وعشرين مرة من راتب سكرتير وزارة)، فإنها تعامل جمهور صغار الموظفين والمستخدمين معاملة جد

سيئة، وهو ما يسهم في الابقاء على الفساد. والسلطان نفسه يضرب المثل، فهو لا يتردد في شراء الذمم اذا ما دعت الحاجة الى ذلك.

ولما كان توسع جهاز الدولة يستتبع مراقبة متزايدة للأشخاص وللأذهان، فإن الدولة الحميدية تصبح دولة بوليسية. ففي عام ١٨٨٠ يتم انشاء وزارة للشرطة، وفق النموذج الفرنسي، يضع عبدالحميد على رأسها رجالاً من أهل الثقة. لكن الشيء الأكثر أهمية هو انه يجرى انشاء شبكة تجسس، ربما بالهام من المانيا، موازية للوزارة وتدار من القصر. وينهمك البوليس السياسى فى جهد مكثف يهدف الى الرقابة وجمع المعلومات لا يسلم منه أحد، بدءاً من الصدر الأعظم حتى اصغر موظف، مروراً بالسفراء العثمانيين فى الخارج وافراد جماعة تركيا الفتاة المعارضين. ويجرى التشجيع بشكل واسع على الوشاية. وذلك بصرف النظر عما يمكن ان يرتجله **چورنالنجى**، أى كاتب تقارير (**چورنال**)، وشاية بجيرانه وزملائه ومعارفه. وغداة ثورة جماعة تركيا الفتاة، سوف نجد السجون غاصة بضحايا هذه التقارير. كما تجرى مراقبة التنقلات. فالامبراطورية العثمانية هى اول بلد، مع روسيا، ينشئ نظام جوازات السفر، وذلك فى عصر تتطور فيه وسائل المواصلات بسرعة.

أماً استخدام الرقابة على المطبوعات، والذي يرجع الى زمن عبدالعزيز، فهو يتعزز بشكل ملحوظ فى ظل عبدالحميد. إذ يجرى الحاق لجان رقابة بوزارة التعليم وبوزارة الشئون الخارجية لمراقبة المطبوعات المحلية والمطبوعات القادمة من الخارج. ويخضع انشاء دور للنشر وانشاء الصحف لتصريح مسبق. ويحظر استخدام مصطلحات أو اسماء اعلام معينة، حتى وإن كان يبدو انه لم تكن هناك قط «قائمة سوداء»، خلافاً للزعم السائد. ومن بين الكلمات المحظورة، يمكننا الاشارة الى كلمات «الحرية»، «الدستور»، «الثورة»، «الفوضى»، «الاضراب»، «الوطن»، الخ. وتمنع الاشارة الى مراد الخامس أو احداث كريت أو احداث

مقدونيا. وتوقف مجلة «ثروة - اى فنون» (ثروة الفنون) الشهيرة لمدة عدة اسابيع بسبب مقال اشار الى «نظام ١٧٨٩». وتمتد الرقابة، أو ربما الرقابة الذاتية، الى علم القواميس. فالتعريف الذى يقدمه قاموس عثمانى ظهر فى عام ١٩٠٥ لكلمة "Tyran" (مستبد) هو: «طائر امريكى». وخلافاً لوقع التلهى الذى تستثيره هذه الرقابة لدى الرأى العام الأوروبى والعار الذى تلتخ به النظام، فإنها قليلة الفعالية. وبوجه خاص، فإن الكلمات والمفاهيم التى تعتبر هدامة من وجهة نظر السلطة تتغلغل بسهولة، عن طريق الخدمات البريدية الأجنبية، على الأقل بين الصفوات المدنية.

وفى ذات الوقت الذى يجتهد فيه عبدالحميد فى السيطرة على الأذهان، فإنه يضطلع باصلاحات هامة فى المجال القضائى، وفى المواصلات وفى التعليم، وهى اصلاحات تشكل امتداداً للجهود التى بدأها رجال التنظيمات. وهكذا، ففى مجال التعليم، كان قانون ١٨٦٩ قد ارسى اسس نظام تعليم عام، لكن هذا القانون لا يطبق بشكل فعلى إلا فى ظل عبدالحميد. وامام تزايد المدارس الحرة الأجنبية أو غير الاسلامية، يتعين على الدولة تأكيد حضورها وتلبية الطلب المتزايد على التعليم من جانب الادارة والشركات الأجنبية والطبقات المتوسطة. وبعد عام ١٨٧٨، تغطى ولايات الامبراطورية شبكة من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، كانت حتى ذلك الحين شبه مقتصرة على العاصمة. وتتمثل رسالة هذه المدارس فى اعداد مسلمين صالحين ورعايا عثمانيين مخلصين. ويجرى انشاء مدارس كبرى ومعاهد مهنية فى اسطنبول، كمدرسة الشؤون المالية ومدرسة الحقوق واكاديمية الفنون الجميلة ومدرسة التجارة. وتتويجاً لكل ذلك، يجرى تزويد اسطنبول فى عام ١٩٠٠ بجامعة يراد من ورائها احتواء الطلاب، بحيث لا تصيبهم بعد عدوى الافكار الليبرالية فى أوروبا.

والواقع ان توسع سلطات الدولة وتزايد عدد الموظفين وتحديث القضاء وتطور التعليم العام كانت بالقدر نفسه اعباء على ميزانية الامبراطورية. وعلى الرغم من

تجربة افلاس عام ١٨٧٥ الأليمة، فإن الدولة الحميدية تضطر الى اللجوء الى قروض خارجية جديدة، خاصة بعد عام ١٩٠٠. وتؤدي مركزة وتحديث الدولة بشكل حتمى الى زيادة تبعيتها.

الفكرة الكبرى للعهد

تتمثل احدى ابرز السمات التي تميز الدولة الحميدية عن دولة عهد التنظيمات فى المكانة الجديدة التي يبدو ان الدين الاسلامى يحتلها فيها. فالواقع انه ينشأ فى عدد معين من المجالات نوع من «العودة الى الدين»: إذ يجرى بناء المزيد من المساجد، واعطاء مكانة اوسع للاسلام فى البرامج المدرسية، وفى المدرسة. وفى القصر يلتف حول السلطان حشد من الوجهاء الدينيين، من السادة والخوجات والملات، الخ.

وعبدالحميد نفسه يضرب المثل: فهو إذ ينتمى الى طريقة القادرية، يحيا حياة تتميز بالورع والتقوى، شديدة المراعاة لواجبات المؤمن. وليس فى سلوكه ما يمكن ان يجر عليه نعت الكافر المشين الذى كان يطلق احياناً على اسلافه. وعلاوة على ذلك، فإنه يستند على الأصرة الدينية لى ينسج علاقات مع الشعوب أو الدول الاسلامية الأخرى. ويجرى ارسال رسل عثمانيين الى الجزائر ومصر والهند والى مسلمى الصين. كما يجرى منح اعانات للصحف الاسلامية لدعم جهودها الدعائى المؤيد للخلافة. وتنشر صورة الخليفة على نطاق واسع ويذكر اسمه احياناً فى صلاة الجمعة فى المسجد على سبيل اعلان الولاء. وهذا هو الجانب الذى يسمى عادة بـ «نزعة الجامعة الاسلامية» الميزة لسياسة السلطان - وهى جامعة اسلامية كثيراً ما اثارت زعر القنصليات الغربية، التي دخل فى روعها انه يجرى الاعداد فى اسطنبول لثورة من جانب مسلمى العالم كله سوف تؤدي الى زعزعة استقرار النظام الاستعماري. وبصرف النظر عن هذا الخوف، فمن الواضح ان

المناخ قد تغير مع عبدالحميد. فالاسلام يبدو اكثر ثقلاً فى شئون الدولة. ويبقى تقييم أسباب وابعاد الظاهرة.

بادئ ذى بدء، هناك دون شك التهديد الذى اصاب سياسة التنظيمات. إن فكرة انشاء أمة عثمانية عن طريق منح الجميع، المسلمين وغير المسلمين، المساواة، فكرة جعل جميع رعايا الامبراطورية مواطنين على حد سواء فى دولة واحدة، باختصار فكرة «العثمانية» قد منيت بالفشل؛ فهى لم تنجح فى وقف تفكك الامبراطورية. ومن الضرورى العثور على مبدأ آخر للتضامن، وسوف يكون الاسلام هو هذا المبدأ. وهو اسلام سوف يساعد أيضاً على اعادة الأمل الى السكان الذين تذكر الشهادات انهم كانوا عرضة لبلبلة جسيمة غداة ١٨٧٨ وعلى تعبئتهم. والتأكيد على الاسلام، يعنى ايضاً استخلاص النتائج اللازمة من التوازن الديموجرافى الجديد الذى يجعل الامبراطورية دولة ثلاثة ارباع سكانها من المسلمين. وباختصار، فإنه الاسلام بوصفه ايدىولوجية اتحاد وتعبئة الغالبية العظمى من العثمانيين.

وأحد العناصر الرئيسية لهذه السياسة هو استخدام فكرة الخلافة، الفكرة الرئيسية لجامعة عبدالحميد الاسلامية. فالسلطان يرى أنه من حيث كونه خليفة فإنه يحوز سلطة روحية على جميع المسلمين وليس فقط على مسلمى الامبراطورية العثمانية. وهذا المفهوم يجعل من الخلافة مؤسسة قريبة من البابوية - وهو ما لا يتمشى البتة مع التراث - ، ويجعل من يلدن، بشكل ما، قاتيكانا للاسلام. وفى سعيه الى حفز ولاء المسلمين تجاه هذه المؤسسة، يستخدم السلطان طرقاً معينة، كالطريقة الرفاعية أو الطريقة القادرية. وتروج الصحافة العثمانية لجميع الجهود المبذولة للتأكد من ولاء اكثر مسلمى الامبراطورية بعداً. ولعل ذلك هو الشئ الهام : فمن الواضح ان المسألة ليست مسألة توحيد لمسلمى العالم كله حول الخلافة - وهو هدف يدرك السلطان جيداً انه يتجاوز كثيراً الامكانيات التى يتمتع بها - ، بل

هى مسألة تعبئة السكان المسلمين فى داخل الامبراطورية حول فكرة الخلافة. انها، بشكل ما ، جامعة اسلامية للاستخدام الداخلى.

لكن سياسة الخلافة هذه لا تستجيب فقط للرغبة فى العثور على بديل للنزعة العثمانية. فهى تهدف ايضاً الى التصدى لخطر يمكن ان يكون مريعاً بالنسبة للامبراطورية؛ فقيروس النزعة القومية يندر بأن يجتاح ايضاً السكان المسلمين غير الاتراك، الألبان والاكرد والعرب. ويبدو أن السلطان قد رصد هذا الخطر بسرعة بالغة. وهكذا فإننا نراه منذ عام ١٨٨٠ يحل عصابة بريزرين التى كانت تعبر عن الاتجاهات الاستقلالية فى البانيا ويشدد على الأصرة الاسلامية التى تجمع بين الألبان والاتراك. وعند الاكرد، يمارس عبدالحميد سياسة تحالف مع بعض كبرى عائلات الاعيان الدينيين لدعم سلطة الدولة، وتبدو هذه السياسة فعالة لأنه لن يحدث تمرد كردى واسع ضد الدولة بعد عام ١٨٨٠.

على أن السلطان يخشى بالدرجة الأولى من انبثاق اتجاهات انفصالية فى الولايات العربية للامبراطورية. ويبدو أنه قد اشتبه بسرعة فى ان انجلترا تريد اللعب بالورقة العربية ضد السلطة العثمانية. والحال انه منذ اواخر عام ١٨٧٦ تبدأ فى الصحف العربية الصادرة فى لندن حملة حقيقية مؤيدة لانشاء خلافة عربية. والفكرة التى يجرى الدفاع عنها هى أن العثمانيين قد اغتصبوا الخلافة وأنه يجب ردها الى العرب الذين تعود اليهم قانوناً. وهذه الافكار، التى يدافع عنها فى البداية لبنانيون مسيحيون بشكل خاص، سرعان ما يتبناها على المكشوف ويلفريد سكافين بلنت، الشاعر والعميل البريطانى، فى كتاب ظهر فى عام ١٨٨١ تحت عنوان: «مستقبل الاسلام».

وبشكل محدد، وفى اللحظة التى يبدأ فيها صوغ هذه الأفكار فى اوروىا، يجتاح غليان معين الولايات العربية للامبراطورية. وفى ١٨٨٠ - ١٨٨١، تظهر منشورات وبيانات هجائية فى بيروت وحلب ودمشق وبغداد تدعو السكان العرب الى التخلص من الوصاية العثمانية. ويذكر المراقبون ان مناخاً معادياً للاتراك أخذ

فى التطور، ويرى عبدالحميد فى ذلك يد انجلترا. والحال ان فكرة الخلافة العربية، او حتى فكرة دولة عربية، والتي تقتصر فى البداية على جماعة صغيرة من اللبنانيين المسيحيين، سوف تشق طريقها شيئاً فشيئاً. ففي عام ١٨٠٢، يظهر فى القاهرة كتاب «أم القرى» للسورى عبدالرحمن الكواكبي، وهو عمل يقترح فيه الكاتب خطة لاهياء الاسلام استناداً الى خلافة عربية ذات سلطة روحية فقط يكون مركزها مكة («أم القرى»). وبعد ذلك ببضع سنوات، سوف يعرض نجيب عازورى فكرة نزعة قومية عربية فى كتاب صادر بالفرنسية تحت عنوان : «بعث الأمة العربية فى آسيا التركية».

والحال أنه قياساً الى هذا الخطر، المنتشر بالفعل، والذي يتمثل فى وجود نزعة انفصالية فى الولايات العربية، يجب، بالدرجة الأولى، الحكم على «نزعة الجامعة الاسلامية» لدى عبدالحميد. فهى أحد عناصر سياسة يمكن وصفها بأنها سياسة «عربية»، وتسعى الى ربط الولايات العربية بالدولة العثمانية بشكل اكثر رسوخاً. والدين وسيلة بين وسائل اخرى للوصول الى هذه الغاية. ورداً على فكرة الخلافة العربية، يشجع السلطان نشر مؤلفات دعائية بالعربية، تدافع عن شرعية الخلافة العثمانية.

فما هى الجوانب الأخرى لسياسة عبدالحميد العربية؟ ان الولايات العربية تتمتع بادىء ذى بدء بالأولوية على المستويين السياسى والاقتصادى. وهى تصبح، فى هيراركية ولايات الامبراطورية، الولايات التى تجيىء فى المقدمة، اى الولايات التى يجرى ارسال الرجال الأقدر اليها، كولاة. وهى تحصل على جزء بالغ الأهمية من الاستثمارات والأرصدة العامة. وهكذا، فبين عامى ١٨٨٢ و ١٩٠٨، سوف يجرى مد ٢٣٥٠ كيلو متراً من السكك الحديدية فى سوريا وفى الحجاز، فى مقابل ١٨٥٠ كيلو متراً فى الاناضول بين التاريخين نفسيهما، اى بنسبة ٤٧٪ فى مقابل ٣٧٪ من مجموع السكك الحديدية التى يجرى مدها فى ظل عبدالحميد. والحال ان

مدينة كدمشق تجهز بالاضاءة وبالترام الكهربائى فى عام ١٩٠٦، قبل اسطنبول.
وتضطلع الدولة بجهد ضخم فى مجال التعليم : ففى بيروت أو فى دمشق، يتقدم
التسجيل فى المدارس العامة بأسرع مما فى أى مكان آخر.

كما تتألف هذه السياسة من منح العرب مكانة اوسع فى حياة الدولة. فعلاوة
على مجموعة الوجهاء الدينيين المحيطين بالسلطان فى بلدن، نجد عدداً من العرب
فى مناصب وزارية (كالمارونى اللبناني سليم ملحم باشا)، أو على رأس مكاتب من
مكاتب القصر (كعرب عزت باشا، السكرتير الثانى للقصر). وفى الجيش ايضاً،
يتم تكثيف تجنيد ضباط عرب: فى عام ١٨٨٦ لا يقل عددهم عن ٣٢٠٠. وفى
الساحة، فى الولايات، يعتمد عبدالحميد على بعض كبرى عائلات الاعيان
الدمشقيين أو الحلبيين، أو على زعماء العشائر. كما يجرى انشاء مدرسة للعشائر
فى اسطنبول فى عام ١٨٩٢ لتعليم ابناء الزعماء وتربيتهم فى روح الولاء للدولة
العثمانية.

ومن المؤكد ان احد الجوانب الأكثر اثارة لهذه السياسة العربية هو انشاء
سكة حديد الحجاز لربط المدينتين المقدستين فى شبه الجزيرة العربية بدمشق.
وكان الهدف المعلن لهذا المشروع هو تسهيل الحج الى مكة. اما فى الواقع، فقد
كان السلطان يتطلع الى اهداف اخرى: توفير السرعة لنقل القوات الى اطراف
شبه الجزيرة العربية المواره بالحركة فى أغلب الأحيان واحكام السيطرة على
المدينتين المقدستين لتجنب تحولهما الى بؤرة لدولة عربية يمكن لحاكمها ان يتخذ
لنفسه لقب الخليفة. والحال ان المشروع الذى بنى بفضل اسهامات مسلمى العالم
كله ونفذ على ايدى مهندسين وفنيين اترك اساساً، انما يعتبر، على المستوى
الفنى، مشروعاً ناجحاً. ويصل الطريق، الذى نفذ فى زمن قياسي، الى المدينة عند
نشوب ثورة تركيا الفتاة، وذلك بالرغم من مقاومة البدو الذين اعتبروا السكة
الحديدية منافساً غادراً لانشطة قوافلهم. وتستثير سكة حديد الحجاز ثورة تضامن

ضخمة فى العالم الاسلامى وتتميز بأثر تعبوى لا جدال فيه على الجماهير الاسلامية فى الامبراطورية. كما انها تتميز بقيمة رمزية : اظهار ما يمكن للمسلمين عمله فى مجال تقنى دون اعتماد على عون الأوروبيين.

وهكذا فإن جامعة عبدالحميد الاسلامية تتألف بوجه خاص من تعبئة مسلمى الامبراطورية حول فكرة الخلافة وتوثيق الروابط مع الولايات العربية. وفيما عدا ذلك، فإن الدين الاسلامى، حتى وإن كان يحتل من الناحية الظاهرية مكانة اوسع بكثير، لا يستعيد المكانة التى كانت له قبل التنظيمات. على العكس، إن الاتجاهات الى العلمنة فى عصر الاصلاحات تجد تعزيزاً لها، وذلك على سبيل المثال فى المجال القضائى فى عام ١٨٧٩. وإن يستعيد العلماء سلطتهم التقليدية وسوف يتم الاشراف عليهم عن كُتب من جانب السلطة المدنية. وسوف يكون شيوخ الاسلام الذين يعينهم عبدالحميد اشخاصاً من الدرجة الثانية يمكن للسلطان تهميشهم بسهولة. وفيما عدا استثناءات قليلة، سوف يجرى ترك الأخويات الاسلامية (الطرق) لحالة التدهور التى تغرق فيها، شأنها فى ذلك شأن المدارس الاسلامية التى لن يتم الاضطلاع باصلاحها إلا فى ظل حكم جماعة تركيا الفتاة. ثم إن السلطان لا يثق فى طلاب المدارس الاسلامية، الصفطة، المثيرين للقلق فى اغلب الأحيان. ويتمثل مؤشر آخر على مكانة الاسلام فى عصر عبدالحميد فى الكتب الدينية. اذ يجرى نشر الكثير منها، لكنها تعتبر أقل بالقياس الى المؤلفات التى تتناول الأمور غير الدينية. فقد كانت تمثل نسبة ٣٦٪ من الكتب الصادرة فى عهد عبدالمجيد، ونسبة ٢٢٪ من الكتب الصادرة فى عهد عبدالعزيز، بينما لا تمثل غير نسبة ١٤٪ من الكتب الصادرة فى عهد عبدالحميد. وكل هذه العناصر تجر الى التهوين من شأن «العودة الى الدين» التى اسلفنا الاشارة اليها. فالواقع ان الاسلام كان بعيداً عن العودة فى الدولة ولم تكن المسألة بالمرّة مسألة عودة الى حكم ثيوقراطى كما زعم خصوم السلطان.

على ان المسألة ليست ايضاً مسألة اصلاح للاسلام. فالحركة الكبرى للاصلاح الاسلامى، والتي كانت تهدف فى آن واحد الى العودة الى اسلام اصلى اكثر نقاءً والى محاولة تكييفه مع العالم الحديث، كانت نشيطة بشكل خاص فى اواخر القرن التاسع عشر بين مسلمى الهند وفى مصر. على ان المصلح الكبير للاسلام، جمال الدين الافغانى، كان ايضاً ضعيفاً على السلطان اعتباراً من عام ١٨٩٢؛ ولكن ليس بوصفه حامل رسالة تجديد مثلما كان خلال اقامته الاولى فى اسطنبول فى عام ١٨٧٠، وانما بوصفه مؤلف كتاب «الرد على الدهريين» الذى صدر فى الهند فى عام ١٨٧٨، والذى ينتقد فيه الملحدين، مدمرى الشريعة والأخلاق. وتؤدى الرقابة العثمانية الى دفع كل اولئك الذين، فى اسطنبول أو فى الولايات العربية، يفكرون فى تحديث الاسلام، الى الهرب الى مصر. ويترتب على ذلك ان القاهرة، فى مجال الفقه التقليدى (مع الأزهر) كما فى مجال الفكر الاصلاحى، تأخذ منذ ذلك الحين مكان اسطنبول كعاصمة دينية للعالم الاسلامى. وهى نتيجة تشكل على أقل تقدير مفارقة من مفارقات سياسة عبدالحميد الكبرى الداعية الى الوحدة الاسلامية!

هيمنة الغرب

فى العصر الذى يضطلع فيه عبدالحميد برص صفوف مسلمى الامبراطورية حول فكرة الخلافة، يشدد الغرب ضغطه على الدولة العثمانية. والواقع ان وصول عبدالحميد الى السلطة يتزامن مع بدايات الحركة المعجمة للامبريالية التى سوف تؤدى نحو اواخر القرن التاسع عشر الى «تقسيم العالم». فأزمة عام ١٨٧٣، والآثار الاولى للكساد الاقتصادى العظيم والعودة الى الحمائية تدفع الدول العظمى، فى سياق تنافسات دولية ضارية، الى تسابق على المواد الأولية وعلى منافذ للمنتجات المصنعة ولرؤوس الأموال، وتعتبر الامبراطورية العثمانية من اول ضحايا النزعة التوسعية الأوروبية. إلا انه خلال السنوات الثلاثين التى تفصل

الهيمنة الانجليزية على مصر عن الاحتلال الايطالى لليبيا (١٩١١)، سوف تكون الاراضى العثمانية شبه متحررة من الفتوحات الاستعمارية. لكن ذلك لا يحول دون استفادة الدول الغربية من المزايا التى تمنحها لها الامتيازات والمزايا التى تمنحها لها المعاهدات التجارية مع الباب (العالى)، لتنمية مصالحها المالية والاقتصادية والثقافية فى الامبراطورية.

وعلى المستوى المالى، منذ افلاس عام ١٨٧٥، ومسألة تسوية الديون العثمانية تنتظر حلاً. ومع تراجع الجيوش العثمانية امام الروس، كان حملة السندات العثمانية جد منزعجين أمام خطر انهيار الامبراطورية. وبعد معاهدة برلين، سوف تدخل الحكومة العثمانية فى اتصال مباشر مع ممثلى الدائنين الأوروبيين للتفاوض على الشروط الجديدة للدين. وسوف تؤدى هذه المفاوضات فى نوفمبر ١٨٨١ الى اصدار «مرسوم محرم». وينص المرسوم أولاً على تخفيض وتثبيت للدين العثمانى، الذى سينتقل حجمه من ٢٢٠ إلى ١١٦ مليوناً من الجنيهات التركية. ولخدمة هذا الدين ترصد الحكومة عدداً معيناً من دخولها، كدخول احتكار الملح والضريبة على الكحوليات ورسوم الدمغة وضريبة العشر على الحرير والضرائب المفروضة على صيد السمك وعوائد التبغ، الخ. ولجباية وإدارة هذه الدخول يجرى انشاء جهاز مالى، خاضع للقانون العثمانى، لكنه متميز بالكامل عن وزارة الشئون المالية العثمانية، هو ادارة الدين العام. ويدار الدين العام عن طريق مجلس مكون من سبعة اعضاء حملة يمثلون حملة السندات العثمانية (انجليزى، فرنسى، ايطالى، نمساوى، المانى، عثمانى، علاوة على ممثل لصيارفة جالاتا) ويرأسه بالتناوب المندوب البريطانى والمندوب الفرنسى.

ومع انشاء الدين العام، تتجنب الدولة العثمانية المصير الذى عرفته تونس أو مصر، اللتان وقعتا تحت سيطرة اوروبا السياسية بسبب الافلاس. ومن جهة اخرى، فإن حسن سير عمل النظام الذى اقيم يسمح للدولة العثمانية بأن تستعيد

شيئاً فشيئاً اعتبارها لدى الدول الأوروبية العظمى وبأن تتمكن من التفاوض بعد عام ١٨٨١ على قروض جديدة فى شروط مناسبة. فالواقع ان القروض العثمانية المتعاقد عليها بين عامى ١٨٨١ و ١٩٠٨ سوف تتميز بمعدل اصدار اعلى بكثير من معدل اصدار القروض الاولى (من ٨٠ إلى ٩٠٪ بدلاً من ٥٨٪ فى المتوسط بالنسبة للفترة الممتدة من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٨١) وبمعدل فائدة اقل ارتفاعاً (من ٣ إلى ٤٪ فى مقابل ٥ إلى ٦٪). كما يلعب الدين العام فى حالات معينة دوراً اقتصادياً ايجابياً. وهكذا، وفى مجال تربية بود القز، والذي كان قد تعرض للخراب بسبب منافسة الشرق الأقصى والامراض، سوف تسمح التدابير الملائمة المتخذة من جانب الجهاز الدولى بالاسراع فى اعادة تكوين هذا النشاط المربح.

إلا انه فيما عدا ذلك، لابد من الاعتراف بأن انشاء الدين العام قد مثل خسارة جسيمة للسيادة بالنسبة للدولة العثمانية. وذلك بقدر ما أنه، مع مر الأعوام، يميل الى التصرف على نحو متزايد بوصفه دولة داخل الدولة. وفى اواخر عهد عبدالحميد، نجد أنه يمتلك ٧٢٠ فرعاً لجباية الضرائب فى الولايات ويستخدم ٥٥٠٠ شخصاً - اكثر من عدد الاشخاص الذين تستخدمهم وزارة الشئون المالية - ويتحكم فى نسبة ٣٠٪ من ايرادات الدولة. والواقع ان الممثلين فى مجلس الدين، المختارين بعناية من جانب حكوماتهم، كانوا من الناحية الفعلية سفراء مسئولين عن مصالح مهمة. ومع البنك العثمانى (ذى الرساميل الفرنسية اساساً) والدويتش بنك (المنغرس فى الامبراطورية العثمانية اعتباراً من عام ١٨٨٨)، فإن الدين العام يتواجد فى قلب جهاز السيطرة على المالية والاقتصاد العثمانيين. ولما كان يسهر على ضمان وتوظيف بعض القروض العثمانية فى اوروىا، فإنه يلعب علاوة على ذلك دور محطة للاستثمارات الصناعية. والى جانب الدين العام، جرى فى عام ١٨٨٣ انشاء ادارة للتبغ، برساميل فرنسية اساساً، وذلك لادارة ايرادات التبغ. والحال أن هذا المشروع مشروع ضخم، هو الآخر، لأنه يستخدم فى عام ١٩٠٠ قرابة ٩٠٠٠ شخص، يشكل جزء منهم نوعاً من جيش خاص مكلف بقمع تهريب التبغ.

وعلى رأس هاتين الشركتين، اللتين تستخدمان يداً عاملة غالبيتها من المسلمين، كانت جميع الكوادر القيادية اجنبية. ومن المفهوم، فى هذه الظروف، ان الدين العام وإدارة التبغ، رمزى الرأسمالية الأوروبية فى تركيا، قد انتهتا بأن تركزا عليهما العداوة لأوروبا.

وخلافاً لهذا الجانب المؤسسى، فإن عصر عبدالحميد لا يبدى تميزاً خاصاً فيما يتعلق بقروض الدولة. فبسبب عجز الموازنة والنفقات العسكرية، تواصل الدولة الحميدية الاقتراض، لكن القروض، بوجه عام، تعتبر اقل أهمية مما فى عصر عبدالعزيز ويبدو ان استخداماها كان افضل. وفى المقابل، فيما يتعلق بالاستثمارات، فإن عهد عبدالحميد يمثل اللحظة التى تبدأ فيها الرساميل الأجنبية فى التدفق على الامبراطورية. ويتضح ذلك من حالة الرساميل الفرنسية التى تجيء على رأس الاستثمارات الأجنبية: ففي عام ١٨٨١، كان حجم الرساميل الفرنسية ٨٥ مليون فرنك؛ وهو يرتفع الى ٢٩٢ مليون فرنك فى عام ١٨٩٥ وإلى ٥١١ مليون فرنك فى عام ١٩٠٩، أى انه يتضاعف ست مرات فى غضون ثلاثين سنة. وإذا ما اخذنا الآن فى اعتبارنا مجموع الرساميل الاجنبية المستثمرة فى الامبراطورية قبل عام ١٩١٤، فسوف نجد أن نسبة ٤٠٪ منها قد استثمرت بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٩٦. ويمكن الحديث عن تدفق حقيقى للرساميل الأجنبية فى تلك الأعوام يتطابق مع فترة بناء متسارع للسكك الحديدية فى الامبراطورية.

والواقع ان بناء السكك الحديدية كان المجال المفضل للاستثمارات الأجنبية، اذ يصل الى حد الاستئثار بثلاثى الرساميل المستثمرة فى الامبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى. ويتم اجتذاب المستثمرين الاجانب عن طريق الضمانة الكيلومترية التى تقدمها الحكومة العثمانية، والتى تكفل لهم حداً أدنى من الايراد. وبهذه الطريقة يتم مد الخطوط التى جرى البدء بها بالفعل قبل عام ١٨٧٦ فى غربى الاناضول. ويتم اداء الأعمال بهمة و ، منذ عام ١٨٩٢، تصل السكة الحديدية

الى انقرة؛ وبعد ذلك ببضع سنوات، يستكمل الخط بوصلة الى قونية عن طريق ايسكيشهير. وفي الولايات العربية، تتقدم السكك الحديدية بسرعة بالغة ايضاً. والخلاصة انه كان هناك ١٨٠٠ كيلو مترا من السكك الحديدية في عام ١٨٧٨، وهي تصل في عام ١٩٠٨ إلى ٥٨٠٠ كيلو متراً. وعلاوة على السكك الحديدية، يتجه رأس المال الأجنبي الى تجهيز الموانئ والأرصفة كما يتجه الى انشاء الفنارات.

والواقع اننا اذا ما تأملنا توزيع هذه الاستثمارات الأجنبية بحسب القطاعات فسوف نجد انها تعطى افضلية كاملة للبنى الأساسية للمواصلات أو للقطاع المرتبط بالتجارة. فاجمالى المبالغ المستثمرة فى السكك الحديدية والموانئ والأرصفة يمثل نسبة ٧٣٪ من اجمالى الاستثمارات. واذا ما أضفنا الى ذلك شركات التأمين والبنوك، فإنه يصل الى نسبة ٨١٪. وبعبارة اخرى، فإن نسبة تقل عن ١٠٪ هي التى تستثمر فى القطاع الانتاجى، الصناعة أو المناجم. ولذا فمن الواضح أن الاستثمارات الاجنبية نادراً ما تسهم فى التطور الصناعى للامبراطورية العثمانية، بل انها، على العكس من ذلك، إذ تسهل صادرات المنتجات الزراعية، تزيد من تفاقم وضعها كمورد للمواد الأولية وكسوق للمنتجات المصنعة الأوروبية.

واذا ما تأملنا توزيع الاستثمارات بحسب البلدان المستثمرة، فسوف نجد أن الواقع المثير، المحسوس منذ الأعوام الأخيرة للقرن، هو ضعف مكانة بريطانيا العظمى. ففي عام ١٨٨٨، كانت نسبة ٥٦.٢٪ من الرساميل الأجنبية بريطانية؛ وفي عام ١٩١٤، تهبط هذه النسبة الى ١٥.٣٪. وفي المدة نفسها، ترتفع حصة الاستثمارات الفرنسية من ٣١.٧ إلى ٥٠.٤٪ وترتفع حصة الاستثمارات الألمانية من ١.١ إلى ٢٧.٥٪. وإذا ما أضفنا الى ذلك اننا نرصد أيضاً تراجعاً كاملاً للندن بين الدول الدائنة للامبراطورية العثمانية، فمن الصعب ألا نستنتج عدم

ارتياح معين من جانب الرأسمالية الانجليزية تجاه الامبراطورية العثمانية، مواز لما أصاب العلاقات الدبلوماسية الانجلو- عثمانية بعد عام ١٨٧٨ من فتور.

والى جانب الهيمنة المالية والاقتصادية للغرب، يمكن الحديث عن نفوذ ثقافى. وليس ذلك واقعاً جديداً، لأن بوسعنا رصد آثار لنفوذ ثقافى لأوروبا بالرجوع الى الوراء فى تاريخ الامبراطورية العثمانية. لكن الظاهرة تكتسب اتساعاً غير مسبوق فى اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. والمجال الثقافى، هو ايضاً، مجال تنافسات حادة بين الدول التى تتنازع على حماية الأقليات غير الاسلامية فى الامبراطورية وتسعى الى ان تكون لها مدارسها الخاصة وأعمالها الخيرية وصحفها الخاصة، الخ. ويقدم تاريخ الارساليات البروتستانتية الأمريكية مثلاً جيداً لهذا التوسع الثقافى الغربى فى الأرض العثمانية.

فبحر عام ١٨٣٠ تبدأ البعثات البروتستانتية الأمريكية، تحت اشراف الهيئة الأمريكية للارساليات الخارجية، عملها الخيرى والمدرسى فى الامبراطورية العثمانية. لكن عملها يتطور بعد عام ١٨٧٠ بشكل خاص. وفى ذلك العصر نجد ٢٠٥ مدرسة أمريكية تجمع اجمالاً ٥٥٠٠ تلميذ. وفى عام ١٨٨٥، يرتفع هذان الرقمان بحسب الترتيب الى ٣٩٠ و ١٣٨٠٠، وفى عام ١٩١٣، يصل عدد التلاميذ الى ٢٣٥٠٠ تلميذ موزعين على ٤٣٠ مدرسة. وقد تم انشاء غالبية هذه المدارس فى الولايات، وخاصة فى الأناضول. والواقع ان الامريكيين يشكلون الجانب الأكبر من الكوادر التعليمية للارساليات الأمريكية. وعشية الحرب العالمية الأولى، كان ٤٣٨٥ تلميذاً أرمنياً يترددون على المدارس المتوسطة والعليا الأمريكية فى مقابل ٣٩٩ يونانيا و ١٢٢ فقط من الاتراك. وفى عام ١٩٠٨ نجد أن كلية روبرت، اشهر مؤسسة تعليمية أمريكية فى اسطنبول، لم تكن تضم فى صفوفها اتراكاً إلا بنسبة ٥٪. وهذه المدارس، المفتوحة فى أغلب الأحيان دون تصريح، تقدم تعليمياً أمريكى النمط لا صلة له البتة بالنظام المدرسى العثمانى.

إلا أنه بصرف النظر عن تقدم المدارس الأمريكية، فإن فرنسا هي التي تؤكد بشكل أكثر قوة وجودها الثقافي في الامبراطورية عند منعتف القرن. فاللغة الفرنسية سائدة في الدبلوماسية (فأوراق وزارة الشؤون الخارجية العثمانية تحرر في معظمها بالفرنسية)، وفي مجال الأعمال (الفرنسية هي اللغة المستخدمة في مجلس الدين العام وفي البنك العثماني وفي إدارة التبغ) وفي الحياة الثقافية. وتوجد عدة صحف كبرى صادرة بالفرنسية كصحيفة «ستامبول». والفرنسية هي اللغة الأجنبية الأولى التي يجري تعليمها في المدارس العثمانية. وفي بيرا، بين المشاركة والاجانب، وكذلك بين العثمانيين الأكثر انفتاحاً على الخارج، تحل الفرنسية محل الإيطالية، ويتردد نحو ٩٠٠٠٠ تلميذ على المدارس الفرنسية الموجودة في الامبراطورية في عام ١٩١٤. وهنا أيضاً، فإننا ازاء تعليم موجه بشكل رئيسي الى ابناء الاقليات غير الاسلامية، خاصة العرب المسيحيين في سوريا ولبنان. وفي عام ١٩١٤، كانت نسبة ٨.٧٪ فقط من التلاميذ الذين يتلقون العلم في المدارس الفرنسية تتألف من مسلمين.

فما هي رنود فعل الدولة العثمانية تجاه هذا النفوذ المتعدد الجوانب للغرب؟ لقد اشير احياناً الى ان هناك تناقضاً بين رغبة عبدالحميد في الدفاع، اياً كان الثمن، عن وحدة الامبراطورية وواقع تسليمها للمصالح الأوروبية. لكن الواقع هو أن السلطان، نظراً لعجزه عن التصدي للتوسع الأوروبي، كان يعتقد أن الدول الأوروبية، بوجود مصالح ضخمة لها في الامبراطورية، سوف تشعر بأن لها مصلحة في بقائها. والشئ الهام هو الحفاظ على شئ من التوازن بينها. ولا يمكن القول ان التاريخ قد اثبت بشكل قاطع خطأ عبدالحميد: فسوف نرى، على سبيل المثال، ان فرنسا، ذات الانخراط المالي الضخم في الامبراطورية، سوف تتهرب من مشاريع التدخل في المسألة الأرمنية في ١٨٩٥ - ١٨٩٦. ومن جهة اخرى، يجب ألا ننسى ان نظريات الامبريالية، التي ولدت في اوائل القرن العشرين، لن تُعرف في اسطنبول إلا نحو ١٩١٠ - ١٩١١. وفي عصر عبدالحميد،

لم يكن بالامكان تصور ان تدفق الرساميل الاجنبية يمكن ان يشكل تهديداً للدولة العثمانية. ومما له دلالة في هذا الصدد مشروع الاشغال العمومية الذى قدمه حسن فهمى باشا الى السلطان فى عام ١٨٨٠: فوزير الاشغال العمومية يرى انه، فيما يتعلق بتشديد لسكك الحديدية، لا يوجد هناك اى مانع لمنح امتيازات للشركات الاجنبية.

لكن القادة العثمانيين يسعون، فى الوقت نفسه، الى الحد من التفاوتات الصارخة القائمة فى العلاقات بين الدولة العثمانية والدول العظمى. وفى مؤتمر باريس فى عام ١٨٥٦، بالفعل، حاول على باشا، دون طائل، التوصل الى الغاء الامتيازات. وفى عدة مناسبات، حاول عبدالحميد الحد من وزنها. وهكذا فإن يقرر، فى عام ١٩٠٠، زيادة الرسوم الجمركية المفروضة على الواردات الى الامبراطورية بنسبة ٣٪، لكنه يضطر الى التخلّى عن ذلك القرار، فى وجه احتجاج القنصليات، التى تندب الغاء الامتيازات. وهو لا يتمكن من فرض هذه الزيادة إلا فى عام ١٩٠٧، فى مقابل تقديم تنازلات الى بريطانيا العظمى وروسيا. وفى مجال القضاء ايضاً، تهدف قوانين عام ١٨٧٩ بشأن تنظيم المحاكم المختلطة الى الحد من الامتيازات القضائية التى يتمتع بها الأجانب، لكن البعثات الأجنبية سوف ترفض الاعتراف بها، وسوف يتم الحفاظ على الوضع القضائى الخاص للأجانب.

ونجد مثلاً بليغاً لهذه الجهود التى يجرى الاضطلاع بها فى عصر عبدالحميد لاستعادة الاستقلال الضائع فى بعض القطاعات فى مسألة مكاتب البريد الأجنبية فى الامبراطورية. فمنذ القرن الثامن عشر توجد مكاتب بريد اجنبية، بحجة سوء تنظيم البريد فى الدولة العثمانية، متحررة من كل رقابة. وفى عام ١٨٦٥، يقترح على باشا، دون طائل، الغاها. ويبذل عبدالحميد جهوداً جديدة فى عام ١٨٨١ وفى عام ١٨٨٤. والواقع ان الحكومة العثمانية تؤكد أن مكاتب البريد الأجنبية هذه قد اصبحت غير مبررة مع اصلاح النظام البريدى العثمانى وأن وجودها، علاوة على

ذلك، يتعارض مع اتفاقية برن بشأن الاتحاد البريدي والذي تعتبر الدولة العثمانية عضواً فيه. لكن الدول لا تصبح سمعاً لذلك. ومع ظهور معارضة جماعة تركيا الفتاة في المنفى، فإن مكاتب البريد الأجنبية، خاصة مكتب جالاتا الفرنسي، تساعد على الانتشار السري للكراسات وللصحف الممنوعة. وانزعاجاً من ذلك، يحاول السلطان التحرك مرة أخرى. ففي عام ١٩٠١، يأمر بالاستيلاء في محطة سيركيچی للسكك الحديدية على الحقائق البريدية الموجهة الى المكاتب الأجنبية، لكنه سرعان ما يضطر الى التراجع امام احتجاجات السفارات. والأنكى من ذلك ان الأمر سوف يصل بايطاليا، في ابريل ١٩٠٨، الى حد القيام بتظاهرة بحرية في المياه التركية للتوصل الى فتح مكاتب بريد جديدة، وسوف يضطر السلطان الى الرضوخ مرة أخرى. وقد وصل اجمالاً المكاتب البريدية الاجنبية في الامبراطورية الى سبعة وخمسين مكتباً.

وهكذا، فإن جميع المحاولات التي يقوم بها القادة العثمانيون لالغاء أو للحد من الامتيازات تصطدم بالرغبة التي لا تتزعزع لدى الدول في الحفاظ على امتيازاتها في الامبراطورية. وكان النظام قد تحول إلى عرف راسخ بحيث ان مشروعاً لتبادل السفراء، في عام ١٩٠٧، بين اليابان والدولة العثمانية يمنى بالفشل، لأن اليابان تطلب الاعتراف لها بامتيازات بموجب قانون الامتيازات!

ومن ثم فإن الامبراطورية العثمانية تعتبر، بالفعل، عند منطف القرن، شبه مستعمرة، وما يجنبها أن تعرف مصيراً اسوأ، هو، في المقام الأول، واقع ان اطماع الدول تتصادم بعضها مع البعض الآخر، وكذلك واقع أن هناك في الدولة سلطة مركزية قوية ومعترفاً بها كسلطة شرعية، وببيروقراطية مشبعة، بشكل عام، بروح المقاومة للاطماع الأوروبية. وعلى الرغم من جميع جوانب ضعفه، فإن الهيكل السياسي للامبراطورية قد تمكن من الحفاظ على استقلاله. وكما اعترف بذلك اللورد دوفيرين، السفير الانجليزي لدى الباب (العالي)، فإن : «الحقيقة هي ان اي

سفير لن ينجح في وضع السلطان في جيبه»^(٥). إلا أنه اذا كان نفوذ الغرب لا يفتح على هيمنة سياسية، فإنه لن يكون عديم التأثير على تطور المجتمع العثماني.

المجتمع العثماني عند منعطف القرن عدد وحركة السكان

تبدأ المعلومات عن سكان الامبراطورية العثمانية في التزايد في الربع الأخير للقرن التاسع عشر. والواقع ان الدولة العثمانية تضطلع، للمرة الأولى في عصر عبدالحميد، بتعدادات للسكان حديثة النمط. ومنذ تأسيس الامبراطورية، كان العثمانيون يحتفظون، لاعتبارات ضريبية وعسكرية، بسجلات للسكان، لكن هذه السجلات، التي كانت تحرر بشكل غير دوري، لم تكن تتعلق إلا بسنجق أو بولاية. وقد جرى القيام بتعداد عام أول للرجال بعد بضع سنوات من الغاء الانكشارية في عام ١٨٣١؛ وقد توصل التعداد الى ان عدد الرجال ٣.٦ مليون نسمة. وبعد تحولات اعوام ١٨٧٥ - ١٨٧٨، سوف يستشعر القادة العثمانيون الحاجة الى تحديد الحالة الديموجرافية من اجل اعادة تنظيم الجيش والشئون المالية (للقوف بوجه خاص على عدد غير المسلمين الذين يدفعون ضريبة الاعفاء من الخدمة العسكرية، البديل) ومن اجل حل مشكلة المهاجرين. وبوجه عام، فإن سياسة المركزة المتبعة بعد عام ١٨٧٨ تتوافق مع سعى من اجل التوصل الى دراية احصائية افضل باحوال الامبراطورية؛ وفي عام ١٨٩١ يتم انشاء مجلس احصاءات تابع للباب العالي يحذو حذو احدث المؤسسات في هذا المجال.

وفي عام ١٨٨١ يجري الاضطلاع بتعداد عام أول للسكان (يشمل النساء)، لكنه لا ينجز إلا في عام ١٨٩٣: وقد قدر العدد الاجمالي لسكان الامبراطورية بـ ١٧.٤ مليون نسمة، وهو رقم يجب زيادته الى ١٩ أو ٢٠ مليوناً بسبب بعض الثغرات. ويتم اجراء تعداد ثان في ١٩٠٥ - ١٩٠٦ لتصحيح اخطاء التعداد الأول

وتقدير عدد سكان مقدونيا بشكل أدق. وكانت النتيجة ٢٠.٨ مليون نسمة. وإلى هذه الاحصاءات التي تقوم بها الحكومة المركزية يجب اضافة التعدادات التي تجرى على مستوى الولايات والتي تنشر بصفة دورية فى الكتب السنوية الرسمية للدولة (السالنامه)، والتعدادات التي تضطلع بها الطوائف الدينية المختلفة (البطيركية اليونانية، البطيركية الأرمنية)، بون نسيان التقديرات الاجمالية أو المحلية العديدة التي قام بها الرحالة أو الخبراء أو الدبلوماسيون الغربيون.

والحال أن الوفرة المفاجئة لهذه المواد الديموجرافية قد تدفع المرء الى الاعتقاد بأنه يملك رؤية واضحة للحالة الديموجرافية للامبراطورية العثمانية عند منعطف القرن. على ان الأمر ليس كذلك فى الواقع. فمما لا مرأ فيه ان التحيزات والأهواء القومية، رغبة هذه الطائفة أو تلك فى تأكيد حقوقها على جزء من الأرض العثمانية، قد سمحت بما لا حصر له من التشويهات والتزييفات. ومنذ مؤتمر برلين تنشب «حرب احصاءات» حقيقية سوف تستمر حتى غداة الحرب العالمية الأولى. وهذا أمر مفهوم، والتنافرات تكون أكثر جسامة خاصة عندما يتعلق الأمر بالتوزيع العرقى أو الطائفى للسكان. ويقدم مثال السكان الأرمن فى الامبراطورية العثمانية توضيحاً جيداً لذلك الواقع. فالأرقام التي تقدمها البطيركية الأرمنية تحدد عدد السكان الأرمن فى عام ١٨٨٢ بـ ٢٦٦٠٠٠٠ نسمة وتحدد عددهم فى عام ١٩١٢ بـ ٢١٠٠٠٠٠ نسمة. وبالنسبة لتاريخين قرييين من هذين التاريخين، تقدم التعدادات الرسمية للدولة العثمانية نتائج جد مختلفة: ١٠٨٠٠٠٠ بالنسبة لتعداد ١٨٨١ - ١٨٩٣ و ١١٧٠٠٠٠ فى عام ١٩١٤. وكما نرى، فإن هذه الأرقام فى تعارض تام ليس فقط فيما يتعلق بمستويات الحجم وانما ايضاً فيما يتعلق باتجاه التطور الديموجرافى.

وسوف يتمثل اتجاه كثير من المؤرخين الآن فى الاعتماد بشكل اكبر على الأرقام التي تقدمها التعدادات العثمانية، مع ادخال تعديلات مهمة عليها، وذلك

لاعتبارين: فهذه الاحصاءات العثمانية كانت وثائق موجهة للاستفادة الداخلية، ولأنها لم تكن موجهة الى النشر، فمن المحتمل انها تنجو بشكل افضل من آثار الدعاية التي تجر الى التشويه، ومن جهة اخرى، فإن الدولة العثمانية، التي تملك السلطة العامة، هي وحدها القادرة على احصاء الناس^(٦). وأياً كان الأمر، فلا بد من أن نأخذ في الاعتبار ايضاً ان الادارة السيئة، خاصة في بعض الاقاليم النائية في الامبراطورية، لابد وأنها تجعل عمليات التعداد صعبة.

إلا أنه علاوة على مسائل التوزيع العرقي والطائفي للسكان، لابد من الاعتراف بأن معرفتنا بالديموجرافية العثمانية ماتزال رديئة. ومع انتشار عشرين مليوناً من السكان على ٦.٤ مليون كم^٢، فإن الكثافة تعتبر ضعيفة، إذ تصل الى ٦ افراد في الكيلومتر المربع الواحد. ونظل جد بعيدين عن الكثافات التي وصلت اليها البلدان الصناعية الأوروبية. ويستفاد من البيانات المتاحة لنا عن الأناضول في عام ١٨٩٧ ان معدل المواليد كان بنسبة ٣٧.٥٪ وأن معدل الوفيات كان بنسبة ٢١.٢٪. ومن ثم فإن هذا المعدل الأخير يظل مرتفعاً؛ وحتى اذا كانت اوبئة الطاعون قد اختفت واذا كانت اوبئة الكوليرا قد اصبحت اقل تواتراً، فإن الحالة الصحية للسكان تظل بحاجة الى المزيد من التحسن. واذا ما اجرينا مقارنة مع امبراطورية مجاورة، هي الامبراطورية الروسية، التي تضم في اواخر القرن ١٩ مليون نسمة، بمعدل مواليد بالغ الارتفاع (٥٠٪) ومعدل قوى للزيادة الطبيعية، فإن بوسعنا ان ندرك ان تركيا بعيدة عن التمتع بدينامية ديموجرافية حقيقية.

واذا كانت الزيادة الطبيعية للسكان العثمانيين، بقدر ما يمكن لنا قياسها، تبدو ضعيفة نسبياً، فإن زيادة السكان ترجع في جانب هام منها الى ظاهرة الهجرة. فمنذ اواخر القرن الثامن عشر، تستقبل الدولة العثمانية سكاناً مسلمين فارين امام التوسع الروسى في اتجاه البحر الأسود والقوقاز ووسط آسيا. ويجرى النظر الى الهجرة بوصفها اضافة ايجابية من جانب دولة ترى في ضعف السكان

عقبة عسكرية واقتصادية وتتمتع بأراضٍ شاذرة عديدة، وسوف تكون الهجرة كثيفة بوجه خاص خلال حرب القرم والفتوحات الروسية فى القوقاز.

وسوف تؤدى الأزمة البلقانية فى عامى ١٨٧٥ و ١٨٧٦ والحرب الروسية التركية الى نزوح جديد للمسلمين نحو تركيا. وفى البلقان، سوف يتدفق المهاجرون من كل مكان تقريباً، من رومانيا والجبل الأسود وصربيا وبلغاريا ونيشاليا. وسوف تكون الموجة مهمة بشكل خاص بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٧٩ وبعد ذلك سوف تتراجع ولكن دون ان تتوقف بالكامل ابدأً. وتذهب التقديرات الى ان تدفق مسلمى البلقان على الأناضول بعد عام ١٨٧٦ قد شمل اجمالاً نحو ١.٥ مليون نسمة. ويجب أن نضيف الى هذا الرقم آلاف المسلمين المنحدرين من ولايتى كارس وأردهان اللتين ضمهما الروس وأولئك الذين سوف يواصلون المجيء من القوقاز: فقد وصل عدد الشراكسة الذين جاؤا للاستيطان فى الامبراطورية العثمانية بين عامى ١٨٨١ و ١٩١٤ إلى نحو ٥٠٠٠٠٠ نسمة. ونحو أواخر القرن، سوف تلجأ الى تركيا جماعات صغيرة من تتر القرم وتتر قازان والأزيريين هرباً من السياسة القمعية التى يتبعها الكسندر الثالث. كما أن عشرات الآلاف من المسلمين سوف يغادرون كريت، بعد منح الاستقلال الذاتى للجزيرة فى عام ١٨٩٧، لكى يقيموا على الساحل الغربى للأناضول.

وأمام اتساع حركات الهجرة هذه، تنشئ الحكومة العثمانية فى عام ١٨٧٨ لجنة لشئون المهاجرين (مهاجرين قوميسيونو) تهتم بتيسير نقل المهاجرين وتنظيم توطينهم. وسوف يجرى توطينهم من زاوية الأراضى المتاحة وامتداد السكن الحديدية الجديدة. وعلى مقربة من الحدود الجديدة مع روسيا، فى الشرق، سوف تعمل الحكومة على توطين المسلمين القادمين من القوقاز أو من الولايات اللتين تم ضمهما بشكل يساعد على زيادة العنصر السكانى المسلم فى هذه المنطقة الحساسة. والحال ان آثار هذا التدفق للمهاجرين على الامبراطورية العثمانية

عديدة. فأولاً، فيما يتعلق بتركيب السكان، يتزايد تعزز نسبة المسلمين، التي كانت قد زادت بالفعل بشكل يمكن وصفه بأنه ميكانيكي من جراء الترتيبات الإقليمية التي نصت عليها معاهدة برلين. والواقع انه في وجه هذه الاضافة التي تشمل ما بين مليونين وثلاثة ملايين من المسلمين القادمين من البلقان أو من روسيا، سنجد ان نحو ٣٠٠٠٠٠ مهاجر سوف ينزحون عن الامبراطورية العثمانية بين عامي ١٨٧٨ و ١٩١٤، واغلبهم من المسيحيين (الأرمن، اليونانيين، العرب)، لكي يلجأوا الى روسيا (في حالة الأرمن) او لكي يجربوا حظوظهم في الولايات المتحدة. وهكذا فإن حركات الهجرة سوف تسهم نوعاً ما في اسلمة الامبراطورية العثمانية؛ وهذا سبب اضافي لترحيب عبدالحميد بالمهاجرين.

ويؤدي وصول المهاجرين الى تغيرات هامة في الجغرافية البشرية للناضول وفي اقتصادها. وسوف تستفيد بعض الولايات بشكل أخص من اسهامهم، كولاية بورصا التي، بحكم ضعف كثافتها وبحكم ثرواتها الطبيعية، سوف تجتذب منهم عدداً كبيراً الى الدرجة التي تؤدي الى زيادة سكانها بنسبة ضعف بين عامي ١٨٧٦ و ١٩٠٦. وعلى الرغم من ان المهاجرين قد استوطنوا الريف في البداية، فإنهم سرعان ما يسهمون في تضخم النزوح الريفي (الى المدن). فبعد عام ١٨٧٨، سوف يحصلون على حق الاقامة في المناطق الحضرية، ومنذ ذلك التاريخ سوف تبدأ في الظهور حول بعض المدن الأناضولية احياء للمهاجرين، مختلفة من حيث التخطيط ونوع السكن. وتلك، مثلاً، هي حالة الحى البوسنى في انقره أو حالة عدة احياء في تشوروم بنيت بين عام ١٨٨١ و ١٨٩٢. وتدين مدينة مثل ايسكيشهير بجانب هام من ديناميتها لوجود مهاجرين شراكسة عديدين فيها. كما أن المهاجرين من البلقان يجيئون ومعهم دراية فنية بل ورساميل احياناً تسمح لهم بانشاء مشاريع. وبين صفوف الطبقة المتوسطة المسلمة التي تبدأ في الظهور نحو اواخر القرن التاسع عشر نجد العديد من المهاجرين. كما ان الاسهام كان مهماً ايضاً على المستوى الثقافى؛ ذلك ان بعض مسلمى روسيا المهاجرين الى اسطنبول

يأتون ومعهم، علاوة على التعليم الجيد الذي تلقوه في المدارس الثانوية أو الجامعات الروسية، ذخيرة من الافكار الجديدة، كافكار الشعبية أو الاشتراكية. ويبقى أنه اذا كان هؤلاء المهاجرون ينتمون كلهم الى الدين الاسلامي، فإنهم يدخلون الى الامبراطورية تنوعاً عرقياً ولغوياً واسعاً. فمن البلقان لم يأت اترك فقط، بل جاء ايضاً بوسنيون وتتر ونوجاي. والمسلمون القادمون من كريت يتكلمون باليونانية، الخ. وسوف يكون استيعاب هذه العناصر عملية بطيئة. وتلك هي احدى المشكلات التي سوف تورثها الامبراطورية للجمهورية.

الهجرة اليهودية

بالنظر الى اجمالي سكان الامبراطورية، لا تتعلق الهجرة اليهودية إلا بأقلية جد صغيرة، لكن آثارها السياسية سوف تكون ملحوظة الشأن. وحتى مشارف عام ١٨٨٠، كان عدد السكان اليهود المقيمين في فلسطين محدوداً: فهو يتألف من نحو ٢٤٠٠٠ شخصاً منبثقين من تيار هجرة جد متقطع. وتتبدل الأمور في مستهل ثمانينيات القرن التاسع عشر، عندما يبدأ يهود وسط وشرقي اوربا في مكابدة التدابير التقييدية وفي التحول الى ضحايا للمذابح. وهم يتجهون الى النزوح بالآلاف في اتجاه غربي اوربا والولايات المتحدة في أغلب الأحوال، لكن جزءاً صغيراً يحاول الوصول الى الأرض المقدسة عن طريق البحر الأسود واسطنبول. وفي عام ١٨٨٢ تتأسس في فلسطين اول مستعمرة زراعية على يد المنظمة القومية اليهودية، احباء صهيون. وسوف تتلوها مستعمرات اخرى كثيرة.

وتتخذ المسألة طابعاً سياسياً أكثر عندما يدشن ثيودور هرزل الحركة الصهيونية عند اواخر القرن، وذلك عندما ينشر في البداية في عام ١٨٩٦ كراس «الدولة اليهودية»، ثم عندما يعقد في السنة التالية في بال المؤتمر الصهيوني الاول الذي يخطط لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ولكي يتمكن من تحقيق

مخططاته فى الأرض العثمانية، يتعين على هرزل الحصول على موافقة السلطان. وعلى الرغم من عروضه الخاصة بتحسين الأحوال المالية للإمبراطورية فى مقابل إنشاء وطن يهودى، فإن هرزل لا يحصل من السلطان إلا على كلام جميل.

والواقع أن القادة العثمانيين يدركون منذ عدة أعوام الخطر الذى تمثله الحركة الصهيونية بالنسبة للدولة العثمانية. فهجرة اليهود الواسعة الى فلسطين تهدد بفتح باب آخر لنفوذ وتدخل الدول الأوروبية التى تجد فى ذلك مناسبة جديدة لتقديم العون والحماية الى اقلية غير مسلمة. وهكذا تنشأ مشكلة قومية جديدة يتعذر حلها بالنسبة للدولة العثمانية. وعلاوة على ذلك، فإنه لا يبدو من الممكن، فى اللحظة التى يطور فيها عبدالحميد سياسته العربية الكبرى، أن «يسلم القدس لليهود». وحتى اذا كان لا يمكن الحديث فى ذلك العصر عن معارضة محلية جادة فى وجه الصهيونية، فإن تجار وأعيان فلسطين العرب قد ابلغوا الباب (العالى) بالفعل بمخاوفهم تجاه استيطان المهاجرين اليهود.

ومنذ نوفمبر ١٨٨١، يجرى فرض التدابير التقييدية الأولى على دخول اليهود الى الامبراطورية العثمانية والاستيطان فيها. فهؤلاء يحق لهم الإقامة فى أى مكان من الامبراطورية ما عدا فلسطين وذلك بشرط خضوعهم لقوانين الدولة وتحولهم الى رعايا عثمانيين. ومن جهة أخرى، فإن بيع الاراضى لليهود المقيمين بالفعل فى فلسطين يعتبر محظوراً. وفى هذه الظروف، لم تكن امام هرزل فرصة لأن يحصل من السلطان على امكانية تحقيق مشاريعه فى فلسطين.

والواقع أن سياسة القيود هذه تفشل الى حد بعيد. ففي عام ١٩٠٨، كان ٨٠٠٠٠ من اليهود يسكنون فلسطين، وهو ما يعنى أن نسبة العنصر اليهودى قد انتقلت من ٥٪ الى ١٠٪ من اجمالى سكان فلسطين، وذلك فى غضون ثلاثين سنة. وعلاوة على الإقامة فى المدن المقدسة، فقد اقام اليهود فى مناطق تمتد الى يافا وحيفا وانشأوا ستاً وعشرين مستعمرة زراعية تضم ١٠٠٠٠ نسمة. ومن ثم فإن

الدولة العثمانية لم تنجح فى الحيلولة دون الهجرة اليهودية. ويمثل ذلك بالنسبة للحكومة العثمانية فشلاً، يرجع بلاشك الى جوانب ضعف الادارة العثمانية المحلية، لكنه يرجع بدرجة اكبر الى سياسة الدول، خاصة المانيا وروسيا، التى تشجع الحركة الصهيونية. وسوف تبين الدول أن التدابير المقيدة للهجرة وبيع الاراضى تتعارض مع الامتيازات. وسوف تحصل من السلطان على السماح لليهود بالهجرة بصفة فردية الى فلسطين. ومن جهة اخرى فإن كثيرين منهم يحصلون على وضعية «المحمى» من جانب القنصليات الأوروبية.

نحوالات الأرياف والمدن

فى أواخر القرن التاسع عشر، تظل الامبراطورية العثمانية دولة زراعية أساساً. والمكانة التى تحتلها حياة الأرياف والانشطة الزراعية تتضح من عدد معين من السمات. وهكذا فإن السكان الزراعيين يمثلون نسبة تتراوح بين ٧٥٪ و ٨٥٪ من اجمالى سكان الامبراطورية. كما ان هيكل الصادرات يكشف عن الدور المهيمن للاقتصاد الريفى: ففي عام ١٩١٤، كانت نسبة تتراوح بين ٨٠٪ و ٨٥٪ من صادرات اقليم كالأناضول تتألف من منتجات الزراعة، وفى العصر نفسه، اذا صدقنا احد التقديرات فى هذا الصدد، فإن الزراعة تسهم بنسبة ٥٦٪ فى الدخل القومى للامبراطورية فى مقابل نسبة ١٧٪ تسهم بها الصناعة. ويتمثل مؤشر اخير فى دور الضرائب التى يدفعها العالم الريفى. فإذا ما اخذنا فى حسابنا ناتج العشر، الضريبة الزراعية الرئيسية التى تمثل استقطاعاً يتراوح بين نسبة ١٠٪ ونسبة ١٣٪ من الانتاج، وضريبة الأغنام، وهى الضريبة المفروضة على كل رأس من الماشية، فإننا نصل الى رقم يمثل نسبة ٤٠٪ تقريباً من الضرائب الاجمالية، وإذا ما أضفنا الضرائب الشخصية التى يدفعها السكان الريفيون، فإننا نصل الى رقم اعلى من نصف حصيلة الضرائب العثمانية.

ومن المؤكد ان ثقل الضرائب يشكل أحد المعوقات الأساسية التي تتيح بكلورها على العالم الريفي العثماني، لكنه ليس المعوق الوحيد. فهناك أيضاً الطابع البدائي للأدوات الزراعية، وقصور رأس المال الذي يضع الفلاح تحت رحمة المرابي، ولا مبالاة السلطات العامة المزمنة و ، ربما فوق كل شيء، تجنيد الفلاحين في الجيش، خاصة فلاحى الأناضول الأتراك، الذين يقدمون غالبية المجندين العسكريين. ومن هنا انخفاض عدد السكان الذكور في الأرياف والمميز للأناضول في اواخر القرن التاسع عشر.

وبالرغم من جميع هذه المعوقات، فإن الزراعة العثمانية تبدي مظاهر تقدم لا جدال فيها. وما يميز الفترة الحميدية من هذه الزاوية هو تقدم الزراعة التي يمكن تسويق منتجاتها. وهكذا، ففي الأناضول، كانت مناطق الانتاج الزراعى من اجل التسويق قاصرة حتى ذلك الحين على الغرب (ولاية بورصا وأيدين). ومنذ ذلك الحين، يتغلغل الطلب الأوروبى بشكل اوسع، نحو الأقاليم الساحلية الجديدة، كإقليم سامسون أو أضنة. ومن الواضح ان هذا التغلغل سهله تحسن المواصلات : المنشآت المينائية، الطرق الحديدية التي تربط الموانئ بمناطقها الداخلية، تطور الطرق بين الاسواق التقليدية والسكك الحديدية.

وتساعد عناصر أخرى على تقدم الزراعة. وهكذا، فإن ادارة الدين العام، المسئولة عن بعض الدخول الزراعية للامبراطورية، كضريبة العشر على الحرير الخام، تسهر عن كُتب على تحسين الانتاج. ويمكن قول الشيء نفسه عن دور ادارة التبغ فيما يتعلق بالتبغ. إلا أنه بشكل عام، خلافاً لأثر الطلب الأوروبى، فإن حفز تقدم الانتاج الزراعى يجيىء بشكل خاص من الدولة، وذلك واقع جديد نسبياً يستحق الإشارة اليه.

وقد اتخذ هذا الدور الايجابى للدولة مظاهر عديدة: تعليم اخصائيين وخبراء زراعيين، إما بارسالهم الى الخارج لمواصلة دراساتهم، أو بإنشاء مدارس زراعية

ميدانية يجرى فيها تعليم نظرية وممارسة الزراعة. والمدرسة الأشهر هي مدرسة هلكى فى اسطنبول، لكن مدارس اخرى تنشأ فى بورصا وفى سالونيك. كما يجرى انشاء مزارع نموذجية لنشر استخدام السماد واستخدام البذور، ولتشجيع الفلاحين على الانخراط فى زراعة المنتجات الزراعية التى تتميز بارتفاع الطلب عليها. وتظهر فى اواخر القرن وزارة للمناجم والموانئ والزراعة. ومن بين المؤسسات المدعوة الى لعب دور دائم فى الوثبة الزراعية، لابد من الاشارة الى البنك الزراعى (زراعة بنكاسى)، الذى تأسس فى عام ١٨٨٨ للحد من قصور رأس المال فى العالم الفلاحى وللحلول محل السماسرة والمرايين. والواقع أنه سوف يقدم السلفيات بشكل خاص الى الفلاحين الميسورين أكثر، بما يزيد من احتداد التفاوتات الاجتماعية فى الأرياف ويشجع زراعة المنتجات الزراعية القابلة للتسويق.

وتشكل زراعة الحبوب دائماً الزراعة المهيمنة فى الامبراطورية العثمانية فى اواخر القرن. فهي تحتل، فى الاناضول، نسبة تتراوح بين ٧٥٪ و ٩٠٪ من المساحات المزروعة بحسب تباينات المناخ من سنة الى اخرى، وتحرز تقدماً ملحوظاً مع انشاء السكك الحديدية التى تبدأ اسطنبول بفضلها فى الحصول على امداداتها من القمح من الاناضول، وذلك بالرغم من المنافسة الحادة من جانب القمح الروسى والقمح الأمريكى اللذين يتم انتاجهما فى ظروف ميكنة أرقى بكثير. لكن الحاصلات التصديرية بوجه خاص هى التى تتقدم، على الاخص بعد عام ١٩٠٠، عندما يلعب انقلاب الموقف وارتفاع الاسعار دوراً حافزاً للمنتجين العثمانيين. وتصور حالة القطن تصويراً جيداً تأثير الطلب الخارجى على تنوعات الانتاج المحلى. فبعض اقاليم الامبراطورية التى توجهت الى زراعة القطن فى زمن حرب الانفصال (الأمريكية)، تضطر الى التراجع بعد الحرب وتقلل انتاجها. لكن الطلب العالمى يصبح من جديد، بعد عام ١٩٠٠، جد قوى الى درجة تغرى المنتجين بالانخراط من جديد فى زراعة القطن. وهكذا، فى اقليم ارضه، يتضاعف الانتاج

ثلاث مرات فى غضون عشر سنوات، وفى المدة نفسها يزيد بنسبة ضعف فى سوريا. ومن بين الحاصلات التصديرية الأخرى التى تتقدم بسرعة، تجب الإشارة الى الزبيب الذى، بالرغم من تعرض الاعناب للإصابة بالآفات الزراعية ومن الحمائية الفرنسية، يستعيد فى بداية القرن المكانة الاولى بين صادرات اقليم أزمير. ويحدث نمو مماثل للتين (الذى تتضاعف صادراته اربع مرات بين عامى ١٨٦٠ و ١٩١٤) والتبغ (الذى يزيد انتاجه مرتين أو ثلاث مرات بين عام ١٨٨٠ والحرب).

ويترافق تطور الزراعة مع تحولات اجتماعية فى العالم الريفى يظهر اتجاهها بوضوح بالفعل فى عصر عبدالحميد. وبوجه عام، فإن ما يهيمن بشكل بالغ الاتساع على الارياف العثمانية هو نظام الاستثمار العائلية الصغيرة، الأقل من ه هيكترات فى أغلب الأحيان. والأرض تخص الدولة من حيث المبدأ. اما فى الممارسة العملية، وهو ما يتأكد بعد القانون العقارى لعام ١٨٥٨، فإن الفلاح حر فى استخدام أو بيع الأرض التى يفلحها متى شاء ذلك. على ان الاتجاه الذى يرتسم منذ التنظيمات هو التكوين، المحدود بوجه عام، لاستثمارات كبيرة حديثة النمط بما يستتبع ظهور بروتيتاريا ريفية. وهذا الاتجاه قوى خاصة فى الاقاليم الزراعية الأكثر توجهاً الى الاسواق الخارجية، كالمناطق الداخلية من ازمير وسهل قيليقيا. ويجرى تشديده من جراء وفرة الاراضى المتاحة ومن جانب سياسة الدولة التى تشجع لاعتبارات ضريبية واقتصادية زراعة المنتجات القابلة للتسويق، حتى وإن كانت لا تنق فى كبار الملاك العقاريين. ويبقى أن هؤلاء الأخيرين، بسبب غياب منبر برلمانى، لن يكون لهم ثقل سياسى يذكر قبل صعود جماعة تركيا الفتاة الى السلطة.

ويمكن رصد تطور الاستثمارات الكبيرة بشكل أخص فى قيليقيا وفى اقليم أزمير. وحول ارضه، كانت الملكيات الكبيرة قد بدأت فى الظهور نحو منتصف

القرن، بتشجيع من وفرة الأراضي المتاحة، وسهولة المواصلات وتوجه الاقليم الى زراعة القطن. ويمكن لندرة الايدي العاملة ان تشكل عقبة، الا انه يتم تفادي هذه العقبة بالاعتماد على المهاجرين أو على عمال زراعيين موسميّين، وخاصة بتطوير الميكنة. وقبل حرب ١٩١٤، فإن قيليقيا هي التي تعتبر الاقليم الأوسع استخداماً للآلات الزراعية في الامبراطورية العثمانية.

وفي اقليم أزمير، كان تكوين الملكية الكبيرة في أغلب الأحوال من فعل الأجانب، خاصة الانجليز. فسعيًا الى الاستفادة من قانون ١٨٦٧ الذي يسمح للأجانب بحيازة ملكيات عقارية في الامبراطورية، يشكل بعض تجار ازمير الانجليز في المناطق الداخلية استثمارات كبيرة رأسمالية النمط تستخدم العمل الزراعي المأجور والآلات. وأغلب هؤلاء من المزارعين - التجار الذين يملكون في ازمير بيوتات تجارية على اتصال بلندن وليفرپول ومارسيليا وهامبورج، الخ. إلا انه يبدو ان الملكيات الكبيرة الانجليزية تشهد اتجاهًا الى التراجع نحو أواخر القرن. ويرجع ذلك الى عدة أسباب: ندرة الأيدي العاملة، السخط الفلاحي الذي يتفجر على شكل حروب فلاحية متقطعة، عمليات قطع الطريق المتفشية والتي تصبح حالة متوطنة في الأقليم والتي تنتهي، مع ضعف مكافحة السلطات لها، الى ان يكون لها اثر مثبت على المشاريع الاستثمارية الأجنبية. وهكذا فإن قاطع الطريق الشهير تشاكيچي يشن الغارات على الريف على مدار عشر سنوات، بما يخلق حالة انعدام شبه دائم للأمن على الطرق والسكك الحديدية التي تبدأ من أزمير. وفي بداية القرن، تنتقل الحاصلات التصديرية التي ينتجها الاقليم الى ايدي البورجوازية اليونانية والأرمنية غالباً.

وتلك ظاهرة تتواجد في أماكن أخرى. فعلى سبيل المثال، تعتبر غالبية كبار الملاك العقاريين، في اقليم ارضنه، من اليونانيين والأرمن؛ ويهيمن اليونانيون في زراعة القطن. والأمر أكثر وضوحاً بكثير في لبنان حيث يهيمن الموارنة هيمنة كاملة على انتاج الفاكهة وزراعة التوت. كما سوف يكون من المفري المقابلة بشكل

عمومى بين زراعة الحبوب فى وسط الأناضول والتي يهيمن عليها المسلمون فى الأغلب، وزراعة المحاصيل التصديرية فى المناطق المحيطة والمناطق الساحلية، والتي تمارسها الأقليات فى الأغلب.

كما تبدى المدن العثمانية هى أيضاً عند منعطف القرن تبايناً اجتماعياً متزايداً. وتشهد بعضها خلال القرن التاسع عشر نمواً مثيراً. والحال ان المدن - الموانئ، كاستنبول وسالونيك وأزمير، هى التى تشهد التطور الأسرع . وفى غضون قرن يرتفع عدد سكان بيروت من ٦٠٠٠ نسمة الى ١٤٠٠٠٠ نسمة. وفى المدة نفسها، يزداد عدد سكان استنبول وأزمير ثلاث مرات ويتزايد عدد سكان سالونيك مرتين. وفى المقابل، فيما عدا بعض الاستثناءات كإسكيشير التى يبدو ان عدد سكانها قد زاد عشر مرات فى غضون قرن، فإن عدداً كبيراً من المدن المتوسطة فى المناطق الداخلية من الأناضول يبدو انها قد تميزت بركود ديموجرافي على امتداد القرن التاسع عشر. وبالنظر الى غياب تصنيع هام، فإن ظاهرة النزوح الريفى لا تبرز.

وإذا كان لا يوجد تصنيع فى أماكن أخرى غير أكبر مدن الامبراطورية، فإن تدهور الحرف يعتبر بالمقابل شبه عام. ففي انقره، نجد أن ورش نسج الصوف قد اختفت تقريباً وأن المدينة تصدر صوفها الخام. ويحدث الشيء نفسه فى توكات بالنسبة لانتاج الأوانى النحاسية الذى كان يشكل مصدراً هاماً للدخول فى أوائل القرن التاسع عشر. وفى بورصا، ينتقل عدد ورش نسج الحرير من ألف الى ٧٥. وبالنسبة للمنسوجات القطنية أيضاً، كان التراجع بالغ السرعة، إلا أنه يبدو أنه قد حدث استقرار عند أواخر القرن؛ وأنداك تشكل واردات المنسوجات القطنية الأوروبية، الإنجليزية أساساً، نسبة ٨٠٪ من الاستهلاك الداخلى، لكنها لن تتجاوز هذا الرقم لأنه يجرى انشاء بضع فابريقات حديثة فى سالونيك وفى مقدونيا، بل ان نسج القطن يزيد فى أواخر القرن. وبشكل استثنائى، تشهد بعض الأنشطة

الحرفية استعادة للنشاط ايضاً، كانتاج السجاد فى غربى الاناضول، لكن ذلك استثناء، يرتبط بتنظيم الانتاج والتسويق من جانب عدد من المؤسسات الكبيرة بالارتباط مع الطلب الخارجى.

ويتمثل احد الجوانب الاجتماعية الجديدة التى تقدمها المدن العثمانية الكبرى فى العصر الحميدى فى ظهور بروليتاريا عمالية. وتظل هذه الظاهرة قاصرة على عدد من المدن الكبرى فى الامبراطورية (اسطنبول ، سالونيك، ازمير) ويظل اتساعها محدوداً. ويقدر عدد العمال فى الامبراطورية فى عام ١٩٠٨، فى اللحظة التى نشبت فيها اضرابات الصيف الكبرى، بنحو ٢٥٠٠٠٠ عامل (من بينهم ٧٠٠٠٠ عاملة)، يتركزون بشكل رئيسى فى فابريكات النسيج، ومانيفاكچورات التبغ والصناعات الغذائية. وتعتبر ظروف العمل جد صعبة، كما ان يوم العمل طويل والأجور بائسة. ولا توجد منظمات عمالية، بل اندية خيرية ترعى العمال وجمعيات عمالية كالعاملى - اى عثمانى جمعيتى (جمعية العمال العثمانيين)، التى تأسست فى اسطنبول فى ١٨٩٤ - ١٨٩٥، وصناديق تعاقد أو صناديق للمحالين الى المعاش، تبدأ فى التطور اعتباراً من ثمانينيات القرن التاسع عشر فى المناجم والقرسانات والسكك الحديدية وشركات الملاحة. وتتجلى الروح الكفاحية لهؤلاء العمال - من الصعب الحديث عن «طبقة عاملة» خلال تلك الفترة - من خلال اللجوء الى سلاح الاضراب؛ فعلى الرغم من ان الاضراب ممنوع، سوف نشهد خمسين توقفاً عن العمل بين عامى ١٨٧٢ و ١٩٠٨. ويرجع منشأ غالبية هذه الاضرابات الى التأخر الزائد عن الحد فى دفع الأجور. والاضرابات التى تقع فى المشاريع الأجنبية هى التى تقابل بالقمع الأكثر قسوة: إذ لا يجب ازعاج رأس المال الأجنبى. وفى هذه الشركات الاجنبية، فإن ظهور الوعى الطبقي، الذى مايزال جنينياً، غالباً ما يكون مقترنا بالتنافسات العرقية. وفى حالة شركة سكك حديد الأناضول، على سبيل المثال، يبرز العمال الاتراك فى عدة مناسبات عداوتهم للعمال المتخصصين أو للملاحطين اليونانيين والأرمن.

وإذا كان هؤلاء العمال الجدد ما يزالون جد محدودين بحيث لا يمكنهم البروز على المشهد الحضري بشكل حقيقى، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لظاهرتين اجتماعيتين أخريين تعتبر المدينة مسرحاً لهما فى اواخر القرن التاسع عشر: صعود البيروقراطية، وتطور بورجوازية بين صفوف الأقليات غير المسلمة فى الامبراطورية. فتوسع جهاز الدولة ونمو الخدمات البلدية وتزايد المدارس وانشاء شركات كالدين العام أو ادارة التبغ، اللتين تستخدمان العديد من الأفراد، قد زادت عدد المستخدمين والموظفين، وأدت الى تكون طبقة متوسطة، لن تتأخر فى ابداء رغبتها فى الرفاهية وفى كسب الحريات.

وفى توازٍ مع هذه الظاهرة، فإن التوسع الاقتصادى والثقافى لأوروبا فى الامبراطورية يترافق مع صعود الأقليات غير المسلمة، خاصة اليونانيين والأرمن. وتشكل نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالنسبة لهذه البورجوازية الجديدة عصرأ ذهبياً حقيقياً. ونسبة غير المسلمين تعتبر، بالفعل، أكثر قوة فى المدن، فهم يمثلون فى واقع الأمر ثلث السكان الحضريين بينما لا يمثلون غير خمس اجمالى سكان الامبراطورية. لكن التجار ورجال الأعمال والمتعهدين يخرجون من بين صفوفهم. وفى أزمير، تتشكل هذه الطبقة الاجتماعية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وفى حين ان اليونانيين والأرمن قد اكتفوا فى السابق بالعمل كوسطاء ووكلاء للشركات التجارية الانجليزية، فإنهم يبدأون فى تأسيس بيوتاتهم التجارية الخاصة وفى الانخراط فى عمليات الاستيراد والتصدير. ومنذ عام ١٨٩٣، نجد ٩٧ شركة تجارية تخص يونانيين وأرمن فى ازمير، و ٣٤ شركة فى أيدين. ولا تتعلق هذه الهيمنة على الأنشطة التجارية والاقتصادية إلا بالاقاليم الساحلية : ففى وقت واحد يحتكر اليونانيون تجارة صوف أنجورا ويهيمن الأرمن على تجارة الترانزيت، فى انقره. ولما كانوا يمثلون ثلث سكان المدينة، فإنهم يهيمنون على كافة الأنشطة التجارية.

ومنذ ذلك الحين يعتبر وضع اليونانيين والأرمن سائداً في التجارة الخارجية، وكذلك في الأنشطة المصرفية والصناعية. والحال أن «التعداد» الصناعي الأول للامبراطورية العثمانية والذي تم الاضطلاع به في ١٩١٣ - ١٩١٥، سوف يؤكد هذا الاتجاه : فنسبة ٥٠٪ من الرساميل المستثمرة في المنشآت الصناعية التي شملها التعداد تخص اليونانيين، ونسبة ٢٠٪ تخص الأرمن، ونسبة ٥٪ تخص اليهود. والبقية موزعة بين الأجانب (١٠٪) والأتراك (١٥٪). وبعبارة أخرى، فعشية الحرب العالمية الأولى، يسيطر العثمانيون غير المسلمين على ثلاثة أرباع الرساميل الصناعية.

وهذه المكانة التي يتم احتلالها في الأنشطة الاقتصادية تجد مكانة مناظرة لها في المجال الثقافي: ففي جميع الانحاء، يعتبر عدد المدارس والتلاميذ لدى اليونانيين والأرمن العدد الأعلى، نسبةً الى عددهم بين السكان. وهكذا، ففي ولاية ازمير، التي تضم ١.١ مليون مسلم في مقابل ٣٠٠٠٠٠ مسيحي، كان التلاميذ الذين يترددون على المدارس الثانوية ٣٥٠٠ و ٧٣٠٠ بحسب الترتيب. ونجد نسباً مماثلة في أنقره وأرضروم وقونية، الخ. اما فيما يتعلق بالسكان اليهود في الامبراطورية، فإن التعليم المدرسي هنا ايضاً يعتبر مرتفعاً نسبياً بفضل المدارس التي انشأها التحالف الاسرائيلي العالمي.

والمشهد الحضري للمدن العثمانية في بداية القرن يحمل بوضوح علامة هذه التطورات الاجتماعية. فتطور البيروقراطية والمركزة الحميدية يستتبع انشاء بنايات عامة «حديثة» في وسط المدينة: محافظات (حكومة قوناغى) أو بلديات، مستشفيات، مدارس، ثكنات، محطات للسكك الحديدية. وتظهر البنايات الأولى من هذا النوع في أنقره في عام ١٨٨٢، وفي افيون في عام ١٨٩٦، وفي تشوروم في عام ١٩٠٠. وما يثير الانتباه هو التماثل المعماري لهذه البنايات : فمن ادرنه الى بيروت أو الى دمشق، نجد ان الاسلوب الكلاسيكي الجديد الواحد هو الذي

ينتصر. والمجالات المصورة فى ذلك العصر، كمجلة «معلومات»، مليئة بصور هذه البنايات، التى يقصد بها ان تكون شاهداً على عصرية ووحدة الامبراطورية.

ويجد تحديث الاطار الحضرى ترجمة له فى تحسين التنظيم (رصف الشوارع، الانارة المدنية، شبكات الصرف الصحى) وتنظيم طرق المواصلات. ويجرى شق جادات واسعة، كالاستاسيون جاده سى (جادة محطة السكك الحديدية) فى انقره، والتى تفتح المدينة امام العربات التى تجرها الجياد. ومنذ ذلك الحين، يصبح بالامكان الاقامة على مشارف المدن، حيث تظهر الضواحي السكنية. كما يحمل السكن الحضرى علامة هذه التطورات. فإلى جانب البيوت العثمانية التقليدية، تظهر بيوت حديثة متعددة الطوابق. ونحو عام ١٩٠٠، تشير السيرة، التى بدأت فى ستينيات القرن التاسع عشر فى ازمير أو فى افيون، الى تباين بالغ الوضوح فى السكن. وفى انقره، تبدأ الظاهرة بشكل جد متأخر، اعتباراً من اواخر القرن، وتواصل المدينة الاحتفاظ بجانب كبير من تجانسها. وتظهر حول المدن الكبرى مناطق استجمام تذهب اليها البورجوازية اليونانية والأرمنية وكبار الموظفين العثمانيين خلال الصيف. وتلك هى حالة مدينة كفوتشا (فوسيه)، حيث يشيد اغنياء ازمير اليونانيون بيوتاً جميلة من الحجر فى اواخر القرن. وفى اسطنبول، تنتشر «بور اقامة ثانوية» على ضفاف البسفور وجزر الأمراء.

اسطنبول والثقافة العثمانية

لقد قيل من باب المزاح ان الامبراطورية العثمانية تنقسم الى عالمين: اسطنبول وبقية الامبراطورية. وصحيح تماماً ان العاصمة تشكل فى حد ذاتها عالماً على حدة بحكم وضعها وامتدادها الجغرافى وثراء تاريخها وبورها السياسى والثقافى. وفى الوقت نفسه، فإننا نجد فيها اتجاهات التطور الاجتماعى الملاحظة فى حالة المدن العثمانية، وإن كان بشكل ضخم ومسرف بما يتناسب مع ابعاد المدينة نفسها.

فقد شهدت اسطنبول نمواً ديموجرافياً سريعاً خلال القرن التاسع عشر، اذ انتقلت من ٣٩١٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٤٤ إلى ٨٥٠٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٨٦، لتصل الى مليون نسمة نحو عام ١٩٠٠. وهى زيادة لاشك انها ترجع الى النزوح الريفى بأكثر مما ترجع الى النمو الطبيعى للسكان، كما انها ترجع، بشكل اكبر، الى ظاهرة الهجرة (يصبح النمو بالغ السرعة بعد عام ١٨٧٦). كما ان تدفق الاجانب قد لعب دوراً. فهم يقدرون بـ ١٣٠٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٨٦، اى نسبة ١٥.٣٪ من السكان، وهو رقم يبدو بالغ الارتفاع، إلا اننا يجب ان ندرج فيه العثمانيين غير المسلمين العديدين الذين حصلوا على حماية السفارات فى نفس الوقت الذى حصلوا فيه على جوازات سفر اجنبية. والحال أن احصاء عثمانيا اجرى فى عام ١٨٨٦ بالنسبة لمدينة اسطنبول يقدم التوزيع العرقى والطائفى التالى: المسلمون، ٤٤٪، اليونانيون، ١٧.٥٪، الأرمن، ١٧.١٪، اليهود، ٥.١٪. ومن ثم، فنحو اواخر القرن، نجد ان السكان العثمانيين للعاصمة موزعون بشكل شبه متساوٍ الى مسلمين وغير مسلمين.

وقد اكتسب الاتساع الجغرافى للعاصمة سرعة جد بالغة فى الشطر الثانى من القرن التاسع عشر. وهو لا يتعلق بذلك الجزء من المدينة الواقع الى جنوبى قرن الذهب، ستامبول، والذى لا يتجاوز الأسوار البيزنطية، بل يتعلق بالضواحي الشمالية، خارج بيراء. ويتم النمو الحضرى على محورين : شمال ساحة تقسيم، حيث يجرى تشييد احياء شيشلى السكنية، وعلى طول البسفور، حول ضاحية بيشيكتاش وعند قصرى دولما باخشى ويلدز السلطانيين. وانطلاقاً من الساحل، يبدأ النسيج الحضرى فى اجتياز الروابى فى اتجاه الشمال الغربى للارتباط بالاحياء الجديدة.

وتتسع المدينة، لكن تحديث المواصلات يؤدى فى الوقت نفسه الى تقارب احيائها المختلفة. ويتميز الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بتوسع الملاحه بين

ضفتى البسفور (فى عام ١٩٠٩، يؤدى الخدمة ستة وثلاثون مركباً)، وبظهور عربات الترام المقطورة، وبتشغيل جسر جديد على قرن الذهب فى عام ١٨٧٥ وبنشاء خط سلكى للمترو بين جالاتا وبيرا، دون نسيان تغفل السكك الحديدية فى المدينة مع وصول اكسبريس الشرق فى عام ١٨٨٨ وانشاء محطة سيركيجى الجديدة للسكك الحديدية فى السنة التالية. ومظاهر التقدم هذه كلها تسمح باختلاط يومى للسكان دون أن تؤدى مع ذلك الى صهر لهم فى قالب واحد.

على العكس، فوقع الحداثة يميل الى زيادة التباين بين احياء اسطنبول، اساساً على جانبى قرن الذهب. فالجزء الشمالى (جالاتا وبيرا) قد استفاد، فى عصر التنظيمات، من التحسينات المترتبة على انشاء بلدية تجريبية (الدائرة السادسة)، تنتعش بوجه خاص على يد الاقليات، وأحرز بشكل ما تقدماً على بقية المدينة فيما يتعلق بالتجهيزات (الانارة بالغاز، الامداد بمياه الشرب، شبكة الصرف الصحى)، وبالنزعة الحضرية (فتح الحدائق وانشاء خطوط جديدة للتنظيم سهل عليها حريق پيرا الكبير فى عام ١٨٧٠) وبنشاء بنايات جديدة كالمستشفيات أو فندق المدينة. وفى مقابل الصور التقليدية لمساجد ستامبول، تقدم باى أوغلو مظهراً أكثر حداثة وغريباً، بيناياتها الجديدة ومكاتبها وبنوكها ومسارحها وفنادقها ومحالها التجارية. وتبدو المدينة العتيقة اقل دينامية. ويؤدى كل حريق جديد الى نزوح الى شمالى قرن الذهب، ويترك فى النسيج الحضرى ثغرات الاحياء المهجورة والدروب غير الواضحة المعالم.

على انه لا يجب تصور اننا نجد، اذ ننظر الى جانبى قرن الذهب، مدينة اوربوية ومسيحية، من جهة، ومدينة تركية ومسلمة، من الجهة الأخرى. فاسطنبول، كما اعيد الى الأذهان مؤخراً، ليست مدينة كولونىالية، بل هى نتاج تطور معقد. (٧) ففى احياء الشمال (جالاتا، پيرا، طب خانه، الخ)، يمثل العنصر المسلم فى اواخر القرن نسبة ٢١٪ من السكان. ويمكن تفسير وجوده بمشاركته فى حركة الاعمال

الاستثمارية وكذلك بجاذبية القصور السلطانية التي تركز نسبة قوية من المسلمين بين بيشيكتاش وروميلي حصارى. وفي المقابل، في الجزء العتيق من المدينة، يمثل المسلمون نسبة ٥٥٪ من السكان ومن ثم فإنهم بعيون عن أن يشكلوا غالبية ساحقة. إلا أنه صحيح أن الاتجاه الذي يرتسم في أواخر القرن يتميز بنزوح من جانب اليونانيين والأرمن واليهود إلى الأحياء الحديثة. وعلى سبيل المثال، فإن الأثرياء اليونانيين في الفنار، حيث توجد البطريركية، يميلون أكثر إلى الإقامة في المساكن الجديدة في شمال باي أوغلو أو في جزر الأمراء.

ومن ثم فعلى مستوى «المدنية» بشكل خاص يحدث التباين بين جانبي قرن الذهب. فالاجانب، القليلون جداً في ستامبول (١,٥٪ من السكان)، يسكنون في باي أوغلو حيث تكون لهم الصدارة. وتشهد الصفوات الكوزموبوليتية في عهد عبدالحميد «عصرها الجميل». وجبروت البعثات الدبلوماسية المقيمة في وسط المدينة يسمح لها بإدارة شئون حياتها في أمن كامل. وتعتبر جادة پيرا الرئيسية (استقلال جاده سى)، المفعمة بالحركة دائماً، الجادة الرئيسية التي تزدهر فيها المحال التجارية الفاخرة والبارات والمقاهى ومحال بيع الحلوى الرائجة. إنه عصر المسارح والمطاعم الانيقة والأندية. كما أصبح باي أوغلو مكاناً أساسياً للسياحة الدولية كما يشهد على ذلك بناء عدة فنادق كبرى في ذلك العصر، أشهرها فندق پيرا پالاس. والكلام يدور بالفرنسية في كل مكان. ويجرى تقليد الغرب في عاداته وتسرياته وموضات أزيائه.

وعبر أحياء شمالى قرن الذهب هذه تدخل طبقات ستامبول المتوسطة في اتصال مع الحداثة، وعبر موشور التمييز تنشأ مع الحضارة الغربية علاقة هي في أن واحد علاقة افتتان ورفض. افتتان بالترف والرفاهية وتحرر أساليب السلوك واستقلال المرأة وتنوع أشكال التسلية ووفرة أماكن اللهو. لكننا نجد في الوقت

نفسه ان الاخلاق التقليدية، التي تتعرض لصدمة عميقة من جراء هذه السلوكيات الاستعراضية، تميل الى التشدد. والرواية التركية، التي تظهر فى ذلك العصر، تترجم هذه المشاعر المتناقضة: فهي تستهدف بشكل عام الاتراك المبالغين فى الاقتداء بالغرب وذلك بتشهيرها باساليبيهم المثيرة للسخرية وبالأذيلية التي يبدونها تجاه كل ما يجيىء من الغرب، الى درجة تنذر بالتنكر لتقاليدهم.

وبالرغم من الرقابة، فإن الحياة الثقافية فى اسطنبول حول عام ١٩٠٠ تظل مفعمة بالحركة، وبالرغم من ارتفاع النبرة الاسلامية السائدة، فإن (الحياة الثقافية) تعتبر مشربة، اكثر من ذى قبل، بمثل الغرب. وتشارك مدن مثل سالونيك وازمير وبيروت كل بطريقتها فى الوثبة الثقافية، لكن اسطنبول هى التي تظل المركز الأنشط على مستوى النشر والفنون والافكار.

وتتقدم الصحافة والنشر بشكل ملحوظ فى عصر عبدالحميد. ويمكن قياس مظاهر التقدم هذه بعدد دور النشر - التي تنتقل من ٥٤ فى عام ١٨٨٣ إلى ٩٩ فى عام ١٩٠٨ - أو ايضاً بعدد الكتب الصادرة : ففي عصر محمود الثانى، يبلغ المتوسط السنوى للكتب المنشورة ١١ عملاً. وينتقل هذا المتوسط الى ٤٣ فى عهد عبدالمجيد، وإلى ١١٦ فى عهد عبدالعزيز، وإلى ٢٨٥ فى عهد عبدالحميد. وفيما يتعلق بالصحافة، فإنه اذا كانت الصحف اليومية قليلة العدد، فإنها تصل الى عدد نسخ هام قياساً الى العصر: ١٥٠٠٠ نسخة بالنسبة لصحيفة إقدام، و ١٢٠٠٠ نسخة بالنسبة لصحيفة صباح. وحتى اذا كان السياق السياسى يحرمها من كل تقييم نقدى، فإنها تسهم فى نشر عادة قراءة صحيفة كل يوم بين صفوف الصفوات العثمانية. وبالنسبة للجمهور الواسع، توجد منذ ذلك الحين مجلات مصورة، كمجلة معلومات شبه الرسمية الى حد بعيد والتي تطمح الى لعب دور مجلة «ليلوستراسيون»

وما يميز محتوى كتب وصحف ذلك العصر هو الانفتاح الأوسع على العالم الغربى. ومن ثم فإن الاتجاه الذى اتُّخذَ فى عصر التنظيمات يجد امتداداً له، بل وربما يكون قد ازداد حدة من جراء ظاهرة الرقابة. فالادباء والكتاب الاجتماعيون والصحفيون، الذين يخشون من الاقتراب من موضوعات السياسة الداخلية، يطورون كما يحلو لهم الموضوعات البعيدة عن السياسة والدولة العثمانية، التى سوف يبحثون عنها على الأغلب فى أوروبا وفى أمريكا. ونلاحظ على سبيل المثال، فى مجال النشر، ان نسبة الكتب المترجمة تزيد بشكل محسوس. فحتى عام ١٨٧٥، كانت نسبة المؤلفات المترجمة من لغة اجنبية الى التركية ٦.٤٪ قياساً الى مجموع الكتب الصادرة منذ ادخال الطباعة. وفى عصر عبدالحميد، تنتقل هذه النسبة الى ٢٣٪. كما ان نوع الاعمال المترجمة يتغير. ففي زمن التنظيمات، كانت الكتب المترجمة قليلة، لكنها كانت كبرى اعمال الآداب الأوروبية. وبعد عام ١٨٨٠، نجد ان الاعمال المترجمة، عن الفرنسية اساساً، تعتبر فى غالبيتها كتباً شعبية تتمتع بتوزيع واسع، وروايات اخلاقية وقصص مغامرات وكتب خيال علمى. وفى الصحافة المصورة، تكشف صور الغرب للقراء العثمانيين عالم الثورة الصناعية والسكك الحديدية والاعمال الانشائية الكبرى. وهكذا، فبالرغم من الرقابة، أو ربما بسببها جزئياً، تواصل الحداثة الغربية شق طريقها الى الأذهان.

وبوجه عام، تتيح الرقابة بكلها على الحياة الفكرية والفنية فى العصر الحميدى. وهكذا فإن المسرح العثمانى، بعد أن شهد فترة رائعة فى بداية سبعينيات القرن التاسع عشر بدفع من ارمنى، هو جولو أجوب، يجد نفسه تحت الرقابة الشديدة بعد عام ١٨٨٤. فلم يعد يجرى عرض شىء آخر غير مسرحيات الفودفيل الفرنسية. لكن الدولة لا تملك العمل السلبي وحده. فعبد الحميد يأمر بانشاء مسرح فى يلدز، حيث يجتذب الفرق التمثيلية والفرق الموسيقية الغربية ويتم اداء اوبرات ايطالية. وحتى اذا كان ذلك يخص القصر قبل كل شىء، فإن اسطنبول تستفيد ايضاً من مجيئ هؤلاء الفنانين الأجانب. ومن جهة اخرى، فإن

مدرسة الفنون الجميلة (صنائع - اى نفيسه مكتبى)، التى انشئت فى عام ١٨٨٣ والتى يرأسها رسام وعالم آثار شهير، هو عثمان حمدى، تقدم دروساً فى النحت والعمارة والرسم لتلامذة غير مسلمين اساساً. ويعتبر وجود الاقليات والاجانب فى الحياة الثقافية احدى السمات المثيرة لذلك العصر. وهكذا ففى مجال المسرح، كانت غالبية مخرجى الفرق ومصمى المشاهد والممثلين من الأرمن. وكان عدد كبير من المعمارين أو من الموسيقيين من الأجانب. ويبقى ان هناك سعيًا، فى جميع المجالات، الى استلهام الغرب. ففى مجال الرسم، نجد ان عثمان حمدى، الذى تتلمذ على ايدى چيروم وبولانچيه، يستمد الهامه من الروح «الاستشراقية» للرسامين الأوروبيين المعاصرين. وفى الوقت نفسه يرتسم منذ ذلك العصر رد فعل ضد اتجاه التغريب. وعلى سبيل المثال، فى مجال العمارة، تظهر فى عهد عبدالحميد المحاولات الأولى الرامية الى اعادة مكانة معينة للقيم والمفاهيم التقليدية.

وتحدث الظاهرة نفسها فى الأدب. فالمؤثرات الأوروبية، التى تغلغت فى ادب عصر التنظيمات، تصل الى اوجها فى الحركة المسماة بـ «الأدب الجديد» (ادبيات - اى جديدة) التى تحشد، حول مجلة «ثروة - اى فنون» (ثروة الفنون) التى يحركها توفيق فكرت، عدداً معيناً من الشعراء والكتاب. وإذ يستلهمون الرمزية، فإنهم يمارسون الفن للفن ويكتبون بأسلوب مدروس تدخل فيه كثرة من المصطلحات النادرة ذات الأصل العربى أو الفارسى. وفى العصر نفسه، يجرى تطبيق مفهوم آخر تماماً للتغريب من جانب كاتب موسوعى، هو احمد مدحت. فهذا الأخير يسعى الى ان ينقل الى العدد الأكبر من القراء، بشكل ميسر وبلغة بسيطة، العناصر الأساسية للحضارة الأوروبية. وفى وجه نخبة شعراء «ثروة - اى فنون»، الذين يهتمهم بـ «الانحطاط»، يضع رسالته ككاتب يتولى تبسيط معارف أوروبا للجماهير.

ونحو أواخر القرن التاسع عشر، سوف تتجه مجموعة من العلماء والكتاب الى توجيه الحياة الثقافية فى اتجاه آخر، هو البحث عن ثقافة قومية خاصة بالأتراك. وهذا التيار، يتأثر من جهة، بالبحوث التركية الأوروبية التى تزداد كثافة فى أواخر القرن التاسع عشر خاصة مع فك رموز أقدم آثار اللغة التركية، نقوش أورهيون^(٨)، و ، من جهة أخرى، بهجرة مثقفين مسلمين من روسيا الى اسطنبول، يحملون معهم فكرة الوحدة اللغوية والثقافية للشعوب التركية. ومنذ ذلك الحين تحتل مسألة تنقية وتبسيط اللغة التركية بؤرة المناقشات. والحال ان كاتباً من أصل البانى، هو شمس الدين سامى، وهو صاحب عدة قواميس، يدافع عن لغة بسيطة، قريبة من اللغة التى يتكلم بها الشعب، ومتحررة من الاستعارات العديدة من العربية أو من الفارسية. والواقع ان تيار «الأدب القومى» الذى يولد فى ذلك العصر يجد، بشكل ما، بيانه مع الصدور الذى حدث فى عام ١٨٩٧، غداة الانتصار العسكرى على اليونان، لديوان «اشعار تركية» (تركتشه شعرلير) لمحمد امين. ويعتبر ذلك العام عاماً هاماً فى تاريخ الأدب التركى: فالكاتب يستخدم لغة بسيطة، قريبة من لغة الشعب، للتعبير عن مشاعر وطنية سامية؛ كما انه يستخدم، بدلاً من العروض العربى، المؤلف فى الشعر العثمانى العظيم، الوزن المقطعى التركى التقليدى. وهناك نقطة هامة أخرى أخيرة: فهو يشيد فى اشعاره بسمو الأتراك (لا العثمانيين): «تركى أنا؛ كريم اسمى، كريم عنصرى».

صعود الأخطار

الحركات القومية، المشكلة الأرمنية

نحو أواخر القرن، نشهد عودة لثورة القوميات. ففي الولايات الأرمنية نجد ان أعمال العنف، المتوطنة، تحتد فجأة فى أواخر عام ١٨٩٤ فى إقليم ساسون. وعلى مدار عامين، سوف تتعاقب أعمال التمرد والقمع فى الأناضول الشرقية وفى

اسطنبول، بما يشير الى قوة النزعة القومية الأرمنية. وفي البلقان، تنتقل اللجان الثورية الى الفعل نحو العصر نفسه: فالتنظيم الثوري الداخلى لمقدونيا (١٨٩٣) سرعان ما يتلوه تنظيم خارجى، دون نسيان الاتنیکا هيتاريا اليونانية والمنظمات الصربية، التى تطالب كلها بأرض واحدة. وفى جزيرة كريت، التى تتمتع منذ عام ١٨٦٨ بوضعية حكم ذاتى، فإن اللجان الكريتية تعمل فى تنسيق مع ايتنیکا هيتاريا لربط الجزيرة باليونان : وفى مايو ١٨٩٦، تصبح كريت فريسة لتمرد شامل. والحال ان عبدالحميد الذى يمارس السلطة الشخصية وينتهج سياسة المركزة منذ خمس عشرة عاماً، لا يتوصل من ثم الى عرقلة طموحات قوميات الامبراطورية الى الاستقلال والى الحرية.

ومن بين المشكلات الثلاث التى سوف تعاود الظهور نحو عام ١٨٩٥، فإن المشكلة الكريتية وحدها هى التى سوف تسوى بسرعة. ففى بداية عام ١٨٩٧، يجر اندفاع الطموحات فى كريت وفى مقدونيا الحكومة اليونانية الى حرب ضد العثمانيين سرعان ما تتحول الى كارثة بالنسبة للجيش اليونانية ((مايو - يونيو ١٨٩٧)). ويشكل ذلك انتصاراً عسكرياً للعثمانيين، يزيد كثيراً من هيبة السلطان ويثبت كفاءة المستشارين العسكريين الألمان، إلا أنه يتعذر تحويله الى نجاح دبلوماسى، لأن الدول تفرض بالنسبة لكريت حكماً ذاتياً تحت اشراف اوربا. وحتى اذا كان العلم التركى يبقى بشكل رمزى، فإن الامبراطورية العثمانية تخسر كريت. ويبدأ نزوح المسلمين من الجزيرة صوب غربى الاناضول.

أما مقدونيا فإنها سوف تظل عثمانية حتى عام ١٩١٢، لكن ثمن ذلك سوف يكون مصاعب جسيمة! مقدونيا؟ انها ارض تمتد عبر البلقان من البانيا الى ثراس، وتضم ثلاث ولايات: كوسوفو وموناستير وسالونيك. ارض تتجاور فيها اعراق متعددة: اتراك، البانيون، يونانيون، صربيون، بلغاريون، يهود، غجر، فالاشيون، وتتقابل فيها الاديان، ليس فقط الاسلام والمسيحية، وانما ايضاً، داخل

الارثوذكسية، الاسقفية البلغارية والبطريركية اليونانية. ارض لأربع دول، صربيا وبلغاريا واليونان والامبراطورية العثمانية، ناهيك عن رومانيا المهتمة بالاقليات القلاشية وعن ظهور نزعة قومية مقدونية صرفة ترفض دعاوى جميع الدول المجاورة. وهذا الطرف أو ذاك يتحدث عن حقوق تاريخية في ارض واحدة، متذرعاً إما بمملكة فيليب الثاني والاكسندر المقدونية او ببلغاريا الكبرى التي تتحدث عنها معاهدة سان ستيفانو والتي تشمل الجزء الأكبر من الأرض المقدونية.

واعتباراً من اواخر القرن التاسع عشر، تصبح مقدونيا مسرح مواجهات دامية بين اعضاء اللجان الثورية (كوميتاچي). وتتراوح اساليب الارهابيين بين ذبح قرى بأكملها وهجمات مثيرة على القطارات، مروراً بعمليات الاختطاف في مقابل فدية، وحرق المساجد او الكنائس والسطو، الخ. وهكذا فإن النزاع سوف يستمر، بهذه الدرجة أو تلك من الكمون، حتى نشوب الحروب البلقانية، مع تفجرات شرسة احياناً، كما في ١٩٠٢ - ١٩٠٣، عندما يفجر التنظيم الداخلي تمرداً حقيقياً حول مدينة موناستير. وتبقى السيادة العثمانية على الولايات الثلاث قائمة، وإن كان بشكل يتزايد هشاشة، وذلك من جراء تدخل الدول في البلقان، والتي لا تريد المغامرة بالمواجهة. ففي مناسبتين نجد ان النمسا - المجر وروسيا، وهما الدولتان المهتمتان على نحو مباشر بتطور البلقان، تتفاهمان على ابقاء الوضع القائم: مرة اولى في سان بطرسبورغ في عام ١٨٩٧، ومرة ثانية في عام ١٩٠٣ في مورتنيج حيث يضع فرانسوا - جوزيف ونيقولا الثاني برنامج اصلاحات بالنسبة لمقدونيا ينص، بين امور اخرى، على انشاء جندرية دولية. وسوف ينجح عبدالحميد في ابقاء مقدونيا تحت السيادة العثمانية، ولكن ليس دون تفجرات للعنف وليس دون تدخل متزايد من جانب الدول الأوروبية. على ان تطور الحركة القومية الأرمنية بوجه خاص هو الذي يبدو في اواخر القرن التاسع عشر شاغلاً مهماً بالنسبة للدولة العثمانية.

فمنذ منتصف القرن، تغير المجتمع الأرمني تغيراً عميقاً. فقد شهد يقظة ثقافية تتميز بتطور لشبكة من المدارس الحديثة، وارسال الأرمن الشبان الى اوربا وتكاثر الكتب والصحف الصادرة بالأرمنية. وقد ادت هذه النهضة الثقافية الى اعتماد دستور، فى عام ١٨٦٠، هو اللائحة الأرمنية التى اختزلت السلطات التقليدية للبطريك لحساب البورجوازية. وتتميز المرحلة الثانية بميلاد الحركة القومية الأرمنية فى بداية ستينيات القرن التاسع عشر. وفى شرقى الاناضول، يجرى توزيع عرائض بين السكان الأرمن. وتتفجر انتفاضات، محدودة بعد، كما فى زيتون فى عام ١٨٦٢. وسوف يتواصل هذا الغليان حتى انعقاد البرلمان العثمانى فى عام ١٨٧٦ والذي يتيح للنواب الأرمن فرصة عرض طموحات جاليتهم فى الحصول على الاصلاحات والأمن، الخ.

وهذه العناصر التى نرصدها فى بدايات النزعة القومية الأرمنية (تطور المدارس، التجديد الأدبى، التذمر) نجدها فى نقطة انطلاق جميع الحركات القومية فى الامبراطورية. فأولاً، هناك جغرافية الاستيطان الأرمنى فى الامبراطورية العثمانية، والتى تجعل السكان الأرمن فى الاناضول الشرقية وفى قيليقيا متداخلين بشكل وثيق فى النسيج الديموجرافى المسلم. ومن جهة اخرى، وفى الولايات الشرقية الست الأكثر ازدهاراً بالأرمن، نجد ان هؤلاء الأخيرين لا يشكلون بحال فى اواخر القرن غالبية السكان. فالأرمن والأتراك والاكراذ والشراكسة يتجاورون فى قرى واحدة، وفى مدن واحدة.

وتجدر الاشارة الى واقع آخر هو أن الأرمن، بشكل أكثر من اية اقلية غير مسلمة اخرى بلاشك، يندمجون فى الهيكل السياسى والادارى للدولة. ومنذ الانتفاضة اليونانية، التى ترتب عليها اختزال جانب كبير من النفوذ السياسى لليوناني الامبراطورية، نجد أن الأرمن يحتلون مكانة هامة فى الكادر السياسى الملحق بالقصر أو بالباب (العالى). كما انهم عديدون فى المؤسسات المحلية التى

اقامها قانون ١٨٦٤. وهم موجودون فى المجالس البلدية والمحاكم ويقدمون خبراء فى مجال الشؤون المالية، ومترجمين، وفنيين فى خدمات الصحة والزراعة. وهكذا فإن مكانتهم تصبح أكبر فى الدولة فى عين اللحظة التى يصبح فيها وعيهم بهويتهم القومية أكثر حدة.

والسمة الثالثة التى تحدد اصالة المسألة الأرمنية هى نوع الصلات التى يحتفظ بها السكان الأرمن مع الخارج. فهم مرتبطون بوجود دياسبورا أرمنية، فى أوروبا، قديمة بالفعل، تتمتع ببؤر رائعة للثقافة القومية، كالבؤرة التى أوجدها الميخيتاريون فى البندقية. ومن جهة أخرى، فإن العلاقات مع القوقاز والروابط مع أرمن روسيا تعتبر وثيقة. ومن القوقاز ينتشر الناس والأفكار فى الاناضول الشرقية حتى قبل ان تصل الى اسطنبول. وأخيراً، فإن الجالية الأرمنية قد تغلغلت فى صفوفها البعثات التبشيرية تغلغلاً واسعاً، خاصة البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية. وهكذا، فعن طريق انفتاح صفواته على العالم الخارجى، يتميز المجتمع الأرمنى، خاصة المجتمع الارمنى فى الاناضول الشرقية، عن المجتمع الاسلامى المحيط به.

واعتباراً من عام ١٨٧٨، تكتسب المسألة الأرمنية طابعاً دولياً وتتجذر الحركة القومية. وخلال المفاوضات على معاهدات الصلح (سان ستيفانو وبرلين)، كان الأرمن قد أرسلوا وفوداً للأعراب عن رغبتهم فى الإصلاحات وفى حكم ذاتى على غرار الحكم الذاتى الممنوح للبنان فى عام ١٨٦٠. وفى سان ستيفانو، فإن روسيا هى التى كان عليها السهر على تطبيق الإصلاحات فى أرمينيا التركية؛ وفى برلين، تقع تلك المسئولية منذ ذلك الحين على كاهل الدول الأوروبية (المادة ٦١). وفى تلك الأثناء، وبموجب اتفاقية قبرص، تعهدت بريطانيا العظمى بالعمل على تطبيق الإصلاحات والدفاع عن الاناضول الشرقية ضد أى هجوم، ومن ثم ضد الخطر الروسى.

ومنذ ذلك الحين، فإن الولايات الأرمنية تصبح عنصراً من عناصر التنافس الانجليزي - الروسي. فعبر السهل الأرمني، تهدد روسيا الهند الانجليزية. وتنزع بريطانيا العظمى من الاندفاع العسكري الروسي انطلاقاً من القوقاز ومن استخدام روسيا لفكرة حماية الأرمن. وتحت ضغط من رأى عام اثير اهتمامه على نحو قوى بمصير السكان الأرمن، فإنها تجهد فى الضغط على الحكومة العثمانية حتى تضطلع بالاصلاحيات التى وعدت بها؛ وسعيًا الى تحقيق هذه الغاية، سوف يجرى ارسال مستشارين عسكريين انجليز الى الاناضول الشرقية فى ١٨٧٩ - ١٨٨٠. وخوفاً من ان تكون هذه المعركة من اجل الاصلاحيات بالنسبة للانجليز وسيلة للتواجد فى الاناضول الشرقية، فإن الروس يعارضون بشكل شبه منهجى المشاريع البريطانية.

والواقع ان تجذر الحركة القومية الأرمنية بعد عام ١٨٧٨ يرتبط الى حد بعيد بالتحليل الذى اجراه المثقفون الأرمن للاستقلال البلغارى: فقد تم الحصول على هذا الاستقلال بفضل اوربوا، فعلاً، لكنه تم اساساً بفضل الأساليب العنيفة التى لجأت اليها «اللجان» الثورية البلغارية. وهكذا فإن «النموذج البلغارى» يهيمن على تفكير المناضلين الأرمن، خاصة اولئك الذين سوف يتجهون الى انشاء المنظمات الاولى. والواقع ان الاحزاب الثورية الاولى تبدأ فى الظهور فى اواسط ثمانينيات القرن التاسع عشر: حزب ارميناكان الذى تأسس فى فان فى عام ١٨٨٥ على ايدى عدد من المربين، ثم الحزبان الكبيران اللذان، خلافاً للحزب الاول، سوف يجرى تأسيسهما على ايدى ارمن من القوقاز ليس لهم مع ارمينيا التركية غير القليل من الروابط: الهينتشاق (الجرس) الذى تأسس فى چنيف فى عام ١٨٨٧ ، والداشناق (الاتحاد الثورى الأرمنى) الذى تأسس فى عام ١٨٩٠ فى تفليس.

وبالرغم من بعض الخلافات (الهيئتشاق على سبيل المثال هو وحده الذى يتحدث عن الاستقلال وينادى باتحاد السكان الأرمن فى تركيا وروسيا وايران)،

فإن الحزبين الكبيرين تجمع بينهما نقاط مشتركة كثيرة: فهذان الحزبان اللذان تأسسا على ايدى مثقفين منفصلين عن الجماهير، يستلهمان الشعبية الروسية ويتبنيان الاشتراكية بشكل سافر. وهما يؤيدان اللجوء الى الأرهاب والنضال المسلح لتحقيق اهدافهما ويريان ان من الواجب تسليح الفلاحين الأرمن لتنظيم الدفاع عن انفسهم. كما انهما يعتمدان كثيرا على المساعدة التى يمكن للغرب تقديمها لقضيتهما، وسوف يتمثل جانب من نشاطهما فى الاضطلاع بدعاية مكثفة لدى الرأى العام والشخصيات السياسية الغربية. وتتمثل العلامة الأولى للنشاط الثورى فى قيام الهينتشاق بتنظيم مظاهرة فى عام ١٨٩٠ فى اسطنبول فى حى كوم قابى للتنديد بالمصير البائس لأرمن الاناضول الشرقية.

فما الموقف الذى سوف يتخذه عبدالحميد فى وجه صعود النزعة القومية الأرمنية؟ بالنسبة للسلطان، فإن المشكلة الأرمنية، مأخوذة برمتها، تعتبر مشكلة اخرى من المشكلات القومية تضاف الى المشكلات اليونانية والصربية والبلغارية. وبعبارة اخرى، فإنها تمثل خطراً جديداً يهدد وحدة اراضى الامبراطورية ويتيح للدول الأوروبية فرصاً جديدة للتدخل. ولذا يلزم، استفادة من التجارب السابقة، سحق البنور الأولى للنزعة القومية لدى الأرمن قبل قوات الأوان. والحال ان المشكلة الأرمنية. عند النظر اليها من الزاوية الاقليمية، هى مشكلة الاناضول بوجه عام، والاناضول الشرقية بوجه اخص. وينظر الأرمن الى كل تراجع عثمانى فى البلقان بوصفه عامل تشجيع لهم، بينما ينظر اليه القادة العثمانيون بوصفه سبباً اضافياً لتوطيد سيطرتهم على الاناضول. وبعد عام ١٨٧٨، فإن الاناضول الشرقية تصبح مهددة من الخارج من جانب الروس والانجليز، ومهددة من الداخل من جانب الأرمن.

وتحاول الدولة العثمانية الرد على هذه التهديدات بما يميزها من معوقات هيكلية: الحالة غير الممتازة للأوضاع المالية، الحالة الرثة للطرق والمواصلات،

الفساد، الخ. وسوف يتميز رد اول بطابع ديموجرافى: وهو يتمثل فى استخدام المهاجرين القادمين من روسيا فى تعزيز العناصر الاسلامية، خاصة على طول الحدود مع امبراطورية القياصرة، ويتمثل رد آخر، سياسى- عسكرى، فى انشاء وحدات الحميدية فى عام ١٨٩١، والمنظمة وفق نموذج قوزاق روسيا. وهى وحدات مؤلفة من عناصر تنتمى الى العشائر الكردية. وفى اسطنبول، تشكل (هذه الوحدات) الحرس الخاص للسلطان، وفى الميدان، فى الشرق الاناضولى، تتحمل مسئولية الحفاظ على النظام، اى، فى الواقع، مواجهة الانشطة الثورية الارمنية. لكن انشاء الحميدية يندرج ايضاً فى اطار سياسة عبدالحميد الكردية والتي تتمثل فى السعى الى تعزيز تضامن المسلمين وتجنب اى تواطؤ بين الاكراد والارمن. فمثل هذا التواطؤ من شأنه ان يجعل الدفاع عن الاناضول الشرقية امراً بالغ الصعوبة.

وأياً كان الأمر، فإن هذه الوحدات الجديدة لا تحول دون انفتاح الغليان الثورى على عامين من القلاقل واعمال العنف، فى ١٨٩٤ - ١٨٩٦. فخلال صيف ١٨٩٤، يشجع مناضلو حزب الهينتشاق مواطنيهم فى مركز ساسون على الانقضاخ على الاكراد. والحال ان الحكومة التركية التى ترى انها ازاء تمرد، تبادر بارسال قوات. ويتخذ القمع طابعاً وحشياً، وتستثير المذابيح هياجاً واسعاً فى اوروبا وتسهم فى نهوض حركة مؤازرة للارمن. وبعد ذلك بسنة، ينظم الهينتشاق فى قلب اسطنبول، امام الباب العالى، مظاهرة تتحول الى مواجهات دامية مع الشرطة. وخلال عامى ١٨٩٥ - ١٨٩٦، يعتبر اقليم زيتون، فى الشرق، فى حالة ثورة شبه دائمة. وفى اغسطس، يبلغ التوتر ذروته مع الهجوم الجسور الذى يشنه حزب الداشناق على مقر البنك العثمانى فى اسطنبول. فسجياً الى المساس بالنول الأوروبية فى مصالحها ودفعها الى التحرك تأييداً للارمن، يحتل عشرون مناضلاً المبني ويحتفظون بالموظفين كرهائن على مدار يوم كامل. ويؤدى الحادث الى اعمال انتقامية ضد الجالية الارمنية فى اسطنبول، دون تلبية مطالب الارهابيين.

والواقع ان اوروبا لا تتدخل. وبالرغم من قوة التيار المؤازر للأرمن، والذي يتصدره جلادستون، فإن الحكومة الانجليزية لا تتمكن من جر الدول الأخرى الى اجراء جماعى، وهى لا تملك امكانات التصرف بمفردها، كما يعترف بذلك ساليسبورى حين يقول انه لا يستطيع ارسال الاسطول البريطانى الى جبل آارات. أمّا روسيا، التى تمارس فى اواخر القرن سياسة ترويس وتضطهد أرمن روسيا، فهى تصبح جد مرتابة فى الحركة الارمنية التركية التى يحركها ثوريون واشتراكيون، كما تصبح جد مرتابة فى اية سياسة للاصلاح أو للحكم الذاتى يمكن الاضطلاع بها فى الاناضول الشرقية. وفيما يتعلق بفرنسا، حليفة روسيا، والدائنة للامبراطورية العثمانية التى توجد لها فيها مصالح اقتصادية وثقافية ضخمة، فإنها سوف ترى ان من الحكمة عدم التدخل.

ونتائج سنوات الاضطرابات والقلق الدامية هذه مهمة. فالحركة القومية الأرمنية تمر بأزمة عميقة. واختيار ايدىولوجية اشتراكية، واللجوء الى الارهاب والى العنف يبعدان عنها البورجوازية الأرمنية فى اسطنبول. وقد راهنت (الحركة) على عون اوروبا، ظناً منها أن بوسع اوروبا تحريك الحكومة العثمانية لحسابها. ولاشك ان اسوأ شىء هو ان الحركة القومية الأرمنية لم تكن موحدة، إلا خلال فترة قصيرة (١٨٩٠ - ١٨٩١)؛ فالحزبان الكبيران يظلان منقسمين لاعتبارات تتعلق بالاشخاص وبالاتباع بأكثر مما تتعلق بالايدىولوجية. ومنذ عام ١٨٩٦، يتخلى فصيل من الهينتشاق عن الاشتراكية لى يركز جهوده على التحرر القومى. ويعدل الثوريون الأرمن استراتيجيتهم. فهم يتحالفون مع المعارضة التى تمثلها جماعة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٢ وفى عام ١٩٠٧ لمحاولة اعادة العمل بالدستور.

وفيما يتعلق بعبدالحميد، فإنه قد نجح، ليس دون وحشية، فى اضعاف الحركة القومية الأرمنية. وعلى مدار بضع سنوات، لن تنشب بعد قلاقل كبرى على الهضبة الأرمنية. لكن مواجهات ١٨٩٤ - ١٨٩٦ تخلف جراحاً عميقة. فنحو ١٠٠٠٠٠

أرمنى ينزحون الى المنفى فى اتجاه عبر القوقاز أو امريكا. ومنذ ذلك الحين تفصل هوة من الريبة والعداوة بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق الاناضولى. واليكم مثلاً بين امثلة اخرى: إن احد الشيوخ الأكراد المسئولين عن قمع تمرد ساسون سوف يجرى استقباله، خلال مروره بديار بكر على طريق الحج الى مكة، استقبال الابطال من جانب السكان المسلمين فى المدينة.

ظهور المانيا على المسرح : سكة حديد بغداد

فى اكتوبر ١٨٩٨، يقوم غيلوم الثانى، امبراطور المانيا، بزيادة رسمية الى الامبراطورية العثمانية. وتلك هى المرة الثانية التى يقوم فيها برحلة الى اسطنبول، وهو يظل الرئيس الوحيد لدولة اوربية الذى يستقبله عبدالحميد. وبعد قضاء عدة ايام فى العاصمة، حيث يحتفى السلطان بالامبراطور وبالامبراطورة احتفاءً مهيباً، يزوران الارض المقدسة حيث يؤكد غيلوم صورته كمُدافع عن الكاثوليك والبروتستانت فى آن واحد. وبعد ذلك بأسبوع، فى دمشق، لاعباً على وتر الجامعة الاسلامية، يكفل لـ «الثلاثمائة مليون مسلم» الذين يحيون فى العالم حمايته التامة. وعلاوة على هذه الجوانب السياسية والدينية، فإن الزيارة الامبراطورية قد سبقها مجيئ وفد كبير من رجال الأعمال الألمان الى اسطنبول برئاسة مدير الدويتش بنك، فون سيمينز، الذى حصل من الباب (العالى) على تعاقدات مربحة. وقد تمت الموافقة على قيام الألمان بانشاء سكة حديد بغداد من حيث المبدأ.

ومن المؤكد ان رحلة غيلوم الثانى تمثل نقطة تحول فى العلاقات الألمانية-التركية و ، بشكل اعم، فى علاقات الامبراطورية العثمانية مع الدول الأوروبية. فبعد مشاريع تدخلها الفاشلة فى المسألة الأرمنية فى ١٨٩٥ - ١٨٩٦، تتحول انجلترا عن الامبراطورية العثمانية؛ فأمامها الكثير الذى يجب عليها عمله فى اماكن اخرى، فى مصر وفى السودان وفى افريقيا الجنوبية. أما روسيا، فإنها

تهمل المسائل البلقانية لكي توطد وجودها في الشرق الأقصى الذي يقربها منه انشاء خط سكة حديد سيبيريا. وتبدو الفرصة مؤاتية لألمانيا لكي توسع مصالحها السياسية والاقتصادية في الدولة العثمانية. وهي ألمانيا تتخبط بحزم، منذ تقاعد بسمارك وبدفع من غيلوم الثاني، في السياسة العالمية، وتبدأ في إبراز «وجودها السلمي» في افريقيا وفي امريكا اللاتينية وفي الشرق الأقصى.

والحق ان الوجود الألماني في الامبراطورية العثمانية في أواخر القرن ليس شيئاً جديداً. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بالفعل كان ضباط بروسيون يخدمون كمدرسين في الجيش العثماني، وكان من بينهم فون مولتكه الشهير. ونحو منتصف القرن، كان اقتصاديون المان، كروديبيرتوس أو روشير، قد حددوا آسيا الصغرى بوصفها مجال نشاط مثالي بالنسبة للمستثمرين الألمان. وفي ذلك العصر، كانت جالية المانية صغيرة قد استقرت في فلسطين، وكان مهندسون وفنيون المان قد جاعوا للمساعدة في تشييد خطوط السكك الحديدية الأولى.

ومنذ السنوات الأولى لعهد، فإن عبد الحميد، في بحثه عن بديل للسياسة التقليدية المتمثلة في الاعتماد على إنجلترا، قد فكر في ألمانيا. وقد جرى تقديم عروض الى بسمارك. وكان هذا الأخير آنذاك حكم أوروبا. فالجيش الألماني يتمتع بهيبة ضخمة منذ سادوا وسيدان. ولا يبدو ان ألمانيا تكن اطماعاً اقليمية في الامبراطورية؛ وهي تبدو بوصفها الشريك المثالي لتطوير الامبراطورية دون تهديد وحدتها ولتنويع المصالح الأوروبية في آسيا الصغرى. على ان بسمارك يبدو جد متحفظ تجاه العروض العثمانية، ولا تستجيب ألمانيا على الفور لتوقعات السلطان. إلا انه لا بد من الإشارة مع ذلك الى ارسال بعثة من الضباط الألمان الى تركيا في عام ١٨٨٢، واتفاق مجموعة المانية في عام ١٨٨٩ على انشاء سكك حديدية حتى انقره وقونية، وتوقيع معاهدة تجارية المانية - تركية في عام ١٨٩٠. والواقع ان زيارة غيلوم الثاني في عام ١٨٩٨ سوف تعطي هذه الأنشطة دفعة جديدة واتساعاً

جديداً. ومنذ ذلك الحين يعتبر التحالف مع المانيا اداة رئيسية للديبلوماسية ولاستراتيجية تطوير الدولة العثمانية.

ويتجلى ثقل المانيا فى الامبراطورية العثمانية فى عصر عبدالحميد على عدد معين من المستويات: ففى التجارة العثمانية، كانت حصة المانيا بنسبة ٢٪ فى عام ١٨٧٨، وسوف تنتقل الى نسبة ١٢٪ بالنسبة للواردات والى نسبة ٧٪ بالنسبة للصادرات فى عام ١٩١٤. وفيما يتعلق بتصدير الرساميل، فإن التقدم يعتبر مثيراً. فالمانيا تختص بنسبة ٧.٥٪ من الدين العام العثمانى فى عام ١٨٨١، وهذه النسبة ترتفع الى ١٥٪ فى عام ١٨٩٨ لتصل الى ٢١٪ عشية الحرب العالمية الاولى. وفى العصر نفسه، تمثل حصة الرساميل الالمانية فى الاستثمارات الاجنبية نسبة ٢٣.٢٪. كما تنشئ المانيا خطوط ملاحية مع الشرق الأدنى، كالخط المشرقى الالمانى، وتطور علاقاتها المصرفية، دون نسيان المؤسسات الدينية والثقافية. إلا انه لا يجب المبالغة فى تقدير ثقل هذه المصالح فى الامبراطورية العثمانية. فعلى المستوى التجارى، تظل المانيا خلف بريطانيا العظمى بمسافة بعيدة، وفيما يتعلق بمستوى الرساميل، تظل خلف فرنسا بمسافة بعيدة. كما انها، فى المجال الثقافى، لا تستطيع مزاحمة النفوذ الفرنسى. إلا انه حتى اذا كان التغفل الالمانى فى الاراضى العثمانية غير حاسم، فإنه جد سريع، وقد قلب التوازنات فى الشرق الأدنى. وذلك بوجه خاص فى قطاعين، الجيش والسكك الحديدية.

وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان الجيش العثمانى يأخذ عتاده وأساليبه من بلدان اوروبية مختلفة، بريطانيا العظمى، فرنسا، بروسيا، الخ. وفى عهد عبدالحميد، تميل المانيا غيلوم الثانى الى اكتساب نوع من الاحتكار فى الجيش العثمانى: فهى تكفل إعداد الضباط الاتراك، وتقدم المدربين العسكريين، وتسليح الجيش بالاسلحة والذخيرة. بل انها تلهم هيئة الاركان العثمانية باستراتيجيتها، وهى استراتيجية «بروسية»، «قارية»، تشدد على القيمة «الاقليمية»

للامبراطورية العثمانية بأكثر مما تشدد على ابعادها البحرية.^(٩) ومن جراء ذلك، فإن الجيش البرى العثمانى سوف يكون موضع اهتمام اكثر بكثير من البحرية؛ سفن حربية متأكلة على ارصفة الموانىء: ذلك هو المظهر، الكاريكاتورى الى حد ما، الذى سوف يبدو فيه الاسطول نحو اواخر عهد عبدالحميد. وأياً كان الأمر، فإن ما نشهده هو نوع من «ألمنة» الجيش العثمانى.

ويرجع الدور الرئيسى فى هذا المجال الى بعثة الضباط الالمان التى ارسلت الى تركيا فى عام ١٨٨٢، خاصة عندما يرأسها كولمار فون دير جولتز، اعتباراً من عام ١٨٨٥. ويلعب الضباط الالمان دور المدربين العسكريين، ويبثون فى تلامذتهم حساً وطنياً بالغ الحيوية، وبوجه خاص، يحتلون مكانة استراتيجية تمكنهم من توجيه طلبات الاسلحة الى الصناعة الالمانية. فالجيش العثمانى يتسلح تدريجياً ببنادق موزر وبمدافع كروب، وذلك بشكل ممتاز بحيث ان المانيا، فى سوق الاسلحة العثمانية، التى يجد الفرنسيون والانجليز انفسهم مبعدين عنها، تنتهى الى التمتع بمركز احتكارى اعتباراً من عام ١٨٩٩. وسوف تظهر الآثار الأولى لوجود ضباط المان فى الجيش العثمانى خلال حرب ١٨٩٧ ضد اليونان. واعتباراً من اواخر القرن، تتمتع المانيا بتعاطف عظيم داخل الرأى العام العثمانى. فالعثمانيون يثقون فى ان المانيا، خلافاً للدول الأخرى، تدافع عن وحدة الامبراطورية. وينتشر فى صفوف الشبيبة اعجاب دائم بـ «الفن العسكرى الالمانى»، بالعلم الالمانى.

لكن «الشأن» الالمانى الكبير فى عصر عبدالحميد هو سكة حديد بغداد. وكان مشروع ربط اسطنبول بالخليج الفارسى عن طريق خط للسكك الحديدية مشروعاً قديماً بالفعل فرض نفسه على القادة العثمانيين بعد عام ١٨٧٨، فى لحظة اصبحت فيها الامبراطورية «أسيوية» اكثر. وسوف يعد الانجليز والالمان سلسلة من المشاريع المتنافسة، لكن الالمان سوف يسجلون نقاط الفوز الأولى عندما يحصلون فى عام ١٨٨٨ على امتياز انشاء خط سكة حديد ازميت - انقره، ومع تأسيس شركة سكة حديد الأناضول فى السنة التالية.

فكيف جرى النظر من الجانب العثماني الى انشاء مثل هذا الخط؟ بوجه عام، كان عبدالحميد مؤيداً لتطوير وسائل حديثة للمواصلات في الامبراطورية. وانشاء خط للسكك الحديدية يجتاز الاناضول لأول مرة يعتبر مهماً بالدرجة الأولى على المستوى العسكري. وقد اشارت العمليات ضد اليونان في عام ١٨٩٧ الى دور السكك الحديدية في الاستراتيجية العسكرية: فمن المؤكد ان قدرة السلطان على تحريك قواته بسرعة لمواجهة انتفاضة بعيدة ايضاً كانت من بين شواغله الرئيسية. كما انه وسيلة لتدعيم سلطته السياسية على الاقاليم التي يجتازها الخط، اي انه اداة لسياسة المركزة. وكما قال المارشال فون بيبريشتاين، سفير المانيا لدى اسطنبول : «باحساسه البالغ القوة بسلطته، يدرك السلطان ان قوته، في امبراطوريته الشاسعة، تنقلص من جراء بعد العاصمة وأنه لا يوجد غير علاج وحيد لذلك، هو جعل الاقاليم البعيدة قريبة من العاصمة عن طريق وسائل المواصلات».

وعلاوة على هذه الاعتبارات العسكرية والسياسية، فإن الاعتبارات الاقتصادية تحتل مكانة كبيرة. وفي حين ان خطوط السكك الحديدية الأولى قد اقتصررت على ربط الموانئ الكبرى بمناطقها الداخلية، على غرار السكك الحديدية الكولونيلية، فإن سكة حديد بغداد من شأنها ان تفتح البلد كله امام التقدم الاقتصادي. وسوف يكون بالامكان، مع توطين المهاجرين على طول الخط، فلاحه الاقاليم التي يمر بها، وري الاقاليم الجافة، وتنمية الحاصلات التصديرية وتشجيع زراعة القمح على الهضبة الاناضولية لإمداد اسطنبول بالحبوب. إلا أن من الحق القول بأنه قد جرى الاعراب بين صفوف الطبقة الحاكمة العثمانية عن شكوك تجاه الأهمية الاقتصادية لمثل هذا المشروع.

وتبقى مسألة التمويل. فاللجوء الى رأس المال الاجنبي هو وحده الممكن. ولكن من الذي سوف يقدم رأس المال الضروري؟ ان عبدالحميد لا يثق في انجلترا التي

يشتبّه في أنها تريد ربط مصر بالهند. وتسليم سكة حديد بغداد لها إنما يعنى بشكل ما مساعدتها على تحقيق مخططاتها. كما ينزعج السلطان من الأطماع الفرنسية في سوريا ولبنان. ويبدو أن المانيا تقدم الحل الأمثل أكان ذلك على المستوى السياسى أم على المستوى الفنى. وبالنسبة للخطوط حتى انقره وقونيه، فإن الالمان قد أدوا الأعمال بسرعة مثيرة. لكن اختيار المانيا يقابل بأشكال من المقاومة. ففي حاشية السلطان، يوجد انصار لانجلترا مثل محمود باشا داماد أو سعيد باشا، إلا أنه يبدو ان السلطان قد وضع ثقله شخصياً في الميزان لصالح المانيا.

وطالما لم يتجاوز الخط الاناضول، فإن المسألة لا تثير الكثير من المصاعب، وإن كانت روسيا تشعر انها مهددة في مشاريعها التجارية في الاناضول وفي ايران. وسوف تتعقد الأمور في الأعوام الأخيرة للقرن، عندما تصبح المسألة مسألة مد للخط في اتجاه الخليج الفارسى. وسوف تؤدي الامتيازات الممنوحة للالمان في عام ١٨٩٩ وفي عام ١٩٠٣ الى اثاره مشكلات دبلوماسية عديدة بين الدول بشأن المشاركة المالية ومناطق النفوذ. والمسألة التي تواجه فرنسا وانجلترا هي معرفة ما اذا كان يجب الاشتراك في مشروع يبدو مربحاً باختزال لونه الألمانى أو ، على العكس، الامتناع عن اى تعاون مع رأس المال الألمانى الذى ينذر بأن يكون غير كاف، ومن ثم محاولة عرقلة تحقيق المشروع. وسوف يختار الفرنسيون التعاون : فهم يشاركون بنسبة ٣٠٪ في رأس مال شركة سكة حديد بغداد التى تتأسس في عام ١٩٠٣. وقد حصلت الشركة على حق استغلال الغابات والمناجم والمهاجر على طول خط السكة الحديدية، بل وحصلت على حق الاضطلاع بعمليات تنقيب عن الآثار! وكان بالامكان الحديث عن حق عن «ممر» المانى حقيقى في الامبراطورية العثمانية.(١٠)

فهل حققت النتائج توقعات السلطان والقادة العثمانيين؟ فى عام ١٩٠٨، من السابق لأوانه دون شك اصدار حكم لأن الاعمال تتقدم ببطء ، كما أنه لا توجد غير

وصلات لا تتميز بارتباط جيد فيما بينها. إلا أن مهاجرين من البلقان أو من روسيا قد حازوا بالفعل مساحات على طول الخط، وتم كسب أرض جديدة وصار سهل قونية مرويا، وتقدمت زراعة القطن في سهل أضنه. لكن الخط يكلف الدولة العثمانية ثمناً باهظاً بحكم الضمان الكيلومتري الذي قدمته للشركة عن كل كيلو متر يجرى تشييده من الخط والذي تعين عليها ربط عشر الولايات التي يمر بها للوفاء به. وإذا كان تشييد خط السكة الحديدية واستثماره قد خلقا فرصاً للعمل، فإنهما قد أثارا أيضاً مشكلات اجتماعية وتوترات بين عمال السكك الحديدية الاتراك المسلمين والملاحظين اليونانيين والأرمن. ومنذ عام ١٩٠٧، تنشب القلاقل على طول الخط، وتبلغ ذروتها مع اضطراب اغسطس ١٩٠٨.

وعلى المستوى الدبلوماسي، فإن عبد الحميد قد سعى، من خلال تعزيز المصالح الألمانية في قلب الامبراطورية نفسه، الى تحييد الروس والانجليز والى الحيلولة دون تمزيق الامبراطورية. والواقع أن انشاء سكة حديد بغداد قد اثار تنافسات، لكنه قاد ايضاً الى تفاهات بين الدول الامبريالية. وقد اتاح مجالاً لاقتسام، غير مستقر بعد، لمناطق نفوذ محجوزة الى هذا الحد أو ذاك. وهكذا، فبموجب الاتفاق المسمى باتفاق البحر الأسود، تحصل روسيا على الاعتراف لها وحدها بحق تشييد سكة حديدية في شمال - شرقي الاناضول. أما الفرنسيون، فإنهم يطالبون بنوع من الاحتكار الفعلي للشبكة السورية؛ فبين عامي ١٨٩٢ و ١٩٠٢، يقومون، تدفعهم الى ذلك المشاريع الألمانية، بمد ٧٠٠ كيلو مترا من خطوط السكك الحديدية. ومن جهة اخرى، فإن التغفل الألماني في الامبراطورية العثمانية يعتبر أحد العوامل التي تسهم في تقارب انجلو - روسي يرتسم منذ أواخر عهد عبد الحميد، ويبدو جد خطير بالنسبة لبقاء الامبراطورية.

مولد معارضة : جماعة تركيا الفتاة

في شهر فبراير ١٩٠٢ اجتمع في باريس خمسون من المعارضين لسياسة عبد الحميد في مؤتمر الليبراليين العثمانيين، ساد عُرْفُ تسميته بـ «المؤتمر الأول

لجماعة تركيا الفتاة». والحال ان هؤلاء الليبراليين، الذين تجمع بينهم كراهية مشتركة للاستبداد الحميدى، ينتمون الى اصول جد متباينة : فالأتراك والعرب والألبانيون والأكراد والأرمن يتراصون كتفاً لكتف، بما يقدم صورة مصغرة لهيكل الامبراطورية المتعدد الأعراق. ويمثل هذا المؤتمر محاولة اولى لتنظيم وتوحيد جماعات المعارضين الذين افلتوا من سلطة السلطان الشخصية ومن الرقابة ومن القمع ضد الأرمن ولجأوا الى مصر والبلقان وأوروبا. وفى اعلان مشترك، يندد مندوبو المؤتمر بالاستبداد ويدعون الى المساواة بين جميع مواطنى الامبراطورية؛ ويؤكدون أن اهدافهم تتمثل فى تأمين الوحدة الاقليمية للامبراطورية واستعادة السلم والنظام الداخلى واعادة العمل بدستور عام ١٨٧٦.

والواقع أن حركة تركيا الفتاة قد ولدت فى عام ١٨٨٩، عام الذكرى المئوية للثورة الفرنسية. ذلك ان عدداً من طلاب مدرسة الطب العسكرى فى اسطنبول يشكلون جماعة سرية معارضة لنظام عبدالحميد، يسمونها لجنة الاتحاد العثمانى وتنظم الجماعة نفسها فى خلايا على غرار الكاربونارى أو ربما على غرار العدميين الروس. وبين صفوف اوائل المنتمين اليها يبرز عرب مسيحيون وألبانيون وأكراد وأتراك. وخلال الاجتماعات يجرى الحديث عن الثورة الفرنسية وتلى قصائد نامق كمال ويجرى تحليل الوضع فى الامبراطورية. ولما كان الطلاب المنتمون الى حركة تركيا الفتاة لا يملكون غير خبرة قليلة، فإنهم يطمحون الى تطبيق الأفكار التى تعلموها على مقاعد المدرسة. ومن المهم ملاحظة ان الحركة تولد داخل مدرسة الطب العسكرى: فالواقع ان الفن العسكرى والطب يمثلان قطاعين من قطاعات الدولة جرى الاضطلاع فيهما باصلاحات تحديث منذ القرن الثامن عشر وكانا، بحكم هذا الواقع، متقدمين على بقية المجتمع فى أغلب الاحيان. وهؤلاء الطلاب، الذين سوف يصبحون ضباطاً فى المستقبل، تحركهم نزعة وطنية متحمسة تتحرق لخدمة انقاذ الامبراطورية؛ ومن حيث انهم سوف يصبحون اطباء فى المستقبل، فإنهم قادرون على تشخيص العلل التى تشكو منها وعلى محاولة ايجاد العلاج.

وفى مجمل تاريخ حركة تركيا الفتاة، فإن الضباط والأطباء سوف يلعبون دوراً من الدرجة الأولى.

وبعد بدايات متواضعة، سوف تنتشر اللجنة فى الامبراطورية، أولاً بين صفوف طلاب المدارس العليا فى العاصمة : الأكاديمية الحربية، مدرسة الطب البيطرى، مدرسة الادارة ، الأكاديمية البحرية، الخ. لكنها تجند اعضاء ايضاً من بين صفوف الضباط العاملين بالفعل فى الجيش ومن بين صفوف العلماء، والشواهد عديدة على المناخ قبل الثورى الذين يهيمن فى هذه المدارس، حيث تتزايد اعمال العصيان وحيث يهتف الطلاب بملء حريتهم «يحيا الدستور» بدلاً من «يحيا السلطان». ولما كانوا منحدرين غالباً من الطبقات الوسطى فى الولايات، فإنهم يشعرون انهم لن يتوصلوا الى فرض انفسهم فى وجه السلطات القائمة، أياً كانت جدارتهم وبصرف النظر عن نجاحهم فى الامتحانات.

كما تنتشر حركة تركيا الفتاة خارج الامبراطورية، بين صفوف المنفيين العديدين الذين اضطروا الى الهرب من الرقابة أو من الإبعاد الى احدى مدن الولايات البعيدة. وهكذا توجد نوى تتشكل فى القاهرة وفى رومانيا وفى لندن، وبوجه خاص فى باريس وفى جنيف. والواقع انه لا توجد حركة تركية - فتية، بل نوع من السديم الذى يشمل جماعات صغيرة معزولة احداها عن الأخرى ومنظمة الى هذا الحد أو ذاك حول احدى الصحف أو احدى الشخصيات. وفى عام ١٨٩٥، يبدأ مثقفان تركيان - فتيان فى البروز كزعيمين للمعارضة فى المنفى، احمد رضا (١٨٥٩ - ١٩٣٠) ومراد ميزانچى (١٨٥٣ - ١٩١٢). وكان الأول، وهو تلميذ سابق فى ليسيه جالاتا سراى، قد أجرى دراسات فى الزراعة فى فرنسا قبل ان يصبح مدير التعليم العام فى ولاية بورصا. وبسبب الاحباط العميق الذى انتابه من جراء استحالة تطبيق افكاره، فإنه يرحل للإقامة فى فرنسا فى عام ١٨٨٩. واذ يصبح نصيراً متحمساً لمذهب اوغوست كونت، فإنه ينتقل الى

المعارضة العلنية للنظام الحميدى فى عام ١٨٩٥ وينشر فى باريس صحيفة «مشوره»، وهى صحيفة تحمل على رأسها تاريخ التقويم الوضعى وشعار «النظام والترقى». أما فيما يتعلق بمراد، فإنه ينحدر من القوقاز؛ وقد أجرى جميع دراساته فى روسيا قبل أن ينزح الى تركيا فى عام ١٨٧٣ حيث صار استاذاً للتاريخ فى مدرسة الادارة (الملكية). وهذا الرئيس لتحرير صحيفة حازت نجاحاً واسعاً، هى صحيفة «ميزان»، يضطر الى الرحيل فى عام ١٨٩٥ الى القاهرة حيث يستأنف اصدار «ميزان». وقد تمتع مراد بشعبية واسعة وسط صفوف الأوساط العثمانية فى المنفى. ولما كان قد ركز انتقاداته على حاشية عبدالحميد وأولى مكانة كبرى للقيم الاسلامية، فإنه يظهر بوصفه معارضاً أكثر اعتدالاً من أحمد رضا.

وتتميز سنوات ١٨٩٥ - ١٨٩٧ بتطور سريع لأنشطة جماعة تركيا الفتاة فى داخل الامبراطورية وخارجها. وفى أوروبا، نجد ان الرأى العام، جد المتصاعد ضد عبدالحميد بسبب سياسته القمعية ضد الأرمن، يؤيد المعارضة التى تمثلها حركة تركيا الفتاة. وتنجح الأدبيات الثورية المنشورة فى باريس أو فى جنيف، الصحف والكتيبات والكراسات، فى التغلغل فى الامبراطورية، بفضل مكاتب البريد الاجنبية خاصة. وفى الامبراطورية نفسها يجرى سراً توزيع اوراق ساخرة تتهم على السلطان أو قصائد، كقصيدة الشاعر الكبير توفيق فكرت التى يتحدث فيها عن «الضباب» الذى يخيم على اسطنبول، رمز الاستبداد الحميدى.

وتبدأ تطورات المعارضة هذه فى ازعاج عبدالحميد. فصورته فى الخارج تهدد بأن تصاب بالتلوث الخطير من جراء الدعاية المنتشرة عبر أوراق حركة تركيا الفتاة. واعتباراً من عام ١٨٩٦، يبذل السلطان قصارى جهده من أجل سد طريق المعارضة من الخارج : فأولاً، تجرى ممارسة ضغوط من جانب السفراء العثمانيين على الحكومات المتهمه بحماية أنشطة جماعة تركيا الفتاة (فرنسا، سويسرا، بلجيكا)، ثم يجرى ارسال جواسيس، كرئيس شرطة السلطان السرية، احمد جلال

الدين باشا، الذى يحاول إحداث انقسام بين صفوف المنشقين، لكن الوسيلة الأكثر فعالية تتمثل فى عرض مناصب وهبات على المعارضين: وأولئك الذين يشعرون انهم مستبعدون من المجالات القيادية العثمانية لن يعترضوا على مثل هذه العروض! وتثبت الحسابات جدواها : فعن طريق تحول مثير، يصل الى حد الخيانة، يرجع مراد الى تركيا فى عام ١٨٩٧، ويعمل كثيرون آخرون فى السفارات، الأمر الذى يلحق بحركة تركيا الفتاة عاراً جسيماً. ومن جهة أخرى، فى اسطنبول، تكتشف الشرطة مؤامرة فى الأكاديمية الحربية. وينزل القمع بالطلاب الضباط المنتمين الى حركة تركيا الفتاة، ويجرى نفى نحو مائة منهم الى طرابلس الغرب. وهكذا، وفى عام ١٨٩٧، ينجح السلطان فى اخماد صوت المعارضة. وفى السنة السابقة، كان قد اخمد التمرد الأرمنى، وفى السنة نفسها، ألحقت جيوشه الهزيمة باليونانيين فى ثيساليا. وفى عام ١٨٩٨، سوف تحمل له زيارة غيلوم الثانى ضماناً دولة اوروبية عظمى. ومما لا جدال فيه ان الأعوام الأخيرة من القرن تمثل أوج عهد عبدالحميد.

على ان المعارضة لن تتأخر فى الانبعاث من جديد. وفى عام ١٨٩٩، يحصل المنتمون القلائل الى حركة تركيا الفتاة المثابرون على النضال فى اوروبا على دعم غير متوقع فى شخص صهر عبدالحميد، محمود باشا داماد وابنيه صباح الدين ولطف الله. وبالنسبة للسلطان يعتبر ذلك ضربة قاسية؛ فذلك يعنى ان المعارضة تجند اعضاء لها من داخل القصر نفسه! والواقع ان محمود باشا داماد كان قد دخل فى خلاف مع السلطان حول مسألة منح امتياز سكة حديد بغداد لألمانيا؛ فهو يفضل انجلترا، إلا انه لعجزه عن اقناع السلطان يقرر الرحيل الى المنفى مع ابنه والانضمام الى معسكر المعارضة. واذا كان لا يشارك شخصياً فى أنشطة حركة تركيا الفتاة، فإنه يساند الحركة، وخاصة نشر واحدة من اهم صحف المعارضة، وهى صحيفة «عثمانلى»، فى انجلترا، فى لندن أولاً ثم فى فولكستون. والحال أن واقع استضافة انجلترا آنذاك للمنتمين الى حركة تركيا الفتاة ليس دون معنى: فالحكومة الانجليزية، المستاعة من فشلها فى مسألة «بغداد»، تبدو فجأة مفعمة بالنوايا الطيبة تجاه خصوم النظام.

وفى باريس، التى تظل برغم كل شىء مركز أنشطة حركة تركيا الفتاة، انعقد مؤتمر ١٩٠٢. والواقع ان المؤتمر الذى انعقد بمبادرة من ابنى محمود باشا داماد من اجل توحيد حركة تركيا الفتاة إنما يكرس انقسامها. فإذا كان جميع المندوبين يتفقون على ضرورة جر الجيش الى تغيير سياسى لا يمكن للدعاية وحدها ان تحلم بتحقيقه، فإنهم يختلفون على مسألة تدخل أوروبا للتوصل الى إعادة العمل بالدستور. والحال ان اللجوء الى الدول الأوروبية (المقصود بالطبع فرنسا وانجلترا) هو ما يدعو اليه المندوبون غير الأتراك، خاصة الأرمن، وصباح الدين وأصدقائه. وسوف يعارض احمد رضا وأنصاره ذلك بشراسة، إذ يرون أن ذلك ينطوى على خطر جسيم بالنسبة للامبراطورية، لكنهم، إذ يجرى اختزالهم الى أقلية، سوف يرفضون الإنصياح لرأى الأغلبية. ومنذ ذلك الحين تنقسم حركة تركيا الفتاة الى فصيلين، فصيل صباح الدين وفصيل احمد رضا.

والحال أن الامير صباح الدين (١٨٧٧ - ١٩٤٨)، المولود فى السراى، والمنفى الى أوروبا فى الثانية والعشرين من عمره، ليس على دراية جيدة بمجريات الأمور الواقعية فى تركيا. ويرى صباح الدين، خلافاً لكثيرين من المنتمين الى حركة تركيا الفتاة، بسبب تأثره الشديد فى فرنسا بعلم الاجتماع، انه لا يمكن الاكتفاء بانهاء استبداد عبدالحميد، بل يجب البحث عن الأسباب الاجتماعية التى جعلته ممكناً. ولما كان معجباً بلو پلاى، فقد تبنى افكار احد اتباعه، ادمون ديمولان. فهذا الأخير، فى بحثه عن اسباب تفوق الأنجلو- ساكسون، يقابل بين المجتمعات التى تعلو من شأن الفرد، كالمجتمع الانجليزى، والمؤهلة بشكل خاص لاحراز التقدم، والمجتمعات التى تعلو من شأن الجماعة، والمحكوم عليها بالركود. وهو تمييز يقود صباح الدين الى رد تخلف المجتمع العثمانى الى جانبه الذى يعلى من شأن الجماعة. ومن ثم فإنه يتوجب بذل جهد انمائى، بفضل التعليم، للمبادرة الخاصة وتدشين اصلاح سياسى يستند الى اللامركزية. وهذه الفكرة الاخيرة هى التى عادت على صباح الدين بتعاطفات غير المسلمين، خاصة الأرمن. ولترويج افكاره،

ينشئ الأمير، في باريس في عام ١٩٠٦، صحيفة، هي صحيفة «ترقي»، وجمعية، هي رابطة المبادرة الخاصة واللامركزية.

وفي وجه هذه الليبرالية اللامركزية، يدعو احمد رضا الى فكرة مركزية سلطوية. ولا رتيابه في اوروبا وفي الأقليات المسيحية في الامبراطورية، فإنه يرى ان النظام اللامركزي من شأنه ان يكون مقدمة لتمزيق الامبراطورية، وأن منح الحكم الذاتي للقوميات يساوي خيانة حقيقية. ولما كانت تهيمن عليه فكرتان، اعادة العمل بالدستور والحفاظ على الوحدة الاقليمية للامبراطورية، فإنه يرى أيضاً ان العنصر التركي هو العنصر الذي يجب الاستناد اليه لضمان بقاء الدولة وتحقيق الرقي لها.

وتتمثل احدى المشكلات الاساسية التي تواجه المنتمين الى حركة تركيا الفتاة في الانتقال الى الفعل: إذ كيف يمكن لحفنة من المنفيين الذين لا يتمتعون إلا بامكانات مادية قليلة والبعيدين عن تركيا تغيير النظام واعادة العمل بالدستور؟ اللجوء الى اوروبا؟ لقد رأينا ان هذه الدعوة لا تتمتع بالاجماع بين صفوف المعارضين. العنف والارهاب؟ حول هذه النقطة ايضاً، لم يكونوا على اتفاق. وقد مال صباح الدين في احدى اللحظات الى هذا الحل، لكن المحاولة التي اشرف عليها في عام ١٩٠٣، بدعم من بريطانيا العظمى الى هذا الحد أو ذاك، تنتهي فجأة. اما احمد رضا، الأكثر ميلاً الى السبل الشرعية، فإنه يرفض الاتجاه الى اساليب العدميين الروس. ويبقى الجيش. وحول هذه النقطة، يسود الاتفاق بين المنتمين الى حركة تركيا الفتاة: فمن الضروري كسبه الى صف القضية الثورية. وفي عام ١٩٠٦، يصدر احمد رضا في القاهرة كتيباً عن هذا الموضوع، تحت عنوان : «الواجب والمسئولية: الجندى». وهو يفسر فيه الدور الذي يتعين على الجيش لعبه في الدفاع عن الامبراطورية العثمانية وفي تقدمها. فقد تغير هذا الدور، وانتقل من الفتح الى الدفاع عن البلاد، من الغزو الى الوطنية. ولما كان

الضباط هم أكثر عناصر الأمة تأهيلاً ووطنية، فإنه يتعين عليهم توجيه الحياة السياسية للبلاد. وبوجه خاص، في وجه الاستبداد الحميدى الذى يقود الامبراطورية الى ضياعها، يدعو احمد رضا النخبة العسكرية الى تولى واجبها الثورى. وفي اصداره لهذا الكتيب، يترجم احمد رضا ظاهرة كانت بسبيلها الى التحقق : حلول الضباط الأتراك محل حركة تركيا الفتاة التى تمارس المعارضة فى المنفى.

نحو الثورة

اعتباراً من ١٩٠٥ - ١٩٠٦ ، يبدو تاريخ الامبراطورية العثمانية متسارعاً فجأة. وتجد سلسلة من الأحداث الخارجية صدى عميقاً فى تركيا. وبإحدى ذى بدء، فإن انتصار اليابان العسكرى، فى عام ١٩٠٥، على امبراطورية القياصرة هو الذى يستثير، كما فى كل آسيا، فرحة غامرة فى صفوف جميع فئات السكان العثمانيين: فقد تعرض العدو التقليدى للهوان والهزيمة ونجحت أمة أسيوية فى كبح جماح دولة اوربية. والليبراليون والوطنيون العثمانيون يجدون سبباً آخر للفرح : فالانتصار يعود الى دولة دستورية، اليابان، فى حين ان الهزيمة قد زعزعت الاوتوقراطية الروسية زعزعة شديدة بحيث انها تضطر الى التنازل وتقديم دستور وعقد برلمان، هو مجلس الدوما. وفى السنة التالية، يقدم انشاء نظام حكم دستورى فى ايران بشكل ما برهاناً اضافياً على أن أيام النظم الاستبدادية قد اصبحت منذ ذلك الحين معدودة وأن حركة تركيا الفتاة تعمل تماماً فى الاتجاه الذى يتحرك فيه التاريخ.

وفى الوقت نفسه، فإن الوضع الداخلى يزداد احتداداً. ففي عام ١٩٠٥، يحاول فدائى ارمنى اغتيال السلطان. ويتجدد التمرد فى الاناضول الشرقية. وبوجه خاص، فإن المشكلة المقدونية تصبح فى مأزق بشكل أكثر احتداداً من ذى

قبل. ومنذ أحداث ١٩٠٢ - ١٩٠٣ الدامية، تشدد الدول الأوروبية ضغطها على الحكومة العثمانية. وفي عام ١٩٠٤، يجرى ارسال جندرمة دولية الى مقدونيا، تتألف من روس ونمساويين وفرنسيين وإيطاليين وإنجليز. وهي مكلفة بالحفاظ على النظام الى جانب الجيش العثماني. وبشكل متزايد، تتيح أحداث مقدونيا للدول الأوروبية فرصة ممارسة سياسة البوارج. ففي عام ١٩٠٣، ترسل روسيا عدداً من السفن الحربية للاحتجاج على اغتيال اثنين من قناصلها؛ وفي السنة نفسها، يقوم النمساويون والإيطاليون بمظاهرة بحرية في خليج سالونيك. وفي عام ١٩٠٥، تقترح الدول الخمس (تمتنع ألمانيا عن الاشتراك في هذه التحركات المشتركة) نظاماً للرقابة المالية على الولايات المقدونية من خلال البنك العثماني وفروعه. وأمام رفض السلطان الانصياع لقرارات اللجنة الدولية للشئون المالية، يجرى احتلال الجمارك ومكاتب البريد في جزر ميتيلين وليمنوس، ويضطر السلطان الى التراجع.

والحال أن عجز الحكومة الحميدية عن حل المشكلة المقدونية وعن صد الدول الأوروبية قد قوبل بالاستياء بوجه خاص من جانب الضباط الاتراك المكلفين بقمع القلاقل في البلقان. وبالنسبة لهم، فإن انتفاضة ١٩٠٣ تشكل نقطة تحول. فهؤلاء الشبان الذين تخرجوا من الأكاديمية الحربية، حيث كانوا بوجه عام على اتصال بالأفكار الليبرالية، قد وجدوا أنفسهم في مقدونيا يحاربون حركات قومية لحساب طاغية. وهكذا، فبالنسبة لكثيرين، سوف تكون مقدونيا نوعاً من مختبر للفكرة القومية. ومن جهة أخرى، قياساً الى الجندرمة الدولية، فإنهم لا يمكنهم إلا أن يرصدوا هزال امكاناتهم. والضباط يحصلون على رواتب بائسة، غالباً ما يتأخر تسليمها تأخراً كثيراً، من جانب خزانة لا يمكنها أن تدفع غير رواتب ستة اشهر في السنة. لكن السخط في الجيش يمتد كثيراً الى ما وراء مقدونيا. وهكذا، ففي دمشق، تؤسس جماعة من الضباط الشبان في عام ١٩٠٦ جمعية سرية، هي لجنة الوطن والحرية. ومن بين صفوفهم نجد ان ملازماً شاباً غير معروف بعد، هو مصطفى كمال، الحديث التخرج من الأكاديمية الحربية، سوف يتجه الى انشاء صلات مع اوساط المعارضين في مدينة سالونيك التي جاء هو نفسه منها.

والواقع أن سالونيك تتيح مجالاً ملائماً لنشر الأفكار الثورية. فقد أصبحت عاصمة مقدونيا إحدى أحدث مدن الامبراطورية، فهي ميناء ضخم مفتوح على أوروبا، توجد فيه بورجوازية تجارية ثرية وقطاع ثالث جد متطور بالفعل. ولما كانت سالونيك مدينة تتميز بتنوع عرقي واسع حيث يهيمن العنصر اليهودي، الذي يمثل نسبة ٤٠٪ من السكان، فإنها تصبح ساحة منافسة مدرسية جد حيوية بين الجماعات المختلفة. ويحتل اليهود القمة بفضل مدارس التحالف الاسرائيلي العالمي، لكن التعليم المدرسي قوى ايضاً لدى اليونانيين والبلغاريين والأتراك. وقد أسهم التوسع الاقتصادي للمدينة في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر في حدوث تمايز بين صفوف الجماعة المسلمة حيث يهيمن التجار والبيروقراطيون.

وفي هذا السياق تتأسس في أغسطس ١٩٠٦ اللجنة العثمانية للحرية. وهي تضم في البداية عشرة اعضاء، يبرز بينهم المناضلون الذين سوف يلعبون دوراً هاماً في حركة تركيا الفتاة بعد عام ١٩٠٨، مثل طلعت، الذي كان يعمل آنذاك في ادارة مكاتب بريد سالونيك. والحال أن اللجنة المنظمة في خلايا سوف تباشر جهداً تجنيدياً سريعاً في المجتمع المقدوني. ويتألف المناضلون من ضباط أو من موظفين، شبان في غالبيتهم، تخرجوا غالباً من المدارس العليا، ويتمسكون بأفكار الحرية والترقي. وقياساً الى النواة الأولى لحركة تركيا الفتاة لعام ١٨٨٩، فإن الاختلافات تعتبر هامة : فمناضلو مقدونيا ليسوا بعد طلاباً بل رجال ميدان عمل. والعنصر التركي سائد بينهم الى حد بعيد منذ ذلك الحين. والجماعة أكثر تجانساً من الناحية الاجتماعية : فليس فيها بعد باشاوات في قطيعة مع القصر، بل اعضاء من الطبقة المتوسطة المسلمة متحرقون الى تحديث الامبراطورية. وكلهم يعارضون بشراسة تدخل أوروبا. وبشكل أكثر من كونهم ليبراليين، فإنهم وطنيون عازمون على انقاذ الامبراطورية.

ويتميز تطور اللجنة في الوسط المقدوني بالسرعة الشديدة. وذلك أولاً من خلال الضباط الذين يشكلون خلايا في مدن الحاميات كموناستير وسكوتاري وسيريس.

كما يبدو أن بعض الطرق الشعبية ، كالبكتاشية والميلاميه قد لعبت دوراً في نشر الأفكار الثورية بقدر ما ان تكايتها كانت اماكن اجتماع للمثقفين الشبان. لكن المحافل الماسونية في سالونيك هي الفتاة الأكثر فعالية لترويج ايدولوجية حركة تركيا الفتاة. وكان بعض اعضاء اللجنة انفسهم منتمين الى الماسونية، كطلعت او مدحت شكرو. وكان هناك تداخل أفكار معين بين مناضلي حركة تركيا الفتاة والماسونيين، خاصة النزعة الليبرالية وكره الاستبداد. والحال أن المحافل الاجنبية بوجه خاص، والتي تتمتع بحماية الامتيازات الى هذا الحد أو ذاك، تتيح شبكة مأمونة لأعضاء اللجنة الذين يمكنهم العمل هناك في مأمن. وهكذا يمكن الحديث عن تأثير للماسونية على حركة تركيا الفتاة، دون شك، وإن كان يمكن الحديث بشكل أكبر عن استخدام للمحافل من جانب المنتمين الى حركة تركيا الفتاة للتغلغل في الوسط السالونيكى. ولا بد من أن نضيف ان اللجنة، عبر المحافل ذات الانتماء الفرنسى، كانت على اتصال بالبورجوازية اليهودية، التي تتقاسم مع المنتمين الى حركة تركيا الفتاة الرغبة في بقاء مقدونيا داخل الامبراطورية، لأن مقدونيا تشكل منفذ أنشطتها الاقتصادية في سالونيك. وبفضل جميع هذه القنوات، تنمو اللجنة بسرعة بالغة . وفي غضون عامين، سوف تضم نحو ١٥٠٠٠ من الأنصار.

وفي عام ١٩٠٧، تجرى اتصالات بين لجنة الاتحاد والترقى التي يقودها في باريس أحمد رضا ولجنة سالونيك. وفي شهر سبتمبر، تقرر المنظمتان الانصهار في منظمة واحدة. والواقع ان لجنة سالونيك (التي اتخذت اسم «الاتحاد والترقى») هي التي تهيمن منذ ذلك الحين على حركة تركيا الفتاة، التي ينتقل بذلك مركزها من العواصم الأوروبية الى سالونيك. ومن جهة أخرى، ففي السنة نفسها، يجمع مؤتمر ثان لحركة تركيا الفتاة في باريس جماعة احمد رضا وجماعة صباح الدين، الى جانب مناضلي حزب الداشناق الأرمن. وبشكل متزايد تتأكد فكرة انقلاب عسكرى.

وفى كافة أرجاء الامبراطورية، يتدهور الوضع الاقتصادى والاجتماعى بسرعة. وتنشب تمردات فى شرقى الأناضول. وفى عام ١٩٠٦ بالفعل، كانت مدينة أرضروم مسرح تمرد حقيقى شاركت فيه البورجوازية الصغيرة المحلية والضباط والموظفون. ويطلب المتمردين إلغاء الضرائب الجديدة وحل الوحدات الحميدية وإعادة العمل بالدستور. وعلى مدار عدة أسابيع، تظل المدينة فى ايدى المتمردين، إذ يرفض الجيش الذى ارسل لمحاربتهم التحرك. وينتهى التمرد فى ١٩٠٧، لكن انتفاضات محدودة أخرى تنشب فى السنة نفسها فى أناضول شرقية تأثرت، عبر القوقاز، بالثورة الروسية لعام ١٩٠٥. ويثبت هذا التمرد فى جميع الاحوال ان السياسة «الاسلامية» التى حاول عبدالحميد اتباعها فى المنطقة قد منيت بالفشل.

وشتاء ١٩٠٦ - ١٩٠٧ جد قاسٍ، والأسعار ترتفع، وتشح أخشاب التدفئة والفحم، والمحاصيل الزراعية هزيلة. وتتواصل الأزمة الاقتصادية خلال شتاء ١٩٠٧ - ١٩٠٨. وحسب صحيفة «مونيتور اوتوما» فى ٣ فبراير، فإن اسعار المنتجات الغذائية قد وصلت «الى مستوى لا يحتمل». وفى يونيو، فى سيواس، تحتشد نساء القرى المجاورة للمطالبة بالخبز، ويتحول الاحتشاد الى تمرد. وأسوأ شىء بالنسبة للحكومة هو امتداد السخط الى الثكنات. وفى جميع أرجاء الامبراطورية تقريباً، يتمرد الجنوب بسبب التأخر فى دفع رواتبهم. وتنشب ٤ تمردات فى عام ١٩٠٦ و ١٣ تمرداً فى عام ١٩٠٧ و ٢٨ تمرداً فى الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٠٨. وهذه المصاعب الاقتصادية والاجتماعية تفسر جزئياً السبب فى انفصال الجماهير عن نظام كان شعبياً فى بداياته؛ كما تفسر السبب فى انه لن يجد من يدافع عنه.

والتطورات الدبلوماسية الأخيرة تضيف المزيد الى الهموم العامة. فالتقارب الانجلو - روسى، الذى ارتسمت معالمه الأولى فى عام ١٩٠٧ بشأن فارس والتيبت وأفغانستان، يتخذ شكلاً محدداً عندما يلتقى نيقولا الثانى وادوارد السابع فى

ريقال في يونيو ١٩٠٨. وتجرى محادثاتها سرأً، لكن الرأي العام يتخوف من احتمال تمزيق الامبراطورية. وتصب الدعاية الألمانية والنمساوية الزيت على النار عندما تذكر أن ما دار الحديث بشأنه بين العاملين بالفعل هو تقسيم (الامبراطورية). ويجد المنتمون الى جماعة تركيا الفتاة أنفسهم وقد أصبح ظهريهم الى الحائط، ويصبح من الملح الانتقال الى الفعل، من أجل إعادة العمل بالدستور، بالتأكيد، ولكن بوجه خاص من اجل الحيلولة دون تمزيق الدولة. ويروى نيازى بك، احد ابطال ثورة تركيا الفتاة، في مذكراته، أنه عندما سمع بخبر لقاء ريقال، لم يستطع النوم لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، فإلى هذا الحد استبد به القلق على مصير بلاده. وفي ٣ يوليو، يصعد الى الجبال مع أنصاره. إن ثورة تركيا الفتاة تتحرك.

حواشي الفصل الثالث عشر

١- ١٢٩٣، في التقويم المسمى بتقويم "المالية" المستخدم في الامبراطورية العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر، وهو يوافق عام ١٨٧٧.

2- Niyazi BERKES, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964, P.253.

3- Keith M. Wilson, "CONSTANTINOPLE OR Cario: Lord Salisbury and the Partition of the Ottoman Empire, 1886-1897", dans, K.M. WILSON, Imperialism and Nationalism in the Middle, East, The Anglo-Egyptian Experience, Londres, 1983, pp.26-55.

٤- التعبير لألبير اورتايلى: القرن الأطول للامبراطورية

Ilber ORTAYLI, Imparatorlugun En uzun Yuzyili, Istanbul, 1983.

٥- نقلًا عن:

Feroze abdallah KHAN YASAMEE, The ottoman Empire and the European Great powers, 1884-1887, these dactyl., Londres, 1984.

٦- المؤلفات الأحداث حول الديموجرافية العثمانية هي:

Justin MacCARTHY, Muslims and Minorities, the Population of Ottoman Anatolia and the End of the Empire, New York, 1983, et Kemal H. KARPAT, Ottoman Population, 1830, 1914, Demographic and Social Characteristics, Madison, 1985.

7- Zeyneb CELIK, The Remaking of Istanbul, Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century, Seattle et Londres, 1986, p.160.

٨- نقوش اورهون: نقوش نقشت في القرن الثامن على مسلات وادى أورخون، في جنوب بحيرة بايكال، فك رموزها تومسين ورادلوف في أواخر القرن التاسع عشر.

٩- البير اورتايلى، النفوذ الألمانى فى الامبراطورية العثمانية فى عصر عبد الحميد الثانى.

Ilber ORTAYLI, Ikinic Abdulhamit Doneminde Osman-
li,Imparatorlugunda Alman Nufuzu, Ankara 1981, pp.57-72.

10- Ilber Ortayli,op.cit., pp.73-103.

الفصل الرابع عشر

موت امبراطورية

(١٩٠٨ - ١٩٢٣)

بقلم : يول ديموف وفرانسوا جورجيو^(١)

الآمال وخيبات الأمل (١٩٠٨ - ١٩١٢)

الثورة والردة

منذ صعود نيازى بك الى شعاب الجبال مع أنصاره، لم يكف الاضطراب عن التزايد فى مقدونيا. فقد حذا ضباط شبان آخرون من الجيش الثالث حذوه، كالبكباشى انور، الملحق بهيئة الأركان التى يرأسها حلمى باشا. ويؤدى تكاثر أعمال التمرد هذه الى دفع لجنة الاتحاد والترقى الى تزعم حركة العصيان. واذ يتابع عبدالحميد هذه التطورات من خلال شبكته التجسسية فإنه يحرك شرطته السرية ويرسل لجان استقصاء، لكن لجنة الاتحاد والترقى تكشف عملاءه وتتخلص منهم بسرعة.

وفى مستهل شهر يوليو ١٩٠٨، مع تزايد الاغتيالات ضد عملاء القصر، يقرر عبدالحميد ارسال الجيش لخماد ما أصبح انتفاضة بشكل متزايد الواضح : فنحو منتصف الشهر، سوف يجرى ارسال ١٨٠٠٠ جندياً من الاناضول الى مقدونيا. لكنهم، بدلاً من محاربة التمرد، ينضمون اليه. ويعتبر ذلك نقطة تحول فى

الثورة: فحتى ذلك الحين، كان تمرد الضباط المنتمين الى حركة تركيا الفتاة حدثاً شبه عادى فى مقدونيا خاضعة منذ سنوات طويلة للجماعات الثائرة. ويدل انضمام الجنود الاناضوليين الى التمرد على ان زمام الموقف يقلت منذ ذلك الحين بالكامل من أيدي القصر. وبين ٢٠ و ٢٣ يوليو، نجد ان عدداً من التمردات التى يتجه اليها الضباط والعناصر المدنية من السكان المسلمين والتى تنظمها لجنة الاتحاد والترقى سوف تنشب فى موناستير وسيريس وأوسكوب وفيرزويك. وينهمر على يلدن سيل من البرقيات المطالبة باعادة العمل بالدستور، بينما يهدد الجيش بالزحف على اسطنبول إذا لم يرضخ السلطان. وفضلاً عن ذلك، ففي ٢٣ يوليو، يتم اعلان الدستور بشكل عفوى فى موناستير وفى عدة مدن اخرى من مقدونيا.

وكانت اللجنة قد خططت للتحرك فى سالونيك، عاصمة مقدونيا، فى ٢٧ يوليو، لكن عبدالحميد يفاجئها. فالحال أن هذه الأخير، الذى لا يحوز بعد أية وسيلة لمواجهة المتمردين، يقرر التفاهم معهم. ففي ٢٢ يوليو، يعين سعيد باشا صدراً أعظم، وفى صباح اليوم التالى، يصدر إرادة سلطانية تعيد العمل بدستور ١٨٧٦ فى الامبراطورية؛ كما يعلن اجراء انتخابات فى موعد قريباً وعقد البرلمان، وهو برلمان لم يجتمع منذ ثلاثين عاماً.

وفى ٢٤ يوليو، تعلم اسطنبول والمدن الكبرى للامبراطورية فى فرحة جماعية غامرة أن الاستبداد الحميدى قد انتهى. وفى الشوارع، نشهد مشاهدة مؤثرة؛ فالناس المنتمون الى جميع الجماعات، الأرمن واليونانيون والبلغاريون والأتراك والألبانيون، يتبادلون التهنة ويتعانقون. وفى الأماكن التى لا تشهد حماساً، كما فى بعض المدن العربية، يجتهد ممثلو اللجنة فى إثارة مظاهر الفرحة. وتبدو جميع الآمال ممكنة. وسوف يعلن انور «لقد عالجتنا الرجل المريض». وبيزغ فجر جديد مع اعادة العمل بالدستور.

وهكذا، فدون معركة تقريباً، يشهد المنتمون الى حركة تركيا الفتاة تحقق ما كان فكرة ثابتة لديهم منذ نحو عشرين عاماً: أن تصبح الدولة العثمانية من جديد

دولة دستورية. وتفاجئهم سرعة انتصارهم، الذي تم الوصول اليه دون خوض معركة، دون اللجوء الى العنف، تحت مجرد التهديد بالتدخل، والسهولة التي رضخ بها عبدالحميد لمطلبهم. والحال أن الأكثر محافظة بين صفوفهم يرون أنه مع تحقيق الجانب الرئيسى من البرنامج فإن على اللجنة أن تحل نفسها. لكن الغالبية تختار مواصلة العمل السياسى.

فما الذى سوف يفعله المنتمون الى حركة تركيا الفتاة بانتصارهم المفاجىء؟ إن السلطان، لأنه اعاد الدستور، يشهد استعادة لشعبيته، وليس بالامكان عزله. ومن جهة اخرى، فإن الثوار لا يضمنون فى صفوفهم أية شخصية سياسية ذات خبرة. فلما كانوا منحدرين فى غالبيتهم من صفوف البورجوازية الصغيرة، بورجوارية المحامين والصحفيين والموظفين وصغار الضباط، المتخرجين غالباً من مدارس عليا دون أن يكونوا قد تعلموا مع ذلك فن الحكم، فإنهم لم تكن امامهم قط فرصة للاحتكاك بعالم الحياة السياسية. وأخيراً، فإنه اذا كانت لجنة الاتحاد والترقى تتمتع بانغراس جيد فى مقدونيا، فإنها لم يتسن لها مد شبكتها الى الأناضول، وكانت تعوزها منظمة راسخة فى اسطنبول حيث كان قادة الحركة شبه مجهولين. ومن المستحيل فى هذه الظروف المطالبة بحكم دولة جد واسعة وجد معقدة كالامبراطورية العثمانية. والحال ان المنتمين الى حركة تركية الفتاة، وهم انقلابيون ترهبهم السلطة، كان محكوماً عليهم بأن يبقوا، مؤقتاً على الأقل، على هامش المؤسسات.

ومن ثم فلاغربة فى اننا نجد فى المناصب القيادية للدولة بعد يوليو ١٩٠٨ نفس القيادات السياسية. فعلاوة على السلطان الذى يبقى على عرشه وإن كان بسلطات مختزلة، نجد ان جميع من يتولون منصب الصدر الاعظم هم من رجال النظام القديم. سعيد باشا، ثم العجوز كامل الذى يستأنف الخدمة فى اغسطس واحمد توفيق باشا، الخ. كما ان الادارة تبقى هى ايضاً فى ايدى بيروقراطىي النظام القديم العثمانيين. ولن يتم احلال سياسى وادارى إلا بشكل تدريجى.

فهل يمكن للمرء أننذ الحديث عن «ثورة تركيا الفتاة»؟ الواقع ان ما حدث هو بالأحرى انقلاب قاده وحقق له النجاح الضباط ولجنة الاتحاد والترقى فى مقدونيا، دون نقل حقيقى للسلطة. وبشكل اكبر من أن يكون ثورة، فإنه عودة - هى عودة نص قديم بالفعل يزيد عمره عن ثلاثين سنة - حققها رجال لا يملكون فى الواقع برنامجاً فى المجال الاجتماعى. إلا انه كما ان الثورة الفرنسية لا تختزل فى اجتياح الباستيل، فإن الثورة التركية ايضاً ليست متضمنة كلها فى ٢٤ يوليو. فالواقع ان انقلاب حركة تركيا الفتاة قد فتح السبيل امام سلسلة من التغيرات العميقة التى سوف تنتشر على اكثر من عشر سنوات.

وفى اللحظة نفسها، فإن التغيرات كانت بالفعل ذات اهمية. فالمقربون من السلطان جد المتورطين فى الاستبداد، كعزت باشا او ابو الهدى، يهربون أو يجرى حبسهم، ويتشتت شمل «بطانة» يلدز. ويجرى حل الشرطة السرية وازالة شبكة الجواسيس. ويتم منح عفو عام فى ٢٧ يوليو، يستفيد منه، خلافاً لضحايا التعسف وضحايا الجورناجية، الف من السجناء المنتهكين للقانون العادى. ويرجع المنفيون السياسيون بالمئات، حيث يتم استقبالهم احياناً بتظاهرات حماس ضخمة، كصباح الدين. وإذا تتخلص الصحف من الرقابة، فإنها تتزايد، ويدخل الرأى العام الحياة السياسية للبلاد. ويوجه عام، فإن المناخ يعتبر ثورياً.

إلا انه ترقباً للانتخابات ولانعقاد البرلمان المتوقع فى الخريف، فإن المشكلة المثارة هى معرفة من الذى سوف يحكم. لقد أصاب الضعف القصر. وعبدالحميد، بعد أن حلف اليمين على الدستور، ينعزل فى دور المراقب. وبالنسبة للباب العالى، على العكس من ذلك، تتيح الثورة فرصة لاستعادة الساحة التى خسرها منذ سبعينيات القرن التاسع عشر. وفى لعبه بفطنة على النزاعات التى لن تغيب عن النشوب بين القصر واللجنة، يتسنى للصدر الأعظم الأمل فى أن يفرض من جديد سلطته. وسوف يحاول سعيد باشا وكامل باشا، كل بدوره، اللعب بهذه الورقة. أما

فيما يتعلق بلجنة الاتحاد والترقي، فإنها تتصرف من خلال لجنتها المركزية (مركز - اى عمومى - المركز العمومى) التى تظل سرية فى سالونيك، وهى أشبه ما تكون بجماعة ضغط سرية تفوض ممثلها فى الولايات، وترسل وفوداً من اثنين أو من ثلاثة من ابرز اعضائها، كطلعت أو رحى أو چاويد أو الطيب ناظم بهاء الدين شاكر أو احمد رضا، الى السلطان أو الى الصدر الاعظم لعرض وجهة نظرها، بل وحتى لفرضها. وبعد عدة أيام من الثورة، تصل الى العاصمة لجنة من سبعة اشخاص (يبرز بينهم بشكل خاص طلعت وجمال وجاويد) للاشراف فيها على تطبيق النظام الجديد. ولن يتخلف هذا النظام عن الاصطدام بسلسلة من المصاعب السياسية والاجتماعية والديبلوماسية.

وبادىء ذى بدء ، تتفجر أزمة سياسية بعد عدة أيام بين سعيد باشا والاتحاديين. فالدستور يعطى الصدر الأعظم الحق فى أن يشكل بنفسه الوزارة، التى يجب عليه بعد ذلك اخضاعها لارادة سلطانية. ولكى يتمكن من مواجهة اللجنة بشكل أفضل، ينوى سعيد باشا أن يحتفظ للسلطان بحق اختيار وزيرين، وزير الحربية ووزير البحرية. والرهان كبير: فمن يسيطر على الجيش يمكنه بذلك نفسه أن يكبح جماح حركة تركيا الفتاة التى تستند قوتها الى حد بعيد على صفار الضباط. ويفشل سعيد باشا فى امتحان القوة الذى يخوضه ويضطر الى التنحي. وسوف يحل محله كامل باشا (٦ اغسطس). ويقترح هذا الأخير برنامجاً يهدف الى تحويل الامبراطورية الى دولة حديثة ممرزة ينال تأييد المنتمين الى حركة تركيا الفتاة. وتعلن لجنة الاتحاد والترقى انها لن تتدخل بعد فى الحياة السياسية وانها تكتفى بأن تكون حارساً للدستور وبأن تمارس دورها كحكم، وهو دور سوف تكون مدعوة الى لعبه منذ شهر اغسطس ١٩٠٨ عندما تجتاح البلاد موجة من الإضرابات على مدار عدة اسابيع.

لكن اسوأ ما ينتظر النظام الجديد كان على وشك الحدوث. ففي ٥ اكتوبر، نجد ان بلغاريا، رفضاً منها لسلطة السلطان، تعلن استقلالها، وفى اليوم التالى،

تعلن النمسا - المجر ضم البوسنة والهرسك، وتعلن كريت قرارها بالانضمام الى اليونان. وكانت الفرصة مغرية : فالنظام الجديد كان ما يزال غير مستقر؛ وفي حالة توطده، ألن يلجأ الى استعادة سلطته على هذه الاراضى؟ من المؤكد انها اراضى لا تنتمى بعد الى الامبراطورية العثمانية إلا من الناحية الاسمية، لكن وضعيتها تضمنها الدول الكبرى وهى تتخلص فجأة من السيادة العثمانية؟ وكانت تركيا عاجزة ومعزولة، والدول لا تعرقل سير الأمور. وبينما تنظم اللجنة مقاطعة للسلع النمساوية، تحاول السلطات السياسية تسوية الأزمة بالسبل الدبلوماسية. وبين فبراير وابريل ١٩٠٩، سوف يجرى التوصل الى اتفاقيات تنص على تعويضات مالية لتركيا وتعترف للخليفة بحق الاشراف على الحياة الدينية للمسلمين فى الاراضى الضائعة

والحال أن آثار هذه الأزمة الدبلوماسية ملحوظة. فبالنسبة للنظام الناشئ عن ثورة تركيا الفتاة، كانت تلك نهاية الحظ السعيد. ففي غضون أشهر، سوف يضطر إلى التنازل عن اراض أكثر من تلك التى تخلى عنها عبدالحميد خلال الاعوام الثلاثين الأولى من عهده. والحال أن تدخل يوليو كان يقصد به الحيلولة دون تمزق الامبراطورية. وبضربة واحدة تتمزق مصداقية المنتمين الى حركة تركيا الفتاة تمزقاً خطيراً. وسرعان ما سوف يؤدى عجزهم عن مواجهة العدوان الاجنبى الى ايقاظ السخط. ولا غرابة فى ان الدلائل الاولى على الردة تظهر منذ غداة هذه الأزمة.

ومن ثم ففى مناخ مسموم الى حد ما سوف تجرى الانتخابات للبرلمان العثمانى (نوفمبر - ديسمبر ١٩٠٨). وتجيء المعارضة الوحيدة للجنة من الليبراليين المنتمين الى اتجاه صباح الدين، المتجمعين فى الحزب الليبرالى العثمانى (عثمانلى احرار فوقاسى)، الذى، إذ يشدد على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، كما يشدد على اللامركزية، يجد دعماً من جانب العناصر غير

التركية فى الامبراطورية. لكن الحزب، الذى تشكل بشكل متأخر، نحو منتصف شهر سبتمبر، والمنظم فى العاصمة وحدها تقريباً، لا يتسنى له تهديد هيمنة الاتحاديين بشكل جدى. وسوف تجرى الانتخابات وفق اقتراع غير مباشر على درجتين، مع عدم الاعتراف بحق التصويت إلا للرجال الذين تزيد اعمارهم عن خمس وعشرين سنة. وسوف تؤدى الى نزاع حاد مع البطريكية الارثوذكسية والجالية اليونانية اللتين تطالبان بتمثيل أقوى بكثير للعنصر اليونانى فى المجلس (النيابى). وفى جميع الانحاء من الناحية العملية، سوف يجرى انتخاب المرشحين المنتمين الى قائمة لجنة الاتحاد والترقى. والحال أن الصدر الاعظم نفسه، مرشح الليبراليين فى اسطنبول، سوف يسقط فى الانتخابات.

ويجرى افتتاح البرلمان فى صخب عظيم فى ١٧ ديسمبر ١٩٠٨. وفى خطابه الافتتاحى، يؤكد عبدالحميد تعلقه بالدستور: فهو يقول انه لم تعد هناك الآن عقبة أمام اعادة العمل به، بعد ان تقدم التعليم بين صفوف الشعب. وبعد ذلك بعدة ايام، سوف يجرى انتخاب احمد رضا رئيساً لمجلس النواب.

ولن تتأخر العلاقات بين اللجنة وكامل باشا عن التدهور. فالصدر الأعظم، رمز بيروقراطية النظام القديم، المتميز بعلاقاته مع الليبراليين، شخص تصعب السيطرة عليه. وبعد عدة اسابيع من افتتاح البرلمان، يحاول الاستفادة من المصاعب السياسية لزيادة سلطته. وفى ١٠ فبراير ١٩٠٩، يقرر تعيين رجال يأترون بأمره على رأس وزارة الحربية والبحرية. ومن جديد، يدور امتحان القوة حول السيطرة على الجيش. وإثر مناقشة فى البرلمان يجرى فيها حجب الثقة عنه بأغلبية ساحقة، يضطر كامل الى التنحى. ولايجاد بديل له، يلجأ السلطان الى حسين حلمى باشا، المفتش العام السابق لروميليا قبل الثورة، والذى يتمتع بسمعة طيبة لدى المنتمين الى حركة تركيا الفتاة. ويعتبر ذلك انتصاراً جديداً للجنة الاتحاد والترقى.

وفى غضون عدد من الأشهر، لا يكف السخط عن التزايد. وهو يتخذ فى البداية ملمحاً دينياً بشكل واضح. فآزمة اكتوبر ١٩٠٨ الدبلوماسية تحدث فى

قلب شهر رمضان، فى لحظة تعتبر الحساسية الدينية فيها اقوى ما تكون^(٢). ومنذ ٧ اكتوبر، يتجه حشد يتزعمه احد الخوجات (على الأعمى، قور على) الى القصر لمطالبة السلطان بتطبيق الشريعة. وتنتشر الدعاية المضادة لجماعة تركيا الفتاة. وإذا كان شيخ الاسلام والعلماء من المرتبة العليا قد أيدوا النظام منذ البداية، فإن الدستور قد اعتبر، فى المراتب الأدنى للهيراركية الدينية، والأكثر محافظة، مسئولاً عن النكبات الجديدة للامبراطورية، وتبدو الحرية والمساواة فكرتين غريبتين، خطرتين، أما الاخلاق الحديثة، المنسوبة الى جماعة تركيا الفتاة، فهى تتعرض للتحقير. وفى صحيفته، صحيفة ميزان، نجد أن مراد بك، فى قطيعة أكبر من ذى قبل مع رفاقه السابقين، يصب الزيت على النار، مثيراً المشاعر الدينية، ومنذئذ بالمساواة مع غير المسلمين وبتحرير المرأة بوصفهما متعارضين مع التقاليد. وهو خطاب يجد أتباعاً متزايدى العدد بين صفوف رجال الدين والصفوة وال دراويش، بل وبين صفوف البيروقراطية والجيش، كما بين صفوف الجماهير الشعبية.

ويؤدى اقضاء كامل باشا فى فبراير ١٩٠٩ الى زيادة التوتر. وفى المجلس (النيابى)، يصبح حزب الأحرار نواة معارضة سياسية تضم ما بين خمسين وستين نائباً، خاصة بين صفوف القوميات غير التركية: اليونانيين والأرمن والعرب والألبانيين. وهذه المعارضة تتهم لجنة الاتحاد والترقى بفرض ديكتاتورية وبتسييس الجيش وبالتخلى عن المثل الاعلى للنزعة العثمانية لحساب الأتراك وحدهم. وهذه الهجمات العنيفة تجد تشيعة من جانب الانجليز الذين لا يرتاحون الى رحيل رجلهم الذى يتمتع بثقتهم. والحال أن فيتزموريس، الترجمان الأول لسفارة بريطانيا العظمى، يشن حملة من خلال صحيفة «ليفانت هيرالد»، الصحيفة الانجليزية الصادرة فى اسطنبول، التى تطعن فى الاتحاديين. ويجرى توجيه النقد السافر الى اساليب اللجنة فى الصحف. وفى ٧ ابريل، يجرى اغتيال حسن فهمى، وهو صحفى شارك بنشاط فى الحملة المضادة للاتحاديين فى صحيفة «سيربيستى»، ويحمل رأى العام اللجنة نفسها المسئولية عن هذا الاغتيال.

وفى اوائل ابريل، سوف تنظم قوى الردة نفسها. فالواقع ان جمعية الاتحاد المحمدى (اتحاد - اى محمدى جمعيتى)، التى تشكلت فى الشهر السابق على يدى واحديتى، وهو درويش بكتاشى من قبرص، سوف تضم علماء من المرتبة الثانية. وهى نوع من منظمة تبشيرية، ذات نزعة «أممية»، تدعو الى اسلام شعبى. ومنذ عدة أشهر، تسهب صحيفتها، صحيفة «هولكان»، فى اصدار قرارات الحرمان ضد «حفنة الملحدين» الذين يجرون البلاد الى الخراب. وتختار جمعية الاتحاد المحمدى ذكرى مولد النبى، ٥ ابريل، لاعلان برنامجها الذى يدعو الى المثل الاعلى الاسلامى، فى مواجهة اتجاهات الاتحاديين العلمانية والمتأثرة بالغرب.

وفى ليلة ١٢ - ١٣ ابريل ١٩٠٩، ينشب التمرد المعروف بالتركية باسم «حادث ٣١ مارس» (اوتوز/ بير/ مارت / وقاسى)^(٣). ذلك ان عدداً من جنود الفيلق الاول للجيش المرابط فى اسطنبول، شديدى التأثير بدعاية الجمعية، سوف ينزعون سلاح ضباطهم - وغالبيتهم من الضباط والمؤهلين (مكتبلى)، وسوف ينتشرون فى المدينة ويجتازون جسر جالاتا ويتجمعون فى ميدان السلطان أحمد، أمام البرلمان. وعلى مدار يوم ١٣ ابريل، سوف تتضمن اليهم عناصر من وحدات اخرى ورجال دين وتلامذة المدارس الاسلامية. ومرة اخرى فى التاريخ العثمانى، يحتشد رجال الجيش ورجال الدين كتفا لكتف فى تمرد ضد السلطة. وهم يطالبون بالالتزام الصارم بالشريعة ويطلبون تنحية وزير الحربية وتنحية رئيس مجلس النواب، احمد رضا، رمز لادينية جماعة تركيا الفتاة.

ويؤدى التمرد الى ازمة سياسية خطيرة. فالبرلمان الذى غزاه العسكر فى جانب منه يبدو محاصراً. والنواب الاتحاديون يهربون او يختفون. ووزير الحربية، احمد مختار باشا، لا يقدر على اتخاذ قرار بالتصدي للعصيان. ووزارة حلمى باشا، التى اصابها الشلل، تسارع الى تقديم استقالتها. أما فيما يتعلق بالسلطان، فإنه يرى فى الأزمة فرصة للثأر لنفسه. واستجابة منه لأغلب مطالب

المتمردين، يصدر الأمر الى البرلمان باحترام الشريعة ويعين احمد توفيق باشا فى منصب الصدر الأعظم. وسرعان ما يملأ الليبراليون الفراغ الذى تركه الاتحاديون.

وتحدث فى اسطنبول عدة مشاهد للعنف، فخلال التمرد نجد أن عدداً من الضباط الشبان المؤهلين ومن انصار الحركة الدستورية وعدداً من النواب يلقون حتفهم. ويجرى تخريب ونهب مكاتب صحف اتحادية كصحيفتى «تائين» و «شورى - اى امه»، على ان شيئاً لا يضاهى التمردات التى تقع فى أضنه. فاعلان تمرد اسطنبول يثير النفوس فى أضنه اثارة زائدة عن الحد، وتنتشر بين صفوف المسلمين اشاعة مفادها أن الأرمن يستعدون للثورة. ومنذ ١٤ ابريل، يصبح الحى الأرمنى مسرح مشاهد عنف ومذابح، سوف تستمر عدة ايام وتسفر عن سقوط عدة آلاف من الضحايا بين صفوف السكان الأرمن.

وقد جرى التوقف طويلاً امام معنى احداث ١٣ ابريل. هل كانت تفجراً مفاجئاً للتعصب الاسلامى؟ لكن الاقليات المسيحية، وعلى رأسها اليونانيون، قد اعربت عن فرحتها، وكان الدستور محل احترام من جانبها. فمن الذى امسك بزمام الأمور وراء المتمردين؟ عبد الحميد؟ الواقع انه يبدو ان السلطان لم يكن محرك التمرد إلا انه يبدو انه، مع تفجر التمرد، قد حاول الاستفادة منه، الأمر الذى سوف يؤدى الى اتهامه بالمسئولية عنه من جانب المنتمين الى حركة تركيا الفتاة، جد المرتاحين الى فرصة التمكن أخيراً من التخلص من طاغية يلدز. انجلترا؟ لاجدال انها، وعلاقتها فاترة مع جماعة تركيا الفتاة، قد قدمت دعمها الى المعارضة. لكن البحث عن المسئوليات الحقيقية يجب ان ينصب على هذه الجهة. فوراء حزب الاحرار، ينتشر حشد بأكمله من خصوم النظام الجديد أو من الذين خابت آمالهم فيه: منتمون سابقون الى جماعة تركيا الفتاة جرى شل نشاطهم (كصباح الدين)، ليبراليون مستبعدون من السلطة (ككامل باشا)، أقليات مسيحية تتزايد تخوفاتها،

البانيون منزعجون من اتجاهات الاتحاديين المركزية والقومية، آلايليون يتمسكون بالولاء للسلطان، ضباط النظام القديم المسرحون منذ يوليو، بيروقراطيون ضحايا لاعادة التنظيم الادارى (تينسيكات). وقد استخدمت المعارضة الاسلام ضد الاتحاديين؛ وهو ما سمح لها بتعبئة سكان اسطنبول بشكل واسع.

على أن انتصار خصوم لجنة الاتحاد والترقى سوف يكون قصير العمر. فجيش مقدونيا، الذى يرى البنيان السياسى الذى جرى تدشينه فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ عرضة لتهديد خطير، يقرر التحرك، ويدفع من محمود شوكت باشا، يزحف «جيش العمل» (حركة أوردوسو) على اسطنبول التى يجرى محاصرتها فى ٢٤ ابريل. ويجرى اعلان الاحكام العرفية وانشاء محاكم استثنائية لمحاكمة المتمردين. وبعد ذلك بعدة ايام، سوف يعلن مجلس النواب ومجلس الشيوخ فى اجتماع مشترك خلع السلطان، وهو قرار سوف تكرسه فتوى صادرة عن شيخ الاسلام. ويجرى نفي عبدالحميد الى سالونيك واحلال اخيه محمد رشاد محله. وبهذا تطوى صفحة من صفحات تاريخ الامبراطورية العثمانية.

الغليان الاجتماعى والفكرى

منذ بداية القرن، عرفت الامبراطورية العثمانية تطوراً اقتصادياً سريعاً، شجعت عليه سياسة اللجوء الى الرساميل الأجنبية فى سياق تنافسات متزايدة الحدة بين الدول. وقد ارتفعت الاسعار. ففى اسطنبول، بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٠٨، ارتفع سعر أقة (١,٣ كجم) القمح من ٣٤ إلى ٥٤ بارة (٤٠ بارة = قرشاً واحداً). وارتفع سعر كيلة (٣٧ لترا) الشعير من ١٢ الى ١٩ قرشاً. وهذا التضخم يناسب رجال الاعمال، لكنه يزيد وضع الأجراء والمستخدمين والشعب البسيط هشاشة. وفى الوقت نفسه، فإن التغريب يستمر اكثر فأكثر: فبالرغم من الرقابة، لا تتوقف الصحف الأوروبية، والأفكار الغربية، والموضة، وحدث التقنيات، والألعاب وأشكال

اللهو (كالدراجة أو السينما) عن غزو المدن الكبرى للامبراطورية. وكان ذلك شيئاً من العصر الجميل الذى يتغلغل فى جزء صغير على الأقل من الامبراطورية.

والحال أن ثورة تركيا الفتاة، التى تقع وسط هذه التحولات السريعة، تثور فى المجتمع العثمانى كانفجار. فالقوى الاجتماعية، أسيرة القيد الحميدى لزمان جد طويل، تجد نفسها فجأة وقد تحررت. ولأول مرة فى تاريخه، يكتشف المجتمع العثمانى حرية التعبير والصحافة والاجتماع. وتصبح «الحرية» كلمة سحرية قادرة على حل جميع المشكلات واشباع جميع الرغبات. وتؤدى «نشوة الحرية» الى تجاوزات، والى تجليات لعدم الانضباط واللفوضى، والى رفض لدفع الضرائب. ويكف عدد من الموظفين عن شق طريقهم الى مكاتبهم ويكف عدد من طلاب المدارس عن شق طريقهم الى مدارسهم.

وأحد تجليات هذا الانفجار الاجتماعى الأكثر اثارة هو تطور الصحافة. فمئذ غداة ٢٤ يوليو، يقفز عدد النسخ الصادرة من الصحف اليومية فى اسطنبول بشكل بليغ الدلالة : ٦٠٠٠٠ نسخة بالنسبة لصحيفة إقدام و ٤٠٠٠٠ نسخة بالنسبة لصحيفة صباح. ويجرى تخاطف الأعداد. وحتى أواخر عام ١٩٠٨، تظهر مائة صحيفة جديدة فى الامبراطورية. وتحتل الصحف الساخرة بينها مكانة هامة: فقد كان الضحك مكبوحاً لزمان جد طويل فى عهد عبدالحميد. وفى ١٩٠٨ - ٩-١٩، يجرى توزيع أكثر من ٣٥٠ صحيفة ودورية فى الامبراطورية، وهو رقم يشير فى حد ذاته الى الحمى الفكرية التى استولت على تركيا، حتى وإن كان الايقاع سوف يصبح بطيئاً بعد ذلك : إذ تظهر ١٣٠ صحيفة فى عام ١٩١٠، ثم تظهر ١٢٤ صحيفة فى عام ١٩١١.

وفى اندفاع الثورة، تبرز آنذاك ثلاث جماعات اجتماعية، قلما دار عنها الحديث حتى ذلك الحين فى الامبراطورية العثمانية: النساء والعمال والمتقنون.

وحول عام ١٩٠٠، كان وضع المرأة العثمانية بسبيله الى التغير. ففى الفئات العليا من المجتمع، تتبنى أعداد متزايدة باطراد من النساء المسلمات أساليب

السلوك الغربية، تحت تأثير الاطلاع على المجلات أو محاكاة لرصيفاتهن الأرمنيات واليونانيات. ومن تبدأن فى تعلم الفرنسية وفى تأثيث منازلهن وفق النموذج الأوروبى، وفى تلقى دروس فى العزف على البيانو، وفى ارتداء الأزياء الغربية، وفى الخروج بمفردهن الى الشارع. لكن اخلاقية عهد عبدالحميد تسعى فى الوقت نفسه الى ان تفرض عليهن قواعد سلوك اكثر صرامة. وهكذا نجد أن مرسوماً صادراً فى عام ١٩٠١ يحرم عليهن التردد على المحال الأوروبية ويلزمهن بارتداء الحجاب حتى وهن فى العربات. ويجرى النص تفصيلاً على طول وسمك الحجاب (الشرشف)، ونوع الأحذية التى يتعين عليهن لبسها. أما النساء اللواتى يجازفن بالسير فى الشارع بمفردهن فإنهن يصبحن عرضة للقبض عليهن.

وخلال فترة نفيم فى أوروبا، ومن جراء اتصالهم بالعادات الأوروبية، يفكر المنتمون الى حركة تركيا الفتاة كثيراً فى حالة المرأة فى مجتمعهم. ويرى بعضهم أن تحررها هو مفتاح تقدم الدولة العثمانية. وبوجه عام، فإنهم يتمنون ان تتطور المرأة العثمانية وفق نموذج المرأة الغربية بفضل تقدم التعليم.

ويتيح مناخ يوليو ١٩٠٨ للنساء المسلمات فرصة الاعراب عن طموحاتهن. وقد فوجئ شهود ثورة تركيا الفتاة بحضورهن خلال الأيام الثورية. فقد شاركن فى مظاهرات الفرح الأولى؛ وفى ٢٧ يوليو، اجتزن شوارع المدينة فى عربات مزينة بشعارات حركة تركيا الفتاة. كما افصحن عن رفضهن للحجاب وللانزواء فى البيوت، وعن رغبتهن فى التعليم وميلهن الى المشاركة فى الحياة السياسية. ويشاهد المرء نساء كثيرات سافرات تخرجن على الملأ، وتلبسن وفق الأزياء الحديثة، وتعقدن المؤتمرات والاجتماعات. وسوف تنشأ جمعيات نسائية، يتميز بعضها بأهداف خيرية أكثر، بينما يتميز بعضها الآخر بأهداف «نسائية» أكثر كجمعية ترقية النساء (تعالى - اى نسوان جمعيتى) التى اسستها خالدة اديب فى عام ١٩٠٨. وهذه الجمعية، المتصلة بحركة النساء المطالبات بحق التصويت فى انجلترا، تحدد لنفسها هدف «الارتفاع بالمستوى الثقافى للنساء» وتحاول تقديم

تسهيلات تعليمية لعضائها. ومن جهتها، تنشئ لجنة الاتحاد والترقى فى اسطنبول وفى سالونيك شعباً نسائياً للاتحاد والترقى (اتحاد وترقى قادينلار شعبسى). أما الجماعة الأكثر راديكالية، وهى جماعة الدفاع عن حقوق النساء (مدافعه - اى حقوق - اى نسوان جمعيتى)، التى تأسست فى بداية الحروب البلقانية، فهى تنادى بالتححر الاقتصادى للمرأة التى يجب ان تتاح لها الفرصة لتولى مناصب فى العمل العام أو فى المشاريع. وتحصل الجمعية على نجاح أول بتمكنها من ادخال عدد من النساء فى شركة التليفونات. وإلى جانب هذه المنظمات، توجد أيضاً سلسلة كاملة من المطبوعات والصحف النسائية؛ ومن بين الصحف التى كتبت فيها نساء عديدات تجب الاشارة الى مجلة ضمه (الباقية) ومجلة ملكه جازيتسى (مجلة الأمة)، ومجلة قادين ميكماسى (مجلة المرأة)، ومجلة محاسن (الأعمال الحسنة)، ومجلة قادينلار دنياسى (دنيا المرأة).

وتظل حركة التححر هذه محدودة بالرغم من كل شىء. فهذه الحركة، التى توجهها عدة نساء مرموقات، كخالدة اديب أو نقيه هانم، لا تكاد تمس غير الصفوات العثمانية وجزء صغير من الطبقات المتوسطة فى المدن. ولا تكاد جمعية الدفاع عن حقوق النساء تضم اكثر من خمسين من الاعضاء. ويتم إحراز شىء من التقدم فى مجال تعليم المرأة. ويجرى أففتاح أول ليسيه للبنات فى عام ١٩١١. إلا أنه فى هذا المجال ايضاً، يظل التغير متواضعاً. وبوجه عام، فإن حالة المرأة لا تعطى إنطباعاً بأنها قد تطورت كثيراً. فالنساء يظل لهن خلوات منفصلة فى عربات الترام ومراكب البسفور، ويحظر عليهن السباحة والتردد على المطاعم، حتى وإن كن برفقة ازواجهن.

وبالرغم من كل شىء، فلأول مرة، يتوفر ادراك، وتثار مشكلة حالة المرأة من جانب النساء أنفسهن، وهى مشكلة تمس «المناطق الحساسة» فى الاسلام، الفصل بين الجنسين، الزواج، الطلاق، تعدد الزوجات. وهذا هو السبب فى ان هذه البداية

التحررية، رغم طابعها المتردد، قد نجحت بالفعل في بلورة الكثير من اشكال السخط. وكان يكفي ان تظهر عدة نساء سافرات في الشارع حتى يؤدي ذلك الى اثاره القلاقل واستثارة ردود فعل عنيفة. ونشهد مهاجمة النساء في الشارع، وبرز الدعوة الى انزواء النساء في البيوت والى ضرورة ارتداء الحجاب بين مطالب المعارضة البيئية. والحال ان لجنة الاتحاد والترقي، المشتبه في احادها، يجرى تحميلها المسؤولية عن الانحلال الاخلاقي العام. وفي عام ١٩١١، سوف يضع شيخ الاسلام النقاط على الحروف؛ فهو يذكر بضرورة ارتداء الحجاب وانزواء النساء في البيوت ويمنع النساء من ارتداد ثياب تتمشى مع الازياء الأوروبية ومن التنزه بمفردهن في الشوارع. وكان الانزعاج بالغ الشدة والاحتدام بحيث انه سوف يجرى في زمن الحروب البلقانية سجال كامل حول مسؤولية تحرير المرأة عن الهزائم العثمانية...

كما تلعب ثورة تركيا الفتاة دور كاشف للحركة العمالية. فنحن نشهد منذ شهر اغسطس ١٩٠٨ موجة اضرابات (١١٠ اضرابات) تتميز باتساع وباستمرار غير مسبوقين في التاريخ العثماني. وهذه الاضرابات، «العفوية» في غالبيتها، تنفتح بشكل مباشر على الثورة. فغداة ٢٤ يوليو، ينظم العمال مسيرات يوزعون خلالها منشورات ويلوحون برايات تحمل شعارات حركة تركيا الفتاة، كـ «الحرية والمساواة والعدل والاخاء». وفي اثر ذلك ينغمس العمال في الاضراب «لأن هناك دستوراً» ولأنهم يتصورون أنه يسمح لهم بتحسين حالتهم.

وسوف تنشب الاضرابات الأولى في منتصف اغسطس في اسطنبول بين صفوف عمال الترام وعمال الموانئ، وسرعان ما تمتد الحركة الى فروع اخرى من فروع الصناعة، الى عمال صناع الزجاج في فابريكة باشاباختشي، والى عمال ادارة التبليغ. وفي ازمير وسالونيك، يحنو عمال الموانئ حنو زملائهم في اسطنبول. كما ان المدن الصغيرة تبدأ في التأثر بالحركة. وسرعان ما تمس

الحركة كل قطاعات الحياة الاقتصادية تقريباً: المواصلات (السكك الحديدية، الترام، النقل البحرى)، والمناجم (كمناجم فحم ايريجلى)، ومصانع النسيج ومانيفاكتورات التبغ، والمؤسسات التجارية (مؤسسات اوروسدى باك). ولا تتعلق المطالب بالأجور فقط، وإنما تتعلق أيضاً، وبشكل أوسع، بظروف العمل وظروف حياة الجماهير العاملة: تخفيض يوم العمل من خمس عشرة - ست عشرة ساعة الى ثمانى أو عشر ساعات بحسب الحالة، راحة أسبوعية الزامية، الاعتراف بالنقابات من جانب مدراء المشاريع، انشاء مكتب للتفتيش على أحوال العمل.

ونحو منتصف سبتمبر، كانت عدة عشرات من آلاف العمال قد توقفت عن العمل، وكان الشلل عاماً تقريباً. وبسبب ذعرهم، يدعو أرباب العمل السلطات العامة الى استخدام القوة. وفى المشروعات التى تسيطر عليها الرساميل الأجنبية يشدد التوتر. وهكذا، فى شركة سكة حديد الأناضول، والتى يسيطر عليها الدويتش بنك، تتشكل منذ شهر اغسطس نقابة للعمال، تتألف بوجه خاص من عثمانين مسيحيين ومن اجانب، وتطالب بشروط افضل للعمل وتنتقد مدير الشركة، هوجونين. ويكثف سفير ألمانيا والادارة تدخلتهما لدى الباب العالى لكى يتخذ تدابير نشيطة ضد «الثوار» و «الفوضويين». وتتحول الحركة الى اضراب. وعلى مدار عدة ايام، سوف يحكم المضربون حصارهم لمحطة حيدر باشا، المحطة النهائية للخط.

ويصبح الموقف حساساً بالنسبة للحكومة. ومنذ ٨ سبتمبر، تصدر قانوناً مؤقتاً بشأن الاضرابات يهدف الى كبح جماح الحركة الاجتماعية. ومن جهتها، تتخذ لجنة الاتحاد والترقى فى البداية موقف الحكم فى منازعات العمل مظهرة، وفق حس وطنى، أنها أكثر تشجيعاً للحركة الاجتماعية عندما يتعلق الأمر بالمشاريع الأجنبية؛ لكنها تنزعج الآن من الاتساع الذى اتخذته الاضرابات، خاصة فى قطاع استراتيجى كالسكك الحديدية، وتخشى من ان يؤدى استمرار الحركة الاجتماعية الى تحطيم ثقة الرأسماليين.

على أن الموقف سوف يهدأ قرب منتصف اكتوبر. وتراجع الحركة العمالية، بادیء ذی بدء بحکم تشریع تطبقه جماعة تركيا الفتاة. فقانون الاضرابات (تعطيل - ای تشغال قانونو - قانون تعطيل الاشغال) (١٩٠٩)، القليل الوضوح في صياغته، والذي يتعلق بالقطاع العام وحده، يعترف بحق الاضراب، لكنه يقيد اعماله تقييداً خطيراً ويمنع تكوين جمعيات أو نقابات عمالية. أما فيما يتعلق بقانون الجمعيات (جمعیتلیر قانونو) (١٩٠٩) فهو يجيز تكوين هذه الجمعيات العمالية خارج المشروعات التي تعمل من اجل القطاع العام.

كما يرجع هذا التراجع الى الضعف الداخلي للحركة. وكانت اضرابات صيف ١٩٠٨ عفوية اساساً. وقد كشفت عن بروليتاريا مقسمة غالباً وفق انقسامات عرقية أو دينية، تضعف التضامن العمالي، وتعرقل انبثاق وعي طبقي وتجعل التنظيم العمالي مسألة أكثر صعوبة. إلا انه كان هناك جهد لتجاوز هذه الانقسامات : ففي ١٩٠٩، تم في سالونيك انشاء الاتحاد العمالي الاشتراكي الذي سعى، وهو تحت هيمنة عناصر يهودية اساساً، الى تكوين وعي طبقي يتجاوز التباينات الدينية والعرقية بين صفوف عمال سالونيك.

ومن جهة اخرى، فإن الحركة العمالية العثمانية كانت دون صلات، او دون صلات تقريباً، مع الحياة السياسية. ففي ١٩٠٨، لم ينتخب غير نائب اشتراكي واحد. وفي سبتمبر ١٩١٠، تأسس في اسطنبول الحزب الاشتراكي العثماني الأول. وهذا الحزب، المتأثر باشتراكية جان جوريس، يهتم، في برنامجه وفي صحيفته، صحيفة اشتراك، بمشكلات الطبقة العاملة، لكنه يتألف اساساً من المثقفين، ولم يكن له من الناحية العملية تأثير على البروليتاريا العثمانية.

وبالرغم من جوانب الضعف هذه، فإن الحركة العمالية تستمر. فقد جرى طرح المشكلة الاجتماعية في الامبراطورية العثمانية، مشكلة ظروف عمل العمال، مشكلة عمل النساء والأطفال، حتى وإن كان مشروع أول لتشريع اجتماعي في عام ١٩١٠

قد ظل حبراً على ورق. وسوف تستمر الاضرابات بشكل متفرق خلال السنوات التالية: على سبيل المثال، اضراب الحمالين في جمرک اسطنبول (١٩٠٩)، وضراب عمال الحرير في بورصا (١٩١٠)، وضراب عمال السكك الحديدية على خط أزمير - قصبه (١٩١١).

وأخيراً فإن ثورة تركيا الفتاة تبرز على المسرح «المثقفين». لكن هؤلاء المثقفين لم يعد يجمعهم شيء يذكر بحفنة المعارضين المتميزين الذين خاضوا المعركة ضد الاستبداد، قبل نصف قرن. فالواقع ان ثورة تركيا الفتاة تستثير تجديداً للرجال وللأفكار: فمن أوروبا ومن مصر يتدفق مناظرو حركة تركيا الفتاة، ومن القوقاز أو من البلقان يرجع اللاجئون السياسيون الأرمن والبلغاريون. لكن الثورة تجتذب أيضاً مثقفين من اجزاء أخرى من العالم الاسلامي، من الولايات العربية للامبراطورية، ومن مصر، ومن فارس؛ وهي تجتذب بشكل خاص اتراكاً من روسيا (نتار قازان، نتار القرم، أزييرين) يجدون في تركيا حرية تتزايد مكافحتها في روسيا. وذلك ناهيك عن الحالة الأكثر خصوصية لاشتراكي - ديمقراطي مثل پارفوس (الكسندر اسرائيل هيلفاند) الذي يستقر في اسطنبول. ومن خلال هؤلاء الرجال، فإن ما يتغلغل في الامبراطورية هو ذخيرة كاملة من الأفكار الجديدة: التجديد الاسلامي، الشعبية، القومية، التضامنية، الاشتراكية. وتظهر علوم جديدة كالسوسيولوجيا التي يجري انشاء كرسي لها في الجامعة في عام ١٩١٢. وخلال عدة سنوات، تصبح اسطنبول من جديد العاصمة الفكرية للعالم الاسلامي.

وفي «طوفان الأفكار» الذي يجتاح الامبراطورية في عام ١٩٠٨، ينبثق تياران كبيران، بما يفصل اولئك الذين يتجهون الى الاسلام عن اولئك الذين يجربون «غواية الغرب»^(٤). ويحدث استقطاب لمجمل الحياة الفكرية حول هذين الاتجاهين.

وكان محمد عاكف أحد المتحدثين الرئيسيين بلسان التيار الاسلامي. فمحمد عاكف، الذي ولد في عام ١٨٧٣ لأب يعمل مدرساً بالمدرسة الإسلامية في حي

الفتاح، الذى كان آنذاك المركز الرئيسى للثقافة الاسلامية فى اسطنبول، يتأثر كثيراً بطفولته التى قضاها فى وسط مسلم متواضع الحال. وبعد دراسات فى مدرسة الطب البيطرى، يمارس فى آن واحد الكتابة والعمل فى وزارة الزراعة. وفى عام ١٩٠٨، يجرى تعيينه أستاذاً للأدب فى جامعة اسطنبول. وقد تمتع محمد عاكف بشعبية كبيرة بين صفوف الجماهير، التى عبر عن حيرتها وطموحاتها فى قصائد غنائية مطولة؛ وقد انزعج من الهوة القائمة بين المثقفين العثمانيين، المستعدين لتقليد الغرب ولاعتبار الدين مجرد عقبة فى وجه التقدم، والجماهير، المدفوعة الى رد المسئولية عن تدهور الاسلام الى الأخلاق الغربية. وقد رأى محمد عاكف أنه يجب الاعتماد على روح الاسلام التقدمية. والنموذج الذى يجب الاقتداء به هو اليابان، التى نجحت فى تبنى العلوم والتقنيات الغربية دون أن تفقد مع ذلك روحها.

وحول عاكف، نجد أن عدداً معيناً من العلماء والكتاب والشعراء المتأثرين بعمل جمال الدين الافغانى وتلميذه محمد عبده سوف يصدرّون اعتباراً من عام ١٩٠٨ مجلة «عصرية»، هى مجلة «صراط - اى مستقيم»، التى سوف تحرز نجاحاً واسعاً. - والحال أن المجددين، المؤيدين للدستور، الذى يوحّدون بين «الشورى» الاسلامية، والمعادين لتمرد ابريل ١٩٠٩، يرون ان انحطاط البلدان الاسلامية لا يرجع الى الاسلام نفسه، بل الى الشكل الفاسد الذى انتهى الى اتخاذه، بحكم البدع والتقليد، وتأثير الطرق الصوفية. فقد أسفر ذلك عن إسلام يتعارض مع التفكير العلمى ويتميز بالعجز عن التطور والتكيف مع العالم الحديث. ولإنقاذ المجتمعات الاسلامية من التأخر، تلزم العودة الى إسلام خال من الشوائب، والعودة الى الاجتهاد لاستعادة دين يتمشى مع العقل، قادر على تبنى العلوم الجديدة، والتى استعارتها اوروبا فى الواقع من المسلمين فى العصر الوسيط. وبعيداً عن كل مفهوم تأملى، فإن محررى مجلة «صراط - اى مستقيم» يرتأون تجديداً لروح النشاط فى عالم التجارة والصناعة والبنوك.

وخلال عدة اعوام، سوف يمثل عاكف ومجلة «صراط - اى مستقيم» الجناح الأكثر ليبرالية والأكثر عصرية فى التيار الاسلامى. إلا أنه توجد الى جانب هذا الجناح اتجاهات أخرى كثيرة، من الاسلام «الشعبوى» لجمعية الاتحاد المحمدى (اتحاد - اى محمدى جمعيتى)، المشبع بالسمات المهرطقة أو الصوفية، الى الاسلام التقليدى والمحافظ الذى يدافع عنه مصطفى صبرى فى بيان الحق.

وعلى الطرف الآخر للمروحة الايديولوجية، يوجد «دعاة التغريب»، الذين يمثلهم بشكل خاص عبدالله چودت. والحال ان عبدالله چودت، الذى ولد فى عام ١٨٦٩، من أصل كردى، كان أحد مؤسسى حركة تركيا الفتاة. وبعد تخرجه من المدرسة الطبية العسكرية، فإنه يمارس مهنة الطب، مع قيامه بالكتابة وبالترجمة (خاصة ترجمة أعمال شيكسبير). وبعد نفيه، فإنه ينشر مجلة «اجتهاد»، فى جنيف أولاً ثم فى القاهرة. وهو يرجع الى تركيا فى عام ١٩١٠، وفى السنة التالية، يستأنف، فى اسطنبول هذه المرة، إصدار مجلته التى يتعاون معه فى تحريرها بشكل رئيسى كل من جلال نورى وحقى كيليتش زاده. وقد رأى عبدالله چودت ان التغريب ضرورة مطلقة بالنسبة للامبراطورية العثمانية. وقد كتب : «ليست هناك حضارة غير الحضارة الأوروبية، ولا بد من الأخذ بها بوردها وشوكها». وهو يرى ان التغريب هو مسألة تغيير للذهنية. والعقبات التى تعترض ذلك هى التعلق بالقيم التقليدية التى فات أوانها والجهل الذى يبقّى فيه رجال الدين المتشددون والمتعصبون جمهرة السكان. وشأنه فى ذلك شأن عاكف، يأسف عبدالله چودت للهوة القائمة بين المثقفين والجماهير، إلا أنه، خلافاً له، يقترح ردم هذه الهوة بتخليص هذه الجماهير من المعتقدات الباطلة ومن الخرافات، وبغرس مبادئ الغرب الفكرية، مبادئ الحرية والعقل والتفكير العلمى، فى نفوسها، عن طريق التعليم. وكان لمجلة «اجتهاد» برنامج كامل للتغريب ينطلق من الدفاع عن حقوق المرأة الى تبنى الأبجدية اللاتينية، مروراً بتحديث الأسرة، والنضال ضد المدارس التقليدية، والعلمنة، واستخدام النظام المترى.

على أن عبدالله چودت، النصير المتحمس للتغريب، لم يكن مع ذلك أقل وطنية، فهو يتخذ موقف العداء للتدخلات السياسية من جانب أوروبا في الامبراطورية. فتبنى قيم الغرب يعنى على وجه التحديد القدرة على الدفاع عن النفس ضد الامبريالية. وهو يقول، مشيراً الى مخاطر الاستعمار : «إما ان نذهب الى اوروپا أو أنها هي التي سوف تجيىء الينا». ومن ثم فإن التغريب هو مسألة بقاء بالنسبة للدولة العثمانية. ويرى عبدالله چودت أن العثمانيين يجب لهم الاعتماد على قواهم الخاصة وأن الخلاص يجب أن يتحقق على أيديهم. وفي زمن الهجوم الايطالى على طرابلس الغرب، نجد أنه يثور على حد سواء ضد أولئك الذين يطلبون العون من انجلترا كما ضد أولئك الذين يدعون، كشيخ الاسلام، الى أداء صلوات في المدارس. وقد كتب: «ان اعدى اعدائنا هو عجزنا وجهلنا وتعصبنا وتمسكنا الأعمى بالتقاليد {...}. والغرب قدوتنا. وأن نحبه فذلك يعنى ان نحب العلم والتقدم والتطور المادى والأدبى».

وبين هذين الاتجاهين، الاسلامى والتغريبى، المهيمنين على المسرح الفكرى فى عام ١٩٠٨، يظهر تدريجيا نوع من «طريق ثالث»، هو النزعة القومية التركية. وقد انبثقت النزعة القومية من لقاء تيارين : حركة مسلمى روسيا الذين، عند منعطف القرن، وتحت تأثير اسماعيل جاسبرينسكى ومجلة تركمان، يجدون فى اتحاد الشعوب التركية فى روسيا القوة الضرورية لمقاومة خطر الجامعة السلافية؛ وحركة علمية وثقافية ولدت فى اسطنبول فى العصر نفسه، متأثرة باكتشافات علماء التركيات الغربيين، تتجه الى استكشاف ماضى الأتراك وهويتهم. ويتحقق اللقاء بين هذين التيارين فى تركيا بعد ثورة ١٩٠٨. وفى اواخر العام. يتأسس فى اسطنبول المنتدى «القومى» الأول، الجمعية التركية (ترك ديرنيجى)، التى تضم مثقفين أتراك من روسيا وعلماء عثمانيين. وتصدر الجمعية فى عام ١٩١١ مجلة تهتم اساساً بمشكلات تبسيط وتنقية اللغة التركية. وفى العصر نفسه، فى سالونيك، قلب حركة تركيا الفتاة، نجد أن مجلة اخرى، هي مجلة جينتش قلمليير (الأقلام الشابة)، توحد

عدداً من الكتاب والشعراء الشبان كعلی جانب وعمر سيف الدين، في البحث عن «لغة جديدة»، عن تركية مبسطة متحررة جزئياً من مفرداتها العربية - الفارسية. وذلك بالتحديد هو العصر الذي تسعى فيه لجنة الاتحاد والترقي، من سالونيك، الى فرض استعمال اللغة التركية على جميع قوميات الامبراطورية.

وكان محررو المجلة وطنيين متعلقين بمصير الدولة العثمانية، لكنهم كانوا مهتمين بالبحث عن هويتهم. ويتميز بينهم ضياء جوقلب، خاصة لأنه كان في الوقت نفسه عضواً في اللجنة المركزية للجنة الاتحاد والترقي. والحال أن ضياء جوقلب، الذي ولد في عام ١٨٧٦ في ديار بكر، قد دخل في اتصال مع حركة تركيا الفتاة، وتعلم الفرنسية، وتحمس للسوسيولوجيا. وعندما جاء إلى اسطنبول في عام ١٩٠٩، مندوباً لديار بكر الى مؤتمر الاتحاد والترقي، استقر فيها في السنة التالية و«اكتشف» دوركايم، وأصبح بشكل ما ايدولوجي اللجنة. وهذا دور رئيسي، لأن لجنة الاتحاد والترقي سوف تتحول شيئاً فشيئاً الى تبني النزعة القومية التركية على يديه جزئياً.

والواقع ان «قومية» ضياء جوقلب، التي تتميز بالاعجاب باطار الدولة العثماني، إنما تتسم آنذاك بسمتين مميزتين. فهو يؤكد أولاً على ضرورة «ثورة اجتماعية»، يعرفها بأنها بحث عن حياة جديدة، ليست «كوزموبوليتية بل قومية»، وبحث عن «قيم جديدة»، ليست بالمرّة مجرد تقليد لأوروبا، بل نتيجة لتكوين بين الثقافة القومية والحضارة. ومن جهة أخرى، يعبر ضياء جوقلب في أشعاره، من خلال شكل صوفي، عن مثل أعلى وطني «تركي شامل» سوف يجد صدى واسعاً بين صفوف الشبيبة. وقد كتب : «وطن الأتراك لا هو تركيا ولا تركستان، بل أرض شاسعة خالدة اسمها طوران!». وحتى قبل أن تتوافر نظرية عنها، يرسى ضياء جوقلب أسس مفهوم رومانتيكي للنزعة القومية التركية. لكن هذه الأفكار، في تلك اللحظة، قلما تجد جمهوراً لها، خارج أوساط محدودة في سالونيك وفي اسطنبول.

وبوجه عام، فإن الغليان الاجتماعى والفكرى الذى استتارته ثورة تركيا الفتاة يظل محدوداً حتى ذلك الحين. فحفنة من النساء يناضلن من أجل حقوقهن، وعدة مئات من المثقفين يناقشون مشكلات الهوية، وعدة آلاف من العمال يحتجون على ظروف عملهم. وما كان يمكن لأثر ذلك إلا أن يكون محدوداً، ولو لمجرد أن عدد النشاط محدود. أما الجمهور، الجماهير، فإنها لا تتحرك وقلما تظهر على المسرح بشكل أكبر من ذى قبل. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الحركة الاجتماعية تصطدم بأشكال من المقاومة: مقاومة السلطات القائمة، أكانت دينية أم اقتصادية أم سياسية. وكانت الفتاوى والقوانين القمعية ماثلة من أجل احتوائها. وحالة الحصار تستمر والرقابة تتخذ أشكالاً خطيرة. وعندما لا تكون الحركة الاجتماعية عرضة لكبح جماحها ومحاربتها، فإن المنتمين الى حركة تركيا الفتاة يستعيدون الامساك بزمامها ويحاولون تسريبها فى اتجاه ما سوف يصبح بسرعة «مشروعهم» الاجتماعى «الكبير»: خلق بورجوازية تركية.

نشاط جماعة تركيا الفتاة

بالنسبة للاتحاديين، كان انذار ابريل ١٩٠٩ ساخناً. ويمكن القول ان تنظيم تركيا الفتاة قد تبخر. ثم ان الدور الرئيسى فى استعادة النظام لم تلعبه اللجنة، بل كبار ضباط جيش مقدونيا. إلا أن الأمر لن يحتاج إلا الى عدة اشهر حتى يتسنى للجنة الاتحاد والترقى أن تتمالك نفسها وأن تصبح من جديد القوة السياسية المهيمنة فى الدولة.

والواقع أنه لا يوجد بعد منافسون على رأس الدولة. وذلك لأسباب تتعلق أولاً بالرجال الموجودين فى السلطة. فالسلطان الجديد، محمد الخامس، ابن عبدالمجيد، والذى قضى حياته منزوياً، وارتقى العرش مسناً، لا يمثل بعد تهديداً للاتحاديين. وهى يكتفى بلعب دور شكلى، أن يرمز بشخصه الى الوحدة العثمانية. وحسين

حلمى باشا، الذى يستعيد مهامه كصدر أعظم غداة تمرد ابريل ١٩٠٩، هو بالرغم من كل شىء أكثر انصياعاً من الباشاوات القدماء كسعيد أو كامل. أما فيما يتعلق بابراهيم حقى باشا، خليفته فى بداية عام ١٩١٠، والسفير السابق لدى روما، والشخصية النزيهة ولكن المحدودة الوزن، فهو أيضاً اقل ميلاً الى اللعب بورقة شخصية. وتضاف الى ذلك اسباب دستورية : ذلك ان سلسلة من التعديلات التى أدخلت على الدستور فى اغسطس ١٩٠٩ قد اختزلت سلطات السلطان كما اختزلت سلطات الصدر الأعظم. فالأول يجد نفسه محروماً من جانب من صلاحياته، كتعيين الوزراء وحملة المسئوليات العليا فى الدولة، بين صلاحيات أخرى. والثانى يملك سلطة أقل على مجلس وزراء يعتبر منذ ذلك الحين مسئولاً أمام البرلمان.

وفى مجلس الوزراء، تدخل اللجنة رجالاً يأترون بأمرها، ويحتلون مناصب رئيسية: چاويد بك، الذى سوف يصبح وزيراً للمالية فى يونيو ١٩٠٩، وطلعت باشا، الذى سوف يصبح وزيراً للداخلية فى الشهر التالى. وفى مجلس النواب، الذى تضعه التعديلات الدستورية منذ ذلك الحين فى الصدارة، تتمتع اللجنة بأغلبية جد كبيرة من النواب المتجمعين فى حزب الاتحاد والترقى تحت هيمنة خليل مينتيشى. أما فيما يتعلق بالمعارضة البرلمانية التى اختفت عملياً منذ مايو ١٩٠٩، فإنها تبدأ فى الظهور من جديد على شكل جماعات صغيرة منظمة الى هذا الحد أو ذاك كحزب الشعب (أهالى فرقاسى)، فى فبراير ١٩١٠، ثم الحزب الجديد (حزب - اى جديد)، فى اوائل عام ١٩١١، لكنها جد ضعيفة بحيث لا يمكنها منازعة هيمنة الاتحاديين.

وتبقى مشكلة الجيش. ذلك أن محمد شوكت باشا، قائد جيش العمل (حركة اوردوسو) الذى أخمد التمرد، هو الرجل القوى الآن، إلا أنه يعزف عن ممارسة السلطة السياسية. وإذا جرى تعيينه فى البداية مفتشاً للفيالق الثلاثة الأولى من

الجيش وقائداً لحالة الحصار فى اسطنبول (والتي سوف تظل سارية المفعول حتى يوليو ١٩١٢)، فإنه يدخل وزارة ابراهيم حقى باشا وزيراً للحربية فى بداية عام ١٩١٠. وهكذا فإن دوره السياسى يصبح بشكل ما رسمياً. والحال أن الاحتكاكات لن تغيب بين هذا الجندى الصلب والمتشدد ولجنة الاتحاد والترقى. وهى تتعلق بمكانة السياسة فى الجيش والتي يود محمود شوكت ازالتها فى ذات الوقت الذى يواصل فيه الاتحاديون الاستناد الى قوة الضباط الشبان. كما يدور صراع على النفوذ داخل مجلس الوزراء حيث تؤدي مسألة الميزانية الى إثارة مواجهة عنيفة بين وزير الحربية ووزير المالية، چاويد، الذى يريد مقاومة شهوات الأول المسرفة.

على انه، فيما عدا هذه الصدمات القليلة، فإن محمود شوكت باشا والمنتمون الى حركة تركيا الفتاة يسعون الى هدف واحد : الحفاظ على تكامل ووحدة الامبراطورية. وبدرجة أكبر من كونه سياسياً، فإن الأول يهتم باصلاح الجيش وبتأمين الدفاع عن الامبراطورية. وفى الممارسة العملية، سوف تصبح العلاقات من ثم وثيقة بين اللجنة وقوة الضباط، خاصة على مستوى الولايات، حتى وإن كانت هذه الرابطة العسكرية يراد لها أن تظل غير سافرة.

ومن ثم فسوف تتجه اللجنة الى تنظيم نفسها فى ظل الجيش. ويظل الجهاز القيادى هو اللجنة المركزية بالتحديد (مركز - اى عمومى - المركز العمومى)، السرية دائماً، والتي تواصل توجيه الحياة السياسية للامبراطورية من سالونيك حتى صيف ١٩١٢، الموعد الذى سوف تنتقل فيه الى عاصمة الامبراطورية. وهى تعقد فى كل سنة مؤتمراً يحدد المبادئ الموجهة لسياستها. ومن بين انشط اعضاء اللجنة، تجب الاشارة الى الدكتور ناظم وعمر ناجى ومدحت شكرو. إلا أنه لا ينبثق بالفعل زعيم على رأس الجميع، خاصة قبل ١٩١٣. فالشخصيات التاريخية الكبرى للحركة تحتل مكانات شرفية، كأحمد رضا، أو تنتقل الى المعارضة، كابراهيم تيمو. وأبطال يوليو ١٩٠٨ لا يتصدرون المسرح بعد، حيث أعيد نيازى الى ثكناته وأرسل انور الى المانيا ليكون ملحقاً عسكرياً.

وتبذل اللجنة جهداً واسعاً لمد نفوذها الى الولايات. ويجرى انشاء تنظيم هرمى كامل، يمتد من لجنة سالونيك المركزية الى الأندية المحلية، مروراً بشعب مدن الولايات. وهو هيكل غالباً ما «يوازى» هيكل ادارة الولايات الذى يتألف من ولاية ومتصرفين وقائمقامات. وعلاوة على ذلك، فإن بوسع لجنة الاتحاد والترقى الاعتماد على شبكة غير رسمية من العلاقات تستند الى الصلات العائلية، وصلات الصداقة والزمالة التعليمية والحماية، والتي تجعل التنظيم بالغ الفعالية^(٥). وفى الولايات، يتعين على الشعب أن تكون مراكز للتقدم، تفتتح المدارس، وتوزع المؤلفات والصحف الدعائية، وتشجع الأنشطة الاقتصادية. ومن حيث الأساس، فإن جماعة تركيا الفتاة تريد أن تؤسس، بالنسبة للأتراك والمسلمين، هيكل جماعة كالهيكल الموجود بالنسبة لليونانيين أو للأرمن أو لليهود، وسرعان ما سوف يتسنى لنسق تضامن - والمصطلح مستعار من السوسيولوجيا الفرنسية - أن يكتسب خطوة فى أوساط الاتحاديين.

وفى الأرياف، تستند اللجنة الى كبار ملاك الأرض. ومنذ ذلك الحين، يشكل هؤلاء الأخيرون فى البرلمان قوة سياسية حقيقية، يتزعمها نواب مؤثرون من جماعة تركيا الفتاة، كخليل مينتيشى أو على جينانى أو مصطفى رحى، المنحدرين من عائلات من كبار ملاك الأرض فى ايجيه وسوريا ورومىليا بحسب الترتيب. وفى هذه الأزمنة التى تتميز بوقوع الامبراطورية فى الاستدانة، تشكل الأرض مع ضريبة العشر المورد الأول للخزانة، وتمثل المصدر الرئيسى لتراكم رأس المال؛ كما انها الثروة الوحيدة التى تقلت بشكل كامل تقريباً من الهيمنة الأجنبية. وقلما يكون بوسع اللجنة التفكير فى انهاء السيطرة السياسية والاقتصادية للأغوات (كبار ملاك الأرض). على العكس، إن سياستها الزراعية تميل الى محاباتهم، واستلهاماً لآراء الاقتصاديين الليبراليين، يرى چاويد بك ان طريق التطور بالنسبة للامبراطورية العثمانية إنما يمر بالتخصص فى المجال الزراعى. ولذا ينبغى تجهيز البلاد بالطرق وبالسكك الحديدية لتسهيل حركة الصادرات، ودعم الاستثمارات الزراعية الواسعة الموجهة نحو زراعة المحاصيل التى يمكن تسويقها.

على أن لجنة الاتحاد والترقى، وهى حركة انبثقت من مدن مقدونيا، إنما تستند أولاً وقبل كل شىء الى ركيزة حضرية. وهى تجند أتباعها بشكل خاص بين صفوف البورجوازية الصغيرة فى المدن الكبرى، بين صفوف المحامين أو المدرسين أو الأطباء أو الصحفيين، أو المستخدمين أو الموظفين، وبين صفوف التجار والحرفيين الأتراك المسلمين فى مدن الأناضول. ويضاف الى هؤلاء صغار الضباط من خريجي المدارس العسكرية (مكتبلى)، المعارضين بوجه عام لكبار ضباط النظام القديم، والذين يجرى تجنيد الجناح النشط للجنة من بين صفوفهم. وهكذا فإن اللجنة تمثل الطبقات المتوسطة التركية الصاعدة، التى تريد أن تجعل منها ركيزة دولة عثمانية محدثة.

وعلاوة على ذلك، فإن اللجنة تجتهد فى تأطير وتعبئة الجماهير. فهى تسيطر فى اسطنبول على الطوائف القوية لعمال الموانئ والبحارة. وهى تنظم اجتماعات حاشدة نجد على رأسها فى أغلب الأحيان الصحفي حسين جهيد، أو «الفيلسوف» رضا توفيق، أو أيضاً الكاتبة الروائية خالدة أديب، وتدشن اكتتابات شعبية واسعة، لشراء سفن حربية مثلاً. والمثال النموذجى لهذه السياسة الخاصة باستخدام الجماهير الحضرية هو المقاطعة التى نظمتها اللجنة فى اكتوبر ١٩٠٨ للمنتجات الواردة من النمسا (خاصة السكر والطرابيش) رداً على ضم البوسنة والهرسك. والحال أن نجاح هذه العملية الأولى، والذى لاجدال فى أنه يزعم النمسا، إنما يدفع جماعة تركيا الفتاة الى اللجوء الى هذا السلاح نفسه ضد التجار اليونانيين (بشأن أمور كريت) ثم ضد الايطاليين عند غزو طرابلس الغرب. وخلف تنظيم هذه المقاطعات، التى يشكو منها بشكل خاص التجار المسيحيون الأكثر توجهاً الى التجارة الخارجية، ترتسم فكرة سرعان ما سوف تتجه جماعة تركيا الفتاة الى تطبيقها : خلق «اقتصاد قومى» (ملى اقتصاد).

وهكذا فإن لجنة الاتحاد والترقى تمثل منظمة مركبة تنتمى فى آن واحد الى المحفل الماسونى والخلية الثورية وجماعة الكوميتاچى والحزب السياسى بالمعنى

الحديث للمصطلح. ووراء نبرة الكلام الليبرالية والديمقراطية، لم يفقد المنتمون الى جماعة تركيا الفتاة عاداتهم السابقة : الميل الى التكتّم والسرية، نظام الشبكات المتوازية، فن القلاعب بال جماهير وفن الدعاية، الذى يستخدمه بشكل خاص وبإستاذية حسين جهيد فى صحيفة «تأين»، واللجوء الى الضغوط أو، فى نهاية الأمر، الى الوسائل العنيفة: وأسماء بعض صحفهم المحلية تذكر بذلك: سلاح (السلاح)، سونجو (الحربة)، كورشون (الرصاص)، بيتشاك (الخنجر)، بومبا (القنبلة).

وقد قام المنتمون الى جماعة تركيا الفتاة بالثورة فى يوليو ١٩٠٨ من اجل انقاذ وحدة الامبراطورية المهددة بدرجة خطيرة. وبمجرد وصولهم الى الامساك بمقاليد حكم الامبراطورية، أصبح عليهم العمل على تطبيق الجزء الاول من شعارهم، «الاتحاد». فما هى السياسة التى سوف يتبعونها تجاه مشكلة القوميات؟ بالنسبة لهم، يعتبر الاتحاد اتحاد جميع العناصر العرقية (اتحاد - اى عناصر) فى الامبراطورية، أى إنهاء الاتجاهات الخصوصية أو الاستقلالية أو حتى الانفصالية بين صفوف قوميات الامبراطورية، أكانت تتألف من مسلمين أم من غير مسلمين. وفى حالة غير المسلمين، تريد جماعة تركيا الفتاة الانتهاء من الملل، الجماعات العرقية - الدينية شبه المستقلة، والتى تنظر اليها على انها لا تتمشى مع العصر وعلى انها تمثل تحدياً حقيقياً للمفهوم الذى يتصورونه عن الدولة. ومن ثم فإنها تريد ألا يوجد بعد يونانيون ويهود وأرمن وعرب وأتراك، بل أن يوجد مواطنون عثمانيون سواسية أمام القانون، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. والحال أن جماعة تركيا الفتاة، المتأثرة ببعقوبية الثورة الفرنسية، بفكرة «دولة واحدة ولا تقبل التجزئة»، إنما تريد فرض المركزية والتماثل والتسوية والترشيد.

لكن قوميات الامبراطورية لها مفهوم آخر عن الاتحاد. فبالنسبة لغير المسلمين، كان الاتحاد يعنى المساواة بين الملل، أى صون، بل وحتى إنماء نظام الاستقلال

الثقافى، والذي يستمرون بحكمه يونانيين أولاً أو أرمنيين أولاً، وعثمانيين ثانياً، رعايا للامبراطورية. والصفوات، كُثُن لمشاركتها فى النضال ضد الاستبداد، تطالب بمكانة أوسع فى شئون الدولة، وبقدر أكبر من الحكم الذاتى، وتحت مصطلح الحكم الذاتى هذا، يحلم كثيرون بالاستقلال. وفيما يتعلق بالقوميات المسلمة غير التركية، فإنه إذا كانت ثورة يوليو لم تقابل، بوجه عام، بترحيب كبير من جانب الوجهاء العرب أو الألبانيين أو الأكراد الذين دأبوا على عبد الحميد، فإن الطبقات المتوسطة، والصحفيون والمثقفون على رأسها، قد رأوا فيها فرصة لتحقيق تطلعاتها الى العدل والى اللامركزية. ولم تكن المساواة بالنسبة لها مسألة دفاع عن امتيازات - لم تكن تتمتع بها (فيما عدا الألبان الى حد معين) - ، بل مسألة حصول من اسطنبول على اصلاحات وعلى قدر أكبر من الحكم الذاتى.

والواقع ان هذه الاختلافات فى طريقة فهم الاتحاد العثمانى، والمطموسة مؤقتاً فى فورة حماس الثورة، سوف تظهر بشكل سافر غداة يوليو. فمناخ الحرية يمنح تطلعات القوميات وسائل جديدة للتعبير عن نفسها، غير البندقية أو القنبلة : التطور غير العادى للصحافة، أولاً، مع ظهور صحف بشتى لغات الامبراطورية، وتكاثر الأندية الثقافية أو الجمعيات ذات الأساس العرقى أو الدينى. بل إن الأكراد، الذين كان استيقاظهم القومى متأخراً، سوف تكون لهم فى اسطنبول صحيفتهم وجمعيتهم، الجمعية الكردية للتعاون والترقى (كرد تعاون وترقى جمعيتى).

كما يتيح البرلمان للقوميات منبراً لاسماع صوتها. فالى جانب المندوبين الأتراك الـ ١٤٧، يجرى فى انتخابات عام ١٩٠٨ انتخاب ٦٠ عربياً و ٢٧ ألبانياً و ٢٦ يونانياً و ١٤ أرمنياً و ١٠ سلافيين و ٤ يهود. والحال أن برلماناً يمثل هذه الدرجة من اختلاط العناصر لابد له من أن يبرز بسرعة ما وصفته خالدة أديب على استحياء بـ «غياب الانسجام»^(٦). وسوف تتجمع الأقليات مع العدد القليل من

النواب الليبراليين المنتمين الى حزب الأحرار (أحرار فرقاسي)، والذين، بحكم كونهم ورثة لأفكار صباح الدين حول اللامركزية، يتخذون موقفاً أكثر ليبرالية تجاه المشكلة القومية من لجنة الاتحاد والترقي. وإلى جانب الوسائل الشرعية، يتواصل الغليان القومي خلال شتاء ١٩٠٩ : فمن جديد تنتقل جماعات الكومييتاچی اليونانية والبلغارية الى الفعل ويجري استئناف الصدامات بين الأكراد والأرمن في الشرق، وتنشب القلاقل في البانيا. وهكذا، فإن إعادة الدستور، بدلاً من ان تخفف حدة المشكلات القومية، لا تؤدي إلا إلى زيادتها.

وفي البداية سوف تجرب جماعة تركيا الفتاة التفاوض. وهذا هو ما حدث مع أرمن حزب الداشناق أو البطريركية اليونانية خلال فترة الانتخابات. على ان الجماعة، بعد انقلاب ابريل ١٩٠٩، والذي لعبت فيه الاقليات دوراً (الألبان) أو الذي ايدته (اليونانيون)، وبعد مجازر أضنه، التي دشنت مناخ خوف شديد لدى الأرمن، سوف تجتهد في تطبيق تصورهما المركزي للاتحاد عن طريق سلسلة من التدابير: اغلاق الجمعيات والأندية، بموجب قانون الجمعيات (جمعية تير قانونو) الصادر في اغسطس ١٩٠٩، والذي تحظر المادة الرابعة منه «الجمعيات السياسية التي تستمد غايتها أو اسمها من عرق أو من قومية»؛ والقضاء على الجماعات المسلحة في مقدونيا بموجب القانون الخاص بمكافحة الجماعات المسلحة في روميليا، والقانون الخاص بالأعمال اللصوصية وأعمال قطع الطرق؛ والزام غير المسلمين بأداء الخدمة العسكرية. وأخيراً، فإن جماعة تركيا الفتاة تفكر في تعزيز توحيد البلاد عبر مركزة النظام التعليمي وفرض تفتيش على مدارس الأقليات والسعى الى فرض اللغة التركية في المدارس والمحاكم. أي عبر انتهاج سياسة عثمانية ثقافية. ولن تؤدي هذه التدابير كلها إلا الى استثارة السخط، لدى الالبانيين كما لدى عرب سوريا، مروراً بيوناني وأرمن العاصمة.

ويتمثل هدف آخر لجماعة تركيا الفتاة في تفادي تدخل الدول العظمى في مقدونيا، والذي يشكل مدخلاً الى تمزيق الامبراطورية وتقسيمها. وإن كانت

الجماعة تتألف من وطنيين متحمسين، فإنها تريد الحفاظ على وحدة أراضي الدولة في مواجهة الامبرياليات، وانهاء الامتيازات والتدخلات الأجنبية في الامبراطورية. وفي النهاية، فإن طموحها يتمثل في الانتقال بالامبراطورية من حالة شبه مستعمرة مستغلة من جانب الدول العظمى الى حالة دولة ذات سيادة تهيمن على مواردها الخاصة. وهو برنامج لا يخلو من الطموح: فالتحول الى «يابان الشرق الأدنى»، يتعين الحفاظ على سيادة الدولة، مع مد اليد الى اوروبا: محاولة الغاء الامتيازات مع مواصلة طلب عون رساميلها وخبرائها وهو برنامج لا يختلف كثيراً، من حيث الأساس، عن برنامج عبدالحميد. والفارق هو الوسائل المعتمدة للوصول الى ذلك.

وتتصور جماعة تركيا الفتاة انها قد قطعت شوطاً طويلاً على الطريق باعادتها للعمل بالدستور. فهي تتصور أن الدستور سوف يفرض الاحترام على اوروبا ويحول دون تدخلها ويرد للدولة اعتبارها ويؤدي الى تدفق الرساميل الاجنبية التي أشار چاويد، في سلسلة من المقالات في صحيفة «صباح»، الى أهميتها بالنسبة لتطور البلاد. ومن هذه الزاوية، فإن احداث اكتوبر ١٩٠٨ سوف تقابل بوصفها تخيباً للأمل.

كما يجب العمل على الدفاع لدى الأوروبيين عن الصورة المميزة للنظام الجديد، وإطلاعهم على توجهه الليبرالي وطمأنتهم على مصالحهم. وهكذا فإن عدداً معيناً من المنتمين الى جماعة تركيا الفتاة والذين مكثوا في باريس سوف يصدرون منذ شهر اغسطس ١٩٠٨ صحيفة دعائية، هي صحيفة تركي نوڤيل، التي تتخذ موقف المدافع عن النظام الجديد وتجعل من نفسها رسول الصداقة الفرنسية-العثمانية، وتؤيد الفكرة التي تذهب الى ان الدولة العثمانية يجب أن تنضم الى الوفاق الثلاثي، مع المطالبة في الوقت نفسه بالغاء الامتيازات. كما أن جماعة تركيا الفتاة سوف تضطلع بجولات اعلامية ودعائية في العواصم الأوروبية الرئيسية. وسوف يزور احمد رضا والدكتور ناظم باريس ولندن في اكتوبر - نوفمبر ١٩٠٨ لتوضيح اتجاه ثورة تركيا الفتاة ودور لجنة الاتحاد والترقي.

وكان عبدالحميد قد راهن بكل شيء على ألمانيا. وجماعة تركيا الفتاة تريد التخلص من هذا الاحتكار وتدشين سياسة توازن بين الدول. وهذه الرغبة في التوازن تتجلى مثلاً في اختيار الخبراء الأوروبيين. فإذا كان تدريب الجيش البري يستمر على أيدي ضباط ألمان (سوف يستأنف فون دير جولتز الخدمة في ديسمبر ١٩١٠)، فإن إصلاح البحرية يوكل إلى فريق يقوده انجليزى، هو الأميرال جامبل، بينما توكل إعادة تنظيم الجندرية إلى الفرنسيين.

على أن السياسة الخارجية لجماعة تركيا الفتاة سوف تصطدم بصعوبات جسيمة. فتكوين الكتل، الوفاق الثلاثى ضد التحالف الثلاثى، واحتداد اندفاع الامبرياليات، يجعلن مهمتها شاقة بشكل خاص. ففي غضون سنوات قليلة، كان الوضع في الشرق الأدنى قد تغير: فقد أصبحت السياسة النمساوية في البلقان أكثر عدوانية. وروسيا، بعد خيبتها في الشرق الأقصى، تتحول من جديد إلى الامبراطورية العثمانية، حريصة على أن تؤمن عبر المضائق صادرات القمح التي أصبحت حيوية بالنسبة لاقتصادها ومتحرقة إلى انشاء شبكة للسكك الحديدية في آسيا الصغرى، ترقباً لاثارة مسألة الاصلاحات الأرمنية. وفي الاناضول وفي الولايات العربية، تتم المواجهة بين ألمان وانجليز وفرنسيين حول سكك حديد بغداد، وسرعان ما سوف تتم حول آبار بترول الموصل. بل إن هناك قادمين جداً، هم الأمريكيون، الذين يتقدمون كشركاء قادمين في انشاء شبكة للسكك الحديدية في الاناضول الشرقية (مشروع تشيستر). ومن جهة أخرى، فإن الدول العظمى، التي تسارع إلى التصدى إحداها للآخرى عندما تتصادم مصالحها سوف تجد نفسها موحدة الصف عندما تتعرض إمتيازاتها للخطر أو عندما يجرى المساس بالامتيازات.

وكانت جماعة تركيا الفتاة نفسها منقسمة على نفسها فيما يتعلق بتسيير السياسة الخارجية. فغالبية المدنيين، المشربين بفكرة الحرية والتقدم، يشعرون بقدر

كبير من التآلف مع انجلترا وفرنسا. انجلترا، لاعتبارات ايدولوجية («أم البرلمانات») وعملية، لأنها الأقل تورطاً نسبياً في الاستغلال الاقتصادي للامبراطورية. وفرنسا، لاعتبارات هي في آن واحد عاطفية، لأن كثيرين من المنتمين الى جماعة تركيا الفتاة قد اقاموا فيها خلال فترة نفيهم في اوربا، وثقافية، لأنهم وجدوا في التاريخ (الثورة) والفكر الفرنسي (الوضعية) جانباً كبيراً من مصادر الهامهم. إلا أنه يوجد، خاصة في الجيش، أنصار حاسمون لألمانيا، خاصة كبار الضباط الذين تعلموا في ألمانيا، كمحمود شوكت باشا، أو أحمد مختار باشا. وهو انقسام يتناسب مع استراتيجيات متباينة: فالأوائل يفكرون أولاً في التقدم الاقتصادي للبلاد، والآخرين يفكرون في الدفاع عنها. النمو أم الدفاع؟ انها معضلة ترمز اليها المواجهة بين جاويد بك ومحمود شوكت باشا حول الميزانية. وخيار يعتبر خياراً للسياسة الخارجية.

وخلال الشهور التي تتلو ثورة يوليو، تتمتع بريطانيا العظمى بهيبة عظيمة في اسطنبول^(٧) لكن الآمال المعلقة عليها سرعان ما سوف تمنى بالخيبة. ففي اكتوبر ١٩٠٨، تقدم جماعة تركيا الفتاة اليها، دون طائل، عرضاً بالتحالف. والواقع ان وزارة الخارجية (البريطانية) والسفارة البريطانية في اسطنبول على حد سواء تكتان مشاعر معادية للاتراك بقوة وتتخوفان من الأثر المعدي الذي قد يكون للدستور العثماني على مصر وعلى الهند. وعزل كامل باشا المماليء للانجليز لا يصلح الأمور. والحال ان الانجليز، مع المجازفة برؤية ملكية دستورية في اسطنبول، يفضلون رؤيتها في ايدي ليبراليين لا في ايدي يعاقبة كالاتحاديين. ومن هنا الدعم الممنوح للمعارضة الليبرالية خلال شتاء ١٩٠٩. ومن جهة اخرى، فإن بريطانيا العظمى تريد مراعاة حلفائها في الوفاق الثلاثي، خاصة روسيا، وحماية الجناح الشمالي - الغربي للهند. وفي عام ١٩٠٩، عندما تسعى الى تجديد عقد شركة لينش الملاحية بشأن نهري دجلة والفرات، فإنها تصطدم بمقاومة عنيفة من

جانب الأعيان والنواب العرب، وإذا وجد الصدر الأعظم حسين حلمى باشا نفسه بين نارين، فإنه يضطر الى التنحي.

ومع فرنسا، أيضاً، تصبح العلاقات صعبة، بالرغم من رأس مال التعاطف معها والذي يكنه فى البداية الثوار الذين يعلنون على المكشوف تعلقهم بمبادئ ١٧٨٩. لكن فرنسا كانت مشغولة بمسألة المغرب الأقصى. ولما كانت حريصة على المصالح المالية والاقتصادية والثقافية الضخمة التى راكمتها فى الامبراطورية، فإنها تتخوف من النزعة القومية لجماعة تركيا الفتاة، ومن موقفها المريب تجاه مؤسسات كادارة الدين العام أو ادارة التبغ. وفى عام ١٩١٠، لمواجهة النفقات العسكرية المتزايدة خصوصاً، يزور جاويد بك باريس للتفاوض على قرض جديد، لكنه يرجع خالى اليدين، لأن الحكومة الفرنسية تطلب ضمانات ادارة وضمانات سياسية (خاصة مشتريات من العتاد العسكرى) بدت له غير مقبولة. وفى صحيفة تانين، يشن حسين جهيد حملة شعواء على موقف الفرنسيين، الذى كتب انه يشكل «إساءة» حقيقية «لكرامة ولاستقلال تركيا».

مسألة لينش وفشل الحصول على قرض فرنسى: مسألتان تصوران صعوبة العلاقات بين دولة تمر بضائقة من الناحية المالية لكنها غيرة على استقلالها وأوروبا جد عازمة على انتزاع مال من وراء دعمها. وبين هذين المطلبين المتناقضين، تجد الامبراطورية العثمانية نفسها فى طريق مسدود. وعندما تهاجم ايطاليا طرابلس الغرب، سوف تكون (الامبراطورية العثمانية) اكثر عزلة من ذى قبل.

الانتكاسات الأولى : طرابلس الغرب، البانيا

منذ زمن بعيد وايطاليا تثبت عينيها على طرابلس الغرب. فالرغبة فى العثور على تعويضات عن الوجود الفرنسى والانجليزى فى شمال افريقيا، والاندفاع

النمساوى فى البلقان، وقرب بلد يتميز بسمات «أرض موعودة»، وذكرىات الوجود الرومانى، والثروة التى يسود الاعتقاد بأنها موجودة هناك، والفكرة التى تفرض نفسها والتى تذهب الى ان «الثمرة قد نضجت»، كل ذلك يحرك الخيالات فى ايطاليا فريسة للحمى القومية والامبريالية. ويهتم بذلك البيروقراطيون والسياسيون والصحفيون ورجال الأعمال. فبوسع طرابلس الغرب أن تكون مخرجاً للفيضان الديموجرافى فى جنوب ايطاليا والذى يصب فى امريكا. وحتى قبل أن يفتتح بنك روما (بانكو دى روما) له مكتباً فى اسطنبول، كان قد انغرس بالفعل هناك، فقد انخرط فى برنامج طموح للاستثمارات، فى السكك الحديدية والملاحة والموانئ والتحديث الزراعى (انتاج زيت الزيتون)، ناهيك عن شراء الأراضى، ممهداً المجال بذلك أمام نفوذ سياسى. لكن ما يدفع ايطاليا الى الانتقال الى الفعل هو مسألة المغرب الاقصى: فبسبب الاتفاقات الفرنسية - الألمانية التى تمنح فرنسا حرية التصرف فى مقابل تعويضات لألمانيا، يحين الوقت لكى تتحرك ايطاليا.

وتدرك جماعة تركيا الفتاة الخطر الذى يهدد آخر ولاية لها فى افريقيا. وقد حاولت كسر شبه الاحتكار الاقتصادى الايطالى باجتذاب استثمارات من بلدان أخرى. وهكذا، وفى مارس ١٩١٠، نجد أن والى طرابلس الغرب الجديد، ابراهيم باشا، يدعو رأس المال الأمريكى الى المجيئ لاستغلال الفوسفات. لكن (جماعة تركيا الفتاة) تهمل، فى الوقت نفسه، الدفاع عن الولاية. وكانت الميليشيا التى كانت موجودة فى زمن عبدالحميد قد شتت شملها بعد ١٩٠٨، حيث جرى سحب قوات لمواجهة قلاقل اليمن.

وفى ٢٩ سبتمبر ١٩١١، مع انتهاء مهلة الانذار الذى وجهته السلطات الايطالية، يجرى اعلان الحرب. وفى ٤ اكتوبر، تنزل القوات الايطالية فى ولاية طرابلس الغرب. وفى غضون اسابيع قلائل، تستولى على المنطقة الساحلية دون أن تواجه مقاومة جادة. وفى بداية نوفمبر، يصبح بوسع ايطاليا أن تعلن رسمياً ضم مدينتى طرابلس الغرب وبنغازى.

لكن المقاومة العثمانية سرعان ما سوف تنظم نفسها. فالواقع أن الرهان كان كبيراً : فإذا ما ظهر أن الاتراك عاجزون عن الدفاع عن ولاية طرابلس الغرب، فإن عرب ولايات الشرق الأوسط يجازفون بفقدان الثقة في الحماية التي تزعم اسطنبول أنها توفرها لهم في وجه الامبريالية الغربية. وتؤدي الحرب التركية - الايطالية الى ايقاظ مشاعر الوحدة الاسلامية في العالم الاسلامي. وهي تحفز فورة تضامن واسعة وتثير حماس النفوس في تركيا نفسها الى الجهاد. وذلك الى الدرجة التي يضطر معها حسين جهيد، في «تأنيين»، الى حث مواطنيه على التزام الهدوء، وذلك، فيما يقول، لحيلولة دون اثاره انزعاج انجلترا التي تعتبر مساندتها ضرورية لحل الأزمة. ويجري ارسال أنور الى ولاية طرابلس الغرب مع حفنة من الضباط، لتنظيم المقاومة في الداخل عن طريق تجميع بقايا الحاميات العثمانية والدخول في تحالف مع السنوسيين. وهكذا تبدأ حرب عصابات سوف تستمر سنوات طويلة. ولعجز ايطاليا عن التغلغل داخل ولاية طرابلس الغرب لتدعيم سيطرتها، فإنها تحول الأنظار بقصفها للدردنيل وباستيلائها على جزر الدوديكانيز (ابريل ١٩١٢).

وفي تلك الاثناء، على الطرف الآخر للامبراطورية، في مقدونيا، وخاصة في ألبانيا، لا يتوقف الوضع عن التدهور. فمنذ وقت طويل، كان الألبانيون يشكلون أحد أعمدة الدولة العثمانية، وقد حصلوا على معاملة تفضيلية من جانب السلاطين. وتمكن عبدالحميد من كسب تأييد الزعماء الألبانيين. وغالباً ما لعب الألبانيون دوراً أساسياً في حركة تركيا الفتاة (ابراهيم تيمو مثلاً) وفي الثورة نفسها (نيازي)، أملاً في ان النظام الجديد سوف يتجاوب مع التطلعات الى الحكم الذاتي والتي عبرت عن نفسها في زمن مؤتمر برلين. وفي نوفمبر ١٩٠٨، انعقد في موناكو مؤتمر قومي الباني يوحد المسلمين والأرثوذكس والكاثوليك، أكد دعمه لجماعة تركيا الفتاة. إلا أنه سرعان ما تستثير اتجاهات المركزة لدى هذه الجماعة غلياناً في الجبل الألباني.

وبينما كان النواب الألبانيون في مجلس النواب، وعلى رأسهم اسماعيل كمال، يحتجون على السياسة التي تنتهجها جماعة تركيا الفتاة، يتحول الغليان الى تمرد سافر في كوسوفو في عام ١٩١٠. وفي حين ان الدولة لم تتحسس في العصر العثماني قوتها في الجبل الألباني، فإن سياسة المركزة التي تنتهجها جماعة تركيا الفتاة تنزع الى فرض نفسها فيه. وسوف يحتج الألبانيون على المحاولات التي ترمى الى ان تفرض عليهم ضرائب جديدة وتعداد سكاني ومدارس تركية واستخدام اللغة التركية، والأبجدية العربية في كتابة لغتهم الخاصة. أما القانون المضاد للجماعات المسلحة، والذي يأمر بنزع سلاح الجماعات السكانية المدنية، فهو يقابل باستياء بالغ في بلد يعتبر فيه الثأر نوعاً من عادة قومية. ويشعر الألبانيون الكاثوليك بالسخط تجاه الإلزام بالخدمة في جيش السلطان.

وفي وجه الانتفاضة الألبانية، سوف تلجأ جماعة تركيا الفتاة الى القمع الوحشي (حملات چواد باشا وتورجوت باشا) والى تهدة الخواطر بشكل تناوبي. وفي عام ١٩١١، نجد ان حرب العصابات، التي غذتها اسلحة مهربة من الجبل الأسود المجاور، تستأنف مسيرتها، اعتماداً على المسيحيين والمسلمين الذين يبرزون قبل كل شيء هويتهم الألبانية. وتدعو لجنة قومية البانية تأسست في فلورا الى اتحاد الولايات الألبانية في البانيا موحدة لها برلمانها وادارتها وجيشها. وفي اغسطس ١٩١١، يبدو أن الحكومة تتراجع، لكن الموقف يظل غير مؤكد : ففي ربيع ١٩١٢، تنور البانيا من جديد ثورة سافرة.

وهذه الأحداث التي تدور على أطراف الامبراطورية لها أصداء عميقة في اسطنبول وتدشن سلسلة من الأزمات السياسية. فمنذ الغزو الايطالي في طرابلس الغرب، يضطر الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا الى ترك مكانه لأحد العائدين، وهو سعيد باشا. وتتعزز المعارضة. وفي نوفمبر ١٩١١، يتشكل في مجلس النواب حزب جديد، هو حزب الإنتلاف الليبرالي (حرية وإئتلاف فرقايسى)، الذي يوحد كل

الساخطين على النظام. وهذا الحزب الذى يحركه فريد باشا داماد وكامل باشا وصباح الدين، والذى يجمع منذ البداية عدداً معيناً من النواب فى مجلس النواب، سرعان ما يصبح بؤرة معارضة برلمانية تنتقد النزعة المركزية لدى جماعة تركيا الفتاة واستمرار حالة الحصار، وديكتاتورية اللجنة التى يصعب التستر عليها، وحكم أوليجاركية مستهترة، واللجوء الى العنف. ومنذ شهر ديسمبر، فى انتخاب جزئى فى اسطنبول، يجرى انتخاب مرشح من مرشحي الحزب الجديد، هو طاهر خير الدين.

ونظراً للضعف الذى اصابها من جراء هذه التطورات الخارجية والداخلية، فإن اللجنة تسارع الى استعادة موقعها بالتوصل الى حل البرلمان (يناير ١٩١٢). والحال أن جماعة تركيا الفتاة، الحزب الوحيد المنظم بشكل حقيقى فى كل الامبراطورية، والذى يتمتع بإمكانات لا يملكها منافسوه - خاصة حزب الائتلاف الليبرالى - ، والذى يستخدم لمصلحته القوانين الخاصة بالنشر والتجمعات والجمعيات، كما يستخدم وسائل ضغط، بل ويستخدم العنف - وهو ما سوف يؤدى الى تسمية انتخابات ابريل بـ «انتخابات العصا الغليظة» (سوپالى سيتشيم) - ، سوف تحصل على أغلبية ساحقة فى المجلس النيابى الجديد، الذى لا ينتخب اليه غير ستة نواب من صفوف المعارضة. وعندئذ تكون اللجنة فى أوجها، وذلك بقدر ما أن الخطر الايطالى يجعلها تبدو فى مظهر الملاذ الوحيد. وفى وزارة سعيد باشا الجديدة، يجرى تمثيل الاتحاديين بدرجة اكبر، ويستعيد چاويد بك منصب وزير الشؤون المالية.

لكن انتصار جماعة تركيا الفتاة كان هشاً. وفى ذروة قوتها، سوف تسقط اللجنة فجأة خلال صيف ١٩١٢. ومن خلال مفارقة مأساوية، تجيء الضربة من مقدونيا، الاقليم الذى كان قد ظل مخلصاً بامتياز للجنة. وتتشكل قوة الضربة بين صفوف الضباط المنتمين الى الأندية المعادية للاتحاديين. وفى ربيع ١٩١٢،

وبالاتصال معهم، تتشكل فى اسطنبول جماعة الضباط المخلصين (خلاصكار ضابطان) العازمين على إنهاء الاضطهاد الذى تمارسه اللجنة وعلى إبعاد الجيش عن السياسة. وتؤدى التهديدات بالتدخل العسكرى والضغط الى تنحى سعيد باشا فى ١٧ يوليو. وبعد ذلك بعدة أيام، يدعو السلطان مختار باشا الغازى الى تشكيل وزارة جديدة، هى «الوزرة العظمى»، التى يتم استبعاد جميع الاتحاديين منها. وفى ٥ أغسطس، يجرى حل البرلمان، بما يؤدى الى افقاد جماعة تركيا الفتاة آخر موقع سياسى لها. ولم يحدث من قبل قط أن كانت اللجنة فى مثل هذه الهاوية.

وتمر البلاد فى الوقت نفسه بأزمة معنوية عميقة. اذ يبدأ التشكك فى التوجهات والايديولوجيات. ويؤدى العدوان الايطالى وعدم تحرك الدول العظمى والانفصالية الألبانية الى زيادة حدة الاتجاه المعادى للغرب بين صفوف المثقفين الاسلاميين والى دفعهم الى التشديد بدرجة اكبر على أواصر التضامن الاسلامى والى التنديد النشط بالآثار السيئة للنزعة القومية فى البلدان الاسلامية. وفى اواخر ١٩١١ ومستهل ١٩١٢، نجد ان الروح «الليبرالية» لمجلة «صراط - اى مستقيم» تتلاشى تدريجياً لحساب تصور تقليدى اكثر للدين. ويكف المثقفون «الحداثيون» عملياً عن الكتابة لها. وتحت اسم «سبيل الرشاد»، تصبح المجلة لسان حال اسلام محافظ.

والاتجاه التغريبي هو نفسه يفقد سرعته. وقد اعترف بذلك صحفى شاب من صحفىي ذلك العصر : «لقد اجتذبنا التغريب من نواح كثيرة. لكن الغرب هو الامبريالية. وطالما كان البلد شبه مستعمرة فى ايدى الامبرياليين وطالما ظلت الامتيازات قائمة، فقد كان من الصعب الدفاع عن الغرب»^(٨). وفى مجلة «اجتهاد»، سرعان ما سوف يخفف جلال نورى من غلواء هذا الاتجاه ويدعو الى تغريب اكثر اعتدالاً وانتقائية بكثير من ذلك الذى دافع عنه عبدالله جودت.

وأمام أزمة هذه الايديولوجيات «التقليدية»، تبدأ النزعة القومية التركية فى التعزز فى ١٩١١ - ١٩١٢. وبفضل الجهود المشتركة من جانب المهاجرين من روسيا، كيوسف أكتشورا أو أحمد أغا أوغلو، ومتقنين أترك، كمحمد أمين، ينظم التيار نفسه : فى اغسطس ١٩١١، يجرى تأسيس جمعية البلاد التركية (ترك يوردو جمعيتى)، التى تصدر اعتباراً من نوفمبر مجلة «ترك يوردو»، لسان الحال الرئيسى للحركة القومية. ولا تعود المسألة بعد مجرد مسألة تنقية للغة التركية وإيجاد أدب «قومى»، بل مسألة عمل فى جميع المجالات، التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، من أجل وحدة جميع الأتراك، داخل وخارج الامبراطورية. والحال أن مجلة «ترك يوردو»، التى تروج لنزعة الجامعة التركية، سرعان ما تشهد نجاحاً فائقاً. وبعد ذلك بعدة أشهر، فى مارس ١٩١٢، يتأسس فى اسطنبول منتدى «قومى»، هو المنتدى التركى (ترك أوجاغى)، الذى يتمثل هدفه فى العمل على النهوض الثقافى والاجتماعى والاقتصادى لجميع الأتراك. وهو يضم هو أيضاً مهاجرين أترك من روسيا (كأحمد أغا أوغلو ويوسف أكتشورا) ومتقنين أترك كمحمد أمين وضياء جوقلب وحمدالله صبحى. وتجدر الإشارة الى ان مبادرة انشاء هذا النادى كانت قد اتخذت قبل ذلك بعدة اشهر من جانب عدد من طلاب المدرسة الطبية.

والواقع ان الشبيبة كانت ناضجة لتبنى الأفكار الجديدة. ولما كانت (الشبيبة) قد تكونت فى نشوة ثورة تركيا الفتاة، فإنها قد انتقلت من أوهام الى أوهام. ولما كانت مبرحة أمام عجز الدولة ومشتمزة من الأعراف السياسية، فقد كانت بحاجة الى مجالات أخرى للحركة وللحلم. ولما كانت لا تتعرف على نفسها لا فى إسلام محافظ بشكل متزايد ولا فى غرب عدوانى بشكل متزايد، فإنها تنهمك فى البحث عن هويتها. ويميل البعض الى حلول متطرفة : الروح البطولية الوطنية التى سوف تدفع حفنة من الفدائيين الى السير فى أثر أنور فى رمال برقه، أو يوتوبيا الجامعة التركية التى تؤدى الى سباحة الخيالات فى برارى ما وراء القوقاز، صوب طوران

الأسطورية التي يتحدث عنها جوقلب. لكن المسألة بالنسبة للغالبية هي بوجه خاص مسألة عثور على وسيلة جديدة لانقاذ الدولة العثمانية.

وسوف يؤدي تصاعد الأخطار في مقدونيا الى دفع وزارة احمد مختار الجديدة الى ايجاد حل سريع للمشكلة الألبانية ولحرب طرابلس الغرب. ففي ٤ سبتمبر ١٩١٢، تستجيب الحكومة لجميع مطالب القوميين الألبانيين. ومنذ ذلك الحين تصبح البانيا مستقلة من الناحية العملية. وفي ١٥ أكتوبر، يقبل الباب (العالى) التعامل مع ايطاليا ويتم توقيع الصلح في معاهدة أوشى (١٥ أكتوبر ١٩١٢) : وتعترف الحكومة العثمانية بضم طرابلس الغرب وبرقة حيث يحتفظ السلطان، بوصفه خليفة، بسلطته الروحية على المسلمين. ويتعهد الايطاليون من جهة أخرى بالجلء عن جزر الدوديكانيز، لكن اندلاع الحروب البلقانية سوف يسمح لهم بالابقاء على وجودهم فيها. لقد كفت الامبراطورية العثمانية عن الوجود في افريقيا، تمهيداً لاختفائها من أوروبا.

الامبراطورية في حرب (١٩١٢ - ١٩١٨) الحروب البلقانية

إذا كانت الحكومة العثمانية تنتهى الى قبول توقيع الصلح مع ايطاليا، مستجيبة لجميع مطالب هذا البلد، فإنها تفعل ذلك لأن خطراً جديداً، جسيماً بشكل آخر، يلوح بشكل متزايد الوضوح في الأفق : اقتراب حريق عام في البلقان.

وكانت النار راقدة تحت الرماد منذ عدة سنوات. ذلك أن ضم البوسنة والهرسك من جانب النمسا، وعلان الاستقلال البلقارى، وعودة الغليان التحريرى التوحيدي في كريت قد حركت من جديد، منذ خريف ١٩٠٨، شهوة الدول البلقانية. وكانت تركيا قد أثبتت عجزها الواضح في وجه هذه الاعتداءات بحيث انه بات

جليا أنها سوف يتعين عليها، عاجلاً أم آجلاً، التخلي عن أراضيها الأوروبية. وفي صوفيا، نجد أن فرديناند، الذي لبس تاج «قيصر البلغار»، يحلم بالفعل باستعادة الامبراطورية البيزنطية لحسابه ولا يتردد في الظهور بمظهر ملك بيزنطى. أما صربيا، الغاضبة من اضطرارها الى قبول الهيمنة النمساوية على البوسنة، فإنها تعزى نفسها بأطماع في مقدونيا. في حين أن اليونان، تحت قيادة كريتى، هو ايليفثيريوس فينيزيلوس، سوف تحدد لنفسها هدف اعادة توحيد جميع «الأراضى اليونانية».

وكان الخطر قد أخذ يرتسم حتى قبل نشوب الحرب الايطالية - التركية. ومنذ شهر ابريل ١٩١١، نجد ان فينيزيلوس، بدعم من روسيا، يقترح على جيشوف، رئيس وزراء بلغاريا، تحالفاً بين البلدين. وبعد ذلك بوقت قصير، يسجل أنصار وفاق صربى - بلغارى إنتصاراً هاماً بحصولهم من البطريرك اليونانى على إعلان مؤيد لفكرة اتحاد جمركى بلقانى (نوفمبر ١٩١١). وفي مستهل عام ١٩١٢، نجد ان الاعياد التى اقيمت فى صوفيا احتفالاً ببلوغ ولي العهد بوريس قد جرت أيضاً تحت شعار تقارب بين خصوم الامبراطورية العثمانية.

وبعد هذه المعانقات الاولى، والتى لا تبشر بأى خير لتركيا، يتسارع فجأة اللجوء الى التحالفات. ففي مارس ١٩١٢، بينما كانت الأزمة الايطالية - التركية مازال فى أوج حدتها، توقع صربيا وبلغاريا معاهدة تنص إما على تحقيق الحكم الذاتى لمقدونيا، أو - فى حالة اتضاح استحالة ذلك - تقسيمها، على فرض احراز انتصار على العثمانيين. وبعد ذلك بشهرين (٢٩ مايو ١٩١٢)، يتلو هذا الاتفاق الأول تحالف يونانى - بلغارى يتعهد بموجبه البلدان، مع تجنب الاشارة الى المشكلة المقدونية، بتبادل المساعدة فيما بينهما فى حالة وقوع هجوم تركى. وأخيراً، فى اوائل الخريف، ينضم الجبل الأسود، هو أيضاً، الى الائتلاف البلقانى بتوقيعه اتفاقاً عسكرياً مع بلغاريا أولاً (٢٧ سبتمبر)، ثم مع صربيا (٦ أكتوبر).

أما أن هذه الترتيبات لا يمكنها إلا أن تقود الى هجوم منسق على الامبراطورية العثمانية فهو أمر لا يحتاج الى دليل. ويتم استشعار الخطر بسرعة بالغة في اسطنبول. ولكن كيف يمكن مواجهته؟ لقد كان الوضع يبدو جد خطير بحيث أن تركيا، منذ اواخر عام ١٩١١، تشهد نوات سياسية شديدة تؤدي الى اصابة العمل الحكومي بشلل جزئي. وعلاوة على ذلك، فإن الجيش العثماني يبدو بالغ الهشاشة: لقد استيقظ لتوه من السبات الذي كان غارقاً فيه خلال السنوات الأخيرة لعهد عبدالحميد ووجد نفسه منخرطاً في عملية تجديد - تجديد الكوادر، تحديث التسليح، تغيير المفاهيم الاستراتيجية، الخ، وهي عملية كانت بعيدة عن ان تكون ناجزة. وأمام تصاعد الأخطار، تجنب الباب العالي أكثرها ضغطاً : فقد انخرط في محادثات صلح مع ايطاليا سعياً الى التمكن من تركيز كل قواه في مقدونيا؛ كما عمل على إنهاء التمرد الألباني الذي كان يشعل الحدود الغربية للامبراطورية منذ عامين؛ وأخيراً، فإنه قد زاد تحركاته لدى الدول، مطالباً اياها بالضغط على الدول البلقانية حتى ترجع الى مشاعر أقل ميلاً الى الحرب. لكن الوقت كان جد متأخر لذلك. لأن ميكانيزم الحرب كان قد تحرك بالفعل.

والسيناريو كلاسيكي. ففي ٣٠ سبتمبر ١٩١٢، يأمر خصوم الامبراطورية العثمانية بالتعبئة العامة. وفور ذلك يصل إنذار الدول البلقانية : إذ تجرى دعوة الباب (العالي) الى تعيين حاكم عام سويسري أو بلجيكي في مقدونيا، والى إنشاء جمعيات تشريعية محلية، والى تشكيل قوات من الجندرية تحت قيادة أوروبية، والى تطبيق الاصلاحات التي نصت عليها معاهدة برلين تحت اشراف سفراء الدول العظمى وممثلي الدول البلقانية الكبرى. وفي اسطنبول، يجري السعي الى المراوغة: فالحكومة تعلن استعدادها لتحقيق الاصلاحات الضرورية، لكنها ترفض تقديم ضمانات مادام البرلمان غير منعقد. فهل هذا رفض لسماع الدعوى؟

هكذا، على أية حال، تفسر الدول البلقانية المؤتلفة الرد التركي. ومنذ ذلك الحين لا يبقى أمامها بعد غير العثور على ذريعة لبدء الأعمال الحربية. وفي ٨

أكتوبر، يتم ذلك: فتذرعاً بالقلقل الحدودية، يبادر الجبل الأسود بإرسال قوات إلى البانيا الشمالية وإلى سنجق نوڤيازار. ويجرى توجيه مذكرات ومذكرات مضادة. وهو باليه ديبلوماسى يشارك فيه ممثلو الدول العظمى، ولكن فى دور كومبارسات يتظاهرون بأن الأحداث قد تجاوزتهم. وفى برلين كما فى لندن، ينتهى الرأى الى أن من الأفضل الانتظار. وسوف يصل الأمر بالمستشارية البروسية الى حد دعوة الحكومة البريطانية بلا حرج الى ترك الدول البلقانية تتمرغ فى الحرب قبل أى تدخل. وبالرغم من العزلة التى تجد الامبراطورية العثمانية نفسها فيها، فإنها تصر على عدم السماح لنفسها بالتعرض للاذلال. وفى ١٧ أكتوبر، يجرى إصدار امر رسمى الى سفيرى صربيا وبلغاريا بمغادرة اسطنبول. وفى اليوم نفسه، يتم اعلان الحرب رسمياً. وبالنسبة للعثمانيين، تتحول الأمور بسرعة بالغة الى كارثة. فمذ بداية نوفمبر، نجد أن البلغار، الذين غزوا ثراس الشرقية وحاصروا مدينة ادرنه (نهاية أكتوبر)، يصلون الى خنادق تشاتالجا، الخط الأخير للدفاع العثمانى أمام اسطنبول. أما اليونانيون فإنهم، بعد اعلانهم ضم كريت ووضع ايديهم على جزر أخرى مختلفة، يحتلون ابيروس ومقدونيا الجنوبية، منتزعين سالونيك بالكاد من البلغار (٨ نوفمبر). وأخيراً، فإن الصربيين يوطدون مواقعهم فى مقدونيا الشمالية وفى كوسوفو، بينما يحاصر حلفاؤهم من الجبل الأسود سكوتارى، فى البانيا. وفى غضون أسابيع قليلة، تفقد الامبراطورية العثمانية كل اراضيها الأوروبية تقريباً.

والوضع ميئوس منه الى اقصى حد بحيث اننا نجد، فى اسطنبول، أن حزب الائتلاف الليبرالى، الحاكم منذ تدخل «الضباط المخلصين» فى يونيو ١٩١٢، سوف يقرر الاستعاضة عن الصدر الأعظم احمد مختار باشا برجل محنك فى السياسة العثمانية معروف بعمالته للانجليز، هو كامل باشا. أليس حل الأزمة، كما هو دائماً، بأيدي الدول؟ وعلى الفور يحدد الصدر الأعظم الجديد لنفسه مهمة الدخول فى اتصال مع اصدقائه الانجليز والتفاوض معهم على تدخل من جانب الوفاق

الثلاثي لحساب تركيا. لكنه لن يحصل إلا على ارسال عدد قليل من السفن الحربية الى ميناء اسطنبول ووعد بوساطة بريطانية عندما تفضى الأمور الى محادثات صلح.

ويتم التمسك بالوعد. ففي ٣ ديسمبر ١٩١٢، يوقع الأتراك والبلغاريون هدنة في تشاتالجا. وبعد ذلك بأسبوعين، يجمع مؤتمر في لندن كل المتحاربين تحت إشراف الوزير الانجليزي للشئون الخارجية. لكن هذه الوساطة قلما تكون مؤثرة، وذلك بقدر ما أن مطالب الدول البلقانية تعتبر زائدة عن الحد. فالمنتصرون يطالبون بجميع الأراضي التي استولوا عليها، كما يطالبون بجزر بحر ايجه وبالبانيا وبمدينة ادرنة. وعلى الجانب العثماني، نجد استعداداً لتقديم تنازلات: الاعتراف بالبانيا ذات حكم ذاتي، التنازل عن جميع الأراضي الواقعة في غرب ولاية ادرنة، الموافقة على ارتباط كريت بالملكة الهلينية. لكننا نجد توخياً للحزم تجاه نقاط معينة: فمدينة ادرنة وجزر بحر ايجه يجب أن تبقى تركية؛ ولا مجال للنقاش حول التنازل عن هذه الأراضي، خاصة ادرنة التي تعتبر العاصمة الثانية للامبراطورية العثمانية.

واعتماداً على تفوقهم في ساحة القتال، لا يريد البلقانيون التنازل عن أي مطلب من مطالبهم. والعثمانيون، الذين استعادوا من جهتهم شيئاً من الأمل منذ التوقف المؤقت للأعمال الحربية، يتفاوضون بخشونة وعناد. وتصل المفاوضات الى طريق مسدود. ولكن ألن ينتهي كامل باشا الى أن يسمح لنفسه بالوقوع في مصيدة حيل الدبلوماسية البريطانية؟ وبينما تستمر المفاوضات وتأخذ وقتاً طويلاً، فإن الانزعاج والغضب لا يكفان عن التزايد في اسطنبول. فعلى الرغم من أن كامل باشا، منذ وصوله الى السلطة، قد فعل كل شيء لإسكات المعارضة الاتحادية، فإن هذه الأخيرة تبدو وبيلة بشكل متزايد. وهي لا تتردد في اتهام الحكومة بالرغبة في تسليم ادرنة للبلغار وتدعو بحماية الى المقاومة. والحق أن كل

هذا الغليان ليس مجانيا بالمرّة. فهو يؤدى الى انقلاب جرى الاعداد له بعناية. إذ يحدث فى ٢٣ يناير ١٩١٣ ما سمي بـ «الهجوم على الباب العالى» (باب - اى عالى باسكينى): فعلى رأس وحدة من الجنود، يدخل أنور، أحد أبطال ثورة ١٩٠٨ والشخصية البارزة فى لجنة الاتحاد والترقى، الى قاعة مجلس الوزراء ويرغم كامل باشا، والمسدس فى يده، على تقديم استقالته.

ومن جديد يصل الاتحاديون الى السلطة. وسوف يبقون فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. أما الفاصل الليبرالى - الذى لم يستمر غير ستة اشهر - فهو ينتهى. على أن اللحظة قلما تكون مناسبة للبهجة. وسوف يكون انتصار لجنة الاتحاد والترقى متواضعاً. فالحكومة الجديدة لا تضم من الاتحاديين غير ثلاثة أشخاص، معروفين كلهم باعتدالهم. وتعهد الصدارة العظمى الى رجل فوق الأحزاب، هو محمود شوكت باشا، الذى يتولى أيضاً مهام وزير الحربية. ويتم السماح لاعضاء الائتلاف الليبرالى بممارسة حريتهم، وذلك بشرط «تخليهم عن اى تفكير، ليس هذا وقته، فى المعارضة». والخلاصة أن لجنة الاتحاد والترقى تختار اتخاذ موقف الدفاع عن الوحدة المقدسة.

وكان الهدف الرئيسى للانقلاب الاتحادى هو منع حكومة كامل باشا من الاستسلام لضغوط الائتلاف البلقانى. لكن وصول لجنة الاتحاد والترقى، بدلاً من أن يؤدى الى تحسين الموقف، لا يؤدى إلا الى احتداده. ففي مؤتمر لندن، منذ وصول خبر الأحداث، يقرر المندوبون فى الواقع تأجيل المحادثات الى حين وصول تعليمات جديدة اليهم من حكوماتهم. وبعد ذلك بعدة أيام، وبالرغم من التنازلات التركية الأخيرة المتصلة خاصة بالتخلى عن بعض أحياء ادرنة، يجرى قطع المفاوضات. وفى ٣ فبراير، يحدث ما كان يخشى منه أكثر مما عداه: فالبلغاريون يستأنفون قصفهم لادرنة ولتشاتالجا، محاولين اجتياح الخط الأخير للدفاع العثمانى.

وكانت الأسابيع القليلة لوقف إطلاق النار قد سمحت للجيش التركي بتمالك نفسه، ويتحول الارتباك الى مقاومة. لكن تفوق الائتلاف البلقاني واضح مع ذلك. وحتى إذا كانت الصحف التركية تستطيع التهليل، في الشطر الثاني من مارس، للدفاع البطولي عن تشاتالجا، فإن الاخبار السيئة تزن وزناً أثقل بكثير في الميزان : ٦ مارس، استيلاء اليونانيين على چانينا؛ ٢٨ مارس، استسلام ادرنه، التي دمرها القصف البلغاري تدميراً فادحاً؛ منتصف ابريل، دخول جنود الجبل الأسود الى سكوتاري في البانيا. وفي نهاية الأمر، فإن الصدر الأعظم الجديد، محمود شوكت باشا، سوف يضطر الى التسليم بالواقع: فلا بد من توقيع الصلح، مع المجازفة بالتعرض للاهانات التي تمثلها المطالب البلقانية.

وسوف يتم ذلك منذ نهاية مايو. وفي لندن من جديد، تحت اشراف وزارة الخارجية (الانجليزية)، يجتمع المتفاوضون. لكن المحادثات هذه المرة لا تشهد تسوية، فليس هناك الكثير الذي يمكن التفاوض بشأنه. وفي ٣٠ مايو، يوقع الأتراك معاهدة تجرد الامبراطورية العثمانية من جميع أراضيها الأوروبية، باستثناء شريط صغير حول اسطنبول. وبعد ثلاثة اشهر من الحرب، تضطر حكومة محمود شوكت باشا الى قبول جميع مطالب الدول البلقانية.

ومع أخذ كل شيء بعين الاعتبار، فإنها لا تخرج من الورطة في حالة جد سيئة. فالواقع أن الدبلوماسية الأوروبية كانت منشغلة بالفعل في الأيام نفسها بمسألة تقسيم الولايات الآسيوية للامبراطورية. والآن يمكن تجنب ذلك. على أن توقيع معاهدة لندن لم يكن بالامكان أن يبدو في نظر الرأي العام العثماني إلا بوصفه إخفاقاً جسيماً. ويمثل ذلك فرصة سانحة بالنسبة للائتلاف الليبرالي الذي يعد منذ بعض الوقت، تحت اشراف كامل باشا، لانقلاب مضاد بدعم من الانجليز، على ما يبدو.

وعلى الرغم من أن المؤامرة كانت طائشة وأن الصدر الأعظم السابق كان موضوعاً تحت المراقبة منذ عودته من القاهرة، التي كان منفيّاً إليها، فإن

الليبراليين لن يفشلوا في الاستفادة من الظروف للسعى الى تحقيق مشروعهم. وفي ١١ يونيو، بعد عدة أيام من توقيع معاهدة لندن وبينما كان سخط الرأي العام في ذروته، يجري اغتيال محمود شوكت في عرض الشارع عند مغادرته وزارة الحربية للذهاب الى الباب العالي. والحال أن المتأمرين، الراغبين في الثأر لأنفسهم من الانقلاب الذي سمح للاتحاديين بالاستيلاء على السلطة قبل ذلك بعدة شهور، قد خططوا لسلسلة كاملة من الاغتيالات الأخرى. لكن ذلك كان يعنى اسقاط اصرار لجنة الاتحاد والترقى على البقاء في المواقع القيادية من الحسابان. والواقع أن سحق المؤامرة سوف يكون امراً أكثر سهولة وذلك بقدر ما أن سرها لم يكن محفوظاً بعناية. وفور وصول خبر الاعتداء على الصدر الأعظم، سوف تحشد الحكومة ترسانة كاملة من التدابير القمعية : اعلان حالة الحصار، اعتقال ونفى غالبية قادة المعارضة، وقف الصحف المناوئة لسياسة الحكومة، الحكم بالموت على ست عشرة شخصية، من بينها صالح باشا، أحد أبناء أخ غير شقيق للسلطان، و ، غيايبيا، الأمير صباح الدين، الملمم الفكري البارز للتيار الليبرالي. ومع كبح المعارضة بهذا الشكل، لا يبقى بعد أمام لجنة الاتحاد والترقى غير الاستفادة من الموقف لتدعيم هيمنتها على السلطة. وسوف يجري الاستعاضة عن الصدر الأعظم المقتول برجل من صفوف اللجنة، هو سعيد حليم باشا، أحد أحفاد خديوى مصر محمد على. كما أن عدة اتحاديين آخرين سوف يعهد اليهم بمناصب وزارية. والواقع أن الوقف الفعلى لجميع احزاب المعارضة - حتى وإن كان الائتلاف الليبرالى حراً، من الناحية النظرية، في مواصلة أنشطته - سوف يضيف صبغته على النظام اعتباراً من الآن. وهكذا تجد تركيا نفسها وقد حصلت على ديكتاتورية.

وسوف تبدأ هذه المرحلة الجديدة في الحياة السياسية للبلاد تحت علامات مؤاتية نسبياً. فالواقع أن الريح، في البلقان، تبدأ في التحول في صالح الامبراطورية العثمانية. فالآن وقد تم التوقيع على معاهدة لندن، يأخذ أعضاء

الاتلاف البلقانى فى تمزيق بعضهم البعض، وذلك لعجزهم عن التفاهم حول تقسيم الاراضى التى تم الاستيلاء عليها. فالبغار لا يمكنهم التسليم باستيلاء اليونانيين على سالونيك. وهؤلاء الاخرون يرون أن مجهوداتهم الحربية لم تلق مكافأة كافية وهم يريدون التوسع، بشكل اوسع مما فعلوه، فى ابيروس وفى ثراس الغربية. ثم إن نزاعاً أكثر حدة بكثير ينشب بين البغار والصربيين. فالصربيون، فى اتفاق مع حلفائهم فى الجبل الأسود، كانوا يأملون فى وضع ايديهم على جزء من البانيا. لكن الدول العظمى كانت قد اتخذت قراراً مختلفاً. فقد أثرت إشباع مطالب القوميين الالبانيين الذين يناضلون، منذ عدة عقود، من أجل تحرير بلادهم وقدمت ضمانها، فى مؤتمر لندن، لاعلان البانيا مستقلة (١٢ ديسمبر ١٩١٢)، مرغمة صربيا والجبل الأسود على سحب قواتهما من المنطقة عند رجوع السلم. وفى هذه الظروف، فإن المسألة بالنسبة للصربيين كانت تتمثل فى العثور على تعويضات فى أماكن اخرى. وبدعم من اليونانيين، تخطط حكومة بلجراد للاستحواذ على جزء كبير من مقدونيا. وهو الأمر الذى يخرج البغار عن طورهم، لأنهم يرون أن الاراضى التى تطالب بها صربيا إنما تخصهم قانوناً. أما رومانيا، التى ظلت مع ذلك خارج الحرب، فقد كانت لها هى الأخرى مطالب تعرضها: فمادامت بلغاريا قد توسعت الى هذا الحد، فإنها (رومانيا) تريد ان تحصل، فى مقابل ذلك، على اقليم سيليستر على الدانوب.

وتؤدى كل هذه النزاعات الى تعديل توازن القوى تعديلاً محسوساً فى البلقان وتسمح للعثمانيين بالأمل فى امكانية الثأر. والواقع أن الأمور سرعان ما سوف تتجسد. فمنذ أواخر شهر يونيو نجد ان البغار، الغاضبين على تعرض مكاسبهم الاقليمية للمنازعة من كل حدب وصوب، سوف يشنون هجوماً مفاجئاً على حلفائهم السابقين، صربيا واليونان، أملاً فى أن ينتزعوا بالقوة ما عجزوا عن الحصول عليه من خلال المفاوضات الدبلوماسية.

وسوف تكون حرب البلقان الثانية أقصر بكثير من الحرب الأولى. فهي لن تستمر غير أسبوعين وسوف تنتهى باندحار بلغاريا التى اساعت للغاية تقدير الأخطار التى تتعرض لها. فهل ينبغى لتركيا الاستفادة من الظروف لاستعادة جزء من الأراضى التى سبق لها أن خسرتها؟ لقد بدأت حكومة اسطنبول بالتردد، خوفاً من الانجرار الى مغامرة لم تكن نتيجتها مؤكدة. لكن الباب العالى يصرح للجيش بالزحف فى نهاية الأمر، تحت ضغط من لجنة الاتحاد والترقى، المستجيبة فى ذلك لنداءات الرأى العام. وفى ٢٢ يوليو ١٩١٣، تتم استعادة ادرنة، المدينة الرمز.

ولا يبقى بعد غير اعادة التفاوض على الصلح. والحال أن معاهدة بوخارست، الموقعة فى ١٠ أغسطس ١٩١٣ - والتى تكملها فيما بعد سلسلة من الاتفاقات الأخرى - إنما ترسى أسس تقسيم اقليمى جديد للبلقان : فاليونان تحصل على كل ايبيروس و ، على محيط بحر ايجة، تتسع عن طريق شريط ساحلى واسع يشمل اقليم قوله؛ وتحصل صربيا على جزء كبير من مقدونيا الشمالية؛ ويضع الجبل الاسود يديه على اقليم نوڤيازار؛ أما بلغاريا، المجردة من غالبية الأراضى التى كانت قد استولت عليها، فإنها تحتفظ مع ذلك بقطاعات معينة من مقدونيا الشرقية؛ ومن جهتها، سرعان ما سوف تحصل الامبراطورية العثمانية على تأكيد لمليتها لادرنة ولعدد من الأراضى الواقعة الى شرق ماريتزا (المعاهدة التركية - البلغارية المؤرخة فى ٢٩ سبتمبر ١٩١٣). وبشكل عام، فإن أياً من الاطراف الموجودة لا يحصل على إشباع كامل لمطالبه، لكن المسألة المقدونية تحسم مع ذلك بشكل مؤقت. وبطبيعة الحال، فإن تركيا، التى حرمت من أغلب ممتلكاتها الأوروبية، كانت الخاسر الأكبر فى النزاع. على أنها، باستعادتها لادرنة ولثراس الشرقية، تتمكن من الحصول، فى اللحظة الأخيرة، على قدر كبير من العزاء.

من حرب الى أخرى؛ نشاط لجنة الاتحاد والترقى

اغسطس ١٩١٣ - اغسطس ١٩١٤ : فترة ما بين حربين تتميز بقصر درامى. وخلال هذه الأشهر القليلة، سوف يتعين على الامبراطورية العثمانية الانكباب بشكل خاص على تضييد جراحها. على ان الاتحاديين، المتخلصين منذ ذلك الحين من المعارضة الليبرالية والمهيمنين بالكامل على السلطة، سوف يستفيدون أيضاً من الظروف لمحاولة فتح سبل جديدة للبقاء أمام الامبراطورية. وكانت الامبراطورية قد خرجت من الحرب البلقانية متهدمة ومستنزفة ومحرومة من جزء هام من مواردها البشرية والمالية. والمسألة الآن هى العمل على اعادة بنائها، ولكن على أسس مختلفة بشكل محسوس عن الأسس التى كانت سائدة قبل بداية الأعمال الحربية. ويصبح بوسع ثورة تركيا الفتاة اخيراً أن تأخذ فى الانطلاق.

وسوف نشهد بشكل خاص، خلال هذه الفترة، تنحية للايديولوجية العثمانية التى كانت توجه حتى ذلك الحين العمل السياسى للجنة الاتحاد والترقى. فالامبراطورية، منذ حرمانها من ولاياتها البلقانية، تشكل من الزاوية الاثنية والدينية، كلاً اقل اختلاطاً بكثير من ذى قبل. ومن المؤكد أنه ماتزال توجد فى نقاط عديدة من الأرض العثمانية، خاصة فى اسطنبول، وفى اقليم أزمير، وعلى ساحل البحر الأسود وفى الولايات الشرقية للأناضول، مجموعات هامة من «الأقليات» اليهودية والمسيحية. لكن العناصر المسلمة، خاصة الأتراك والعرب، يتفوقون منذ ذلك الحين بشكل جد واسع على العناصر الأخرى من السكان. وفى هذه الظروف، كان من الطبيعى أن يجد الاتحاديون أنفسهم مدفوعين الى إعادة التفكير فى استراتيجيتهم برمتها.

والحق أنه كان قد مر بالفعل وقت جد طويل على ابتداء انطلاق النزعة العثمانية. ومنذ الانتكاسات الاولى التى كابدها نظام جماعة تركيا الفتاة، فى الأشهر الاخيرة من عام ١٩٠٨، رأينا المدافعين عن التعايش الأخرى بين جميع

شعوب الامبراطورية يتحولون عن هذه الفكرة للاتجاه صوب تمجيد الأمة التركية. وغداة الحروب البلقانية، لن يكون من شأن هذا الاتجاه إلا أن يزداد تعزراً. وسوف تشهد الأندية والدوريات القومية شيوعاً متزايداً. والحال أن الشعبوية، التي تروج لها بشكل خاص مجلة كمجلة خلقا دوغرو (نحو الشعب)، سوف تكسب أتباعاً عديدين أكثر فأكثر، خاصة بين صفوف الطلاب، والمتقنين، الذين سوف يتحولون أيضاً بحمية متزايدة صوب نزعة الجامعة التركية. ولتفادي اخطار اللحظة، سوف يشجع قادة لجنة الاتحاد والترقي تكوين مختلف المنظمات شبه العسكرية كجمعية الدفاع القومي (مدافعه - اي مليه جمعيتي) والقوة التركية (ترك جوجو). اما الحكومة، فسوف تولى أهمية كبرى لـ «تتريك» التعليم، معتبرة ذلك أحد الشروط الأساسية لليقظة القومية.

كما أن هذه النزعة القومية الكاسحة لها جناح اقتصادي. والواقع أنه لا توجد فكرة جديدة في أن تركيا، لكي تكفل استقلالها، يتعين عليها نزع نير الرأسمالية الأوروبية واكتساب سبل السيطرة على روافع اقتصادها. لكن هذه الفكرة لن تترسخ في الأذهان إلا في مناخ الصدمة الذي ولدته احداث ١٩١٢ - ١٩١٣. ولن يكتفى ايديولوجيو النظام الاتحادي - رجال كضياء جوقلب أو يوسف أكتشورا أو تيكين آلب - بالتشهير بمساويء الامتيازات والتغلغل الغربى فى الامبراطورية. وسوف يدعون الى تكوين «بورجوازية قومية» قادرة على مراوغة رأس المال المالى الأوروبى الكبير والإمساك بزمام المصير الاقتصادى للبلاد. وسوف يكتب أكتشورا فى ابريل ١٩١٤ : «إن ركيزة الدول المعاصرة هي البورجوازية؛ فالدول الحديثة العظمى تتشكل بالاعتماد على البورجوازية الصناعية والتجارية والمصرفية. ويمكن اعتبار ان اليقظة القومية التركية تترافق مع ظهور بورجوازية تركية فى الدولة العثمانية؛ وإذا لم تواجه هذه البورجوازية عقبات كبرى فى طريق نموها الطبيعى، فإن الدولة العثمانية سوف تحقق تطوراً أكيداً».

فكيف يمكن تكوين هذه البورجوازية القومية، التي سوف يكتب آكتشورا هذا نفسه فيما بعد بشأنها أن عليها «منافسة العثمانيين غير الأتراك على الأقل»؟ إن لجنة الاتحاد والترقي، التي تختار من سوف يصبحون مستثمرين من بين صفوفها الخاصة، سوف تعمل على استصدار قوانين تهدف الى جذب رأس المال الخامل الى الأعمال الاستثمارية وزيادة قيمة الممتلكات العقارية و ، بشكل عام، حفز النشاط التجارى والصناعى. وهكذا فإن الحكومة سوف تصدر، قبيل بداية الحرب العالمية الأولى، قانوناً حول تشجيع الصناعة ينص على سلسلة كاملة من التدابير المؤاتية للمنتجين المحليين، وينص، بوجه خاص، على أن تكون لهم الأولوية فى التعاقد على طلبيات الدولة.

على أن هذا «الاضفاء للطابع القومى» على الاقتصاد لن يتم بين عشية وضحاها. فالواقع أن الاتحاديين، المنخرطين فى جهد مستميت من أجل الاصلاح الاقتصادى - كانت تكاليف الحروف البلقانية باهظة وكان يتعين بالفعل الاستعداد لمواجهة الحرب الجديدة التي كانت على وشك النشوب - ، يواصلون اللجوء، بالرغم من مراميهم فى كسب الاستقلال، الى الوصفات القديمة المتمثلة فى الاقتراض وفى الانفتاح على الاستثمارات الأجنبية. وهكذا فإن عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ يتميزان بعقد عدة قروض، يصل حجم أحدها الى اثنين وعشرين مليوناً من الجنيهات التركية، وهو أهم مبلغ يقرضه رأس المال المالى الأوروبى للامبراطورية العثمانية منذ افلاس عام ١٨٧٥. وفى الفترة نفسها، ينخرط الباب العالى أيضاً فى سلسلة كاملة من المحادثات الثنائية مع ايطاليا وانجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا، حيث ينشط فى تسليم السكك الحديدية وامتيازات اخرى (الموانىء، الأشغال العامة، الخدمات البلدية، الخ) الى مشاريع اجنبية ويقبل دون قدر كبير من الاستياء تقسيم الامبراطورية الى مناطق نشاط اقتصادى مفتوحة أمام تغلغل الدول العظمى، فى مقابل ادخال تحويلات طفيفة على نظام الامتيازات، خاصة فى المجال الضريبى (تحصيل نسبة ٤٪ كرسوم جمركية، التطبيق التام للقانون العثمانى فيما يتعلق

بثلاث ضرائب : ضريبة التقييم، وضريبة الدمغة وضريبة الدخل، على الرعايا والتجار الأجانب).

ويشكل الاتفاق الموقع مع فرنسا في ٩ ابريل ١٩١٤ مثلاً بليغ الدلالة على العجز العثماني في وجه الدينامية الامبريالية : ففرنسا تحصل بموجب هذا الاتفاق على حق انشاء العديد من خطوط السكك الحديدية، خاصة في سوريا؛ ويجري التنازل لها بموجب هذا الاتفاق عن عدة موانئ على البحر الأسود وعلى الساحل السوري (يافا، طرابلس، هيراكليا، اينيبولو، حيفا)؛ ويكفل لها الباب العالي الأولوية في جميع القطاعات التي تتمتع فيها بمصالح خاصة. وفي المقابل، سوف يكون بوسع تركيا زيادة رسومها الجمركية والزام التجار الفرنسيين بدفع رسوم وضرائب متنوعة؛ كما أنها تنتزع من فرنسا وعداً فيما يتعلق بـ «امكانية اعادة النظر في نظام الامتيازات»؛ وأخيراً، فإن الاتفاق ينص على اصدار عدة قروض، من بينها قرض كبير لتحقيق التثبيت (هو قرض الـ ٢٢ مليوناً من الجنيهات التركية الذي سوف يجري اصداره بعد ذلك بوقت قصير من خلال البنك العثماني). وعند توقيع هذا الاتفاق، سوف تسارع بعض الصحف الفرنسية الى التهليل للصدقة الفرنسية - العثمانية التقليدية. لكن صحفاً أخرى سوف تتحدث عن الأمور بشكل أكثر وضوحاً. فسوف تقول صحيفة «لومانيتيه»: «رأسماليو أوروبا يتفاوضون على تقسيم تركيا الآسيوية». وسوف تقول صحيفة «لاكسيون فرانسيز»: «ان ما يجري في الواقع، تحت مسمى المسائل الاقتصادية ومسائل السكك الحديدية، هو تقسيم حقيقي لتركيا الآسيوية إلى مناطق نفوذ».

وفي وجه هذا الاخضاع المتزايد للامبراطورية العثمانية لحساب الدول العظمى، كم تساوى النزعة القومية للجنة الاتحاد والترقي؟ من المؤكد انها لا تساوى شيئاً يذكر. لكنها تبدو على الأقل أحد ألواح خشب النجاة النادرة التي يمكن لتركيا ان تفكر في التشبث بها.

ويتمثل مخرج آخر يبدو أنه ما يزال متاحاً أمام حكومة الاتحاديين، في أشهر ما بين الحربين هذه، في اللجوء الى التضامن الاسلامى. فالحروب البلقانية كانت قد أنهت من الناحية العملية الامبراطورية المتعددة الطوائف التى كان السلاطين قد أقاموها على انقاض بيزنطة. وفى هذه الظروف، كيف لا يمكن التفكير، من أجل انقاذ ما تبقى من الدولة العثمانية، فى رفع راية الاسلام الخضراء؟ الواقع أن الاتحاديين، البراجماتيين، لن يفسلوا فى التوجه فى هذا الاتجاه، لاعبين على نحو خاص بورقة التقارب التركى- العربى، كما فعل ذلك بالفعل السلطان عبدالحميد الثانى، فى أزمنة اخرى ولكن لاعتبارات جد مماثلة.

إلا أنه لاجتذاب الولايات العربية الى مؤازرة القضية العثمانية، لم يكن يكفى الاسراف فى توجيه نداءات الوحدة الى جميع المسلمين. فقد كان يجب البدء بتحبيد التطلعات الى الاستقلال الادارى والمالى والثقافى التى تعبر عن نفسها بين صفوفهم، بحمية متزايدة، منذ أكثر من نصف قرن. وبعبارة أخرى، كان من المناسب تقديم تنازلات للنزعة القومية العربية، وهى نزعة قومية اصبحت شعاراتها، التى تروج لها كثرة الجمعيات التى تأسست غداة ثورة تركيا الفتاة، مصدر تهديد متزايد.

والحال أن اللفتة الأكثر أهمية والتى سوف تصدر عن الحكومة العثمانية لصالح العرب سوف تتمثل فى اصدار قانونين مؤقتين، فى مارس ١٩١٣، موجّهين الى إدخال تعديلات هامة على ادارة الولايات. فالقانون الاول، المؤرخ فى ٩ مارس، يعيد تنظيم الجهاز المعقد للشئون المالية المحلية ويمنح جرعة كبيرة من الاستقلال لميزانيات الولايات، بما يشكل تلبية لأحد المطالب الأساسية للقوميين. أما القانون الثانى، الصادر فى ٢٦ مارس، فهو ينشئ على مستوى كل ولاية مجلساً عاماً مؤلفاً من منتخبين محليين ويتمتع بسلطات جد واسعة. وحتى إذا كانت هذه البرلمانات الاقليمية تظل تحت رئاسة والٍ تابع لوزارة الداخلية، فإن الادارة المحلية تتمتع منذ ذلك الحين بشبه حكم ذاتى. وهو ما يؤدى، بلا جدال، الى سحب

البساط من تحت أقدام أولئك الذين يطالبون الحكومة - على غرار مناضلي حزب
اللامركزية الادارية العثماني، الذي تشكل في القاهرة في عام ١٩١٢ - بأن تعترف
للولايات العربية بحق الحكم الذاتي.

كما أن سياسة اليد الممدودة هذه سوف تكون لها جوانبها الثقافية. وهذا هو
السبب، بوجه خاص، في أن الحكومة سوف تجتهد في رفع المستوى التعليمي
للولايات العربية بافتتاحها فيها مدارس ثانوية جديدة وبتجاوبها مع أولئك الذين
يطالبون، في سوريا وفي مصر، بإنشاء جامعات عربية - اسلامية في المدينة وفي
القدس. وبشكل مواز، في المجال اللغوي، سوف نجد أن جهد التتريك يترافق،
بشكل جد مفارق ، مع تغلغل محسوس للغة العربية في المدارس وفي بعض
الخدمات الادارية. والحال أن مقالاً حول هذه المسألة ظهر في ابريل ١٩١٣ في
صحيفة «تافين»، لسان حال لجنة الاتحاد والترقي، يقدم فكرة جيدة عن المناخ
السائد آنذاك. فقد كتب اسماعيل حقي بابان زاده : «إن تركيا دولة مسلمة، فكيف
يمكنها النفور من العربية، لغة دينها؟ أليس من الواضح أن العداء للعربية يسير
يداً بيد مع العداء للإسلام؟ اننا نحب العربية لأنها لغة القرآن والنبى. ونحب
العربية لأن الحضارة الاسلامية لا تنفصل عن هذه اللغة {...}. وقد اتخذت
الحكومة خطوة في الاتجاه السليم، إلا أن هناك خطوات أخرى يلزم اتخاذها.
ويجب الاهتمام بالعربية ليس فقط في الأقاليم التي يتحدث الناس فيها بها، وإنما
ايضاً في كل مكان آخر. ويجب على الحكومة أن تفعل ذلك ليس بسبب ملايين
الرعايا الذين تضمهم الامبراطورية وإنما لأن هذه الامبراطورية دولة مسلمة».

وأخيراً، فإن هناك كل المبررات التي تدعو الى الاعتقاد بأن تعيين لجنة الاتحاد
والترقي سعيد حليم باشا في منصب الصدر الأعظم، بعد اغتيال محمود شوكت
باشا، إنما يرجع الى حد بعيد الى الرغبة في إرضاء الرأى العام العربى. وكان
سعيد حليم، حفيد محمد على المجيد، اسلامياً متحمساً وكان يحتفظ بصلات وثيقة

مع العالم العربى. وعلى مدار فترة توليه للصدارة العظمى - وهى الأطول فى عهد تركيا الفتاة - سوف نراه وهو يوجه السياسة العربية لحركة الاتحاديين، مستخدماً هيئته الشخصية فى محاولة نزع التوترات بين لجنة الاتحاد والترقى وأولئك الذين يحلمون، فى الولايات النائية، بكسب الاستقلال.

وسوف يرحب العرب ترحيباً قوياً بمبادرات الباب العالى بوجه عام. وهكذا، وفى يونيو ١٩١٣، خلال مؤتمر هام نظمته فى باريس الجمعية العربية بدعم من حزب اللامركزية الادارية، سوف يؤكد اسكندر عمون، نائب هذه الجمعية: «ان الأمة العربية لا تريد الانفصال عن الامبراطورية العثمانية [...]». إن كل ما تريده هو أن يخلى شكل الحكم الحالى مكانه لنظام أكثر تمشياً مع احتياجات مختلف عناصر الامبراطورية». وبعد ذلك بعدة اسابيع، سوف تكون العاصمة الفرنسية مسرحاً لمشاهد تأخٍ مثيرة بين مدحت شكرو، الأمين العام للجنة الاتحاد والترقى، ورفيق العظم، أحد أبرز القادة القوميين العرب، ورئيس حزب اللامركزية الادارية. وسوف ينبثق عن هذه المصالحات بروتوكول اتفاق يحشد علامات الود تجاه العرب: فلجنة الاتحاد والترقى تعد بمقتضى هذا البروتوكول بالاتجاه الى اصلاحات تستند الى مبدأ الحكم الذاتى؛ وفى المدارس الأولية والثانوية للولايات العربية، سوف يجرى منذ ذلك الحين تقديم العلم باللغة المحلية؛ وسوف يؤدى المجندون خدمتهم العسكرية فى اوطانهم؛ وسوف يدخل الحكومة ثلاثة وزراء عرب على الأقل؛ كما ان العرب سوف يحتفظون ببعض المناصب فى مختلف الوزارات؛ وأخيراً، فإن جميع الوثائق الرسمية للادارة الاقليمية سوف تحرر بالعربية.

وبينما تتكاثر مظاهر الصداقة والأخوة التركيتين - العربيتين، متحولة الى شهر عسل حقيقى، فإن عدداً من الحوادث سوف يسمح مع ذلك بتوقع مستقبل قلق. وسوف يتمثل أخطر هذه العقبات فى الحملة العنيفة التى يخوضها أعيان البصرة وبغداد، نحو اواخر اغسطس ١٩١٣، ضد الترتيبات الحكومية الجديدة

المتعلقة بالادارة الاقليمية. فتحت قيادة سيد طالب بك، رئيس لجنة اصلاح البصرة، سوف يطالب المحتجون، عبر سيل من البرقيات، بتعديل القانون وياتخاذ تدابير مؤاتية لقدرة أكبر من الحكم الذاتى للولايات. وفى أوائل اغسطس ١٩١٤، سوف يشير مرة أخرى حادث خطير آخر، هو القبض على عزيز على المصرى، الى ان المسألة العربية ماتزال بعيدة عن الحل. والحال أن عزيز على، وهو مؤسس جماعة قومية أسمها جماعة العهد، كان مشاركاً فى تنظيم مختلف الحركات الثورية المعادية للاتراك، بدعم من الخديوى، على ما يبدو. ولما كان قد قبض عليه استناداً الى ذريعة أكثر ابتذالاً بكثير- اختلاس ٢٠٠٠٠ من الجنيهات التركية خلال الحرب الليبية -، فإنه لن يقضى فى السجن غير أسابيع قليلة. لكن ذلك سوف يكون كافياً لاثارة رغبة بعض القوميين العرب فى لجنة الاتحاد والترقى.

والحق أن هذه الرغبة كانت مبررة بما يكفى، ذلك ان لجنة الاتحاد والترقى، على الرغم من حرصها على الظهور بمظهر ليبرالى أمام اولئك الذين تريد كسبهم الى صف قضيتها، إنما تبرز بشكل متزايد كتشكيل سلطوى ومركزى النزعة، مفعم بالنزعة اليعقوبية. وكان قمع جميع قوى المعارضة، غداة اغتيال محمود شوكت باشا، قد جعل منها حزباً وحيداً، يمسك بأغلب خيوط السلطة. وسوف تتحدد الأمور بشكل أكثر نوعاً ما بمناسبة المؤتمر السنوى الخامس للمنظمة والذي سوف يعقد فى اسطنبول فى سبتمبر ١٩١٣. فالواقع أن لجنة الاتحاد والترقى سوف تكتسب، خلال هذا المؤتمر، هيكلأً مركباً، يتميز بطابع هرمى صارم، يمد قروعه الى مستوى المراكز الريفية. وفى مركز بيت العنكبوت هذا يوجد المجلس العام (مجلس - اى عمومى) المشكل من عشرين عضواً، من بينهم رئيس الحزب، ولجنة مركزية (مركز - اى عمومى) تتألف من عشرة اعضاء، تحت رئاسة أمين عام، وأمانة (قلم - اى عمومى) تتألف من نصف دزينة من الأعضاء. وهذه الهيئات الثلاث لا تتمثل مهمتها فى مجرد صوغ شعارات الحزب ونشرها عبر جميع أجهزة

المنظمة الاخطبوطية التي نجح الاتحاديون في بنائها، بل تتمثل أيضاً في السيطرة عن قرب على أنشطة البرلمان كما على أنشطة الباب العالي.

وهي مهمة سهلة نسبياً. فبعد إخراس معارضى النظام، تجد لجنة الاتحاد والترقي الساحة خالية أمامها لكي تدير الحياة السياسية للبلاد على هواها من الناحية العملية. وهكذا فإنها سوف تتمتع، منذ ربيع ١٩١٤، ببرلمان صوري يتألف من نواب منتخبين خلال شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤ وينتمون كلهم تقريباً الى حركة الاتحاديين. كما لن يعوزها غير وقت جد قصير حتى تتمكن من السيطرة على جميع الوزارات و، خاصة، على منصب شيخ الاسلام الهام الذي سوف يعهد به في مارس ١٩١٤ إلى مصطفى خيرى بك أوجوبلو، وهو رجل يملك بالفعل قدراً من الدراية بالمسائل الدينية، لكنه جد بعيد عن الوسط المحافظ الذي كان كبار الشخصيات المسلمة يجيئون منه عادة. وإذا ما كان لنا أن نصدق شهادة سفير بريطانيا العظمى الموجود في اسطنبول آنذاك، فلابد ان لجنة الاتحاد والترقي قد نجحت أيضاً، نحو أواخر عام ١٩١٣ أو أوائل عام ١٩١٤، في إنشاء لجنة سرية مكلفة بضبط أنشطة القصر السلطاني، ملتقى جميع الساخطين.

والحال أن نظام الاتحاديين، بحزبه الواحد الموجود في كل مكان، وبرلمانه الذي لا توجد فيه مقاعد للمعارضة، وبحكومته الوحيدة اللون، ويتكئمه للرأى العام، إنما يكشف عن اغلب عناصر ديكتاتورية حقيقية. لكنها ديكتاتورية بلا ديكتاتور. وصحيح اننا سوف نجد أن عدداً من الرجال سوف يحتكرون شيئاً فشيئاً جزءاً كبيراً من السلطة. وبعد بداية الحرب العالمية الأولى، سوف يصل الأمر بالصحف الأوروبية الى حد استمراء الحديث عن «ثلاثى حاكم» من جماعة تركيا الفتاة يتألف من وزير الداخلية طلعت الذي سوف يصبح فيما بعد صديقاً اعظم ومن وزير الحربية أنور باشا ومن وزير البحرية جمال باشا. على أنه لا هذا «الثلاثى الحاكم» - الذي تتخيله الى حد بعيد أجهزة دعاية دول الوفاق - ولا أى شخص بارز آخر بين صفوف الرجال العشرين الذين يشكلون النواة القيادية للجنة

الاتحاد والترقى سوف يتوصل أبدأ الى ممارسة سيطرة بلا ضابط على شئون الدولة. والحال ان طلعت، الاستراتيجية الرئيسى لحركة الاتحاديين، يبرز بوصفه الشخصية السياسية الأكثر تمييزاً للفترة وبوصفه الشخصية التى تعتبر سلطتها، داخل لجنة الاتحاد والترقى كما فى الهيئات الحكومية، أقل عرضة للتحدى. على أنه هو نفسه سوف يجد نفسه مضطراً الى اقتسام السلطة مع رجال النظام الأقوياء الآخرين.

ديكتاتورية حزب؟ لاشك أنه سوف يكون من الأدق الحديث عن ديكتاتورية زمرة يقتسم اعضاؤها، القادمون من أفاق جد متباينة، مختلف المناصب الرئيسة فى اللجنة وفى الحكومة. فهناك، إلى جانب «الثلاثى الحاكم»، رجال كالكتور ناظم، الأشبه ما يكون بموجه خفى للجنة الاتحاد والترقى، لن يخرج من الظل إلا فى عام ١٩١٨ ليصبح وزيراً للتعليم؛ وطبيب آخر، هو الدكتور بهاء الدين شاكر، الذى سوف يرأس، فى عام ١٩١٤، الشعبة السياسية لـ «التنظيم الخاص» (تشكيلات - اى مخصوصه) الذى انشأه الاتحاديون لأغراض التجسس والدعاية والتخريض؛ وضياء جوقلب، الكاتب الموسوعى الموهوب، والذى يجرى تصعيده بسرعة بالغة الى مرتبة الايديولوجى الرئيسى للحركة؛ ومدحت شكرو، أحد الأعمدة الراسخة للجنة المركزية للجنة الاتحاد والترقى التى كان قد أسهم فى تأسيس فرعها فى سالونيك فى عام ١٩٠٦؛ وقره كمال، نائب اسطنبول، الذى سوف يعهد اليه خلال الحرب بمنصب وزير التموين، وهو منصب حساس - وجد مريح؛ وعدد من الرجال الآخرين كحسين جهيد، رئيس تحرير صحيفة «يتانين»، ومحمد جاويد، وزير المالية فى أغلب وزارات الاتحاديين، وايمانويل كاراسو، أحد المنتمين النادرين الى الأقليات الذين لعبوا - وراء الكواليس - دوراً معيناً داخل اللجنة.

إلا أنه كان وراء هذه المجموعة جد المحدودة حزب دينامى وقوى، وكانت وراء هذا الحزب قاعدة شعبية راسخة. وشأنها فى ذلك شأن جميع الأحزاب التى تحتكر الحكم، فإن لجنة الاتحاد والترقى كانت تحتوى على اتجاهات متباينة. ومن هنا

الطابع التجميعي، وغير المحدد نسبياً، لشعاراتها. ومن هنا أيضاً نجاحها المتعاظم بين الجماهير. ومنذ ظهورها على المسرح السياسي، راهنت الاتحادية على القيم التعبوية. فقد بدأت بامتطاء جواد النزعة العثمانية؛ ثم تحولت الى تمجيد الأمة والشعب والاخاء الاسلامي. ومن الاهانات المتكررة التي عانت منها الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٩٠٨ استخلصت حماساً للوحدة القومية. وقد رمت استراتيجيتها برمتها الى أن تحشد حولها إجماعاً واسعاً؛ وفي عام ١٩١٤، كان قد تم الوصول الى هذا الهدف الى حد بعيد.

على ان غير الأتراك كانوا منذ ذلك الحين شبه مستبعدين من هذا الاجماع. وحتى إذا كانت لجنة الاتحاد والترقي تغازل العرب وتضم بين اعضائها البارزين عدة شخصيات منحدره من الولايات الشرقية للامبراطورية، وحتى إذا كانت تجتهد في الحفاظ على اتصال مع الأقليات المسيحية، خاصة مع الأرمن الذين يشكل تطلعهم الى الحكم الذاتي، بل والى الاستقلال، من الآن فصاعداً، إحدى المشكلات الرئيسية التي يتعين على الدولة العثمانية مواجهتها، فإن الأمة التركية هي وحدها التي تتعرف على نفسها بالفعل فيها. وهو ما يعنى أن المثل الأعلى للاتحاد وللأخاء بين مختلف جماعات الامبراطورية والذي دافع عنه المثقفون العثمانيون بكل هذا الحماس خلال ما يقرب من نصف قرن لم يعد يمثل، عشية الحرب العالمية الأولى، غير عقيدة جوفاء، مناسبة تماماً لتزيين الخطب الرسمية. وبدون أن تدرك تركيا ذلك بشكل واضح، فإنها تجد نفسها منخرطة بالفعل في تلك الفترة، تحت قيادة لجنة الاتحاد والترقي، في طريق الثورة القومية. وهي ثورة سوف يتعين عليها مع ذلك، لكي تكتسب ثباتاً، أن تتعايش مع أهوال الحرب.

الحرب العالمية الأولى : الدوامة

يوليو ١٩١٤. من مذكرات ديبلوماسية الى انذارات، ومن تصريحات انتقامية الى أوامر تعبئة. وكان يكفي عدة طلقات لرصاص مسدس - هذه الطلقات التي

تردد صداها فى سراييفو، وأدت الى موت الأرشيديوق فرانسوا - فرديناند وزوجته - لاشعال مستودع البارود. فماذا سوف يكون موقف الباب العالى فى الحريق الشامل الذى تندفع اليه الدول؟ إن السؤال يشغل جميع المستشاريات، لأن الامبراطورية العثمانية، على الرغم مما أصابها من ضعف شديد من جراء الاخفاقات التى منيت بها فى البلقان، مايزال بوسعها أن تشكل ثقلًا هاماً فى ميزان القوى. فهى تنتشر على أراض شاسعة، وتسيطر على المضائق، وجيشها الذى يشهد تجديدًا ليس تافهاً بالمرّة. ومن جهة أخرى، فإن السلطان الخليفة يتمتع برصيد كبير : الهيبة الأدبية - ذات الجوهر الدينى - التى يتمتع بها عبر أرجاء العالم الاسلامى، بما فى ذلك فى الأراضى التى تتبع الدول الاستعمارية العظمى.

وفى اسطنبول، نجد أن جانباً هاماً من رأى العام وغالبية أعضاء لجنة الاتحاد والترقى يبدوان مؤيدين لتقارب مع دول الوفاق. بل إن أحد قادة الحركة، وهو جمال، سوف يذهب الى حد اقتراح تحالف ذى شكل جيد ومناسب على الفرنسيين. أما باريس ولندن فإنهما تقتنعان عن طيب خاطر بحياد عثمانى وتزيدان المبادرات الرامية الى الحصول عليه. على أنه فى الأيام الأولى من اغسطس، وبينما اوروبا فى حرب بالفعل، سوف ينتهى الخبر بالتسرب : فبموجب معاهدة سرية موقعة فى اليوم الثانى من الشهر، وإن كان قد تم التفاوض عليها منذ عدة أسابيع، تتحالف الامبراطورية العثمانية مع ألمانيا. ومن حيث المبدأ، فإن ذلك التحالف يعتبر تحالفاً دفاعياً، موجهاً ضد روسيا. إلا أن من الواضح أن الباب العالى يتعذر عليه منذ ذلك الحين تجنب التورط فى الحرب.

ومن الجانب التركى، فإن قرار مثل هذا الارتباط كان قد اتخذ من جانب مجموعة جد محدودة من الرجال. ففى البداية، نجد أن الصدر الأعظم، سعيد حليم والرجلين الرئيسيين فى النظام، طلعت وأنور، هم وحدهم الذين يجدون أنفسهم متورطين فى المفاوضات التى أجريت مع فون فانجينهايم، سفير ألمانيا. فهل يعنى

ذلك أن التحالف التركي - الألماني كان نوعاً من صدفة تاريخية، حلفاً يتعارض مع طبيعة الأشياء عقدته حفنة من المغامرين المتأثرين بالروح العسكرية البروسية؟ إن دعاية دول الوفاق لن تتأخر عن استخدام هذه الفكرة لمحاولة إبعاد الرأي العام الإسلامي عن أولئك الذين ورطوا الامبراطورية العثمانية في الحرب. أما في الواقع، فإن الخيار الذي أقدم عليه الباب العالي، بمباركة من جانب السلطان محمد الخامس، ليس هناك ما يمكن أن يكون أكثر منطقية منه. ففي أوروبا تحولت إلى ساحة معركة شاسعة، أليست هناك جميع الاحتمالات في أن تجد تركيا نفسها مرة أخرى مواجهة بضربات عنيفة مرعبة من جانب روسيا، عدوها التقليدي؟ وفي وجه مثل هذا الخطر، ألا يشكل التحالف مع دول وسط أوروبا الحصن الممكن الوحيد؟ ومن جهة أخرى، أليس على العثمانيين أخذ ما لا حصر له من الثارات؟ منذ أربعين سنة والامبراطورية تراكم الهزائم والخسائر الإقليمية والتمزقات. ولها هي أيضاً الزاسها ولورينها: ولايات الأناضول الشرقية التي سلمت إلى روسيا في عام ١٨٧٨، وجزر بحر إيجه والبحر المتوسط، وطرابلس الغرب، وأراضى روميليا الغنية. فكيف يمكن تجنب الانخراط من جديد في الحرب لمحاولة استرداد ولو جزء من ثروة الأسلاف هذه؟ وألن يسمح انتصار على روسيا أيضاً باسترداد أراضى الأسلاف عبر القوقاز وفي وسط آسيا؟ وأخيراً، في نهج تفكير آخر، ألا تمثل المشاركة في الأعمال الحربية المخرج الوحيد المتاح لتركيا لكي تنزع النير السياسي والمالي الذي تفرضه عليها دول الغرب؟

وإذا كان الباب العالي قد اختار الحرب فإنه لن يكون مع ذلك، خلال الأسابيع الأولى للحرب، أقل التزاماً بالتحفظ، وهو ما يدع دول الوفاق تحلم بحياد ممكن. وهذا الوقت ضروري (للباب العالي) لاستكمال استعداداته العسكرية. كما أن هذا الوقت ضروري لاستكمال المفاوضات الأخيرة مع الألمان، لأن (الباب العالي) بحاجة إلى أسلحة وضباط على دراية بالتقنيات الجديدة، وهو بحاجة إلى المال بشكل خاص. لكن المبادرات القليلة التي سوف يجازف باتخاذها خلال تلك الفترة

تكشف بالفعل نواياه. فمِنذ النصف الأول لشهر أغسطس يقع حادث جوبين وبريسلاو: ذلك ان هاتين البارجتين التابعتين للأسطول الألماني في البحر المتوسط تلجأن الى المياه العثمانية بعد قصفهما للقواعد الفرنسية في افريقيا الشمالية (٣ أغسطس)؛ وحين تدعو انجلترا الحكومة العثمانية الى طرد البارجتين الى عرض البحر أو احتجازهما، تمشياً مع قانون الحرب، فإن هذه الحكومة لا تتردد في الإشارة الى أنها قد اشترتهما لكي تجعل منهما، تحت اسميهما الجديدين: السلطان سليم ياووز وميديللي، أفضل سفن البحرية العثمانية، وأن قائدهما، الاميرال سوشون، قد عين على رأس الأسطول السلطاني في البحر الأسود (١١ أغسطس). وفي ٨ سبتمبر، يعلن الصدر الأعظم الغاء الامتيازات، مليياً بذلك أحد المطالب الرئيسية للقوميين العثمانيين. وهذه اللفتة الرمزية التي تبدى الامبراطورية من خلالها رغبتها في أن تقول لا للغرب هي أيضاً اجراء يتميز بفعالية ضارية تضرب دول الوفاق في مصالحها الاقتصادية. وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه، يتخذ الباب (العالى) خطوة أخرى في طريق التحدى باغلاقه المضائق في وجه الملاحة التجارية. وبعد ذلك بأيام قلائل، وكنتيجة مباشرة لإلغاء نظام الامتيازات، تجرى زيادة الرسوم الجمركية العثمانية من جانب واحد بنسبة ٤٪؛ وفي الوقت نفسه، يجرى اغلاق مكاتب البريد الأجنبية والغاء جميع السلطات القضائية غير العثمانية.

لكن ما لا يمكن إصلاحه لا يتم بعد. فحكومة اسطنبول تتأخر في التورط بشكل حاسم، لأن دول وسط اوروپا تمنى باخفاقات خطيرة على المارن وفي غاليسيا. وهذا سبب أضافى لكي يكون الألمان أكثر الحاحاً ولكي يضغطوا من أجل دخول الجيش التركى الى الساحة فوراً. فإذا ما فتحت الامبراطورية العثمانية النار، فإن الروس سوف يجدون أنفسهم ملزمين بنقل قوات الى القوقاز، وسوف يتعين على انجلترا حماية قناة السويس ومصر، وبذلك يتم تخفيف الضغط على الجبهة الغربية. واعتباراً من أواخر سبتمبر، تتسارع المساومات بين الباب العالى

وبرلين - عن طريق فون فانجينهايم. وفي نهاية الأمر، تضطر حكومة قيصر (ألمانيا) الى اتخاذ قرار برمي ورقتها الرابعة: ففي ٢١ أكتوبر، تصل الى اسطنبول اول خزائن الذهب الألماني. وسوف يكون الأثر المتوقع فورياً. فمنذ اليوم الثاني والعشرين، بالفعل، سوف يصدر أنور الأمر الى الأميرال سوشون بمهاجمة الموانئ الروسية في البحر الأسود. وتحدث ترددات اخيرة من جانب الوزارة العثمانية التي يعادى بعض اعضائها الدخول في الحرب. لكن أوراق النرد ترمى في اليوم التاسع والعشرين: فتمشياً مع الأوامر الصادرة اليه، سوف يقصف الأسطول التركي أوديسا وسياستوپول ونوفوروسيسك.

ولا يعود هناك سوى ترك العرف الحربي يأخذ مجراه. ففي ٢ نوفمبر، تعلن روسيا الحرب على الامبراطورية العثمانية، وسط حديث عن «مسئولياتها التاريخية». وفي ٥ نوفمبر، تضم فرنسا وبريطانيا العظمى صوتيهما الى صوت القيصر. وفي ١١ نوفمبر، يجيء الدور على محمد الخامس لاعلان الحرب. وبعد وقت قصير من ذلك، سوف يمضى الى حد التلويح بالتهديد الأخطر، وهو الدعوة الى الحرب المقدسة، الجهاد. ذلك ان بياناً مؤرخاً في ٢٣ نوفمبر، يحمله العلماء الى أركان الامبراطورية الأربعة، سوف يدعو جميع المؤمنين، أكانوا رعايا عثمانيين أم لا، الى أن يهبوا ضد «الطغمة الظالمة المدعوة بالوفاق الثلاثى (...)»، والتي يتمثل أسمى ملذات غرورها القومي في استعباد آلاف المسلمين» والى «اعتبار المشاركة في الجهاد بارواحهم وممتلكاتهم أكثر واجباتهم الدينية إلحاحاً».

ولخوض هذه «الحرب المقدسة»، تتمتع تركيا بجيش مجهز ومدرب وفق النموذج الألماني. كما ان حكومة برلين قد أرسلت اليها كوكبة كاملة من كبار الضباط: ليمان فون ساندرز، فون سيكت، فون دير جولتز، فون فالكينهاين وآخرين. والحال أن هؤلاء الرجال الذين يتولون قيادة مختلف فيالق الجيش والمكاتب الوزارية الأكثر أهمية (الاستخبارات، المواصلات، التموين والامداد،

الذخيرة، الخ) يصدرن اوامرهم الى ضباط عثمانيين صغار لا يرتاحون دائماً للوصاية الألمانية، لكنهم، الآن، يتعايشون معها. وإلى جانب هذه القوى العسكرية الخاضعة للحماية اليقظة من جانب ألمانيا، توجد أيضاً، منذ أغسطس ١٩١٤، منظمة خاصة (تشكيلات - اى مخصوصة) مخيفة أنشأها أنور باشا وسوف تصبح ذات صيت واسع. والواقع أن هذه المنظمة، المخصصة لأنشطة الدعاية والتجسس والتخريب، هي نوع من «طابور خامس» تتمثل إحدى مهامه الأساسية، الآن، في نشر شعار الجهاد الذي رفعه الباب العالي عبر مختلف أرجاء العالم الاسلامى. وفي المراحل التالية من مراحل الحرب، سوف يتولى عملاؤها الذين يصل عددهم الى نحو ٣٠٠٠٠ انسان مهمات أخرى، من التشكيل البسيط لجماعات سياسية الى تنظيم حملات مسلحة ضد الأعداء الداخليين والخارجيين لنظام الاتحاديين، أكان ذلك في الأراضي العثمانية أم في بلدان نائية كآفغانستان أو الهند أو اثيوبيا.

إلا انه بالرغم من قيادة الضباط الألمان، وبالرغم من خزائن الذهب والذخيرة القادمة من برلين، وبالرغم من الجهود التي يضطلع بها دعائيو التشكيلات المخصوصة من أجل اشعال مشاعر العداوة لدول الوفاق بين صفوف المسلمين، فإن الحرب سوف تبدأ بالنسبة للامبراطورية العثمانية بالشكل الذي سوف تنتهى به : وهو شكل سيىء. لقد عهد الاستراتيجيون الألمان الى الأتراك، كمهمة من الدرجة الأولى، بالعمل على تشتيت شمل جزء من الجيش القيصرى على جبهة القوقاز. ونحو منتصف ديسمبر ١٩١٤، فإن أنور باشا شخصياً، الذي يحمل شارة القائد العام للقوات العثمانية، هو الذى يقود الجيش الثالث، المرابط فى ارضروم، الى الهجوم على المواقع الروسية، آملاً فى أن يسترد فى اندفاع أول ولايات كارس وأردهان وباطوم قبل أن يكسب للامبراطورية كل الأراضي القوقازية. وتحدث كارثة ساريكاميش، فالجنود تبتلعهم الثلوج ويفترسهم الصقيع،

وتبدد شملهم الأوبئة. وفي غضون أسابيع قليلة يباد فيلقان من الجيش بشكل يكاد يكون تاماً.

وعلى الجبهات الأخرى، قلما تبدو الأمور افضل. ففي نوفمبر، ينزل الانجليز الى الفاو، على الخليج الفارسي، ويبدأون في التهام العراق، فيستولون على البصرة (٢١ نوفمبر)، ثم يشرعون في زحف يتميز بالجد صوب الشمال، وهدفهم النهائي هو الوصول الى آبار بترول الموصل. وقرب الفترة نفسها، فإن الهيمنة الانجليزية على مصر - التي سوف يجرى اعلان استقلالها في ١٨ ديسمبر - تؤدي أيضاً الى تعريض العثمانيين لإيذاء جسيم. وفور تعيينه والياً على سوريا بعد وقت قصير من بدء الحرب، يحدد جمال باشا لنفسه، منذ وصوله الى دمشق، مهمة تنظيم قوة حملة بهدف اخراج القوات البريطانية من الأراضي المصرية. وسوف يحدث الهجوم الذي يخطط له في يناير ١٩١٥. ويجتاز نحو ٨٠٠٠٠ رجل صحراء سيناء ويصلون ظافرين الى قناة السويس. إلا أنهم لن يتأخروا في الارتداد على أعقابهم دون أن يتسنى لهم عبور القناة ودون أن تنشب الانتفاضة العربية التي راهن عليها الأتراك لمساعدتهم في مشروعهم.

والنجاح الملحوظ الوحيد، في مقابل هذه السلسلة من الاخفاقات هو، المقاومة التركية البطولية في الدردنيل. لكن الثمن كان فادحاً! وبالنسبة للحلفاء، الذين ينخرطون في بداية عام ١٩١٥ في هجوم على المضائق، كان «من الصعب تخيل عملية تمنح أملاً اكبر من الأمل الذي تمنحه هذه العملية» (لورد بلفور). فمن شأن انتصار على هذه الجبهة ان يسمح لدول الوفاق بالسيطرة على العاصمة العثمانية و ، على الأرجح، باجبار الباب العالي على توقيع الصلح؛ ومن شأن إعادة فتح المضائق أن تتيح لفرنسا وبريطانيا العظمى امكانية إمداد الجيش الروسي بالمدافع والذخيرة، وان تمكن الانجليز من توطيد وضعهم في مصر ومن الاستيلاء بشكل أسهل على العراق.. لكن الواقع سوف يكون جد مختلف. فخلال ما يقرب

من عام، سوف تباد قوات دول الوفاق، موجة اثر موجة، أمام تحصينات شبه جزيرة غاليبولى دون أن تتوصل الى اجتياز الحاجز. فعلى رأس القوات التركية، يقاتل أميرالاي شاب قتالاً ضارياً. وهذا الأميرالاي اسمه مصطفى كمال. وسوف تنتهى الأمور بالتخلى عن العملية. لكن «جسيم الدردنيل» سوف يكون، بالنسبة للعثمانيين كما بالنسبة للحلفاء، أحد أحداث الحرب الأكثر فداحة: إن أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من المحاربين من جانب دول الوفاق سوف يقتلون أو يجرحون، وسوف يصل عدد الضحايا فى المعسكر المناوىء إلى ١٢٠٠٠٠.

وبينما تتمرغ تركيا بهذا الشكل فى الحرب، كان ما يزال فى اسطنبول رجال يتصورون ان الحرب سوف تكون قصيرة وان انتصار دول وسط أوروبا سوف يسمح للامبراطورية بأن تنبعث من رمادها. وفى هذا الصدد، تؤثر الدعاية الألمانية تأثيراً فعالاً. على انه لا الحكومة ولا قادة الجيش سوف يجهلون منذ ذلك الحين ان البلاد منخرطة فى سيرورة لا يمكن لأحد التنبؤ بنتيجتها.

سنوات الرهاد

كل حرب دمار. والحرب التى تجد الامبراطورية العثمانية نفسها منخرطة فيها لا تشذ عن هذه القاعدة. فهى حرب منسوجة من العذاب والخراب والأهوال التى لا تحتمل. وخلال السنوات الأربع التى سوف تستمر الأعمال الحربية فيها، فإن الرعب والموت لن يخيما على الخنادق وحدها. فهما سوف يخيما أيضاً على الأرياف والمراكز والمدن وسوف ينالان من السكان المدنيين.

ومن بين جميع مأسى الحرب، فإن المأساة التى حركت الحزن الأكبر وأراقت الحبر لأكثر هى إبادة الجماعات الأرمنية فى الاناضول الشرقية. وحتى يومنا هذا، لم تسلط كل الأضواء على هذا الحدث المحزن وما يزال هناك تعارض بين فكرتين يتواصل بحدة تتميز بانتقاد نادر.

فما هي الوقائع؟ قرب منتصف شهر مايو ١٩١٥، تأمر الحكومة العثمانية بـ «ترحيل» جميع الأرمن المقيمين في ولايات الشرق، مثلما فعل الروس بالفعل على الجانب الآخر من الحدود. ومن حيث المبدأ، فقد كانت المسألة مسألة إخلاء مناطق القتال، وذلك سعياً، في آن واحد، الى «تأمين» السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الممائلة لروسيا. على أن العملية - التي سرعان ما سوف تمس أرمن قيليقيا وأرمن الأناضول الغربية - تجرى في ظروف مخيفة : عمليات سلب ونهب، عمليات إحراق، عمليات تعذيب، مذابح. وتحت ضربات من جانب التشكيلات المخصصة وجماعات القناصة (تشيت)، نجد أن طوابير المرحلين الذين يجرى اقتيادهم الى معسكرات التجمع في سوريا وفي بلاد الرافدين تنوى يوماً اثر يوم. ولن يصل الى معسكرات حماه وحمص ودمشق غير نحو ١٢٠٠٠٠ من الناجين؛ وسوف نجد منهم ٢٠٠٠٠٠ في دير الزور و ٥٠٠٠٠ في حلب. ومن جهة أخرى، فإنه يبدو أن نحو ٣٠٠٠٠٠ شخص قد نجحوا في الوصول الى القوقاز بفضل الاحتلال الروسى. فأين ذهب الآخرون؟ من المستحيل أن نقدر بدقة عدد الضحايا. البعض يرى انه يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠، والبعض الآخر يرى أنه أكثر من مليون. وأيا كان الأمر، فإن ذلك يدفع هنرى مورجنتاؤ، السفير الأمريكى فى اسطنبول، الى اعتبار ما حدث «اغتيالاً لأمة».

فما هي التفسيرات القائمة؟ إستناداً الى حشد مثير من الشهادات ومن المؤلفات التاريخية، لا يسمح الموقف الأرمنى - وهو أيضاً موقف كثيرين من نوى التفكير المستقل - بأى حكم وسط : لقد كانت لدى الاتحاديين المسكين بزمam السلطة فى اسطنبول رغبة واضحة فى إبادة شعب بأكمله. وقد جرى التخطيط لهذه الابادة وتنفيذها بشكل منهجى. وقد اقترفت المذابح إما فى الموقع أو على الدرب المؤدى بالمرحلين الى صحارى سوريا وبلاد الرافدين. وهدف العملية هو إخراس الأرمن بشكل نهائى، وإخلاء القوقاز من عنصر عرقى يشكل حاجزاً أمام توحيد جميع الشعوب التركية فى اطار دولة طورانية عظمى. والتفسير التركى ليس

أكثر تعقيداً. وإذا يستند هو الآخر الى حشد من الوثائق التي يصعب الحكم ببطلانها، فإنه يذهب الى ان حكومة اسطنبول لم تسع قط الى اباداة الأمة الأرمنية وأنها قد وجدت نفسها ببساطة مضطرة الى «ترحيل» الأرمن، تمشياً مع ممارسة سارية في زمن الحرب. وتبدو هذه «الترحيلات» ضرورية أكثر بقدر ما أن الأرمن قد شكلوا ميليشيات في خدمة العدو، ويقدر ما أنهم قد استفادوا من تغلغل الروس في الأناضول الشرقية لكي ينظموا، في ابريل ١٩١٥، مذبحة للسكان المسلمين في ولاية فان. وصحيح أن الترحيلات والحوادث التي رافقتها قد أدت الى سقوط ضحايا، لكن عدد الموتى لم يتجاوز دون شك ٣٠٠٠٠٠، وهو رقم اجمالى يتناسب تماماً مع الملايين الثلاثة من الأتراك الذين هلكوا خلال الفترة نفسها.

وليست هناك صعوبة في أن نجد في حشد الكتابات المكرسة من الجانبين للمسألة أشكالاً من انعدام الدقة وادعاءات لا تصمد للنقد، بل وتزييفات. وبوجه خاص، فإنه يبدو من المؤكد اليوم أن بعض المستندات الاساسية التي أدخلها الاتهام في الملف - على سبيل المثال، الكتاب الأزرق الذى أعده للحكومة البريطانية برايس وتوينبى أو مذكرات نعيم بك المنشورة برعاية آرام آندونيان - لا يمكن بأى شكل اعتبارها وثائق يستحيل الحكم ببطلانها. ألم يعترف توينبى نفسه بأن الكتاب الأزرق الذى حرره قد «طبع ووزع بوصفه عملاً من أعمال الدعاية خلال الحرب»؟ وبالمثل، فإن صحة البرقيات التى يقال ان حكومة تركيا الفتاة قد أمرت، من خلالها، فى ربيع ١٩١٥، بابادة الأرمن، تتعرض اليوم لتشكيك جدى. ومع ذلك فكيف يمكن تجاهل الشهادات التى لا تُعدو المحفوظة فى خزائن الارشيفات الغربية، والتى تتحدث، كل بطريقتها، عن الحقيقة الأليمة؟ كيف يمكن، بوجه خاص، عدم التسليم بحقيقة عينية بسيطة: لقد كان فى تركيا عشية الحرب العالمية الأولى أكثر من ١٥٠٠٠٠٠ أرمنى على الأزج؛ وفى اثر المذابح والترحيلات والرحيل الى المنفى، لن نجد منهم بعد بضع سنوات غير ٧٠٠٠٠.

إلا انه لابد من الإشارة الى أن الجماعات الأرمنية ليست الجماعات الوحيدة التي اختزلتها مطرقة الحرب. ففي ربيع ١٩١٥، يتقدم الجيش القيصري في إقليم بحيرة فان، جاراً في اثره كتائب من المتطوعين تتألف من أرمن القوقاز وتركيا. ولن يتمكن العثمانيون من رد هذه القوات الروسية- الأرمنية إلا نحو بداية يوليو. وفي غضون ذلك، نجد ان عشرات الآلاف من المسلمين - بل و ، بسبب تقلبات العمليات العسكرية، عدداً كبيراً جداً من المسيحيين - يبادون أو لا يجدون خلاصاً إلا في الهرب. ويتكرر السيناريو نفسه بعد بضعة شهور، عندما ينتزع الروس أرضروم (فبراير ١٩١٦) ويحتلون تدريجياً جزءاً كبيراً من الأناضول الشرقية، حيث يدفعون قواتهم صوب موش في الجنوب و ، في الشمال، الى ترابزون (التي يتم الاستيلاء عليها في ابريل) وايرزبينجان (يوليو). وفي هذه المرة أيضاً، سوف يدفع السكان المسلمون ضريبة فادحة للمواجهة بين الطوائف. وقد أظهرت احصاءات ما بعد الحرب، بالنسبة لكل ولاية من الولايات الخاضعة للاحتلال الروسي ولأعمال الثار من جانب الميليشيات الأرمنية، عجزاً ديموجرافيا هاماً - يبلغ حجمه الاجمالي عدة مئات من الآلاف من الأنفس - يرجع في جانب كبير منه الى المذابح التي اقترفها العدو.

١٩١٥ ، ١٩١٦ ، ١٩١٧ : سنوات الرماد. فبينما تجرى هذه الأحداث الفظيعة على الحدود الشمالية - الشرقية، تتمرغ الجبهات الأخرى هي أيضاً في المأساة. فالموت يجتاح الدردنيل. والموت يجتاح بلاد الرافدين حيث يواصل الانجليز زحفهم الثابت صوب الشمال، بالرغم من اخفاق جسيم يتكبدونه في كوت العمارة في أبريل ١٩١٦. والموت يجتاح سيناء وضياف قناة السويس، حيث يصر الكولونيل الباقاري فريدريك كريس فون كريسينيشتاين على شن غارات على القوات البريطانية في مصر. وأخيراً، يجتاح الموت شبه الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين. وفي هذه الأقاليم، لا يصطدم العثمانيون بدول الوفاق وحدها، وإنما يصطدمون أيضاً بشريف مكة، حسين، الذي يدعو العرب، في يونيو ١٩١٦، الى الثورة على سيطرة السلطان.

والواقع أن الثورة العربية، التي ينظر إليها في اسطنبول على أنها طعنة حقيقية في الظهر، سرعان ما سوف تشكل أحد الشواغل الرئيسية للباب العالي. والسبب في ذلك هو أن الشريف حسين لا يتحرك بمفرده. فهو يتمتع بدعم نشيط من جانب الانجليز الذين عقد معهم، في يناير ١٩١٦، اتفاق مساعدة متبادلة. وبموجب هذا الاتفاق الذي تم التفاوض عليه مع السير هنري ماكماهون، المندوب السامي لبريطانيا العظمى في مصر، تتعهد حكومة لندن بالاعتراف باستقلال جزء كبير من البلدان العربية، من الحدود الشمالية لسوريا الى الخليج الفارسي في الشرق، والبحر المتوسط في الغرب (باستثناء شريط ساحلي كبير ممتد على الساحل السوري) وشبه الجزيرة العربية في الجنوب؛ كما تعد بأن «تقدم للعرب المشورة والمساندة الضروريتين من أجل انشاء أنسب أشكال الحكم في هذه الأراضي المختلفة»؛ وفي المقابل، يقبل الشريف مكة الانخراط في القتال «من أجل تحرير السكان العرب من النير التركي»، عبر الحصول على مساندة هامة بالسلاح وبالمال. وتوضح رسالة كتبها ماكماهون: «ان من الواضح أن العرب قد قرروا ألا يستعينوا إلا بمستشارين بريطانيين»، بما يشكل استبعاداً لأيّة مساعدة أوروبية أخرى.

ومن المؤكد أن هذه ليست هي المرة الأولى التي يصطدم فيها السلطان بأحد تابعيه العرب. إلا أن حسينا يشكل، مع مساندة بريطانيا العظمى له، خصماً مخيفاً. والموقف أكثر حرجاً بقدر ما أن الانجليز يتفاهمون أيضاً مع أمير نجد، عبدالعزيز ابن سعود. ففي مقابل مساعدة شهرية قدرها ٥٠٠٠ من الجنيهات الاسترلينية والاعتراف بـ «الاستقلال» السعودي، يعد ابن سعود الحكومة البريطانية بصداقته وبحياده. وفي غياب تحالف ايجابي، فإن هذا الاتفاق يسمح لشريف مكة بالانتقال الى الفعل دون خوف من أن يضايقه جار لا يكن له وداً.

ودفعة واحدة تبدأ الأمور بداية جد سيئة بالنسبة للعثمانيين. فتحت قيادة الأمير فيصل، أحد أبناء حسين، يهجم البدو على سكة حديد الحجاز ولا يتأخرون

فى اخضاع الحاميات التركية فى مكة وجدة لرحمتهم (١٢ و ١٦ يونيو ١٩١٦).
ويجرى تنفيذ العملية بمهارة، وذلك بمساعدة عدد من الضباط الانجليز يبرز بينهم
توماس ادوارد لورانس، وهو شخصية غامضة سوف يتباهى فيما بعد بأنه أحد
الملمين الرئيسيين للثورة العربية.

وبفضل هذا الدعم البريطانى، لن يتطلب الأمر من فيصل غير عدة أسابيع
لكى يسيطر على الجزء الأكبر من الحجاز ولكى يحرم الجيش العثمانى فى اليمن
من أى اتصال مع بقية الامبراطورية. وسوف يتم اجتياز خطوة أخرى عندما يعلن
حسين نفسه، فى اواخر اكتوبر، «ملكاً للعرب». وصحيح أن ذلك لا يعدو أن يكون
ايماءة رمزية، لأن الملك الجديد لا يسود الآن إلا على قبائل بدو الحجاز. إلا أنه
يتضح منذ ذلك الحين أن ربح الرمال لن تهدأ بسرعة.

وتمشياً مع روح الاتفاق المعقود مع ماكماهون، فإن الثورة التى يقودها
الشرىف حسين تكتسب طابعاً عربياً جامعاً وتتعلق على نحو خاص بسوريا. فمنذ
ربيع ١٩١٧، سوف تهدر قوات فيصل صوب الشمال، حيث تستولى على العقبة (٦
يوليو)، وتزعج العثمانيين بالغارات وبأعمال التخريب التى يجرى شنها على طول
خط سكة الحديد الذى يربط المدن السورية بالمدينة. ونحو الفترة نفسها، تتحرك
الاولوية الانجليزية فى مصر هى أيضاً، حيث تزحف ببطء عبر سيناء فى اتجاه
الأماكن المقدسة.

وفى وجه هذا الهجوم المزيج، المستند الى دراية جيدة بالساحة والى
السيطرة على طرق المواصلات، سوف تجد تركيا نفسها مضطرة الى نشر اقوى
قواتها: الجيش الرابع الذى يقوده جمال باشا و ، بوجه خاص، قوة جديدة تماماً،
هى جيش يلد يريم («الصاعقة»)، الموضوع تحت قيادة الجنرال فون فالكينهاين
والذى يهيمن عليه ستون من الضباط الألمان. ولا طائل من وراء ذلك. فبعد
الاستيلاء على غزة وعكا ويافا، سوف تقضى الأولوية الانجليزية التى يقودها



الجنرال الليبنى اعياد رأس السنة فى القدس، التى تم الاستيلاء عليها فى ٩ ديسمبر. وفى هذا الشتاء نفسه، سوف يخيم رجال فيصل من جانبهم على ضفاف البحر الميت ونهر الأردن، حيث يدمرون الأسطول التركى الصغير فى الكرك. ولا تعود دمشق جد بعيدة. وبالرغم من كل شىء، فإن الوصول اليها سوف يتطلب أيضاً نحو عشرة أشهر من العمليات العسكرية. فالعثمانيون يقاومون بشراسة.

وإذا كانوا يقاتلون بمثل هذه الشراسة، فذلك لأن الرهان كبير. فالمسألة بالنسبة لهم لا تتمثل فى مجرد احباط حلم المملكة العربية الكبرى الذى يراود حسيناً. إذ يتعين عليهم بوجه خاص منع دول الوفاق من تنفيذ مشاريعها الخاصة بتمزيق اوصال الامبراطورية. والواقع أن احداً فى اسطنبول لا يجهل - والثوريون الروس هم الذين أذاعوا السر بعد اكتشافهم ذخيرة من الوثائق السرية فى الأرشيفات القيصريّة - أن الدول المتحالفة قد قسمت فيما بينها بالفعل بخفة ممتلكات السلطان الآسيوية. فالحال أن المفاوضات التى أجراها فى مايو ١٩١٦ السير مارك سايكس من الجانب الانجليزى وچورج بيكو عن الجانب الفرنسى قد تجاوزت تجاوباً كبيراً - بمباركة سان بطرسبورغ فيما بعد - مع شهوات الأطراف الثلاثة المعنية: فللروس، ولايات أرضروم وتراپزون وثمان وبيتليس الى جانب اقاليم موش وسيرت حتى وادى دجلة؛ ولفرنسا، الساحل السورى وقيليقيا الى جانب منطقة نفوذ شاسعة تشمل بقية سوريا وشمال العراق؛ ولبريطانيا العظمى، موانئ حيفا وعكا، وكل بلاد الرافدين الجنوبية من بغداد الى الخليج الفارسى، وأخيراً منطقة نفوذ شاسعة تمتد من فلسطين الى ايران. كما ان اتفاقاً آخر، وقع بعد ذلك بعدة أشهر فى سان چان لو مورين (١٩ ابريل ١٩١٧)، ينص على حصة من الأسلاب لاطاليا : منطقة احتلال منحوتة عبر الأناضول الغربية وتستوعب عدداً من أغنى أقاليم الامبراطورية، من بينها ازميز وقونية وأنطاليا وميرسين. وأخيراً، فمع الاتجاه الى هذه التقسيمات، لا يتخلف الحلفاء عن نثر الوعود فى جميع الاتجاهات: فللعرب، الاستقلال المصحوب بوصاية أوروبية فعالة، واليهود، «وطن

قومى» فى فلسطين (اعلان بلفور المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٩١٧)، واليونانيين، انجاز «فكرتهم العظمى»، إنشاء يونان كبرى تستوعب ثراس والولايات الايجية لآسيا الصغرى. وأمام مثل هذه الاحتمالات، كيف يمكن للامبراطورية ألا تنزعج وألا تتصدى بقوة الاستماتة؟ وفى هذه الأشهر الأخيرة للحرب، فإنها لا تقاتل ضد دول الوفاق وحدها، بل تقاتل ضد موتها هى نفسها.

لكن ضوئاً يبرز وسط هذا الاحتضار. فالثورة التى نشبت فى بتروجراد فى مارس ١٩١٧ تضع روسيا خارج القدرة على مواصلة الأعمال الحربية. وعلى الجبهة الشمالية - الشرقية، لا تتأخر القوات الروسية عن الانفضاض. ومن هذه الجهة، يمكن لتركيا أخيراً أن تلتقط أنفاسها. وسوف تلتقط أنفاسها بشكل أفضل بعد ذلك بعدة أشهر، عندما يعد البلاشفة، بموجب معاهدة برست - ليتوفسك (٣ مارس ١٩١٨)، بالجلء عن الأراضي المحتلة ويرد ولايات كارس وأردهان وباطوم التى استولى عليها القيصر فى عام ١٨٧٧ إلى الامبراطورية وينزع سلاح جماعات المتطوعين الأرمن.

تعبئة المؤخرة

الحرب ليست مجرد مسألة أسلحة ووقود للمدافع. فتركيا، شأنها فى ذلك شأن جميع البلدان المتحاربة، يجب عليها أيضاً تعبئة قواها المعنوية والنضال على الجبهة الاقتصادية، وصوغ قوام اجتماعى قادر على التكيف مع الظروف. وتصبح اللحظة مهياة للتدابير الاستثنائية والتجديدات الجسورة. والموقف جد ملائم للتغيرات بحيث أن حكومة اسطنبول، فى خوضها للمعارك ضد دول الوفاق، تدير ظهرها فى الوقت نفسه لسيرورة الخضوع للغرب التى انجرت اليها الامبراطورية العثمانية منذ بداية القرن التاسع عشر.

ولكسب الحرب، فمن الضرورى (وإن لم يكن كافياً) الايمان بالنصر. ومنذ بداية الحرب، ينهمك دعائيو نظام الاتحاديين فى الاضطلاع بعملهم، معلنين

إيمانهم بجبروت تركيا. وأحد أوائل من يصوغون النبذة هو كاتب اجتماعي اشتراكي - ديمقراطي شهير جاء من المانيا ودخل، بمباركة الفيلهيلمشتراسه، في خدمة القضية العثمانية، وهو الكسندر اسرائيل هيلفاند، الأكثر شهرة تحت اسم بارثوس الأدبي. ففي كتيباته المنشورة باللغة التركية، تمكن بارثوس من أن يعلن بقوة اقناع كبيرة أن الحرب تشكل الوسيلة الوحيدة التي يملكها العثمانيون لنزع نير الامبريالية الأوروبية الذي لا يحتمل وأن تركيا لن تفشل، بمساعدة المانيا، في الخروج ظافرة من الاختبار، فتستعيد في آن واحد الأراضي والثروات التي جردت منها وكل عظمتها السابقة. وعلى الفور، يسخر أغلب الصحفيين والروائيين والشعراء هم أيضاً أقلامهم لخدمة الدعاية الحربية. ويبرز بينهم عدد من أفضل كتاب الفترة: ضياء جوقلب، محمد أمين، عمر سيف الدين، خالدة أديب وآخرون. ولإشعار الأدباء على نحو أفضل بدورهم كمهللين للمجهود الحربي، يصل الأمر بالحكومة الى حد تنظيم جولة لهم في ساحات المعركة. والنتيجة: سيل من القصص التي تتحدث عن البطولة ومن القصائد ذات الروح العسكرية.

وربما كان انتاج جوقلب هو الانتاج الذي يعبر بشكل أفضل عن روح الفترة. فجوقلب - وقد أثبت ذلك بالفعل في كتاباته قبل الحرب - يملك حس الشعار، حس الصيغة التي تنطبع في الذاكرة وتوجه الأذهان. وقصائده تشيد باحترام الهيراركية العسكرية («جندي بسيط أنا، وهو قائدي؛ أطيع كل اوامره بلا نقاش، اغمض العينين وأودي واجبي») ، وتعلن تفوق التركي على جميع خصومه، وتتحدث عن عبقرية من يتولون قيادة البلاد (خاصة طلعت وأنور) وتهيم بالأمة وبالدین وبالوطن. والأفكار نفسها نجدها في النصوص النثرية: فالتركي سوف يكسب الحرب لأنه ينتمي الى جنس راق، ولأن روحه تفيض بالثراء، ولأن الحق والعدل الى جانبه، ولأن حسه الأدبي يستند الى الدين الاسلامي، ولأنه يحب وطنه ولغته وثقافته...

أدب دعائي بسيط، يشبه الأدب الذي نجده في جميع البلدان المنخرطة في الحرب. لكن ذلك لا يحول دون الاعتراف بأن كتابات جوقلب، شأنها في ذلك شأن كتابات الأدباء الآخرين الذين قبلوا المشاركة في النضال من أجل بقاء تركيا، سوف تسهم بفعالية في صوغ نزعة قومية صدامية أقل رهافة وإن كانت تتميز بقوة تغلغل وبدينامية جد متمشيتين مع متطلبات اللحظة.

والشيء الهام هو أنها نزعة قومية سوف تبدو ابداعية بدرجة معقولة. فم منذ الأزمنة الأولى لثورة تركيا الفتاة، اجتهد جوقلب والايديولوجيون الآخرون للنظام الجديد في إرساء أسس تجديد اجتماعي وثقافي قائم على ما سوف يجرى تصويره على أنه عودة الى قيم الأسلاف: التعليم العلماني، جرعة معينة من التحرر الأنثوي، اعتماد روح علمية، الانفتاح على التجديدات التقنية للعالم الحديث، درجة عالية من التهذيب المهني والعائلي والمدني، دين مجرد من الخرافات ومفتوح على افكار التقدم. ومع دخول تركيا الحرب، فإن باب الممكنات يصبح منذ ذلك الحين مفتوحاً على مصراعيه، ويحافظ من المشاريع التي تصوغها انتلجنتسيا استحوذ عليها الالهام، سوف تزيد حكومة الاتحاديين المبادرات التجديدية، مستفيدة من غياب أية معارضة برلمانية ومن مناخ الاتفاق العام الذي شجعت عليه حالة الحرب لاعطاء دفعة متزايدة الجذرية - على الورق على أية حال - للإصلاحات التي جرى تدشينها.

ومن بين التدابير الأكثر اثارة والتي اتخذت في تلك الفترة، تجدر الإشارة بادىء ذي بدء الى التدابير الرامية الى قدر من تحرير المرأة. وكان قد مر وقت طويل لم تعد فيه صورة المرأة المحجبة والمحبوسة في الحريم، حيث تستسلم لمشية رب الأسرة، غير ظاهرة غريبة فات أوانها، على الأقل فيما يتعلق بالفئات الميسورة في المجتمع. وفي كبرى مدن الامبراطورية العثمانية، كان الزى النسائي الأوروبي

قد بدأ يجد متباريات فى ارتدائه منذ الثالث الأخير للقرن التاسع عشر، بل لقد ظهرت نحو عام ١٩٠٠، من جانب عدد من الكتاب، دعوات متأثرة تأثراً واضحاً بمبادئ حركة تحرير المرأة. وبعد ثورة تركيا الفتاة، فإن بعض التدابير الملموسة - تطوير التعليم الأولى والثانوى الموجه الى البنات، افتتاح أول ليسيه للبنات فى عام ١٩١١، زيادة المدارس التمهينية - سوف تشهد على الانتباه الذى توجهه لجنة الاتحاد والترقى الى حالة المرأة. إلا انه، فى عام ١٩١٤، كان ما يزال هناك الكثير الذى يجب عمله.

والواقع أن التجديد الأكثر تميزاً سوف يتعلق بموضوع حساس بين الجميع، هو موضوع الطلاق. وفى هذا الموضوع، يعطى القانون الدينى جميع الحقوق تقريباً للرجال ولا يعترف للنساء من الناحية العملية إلا بالتزام الرضوخ. وفى عام ١٩١٦، تجاوباً مع أحد المطالب التى أبرزتها مراراً النخبة ذات الميول التغريبية، وخاصة شخصيات جد شهيرة كضياء جوقلب أو الروائية خالدة أديب، سوف تصدر الحكومة قانوناً يجيز للزوجة طلب الطلاق إذا ما اقترفت زوجها الزنا، أو إذا ما انتهك عقد الزواج، أو أيضاً اذا ما اتخذ لنفسه زوجة أخرى دون موافقتها. وفى السنة التالية، سوف يمضى اعتماد قانون جديد للأحوال الشخصية فى هذا الاتجاه نفسه. والواقع أن هذا النص، مع اتاحته مكاناً واسعاً لوصايا الاسلام واليهودية والمسيحية، سوف يصور الزواج والطلاق والعلاقات الأسرية الأخرى على انها مسائل ترجع بشكل حصري الى السلطات المدنية وسوف يضع نهاية لسلطة الفصل التى تمارسها المحاكم الدينية فى هذا المجال. وفى توازٍ مع هذه الترتيبات القانونية، سوف يبذل الباب العالى أيضاً أقصى جهده من أجل اتاحة التعليم للمرأة بشكل أوسع. وسوف تشهد سنوات الحرب امتداد شبكة المدارس الموجهة الى المرأة؛ وسوف نشهد ظاهرة أكثر اثارة تتمثل فى التزايد الملحوظ لعدد النساء اللواتى يثابرن إلى حد متابعة دراسات عليا.

إلا أن من الواضح انه لا يكفي افتتاح مدارس أو اصدار قوانين لإلغاء قرون من الخضوع. ولا تستطيع المرأة أن تتعلم بشكل فعلى المساواة بين الجنسين فى الصحف النسائية، على الرغم من أن هذه الصحف قد زادت جرأتها غداة الثورة. والواقع، فى هذه السنوات التى تتميز برحيل جميع الرجال القادرين على حمل السلاح الى الجبهة، أن التحرر يمر بشكل خاص عبر العمل. فقد طمست الحرب الى حد بعيد صورة المرأة المحكوم عليها بالحبس فى الحريم. واضطراباً الى مواجهة الاختزال المفاجئ لليد العاملة المذكرة، تدخل النساء جميع الساحات: فى الحقول، وفى الورش الحرفية، وفى المصانع وفى المستشفيات حيث يعملن كممرضات، وفى مكاتب البريد، وفى الادارات العامة، وفى الشوارع حيث يعملن فى الكنس أو فى اصلاح الرصيف، وفى الاسواق حيث يبعن منتجات بساتينهن أو الأشياء التى من عمل ايديهن.

وهذا المجتمع النسائى، الذى يضطر بين عشية وضحاها الى أن يحل محل مجتمع يكاد يكون رجالياً بشكل حصري، مايزال عليه اجتياز شوط طويل حتى يصل الى تحرر حقيقى. ومهما يكن من أمر، فإن النساء قد حصلن منذ ذلك الحين، دون أن يردن ذلك (الواقع أن عدداً من المهام التى عهد بها اليهن ينبع من قانون صدر فى عام ١٩١٥ يؤسس نوعاً من الخدمة الاجبارية)، على حق اقتسام موقع العمل الواحد مع الرجال (اولئك الذين لم يرحلوا الى الجبهة)، وكذلك على حق الخروج الى الشوارع سافرات والانكباب على اعمالهن دون خوف من ملاحقة نظرات حراس التقاليد. ومنذ بداية الحرب، تكرر جمعيات خيرية مختلفة نفسها لمهمة واحدة تتمثل فى دعوة النساء الى العمل. وحجتها بسيطة، لكنها مثيرة: فالمرأة، باسهامها بعملها فى المجهود القومى، لا تؤدى فقط عملاً وطنياً، بل تكسب أيضاً استقلالها الاقتصادى وتتمكن، وهذا واقع اكثر أهمية، من كسب قدر من حرية الفعل والفكر.

وبينما يكسب تحرر المرأة أرضاً له بهذا الشكل شيئاً فشيئاً، تحت ضغط الأحداث، تحرز قضية عظيمة أخرى، هي قضية العلمنة، نجاحات أيضاً.

فمنذ عام ١٩١٢، أصدرت الحكومة تشريعاً جديداً يحد بشكل ملحوظ من مجال تدخل المحاكم الدينية ويضع القضاة الشرعيين والمفسرين الآخرين للشرعية تحت سيطرة سطات مدنية. وسوف يكون ذلك تدشيناً لسياسة علمنة نشيطة سوف تؤدي، في غضون سنوات قليلة، الى تبديل المشهد المؤسسي العثماني تبديلاً محسوساً. وهكذا، بوجه خاص، فإن مرسوماً صادراً في عام ١٩١٥ سوف ينص على توحيد مجمل الجهاز القضائي، بما في ذلك المحاكم الدينية، تحت سيطرة وزارة العدل وحدها. وفي الخطوة نفسها، سوف تجتهد الحكومة في «تحويل» العلماء «الى موظفين» يربطهم بالادارة المركزية وبتخصيص مرتبات لهم كما لجميع مستخدمي الدولة الآخرين. أما المدارس الدينية فسوف يجرى إلزامها بقبول وصاية وزارة التعليم، في حين ان الأوقاف الخيرية سوف يكون عليها التكيف مع إشراف متزايد من جانب وزارة المالية. وسوف يتعلق احد التدابير الأكثر أهمية بمؤسسة عتيقة من مؤسسات عصر التنظيمات، هي مجلس المشايخ (مجلس - اى مشايخ). ففي عام ١٩١٦، سوف يجرى تزويد هذه المؤسسة بهيكل جديد وسوف يحدد لها الباب العالي مهمة جمع تكايا الدراويش والطرق الصوفية في البلاد تحت سيطرة شيخ الاسلام العليا. وأخيراً، في العام نفسه، نجد أن قمة هرم المؤسسة الدينية سوف يمسها الاصلاح: ذلك أن شيخ الاسلام، الذي يجرى تجريده من جانب كبير من صلاحياته الوزارية، سوف يفقد مكانه في مجلس الوزراء ولن يكون تحت اشرافه بعد غير ادارة بسيطة، مختصة من حيث المبدأ بادارة الشئون الدينية فقط.

وهي علمنة مهجنة باختصار بالمركزة وبسيطرة الدولة الى حد بعيد. ولا شك أن هذه السياسة، التي تستمد الوحي من ضياء جو قلب ومن الايديولوجين الآخرين

للجنة الاتحاد والترقي، لا تهدف الى الحد من الامكانيات المتاحة أمام الاسلام للتدخل فى أنشطة المجتمع المدنى بقدر ما تهدف الى جعل المؤسسات الدينية أحد سيور توصيل الارادة الحكومية. وفى ظروف الفترة.. فإن هذه الوصاية على الدين ليس فيها بالفعل ما يستحق الاستغراب. فحكومة الاتحاديين بحاجة الى ان تكفل لنفسها السيطرة على القوى الدينية ليس فقط لأن الاسلام يشكل رأس حربة الدعاية ضد دول الوفاق واللحمة الأكثر فعالية للتضامن القومى، وإنما أيضاً لأنها تعطى للدين - وهو دين مجدد ومكيف مع العصر- دوراً من الدرجة الأولى فى تعبئة الأذهان من أجل تجديد الامبراطورية.

وفى مجال جد مختلف، تتجاوب مع هذه السيطرة على القوى الدينية الجهود التى تضطلع بها لجنة الاتحاد والترقى من أجل ايجاد "اقتصاد قومى" (على اقتصاد) قادر على مواجهة المشكلات الجسيمة للانتاج والتموين والتوزيع والتى تواجهها تركيا المنخرطة فى الحرب. والحال أن الاسلام، الذى يجرى ربطه بالتركيبة المذهبية التى يصوغها الايديولوجيون القوميون، يجب أن يلعب دور الدرع المعنوى للبلاد. أما الوصفات الاقتصادية الجديدة فهى تهدف الى تأمين ركيزة مادية راسخة لها.

وعلى رأس دعاة "الاقتصاد القومى" نجد، مرة أخرى ضياء جوقلب الذى سوف يتبنى أفكاره، المأخوذة فى أغلبها عن فردريك ليست وعن مدرسة الاقتصاد السياسى الالمانى، كتاب اجتماعيون عديدون، وبوجه خاص، أحد أكثر دعاة النزعة القومية التركية حماساً، هو موييز كوهين، وهو عثمانى اسرائيلى العقيدة، أكثر شهرة تحت الاسم الأدبى: تيكين آلب. وحجتهم بسيطة: لكى تنعم تركيا بالعزة والاستقلال، يتعين عليها الاعتماد على قواها الاقتصادية الخاصة، ويجب عليها نزع نير الرأسمالية الأوروبية، وإنهاء شبه الاحتكار الذى تمتع به الأقليات فى التجارة وفى الصناعة العثمانية الوليدة، وتكوين بورجوازية استثمارية قومية،

قادرة على الامساك بزمام مصير البلاد في جميع قطاعات الاقتصاد. وتتعين الإشارة الى أن الظروف تعتبر جد مؤاتية لتطبيق مثل هذه السياسة. ذلك أن إلغاء الامتيازات والأثر المباشر لدخول الحرب والذي يتمثل في وقف التبادلات التجارية مع دول الوفاق، ليس من شأنهما، إذ يسمحان للإنتاج القومي بالتطور في حمى من كل منافسة، إلا أن يشجعا على انطلاق طبقة من رجال الأعمال المحليين، والحاجات الضخمة التي تترتب على المشاركة في الحرب، خاصة من حيث العتاد العسكري والسلاح، وكذلك في سلسلة كاملة من المجالات الأخرى (النقل، التموين، لإنتاج المنجم، الخ)، من شأنها هي أيضاً حفز تكوين رأسمالية ذات طابع قومي.

ولكن كيف يمكن تكوين بورجوازية تركية من عناصر شتى، في سياق اقتصادي يتميز حتى ذلك الحين بهيمنة عناصر من الأقليات؟ إن رد ايدولوجي لجنة الاتحاد والترقي رد بسيط. أن تمسك الدولة نفسها بزمام الأمور، وأن تسهم عن طريق تدابير خاصة في إنشاء مشاريع قومية، وإن تساعد رجال الأعمال المسلمين على تكوين الثروات وعلى استثمار رساميلهم في الأنشطة المربحة.

والواقع أن هذا هو ماسوف تعمل الحكومة على تحقيقه. فبين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، سوف تتوالى التدابير الرامية الى ايجاد مسار لاقتصاد قومي بإيقاع سريع: اقرار تعريفات جمركية جديدة تهدف الى حماية الإنتاج الداخلي والسوق الداخلية من مزاحمة السلع المستوردة، إعادة تنظيم البنك الزراعي، إنشاء جهاز مالي، هو بنك الاعتماد الوطني (اعتبار -اي ملي بنكاس)، تتمثل مهمته في تدبير الرساميل الضرورية للمشاريع التجارية والصناعية، إدخال تعديل جوهري على قانون صادر في عام ١٩٠٩ بشأن "تشجيع الصناعة" يمنح مزايا متنوعة-خاصة منح مساحات مجانية مأخوذة من الأراضي العامة-للشركات التي تبدي ملحماً يتمشى مع المصالح القومية، إنشاء شبكة من التعاونيات الانتاجية والاستهلاكية والائتمانية، تكوين لجان تموين، عبر مختلف أرجاء البلاد، تتمثل مهمتها في تنظيم

ومراقبة نقل وتوزيع المنتجات الأساسية الضرورية (الدقيق، السكر، البترول، الخ)، إصدار قانون يحظر استخدام لغة أخرى غير التركية في مراسلات الشركات، زيادة المنشآت المدرسية الوجهة الى التعليم الفنى.

فما هي النتيجة؟ لقد تم إنشاء أكثر من مائة شركة قومية بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨، في قطاعات جد متباينة، كالبنوك، والنقل، وتوزيع المنتجات الزراعية، والمناجم، والانشاءات، واستثمار الغابات، أو انتاج الورق أو تجارة التجزئة. وحدث انطلاق غير مسبوق للقطاع الحرفى، الذى حرر مؤقتاً من مزاحمة السلع المستوردة. وانبثقت، فى الأرياف الأناضولية، فئة من ملاك الأراضى ومن التجار الذين أثرتهم تجارة الحبوب ومواد غذائية أساسية أخرى. وظهرت ثروات ضخمة ترتبت على المضاربة واختلاس المال العام والسوق السوداء. فشأنها فى ذلك شأن جميع البلدان المتحاربة، كان لتركيا اغنياء حربها، الذين جاءت غالبيتهم من بين صفوف المشمولين بحماية لجنة الاتحاد والترقى، الموزع الوحيد للتعاقدات مع الجيش والخدمات العامة، والوسيط المحتوم فى جميع المعاملات المتصلة بالتمويل. إلا أنه إذا كان البعض يتمكنون من الاستفادة من الحرب، فإن الآخرين-الغالبية العظمى-ليس لهم الحق إلا فى تحمل الصعوبات والعذابات التى تجرّها الحرب فى أذبالها: المجاعات، الجرايات، فرض ضرائب متزايدة على بعض المنتجات، إرتفاع اسعار التجزئة مع معدل تضخم سنوى يتجاوز نسبة الـ ٣٠٠٪. وفى مدينة كبرى كأسطنبول يتعايش أسلوبان للحياة متعارضان تعارضاً صارخاً. فمن جهة، ثراء يتناول بلا حياة ، ومحدثو نعمة يفرقون فى اللهو والسكر والفجور. ومن جهة أخرى، شقاء صارخ فى كل مكان، وموظفون أنزلت السوق السوداء والتضخم قدرتهم الشرائية الى أسفل سافلين، وشعب بائس بأكمله يبرز تحت نير الفاقة والتسول.

ومن الواضح أن نجاح حفنات قليلة من الأفراد فى استغلال الظروف أحسن استغلال لا يعنى أن تركيا قد نجحت، فى غضون سنوات قليلة، فى تكوين

"اقتصاد قومي" حقيقى. فالحرب لم تسمح إلا بإيجاد اقتصاد احلال، اوجدته الضرورات الاستثنائية وقادر تماماً على التهرب من تلبية الحاجات الأكثر إلحاحاً. إلا أن من المستحيل اعتبار هذه التجربة تجربة فاشلة، فالأتراك، بمحاولتهم بناء هياكل مالية وتجارية وصناعية بشكل عشوائى، قد فازوا على جبهة واحدة على الأقل: جبهة تعلم الاستقلال.

نهاية عالم (١٩١٨-١٩٢٣)

بالنسبة للامبراطورية العثمانية، يبدأ الفصل الأخير للحرب بداية طيبة. ففي الجنوب، فى بلاد الرافدين وفى سوريا، حتى وإن كانت قوات العدو لا تكف عن التقدم، تبدى الجيوش التركية مقاومة بل ويمكنها أن تأمل، إن لم يكن فى قلب الوضع على الجبهات وفى تحقيق الاستقرار عليها على الأقل. وفى الشمال، يؤدى تفرق شمل القوات الروسية اثر الانقلابات السياسية لعام ١٩١٧ الى اتاحة آفاق جديدة تماماً: استرداد الأراضى التى ضاعت منذ عام ١٨٧٦، بل واحتمال استرداد "جميع الاراضى التركية" التى التهمتتها الامبراطورية القيصريّة على مر العصور. ويهتف جنود أنور ياشا: "هيو! طوران فى انتظارنا. من القاهرة الى باطوم، من الهند الى افغانستان، الكل فى انتظارنا". فلم يعد أفق تركيا هو ذرى القوقاز. فمنذ ذلك الحين، يزوغ بصرها فى ارجاء ماوراء بحر قزوين المترامية الاطراف.

وتؤدى معاهدة بريست-ليتوفيسك، التى توقع بعد مفاوضات طويلة، الى إنهاء الخلاف الروسى-العثمانى بتلبية أحد مطالب الأتراك الأساسية: العودة الى حدود ما قبل عام ١٨٧٦، لكن المعاهدات تبرم لكى تنتهك. فمادام الطريق مفتوحاً الآن فى القوقاز، فلماذا لا تمضى القوات العثمانية إلى باكو أو حتى الى ما هو أبعد منها؟ لماذا لا تضم تركيا فى أحضانها السكان المسلمين فى الامبراطورية الروسية

السابقة التى مزق اوصالها الغليان الثورى؟ إن حكومة اسطنبول تصبح أكثر ميلاً الى دفع قواتها صوب فتوحات جديدة بقدر ماأن الألمان، الراغبين فى السيطرة على حقول نفط باكوف وعلى الثروات المنجمية الأخرى عبر القوقاز، قد سمحوا لأنور باشا بأن يتصور أنهم لن يعترضوا على تغلغل عثمانى فى الاقليم.

على أن تركيا، لكى يتسنى لها تحقيق مشاريعها، يتعين عليها كسر مقاومة جيورجيا وأرمينيا، المتحدتين منذ وقت قصير (ديسمبر ١٩١٧)، مع أذربيجان، فى جمهورية عبر القوقاز. ويعنى ذلك أولاً، بالاستناد الى عمليات عسكرية، الحصول من الجمهورية الوليدة للتو على الاعتراف بمعاهدة بريست-ليتوفسك، خاصة فيما يتعلق برد الأراضى الذى تنص عليه هذه المعاهدة. وفى مرحلة ثانية، اعتماداً على النجاحات التى أحرزها جيشه، يقدم الباب العالى مطالب جديدة: اختزال القوات عبر القوقازية بدرجة هامة، حرية مرور التجار العثمانيين عبر أراضى الجمهورية، وبوجه خاص، التخلّى عن اليكسندروبول وايمكيازين وعدد من المناطق الجيورجية. والواقع أن فشل المفاوضات التى جرت فى هذا الصدد فى باطوم، فى مايو ١٩١٨، سوف يعطى العثمانيين الذريعة التى يحتاجون اليها لزيادة ضغطهم العسكرى والهجوم على أرمينيا الروسية، العقبة الاخيرة فى وجه الوصول الى أذربيجان المسلمة.

ونحو اواخر الربيع، بعد ثلاثة أشهر بالكاد من بريست-ليتوفسك، تصل الأولوية التركية الى حد الاستعداد للاندفاع صوب بحر قزوين. لكن أنور باشا يضطر الآن الى أن يأخذ فى حسبانته اعتراضاً من جانب المانيا التى ترى فى الهيمنة العثمانية على القوقاز خطراً على أهدافها الاقتصادية والسياسية الخاصة فى الاقليم. وقد بدأ قيصر (ألمانيا) بالمطالبة بوقف للعمليات العسكرية متذرعاً بالضرورة الملحة المتمثلة فى توجيه الحد الاقصى من الجهود ضد التقدم البريطانى فى العراق وفى فلسطين. ونحو الفترة نفسها، سوف يتبين أيضاً أن

ألمانيا قد قررت أن تأخذ تحت حمايتها دولة جيورجيا الجديدة، المنبثقة من التفكك الحتمي للجمهورية عبر القوقازية (٢٦ مايو ١٩١٨). وبعد ذلك بوقت قصير ، فإن باب أذربيجان هو الذى سوف يوصد فى وجه الامبراطورية العثمانية، وذلك إثر اتفاق المانى-سوفيتى يكفل ضماناً ألمانياً ضد تدخل تركى محتمل، وذلك فى مقابل شحنات بترولية بوجه خاص (٢٧ أغسطس).

على ان الأتراك لن يكبحوا جماح أنفسهم لمدة جد طويلة. فوصول قوة بريطانية تحت قيادة الجنرال ل.س. دونسترفيل الى باكو، خلال شهر أغسطس، سوف يرغم القادة الألمان على اعطاء حليفهم الضوء الأخضر الذى تتحرق اليه. ومنذ بداية سبتمبر، سوف نجد ان جيشاً يحمل اسم "جيش الاسلام" تحت قيادة نورى باشا، شقيق أنور، سوف يستولى على ديربينت، مفتاح المواصلات بين اذربيجان والشمال. وفى هذه الخطوة نفسها، تتوجه ألوية عثمانية صوب داغستان وتستعد بالفعل لفتوحات أبعد بكثير.

وفى ١٦ سبتمبر، سوف يتلقى الباب العالى برقية انتصار: لقد تم الاستيلاء على باكو، ورحل دونسترفيل بسلاحه وعتاده، وسوف تظهر الى الوجود قريباً جمهورية اذربيجانية تحت الحماية العثمانية! وفى اسطنبول، تسود النشوة. وإن يتطلب الأمر غير أيام قليلة حتى يعد طلعت باشا، الصدر الأعظم، مع الألمان، مشروعاً ضخماً لتمزيق آسيا الروسية: اقتسام الموارد الاقتصادية للقوقاز فى مقابل تنازلات قليلة للسوفييت، توطيد جمهورية القرم التتارية، انشاء دول مستقلة فى القوقاز الشمالية وفى تركستان، تحديد مناطق نفوذ.

خيالات ضخمة. على أن الرجوع الى الواقع لن يكون إلا أكثر فداحة. لأنه، فى بداية خريف ١٩١٨ هذه، كيف يمكن تجنب الاعتراف بالواقع: إن دول وسط أوروبا وحلفائها بسبيلها الى خسارة الحرب. فعلى الجبهة الغربية، تتوصل الفرق الفرنسية والأمريكية، المدعومة بالوية بريطانية وبلجيكية قوية، الى تحطيم الدفاعات

الالمانية، وفي فلسطين، في هجوم مفاجئ، تتوصل قوات الجنرال اللينبي الى الابداء شبه التامة لمجموعة قوات يلديريم و، بمساعدة القوميين العرب، تستولى على دمشق (أول أكتوبر) وحلب وحمص، بينما ينزل الفرنسيون الى بيروت (٦ أكتوبر)، وفي العراق، تهدر الألوية الانجليزية في اتجاه الموصل، وفي البلقان، أخيراً، يتوصل جيش سالونيك تحت قيادة الجنرال فرانسيه ديسبيرى الى سحق مقاومة القوات البلغارية، مرغماً حكومة صوفيا على الاسراع بتقديم طلب هدنة (٢٦ سبتمبر).

وهذا الحدث الأخير بوجه خاص هو الذى سوف يدفع الباب العالى الى إدراك خطورة الموقف. فطالما كانت العمليات العسكرية تدور فى الولايات الهامشية للامبراطورية، كان الأمل فى مناوره ناجحة على ساحة الحرب كافياً لتغذية تفاؤل القادة العثمانيين. إلا أنه مع سقوط بلغاريا، فإن الخطر يبدو فجأة قريباً بشكل مخيف. والواقع أن العدو يمكنه منذ ذلك الحين التغلغل بحرية فى ثراس الشرقية والزحف حتى ابواب اسطنبول. وما يتعرض للتهديد ليس بعد أرضاً بعيدة ما، بل هو قلب الامبراطورية نفسه.

انقلاب فريد للامور. فبعد ثلاثة أيام من الاستسلام البلغارى، انكب طلعت باشا، خلال زيارته الى برلين، مع محادثيه الألمان، على تسوية مصير الممتلكات الاسلامية للامبراطورية الروسية السابقة. وفي بداية أكتوبر، لا تفكر الحكومة العثمانية بعد إلا فى اقتفاء اثر بلغاريا وفي التوصل الى أيضاً الى وقف للاعمال الحربية.

ولتسهيل المحادثات، تتجه وزارة طلعت باشا، منذ اليوم الثامن من الشهر، الى تقديم استقالتها الى السلطان محمد (السادس) وحيد الدين، الخليفة السيئ الحظ لمحمد (الخامس) رشاد، الذى كان قد مات قبل ذلك بعدة أشهر. وسوف يتطلب الأمر وقتاً معيناً للعثور على صدر أعظم جديد، حيث أن أياً من الشخصيات التى

جرى الاتصال بها لا يريد أن يتحمل مسئولية هدنة تبدو في التو والحال كارثية بالنسبة لتركيا. لكن ذلك يتم في ١٤ أكتوبر. ذلك أن قائداً سابقاً للجيش العثمانية في الشرق، هو أحمد عزت باشا، ينتهي إلى قبول الصدارة العظمى ويسارع، على أمل أن المفاوضات السريعة مع الحلفاء سوف تكفل لبلاده الفوز بترفقهم، إلى تكليف الجنرال الانجليزى تاو نشند-الذى أسره الأتراك في كوت العماره في عام ١٩١٦ وظل حبيساً منذ ذلك الحين-بأن ينقل إلى الاميرال كالثوب، قائد الاسطول البريطانى في بحر ايجيه، مقترحات الحكومة العثمانية. لكن الانجليز، من جهتهم، لا يستعجلون انهاء الأعمال الحربية. فهم، قبل وصولهم إلى المحادثات، يريدون تعزيز مواقعهم في العراق وفي سوريا. وهم يتطلعون بشكل أخص إلى أبار بترول الموصل، في شمال بلاد الرافدين، والتي لا يبعدون عنها كثيراً. والحال أن مفاوضات الهدنة لن تبدأ إلا في ٢٧ أكتوبر، أى بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من العروض التركية الأولى. وسوف تدور (المفاوضات) على متن البارجة البريطانية سوييرب، الراسية في خليج مودروس.

وسوف تستمر المساومات لمدة أربعة أيام، دون أن يتسنى للوفد العثمانى، الذى يرأسه حسين رعوف باشا، وزير البحرية، التوصل إلى تخفيف تشدد الحلفاء. إذ كيف يمكن لهؤلاء، وقد أسكرهم الانتصار، أن يتخلوا عن جميع مشاريعهم، المبلورة بشكل جد تفصيلي، في الهيمنة على أراضى السلطان؟ والواقع أن اتفاق مودروس، الموقع في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨، يتضمن بنوداً شديدة القسوة. فالاتفاق يفرض بشكل خاص تسريح الجيش التركى، واحتجاز جميع السفن الحربية، واستسلام الحاميات العثمانية في سوريا وفي طرابلس الغرب وفي بلاد الرافدين، والجلاء عن الأراضى عبر القوقازية (باستثناء الجزء الجنوبى-الغربى الذى يبقى تحت الادارة العسكرية التركية إلى حين التوصل إلى اتفاق جديد). وينص البند الأول على أن الملاحة في الدردنيل وفي البسفور سوف تكون حرة ويعترف للحلفاء بحق الاحتفاظ بقوات في منطقة المضائق. كما يمكن لقوات دول الوفاق أن تحتل،

عند الحاجة، الولايات التي يسكنها الأرمن في الاناضول الشرقية. وعلاوة على ذلك، فإن الاتفاق يجيز لها السيطرة على ممرات طوروس والاستيلاء على منشآت الموانئ وحرية استخدام السكك الحديدية والسفن التجارية العثمانية. ويتعين على الحكومة التركية تزويد حاميات الحلفاء مجاناً بالفحم وبالمواد الغذائية وعموماً، بجميع المنتجات التي تطلبها. وبموجب البند لسابع، تحتفظ دول الوفاق لنفسها بالحق في احتلال بعض النقاط الاستراتيجية التي تختارها. وهذا البند مزعج بشكل خاص. فلما كان غامضاً بشكل متعمد، فإنه يترك المجال مفتوحاً أمام كل التعديات. وهو يكفي، بمفرده، لإضفاء طابع استسلام غير مشروط على الهدنة.

الغرق:

لم تخسر الامبراطورية العثمانية الحرب وحدها. فإرغامها على الخضوع لاحتلال من جانب الحلفاء، كفت في واقع الامر عن الوجود، حتى وإن كانت خرافة دولة مستقلة قد بقيت، على الورق. والكارثة جد شديدة بحيث أن المسؤولين الرئيسيين عن اشتراك تركيا في الحرب العالمية، طلعت، جمال، أنور، وعدداً من الآخرين-سوف يقررون البحث عن ملاذ في الخارج، سعياً الى الافلات من عقاب الشعب. وفي ليلة ١-٢ نوفمبر، سوف يستقلون سفينة ألمانية في طريقها الى أوديسا. ومن هناك، سوف يذهبون الى برلين، علي أمل أن يواصلوا من هناك النضال من أجل انقاذ تركيا.

والحال أن هرب القادة الرئيسيين للجنة الاتحاد والترقي يدق ناقوس موت هذا الحزب. فالرأى العام، المذعور من هول الطوفان، لا يتأخر عن المطالبة بانزال العقاب بالاتحاديين. ويتعرض هؤلاء الآخرون للاتهام بالمسئولية عن جميع مآسى الحرب: موت مئات الآلاف من الجنود في ساحات المعركة، المذابح التي سقط ضحية لها السكان المدنيون وخاصة الشعب الارمني، الأبهة الفتاكة، الاختلاسات

التي ارتكبتها المسئولون عن التموين، المجاعات، السوق السوداء، البؤس.. وفي مثل هذا المناخ، لا يبقى للجنة الاتحاد والترقي غير مخرج وحيد: الرجوع الى الظل، السعى الى أن يشملها النسيان. والواقع أن أولئك الذين لم يقتفوا أثر الثلاثي الحاكم في هربه، إذ يجتمعون في مؤتمر استثنائي، سوف يقررون، في الايام الأولى من نوفمبر، حل منظمتهم، بما يترك الساحة خالية أمام المنافس القديم للجنة الاتحاد والترقي، الائتلاف الليبرالي، الذي يبدأ قيادته في الاستيلاء على المواقع الشاغرة.

وفي اللحظة التي يتظاهر فيها الاتحاديون بهذا الشكل بمغادرة المسرح السياسي-الواقع انهم جد عازمين على مواصلة عملهم في الكواليس- فإن احتلال تركيا الذي نصت عليه هدنة مودروس يأخذ مجراه بالفعل. فمنذ الأول من نوفمبر، نجد أن الجنرال مارشال، قائد القوات البريطانية في بلاد الرافدين، يطلب الى الأتراك سحب القوات المكلفة بالدفاع عن الموصل. وفي تلك الايام نفسها، يحتل جنود الجنرال الليبي الاسكندرونة، وتبدأ كتائب فرنسية قادمة من اليونان في المراقبة في ثراس الشرقية ويعبر اسطول الأميرال كالثورب الدردنيل. ويبدى الحلفاء اصراراً على التحرك بسرعة: فبعد اقل من خمسة عشر يوماً من الوقف الرسمي للأعمال الحربية، ترسو السفن الحربية لدول الوفاق أمام اسطنبول وتسيطر القوات التي تنزل الى المدينة عليها (١٣ نوفمبر). وليس ذلك سوى بداية.

وعلى مر أسابيع، لن يكون من شأن الخناق إلا أن يضيق أكثر فأكثر، في قتل بلا هوادة. ففي ديسمبر ١٩١٨، نجد أن الفرنسيين، تمشياً مع المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء خلال الحرب، سوف يستولون على قيليقيا. وفي مستهل عام ١٩١٩، سوف يستولي اليونانيون على نقاط استراتيجية مختلفة في ثراس الشرقية. ونحو الفترة نفسها، سوف تبدأ كتائب دول الوفاق أيضاً في تمشيط ساحل البحر الاسود ووسط الاناضول. وفي مارس، سوف يستولي الايطاليون على ولاية أنطاليا، احدى المناطق التي وعدهم بها اتفاق سان-جان-دو-مورين.

وفى تلك الاثناء، في ٨ فبراير ١٩١٩، كان الجنرال فرانسيه ديسبيرى قد دخل على رأس قواته دخول الظافرين الى اسطنبول. ووسط ترحيب المسيحيين، اجتاز المدينة على ظهر جواد ابيض، مثلما كان محمد (الثانى) الفاتح قد فعل، قبل ذلك بنحو خمسمائة سنة، بعد قضائه على الامبراطورية الرومانية الشرقية. فهل نحن أمام عودة الي بيزنطة؟ وهل أدت المسيرة الظافرة الى محو خمسة قرون من التاريخ؟ إن مختلف الأقليات فى الامبراطورية، إعتماداً على الوعود التى قدمت اليها، تستعد على اية حال لتقسيم عظيم تفكر فيه الدول منذ نحو نصف قرن. والحدود مرسومة كلها بالفعل فى الأذهان. يونان كبرى تستوعب ثراس الشرقية واسطنبول والأناضول الغربية، جمهورية بحر اسود تتألف من شريط ساحلى كبير مأهول بمسيحيي البحر الاسود، دولة أرمنية يود البعض لها أن تمتد من تريبيزوند الى البحر المتوسط، كردستان ذات حكم ذاتى منتشرة فى قلب آسيا الصغرى، بين جبال طوروس وزاجروس، اشور مسيحية تشمل ولايات الموصل وخربوط ودياربكر وأورفا، وطن قومى يهودى فى فلسطين، أراضى عربية موضوعة تحت حماية الحلفاء الغيرة..

فماذا عن تركيا؟ فى باريس، حيث انعقد مؤتمر الصلح، منذ بداية عام ١٩١٩، يجيد ممثلو الدول العظمى رسم وإعادة رسم خريطة الشرق، تبعاً للمطالب التى تقدمها اليهم مختلف الوفود المتحدثة باسم الشعوب الخاضعة للسلطان، والنتيجة دائماً واحدة: ان تركيا يجب أن تكتفى بالولايات الأناضولية غير المسلمة الى الأرمن أو الى اليونانيين وأن تتعايش مع مناطق النفوذ التى يشتهى الانجليز والفرنسيون والايطاليون الاستحواذ عليها.

ومن الواضح أن الاتراك لا يمكنهم النظر الى هذه المشاريع بعين الرضا. ولكن ما العمل؟ إن محمد (السادس) وحيد الدين وحكومته - سوف يتولى رئاسة هذه الاخيرة منذ مارس ١٩١٩ فريد باشا داماد، أحد القادة الرئيسيين للائتلاف

الليبرالى - سوف يختاران التهاون وسوف يتهاون أيضاً جزء كبير من الرأى العام. فالأتراك، الذين أنهكتهم الحروب المتتالية التى أضطرت الامبراطورية الى مواجهتها منذ بداية القرن، لا يتطلعون منذ ذلك الحين إلا الى السلم. بل إن البعض كانوا مستعدين لدفع ثمن جد غالى لهذا السلم. إذ يلعب البعض بورقة الحماية الانجيليزية، وينشط بعض آخر من أجل انتداب أمريكى، ويقترح بعض ثالث الاتجاد الى فرنسا أو الى ايطاليا. ومما لا جدال فيه أن الانهزامية والفتور يكسبان قوة.

لكن المقاومة تنظم نفسها شيئاً فشيئاً، بالرغم من كل شىء. ففى اسطنبول والمدن الرئيسية فى البلاد تأخذ الجمعيات الوطنية فى الانتشار. وهى تتناضل عن طريق الكراسيات والمنشورات والبرقيات. وفى المناطق المحتلة أو المهددة بالاحتلال، يجرى النضال بالسلاح أيضاً. وفى قيليقيا وفى الأناضول الغربية وعلى ساحل البحر الاسود، تتزايد أعداد جماعات المقاتلين غير النظاميين بشكل مطرد وتتزايد جسارتها بشكل مطرد. وفى مايو ١٩١٩ يقرر المجلس الأعلى لدول الوفاق، والذي يضم لويد جورج وكليمنصو والرئيس الأمريكى ويلسون، السماح لليونانيين باحتلال سمرين والمنطقة المحيطة بها. لكن الانزال الهيلينى (١٥ مايو)، الذى اعتبره الرأى العام صفة لتركيا، سوف يستثير غضباً عارماً فى مختلف الجماعات التى تتشكل للدفاع عن الوطن التركى.

ولكن كيف يمكن اضافة زخم واتساع حركة حقيقية للمقاومة الوطنية على هذه المبادرات المبعثرة؟ حتى يتسنى لهذا السؤال أن يجد اجابة، كان لابد لرجل غير عادى أن يصادف قدره.

من ثورة الى اخرى:

"فى التاسع عشر من مايو ١٩١٩، نزلت فى سامسون. واليكم ما كان عليه الملح العام للوضع آنذاك:

"إن مجموعة الدول التي كانت الامبراطورية العثمانية جزءاً منها كانت قد هزمت في الحرب العالمية. وكان الجيش العثماني قد تحول الى اشلء في كل مكان. وقد جرى توقيع هدنة ذات شروط قاسية. وكانت السنوات الطويلة للحرب الكبرى قد أدت الى إنهاك الأمة والى إفقارها. وأولئك الذين جروا الشعب الى الحرب العالمية، والذين لا يهتمون الا بخلاصهم الشخصي، يهربون من الميدان (...). وكان الجيش مجرداً من أسلحته ومن ذخيرته (...). وأساطيل وقوات الحلفاء في اسطنبول. وولاية أضنة محتلة من جانب الفرنسيين، واورفا وماراشي وعينتاب محتلة من جانب الأنجليز. أما في انطاليا وفي قونية، فقد كانت هناك قوات ايطالية. وكان الضباط والموظفون الأجانب، وكذلك عملاؤهم، يقومون بنشاطهم في كل مكان. وأخيراً، في الخامس عشر من مايو ١٩١٩، أى قبل خمسة أيام من التاريخ الذى اخترناه كمدخل لهذا التقرير، ينزل الجيش الهيليني في أزمير، بموافقة دول الوفاق. وعلاوة على ذلك، ففي جميع أرجاء البلاد، كانت العناصر المسيحية تعمل علناً أو سراً من أجل مصلحتها الخاصة، معجلة بذلك بانهيار الدولة".

بهذه السطور يبدأ الخطاب الكبير الذى ألقاه مصطفى كمال في عام ١٩٢٧ أمام المؤتمر الأول لحزب الشعب الجمهورى. وهو خطاب - نهر استمرت تلاوته ستة أيام وأعتبره مؤسس الجمهورية التركية نوعاً من تقرير شامل يتتبع تاريخ أربع سنوات حاسمة، ١٩١٩-١٩٢٢، انهمكت الثورة الاناضولية خلالها في إرساء أسس تركيا الحديثة.

وعندما ينزل مصطفى كمال الى سامسون، وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، كان قد قطع مشوار ضابط رائع. فلما كان قد تخرج من المدرسة الحربية في اسطنبول برتبة يوزباشى أركان حرب (١٩٠٤)، لم يكن أمامه غير سنوات قليلة لكى يرتقى جميع المذابح المؤدية الى رتبة قائد لواء (١٩١٦). وفي تلك الأثناء،

شارك في جميع الحروب التي انخرطت فيها الامبراطورية العثمانية. فخلال الحرب الإيطالية-التركية في عام ١٩١١، حارب في طرابلس الغرب. وفي عام ١٩١٢، في ذروة الحريق البلقاني، تولى قيادة فرقة مشاة في شبه جزيرة غاليبولى. وفي بداية الحرب الكبرى، يبرز بقدراته الرائعة كقائد للجنود في الدفاع عن الدردنيل، وفي اثر ذلك، يجرى ارساله الى جبهة القوقاز لمحاربة الروس. وهناك يحصل على رتبته كجنرال. وبعد ذلك بوقت قصير، حيث يوضع رهن اشارة الجنرال فون فالكينهاين، قائد مجموعة جيوش يلديريم، يلعب دوراً هاماً على رأس الجيش السابع في الدفاع عن فلسطين وعن سوريا.

وفي هذا اليوم التاسع عشر من مايو ١٩١٩، ما الذي جاء إذا بهذا الضابط الرائع الى سامسون ؟ إن مصطفى كمال، الذي عين مفتشاً للجيش الثالث وجرى تخويله سلطات واسعة، قد كلف من جانب محمد السادس باستعادة النظام في الأناضول حيث انتهى غضب الأنفس تجاه الاحتلال من جانب الحلفاء الى اتخاذ مقاييس مزعجة. لكن رسول السلطان كما سوف يكتب فيما بعد في خطابه الشهير يحمل في الواقع في وجدانه "سراً قومياً". فهو لا ينزل على الأرض الأناضولية من اجل احتواء غضب العناصر المعادية لدول الوفاق. على العكس تماماً، فهدفه، الذي لن يتأخر في الكشف عنه، هو رد الثقة الى الجيش العثماني، الذي أصابته الهزيمة بالتفسخ العميق، وكذلك السعى الى اعادة تجميع كل حركات المقاومة تحت سلطة موحدة. والخصم الذي يجب محاربته ليس هو المحتل الأجنبي وحده. فسوف يكتب مصطفى كمال فيما بعد: "لابد، مهما كان الثمن، من الثورة على الحكومة العثمانية، على السلطان، على خليفة كل المسلمين، وحث الجيش والأمة كلها على الثورة". فهل كان يفكر آنذاك بالفعل في انشاء جمهورية تقدمية وعلمانية؟ أياً كان الأمر، فإن هذا ماسوف يسعى الى توضيحه: "بقدر ما ان النضال القومي قد تطور في اتجاه الغاية الوحيدة المتمثلة في تخليص البلاد من الغزو الأجنبي ويقدر ما أن هذا النضال قد كلل بالنجاح، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي الى التحريك التدريجي لجميع مبادئ وجميع قوى حكم مستند الى السيادة القومية".

ومنذ وصوله الى الأناضول، ينهمك مصطفى كمال، المناور البارع، فى البحث عن مساندة من جانب عدد معين من القادة العسكريين. وسرعان ما تتحاز الى صفه شخصيات بارزة، خاصة الجنرال كاظم قره بكير، وحسين روف بك، وزير البحرية السابق. كما انه يحرص على إحاطة نفسه بعدد من رجال الدين ويجتهد فى كسب ثقة الزعماء الأكراد الثائرين فى شرقى الأناضول. وإذ يستخدم بشكل واسع التلغراف الذى تتيج له وظائفه الرسمية حرية الوصول اليه، فإنه لن يحتاج إلا الى أسابيع قليلة لكى يحشد حوله جانباً كبيراً من القوى القومية. ومنذ ٢٢ يونيو ١٩١٩، سوف يتمكن، عبر منشور مؤرخ فى أماسيا وموجه الى جميع المنظمات الوطنية فى تركيا، من اعلان أن الأمة فى خطر ومن الاعلان عن عقد مؤتمر وطنى مكلف بإيجاد علاج للوضع المحزن الذى تجد فيه البلاد نفسها.

ومن الواضح أن من يهيمنون على اسطنبول ينتابهم الذعر. وتبدو الحركة التى يقودها مصطفى كمال أكثر ازعاجاً بقدر ما ان الثوار لا يوجدون فى الأقاليم وحدها. فهم يخترقون أيضاً الدوائر السياسية والخدمات الادارية فى العاصمة. وفى وزارة الحربية بوجه خاص، يذعن فى التو والحال جزء كبير من الأفراد لما سوف يتخذ شيئاً فشيئاً ملمح مشروع ثورى. وأمام تصاعد الخطر، سوف ينتهى الباب العالى الى توجيه أمرٍ نهائى الى مفتش الجيش الثالث: "إن صاحب الجلالة يأمركم بالعودة فوراً الى اسطنبول" أما الرد على هذا الأمر التهديدى فهو لا يتألف إلا من كلمات قليلة: "سأبقى فى الأناضول الى أن تسترد الأمة استقلالها التام" (٨ يوليو ١٩١٩).

ولا يكتفى مصطفى كمال برفض الإذعان لتوجيهات حكومة اسطنبول. ففى الوثبة نفسها، يقرر أيضاً تقديم استقالته ليس فقط من وظائفه كمفتش، وإنما أيضاً من الجيش. ومنذ ذلك الحين، وقد تخلص من العبوديات الكامنة فى منصبه الرسمى، فإنه يتمتع بحرية حركة أوسع، حتى وإن كان يغامر بخسارة الهيئة المرتبطة بارتداء البزة العسكرية.

والآن وقد قطع روابطه بالسلطة المركزية، فإن بوسعه المجازفة بشن معركته السياسية الكبرى الأولى، فنحو أواخر شهر يوليو ١٩١٩، سوف ينظم فى أرضروم مؤتمراً سوف يشارك فيه أربعة وخمسون مندوباً قادمين من ولايات تركيا الشرقية. معركة أولى، انتصار أول، فبعد أربعة عشر يوماً من المناقشات الهادئة، التى لن يتوقف خلالها عن المطالبة بـ "إنشاء جمعية وطنية مستندة الى ارادة الشعب وتأليف حكومة تستمد قوتها من هذه الإرادة نفسها"، سوف يعتمد المندوبون مشروع قرار يتمشى بشكل كامل مع رغباته: "الوطن واحد ولا يقبل التجزئة. إن ولايات الشرق سوف تتصدى باتفاق مشترك لأى احتلال أو تدخل أجنبى. وإذا ما ظهر عجز حكومة السلطان عن حماية استقلال الأمة ووحدة أراضي الوطن، فسوف يجرى تشكيل حكومة مؤقتة لتسيير شئون الدولة".

والحال أن مؤتمراً ثانياً، يجمع هذه المرة ممثلين ليس بعد لولايات الشرق وحدها وإنما ايضاً للبلاد بأسرها، سوف ينعقد بعد ذلك بشهر فى سيواس (٤-١١ سبتمبر ١٩١٩). وسوف تصدق الشخصيات المتواجدة فيه بأغلبية قوية على القرارات المعتمدة قبل ذلك بعدة اسابيع فى أرضروم، مع تشديد الانتقادات الموجهة فى النصوص الى السياسة التى ينتهجها السلطان وحكومته. والواقع أن عدد هؤلاء الرجال الذين يبتون بهذا الشكل فى مستقبل تركيا لا يزيد عن أربعين. لكن ذلك ليست له اهمية تذكر. فهم يمثلون، فى نظر كمال، مجمل الأمة ومباركتهم تضافى على رسالته طابعاً مقدساً.

وفى اسطنبول، تتذبذب الحكومة بين الذهول والذعر. ألا تجازف حركة المقاومة التى تتطور فى الأقاليم بالتعجيل بتفكك البلاد؟ إن الباب العالى سوف يحاول الحاق الهزيمة بالحركة الكمالية بتصويرها أمام الرأى العام فى صورة حثالة من الاتحاديين المتعطشين الى الدمار والى النهب. وسرعان ماسوف تردد هذه الافتراءات صحف الغرب التى لن تتردد، من باب المزايدة، فى تصوير مصطفى

كمال ورفاقه فى صورة جزارين محتملين للأرمن، وبشكل أخطر، فى صورة ممالئين متشددىن للألمان. وهو ما يؤدى، بالتأكيد، الى إثارة ذعر السكان، الذين اكتبوا بالمشاريع المغامرة للجنة الاتحاد والترقى. لكن الشئ الرئيسى، بالرغم من كل شئ، هو أن أحداً لا يجهل منذ ذلك الحين أن الأناضول تشهد نزعة قومية تركية فى كامل انطلاقتها.

وفى أواخر عام ١٩١٩، تنظم الحكومة العثمانية انتخابات عامة، على أمل أن يؤدى ذلك الى سحب البساط من تحت قدمى مصطفى كمال. ويفضى الاقتراع الى نتيجة لم تكن فى حسابان الائتلاف الليبرالى، فالمجلس النيابى الجديد يتألف أساساً من قوميين معارضين بشراسة لهيمنة دول الوفاق على تركيا. وفى ٢٨ يناير ١٩٢٠، سوف يوافق النواب المجتمعون فى اسطنبول، فى جلسة مهيبة، على نص مأخوذ بشكل مباشر عن بيانات أرضروم وسيواس. والحال أن هذه الوثيقة، المسماة بـ "الميثاق الوطنى"، تعلن بطلان تجزئة الأراضى التركية التى لم تكن تحت الاحتلال من جانب العدو عند توقيع هدنة مودروس، وتطالب بتسوية مصير الولايات العربية للإمبراطورية وفق ارادة السكان المحليين المعبر عنها بحرية، وتنص على شروط مختلفة أخرى من أجل سلام عادل ودائم: الاعتراف بالغاء الامتيازات، رد ولايات كارس وأردهان وباطوم لتركيا، حرية الملاحة فى المضائق بشرط ترتيبات تكفل أمن اسطنبول، وأخيراً، اعتراف الدول بسيادة الأمة التركية وباستقلالها التام.

وفى الأسابيع التالية، لا تتوقف جسارة النواب القوميين عن التزايد. أما الحلفاء فانهم يشعرون بالإنزعاج بشكل متزايد، فألى جانب الغليان البرلمانى تضاف اعمال الفدائيين التى تتسع شيئاً فشيئاً عبر مختلف أرجاء البلاد. وفى نهاية الأمر، سوف يقرر الانجليز توجيه ضربة كبرى باقتحام المجلس النيابى واعتقال عدة شخصيات سياسية (١٦ مارس ١٩٢٠). ومنذ ذلك الحين، تُرمى

اوراق الرهان. فمن باب الاحتجاج، سوف يعلن النواب حل البرلمان العثماني، وسوف تختار غالبيتهم التوجه الى أنقرة، وهي مدينة صغيرة في الأناضول الشرقية أقام فيها مصطفى كمال مقر قيادته وسرعان ماسوف ينعقد فيها، بمبادرة منه، "مجلس يتمتع بسلطات استثنائية".

ويصبح الثالث والعشرون من أبريل ١٩٢٣ يوماً تاريخياً: فالجمعية الوطنية الكبرى لتركيا، ذلك التعبير عن سيادة الأمة الذي ينادى به الكماليون من كل أفئدتهم منذ نحو عام، تعقد جلساتها الأولى. وسرعان ماسوف يجد قائد الثورة الأناضولية نفسه محاطاً هناك بنحو ٤٠٠ من الشخصيات القادمة من أفاق جد متباينة. والنواب المجتمعون في أنقرة لهم جميعاً هدف واحد: طرد المحتل والعمل، مهما كان الثمن، على تفادي تمزيق الأرض التركية. لكنهم كانوا بعيدين عن أن يكونوا متفقين على الوسائل التي يجب التماسها لبلوغ هذا الهدف. وعن طيب خاطر يقبل جزء كبير منهم الانضواء تحت راية مصطفى كمال. لكن البعض يحلمون بالاستعاضة عن هذا الأخير إما بالصدر الأعظم السابق، طلعت باشا، أو بوزير الحربية السابق، أنور باشا. وهم يأملون في أن بقاء الزعماء الاتحاديين في المنفى سوف يكون قصير الأجل وأن هؤلاء سرعان ماسوف يكون بوسعهم العودة عودة ظافرة الى البلاد. ولا يفكر بعض آخر إلا في انقاذ الخلافة والسلطنة ويحاولون إقناع أنفسهم بأن الحركة الكمالية تعمل من أجل هذه الغاية. والبعض الثالث، والأوفر عدداً، لا يساندون السلطة القومية إلا بقدر ما يبدو لهم أن هذه السلطة من شأنها فتح الطريق أمام الأيجاد، في الأناضول، لحكومة سوفياتية، منسوخة من النظام البلشفي ومدعومة من جانب الخليفة الثوري الأممي، وإن كانت تراهن أيضاً على نزعة الجامعة الاسلامية ونزعة الجامعة التركية، بل ونزعة الجامعة الآسيوية.

والواقع أن الجمعية الكبرى في أنقرة، على النحو الذي تتشكل به، من الصعب الهيمنة عليها. فهي تنازع دائماً قرارات القيادة التنفيذية، التي تجد نفسها مرغمة

على المناورة بلا توقف من أجل تحييد المعارضات والحفاظ بأى شكل على قدر معين من الوحدة للحركة الوطنية.

وهذه الخلافات السياسية الداخلية ليست الوحيدة التى تهدد وجود الحكومة الأناضولية. فمنذ أواخر عام ١٩١٩، يضطر القوميون أيضاً الى مواجهة سلسلة كاملة من التمردات الملكية التى يوجهها عن بعد الحلفاء والباب العالى. والواقع أن هذه التمردات، التى تشمل مجمل الأراضى التركية تقريباً وإن كان أكثرها خطورة يجتاح غرب ووسط الأناضول، سوف تتعاقب حتى مستهل عام ١٩٢١. ولن يتوصل الكماليون الى سحقها إلا بانزال جزء كبير من قواهم الى ساحة النضال وبانزال العقاب الصارم بالتمردين.

من معاهدة سيفر الى معاهدة لوزان:

هوت وبعث تركيا:

الى الصراعات الداخلية تضاف الحرب ضد الخصم الخارجى. ففي جنوب شرقى البلاد، تناضل المنظمات القومية ضد الفرنسيين المرابطين في قيليقيا. وفي الغرب، تشتبك مع اليونانيين الذين عبروا خط ميلن الذى يحدد منطقة احتلالهم، فى ٢٠ يونيو ١٩٢٠. وفي الشمال الشرقى، يتولى الفيلق الخامس عشر من الجيش، تحت قيادة كاظم قره بكير، مهام الحراسة على حدود أرمينيا وينتظر اللحظة المؤاتية لاسترداد الأراضى التى استولت عليها حكومة يريفان بفضل انهيار الامبراطورية.

ولكن كيف يمكن تمويل كل هذه الأنشطة العسكرية؟ إن الموارد التى تتمتع بها الحركة القومية لخوض النضال ضد دول الوفاق وأعوانها غير كافية الى حد بعيد. وصحيح أن حكومة انقره، التى تعتبر نفسها السلطة التشريعية الوحيدة، قد أنشأت جهازاً ضريبياً على غرار الجهاز الضريبى التابع للسلطان. لكن الفلاحين الذين

يتعرضون للضغوط من جانب جبهة الضرائب، والذين لا يرتاحون فضلاً عن ذلك لاستمرار الأعمال الحربية في الأراضي الأناضولية، يتهربون من التزاماتهم كلما تسنى لهم ذلك. ولذا فإن كملاً لا يتأخر في طلب مساعدات خارجية. وقد بدأ بطلب المساعدة الأخوية - الأدبية والمالية على حد سواء - من المسلمين، مرسلاً رسل نشاط دعائي عبر مختلف أرجاء العالم الإسلامي، من الهند إلى أفريقيا الشمالية، ومن القاهرة إلى بخارى. وسرعان ما سوف يطلب أيضاً عون جمهورية السوفييتيات، التي تحارب نفس الخصوم الذين تحاربهم تركيا.

وعلى الرغم من أن التقارب بين أنقرة وموسكو مصحوب بمجازفة - غير تافهة - تتمثل في احتمال بلشفة الأناضول، فإن هذا التقارب سوف يتبين أنه جد مفيد. فخرائن الذهب الروسي الأولى تصل إلى العاصمة الأناضولية في أغسطس ١٩٢٠. ومنذ ذلك الحين، لن تتوقف الأسلحة والذخيرة والروبلات الذهبية عن التدفق، على الرغم من المشاكل العديدة التي تبرز على طريق التحالف التركي - السوفيتي. بل إن هذا الزواج الاضطراري، المعقود تحت ضغط الظروف، سوف يجري تكريسه في مارس ١٩٢١ بمعاهدة "صداقة وإخاء" تسوى جميع الخلافات الحدودية بين تركيا وجمهورية السوفييتيات. وحتى تتوصل حكومة أنقرة إلى هذا الاتفاق، الذي يكفل لها حدوداً مستقرة عبر القوقاز ومساعدة بلشفية متزايدة، فإنها تضطر إلى دفع ثمن متواضع نسبياً: التنازل عن باطوم لجيورجيا الموعودة بتحول سوفييتي وشيك.

وبينما يستخدم الكماليون في الأناضول كل سلاح ممكن من أجل النضال ضد المحتل، فإن حكومة اسطنبول، من جهتها، تتورط في مساومات صلح طويلة مع دول الوفاق وتنتهي إلى الإذعان للاملاء الذي تفرضه عليها الدبلوماسية الأوروبية. وتؤدي معاهدة سيفر، الموقعة في ١٠ أغسطس ١٩٢٠، إلى تكريس تمزيق الامبراطورية العثمانية. والواقع أن تركيا، المجردة من كردستان، ومن الولايات

التي يسكنها الأرمن، ومن ثراس، ومن اقليم أزمير، ومن سوريا ، ومن شبه الجزيرة العربية، ومن بلاد الرافدين ، إنما تجد نفسها مختزلة الى دولة أناضولية صغيرة محصورة بين بلدين ماتزال حدودهما غير محددة، أرمينيا واليونان.

فكم يساوى بالضبط التوقيع الذى يضعه مفوضو الباب العالى على وثيقة ترفض القوى الحية فى الأمة الاعتراف بها؟ حتى فى بلدان الوفاق، وخاصة فى فرنسا، يعرف الجميع ان صلح سيفر ولد ميتاً. ويرى جزء هام من الرأى العام الغربى ان الشروط المفروضة على تركيا شروط جائرة، وغير قابلة للتطبيق، بل ومؤذية لمصالح دول الوفاق. أما فيما يتعلق بالأتراك، فإنهم يعرفون الآن على الأقل ان مصطفى كمال كان محقاً عندما رفع راية التمرد وأن عليهم مواصلة النضال. وتتمثل المأثرة الكبرى لمعاهدة سيفر فى توضيحها للأمور، فى إبراز أن الحلفاء لا يريدون تقديم أى تنازل الى المغلوبين فى الحرب الكبرى.

وإذا كان لا يوجد هناك مخرج آخر سوى القتال، فإن الأتراك يقاتلون. وسوف تستمر الأعمال الحربية اكثر من عامين أيضاً، حيث تتميز فى آن واحد بإحراز نجاحات-سوف تكون تلك بوجه خاص هى حالة الانتصار الذى أحرزه كاظم قره بكير على القوات الأرمنية فى بداية شتاء ١٩٢٠ وحالة عمليات فدائية مختلفة ضد الاحتلال الفرنسى فى قيليقيا-ويلحظات انقطاع للرجاء. وسوف تميز هذه اللحظات بشكل خاص الحملات التى تخاض على الجبهة الغربية ضد قوات كونستانتين، ملك الهيلينيين. وفى وجه اليونانيين، سوف يجد الكماليون أنفسهم فى مناسبات كثيرة على وشك الانهيار. وفقط عند حلول أغسطس ١٩٢٢، بعد تسوية النزاع الفرنسى-التركى (اتفاق انقرة الموقع فى ٢٠ اكتوبر ١٩٢٠ والذى ينص بشكل خاص على الجلاء عن قيليقيا) وتحويل الحكومة الفرنسية الى وصفة، سوف يكون بوسع مصطفى كمال، الواصل منذ ذلك الحين من الفوز، توجيه أمره اليومى الشهير: "أيها الجنود ! الى الأمام! الهدف: البحر المتوسط".

والواقع أن هذا الهجوم النهائى ضد الغازى، والذي جرى الاعداد له ملياً، لن يستغرق غير أسبوعين. ويتم استرداد أزمير بالفعل منذ ٩ سبتمبر. ويتم بلوغ الهدف الذى حدده قائد الحركة القومية لقواته: فالجيش الأناضولى يتدفق على أرصفة المتروبول الايجى والبحر، حتى الأفق، تحجبه سفن الفارين؛ وتنتهى الحرب. وفى الحادى عشر من أكتوبر ١٩٢٢، بعد ثلاثة أعوام من هدنة مودروس، سوف يوقع الأتراك فى مودانيا، الميناء الصغير على بحر مرمرة، هدنة جديدة مع الحلفاء. لكنهم هم الذين يملون شروطهم هذه المرة: فالقوات الهيلينية يجب أن تسحب وحداتها الأخيرة فى غضون خمسة عشر يوماً، ويمكن للحلفاء الاحتفاظ مؤقتاً بعدد من الوحدات فى اسطنبول وفى المضائق، لكن الادارة المدنية لهذه المناطق سوف يعهد بها الى الحكومة الأناضولية.

أما وقد تم كسب الحرب، فإنه يبقى على الكمالين كسب معركة السلم. ويعهد بالمهمة الى أحد أبرع استراتيجيهم، عصمت، وهو جندى عظيم (أحرز فى عام ١٩٢١، فى اينونو، انتصاراً رائعاً على اليونانيين)، لكنه أيضاً دبلوماسى عنيد ويتمتع بحيوية ذهنية عظيمة. ومسرح عملياته الجديد هو البساط الأخضر للمؤتمر المنعقد فى لوزان. وسوف تكون المفاوضات هناك طويلة-فالمؤتمر الذى بدأ فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢، لن ينتهى إلا بعد ثمانية أشهر وصعبة، لأنه لا باريس ولا لندن تتخليان تماماً بعد عن أطماعهما. على ان عصمت، مستفيداً بذكاء من صرامة مظهره الجسمانى ومن صرامته الأدبية على حد سواء، سوف ينتهى بكسب القضية.

وتؤدى الوثيقة الموقعة فى لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ الى محو المهانة التى شكلتها معاهدة سيفر. فهى تتمشى، تقريباً، مع الأمانى التى أعرب عنها النواب الأتراك فى الميثاق الوطنى الصادر فى يناير ١٩٢٠. ذلك أنها تعترف لتركيا بحدود مستقرة تستوعب ثراس الشرقية والأراضى المتنازع عليها فى الأناضول (اقليم

أزمير، قيليقيا، ساحل البحر الأسود، أقاليم الشرق)، وتوجد حلاً لمشكلة الأقليات-تبادل السكان- إن لم يكن كافياً بشكل تام، فإنه مقبول على الأقل؛ وهي تعترف بسيادة تركيا على المضائق، وأخيراً، فإنها ترسي أسس تصفية الدين العام العثماني، أحد المسائل الخلافية الأكثر حدة في جدول أعمال المندوبين. ومن المؤكد أن حكومة أنقرة تضطر إلى تقديم عدد من التنازلات. فالفرنسيون، الذين أجبروا على الجلاء عن قيليقيا، يتوصلون مع ذلك إلى الاحتفاظ بسنجد الإسكندرونة؛ وإلى أن يتم التوصل إلى ترتيب جديد، يبقى الانجليز في الموصل، ويجري رد المضائق إلى تركيا، لكن لجنة دولية تحتفظ هناك بحق الرقابة. بل إن إلغاء الإمتيازات، الذي اعترف به الغرب أخيراً من الناحية الرسمية، مشمول ببند انتقالية تقيد لعدة سنوات آثار تغير جذري حاد كهذا في العلاقات بين الدول. لكن هذه، مع أخذ كل شيء في الحسبان، ليست غير تفصيلات. وبالرغم من التوضيحات التي توجب تقديمها، فإن صلح لوزان يمثل بلا جدال نجاحاً كبيراً، يسمح لتركيا الكمالية بتأكيد نفسها كأمة حرة، مستقلة، تتعامل مع الدول الأخرى على قدم المساواة.

ومن المؤكد أن معاهدة الصلح قد وجهت الضربة القاضية إلى امبراطورية السلاطين، تلك الطصلة الممتدة من البلقان إلى المحيط الهندي. ولكن من الذي يمكنه التفكير، الآن، في الاستشهاد في سبيلها؟ إن تركيا، المنهمكة في الإحتفال بنهضتها الخاصة، ليست مستعدة لأن تسكب دموهاً على خيالات عظمتها الماضية. وأياً كان الأمر، فإن الامبراطورية كانت قد كفت بالفعل منذ زمن عن الوجود، ليس فقط من الناحية الفعلية، وإنما أيضاً من الناحية القانونية. والواقع أن مصطفى كمال، مستفيداً من الدينامية التي أنتجها الانتصار على اليونانيين، لن ينتظر غير أسابيع قليلة، بعد توقيع هدنة مودانيا، حتى يلزم الجمعية الكبرى بالتصويت إلى جانب إلغاء السلطنة (نوفمبر ١٩٢٢). ومن المؤكد أن هناك صرير اسنان وترددات. لكنه كان يكفي لرئيس حكومة أنقرة إبداء العزم (لقد أشار للنواب بشكل خاص :

"إننا أمام أمر واقع، لا يمكن لأحد التصدي له. وسوف يكون من المناسب أن ينضم كل عضو في هذه الجمعية الى هذا الرأي، المستند الى الحق الطبيعي. وفي الحالة المخالفة، فإن حقائق الواقع الذي يستحيل مقاومته لن تتغير من جراء ذلك، وإن كان بوسعنا أن نشهد سقوط رؤوس" حتى يبدد الأشكال الأخيرة للمقاومة. والحق ان الحجة المستخدمة-"بوسعنا أن نشهد سقوط رؤوس"-ليست هينة.

إلا انه إذا كانت السلطنة، في زمن معاهدة لوزان، لا يعود لها وجود، فإن تركيا ايضاً لا تجد مع ذلك ركيزتها السياسية النهائية. ومن المؤكد أنه قد مر وقت طويل على الحديث عن الجمهورية. لكن هذه الجمهورية لن تعلن رسمياً إلا في اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٢٣. وبعد ذلك بأشهر قليلة، في الثالث من مارس ١٩٢٤، سوف تمحو الجمعية الكبرى التي تتخذ من أنقرة مقراً لها الآثار الأخيرة للنظام القديم بتقريرها إنهاء الخلافة، وهي وظيفة دينية كانت قد فصلت عن السلطنة عند الغاء هذه الأخيرة.

فهل يمثل ذلك بداية عصر جديد؟ لامراء في ان التغيرات السياسية المتباينة التي تتعاقب بين انتهاء النضال من أجل الاستقلال والغاء مقام الخلافة تشكل منعطفاً حاسماً في تاريخ تركيا. فمنذ ذلك الحين يتسنى للثورة الكمالية الانطلاق دون اضطرار الى مكابدة أغلال مؤسسات فات زمانها. وبدفع من مؤسسها الملهم، فإن الجمهورية الفتية التي تراهن دون تحفظ على العلمانية والنزعة التقدمية والروح العلمية والانفتاح على الغرب، فيما تراهن أيضاً على تجديد القيم القومية ومراعاة التقاليد، لن تحتاج إلا الى سنوات قليلة لكي تغير مظهرها، فتبدى للعالم، المشدوه عن حق، صورة بلد قادر على لعب دور نموذجي في مجمع "الأمم المتحضرة". إلا انه حتى إذا كانت مسيرة تركيا مع كمال صوب الحداثة الغربية تتسارع بشكل مفاجئ، فلا بد، بالرغم من كل شيء، من الاعتراف بأن هذا الاندفاع العام لمسيرة التاريخ إنما يدين بالكثير لجهود الاختراق الطويلة التي سبقته. والحال أن الثورة

الكمالية في أوجها -نحو عام ١٩٣٠- سوف تبدو الى حد بعيد في صورة طيبة جديدة موفقة من ثورة تركيا الفتاة. وإذا كان لنا، في بحثنا عن الجذور العميقة لتركيا الحديثة، أن نرجع الى مسافة زمنية أبعد، فسوف ينتهي بنا المطاف الى تربة زمن التنظيمات الخصيبة.

حواشي الفصل الرابع عشر

١- كتب فرانسوا جورجيو عن الفترة من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩١٢ وكتب بول دومون عن الفترة من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٢٣.

٢- Sina AKSIN, Jon Turkler ve Ittihat ve Terakki,

Istanbul, 1987,pp. 93-94

(جماعة تركيا الفتاة ولجنة الاتحاد والترقي)

٣- الحادي والثلاثون من مارس في التقويم الجولياني.

٤- CF.Bernard LEWIS, Islam et laicite, la naissance
de la Turquie moderne, trade. Franc., Paris, 1988, PP.202 sq.

٥- CF.E.J.ZURCHER, the Unionist Factor, The Role of the Committee
Union and Progress in the Turkish National Movement, 1905-
1926, Leyde, 1984, pp.47sq.

٦- Memoirs of Halide Edib, New York et Londres, s.d., P.27 .

٧- CF. Joseph HELLER, British Policy Towards the Ottoman Em
pire, 1908-1914, Londres, 1983.

٨- Zekerya SERTEL, Hatirladiklarim, Istanbul, 1977, p.73.

الفصل الخامس عشر

الفن العثماني

على الرغم من شخصية الفن العثماني القوية التي تجعله جد مختلف عن فنون المغرب أو مصر أو إيران، بل وعن الفن السلجوقي في الأناضول والذي يدين له بالكثير، فإن الفن العثماني فن إسلامي - وذلك لأن الدولة العثمانية دولة مسلمة وإن ابداعاتها تلتزم، من حيث الجوهر على الأقل، بالأوامر الدينية وبايديولوجية الإسلام؛ وكذلك لأن له جذوره في العالم الإسلامي، بالرغم من روحه الإبداعية والمؤثرات المتباينة التي تعرض لها؛ وأخيراً لأنه يبدى مع فنون الإسلام الأخرى عدداً معيناً من السمات المشتركة والتي لا تنبع بالضرورة من الدين.

الفن العثماني في الأراضى التركية

بقلم : جاك - يول رو

الفن الإسلامي والفن العثماني

كما هو شأن الفن الإسلامي في الأغلب^(١)، فإن الفن العثماني فن امبراطوري. فحيث يقيم السلطان، في بورصا، في ادرنه، في القسطنطينية، تبني، عدا استثناءات، الآثار الأكثر أهمية، ويمكن للمرء رصد التطور الفني رسداً أفضل. على أنه يبدو أنه قد أتبع في الولايات النائية بدرجة أقل مما قُدِّرَ لفن الامبراطورية العربية. ولا يرجع ذلك الى ان الولايات تظل بمعزل عما يحدث في العاصمة : فعدة حواضر اقليمية، بل مدن صغيرة، تشارك في الوثبة الثقافية أو تستفيد منها. فهي تستقبل معماريين مرسلين من جانب البلاط أو تقلد أعمالهم تقليداً كاملاً الى هذا أو ذاك. والحق أن محمد علي، الوالي على مصر، سوف يأمر، بشكل متأخر، ببناء

مسجده الرخامى الشهير فى القاهرة (١٨٢٤ - ١٨٥٧). وقبل ذلك بزمان طويل، سوف تكون فنون المغرب نفسه بعد حلب أو دمشق (التكية السليمانية، ١٥٧١) انعكاساً للفن الاسطمبولى كما يدل على ذلك، بين آثار أخرى، مسجد المصائد فى مدينة الجزائر (١٦٦٠) أو مسجد سيدى محرز فى مدينة تونس (١٧٠٠). إلا أنه كان هناك، فى الولايات العربية كما فى وسط وشرقى الأناضول، خلط بين ماض تليد، سوف يتزايد التعلق به بشكل مطرد، والاسهامات العثمانية المستحدثة، بينما لن يوقفها شىء فى أوروبا وفى أقصى غرب آسيا الصغرى حيث لا يعزز الاسلام مواقعه بعد.

وشأنها فى ذلك شأن كل حضارة اسلامية، فإن الحضارة العثمانية تعطى الصدارة للعمارة، وهى عمارة تستند الى المعارف التقنية الضرورية، وتتميز بحس تنظيم المكان وتوازن الكتل وتملك قيمتها الخاصة، ولا تعتبر، خلافاً لما يقال فى أغلب الاحيان، مجرد دعامة للزخرفة : فهى وإن كانت تفتقر الى أى زخرف، تستوجب الاعجاب، إلا أنه صحيح أن زخرفة المباني، شأنها فى ذلك شأن زخرفة التحف المصنوعة، هى شاغل رئيسى للفنان. والزخرفة الاسلامية، الثرية دائماً والطاغية احياناً، تعتبر، شأنها فى ذلك شأن الزخرفة العثمانية، زخرفة فنان ماهر فى التلوين، ولاشك ان ذلك يرجع الى ان فن الاسلام فن شرقى، فن خطوط بأكثر مما هو فن تجسيم. فهو يدين النحت المجسم والنحت البارز و ، تمشياً مع اتجاهات عميقة فى الاسلام - لعلها ليست غير اتجاهات سامية - ، يمتنع عن تصوير الأشخاص، ويحرمه، فى العمارة على الأقل. وفى المنمنمات والخزفيات، فإن العثمانيين، الذين لم يدعوا لتصوير الكائنات الحية، بشرية كانت أم حيوانية، غير مكان مختزل، يبدون أكثر صرامة من كثير من الآخرين، وخاصة من السلاجقة، حتى وإن كانوا أقل صرامة عندما كانوا يميلون الى البقاء مخلصين للطبيعة فى التعامل مع المملكة النباتية.

وشأنها فى ذلك شأن حضارات الاسلام الأخرى، فإن حضارة العثمانيين تعتبر حضارة مدينية من حيث الجوهر. فبوجه عام لا تمس العمارة القرى التى تجمع غالبية السكان. إلا أن هناك فنون عمارة ريفية لخانات المسافرين والجسور وللقلاع وللمقابر. وهذه الأخيرة، وهى أحياناً ركامات بسيطة من الحجارة، وأحياناً أخرى شواهد قبور حجرية منتصبة عليها كتابات منقوشة ومزينة بتيجان، وأحياناً نائلة اضرحة، مبعثرة فى الأرض بما يشكل استجابة للوصية التليدة التى تذهب الى أن الميت يجب أن يدفن «فى البياء»، وهى وصية غالباً ما يجرى التخلّى عنها، لكنها تحتفظ غالباً أيضاً بديناميتها.

ومركز المدينة الاسلامية هو المسجد الكبير (الجامع)، موقع احتشاد الجماعة لأداء الصلاة، والاستماع الى الموعظة، والاعتكاف، والتعليم القرآنى للأطفال ومناقشة الشئون العامة. ويقع بالقرب منه، بوجه عام، قصر السلطان أو قصر الوالى. وتتبع الحياة الاقتصادية من مركز تجارى هو البازار، السوق، المحاط بالمخازن وبخانات المسافرين المعدة لايواء البشر والحيوانات. ويجرى انشاء زوايا أو مساجد صغيرة وحمامات وأسبلة فى جميع الأماكن الى حد ما من أجل راحة ساكن المدينة. وفى الحواضر تخفف عدة جوامع وعدة أسواق من المصاعب المترتبة على الاتساع غير العادى للمدينة. ومن المدينة ينبع الجانب الرئيسى من الابداع الفنى و، عندما يكون هذا الابداع ريفياً أو بدوياً، فإنه يعتمد أيضاً على المدينة فى تسويقه.

المسجد

إن المسجد الذى يعتبر، بالرغم من تعالى الله، بيته بمعنى ما، هو الأثر الوحيد الذى كتب له اجتياز العصور. وهو إذ يشهد فى آن واحد على العظمة الالهية والحضور الظافر للاسلام، يعتبر، بوجه عام، البناء الأكثر أهمية والأكثر تمثيلاً

لمختلف مدارس العمارة الاسلامية. وحتى القرن الحادى عشر فى كل مكان، وفى أماكن معينة فى زمن أكثر تأخراً بكثير، تفرض الرمزية - أو تبرز - تخطيط وارتفاع المسجد المسمى بـ «العربى»؛ وسوف يستعوض العثمانيون عن هذا المسجد بتخطيط مختلف وأكثر كونية، هو تخطيط المعبد - الجبل الكونى، إلا أنهم لا يمكنهم إلا أن يحافظوا على الأجزاء التى تتطلبها العبادة. والأغلب أنهم، بتخليهم عن التخطيط المستطيل لحساب التخطيط المتمحور على مركز، سوف يجعلون من الصعب على المؤمنين أداء الصلاة فى صفوف متوازية طويلة.

والمسجد العثمانى، شأنه فى ذلك شأن أى مسجد، وجهته مكة. وهذه الوجهة (القبلة) يشار إليها على الحائط المثل، اجمالاً، على الجنوب (حائط القبلة) بتجوير خال، هو المحراب. وإلى يمين المحراب عندما يوجه إليه المرء بصره، يوجد المنبر، الذى يتألف من سلم مستقيم تعلو درجته الأعلى ظلة، ويفلق، من أسفل، بباب. وبما أنه لا يجرى تقديم قرابين فى المسجد، فلا وجود هناك لمذبح. والأثاث الوحيدة الموجودة، بخلاف المصابيح والسجاجيد، تتألف من ذلك لمن يتولون تلاوة أو قراءة القرآن، ومن مقصورات، ومن كراسٍ للمصاحف ومن خزانات حائطية. وخارج قاعة أداء الصلاة (الحرم)، تنتشر الملحقات : حوش (صحن) محاط بالأروقة، ويوجد فى مركزه حوض أو فسقية (شالديروان)، ومراحيض ومراكز مياه عديدة للوضوء، والمنارة، التى يتلو المؤذن منها النداء الى الصلاة. والمنارة ليست غير معروفة إلا فى عدد نادر من البلدان الاسلامية؛ ويتمتع الصحن باعتناء يكاد يكون شاملاً، لكن سلاچقة الأناضول كانوا قد تخلوا عنه.

الفن السلجوقى والفن العثمانى

منذ انبثاقه، ثم على مدار مسيرته، تعرض الفن العثمانى لمؤثرات متباينة : بيزنطية، ايطالية، ايرانية، سورية، ولمؤثرات أخرى كثيرة بلا ريب. ومن الصعب أن

نحدد بدقة دور كل مؤثر من هذه المؤثرات، لأنها تنوب في كل واحدٍ يتميز، لا بابداء خصائص هجينة، بل بأنه موحد بدرجة قوية؛ والمسئولون عن ذلك هم الأتراك، حتى وإن كان غير الأتراك قد أسهموا في ذلك، وذلك غالباً باعطاء دفعة حاسمة له تستمد مصدرها من الفن السلجوقي.

وفي اختيار المواد وما يزينها، يبقى العثمانيون مخلصين لتراث أسلافهم الأناضولى. فهم يحبون الحجر، الجميل، المجهز على النحو المناسب، وإذا كانوا، تحت التأثير البيزنطى، يستسلمون لاغراء مناوبته مع الحجر، فإنهم ينتهون الى الاقتصار على استخدامه هو وحده تقريباً. وبالرغم من اللجوء الى التزيين بالتصوير، فإنهم يحبذون التزيين بالقاشانى، الذى تتنافس معه تنافساً شاقاً الواح جميلة من الرخام، كانت معروفة قبل العثمانيين كما تبين ذلك واجهات مدرسة كاراى ومسجد علاء الدين فى قونية (القرن الثالث عشر). وفى بورصا، فإن الخزفيات الجدارية، مثال ذلك خزفيات المسجد الأخضر، تنتسب انتساباً جدي وثيق الى خزفيات آثار قونية. وكما سوف نرى، فإن تخطيطات هذه البنايات مستمدة بشكل واضح من التخطيطات السائدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، شأنها فى ذلك شأن الكثير من أساليب البناء : شكل الأقواس، العقود، قباب الزاوية، والمحاريب المجوفة.

إلا أنه، فى اماره عثمان، كما فى الامارات الأخرى، فإننا نشهد منذ القرن الرابع عشر تجديداً عميقاً للاستيحاء والتقنيات؛ وهذا التجدد، المحسوس والمثمر فى كل مكان، سوف يجد ازدهاره الكامل فى ما يسمى بـ «مدرسة بورصا»، أول مدرسة عثمانية، و، عن طريقها، فى الفن الكلاسيكى لخمسينيات القرن السادس عشر. وعندئذ فإن الشروط الذى يتم اجتيازه سوف يكون جد عظيم بحيث أننا، إن أعوزتنا العلامات الأكيدة، قد نتصور غياب أى ارتباط بين العصر الوسيط والقرن

السادس عشر. فقلما تبدى الجماليات نقاطاً مشتركة. بل إن الاهتمام الموجه الى أنماط الآثار المتباينة قد تغير.

فالبنسبة لسلاچقة الأناضول، والذين كان شاغلهم الأول تجارياً، كان الأثر الرئيسى هو خان المسافرين، وهو بناية فاخرة تتميز بوقار جميل، حيث لا توجد الزخرفة إلا على البوابات الأمامية وعلى الأجنحة ذات الطابع شبه البندكتى، بما يجعل منه ايواناً حقيقياً للمعاملات التجارية. ويليه الضريح والمدرسة، وهى بناية جد جديدة فى الاسلام، ولدت فى ايران فى القرن الحادى عشر، وتعتبر فى الوقت نفسه المؤسسة التى تتمثل رسالتها فى توفير ملاذ : وهى بالمعنى الدقيق مدرسة لعلوم الدين، وبشكل أكثر عمومية منشأة للتعليم والبحث، كان نجاحها منقطع النظير فى مجمل الشرق الأدنى وجرى تصديرها حتى ضفاف المحيط الأطلسى. أما فيما يتعلق بالقصر، فقد كان هو الآخر محط اهتمام، ولاشك البتة فى انه لم يكن فخماً، لكننا لا نعرفه إلا من خلال اعمال التنقيب. ولا يكاد يعتبر من المبالغة القول بأن المساجد لم تكن بعيدة عن احتلال المرتبة الأخيرة بين الشواغل. فالمساجد، القليلة نسبياً، وذات المظهر الفظ، والبائسة التجهيز أحياناً، بل والمفتقرة الى أى اتقان، كانت تشيد فى أغلب الأحيان دون دراسة، وفق التخطيط المسمى بـ «العربى» ذى الأجنحة المتعددة. وفى ذلك على الأقل، بدا السلاچقة فى مظهر مسلمين رديئين وقطعوا الصلات مع التقاليد الأكثر رسوخاً والتى تولى من شأن مكان العبادة.

وسوف يعيد العثمانيون الأمور الى نصابها. انهم لن يتخلوا لا عن خان المسافرين - الذى سوف يجعلون منه بناية ذات أغراض نفعية بشكل خالص - ولا عن المدرسة، التى سوف يعتبرونها نوعاً من ملحق للمسجد، شأنها فى ذلك شأن المستشفى أو المكتبة أو المطابخ، ولا عن الضريح الذى يظل وضعه كما هو، لكنهم

سوف يعيدون المسجد الى تفوقه المطلق. وفي انكبابهم على تعليته، وعلى توسيع قبابه، وعلى صفراكتل، وعلى دمجها، وعلى تبسيط الأحجام، وعلى ايجاد توافق بين الأجزاء الداخلية والخارجية، وعلى تحقيق الوقع الهرمى، فإنهم سوف ينتهون بابتكار بنايات مهيبة، مختلفة تماماً عما عرفه العالم من قبل، وعما كان ما يزال يعرفه آنذاك.

الزخرفة

لم يعرف السلاجقة دائماً ادخال الزخرفة فى العمارة. أما العثمانيون فقد كانت لهم بذلك دراية تامة و ، اذا كانت الزخرفة تظل غزيرة، فإنها لا تسيء أبداً الى خطوط الأثر. ولما كانت تعتمد على التلوين بأكثر بكثير من اعتمادها على النحت، فإنها تميل الى الحجرة الملونة التى تتالى فى المداميك وخاصة فى صنجات العقد وتركيب بلاطات من الرخام، والتصوير و ، بالتاكيد، قاشانى التكسية. ولا يتأخر هذا الأخير فى احتلال صدارة المشهد. وقبل الاستيلاء على القسطنطينية، كان يجرى بالدرجة الأولى اختيار الاشكال الأحادية اللون أو الاشكال المتعددة الألوان من التربيعات (البلاطات) المجردة (الخالية من الرسوم)، التى تزهر غالباً بلمسات ذهبية (مسجد المرادية فى بورصا)، بما يستبعد مرة، واحدة الشخصيات التى كانت تضافى على تربيعات (بلاطات) القاشانى السلجوقية طابعاً بهيجاً؛ وسرعان ما سوف يجرى إثثار المملكة النباتية على الأشكال الهندسية، دون التخلّى عن الكتابات التى تتمتع باهتمام متواصل. وإذا لم يكن من النادر أن يشكل القاشانى زخرفاً متكرراً من المسطحات الواسعة، كما نجد ذلك فى ايران، فإنه يشكل فى أغلب الأحوال لوحات متميزة بجلاء بعضها عن البعض الآخر، وتفصل بينها حدود واسعة، بشكل يمكن معه للمرء أن يتصور أنه بإزاء طنافس (ابسطة) معلقة على الجدران: ويحسن البحث عن أصل هذا الأسلوب فى

العادة التركية البدوية القديمة المتمثلة فى تعليق السجاجيد على جوانب الخيام (الجناح السلطانى فى الينى جامع - الجامع الجديد، أواخر القرن السابع عشر، قاعة الختان فى طب قابى، قبر محمد شاه زاده، منتصف القرن السادس عشر).

اما المواضيع المختارة لتزيين الآثار فهى لا تختلف كثيراً، بوجه عام، عن المواضيع التى نقابلها على التحف المصنوعة، خاصة على المنسوجات. فالزهور تحتل مكانة متميزة فى جدول المواضيع، وأحياناً ما تكون جد قريبة من النموذج الطبيعى، وأحياناً أخرى تكون تشويهاً طفيفاً لهذا النموذج، وبشكل أكثر ندرة تكون مندرجة فى التوريق (الآرابيسك) الذى يفقد الهيمنة التى كانت له فى الفن الاسلامى. والحال ان الوردة وزهرة القرنفل، المناسبتين لتهديب الأسلوب، هما اللتان تنتهيان أولاً، مروراً بكافة المراحل الانتقالية، بأن تصبحا وريادات لها ست أو ثمانى تويجات أكان ذلك فى النحت أم فى الزخرفة الملونة؛ ثم يجيىء الدور على الحوذان، وزهرة الرمان، والياقوتية، وزهرة العسل وخاصة الخزامية، المحبوبة حباً جماً، والتى حتى عندما تصبح زخرفاً مجرداً، يظل بالامكان تمييزها بشكل تام، اللهم إلا عندما تكون على الطنافس. والشجرة المزهرة ذات الفصوص الطويلة ليست نادرة (مسجد رستم باشا، قبر روكسلان)، كما ان اشجار السرو ليست نادرة هى الأخرى (غرفة مراد الثالث فى طب قابى، الينى جامع - الجامع الجديد). وغالباً ما تؤثر الصين على أسلوب التكوينات وتهب جانباً من وحداتها الزخرفية، كما هو الحال بالنسبة للأشرطة المتموجة المنبثقة عن التينيات، وخارف التشنتمانى (ثلاث لآلىء على شكل مثلث) أو «شفاه بوذا» التى يمكن للمرء أن يرى فيها بالأحرى سحباً. والحال ان وخارف التشنتمانى و «شفاه بوذا»، غير الغائبة بالمرّة فى العمارة (بهو قاعة المخلفات فى طب قابى، مسجد رستم باشا)، تعتبر متكررة بوجه خاص على المنسوجات الفاخرة: إن قفاطين سليم الأول ويايزيد الثانى ومراد الثالث قد لا تكون لها زخرفة أخرى غير وخارف التشنتمانى المتكررة بلا كلل؛ وعدة

منسوجات تمزج بين الزخرفين (قفاطين محمد الثانى، قطع ترجع الى زمن سليمان القانونى)؛ وتستخدم منسوجات أخرى «شفاه بوذا» فى أطر من الرمان والخزاميات وزهور القرنفل، والتي غالباً ما تصاغ عندئذ على شكل مروحة كما هو الحال فى القاشانى (مسجد رستم باشا).

وتوجه النقوش والقاشانى ضربية قاتلة الى النحت على الحجر الذى يهجر الصور البشرية أو الحيوانية التى عرفها السلاجقة؛ وتتضاءل النقوش البارزة ويفقد الرسم كل حيوية وتختزل المسطحات المزخرفة بالازميل. أما المقرنصات، الحنيات، أو الهوابط أو الأشكال النخروبية، التى كانت قد ابتدعت لتوزيع الارتفاعات التى لعبت دوراً هاماً فى الأقواس والعقود ومثلثات القباب والخرجات وتيجان الأعمدة، فهى تصبح رخوة بشكل مطرد ويولد تكرارها الاحساس بالتماثل الممل.

وكما يمكننا أن نرى عبر ذلك الافتقار الى النحت، فإننا نلاحظ فى العصر العثمانى افقاراً فى كثير من المجالات؛ إلا أن هناك استقراراً فى مجالات أخرى؛ وفى مجالات ثالثة نجد إثراءً. ويتحقق القطيعة، عندما تكون هناك قطيعة، فى القرن الخامس عشر. وينتج ذلك أعمالاً جميلة فى مجالات سوف يجرى فيما بعد اهمالها وإن كانت تعطى دفعة لما سوف يولد.

التحف المصنوعة

إن عدة تقاليد صناعية عظيمة، خاصة تقاليد النجارين وصناع التحف المعدنية، سوف يكون مصيرها الضياع. ولا يرجع ذلك الى عدم معالجة البرونز أو النحاس أو الحديد؛ فالشراعات التى تغلق الفتحات والمفاتيح وخاصة الأسلحة (البيطقان، السيوف العريضة والمعقوفة، الخوذات المستديرة، الغدارات، البنادق،

دروع القصبة، التروس)، المعالجة معالجة فاخرة والمزينة، أكثر فأكثر، بالأحجار الثمينة أو المكفتة بالفضة أو بالذهب، إنما تشير الى ان العلم والنوق لم يختفيا، لكن أى شىء من الأثاث لا يتجاوب، مثلاً، مع الأحواض ومع الشمعدانات التى تنتجها المدرسة السورية - المصرية المملوكية بالآلاف. كما لا يرجع ذلك الى اهمال شديد للخشب، وإن كان يجرى ايثار تزيينه بالمرصعات (الماركيزى) بدلاً من نحته. ومنذ زمن بورصا، يفقد ازميل الفنان حيويته، ويصبح رسمه ضعيفاً. على ان هذا الاختزال للوحدات الزخرفية يسمح فى المقابل للنحت على العاج بأن ينتج (فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ثم بعد ذلك) تحفاً دقيقة الصنع، أطر مرايا، مقال، مدى، ألواحاً لسن الأقلام، ملاعق...

ولاشك ان الأهمية التى تولى للكتاب تنقذ معالجة الجلد بتشجيعها لصناعة جلود الكتب. لكن العثمانيين سوف يكونون فى هذا المجال شبه مدينين بالكامل لايران الصفوية : وسوف تكون لهم مآثرة ادخال هذه الصناعة الى اوروبا من خلال البندقية. كما انها ايضاً هى التى سوف تحفز الترقين (تجويد الخط وتحسين الكتاب وتزيينه)، الذى امكنت تسميته بالفن التجريدى الحقيقى للاسلام. ويكتسب هذا الفن انطلاقةً رائعاً اعتباراً من عهد بايزيد الثانى ومن التجديد العميق الذى يرجع الى الخطاط البارز الشيخ عبدالله الأماسياوى (القرن الخامس عشر). وتتميز صناعة المنسوجات بنشاط عظيم. ودون انقطاع للاستمرارية، ينتج صناع اسطنبول أقمشة القفاطين السلطانية ذات الرسوم العريضة والقوية، وينتج صناع بورصا الأقمشة المخملية ومنسوجات حريرية صينية مقصبة بخيوط من الذهب، سوف نعرف بورها فى مستقبل المنتجات الايطالية.

ويرجع الفضل الى العثمانيين فى واقع ان فن تشكيل الخزفيات الاسلامى، الذى لا يكاد يوجد له نظير، والذى تميز بخصوصية وبتنوع لا مثيل لهما على مدار

قرون، لا يختفى فى العصور الحديثة فى الوقت الذى يتدهور ويموت فيه فى كل مكان آخر. فالخزف الحاضر حضوراً واسعاً جداً فى التكرسيات الجدارية، ليس أقل حضوراً فى التحف المصنوعة، كالصحون، والأطباق، والأقداح، والفسقيات، والأباريق، والقوارير، وأقداح الشرب الكبيرة، بل وصناديق حفظ الأقلام الخزفية. والواقع ان التربة المستخدمة فى الورش الكبرى للامبراطورية العثمانية - التى يمكن الحديث عن أماكن تواجدها، دمشق، رودس، اسطنبول، إزنيق - هى تربة سيليكية للغاية، الأمر الذى يناسب تزجيجاً عالياً للميناء (الطلاء الخزفى) ومن ثم يجعل الزخرفة جد مرضية. والواقع ان الخزفيات، التى كانت أولاً زرقاء على أرضية بيضاء، إنما تزهو بالأزرق الفيروزي، ثم بلون أخضر زيزفونى وبلون أخضر باذنجانى بالغ العنوبة (القطع المسماة بـ «خزف دمشق»). ومع ادخال الأحمر الطمطمى فى أواسط القرن السادس عشر، يصل الانتاج إلى أوجه. إلا أنه سرعان ما تصاب الزخرفة بالضعف والهزال، حيث يصبح الخط أقل حذقاً وتصبح الألوان كابية. ويؤدى تأثير أوروبا المتزايد الوضوح، والذى يبدو ان ورش كوتاهيه تقلت منه مدةً ما، وهى ورش تتميز بانتاج ساذج الى حد ما وتتخللها التقاليد الأرمنية، إلى التعجيل بالتدهور. فالواقع ان الاعمال التونسية، خاصة فى القرن الثامن عشر، هى وحدها التى سوف تحافظ على جانب كبير من التقاليد العثمانية.

الطنافس (الأبسطة)

فى الفنون الصناعية، لا مثيل للطنافس. فهذا الفن، القادم من وسط آسيا مع البدو، والذى كان وفقاً على العالم التركى - الايرانى، سوف ينتشر بعد ذلك بشكل تدريجى فى بقية بقاع الأرض. وأيا كان أصلها - الذى يبدو من العبث السعى الى تحديده - فإن أقدم نماذج الطنافس الاسلامية التى وصلت إلينا تعتبر أناضولية

وترجع الى القرن الثالث عشر - ونحن نرى فيها بالفعل ما سوف يظل مميزاً للطنافس العثمانية، وهو الميل الاكيد الى الزخرفة الهندسية الذى يخفف، فى أواخر القرن الخامس عشر، من ادخال العناصر النباتية. أما الاتجاهات العتيقة المتمثلة فى تكرار زخرف واحد و ، من ثم، فى الایحاء بتجاوز حدود المجال المزخرف، فإنها ترتبط بالمفهوم الاسلامى عن الفن، وهو مفهوم معاد للمتناهى، أكانت هذه الحدود تنجم عنه أم كانت تتلاقى بشكل غير مقصود. والى جانب الأكلمة وأبسطة السوماك (سجاجيد منسوجة وغير معقودة)، التى تستخدمها القبائل كثيراً، تتطور الطنافس المسماة بطنافس الصوف الرفيع وهى طنافس معقودة. وتختلف العقدة التركية، المسماة بالكوردهس (والتي تكتب فيورديس فى أغلب الأحيان)، عن العقدة الفارسية (سنّا) من حيث ان خيط الصوف أو خيط الحرير يشد حول كل خيط من الخيطين الملاصقين للسداة، فى حين ان العقدة الفارسية تشد على احد الخيطين. ثم تجرى تسوية السمك بالمقص. وهو ما يعطى البساط ملمسه الناعم.

والواقع ان الصعوبة التى وجد مؤرخو الفن أنفسهم أمامها فيما يتعلق بالتحديد الدقيق لعصر الطنافس وفيما يتعلق بتصنيفها، على الأقل فيما يتعلق بالطنافس الأقدم التى نحتفظ بنماذج قليلة منها، قد دفعتهم الى مقارنتها بالطنافس التى أحب المصورون الأوروبيون استنساخها: وبهذا الشكل تم تحديد طنافس تحمل أسماء هولباين وبيلليني ولوتو. وبالنسبة للطنافس الأحدث، فإن الاسماء تشير الى مراكز التسويق بأكثر مما تشير الى مراكز الانتاج: طنافس قولاً، لازيق، ميلاس، بيرجاما، الخ. وهذه الطنافس، التى يواصل بعضها تقاليد طنافس هولباين ولا تختفى بعد من مراكز التصنيع (طنافس بيرجاما)، تتميز غالباً بالألوان مؤثرة (طنافس ميلاس)، وبزخرفة على شكل محراب (طنافس قولاً، لازيق، الخ)، الأمر الذى يخلع عليها اسم السجاجيد (سجاجيد الصلاة).

والواقع ان طنفسة هولباين، وهى احدى الطنافس الأكثر شهرة، والمجردة فى رسمها، والمحدودة فى ألوانها، إنما تتألف من جامات ثمانية الشكل ومن غصينات ذات تشبيكات زهرية صارمة بما يشكل تكويناً جد متوازن وجد خطى. أما طنافس عشاق، والتي لا تقل شهرة، فقد كانت تعقد على مدار ثلاثمائة سنة، من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر؛ وهى تؤثر سلاسل التشبيكات الزهرية التى تأخذ شكل المعين الهندسى وتوزع زخرفتها بشكل يتركز فيه التأكيد على الجامة الوسطى.

إن فن الطنافس، المتأصل بعمق فى التراث التركى، والذي تشجعه الدولة بلا توقف، يظل، بالرغم من قدر معين من التطور الذى طرأ عليه، بالغ الحيوية حتى أيامنا هذه. ولعله التعبير المميز الوحيد عن الفن الاسلامى الذى كتب له اجتياز القرنين الاخيرين دون تدهور تام.

المسجد العثمانى

المسجد ذو القبة الواحدة

بالنسبة لمساجد الأحياء أو المدن الصغيرة، بنى السلاجقة قاعات على مساقط مربعة، تعلوها قبة، ذات أبعاد صغيرة بوجه عام، تتراوح بين سبعة وثمانية أمتار (مسجد تاش فى قونية، ١٢١٥)، يمهدها أحياناً، ولكن نادراً، بهو ورواق (مسجد سيرتشالى فى قونية، نحو عام ١٢٧٥) أو رواق فقط (مسجد خربوط، القرن الثالث عشر، وايرميناك، ١٣٠٢).

وهذا النوع من العماثر بالغ الشيوع فى عصر الامارات : وتوجد منه نماذج عديدة فى إزنيق ويلاط وكاستامانو وكرمان وأنطاليا وأماكن أخرى. لكنه يكتسب طابعاً أكثر ضخامة بكثير. فارتفاع الجدران يزيد والرواق ذو العمودين والقباب

الصغيرة الثلاث يصبح عاماً، والمئارة القصيرة السميكة والمخروطية الجذع تحيد عن الصرامة. وبوجه خاص، فإن قطر القبة الرئيسية لا يكف عن التزايد ؛ فهو ينتقل من الأمتار السبعة أو الثمانية، التي أعطاهما لها السلاجقة، الى أحد عشرة متراً في إزنيق وإلى اربع عشرة متراً في بلاط، وإلى ست عشرة متراً وثلاثين سنتيمتراً في سكوبيا، لكي يتجاوز التسع عشرة متراً في مسجد البايازيدية في مودورنو في عام ١٣٨٢. أما الزخرفة، التي يهيمن فيها القاشاني بالفعل، فهي تستخدم بشكل أكثر منهجية كسوات من الرخام، كما في بلاط (ميليت)، في عام ١٤٠٤، وفي المسجد الأخضر في إزنيق، الذي بدأ تشييده المهندس المعماري حاجي مراد في عام ١٣٧٨ وتم انجازه في عام ١٣٩٢. وهذا المبنى البالغ الجمال، شأنه في ذلك شأن مبان أخرى قليلة في ذلك العصر، يقدم حلولاً أصيلة، لن يكون لها امتداد مباشر: فهو يقدم رواقاً ذا جناحين متوازيين يحمل في وسطه قبة اسطوانية الشكل شبه مدببة الرأس، لكنها ضيقة و ، كما في مدرسة سيرتشالي في قونية، يضاف اليه جناح مستعرض موضوع أمام الحرم، بما يشكل طبعة اسلامية من المجاز (الذي يؤدي الى صحن الكنيسة). وهكذا، فلما كان قابلاً لاستقبال حشد أكبر من المؤمنين، فإنه لم يكن غير مسجد بسبيله الى أن يصبح جامعاً.

وسرعان ما يظهر، أو يعاود الظهور، عنصر جديد، هو الصحن الذي يسبق القاعة والذي كان السلاجقة قد ألغوه. وهو يفرض نفسه بوصفه ضرورة منذ اعادة ادخاله في العمارة من خلال جامع عيسى بك في سلجوق (افسس) الذي شيده الأيدينيون (أيدين أوغوللاري) في عام ١٣٧٥، وذلك دون ريب لأن هذا الأثر هو في آن واحد حصن جميل وجد فريد وبالع التجديد. ولما كان يتمشى مع تخطيط جامع الأمويين في دمشق^(٢)، حيث يوجد مجاز قاطع، وجناحان عاديان فقط، فإنه يجدد عن طريق الارتفاع غير العادي لجدرانه، والنوافذ الوفيرة التي تشقها، والقبتين

اللتين تهيمنان عليه بوضوح والزخرفة الخارجية المائلة بشكل مناسب، وكلها أشياء تتجارب مع ميول العصر التي غالباً ما لا يتم التعبير عنها بعد بشكل جيد. أما فيما يتعلق بصحنه، فإنه محاط من ثلاث جهات (وليس من الجهات الأربعة كما سوف تصبح تلك هي العادة) بأروقة مقيبة.

ولا يثير بناء القباب الرئيسية التي تتزايد ضخامة غير مشكلة تقنية، يسهل حلها تماماً مادام نصف قطر الدائرة القاعدية لا يتجاوز عشرة أمتار، إن لم يكن أكثر من ذلك بقليل. أما المشكلة الجمالية فهي مشكلة مختلفة تماماً. فتقارب الأحجام نصف الكروية والتكعيبية ليس منسجماً في حين أن الفن يقضى بانسجامها. وقد حاول المعمارون العثمانيون، دون أن يتوصلوا إلى نتائج مرضيهم بالكامل، إيجاد حل بزيادة أو باختزال ارتفاع جدران قاعاتهم وبالعكس إلى حد ما على تقوس القباب، التي يجرى زيادة ارتفاعها أو زيادة انخفاضها برشاقة، الأمر الذي يسمح لهم بتحقيق أفضل توازن للكتل وبإعطاء انطباع قوة رائعة أحياناً. إلا أنهم لم يحاولوا قط لازيادة ارتفاع رقبة القبة، خلافاً لما هو حادث ولما سوف يحدث عند التيموريين أو الصفويين أو الموغول الكبار^(٣) ولما هو حادث في أغلب الأحيان في أوروبا، ولا تصميم قباب مخروطية الشكل أو اهليلجية أو هرمية أو بصلية. وعندما كانوا يمسون شكلها، فقد كان ذلك من أجل تمليسها بشكل يسمح لمنحنيات الأقل حدة بالارتباط على نحو أفضل بالخطوط الأفقية. والحاصل أن موردتهم الرئيسي في إعلاء الزخم الرأسى وتخفيف الثقل إنما يتمثل في رفع مآذن نحو السماء، كالسهام، دقيقة بشكل متزايد وعالية بشكل متزايد، بما يشكل أعمدة هيفاء من الحجر متوجة بخوذة، وتبدو باللغة الهشاشة، وإن كانت قد تمكنت على نحو جيد من الصمود للزلازل المتكررة. وبشكل تكميلي، فقد لعبوا على الكتل الطويلة والمنخفضة للتكوينات المعمارية، الملحقات، التي تحيط بالجوامع والتي تهيء قبابها الصغيرة، كقباب أروقة الصحن، للقبة الكبيرة للحرم وتبدو بشكل ما كما لو

أنها ترفعها فوقها؛ أو انهم يلعبون أيضاً على شق نوافذ الجدران التي كانت قبل ذلك صماء، والتي لا تؤدي فقط الى إنارة الحرم، بل تؤدي أيضاً الى تخفيف وقع ثقل المبنى وتضفي عليه، بترتيبها الحاذق، حركة صاعدة، بما يشكل استشرافاً بعيداً، كما هو الحال مع مسجد الباييزيديه في ادرنة، للشكل الهرمي المميز للنزعة الكلاسيكية.

المسجد المتعدد القباب

منذ أن يأخذ المسلمون في بناء مساجد، فإنهم سوف يميلون الى وضع قبة صغيرة أمام المحراب و، أحياناً، قبة ثانية تشكل نظيرة لها على الطرف الآخر من المجاز القاطع، أمام المدخل. وقد تبني أتراك الأناضول هذا الأسلوب بشكل طبيعي تماماً مثلما تبنوا التخطيط المسمى بالتخطيط «العربي» للمساجد التي تركز أسقفها على أعمدة والمزودة بأجنحة متوازية أو متعامدة على الحائط القبلي أو أيضاً متصالبة (مساجد بيتليس، ١١١٥، وخربوط، نحو ١١٥٦، وأرضروم، ١١٧٨، وديفريك، ١٢٢٨، الخ). على ان القبة، في خمسينيات القرن الثاني عشر، أي في وقت مبكر جداً، في جامع الأرتوكيين^(٤) في مايفاريقين (سلوان الآن)، قد جرى توسيعها بشكل يسمح بتغطية الأرضية المحددة بتشابك ثلاثة أجنحة وثلاثة أروقة تبعاً للصيغة المعتمدة، ولكن بعبقرية مختلفة تماماً، في أحد أجمل آثار الاسلام، وهو مسجد الجمعة في اصبهان.

والواقع ان بناء قبة ذات مستوى أعلى من مستوى الجناح يمكن اعتباره جمعاً بين المسجد ذي القبة الواحدة والمسجد الذي يرتكز سقفه على أعمدة (ادخال الأول في الثاني). وهذه الصيغة، التي تجرى استعادتها بجسارة أكبر في عام ١٣٧٦ في مانيسا من جانب اسحق بك، أمير الصاروخانيين، سوف تؤدي الى انبثاق مكان عبادة مهيب لا تسمح قبته الضخمة ببقاء شيء غير جناح طويل عادي خلف

حائط الواجهة وجزأين جانبيين ينقسم كل منهما الى رواقين، وهى العناصر الباقية من الأجنحة الأربعة المتوازية والأروقة السبعة. على ان محاسن وتجديدات مانيسا كانت نتائجها أقل من نتائج الترتيب الثمانى، الجديد تماماً، للأقواس والدعامات التى تسند القبة : وسوف تجرى استعادة هذا الترتيب فى عدد من أعظم الأعمال العثمانية الرئيسية.

وفى الفترة نفسها، يبدأ السلاجقة والسلالات التركية الحاكمة الأخرى فى الأناضول فى زيادة عدد القباب، خاصة فوق الأجنحة المحورية والمستعرضة لابرار أهميتها (جامع ايليكتشى فى قيصرية، بداية القرن الثالث عشر، مسجد علاء الدين فى نجده، ١٢٢٣، جامع بورمالى مناره فى أماسيا، ١٢٤٤).

والواقع ان الاتجاه منذ ذلك الحين الى تغطية مجمل الحرم بالقباب، المستندة، شأنها فى ذلك شأن القباب التى بنيت بالفعل بشكل أكثر تقتيراً، على تقاطع الأقواس، لم يكن غير استخلاص للاستنتاج المنطقى من هذه المحاولات الأولى. وسوف يحدث ذلك لأول مرة، إن لم نكن مخطئين، فى عام ١٢٧٦ فى مدرسة جوك فى أماسيا، إلا انه لا يبدو انه قد وجد تطبيقاً له فى المساجد قبل مجيئ العثمانيين و ، حتى نكون أكثر دقة، قبل تشييد جامع بورصا الكبير، الذى أنجز دون شك فى عام ١٣٨٩. والواقع ان هذا الأثر، الذى شيد بحس عظمة ومهابة ملحوظ، يمتد على مستطيل طوله ٦٨ متراً وعرضه ٥٦ متراً، مقسم الى عشرين مربعاً باثنى عشرة عموداً ترتبط فيما بينها بأربعة اقواس حادة وتحمل أيضاً قباباً قطرها ستة أمتار ونصف متر، على مثلثات كروية بشكل عام، حيث تعتبر قبة الوسط فى الواقع كوة تعلو حرضاً أنيقاً متعدد الزوايا. والحال ان الارتفاع الكبير للجدران، والذى يعتبر منذ ذلك الحين واقعاً مكتسباً، وزخرفتها باقواس حادة تحيط بالنوافذ، والمئذنتين المخروطيتى الجذع المجاورتين للواجهة تسهم كلها فى أصالته القوية.

وبعد ذلك يبضع سنوات، سوف يلتزم الاسكى جامع (الجامع العتيق) فى ادرنه (١٤٠٣ - ١٤١٣) بالمبادئ نفسها، لكن قبابه سوف تتميز ببعد يمثل ضعف بعد قباب جامع بورصا، ١٣ متراً، وهو ما سوف يسمح بتقليل عددها الى تسع وذلك لاثـر يتميز بحجم يكاد يكون مساوياً؛ والالغاء التالى للدعامات سوف يغير رأساً على عقب المجال الداخلى؛ وكذلك فإن الارتفاع الأعلى للقباب الثلاث للجناح المركزى سوف يبدل المشهد الخارجى. ولاشك ان التقسيم الثلاثى لمكان العبادة والذي يحيل الى مخطط عزيز على الاسلام (وهو أيضاً تقسيم الكنيسة الايوانية الشكل) هو تقسيم عرضى.

أما الأوتشى شرفلى جامع (المسجد نو الشرفات الثلاث)، والذي بنى فى المدينة نفسها بين عامى ١٤٣٧ و ١٤٤٧، فليس دون صلات مع جامع مانيسا الكبير. كما يمكن اعتباره نتيجة تركيب يجمع بين تخطيطين، هما تخطيط المسجد ذى القبة الواحدة والمسجد المتعدد القباب. والواقع ان القبة الرئيسية، جد المهيبة بالفعل بقطرها الذى يساوى ٢٤ متراً، تستند على مسدس (مثنى فى مانيسا) وتحـلـل مجمل الجزء المركزى أمام المحراب. وهى محاطة بملحقين، يلوذ كل منهما بقبتين أخريين أصغر حجماً، الأمر الذى يشير الى الارتياح الذى تسبب فيه التقسيم الثلاثى للجامع العتيق. أما الصحن الكبير المستطيل، المحاط بأربعة أروقة تحت عشرين قبة ذات أبعاد مختلفة، فهو يحاط، للمرة الأولى، بأربع مآذن نحيلة، ذات ارتفاعات غير متساوية وذات أساليب متنوعة، حيث يعلو أكثرها ارتفاعاً عن الأرض بمسافة ٦٧ متراً. وتقدم الدعامات القوية للقبة الكبيرة والعناصر الصغيرة التى تتخذ شكل قباب والموضوعة فى الزوايا الأربع للسقف درساً لن ينسى. والواقع ان الاثر، المستند الى التقاليد (الملحوظة أيضاً فى البوابات الامامية الكبيرة) والتجديدات، إنما يقدم وحدة جميلة، واحساساً معيناً بالترتيب الداخلى و ، بالرغم من ثقله، طابعاً تذكاريّاً ناجزاً.

والحال ان التخطيط المعتمد على تعدد القباب، والذي يتمثل عيه في الابقاء على دعامات مزعجة، لن يتلاشى بعد فتح القسطنطينية وحتى على الرغم من اعتماد حلول أكثر ابتكاراً وجسارة بكثير (مسجداً زنجرلى كويو، أواخر القرن الخامس عشر، وبيالى باشا، ١٥٧٣).

فهذا التخطيط، الاستثنائي في المساجد، سوف يجد تطبيقات عديدة في عمائر أخرى، وفي بعض الحمامات (بايزيد حمامى، تشينيللى حمامى، كيزلار آغاسى حمامى)، وفي عدة مستشفيات (مارستان مسجد بايزيد فى اسطنبول) وخاصة فى البازارات المسقوفة (بيديستين) حيث سوف يكون صارماً. ونجد مثالين جميلين فى بيد يستينى بازار اسطنبول الكبير (قابالى تشارشى) واللذين انشأهما محمد الثانى، حيث تعلو الأول خمس عشرة قبة وتعلو الثانى عشرون قبة، وفى بيديستين انقره، شبه المعاصر (وهو الآن متحف الآثار الأناضولية)، أو أيضاً فى بيديستين سارايىفو (١٥٥١). ومن المؤكد أن هذه الآثار، من حيث وظيفتها وبنيتها، وترتيبها الداخلى والخارجى، وارتفاعها الطفيف، يبدو انها تقدم تركيباً مختلفاً؛ فهى تنتسب، الى حد معين، انتساباً جد وثيق الى الرواقات ذات القباب الصغيرة والتى تشكل واجهة المساجد أو التى سرعان ما سوف تحيط بصحنها؛ كما أنها تنتسب الى المدارس، التى تشكل سلسلة من الحجيرات التى تعلوها عقود على شكل قبة والموزعة حول حديقة صغيرة وترتبط بها عن طريق رواق أكثر تواضعاً، وإن كان مماثلاً لرواق المساجد، على ان تحليلها يثبت انها قد بنيت وفق المبادئ نفسها : تقسيم مجال محاط بمربعات صغيرة، تفصل بينها أقواس تستند الى دعامات ويحمل كل منها قبة.

مدرسة مدرسة بورصا

لقد بنيت مدارس عديدة وفق التقاليد السلجوقية فى القرن الرابع عشر وفى بداية القرن الخامس عشر، لكنها قد تلاشت فى جانبها الأكبر، أما المدارس الباقية

فى بورصا، يلديرىم (١٣٣٩)، يتشىل (١٤١٥) ومراديه (١٤٢٦) فهى تقدم قدراً من الأصالة: اختفاء الايوانات السيميتريه المميزه للمدرسه الايرانيه، اضافه قاعه دروس تحت قبه، حجيرات تطل على الخارج عبر نافذه، الاستخدام المتزامن للحجر وللآجر وفق الأسلوب البيزنطى، تبسيط شكل البوابه الاماميه.

ومن حسن الحظ اننا نحتفظ بمسجد - مدرسه خوداقينديجار مراد الاول فى بورصا (١٣٦٣ - ١٣٨٥)، الثرى فى آن واحد من حيث التعليم والمحاسن. فاللقاء فى مبنى واحد بين مكان للعباده ومكان للتعليم، والذي لا يوجد فيه شىء غير عادى فى العالم الاسلامى، يتحقق هنا على مستويين: فعلى الطبقة الأرضيه، نجد المسجد وقاعات الدراسة، وفى الطابق العلوى، نجد حجيرات الطلاب. كما يحافظ التخطيط على الذكرى جد الواضحة لتخطيط المدارس الصليبيه الشكل ذات الايوانات الأربعة (حيث يشكل الايوان قاعه نصف اسطوانيه حاده مقفلة على ثلاث جهات ومفتوحه بشكل تام على الجهة الرابعه) والتي يواجه ايوانان منها الايوانين الآخرين، وهو التخطيط الذى كانت ايران قد فرضته، وإن كان قد تعرض لعدد من تلك التحولات العميقة التى فرضها عليه العالم الاسلامى غير الايرانى فى كل مكان تقريباً آنذاك، ونرصد فى ذلك تأثيراً لأوروبا : إذ يجرى تضيق ثلاثة من الايوانات الأربعة، حيث يجرى تضيق الايوان الذى يشكل مدخلاً بدرجة أكبر بكثير مما هو الحال مع الايوانين الجانبيين، بينما يجرى توسيع الايوان الرابع، خلافاً لذلك توسيعاً ملحوظاً.

ويجرى تحويل القاعه المركزيه الى قاعه ذات قبه كما كان حالها بالفعل فى ظل السلاجقه مثلما نجد ذلك فى قونيه، فى مدرسه كاراتاى (١٢٥١) وفى مدرسه انجى مناريلى (١٢٦٠). اما ايوان المدخل، البالغ الضيق، فهو مسبوق بمجاز حقيقى، مسبوق هو نفسه بمجاز خارجى يذكر برواق الواجهه، لكنه هنا تخيم عليه قاعه الطابق العلوى. وأما الايوان الذى يواجهه، والذي يتميز بعمق كبير، شأنه فى

ذلك شأن القبة، فإنه يشمل المستويين ويشكل قاعة الصلاة. وهو ينتهى بخرق مستطيل، بما يشكل اختزالاً لصدر الكنائس، حيث يقع المحراب. ويتميز الايوانان الجانبيان بحجم متوسط ويحيط بهما من اليمين ومن اليسار غرفتان (لاشك انهما يشكلان قاعتين للدروس) تأخذان جانباً من مشهديهما. وفي الطابق العلوى، يدور ممر حول القبة. ويجد امتداداً له فى ممر ضيق، مشتق من البناء، يفضى الى غرفة صغيرة لا ندرى وظيفتها، وإن كانت تشكل مصلى صغيراً بلاشك. وتنفتح عليه، فى اليمين ومن اليسار، اثنتا عشر حجرة ذات نوافذ تطل على الخارج. ويحتوى الجزء الداخلى على سلمين ومجازين وخمس قاعات مستطيلة مقببة. ويبين رواق الطابق العلوى من الواجهة من خلال تركيب رائع لخمس أقواس كبيرة حادة يحجب كل منها اقواساً حادة مزدوجة تستند على أعمدة ذات تيجان بيزنطية : وسوف نجدها فيما بعد فى مدرسة آك فى نجده (١٤٠٩). ويعتبر التأثير الايطالى هنا واضحاً، وإن كان ذلك لا يشير البتة، كما قيل أحياناً، الى تدخل فنان «افرنجى».

المساجد ذات التخطيط المسمى بالتخطيط على شكل حرف T مقلوب

على أساس مخطط موجه مماثل لمخطط مسجد - مدرسة خودافينديجار بنيت المساجد المسماة بمساجد مدرسة بورصا أو أيضاً المساجد ذات التخطيط الذى يأخذ الشكل المقلوب لحرف T، وهى آثار تتميز بجمال بالغ الروعة، ومثيرة للاعجاب الشديد، وفريدة بصورة مطلقة فى الفن الاسلامى وإن يكون لها أى مثل تال. وتتبع شخصيتها القوية بشكل رئيسى مما تستمده من المدرسة الصليبية الشكل ذات الايوانات الأربعة، ومن وظيفتها، وهى وظيفة زاوية، تعتبر منشأة تبنى لواحد أو لعدد من رجال الدين. والواقع ان المسجد بالمعنى المحدد لا يحتل غير الأرضية المربعة، والمرتبة منذ ذلك الحين تحت قبة، وليس بعد تحت نصف اسطوانة، وتقع فى مواجهة باب الدخول وتبنى كلها على شكل نتوء بارز على مجمل المبنى. وينتظم

هذا المبنى حول الجزء الرئيسى، وهو الصحن القديم المقبب، والذي يعتبر هنا غالباً أكثر انخفاضاً ويزين فى مركزه بفسقية؛ وقد جرى تحويل الايوانين الجانبيين هما أيضاً الى قاعات مقببة، متصلة أو غير متصلة بقاعات أخرى أو بردهات، حيث يتم الوصول اليها عبر ممرات ضيقة، وتؤدى دور غرف للايواء أو للعمل : فالمداخل التى توجد فيها تصلح دليلاً على ذلك. ويتألف الجزء الداخلى من بهو ينفتح على الرواق. وسواء كانت متساوية أم غير متساوية، فإن قباب القاعة المركزية وقباب قاعة الصلاة، شأنها فى ذلك شأن الجدران التى تدعمها، تتميز دائماً بارتفاع أعلى بكثير من ارتفاع قباب الملاحق (والمقامة أيضاً، أحياناً، تحت أسقف ذات شكل مائل). وهكذا فإن المبنى يبدو من الخارج فى صورة تقسيم ثلاثى يمكنه اعطاء الانطباع بوجود جناح مركزى يحيط به رواقان جانبيان، وهو ما لا يتطابق بطبيعة الحال إطلاقاً مع الواقع الداخلى.

والمثال الأقدم والأبسط فى أن واحد لهذا الاتجاه المعمارى الجديد يقدمه مسجد أورخان فى بورصا (١٣٣٩)، إلا ان هناك أمثلة أخرى كثيرة أحدث له فى المدينة نفسها كمسجد يلديرىم بايزيد (١٣٩٥) والجامع الأخضر (يتشيل جامع ١٤٢٤) وجامع المراديه (١٤٢٦)، ومساجد فى أماكن أخرى، كما فى بلوفديف، فى بلغاريا (١٣٨٩)، حيث يتميز مسجد مراد الأول، الذى يكرر بشكل بالغ الدقة فى عام ١٣٩٨ فى بيرجاما، بانسجام «جناحه» ذى القباب الثلاث وملاحقه المعقوده الضيقة. اما الجامع الأخضر فإنه يقدم التعبير الأكثر كمالاً عن ذلك الاتجاه، وذلك بفضل زخرفته الزاهية. والحال ان الرواق الذى جرى التخطيط له هناك لم يبن قط، الأمر الذى يبرز لنا المعالجة الفخيمة لواجهته ذات النتوءات الكبيرة وذات الزخارف المنحوتة على المدخل الضخم ذى المقرنصات، والنوافذ والكوى. أما تربيعات قاشانى الحرم، وخاصة تربيعات قاشانى المحراب السامى، والذى يحمل توقيع فنان من تبريز، وتربيعات قاشانى الرواق السلطانى والأروقة الخارجية وعدد من

القاعات الجانبية فهي تلعب على جميع درجات اللون الأخضر واللون الأزرق الممزوجة بالأبيض، والأصفر، والأسود، مع لمسات ذهبية، في تكوينات كتابية أو نباتية حيث تظهر مواضيع زخرفية صينية الأصل.

مقدمة للعصر العظيم

الفن في ظل محمد (الثاني) الفاتح

بعد الاستيلاء على القسطنطينية، تصبح موارد الامبراطورية العثمانية ملحوظة وتصبح امكانياتها غير محدودة تقريباً. وتؤدي ضرورة اعادة الحياة الى بيزنطة وتأسيس عاصمة عظيمة للإسلام الى تشجيع نشاط معماري سوف يصبح كثيفاً في القرن السادس عشر على الأقل. وصحيح ان التراث السلجوقي سوف يبهت، لكنه سوف يواصل التعبير عن نفسه من خلال مدرسة بورصا، في حين ان المؤثرات الأكثر تبايناً سوف تتلاقى. وهي مؤثرات الامبراطورية المهزومة، وإن كان من المحتمل أيضاً ان تكون مؤثرات آسيا - من ايران الى الصين - ، بل ومؤثرات أوروبا التي تمارس فعلها من خلال الوسطة الايطالية. وهذه المؤثرات، المقبولة بشكل ناجز، سوف تسهم في تكوين مدرسة أصيلة ذات قوة نادرة وتملك امكانياتها بشكل تام. وتقدم دمشق وخاصة تبريز فنوناً وفنانين، حتى معركة تشالديران على الأقل؛ كما يتواجد الفنانون في المدن الأبعد، خاصة مدن النهضة التيمورية، سمرقند أو هراة ومن آسيا الوسطى، بشكل مؤكد تقريباً، يجيء عمل المصور العظيم محمد سياح كلیم، المحفوظ في «البومات (مرقعات) الفاتح»، والذي يشير الى أصل أويغوري^(٥) (وليس الى سمات شامانية كما لا يكف عن تكرار هذا الادعاء). وهو يدل على اهتمام العثمانيين بالشرق الأقصى، والذي لن يتوقف، كما تثبت ذلك أيضاً المجموعة السلطانية العظيمة من السيلاخونات والبورسلينات

الصينية. وفي الغرب، يشجع محمد الثانى التبادلات الثقافية مع ايطاليا. ويدعو المصورين ماتيو دى پاستى فى عام ١٤٦٥، وكوستينزو دى فيرار بين عامى ١٤٧٨ و ١٤٨١؛ ويقيم چنتيل بيللىنى فى عاصمته مدة تزيد عن سنة، من سبتمبر ١٤٧٩ إلى اواخر عام ١٤٨٠ ويرسم صورته المحفوظة فى القاعة القومية فى لندن. ويزور فنانون عثمانيون البندقية، كسنان بك النقاش الذى يرسم، بقوة مقنعة حقيقية، صورة الفاتح، المعروفة باسم «الفتح يشم الورد» (معرضة فى متحف طب قابى، المترجم).

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، إذا كانت بعض الآثار، كالتشينيلى كشك الذى سوف نرجع الى الحديث عنه، تؤكد أصولها الايرانية بنفس الشكل الذى تكشف به صورة «الفتح يشم الورد» عن مصادرها الايطالية، فإن صيغ مدرسة بورصا سوف تظل لها حيويتها لزمان طويل. والواقع ان المساجد ذات القبة الواحدة، التى لها صحن أو التى لا صحن لها، تعتبر آنذاك، بالتأكيد، الأكثر غزارة. فهى تكثر فى البلقان حتى منتصف القرن السادس عشر؛ فى سراييفو فى ١٥٠٧ و ١٥٢٦ و ١٥٦١ و ١٥٦٥، وفى تراقنيك فى ١٥٤٩، وفى فوتشافى ١٥٥٠، وفى موستارفى ١٥٥٧، وفى بيتولا فى ١٥٦٢. وهى ليست غير معروفة البتة فى الأناضول وفى القسطنطينية نفسها : مسجدا فيروز أغا، ١٤٩١، وداود باشا، ١٤٨٥، ناهيك عن المساجد السلطانية التى سوف نتحدث عنها فيما بعد. ولا تُنسى المساجد ذات القباب المتعددة.

لكن الآثار الأكثر أهمية هى بلاشك الآثار التى تحافظ على التخطيط الذى يأخذ الشكل المقلوب لحرف T، دون أن تتوصل الى تجديده. فهذا التخطيط هو التخطيط الذى سوف نصادفه، فى الأقاليم، فى مسجد أحمد باشا جيدىك فى أفيون (١٤٧٢)، وفى مسجد عيسى بك فى سكوبيا (١٤٧٥)، وفى العاصمة، فى

مسجد محمود باشا (١٤٦٢) وفي مسجد مراد باشا (١٤٦٥). وفي سكوبيا، نجد ان البنية، المبسطة، تختزل الى قاعتين تحت قببتين متطابقتين تحاذيان، على ما يزيد قليلاً عن نصف ارتفاعهما، ملحقين مقبيين وجد منخفضين. وفي مسجد محمود باشا، تنفصل القاعتان اللتان تعلوهما القباب عن أروقتها الجانبية (الواقع انها ثلاث قاعات تحت قباب صغيرة) بجدار سميك وبمجاز؛ ونجد ان رواقاً ذا خمس قباب، جد قريب من المجاز الخارجى، يسبق بهواً داخلياً، يشكل مجازاً حقيقياً. وغالباً ما تتألف المداميك من أحجار وقوالب آجر متناوية التركيب، إلا اننا لا نجد شيئاً جديداً هناك.

أما العمل الرئيسى الذى كان يمكن له أن يسمح لنا بإصدار حكم منصف على الفن فى ظل الفاتح، وهو الجامع الكبير الذى أمر بتشبيده بعد وقت قصير من فتح القسطنطينية، فقد دمره زلزال لم يبق إلا على صحنه وملحقاته، ثم أعيد تشييده وفق تخطيط جديد فى عام ١٧٧١. وكانت قبته التى تتوج حرمه ذات قطر لا سابق له قط عند العثمانيين - ٢٥ متراً - ؛ وكان كل ملحق من ملحقيه متوجاً بقبتين. ولم يكن هذا الترتيب مختلفاً عن ترتيب ادرنه، إلا من حيث استناد القبة المركزية على أربعة اقواس وليس على ستة، ومن حيث امتداد قاعة الصلاة، كما فى بورصا، من حيث العمق، بقاعة أخرى محاطة أيضاً بأروقة جانبية وتلوز بقبة نصفية. وهذه القاعة، جد المحيرة أيضاً، يمكن أن تكون استلهاماً لايوان ايا صوفيا، إلا انها قد استخدمت على اية حال بالفعل كمصلى صغير فى تيرفى بداية القرن الرابع عشر: الأمر الذى لا يثبت شيئاً بشكل محدد.

وحول مكان العبادة، تمتد، بحرص بالغ الجدة على الوضوح والنظام، بما يتعارض بشكل حيوى مع تبعثر آثار بورصا، الكلية الضخمة، سلسلة القاعات والرواقات المنفتحة على الأحواش والمغطاة بنحو خمسمائة قبة صغيرة. وهكذا

يتشكل، لاشك للمرة الأولى بهذه الدرجة من الكمال على الأقل، كل أثرى يجمع كافة الخدمات الدينية والاجتماعية والثقافية ويدرج المسجد فى نسق معمارى حقيقى من الآثار الواطنة التى تبرز قيمته.

مساجد بايزيد الأول

إن العمل العظيم الأول لبازيد الأول هو كلية أماسيا، التى لم يبق منها غير المسجد والمدرسة، والتى كان ابن السلطان قد استكملها فى عام ١٤٨٦. ويخضع تخطيط المسجد أيضاً للتخطيط الذى يأخذ الشكل المقلوب لحرف T مع قبة تستند الى دعائم ثقيلة، وأروقة جانبية مغطاة بثلاث قباب صغيرة ورواق مغطى بخمس قباب، ولكن فى منظور جديد : ايجاد اتصال أوسع بين ما كان فى الأصل قاعات منفصلة وذلك سعياً الى توحيد المجال الداخلى من أجل حاجات الصلاة. ويختلف عن ذلك اختلافاً بالغاً النهج الذى اعتمده المهندس المعمارى خير الدين بين عامى ١٤٨٤ و ١٤٨٨ فى كلية ادرنة، والتى تجمع حول المسجد الكبير مدرسة ومستودعات ومطابخ ومخبزاً وقاعة لتناول الطعام ومستشفى ومصحة عقلية - نفسية. وهنا نجد أن المبانى الملحقة، التى لها مائة قبة، تشكل كلاً رائعاً. والواقع ان المستشفى، البسيط، بل والصارم، والمزخرف بسلسلة من المقرنصات البالغة الجمال، والمصحة، التى يرتبط بها عن طريق فناء، انما يشكلان أكثر أجزائها توفيقاً. ويستشرف تخطيطها المسدس مدرسة أماسيا (١٤٨٨) ومدرسة رستم باشا فى اسطنبول (١٥٥٠). ويعتبر المسجد مكعباً هائلاً من الحجر يطفى على قبة عرضها ٢١ متراً وارتفاعها ١٩ متراً، وهو تخطيط غير حاذق، لكنه ينعكس فى النهر، حيث تندرج من جهة الحائط القبلى مدرستان جد واطنيتين، بما يتمشى فى أن واحد مع التخطيط ذى الايوانات الأربعة وتخطيط المساجد المتعددة القباب.

تأثير ايا صوفيا

من المستحيل انكار ان كنيسة ايا صوفيا الضخمة والشهيرة قد مارست تأثيراً، حتى وإن كان هذا التأثير قد جاء متأخراً نسبياً؛ وسوف يدرسها سنان العظيم نفسه دراسة تتميز بالعناية. والحال ان هذه الكنيسة التي تعد رمزاً، في نظر الأتراك، للمسيحية وللإمبراطورية البيزنطية، والتي لا يعرف لها مثيل من حيث الاتساع والجمال، والتي تقدم معالجة جد جسورة وجد حاذقة للقبة التي انكب العثمانيون على دراستها منذ أكثر من قرن، والواقعة في قلب عاصمتهم الجديدة نفسه، والتي لا تبعد أحياناً إلا مسافة عدة مئات من الأمتار عن المساجد التي سوف يشيدونها، لم يكن بالإمكان أن تدعهم غير مباليين، وكان بناء أثر مساو لها أو حتى التفوق عليها هدفاً معلناً أو غير معلن. والواقع ان تربيتهم وايدولوجيتهم وميولهم قد جعلتهم مستعدين لذلك. وكانوا قد ورثوا من أقدم تقاليدهم التركية الفكرة التي تذهب الى ان الشكل الأمثل هو الدائرة المرسومة في المربع، القبة التي تعلو مكعباً، وان الكون قد بنى بهذا الشكل، وأن الزمن عبارة عن *imago mundi*، عن عالم صغير. وكانت لديهم، مثلما كانت لدى البيزنطيين، الرغبة في بناء أماكن عبادة تشهد على مجد الرب وعظمة الأمير، «ظله على الأرض»، مثلما كان الملك البيزنطي ممثله. وقد سعوا إلى بناء مساجد مناسبة لاجتماع الجماعة، وموحدة من الناحية الداخلية ومتحررة من كل دعامة.

على ان المسجد الكبير للعصر الكلاسيكي ليس مع ذلك نسخة مكررة من الكنيسة البيزنطية. فالاختلافات أعظم من التماثلات. فكنيسة أيا صوفيا، التي افتتحت في ٢٧ ديسمبر ٥٣٧، تظهر في التاريخ بوصفها أثراً فريداً، يبدو أنه خلق من العدم تقريباً ولن يكون له مثيل تال في المسيحية الشرقية. والواقع انه لن يستعاد الحل الذي اعتمده المهندسان المعماريان اللذان قاما بتشبيدها، أنتيميوس التراقيسي وايزيدور الميليتي، والذي يتمثل في إسناد قبتها الضخمة، التي يبلغ

قطرها ٣١ متراً وترتفع عن الأرض بـ ٥٤ متراً^(٦)، من الشرق ومن الغرب، بنصف قبتين، ومن الشمال ومن الجنوب، بقوسين مقوسين ممدودين على منصتين ضخمتين وتطوقان لوحة جبهة تخترقها نوافذ. ولم تكن أمنية جوستينيان، من جهة أخرى، هي ايجاد نموذج يحتذى، بل انشاء أثر لم يعرف العالم له مثيلاً قط منذ آدم ولن يرى له مثيلاً أبداً. وقد أنجزه وهلك فيه. وبعده، سوف تجرى العودة الى التخطيط البازيليكي ذى القبة، أو سوف يجرى اعتماد التخطيط ذى الصليب اليونانى والذى تستند فيه القبة - والتي لن يتجاوز قطرها بعد أبداً عشرة أمتار - من الجهات الأربعة بعقود نصف اسطوانية ذات محاور رأسية، وهو تخطيط ليس بعيداً عن التذكير بتخطيط المسجد ذى الايوانات الأربعة.

وليس فى العمارة العثمانية مسجد يتفوق على جميع المساجد الأخرى كما تتفوق ايا صوفيا توفيقاً بالغاً على جميع الكنائس البيزنطية. فهناك، على العكس، ابداع نموذج أثرى يمكن استنساخه مرات كثيرة، بكل التنويعات الممكنة، والذى يجرى استنساخه ما ان تتوافر لدى الدولة الامكانات المالية لذلك وكلما توافرت لديها.

ويتميز هذا النموذج على نحو خاص باستخدام قبة كبيرة وبتوحيد الحجم، ويتطابق الأجهزة الداخلية والخارجية، وبوقع الرشاقة والتدرج الهرمى. وتشبه القبة العثمانية القبة البيزنطية من حيث الخط، لكنها تشبها بشكل خاص من حيث تقنياتها المعمارية. إلا انه تجب الإشارة الى ان العثمانيين كانوا قد توصلوا تدريجياً الى بناء قباب عظيمة فى عصر لم يكن بوسع بيزنطة، أو لم تكن تريد بعد، بناءها : ولنتذكر ان قبة الأوتش شرفلى جامع لها قطر يزيد عن ٢٤ متراً، أى بما يقل عن قطر قبة ايا صوفيا بسبعة أمتار - وهى مسافة سوف تتطلب المزيد من الجهود لاجتيازها. لكن صورة المسجد الكبير الخارجية جد مختلفة عن الصورة

الخارجية للكنيسة. فاللمح الخارجى لأيا صوفيا كئيب نسبيا ولا يعلن البتة عن ترتيبها الداخلى : وبالرغم من المآذن التى أضافها الاسلام وحتى نون الدعامات التى حتمها ترسيخها، فإنها تعتبر ضخمة؛ ولمحها الهرمى، الطفيف الوضوح، لا يظهر إلا عبر نظرة جانبية.

والواقع ان المهندسين المعماريين فى القرن السادس عشر، إذ يجربون جاذبية ايا صوفيا ويتعرضون لتأثيرها، لن يصبحوا مع ذلك ناسخين مقلدين. فهم سوف يؤولون التقاليد التى ترجع الى زمن السلاجقة ويظلون مخلصين لها، مثلما يحدث، كما ذكرنا بالفعل، بالنسبة لتخطيط الأقواس والعقود، وزخرفة المقرنصات، والتكوينات الهندسية والنباتية، وترتيب البوابات المهيبة التى تذكر، بالرغم من فقر زخرفتها المنحوتة، بأروقة خانات المسافرين الكبرى فى القرن الثالث عشر. وهم لن يستخدموا أبداً الفسيفساء الزجاجية، فقد كان من عادتهم تكسية الجدران بتربيعات القاشانى. ثم كيف يمكن لعمال أتراك، مرتبطين بتكوين حرفى يرثه الأبناء عن الآباء ومنظمين فى طوائف حرفية جد قوية، أن يصبحوا بيزنطيين النزعة؟ إن الافتراض الذى يتحدث عن تدخل يد عاملة غير تركية، على الرغم من كونه مغرياً، لا يصمد للبراهين التى تثبت ان المساعدين وحدهم هم الذين كانوا من أصل مسيحي: وبطاقات دفع أجور العمال فى ساحة بناء مسجد السليمانية تعتبر حاسمة فى هذا الصدد.

مسجد بايزيد الثانى وسليم الأول فى اسطنبول

يعتبر مسجد بايزيد الثانى فى اسطنبول، والذى انجز فى عام ١٥٠٥، أول أثر يمكن رصد تأثير ايا صوفيا فيه بوضوح، وهذا المسجد هو المسجد الذى ساعد على تدعيم الفكرة التى تتحدث عن انتقال من جانب العثمانيين للكنيسة الجوستينيانية. وصحيح أن قبته، على الرغم من انها أصغر من قبة الكنيسة بكثير

(فقطرها يساوى ١٨ متراً)، تجد إطالة لها هى أيضاً فى الشمال وفى الجنوب من خلال نصف قبتين؛ وأن ترتيب المجال يتحقق بروح جديدة فى الفن التركى ومنبتقة، جزئياً على الأقل، عن بيزنطة. لكن المقارنة تتوقف هنا. فالمكعب المركزى الذى يدعم القبة والدعامات القوية - الأقل توفيقاً من دعامات ايا صوفيا - التى تكفل رسوخها واندماجها فى الكل، ماتزال قريبة من مكعب ودعامات مسجد الباييزيدية فى ادرنة. وتبدو القبة وكأنها منفصلة تماماً عن جسم المبنى، بما يعطى من شأن الزخم الرأسى على حساب وحدة المشهد الخارجى؛ أما القباب النصفية، المنخفضة علاوة على ذلك، فإنها غير مرتبطة بها، بل تستند الى المبنى. كما ان الأروقة الجانبية، ذات الارتفاع البسيط، تتألف من جناحين يدعم كل منهما أربع قباب. ويوجد صحن نو أروقة، له عين ابعاد الحرم، ويمهد له، لكنه يبدو منفصلاً عنه بجناحين - هما أيضاً تحت قباب - يشكلان امتداداً لقاعة الصلاة من جهة الشرق ومن جهة الغرب وتستند الى ظهريهما، فى طرفيهما البعيدين، مئذنتان سيميتريتان يقسمان التكوين. وهذان الجناحان، جد المدهشين، يذكران بمدرستى الباييزيدية فى ادرنة المرتبتين عند الحائط القبلى. وقد بذل جهد، غير حازق، وملحوظ وخاصة فى بروجات الزوايا، لتدرج الأحجام. وأولى اهتمام كبير للزخرفة. وتخترق جدار الصحن درجتان من النوافذ وثلاث بوابات ذات كوى جانبية قريبة أيضاً من الأسلوب السلجوقى. وفى الداخل، تؤدى أعمدة الاستخدام الجديد ذات الرخام الصناعى الأخضر أو ذات الرخام الطبيعى الأحمر أو الجرانيتية الى إثراء تعدد ألوان الرخام وصنجات العقود، المتناوبة بين الأحمر والأبيض أو الأسود والأبيض، والتي كانت قد استخدمت بالفعل فى مسجد الفاتح.

وبالرغم من خصائصه التى لا جدال فيها ومن ابتكاراته العديدة، فإن مسجد بايزيد، وهو عمل انتقالى، يجب اعتباره عملاً فاشلاً، نسبياً على الأقل، لأن مسجد سليم الأول الكبير، الذى أنجزه فى عام ١٥٢٢ ابنه سليمان القانونى، يرجع الى التخطيط ذى القبة الواحدة لمسجد بايزيدية ادرنة. ولما كان المهندس المعماري

منشغلاً بالتغطية وحدها، فإنه يتوصل الى التوفيق بانسجام بين القبة الكبيرة التى يساوى قطرها ٢٤ متراً وجدران القاعة و ، بذلك نفسه، بين الحرم والصحن، إلا انه لكى يفعل ذلك، كان عليه التضحية بارتفاع المبنى، وإن كان يبدو أنه قد سعى الى التعويض عن ذلك بمآذن تعتبر ذات ارتفاع مبالغ فيه. وكان ذلك أيضاً عملاً شبه فاشل وقد بدا ان العمارة فى مأزق: وكان لابد من ظهور مهندس معمارى عبقرى لخراجها من هذا المأزق.

سنان

سوف يجد العثمانيون هذا المهندس المعمارى فى شخص سنان المعمار الذى سوف يستخلص النتائج النهائية للبحوث التى اضطلعت بها أجيال من الفنانين وسوف يؤسس الفن الكلاسيكى. وقد ولد سنان فى عام ١٤٨٩ قرب قيصرية، فى اسرة مسيحية بالتأكيد. أما انه لم يكن تركى الأصل، فإن ذلك لا يقلل أبداً من واقع انه كان يعبر عن العبقرية التركية وأنه كان، بالمعنى الكامل للمصطلح، عثمانياً. ويقال انه قد تم تجنيده فى صفوف الديشدرمه، فى عام ١٥١٢، وأنه، بوصفه جندياً، قد شارك فى حملة بلجراد فى عام ١٥٢١، ثم خدم فى أقاليم أخرى فى الامبراطورية، خاصة فى الشرق الأدنى العربى. وفى عام ١٥٣٨، أتاحت له الفرصة لتشييد جسر على نهر البروت، ثم لتشييد جسر على نهر الدانوب، وقد شاهد السلطان أعماله. ومنذ ذلك الحين، انكب على العمارة، حيث بنى على حد سواء المساجد والأضرحة، والحمامات والمطابخ، وكان مجموع ما شيده نحو ٣٦٠ أثراً. ووفقاً لكلامه هو نفسه، فإن ثلاثة أعمال تميز مراحل عمله: مسجدا شاه زاده والسليمانية فى اسطنبول ومسجد السليمية فى ادرنه - عمله الرئيسى وأحد الانجازات الممتازة للعمارة العالمية. وكان عمره أكثر من ثمانين سنة عندما أنجزه.

وعلى الرغم من ان عبقرية سنان كانت عبقرية مبدعة من حيث الجوهر، فإنه لم يسع الى الأصالة بأى ثمن ولم يخش من استلهاام التراث ومن تطبيق الصيغ التي أثبتت جدارتها، كما نرى فى مسجد جوزليقن فى القرم (١٥٥٢)، حيث يستعيد، على نطاق أصغر، تخطيط مسجد الفاتح. على انه يجدد الفن تجديداً عميقاً، ويدشن الكلاسيكية العثمانية ويعطى للعمارة دفعة قوية تسمح لها بالبقاء بعد موته وذلك بالرغم من الانحطاط الذى يشهد فى جميع المجالات. لكن درسه سوف يكون بالغ القوة بحيث ان الأعمال، التى أصبحت عاجزة عن التحرر منه، سوف تنتهى بفقدان كل قوة ابداعية.

مسجد شاه زاده

فى مسجده العظيم الأول، المبنى فى عام ١٥٤٨، نجد ان سناناً، مستفيداً من دروس الماضى، بما فى ذلك درس ايا صوفيا، يخلق فى أن واحد العمارة الكلاسيكية وأثراً يكاد يكون غاية فى الكمال. ولن يتبقى بعد سوى استغلاله وتحسينه والاستناد اليه لاتخاذ خطوات أخرى وتطبيق حلوله فى آثار أكثر ضخامة. والواقع ان مسجد شاه زاده يعتبر متوازناً نسبياً، حيث لا يزيد قطر قبته عن ١٩ متراً، بما يشكل تراجعاً عن قطر قبة مسجد سليم الأول؛ ويقال ان المسألة كانت مسألة تجريب^(٧). وفى اعتماده لنهج التغطية بقبة مستندة على نصفى قبتين، يتجه سنان الى دفعه الى نتيجته المنطقية النهائية باستخدام، ليس كوتين كرويتين، بل أربع، على شكل صليب، ويرجع من ثم الى التخطيط المستند الى محور مركزى. وتستند هذه المنظومة كلها على أربع دعائم مثمثة الأضلاع عند قاعدتها، واسطوانية ومضلعة فى جزأها الأعلى وعلى أربعة اقواس كبيرة تنظم مجالاً داخلياً يتميز بمتفصلات راسخة ومحددة. أما الأحجام الخارجية، المرتبطة بشكل يثير الاعجاب، فهى تؤلف كلاً متماسكاً. وعلى الرغم من ان الأثر

يعتبر مكعباً بشكل صارم حيث يبلغ طول الضلع ٣٨ متراً في مقابل ارتفاع مماثل عن الأرض، فإنه يعطى وقع شكل هرمى، وذلك جزئياً بسبب القباب الوسطى، خاصة قباب الأبراج الاسطوانية للزوايا والتي تتمثل وظيفتها فى موازنة سطوة الأقواس. وتؤدى الرشاقة التى لا نظير لها حتى الآن للمبنيين المزودتين بشرفتين، والنوافذ العديدة والأروقة الجانبية الطويلة التى تشكل زخرفة زاهية، الى الحيلولة دون أن يصبح هذا الأثر المعمارى الصلب ثقيل الوقع.

وبالرغم من نجاحه، فإن سناناً يتخلى عن التخطيط المتمحور على مركز وذى انصاف القباب الأربعة. ونحن لا نعرف السبب فى ذلك بالضبط، وإن كان لاشك فى ان ذلك يرجع الى انه قد رأى ان القبة المركزية المدعومة من أركانها الأربعة تفقد بروزها وتخلع انطباعاً بالانخفاض على أثر يريد له أن يبدو مرتفعاً. وكان ذلك عيباً كان بالامكان تصحيحه. وسوف يجرى تصحيحه، ولكن ليس من جانبه، عندما تجرى استعادة تخطيط مسجد شاه زاده، فى الينى جامع، الجامع الجديد، والجامع الأزرق، إن لم يكن عند تشييد مسجد الفاتح (الفاتح الثانى)، الذى يعتبر اجمالاً قليل التوفيق.

مسجد السلیمانیة

بالنسبة لأجمل مساجد اسطنبول، مسجد السلیمانیة، الذى يبنيه بين عامى ١٥٥٠ و ١٥٥٧، يبدو ان سناناً يريد العودة الى حلول البایزیدية - ولنقل، إن شئتم، حلول اياصوفيا - باسناده قبة قطرها ٢٦,٥٠ متراً وارتفاعها عن الأرض ٥٣ متراً على نصفى قبتين، وهو ينجح هنا فى ما لم يتم احراز نجاح فيه قبل ذلك. وبدلاً من أن يقدم كلاً كثيباً ودون وحدة حقيقية، فإن مسجد السلیمانیة يبدو مفعماً بالوضوح وببساطة تحجب علماً عميقاً. وتتطابق ترتيباته الداخلية تطابقاً وثيقاً مع

تراكيب الجهاز الداخلى، الأكبر بكثير مما فى ايا صوفيا. والواقع ان القاعة المركزية، الفسيحة بشكل جيد، ترتبط بالملاحق بثلاثة اقواس، يدعمها عمودان من الرخام السماقى، لهما حنيات من الرخام الأبيض والأسود. ويمكن الوصول الى هناك عبر اربعة ابواب، تقع على أطراف الواجهات الجانبية، وعبر باب رئيسى، فى المحور، يتصل بالصحن. ويحصل هذا الأخير فى زواياه الأربعة على أربع مآذن مضلعة، لاثنتين منهما ثلاث شرفات، جد فارعة، وللاثنتين الأخرين شرفتان، أقل ارتفاعاً. أما الدعامات، التى تحيد ضغوط العقود، فهى مندرجة، من الداخل، فى الرواقات، و ، من الخارج، فى مدرجى الأبهاء التى ينشر تنظيمها، المفعم بالقوة وبالتنوع، الأحساس بالسكينة وبالصفاء.

ويندرج مسجد السليمانية فى أرض شاسعة مسورة (زيادة) تخترق أسوارها النوافذ، وفق ترتيب معروف منذ العباسيين (القرن التاسع) على الأقل وهو محاط بكلية رائعة ذات خطوط طويلة منخفضة تحفها قباب صغيرة ومداخل مرتفعة، ومبان تنفتح عبر أروقة على حدائق داخلية تذكر بالأديرة. وهذا التكوين البسيط والمخطط بشكل جيد، والذي يتميز بجمال ناجز، لا ينبىء بجديد بعد ذلك وسوف يستمر من ثم فى التمتع بالاستحسان لزمان طويل. وسوف يولد شيئاً من الرتبة لولا التنويعات المرفهة على التفاصيل والتى سوف يجرى ادخالها عليه، وإن كان الأمر يحتاج الى قدر من الانتباه لرصده، وهو ما يستجيب كثيراً لمفهوم جد اسلامى عن الفن. وتقدم تكية المولوية أو دراويش قونية الدوارين مثلاً جميلاً لذلك حول قاعة اجتماع الزهاد والبرج السلجوقى المرتفع المزخرف بالقاشانى لضريح مؤسس الطريقة، جلال الدين الرومى.

وخلف مسجد السليمانية، نجد أن مكاناً مسوراً آخر، مستنداً الى حائط مكان العبادة الذى لا تحدد انتظامه هنا سوى دعامات المبنى غير الموارية، يخصص للجبانة التى نصادفها فى كل مكان تقريباً، ومنذ زمن بعيد، على مقربة من

المساجد، وبين المقابر ذات الشواهد، ينتصب الضريحان اللذان بناهما سنان
لسليمان القانوني ولزوجته روكسلان.

مسجد السليمية في ادرنه

في مسجد السليمانية، تم تحقيق نقاء المشهد الخارجى والتطابق الحميم بين
الخارج والداخل على حساب المجال الداخلى الى حد ما. وفي أواخر حياته، سوف
يخفف سنان هذه العيوب في أثر رائع، هو مسجد السليمية في ادرنه (١٥٦٩ -
١٥٧٤).

وخلافاً لما جرت عليه العادة، فإن مسجد السليمية غير مصحوب بكلية.
فاللحقان الوحيدان له كانا، في الأصل، مدرستين صغيرتين تقعان خلف قاعة
الصلاة (كما هو الحال في البايزيدية في المدينة نفسها). وبعد سنوات قليلة من
انجازه، نحو عام ١٥٨٠، سوف يتعين انشاء بازار لتمويل المبرة. وسوف ينفذ ذلك
داود أغا، تلميذ سنان، بشكل رائع، نون الاساعة بأى شكل الى التكوين العام.

والواقع ان المسجد المنعزل بهذا الشكل، والذي ينهض على رابية صغيرة،
والمتوازن بشكل ناجز، والذي يتميز بخطوط تقود النظر صوب رأسه، إنما يحقق
كما لا يفعل ذلك أى مسجد آخر صورة الجبل الكونى ويتجاوب مع المثل الأعلى
لمهندسى القباب الذين يريدون إعطاء الانطباع بأنها تحلق في السماء. ثم ان
المناورات الأربع، الضخمة نون أن يبدو انها كذلك، والتي تتميز برشاقة مدهشة،
والمقامة على الزوايا الأربع للمبنى وليس على الصحن، تلعب دور الدعامات وتوحى
بأعمدة الكون الأربعة الموجودة في التمثيلات الرمزية. أما الصحن، حيث جرى
إعداد قباب الأروقة إعداداً خاصاً، فهو في آن واحد مرتبط على نحو جيد بالحرم
ومتميز بما يكفى عنه حتى لا يغير مشهده الخارجى.

وهذا العمل الذى لا نظير له، وهو ثمرة حياة ذات جهود متقدة، لم يجر الاضطلاع به دون دراسات تمهيدية. والواقع ان سناناً كان قد درس التخطيط الذى ارتأى اعتماده فى حرمين فى اسطنبول، اصبحا شهيرين بزخرفتهما، وهما المسجدان الصغيران الذى يحمل أولهما اسم رستم باشا (١٥٦٠) والذى يحمل ثانيهما اسم محمد باشا سوكولو (١٥٧١)، واللذان يعتبر جد منسجم معهما؛ وسوف يستعاد، منذ عام ١٥٧٥، بالنسبة لمسجد عزب قابى فى اسطنبول.

وعلى بعد مسافة قصيرة من قرن الذهب، فى حى التجار والبحارة، جرى تشييد مسجد رستم باشا الجميل على طبقة أرضية جد مرتفعة (٦ أمتار)، كانت مخصصة لاستقبال السلع. وهذا المسجد، الذى يمهّد له رصيف صغير جد بسيط ورواق، والمكسو بأحد أجمل تكسيات القاشانى فى القرن السادس عشر، إنما يظهر بوصفه جزيرة صغيرة من الهدوء فوق صخب المدينة. ثم إن تآلق الألوان والوحدة فى تنوع المواضع الزخرفية المختارة يضيفان عليه حميمية قصوى ويسهمان فى المزاوجة، فى انسجام تام، بين الاحجام والخطوط المعمارية التى لم يجر من قبل قط الموائمة بينها بهذه الدرجة من الروعة.

والواقع ان التخطيط جد البسيط وجد العقلانى الى هذا الحد لمسجد رستم باشا هو نفس التخطيط الذى استعاده سنان فى السليمية باتساع مختلف تماماً وبرغبة فى التفوق أخيراً على اياصوفيا : فالقطر الذى يبلغ ٣١.٢٨ متراً والذى سوف يعطيه لقبته، والأكثر الى حد ما من قطر القبة الجوستينيانية الذى يبلغ ٣١ متراً (والمعدل من جهة أخرى) ، يثبت ذلك. وهذه القبة الضخمة لا تستند بعد على أنصاف قباب، بل على ثمانية أعمدة مستطيلة ويتم استيعاب ارتفاعها فى أن واحد بسلسلة من الأقواس وعقود الزوايا المتناوبة وبدعامات رشيقة تضبط ايقاع التكوين. وتبرز جبهاتها المتوجة على شكل هرمى فوق رقبة القبة وتعيد ادخال الخطوط الرأسية التى كان هناك اتجاه شديد الى التخلّى عنها. ولابراز القبلة على

نحو أفضل فى أثر متمحور على مركز، يجرى وضع المهراب فى صدر صغير، وهو حل نادراً ما اعتمده الاسلام (وان كان قد لوحظ بالفعل فى بورصا) غير انه جد موفق : فهو وحده الذى يمكنه أن يمنع مكان العبادة الاسلامى عمقاً لا وجود له فيه باتباع أى حل آخر.

تراث سنان

قلما كان بالامكان قطع شوط أبعد من الشوط الذى قطعه سنان، لكنه ترك لخلفائه أعداداً كبيراً جداً من النماذج المعمارية التى يمكنهم العمل بالاستناد اليها. وسوف يفعلون ذلك غالباً بنجاح، دون أن يحاولوا شق طرق جديدة.

إن البنية المتعددة الزوايا التى تفرضها الأعمدة الثمانية فى السليمية، ولكن الملحوظة بالفعل قبل ذلك، سوف تستعاد غالباً، إما على نحو ما هى عليه، أى على شكل مثنى زوايا، أو بالرجوع الى المسدس، وإن كان دائماً بأربعة أجزاء - على أربع زوايا - لا يسعنا الجزم بتسميتها بعقود زوايا أو بأنصاف قباب، كما هو الحال فى الإسكى والده جامع الذى يرجع الى عام ١٥٨٣، وفى الينى والده جامع فى أوسكودار الذى يرجع الى عام ١٧١٠، وفى مسجد أيوب الذى يرجع الى عام ١٨٠٠، وهو مسجد عتيق أعيد تشييده قرب قبر أحد صحابة النبى، وهو (ابو) أيوب (الأنصارى)، الذى قتل فى الزمن الغابر عند أسوار القسطنطينية. وفى هذين المبنيين الأخيرين، فإن التأثير الأوروبى، على الزخرفة على الأقل، فى عصر يهيمن فيه بلا منازع، لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً. وفى المساجد الصغيرة العديدة، التى تستلهم أيضاً نموذج مسجد السليمية، نجد ان أنصاف القباب والأقواس يتم استخدامها بحرية على نحو تناوبى فى تكوينات حاذقة ومفعمة بالحياة، تولد احجاماً متباينة وترتيبات غير متوقعة غالباً للمجال.

لقد قلنا ان تخطيط مسجد شاه زاده قد اتبع فى عدة مساجد كبرى، فى مسجد السلطان أحمد وفى الينى جامع وفى مسجد الفاتح الثانى. والواقع انه قد اتبع وبشكل حاذق. ولاشك ان المسجد الأزرق أو مسجد السلطان أحمد هو أشهر مبنى اسلامى فى اسطنبول و ، اذا لم يكن الأجمل، فإنه الأكثر بهاءً على الأقل. كما انه المبنى الأوسع: فهذا المسجد الذى يقع على ساحة الخيل البيزنطية، والذى يطل على بحر مرمرة، يبلغ عرضه ٦٤ متراً ويبلغ طوله ٧٢ متراً، دون حساب الصحن الذى يضاعف مساحته، ويعلو عن الأرض بمسافة ٤٣ متراً. وقد بناه مهندسو المعماري، محمد أغا، بين عامى ١٦٠٩ و ١٦١٧، باستخدام أقواس عظيمة لاسناد قبته على أربعة أعمدة ضخمة وهى قبة يزيد قطرها عن ٢٣ متراً بقليل تدعمها أربعة أنصاف قباب، تسندها هى نفسها ثلاثة عقود زوايا ذات أبعاد أقل، وبزيادة عدد الأحجام المعقوفة. وقد أنجز بذلك خطوة أخرى فى الترتيب التدريجى والوقع الهرمى. والواقع ان المنارات الست - والتى تشكل تجديداً شبه مطلق فى الفن الاسلامى لم يستخدم يمثل هذا العدد الكبير إلا فى مكة - ، والنوافذ التى تأخذ شكل عقد كامل والموزعة على خمس درجات من الارتفاع، والبريجات ذات القباب إنما تكثف زخمه. أما الداخل، المغمور بالنور، فهو مزخرف فى الجزء العلوى بالرسوم (التي جرى ترميمها مؤخراً) وبنحو ٢١٠٠٠ تربيعة خزفية مزخرفة بالزهور الزرقاء والخضراء والحمراء والسوداء وبياقات مضمومة من الورد.

أما الينى جامع (الجامع الجديد) الذى يكاد يشمل قرن الذهب، والذى جرى تشييده بين عامى ١٥٩٧ و ١٦٦٣، فهو لا يبدى قدراً كبيراً من الروح الابداعية، لكنه يحتفظ بمظهر مهيب على الرغم من أبعاده الصغيرة. وقد كان محاطاً بكلية، أكثر ارتفاعاً من الكليات الأخرى، لا يبقى منها غير البازار المصرى (مصر تشارشى)، وهو بناية مقبية جميلة، ذات طابقين وممرين لهما خطوط عمودية،

والجناح السلطاني المرتبط بالمسجد عن طريق رواق، وهو عمل أصيل وجميل يزين كلاً رائعاً مكسواً بالخزف.

إلا أنه ربما كان المخطط القديم للمسجد ذي القبة الواحدة، وهو المخطط الذي يتمتع بالحظوة دائماً وأبداً، هو الذي يوظف على أحسن نحو المهارة التي اكتسبها المعماريون العثمانيون في فن القبة. والثورة التي حولت هذا المخطط في القرن السادس عشر هي أيضاً من عمل سنان. فالواقع أن سناناً، ادراكاً منه لتعذر ربط الحجم نصف الكروي للقبة بالحجم المستطيل للقاعة، قد تخلى بشكل خالص وبسيط عن هذا الأخير وارتأى اسناد شكله شبه الكروي على أربعة أقواس عظيمة تستند على أعمدة زوايا المبنى وحدها. وهكذا تصبح الجدران أشبه ما تكون بستائر تخترقها نوافذ لا حصر لها وليست لها بعد أية وظيفة حاملة. ومنذ مسجد محرمه سلطانه، في حي ادرنه قابي في القسطنطينية، في عام ١٥٥٧، أتقن بشكل كامل مشروعه: فالملاحق الوقورة الى أقصى حد ممكن والمفتوحة بشكل واسع على الجناح المركزي تشكل معه مجالاً داخلياً واسعاً و ، من الخارج، تبرز الأقواس. وسوف تبقى مساجد جد عديدة على هذه الصيغة، وذلك غالباً باحتواء أجهزة طفيلية كالواجهات، وذلك حتى العصر الحديث، كما هو الحال في نصرتية طب خانه (١٨٢٦)، احد أفضل أمثلة الأسلوب الامبراطوري، ومسجد دولاباختشي المعروف جيداً والذي أنشئ في عام ١٨٥٤.

وبين عامي ١٧٤٨ و ١٧٥٦، سوف يبني آخر عمل عظيم من أعمال العمارة الدينية العثمانية تحت قبة واحدة، وهو مسجد نور - اي عثمانية. ففي هذا المنتصف للقرن الثامن عشر، يصبح التأثير الأوروبي ملحوظاً، إلا انه يبدو انه قابل للاحتواء ولا يبدو من غير المعقول توقع تجديد، جد ضروري، للفن العثماني. وتبدو الزخرفة باروكية بشكل سافر، لكنه باروك صار اسلامياً. ويملك المعماريون دائماً

معارف تقنية فعلية - كما يثبت ذلك اتساع القبة، التي تغطي دائرة قطرها ٢٥,٧٠ متراً، وتبديد ضغط الأقواس بدعامات على الزوايا وبجناحين مستطيلين فى الركنين الجنوبي - الشرقى والجنوبى - الغربى، وهم يتميزون بروح ابداعية عند بحثهم عن صيغ جديدة - الصحن الذى يأخذ شكل نصف دائرة غير منتظمة، ضيقة الى حد ما، لكنها ذات طابع شاعرى قوى - أو مجددة - الصدر الذى يحتوى المحراب، والذى كان قد اختفى منذ السليمية. كما ان بوسع الخصائص الايجابية أن تدفعنا الى نسيان العيوب الطفيفة : رداة دمج الصحن بالكل، أو أيضاً التصور جد الهزيل عن الأعمدة المقامة على الأروقة الخارجية من الجهة الشرقية أو من الجهة الغربية.

أما المثال الأقل توفيقاً، ولكن المهم مع ذلك، فهو مثال مسجد لاله لى فى اسطنبول الذى شيده المهندس المعمارى طاهر أغا (١٧٥٩ - ١٧٦٣)، والذى دمره زلزال وأعيد تشييده فى عام ١٧٨٣، حيث تستند القبة على أعمدة موزعة على شكل مثمّنات كما فى مسجد السليميه، دون أن يجيد تماماً تبنى الباروك كما ان مسجد الفاتح الجديد (الفاتح الثانى) الذى شيده المهندس المعمارى نفسه، والذى يتميز بثقل بالغ ولا يتمتع بزخم رأسى أو هرمى، قد أساء تبنى الروكوكو.

الأشكال الأخرى للفن

البيت العثمانى

لا يبقى اليوم الكثير من التكوينات الحضرية السليمة القادرة على اعطاء فكرة عن المدينة العثمانية القديمة. والمساجد الكبرى نفسها تفقد جانباً من رونقها عندما تطفئ عليها العمارات الحديثة. أما فى الماضى، وحتى عهد قريب، فقد كانت تهيمن بشكل واسع على مدينة تمتد طويلاً بأكثر من امتدادها ارتفاعاً، لأنها لم تكن غالباً ضمن أسوار.

ويبدو ان البيوت قد شيدت هناك بشكل عشوائى داخل حدائق صغيرة مسورة، مع واجهات ممتدة على طول ممرات غير مستقيمة البتة. ولما كانت تبنى من طابقين (فوق قاعدة صلبة) من الخشب، أو بالاعتماد على هياكل خشبية مكسوة بمواد متباينة، وتلون بألوان زاهية أو رقيقة، تحت أسقف ذات ميل بارز، بأحجام على شكل خرجات وبنوافذ عديدة تطل على الخارج، فإنها تقدم نموذجاً مستحدثاً للسكن، جد مميز شأنه فى ذلك، مثلاً، شأن البيت الرومانى أو البيت الصينى، وشاذاً بالكامل فى العمارة الاسلامية. وهذا النموذج للسكن والذي يبدو أنه يتشكل شيئاً فشيئاً لكى يصل الى تمامه فى القرن الثامن عشر، والذي يشمل نطاق توسعه الأراضى الأوروبية للإمبراطورية العثمانية وجزءاً من الأناضول، شمال خط يمتد من ازمير الى أرضروم، إنما يتحدد بالتراكب على مستوى الخدمات ومستوى الشقق السكنية، وبالتوزع حول صوفا مركزية، وهى نوع من بهو أو من صالون يعتبر مكاناً للقاء وللحياة المشتركة. وبالرغم من هذه الخصائص الحاسمة، فإنه لا يتبع نموذجاً واحداً، بل يتمتع بقدر كبير من حرية التكوين وهو ما يضيف عليه جانباً كبيراً من جماله ومن جاذبيته. وهو نموذج بيوت أكثر فخامة، تعتبر قصوراً صغيرة حقيقية مشيدة على ضفاف الماء، خاصة على ضفاف البسفور، تسمى بالياليات، التى تعتبر عادة استراحات ثانوية

وتتمحور زخرفتها بشكل خاص على الأرضية، المغطاة بالطنافس، وعلى الأسقف، المزخرفة بشكل ثرى، لكن الجدران المزخرفة بالكوى غالباً ما تكون مزينة بالرسوم. وبالرغم من الحرائق التى دمرتها، تبقى منها أمثلة لا تحصى فى مجمل المنطقة المحددة أعلاه، فى اسطنبول، وفى ادرنه، وفى بورصا وربما أيضاً فى المدن الصغيرة، بلوفديف وأورهيد وكاستوريا وساراييفو وبيرات فى البلقان، وأفيون وقولا وبيرجى وصفرانبولو فى الأناضول و ، وخارج هذه المنطقة، فى أنطاليا مثلاً.

العمارة المهدنية

كانت مناهل المياه وفيرة في المدن، فهي تأخذ شكل منشآت مستقلة في أحواش المساجد (شالديروان) وفي الساحات وفي تقاطعات الشوارع (تشيشمه) أو شكل هياكل معمارية مستندة الى جدران العماثر العامة (سبيل). وفي زمن مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)، كان عددها أكثر من عشرة آلاف في اسطنبول، ويبدو ان عددها يتزايد أيضاً في عهد أحمد الثالث، في مستهل القرن الثامن عشر. والى ذلك العهد يرجع أكثرها جمالاً وأكثرها فخامة، حيث تأخذ شكل أكشاك ذات افريز مع سقف هرمي الشكل وبريجات ذات قباب، جد جذابة ومزخرفة بشكل فائق الجمال (أسبلة احمد الثالث، ١٧٢٨، وسبيل طب خانه، ١٧٣١، المجاور لأيا صوفيا، والأكثر توفيقاً، وسبيل عزب قابي، ١٧٧٣).

وكان لكل حي حمامه أو حماماته، للرجال وللنساء، وهي أماكن لقاء يقضى المرء فيها ساعات طويلة للراحة ولتجاذب اطراف الحديث. وقد أسهمت وظيفتها الاجتماعية في الاعتناء بها واضفاء طابع باذخ عليها. والواقع ان أعظم المهندسين المعماريين، ومن بينهم سنان، لم يستنكفوا عن تشييدها (خاصيكى حمام فى اسطنبول، ١٥٥٣، وهو مبنى طويل يمتد على مساحة ٧٥ متراً ويتميز بأحجام جيدة التوزيع). وشأنها فى ذلك شأن الحمامات الأخرى فى العالم الاسلامى، والتي تلاشى أغلبها، فقد حافظت على تراث الحمامات الرومانية، حيث توجد حجرة لتغيير الثياب، وقاعة ساخنة وقاعة باردة (apoditarium, caldarium, tepi-darium) وهذه الحمامات، المكسوة بالواح من الرخام، كانت مغطاة بقباب واسعة غالباً، تبرز منها مجامر زجاجية تنيرها (إن حمام مدفء دمرداش، فى بورصا، والذي يرجع بلا ريب الى زمن بايزيد الثانى، له قبة قطرها ١٦ متراً). وأشهر الحمامات هى حمامات بورصا، التى جددت مراراً (ايسكى كاپليجا، نو السبوليات

البيزنطية، والذي بنى فى عهد مراد الأول، والبنى كاپليجا الذى يرجع الى عام ١٥٣٣)، وربما يليها شهرة، علاوة على الخاصيكي حمام الذى بناه سنان والذى أشرنا اليه بالفعل، حمام توكات، الذى يرجع الى عام ١٤٢٠، وحمام بودابست، الذى يرجع الى عام ١٥٠٦، والذي اعجب به (المؤرخ) أوليا شلبى وأطلق عليه اسم «الحمام ذى الأعمدة الخضراء»، اشارة الى أعمدة الرخام السماقى الثمانية التى تحيط بالحوض.

أما خانات (المسافرين) المدنية، كتلك التى نصادفها على الطرق، خاصة الطرق المؤدية إلى أوروبا (كما فى كوتشوك تشيشمه، لوليپورجان، هرمنلى)، فقد كانت غالباً بنايات ضخمة (ان الكيركيتشيلير خانى، الذى يرجع الى عام ١٤٦٨، والذي دمره زلزال عام ١٨٩٦، والذي يتميز بحجم غير عادى، كانت به ١٧٦ غرفة موزعة على طابقين حول صحنين واسعين). ولما كانت تخطط لتلبية اعتبارات عملية أكثر منها فنية، فإنها لا تبدى الخصائص المعمارية الرفيعة للخانات السلجوقية، وذلك بالرغم من الجودة المتكررة للقباب، ورصانة العقود الصغيرة، حيث تستند أعمدة الطابق العلوى على جبهات أقواس الأرضية. وقد عانت كثيراً من تقلبات الزمن، لكن الخان الذى اعتبر الأجمل بينها، الوالدة خان فى اسطنبول (مستهل القرن السابع عشر)، يمارس مع ذلك غواية أقل من الينى خان (أواخر القرن السادس عشر، أوائل القرن السابع عشر)، الذى يقع فى منتصف الطريق بين توكات وسيواس، أو الكورساميلى خان فى سكوبيا (القرن السادس عشر) أو خان أولوكيشلا، الذى يرجع الى عام ١٦١٩.

أما الجسور كلها تقريباً فهي رائعة. وبوسع المرء أن يتسائل عما اذا كانت الموهبة والخيال الخصب اللذان أبداهما دائماً المعمارىون الأتراك فى تشييدها إنما ينجمان عن واقع ان أية ضرورة شعائرية أو ثقافية لم تكن تعترض سبيلهم. ففي

مواجهة مشكلات تقنية صرفة، سوف يتمكنون من حلها باستاذية تامة للتوفيق بين
الرسوخ والجمال: جسر موستار الذى شيده خير الدين فى منتصف القرن
السادس عشر، جسر پريسنافى فيسجراڤ، الذى شيده سنان، جسر قاردار فى
سكوبيا، وكوزيا فى ساراييفو، وبويوك تشيشمه.

وقد شيد العثمانيون المئات من الحصون ذات الهيكل القليل الأصالة، حيث ان
فن التحصينات الذى يلبي فى كل مكان احتياجات واحدة قد قدم حلولاً متطابقة
بشكل محسوس فى الغرب كما فى الشرق البيزنطى والاسلامى. ولاجدال فى ان
الحصون الأشهر والأكثر روعة هى الحصون التى شيدت على الضفتين الآسيوية
والأوروبية للبسفور فى عام ١٣٩٥ (والتي جرى توسيعها فيما بعد) وفى عام
١٤٥٢ (والتي تحمل أسماء حصن الأناضول (أناضولو حصارى) وحصن روميليا
(رومىلى حصارى). كما يمكننا أن نشير فى اسطنبول الى حصن الأبراج السبعة
(يدى كولى)، والذى بناه محمد الثانى فى عام ١٤٥٨ بالاعتماد على الأسوار
البيزنطية والذى لا نتبين جيداً الهدف الأول من وراء تشييده.

الفن الجنائزى

على الرغم من وجود جبانات شاسعة، فإن المقابر لا تراعى مجال الأحياء
ويصطدم المرء بها فى منعطف الطرق. على ان الأضرحة (تربه)، فى المدينة،
تتجمع أساساً حول المساجد. وعلى الرغم من ضخامتها، فإنها لا تتميز البتة
بالضخامة التى تعطى لها آسيا الوسطى وبدرجة أكبر هند المغول الكبار، حيث
يجرى التمسك بالأبعاد المحددة لها منذ نهاية القرن العاشر.

وعلى الرغم من ان الأضرحة العثمانية تستثير إعجاباً اجماعياً، خاصة بعد
تدخل سنان الذى اشتهر بالتفوق فى هذا المجال، فإنها ليست لها أهمية الأضرحة

السلجوقية التي تعتبر مستمدة منها. فلما كانت لا تبقى لأعلى ما تتميز به من اتقان، ولا على ما تتميز به من سعة الخيال، ولا على ثرائها الزخرفي، فإنها لا تقدم مثل هذا التنوع في النماذج. والواقع اننا يمكننا أن ندع جانباً سلسلة جد شاذة من الأبنية الصغيرة غير المسورة، والمغطاة بقبة تستند على دعائم مرتبطة باقواس حادة أو على شكل عروة سلة، وذلك على الرغم من ان هذه السلسلة لا تقتصر الى الأهمية؛ وهذه الأبنية الصغيرة المعروفة منذ النصف الأول للقرن الرابع عشر في إزنيق (قربة حاجى حمزة وقربة يعقوب شلبى)، تشهد انتشاراً واسعاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، خاصة في البلقان (أضرحة تراقنيك وساراييفو).

ومنذ مدرسة بورصا، يصبح تطور الفن الجنائزى محسوساً. فهو يمس بالدرجة الأولى الغطاء الذى كان، فى عهد السلاجقة، على شكل قبة تحت طاسة هرمية أو مخروطية الشكل، ثم التخطيط الذى يعلى من شأن مثنى الزوايا والأضلاع الأثنى عشرة، وبشكل أكثر ندرة، الدائرة والمربع، ثم كذلك الانارة، جد الواهنة، والتي تتم من خلال نوافذ ضيقة، وأخيراً الزخرفة المنحوتة المركزة على الكوى. وكانت القباب قد بدأت فى فرض نفسها، وتم التخلي عن التخطيطات الدائرية والتخطيطات المعتمدة على اثنى عشرة ضلعاً للاتجاه الى تخطيطات مربعة الزوايا أو مسدسة الزوايا أو مثمانية الزوايا، وجرى فتح نوافذ عديدة وواسعة، وأصبحت الزخرفة المنحوتة نادرة بينما ازدهر التصوير والخزف على مجمل الجدران، خاصة فى الداخل. والواقع ان أضرحة المرادية، الجبانة السلطانية فى بورصا، والموجودة فى حديقة تظللها الأشجار، والمبنية بمداميك تتناوب استخدام الحجر والأجر، إنما تقدم مجموعة متنوعة كاملة من الاجتهادات العثمانية الأولى. وأياً كان الأمر، فإن أشهر ضريح، فى القرن الخامس عشر، هو الضريح الأخضر (بيشيل تربه، ١٤٢١) فى بورصا، الذى يتميز بتخطيط مثنى الزوايا، حيث نجد أن

الغطاء، وهو عبارة عن قبة شبه مدببة مستندة الى رقبة مرتفعة بشكل غير عادى (٤٠٥٧ امتار) يواصل الاشارة الى التقاليد الموروثة، بينما نجد ان التزيين الرائع بالقاشانى الذى يغطى الواجهات الداخلية والخارجية يشير الى مفاهيم زخرفية جديدة. ويثبت باب من خشب شجرة الجوز يتميز بتزيينات هندسية الشكل ويحمل توقيع فنان من تبريز، إن كانت هناك ضرورة للاثبات، وجود تدخل ايرانى.

والواقع ان الضريح العثمانى فى العصر الكلاسيكى كما يبينه سنان هو بوجه عام اوسع الى حد ما من الضريح الذى بناه أسلافه وغالباً ما نجد ان أضلاع قبته شبيهة بأضلاع القاوون. وهذا الضريح المقسم الى طابقين لا يستجيبان لأية متطلبات معمارية، أو المحاط برواق ذى أعمدة تدعم الأسقف المائلة التى تخترق خطه (ضريح سليمان القانونى)، ينفتح عبر بوابة على افريز. ولما كان مكرراً فى عدد جد كبير من النماذج، فإنه يستثير بشكل خاص اهتماماً عظيماً من حيث زخرفته الخزفية (ضريح سليم الثانى وضريح مراد الثانى)، لكنه لا يفتقر مع ذلك الى محاولة كسر الرتابة اعتماداً على النتوءات أو الكوى الصماء (ضريح محمود باشا، ١٤٦٣) أو التعاريق أو أعمدة الزوايا الغائرة أو قواعد النصب (ضريح خسرو باشا، وهو من عمل سنان، ١٥٤٥). ومن الناحية المعمارية، فإن الضريح الأكثر توفيقاً هو ضريح محمد شاه زاده، الذى بناه أيضاً سنان فى صحن المسجد الذى يحمل الاسم نفسه : فحجمه منسجم وتوازنه تام والنافذتان الموجودتان فى كل درجة من كل واجهة من واجهات المثلث تضيف عليه كثافة وكماً.

القصر

إن فكرة الاسلام الأساسية التى تذهب الى ان العمل ليس له دوام لا تأخذ بعدها الكامل فى مجال الفن إلا مع القصور. فهذه القصور، العديدة والباذخة،

والتي تتميز غالباً ببذخ يفوق الوصف، إنما تشيد دون اهتمام بمتانتها، وذلك رغبة في التمتع بها بسرعة. فكل أمير يفكر في تأكيد عظمة عهده بهجر مقر أسلافه لإنشاء مقر جديد. وهكذا فإننا لا نحتفظ إلا بعدد قليل من القصور الإسلامية القديمة التي لا تمت بصلة إلى الأركيولوجيا. والقصر الكبير الوحيد الموجود السابق على القرن السادس عشر هو قصر الحمراء في غرناطة والذين يدين ببقائه، على ما في ذلك من مفارقة، لإعادة الفتح المسيحية، والتي كانت من جهة أخرى جد مدمرة للفن الإسلامي الإسباني. وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة تجاه عدم بقاء شيء من قصور بورصا وأدرنه أو من القصر السلطاني الأول في القسطنطينية. ومن ثم فمما له قيمة ثمينة أننا نحتفظ بشواهد غير تافهة ترجع إلى القرن الخامس عشر.

فقصر تشينيلي كشك (الكشك ذو الزخارف الخزفية)، والذي شيد في عام ١٤٧٢، يحمل أيضاً بشكل بالغ العمق علامات أصوله الإيرانية. ولما كان مرتباً على مستطيل قريب من المربع، فإنه يقدم على طابقه ترتيبات شبه متطابقة : فالجزء الأوسط الذي يأخذ شكل صليب تحت قبة يجد امتداداً له في ثلاث قاعات ومدخل، تعتبر وريثة للأيوانات القديمة، أما الجزء السفلي، المكسور الزوايا، فهو يبرز إلى الخارج. وتحتل أربع غرف أخرى الزوايا الأربعة. وكلها مكسوة، حتى ارتفاع ثلاثة أمتار عن مستوى الأرضية، بالزخارف الخزفية التي تمنح القصر اسمه. أما رواق الواجهة ذو الأقواس الحادة المنخفضة والمستندة إلى أعمدة مثمنة رشيقة، وهي نسخ حجرية من عمارة خشبية معروفة في آسيا الوسطى، فهو إضافة تالية، من الأرجح أنها ترجع إلى القرن الثامن عشر.

طب قابى

لاشك ان الموقع الاستثنائى للأكروبول البيزنطى القديم، على ذروة تهيمن على قرن الذهب وبحر مرمره، هو الذى سمح، لافتتان السلاطين به، بالتطور المتواصل وبقاء مجمع القصور الضخم المعروف باسم قصر طب قابى.

إن قصر طب قابى، الذى يغطى مساحة ٧٠٠٠٠٠ متراً مربعاً، قد جرى البدء فى تشييده فى القرن الخامس عشر ولم يتوقف العمل على تطويره حتى القرن التاسع عشر. ولذا فإنه يسمح لنا بأن نتتبع على مدار اربعمائة سنة تطور العمارة المدنية والزخرفة العثمانية. وإذا تفصله عن الشاطئ الأسوار البيزنطية، فإنه ينفصل عن المدينة بسور تركى، طوله ١٤٠٠ متراً ومستند الى الأسوار الأولى ومدعوم بثمانية وعشرين برجاً. ويتم الوصول اليه عبر سبعة ابواب عظيمة، حيث نجد ان الباب الرئيسى، باب - اى همايون، وهو أشبه ما يكون بقوس نصر شيده محمد الثانى، غالباً ما يبدو اليوم معدلاً وفاقداً لشكله الاصلى، ينفتح على مداخل اياصوفيا. وهو يطل على ساحة، طولها نحو ٣٠٠ متراً، حيث لا توجد غير كنيسة سانت - ايرين ويوجد فى طرفها الأقصى باب ثان، من عمل سليمان القانونى، هو باب الوسط (اورطه قابى) أو باب الخلاص (باب السلام) ذو الطابع القروسطى والذى يتميز برسوم مفرطة الجاذبية يمكن لنا أن نرصد فيها مؤثرات مجرية. أما الصحن الثانى الذى يفضى اليه فهو محدد، من اليسار، بباب الموتى (الباب الذى يجرى اخراج موتى القصر منه) وصحن الطبارين الذى يسبق الاصطبلات التى أعيد بناؤها فى عام ١٩٤٢؛ ومن اليمين، بأجمل عمل معمارى فى القصر، وهو مطابخ سنان، وهى عبارة عن قسم رئيسى واسع تغطيه عشرون قبة ومداخل عالية كان يعمل فيه ما يزيد عن ألف شخص مكلفين باعداد الطعام لنحو خمسة آلاف من المقيمين فى القصر. وفى زاوية شمالية - غربية، جرى ترتيب قاعة المجلس (قبة

ألقى)، والتي لاشك في انها ترجع الى القرن السادس عشر، وتمت زخرفتها في عام ١٥٢٧ على أية حال، وهي في واقع الأمر تتألف من غرفتين، مع أفاريز واسعة وبرج مرتفع على مستوى مربع، حيث يجرى استخدام الغرفة الأولى للمداولات، بينما تخدم الغرفة الأخرى أعمال السكرتارية. ويفضى باب ثالث، هو باب السعادة، الى الحى السكنى. وهناك توجد، على المشارف ووسط الحدائق، وليس دون فوضى وبأساليب متباينة، أكبر عدد من الأجنحة التى مايزال بالامكان الاعجاب بها. وأقدمها مبنى الفاتح كوشكو (الخزانة حالياً)، والذي يرجع الى عام ١٤٦٨، وهو مبنى بسيط، لكنه منسجم، يتألف من أربع صالات مقبية، ويشكل رواق خارجى امتداداً لها، ومسجد الأغوات، الذى لاشك في أنه يرجع الى القرن الخامس عشر. والأكثر اثارة للاهتمام هى قاعة مخلفات النبى (التى جمعها سليم الأول فى عام ١٥١٧)، وهى تحفة فائقة من تحف الزخرفة الخزفية، والعرض اوحاسى (قاعة الاستقبال) التى بناها داوود أغا فى عام ١٥٨٥ حيث يحيط رواق رائع بقاعة جد ضيقة وإن كان قد جرى باستمرار ادخال تعديلات عليها، وكشك بغداد (١٦٣٨) وكشك ريفان (١٦٥٣)، وقاعة الختان (سنه أوحاسى)، التى ترجع الى عام ١٦٤١، ومكتبة احمد الثالث (١٧١٨) و ، على ما يبدو، المظلة البرونزية الرشيقية، التى ترجع الى عام ١٦٤٠، حيث يجد المرء نفسه أمام أحد أجمل مناظر القصر. ولا ينبع جمال هذه الأجنحة من خصائصها المعمارية بقدر ما ينبع من زخرفتها الرخامية، وخاصة الخزفية. على انها لا تفتقر الى الرونق؛ يشهد على ذلك الأشهر بينها، وهو كشك بغداد، وهو مبنى مثنى الزوايا تحت قبة يطوق رواقاً على أعمدة من الرخام، مع افريز واسع، وتخترقه اثنتان وعشرون نافذة، ويكتسى طبقة لماعة من الخزفيات الزرقاء والخضراء على أرضية بيضاء.

اما الحرمك، سكن النساء، فهو يشكل متاهة معقدة من الأروقة والسلالم والأحواش الضيقة التى تجمع أكثر من ٢٠٠ غرفة، ذات أبعاد متواضعة بشكل

عام، وذات أحجام غير متساوية وموفقة غالباً، ومزينة بشكل بالغ البذخ (غرفة مراد الثالث، ١٥٧٨، المنسوبة الى سنان). وتتجاوز هناك كل الأساليب، من الكلاسيكية الى الأسلوب الامبراطورى، حيث نجد خزفيات إزنيق الجميلة والرسوم الجدارية التى تقدم بعض أجمل أمثلة الباروك العثمانى (صوفيا كشك، غرفة سليم الثالث ومحرضه والده). أما النوافذ، شأنها فى ذلك شأن نوافذ المساجد، فهى تغلق بشبابيك زجاجية مؤطرة بفتوات من الجبس (مرممة بوجه عام). ويتجلى الحرص على توفير الراحة هناك من خلال المراحيض ومناهل المياه والمغاسل والحمامات والمداخن الجميلة المكسوة بالبرونز المطفى بالذهب أو بالخزف، والتى تحقق ظهرياتها المزخرفة والمكسورة الزوايا شكلاً مخروطياً بالغ الامتداد. ويجرى تخصيص حجرات عديدة للمنقولات، والأثاثات، النادرة فى الاسلام، هى الموائد المنخفضة المطعمة بالمركيزى، والخزانات ذات الرفوف الصغيرة، والصناديق والصناديق الصغيرة، والأسرة المنخفضة أو المقاعد المنجدة - على الأقل بقدر ما ان الاثاث الأوروبى أو الذى يحذو حذو الاثاث الأوروبى لم يغز القصر. كما ان الفن التصويرى للقرن الثامن عشر يبدو هناك جديداً ومستحباً كما هو الحال فى مقر السكن الخاصة الكبرى المعاصرة (كوناك طاهر باشا فى مودانيا): ولاشك أن العمل الرئيسى، فى قاعة تناول الطعام التى ترجع الى عهد أحمد الثالث (١٧١٠)، هو صحاف الفواكه والمزهريات التى تزين الجدران.

تزيين المخطوطات بالصور

إن صورة محمد الفاتح التى رسمها سنان بك النقاش هى العمل الوحيد المعروف لهذا الفنان والصورة الوحيدة التى يمكن ارجاعها بلا تردد الى الامبراطورية العثمانية فى القرن الخامس عشر. وليس بالامكان أن تكون وحيدة كما انه لا جدال فى أن الكثير من الأعمال المتأثرة بالأسلوب الايطالى والموجودة فى «ألبومات الفاتح» تعتبر معاصرة لها. وكانت هناك مدرسة لرسم المنمنمات

العشرين التى لا ترد أسماء من قاموا برسمها فى كتاب يحمل عنوان رواية الاسكندر، وتم انجازه فى عام ١٤١٦، والتى تعتبر جد متأثرة بفن سين كيانج اليوغورى التركى، كما ندين لهم بالصور الـ ١٤٠، ذات الموضوع التعليمى، والواردة فى كتاب «بحث فى الجراحة»، أهدى فى عام ١٤٦٣ إلى محمد الثانى. إلا ان هناك ابداعات اخرى فى مجموعات طب قابى ماتزال تثير مشكلات من حيث تحديد نسبها وتاريخها.

وقد جرى الاتفاق بوجه عام على القول بأن مدرسة التصوير العثمانى، بالمعنى الدقيق للمصطلح، قد ولدت بعد ان جلب سليم الأول معه رسامين من تبريز. وفى عهد سليمان القانونى، يبدو ان الانتاج كان مايزال قليل الأهمية. والواقع ان نصوص المطرقى الذى صاحب السلطان فى حملاته العسكرية هو وحده الذى ترك أعمالاً غزيرة، وإن كانت غالباً فى حالة أولية. وتشير تصويراته لحملة العراقيين الى عناية وصفية بما لا يحول دون ميل معين الى الخيال والزخرفة والألوان الكثيفة وعشق حقيقى للطبيعة.

وفى المقابل، فإن مناظره الطبيعة تظل خالية، وذلك دون ريب لحرصه، الذى يتبدى من خلال عزوفه عن تصوير أى كائن حي، على تفسير القانون الاسلامى بشكل بالغ الصرامة. والواقع ان منمنماته الـ ٣٢ والتى تشكل آخر أعماله، كالسليمان نامه، التى تروى انتصارات سليمان فى المجر ومأثر أساطيله فى البحر المتوسط، تعتبر جامدة وقريبة من التوثيق، لكنها تتميز بزخرفة أكثر حرارة (موانىء مرسيليا وطولون وأنتيب ونيس).

والفنان الحقيقى آنذاك هو الرئيس حيدر، المسمى بالبخارى، ضابط البحرية الذى ولد فى اسطنبول نحو عام ١٤٩٢ ومات فى عام ١٥٧٢. وعمله ماثل كله فى ثلاثة أعمال رئيسية صغيرة، هى صور الاميرال بارباروسا وسليمان القانونى وسليم الثانى فبشكل فائق الرشاقة، نجد ان الشخصيات الثلاث، المعالجة بأشكال

جد متباينة، يعبر كل منها بكثافة عن شخصيته المتميزة. ويجرى تصوير الملكين مع فريق محدود من أفراد الحاشية كما انهما يحتفظان برموز سيادتهما، القديمة بالفعل (وبعضها بسبيله الى الزوال): المنديل أو المنشفة التي يمسك بها سليمان بيده اليسرى والتي تدخل في الرسميات و ، كذلك، زهرة سليم التي تذكر بوردة محمد الثاني، والتي تدخل جدول الرسميات في القرن التاسع، في ظل العباسيين. أما بارباروسا، فيجرب رسم نصفه الأعلى مع تحيز واضح للعب على التقابلات: تقابل الألوان، تقابل الوجه المخد وخطوط الثوب الممدودة، تقابل السيف المسوك بيد والقرنفلة المحمولة في اليد الأخرى.

ولاشك ان فن التصوير العثماني، مع اعترافه بما يدين به لايران، يؤكد للمرة الأولى، في المنمنمات العشرين الواردة في المخطوط العظيم الوحيد لعهد سليم الثاني، وهو مخطوط «أخبار حملة زيجيتار» (١٥٦٩)، انه لا ينوي الازعان لمحاكاتها. فهذا التصوير، المؤسس على مبادئ مطابقة (لمبادئ التصوير الايراني)، يعتبر أقل ميلاً الى الحلم، الى اضافة صفات مثالية منهجية على الأشخاص والمناظر الطبيعية، الى الجمال الخالص، وهو ما لا ينطبق على التصوير الايراني. فالبنسبة للتصوير العثماني، يحتفظ الواقع بكل أهميته ولا يفقد المذاق السردي الذي كان لدى المطرقي. ولاشك أنه يكتسب بحرصه على التحليل خشونة معينة سوف يحتفظ بها حتى القرن السابع عشر على الأقل.

ويتأكد الطلاق الملحوظ في عام ١٥٦٩ بشكل صارخ في الأعمال العديدة التي ترجع الى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، خاصة في مخطوط «سليمان - نامه» الذي يرجع الى عام ١٥٧٩، ومخطوط «سور - نامه» الذي يرجع الى عام ١٥٨١، ومخطوط «سلسلة - نامه» الذي يرجع الى عام ١٥٨٣، ومخطوط «هونر - نامه» الذي يرجع الى اعوام ١٥٨٤ - ١٥٨٨، وربما كان ذلك بسبب قوة شخصية عثمان النقاش، كاتب «السور - نامه» و«الهونر - نامه».

يصف «السور - نامة» (كتاب الأعياد)، من خلال ٤٣٧ منمنمة، الافراح التي تعقب على مدار اثنين وخمسين يوماً، ختان ابن السلطان، والموكب الذي نظمه المهرجون وأفراد مختلف الطوائف الحرفية وهم يعرضون اعمالهم أو نماذج تصور أعمالهم. وهذا الكتاب الذي يعتبر وثيقة تاريخية ذات قيمة من الدرجة الأولى، هو أيضاً عمل فنى حقيقى. ويعتبر تكنيك عثمان، القريب من الشريط المرسوم أو من الفيلم، رتيباً الى حد ما : فالفنان يرصد كل جماعة فى لحظة مرورها فى مكان واحد، وتتشكل الزخرفة دائماً، من أسفل، بساحة سباق الخيل البيزنطية حيث توجد المسلة والعمود الحلزونية، وتتشكل، من أعلى، بالمقصورة السلطانية. ولا يؤدي ذلك إلا الى ابراز أحسن لتنوع المشاهد، ولحيوية لاعبي الأنوار، والحياة التي لا تبتغي وجوه الدمى، بل حركة السواعد والأيدي، وهو تراث قديم، ملحوظ بالفعل فى الزخارف التي تصور الشخصيات فى بعض الخزفيات السلجوقية التي تنتمى الى اسلوب المينائى (القرن الثالث عشر) أو فى عمل سياح كلیم. والواقع ان تكويناً جد مماثل، على شكل تسجيلات ذات خطوط مستقيمة أو منحنية من شأنها تركيز الاهتمام على السلطان، يوجه المنمنمات التسعين للهونر نامة (كتاب المآثر)، وهو مجموعة من مشاهد البلاط، والصيد، والحرب، والألعاب، ذات الألوان الواضحة والزاهية. وربما كانت هى التي تشير على أحسن نحو الى التأثير البالغ الذي سوف يمارسه عثمان والذي سوف يدوم زمناً طويلاً. على ان ما يميز فنه يبرز بالفعل فى عمل معاصر، هو مخطوط «أحسن التواريخ» (١٥٨٣)، وهو تاريخ للجنس البشرى منذ نشوء الخليقة، وإن كانت عدة منمنمات تتميز بسمة أكثر عنوية وبسكون أقل. والحال ان الفنان، ولعله شخص يحمل اسم السنى، قد قدم فى هذا العمل صوراً توراتية عذبة (آدم وحواء، سفينة نوح، دمار سدوم). وتجدر الإشارة أيضاً، فى اواخر القرن السادس عشر، الى مخطوط ضخيم تحت عنوان «حياة النبی»، وهو نص يرجع الى القرن الرابع عشر وأعيد نسخه وتزويده بالصور فى عام ١٥٩٤،

تفرق مخطوطه بين اسطنبول ودبلن ونيويورك. ولا ترجع قرابة الستمئة منمنمة التى تصوره كلها الى يدى لطفى عبدالله الذى مهرها باسمه، بل ترجع غالباً الى ايدى تلامذته : فهى ليست متساوية كلها.

وتشهد العقود الأولى للقرن السابع عشر محاولات متنوعة للتجديد. فحسن باشا، الذى مات فى عام ١٦٢٢، يسعى الى ادخال المزيد من التنوع فى المخطوطات باضفاء تكوينات مختلفة على أعماله. وفى «شاه - نامه» عثمان الثانى يجرى تمثيل موضوعات جديدة، خاصة المعارك البحرية، فى تكوينات جميلة. وبوجه خاص، نجد ان احمد نقشى، البارع فى التلوين والفنان الحقيقى، يستأنف فى الصور التسع والأربعين التى نعرفها له دراسة الوجوه المهجورة منذ قرن ونصف، ليس بوصفه رسام بورتريهات بلاشك، بل بوصفه شاعراً يحول واقع السمات تحويلاً عميقاً.

ويعتبر لونى، الذى مات فى عام ١٧٣٢، آخر مصور عثمانى عظيم وربما كان المصور الوحيد، مع سنان بك النقاش وبخارى، الذى تمكن من حمل هذا الاسم بأكثر من حمل اسم راسم المنمنمات. فالأعمال الـ ١٣٧ التى تصور «السور - نامه» الذى أعده تتعارض مع صور «السور - نامه» الذى أعده عثمان: فسير الاعياد يكف عن ان يكون واحداً؛ والتكوين فيها أكثر سيولة، وأكثر تنوعاً والمشاهد تصور من زوايا مختلفة. ثم إن حس الملاحظة لديه يظل حاداً، لكنه يتراجع أمام ابداع مناخ مشحون غالباً بالخيال. ولما كان عاشقاً للألوان الرقيقة، الأزرق والليلكى والخبازى، فقد بدا لونى مؤهلاً لرسم النساء. وهو يتفوق فى ذلك. فمع تصوريهن يتكشف اللعب على الظلال والأضواء والمنظور، بدرجة أبعد بكثير مما فى مجموعات الشهيرة (الموسيقىات) أو فى تصويره للرجال. ومن المؤكد ان معارفه التشريحية معدومة وأن أوضاعه، جد الفاترة، يمكن أن تلامس تخوم النوق

الردىء أو اثاره السخرية لولا انقاذ مجموعة ألوانه له ولولا امتلاكه لاحساس رهيـف بالجمال (شباب يلف عمامته، المرأة النائمة، المرأة ذات الوردية)

والواقع ان تغفل المصور فى حياة النساء الخاصة وفى عالمهن المغلق هو أعظم حدث فى مجال التصوير فى مستهل القرن الثامن عشر. وهو يعلن موت مدارس المنمنمات الاسلامية، فى الامبراطورية العثمانية كما فى خارجها. ولوحات «النساء فى الحمام» و «الافطار على العشب» و «السيدات و صيفاتهن» فى ألومات أحمد الأول تشهد على ذلك. وينطبق ذلك ايضاً على عمل عبدالله البخارى الذى عمل بين عامى ١٧٣٥ و ١٧٤٥ على الأقل. وترجع اليه، علاوة على البورتريهات الزاهية للسيدات الرشيقات، مشاهد عديدة متهتكة، بل وپورنوجرافية. وهناك شك فى ان هذه الموضوعات الاباحية قد استمدت الالهام من ايران، بل ومن الهند الموغولية التى عالجتها فى العصر نفسه. فقد عرفت حضارة الاسلام تراث نزعة حسية ظل محتجباً. وبالنسبة للعثمانيين على الأقل، يبدو ملحوظاً منذ عهد محمد الثانى الذى، كما يلاحظ ١. ساكيسيان، طلب الى بيليني رسم «موضوعات جنسية عديدة لتزيين غرفه الخاصة بها».

العمارة فى البلدان العربية فى العصر العثمانى

بقلم : انـدريه ريمون

إذا كانت الفترة العثمانية فى البلدان العربية قد تعرضت، بوجه عام، لتقييم عام يبـخس من شأنها، بل ولتقدير تشهيرية، فإن جوانب القصور فى المجالين الفكرى والفنى قد تعرضت لأقسى نقد^(٨) فقد كتب مارسيل كولومب : «ان الآداب والعلوم والفنون التى كانت قد تألقت فى السابق تألقاً بالغ الحيوية قد أصيبت

بالاسترخاء فى القاهرة فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر: ذلك ان التفكير يصبح أقل والكتابة تشح، ولا يجرى انشاء عمائر إلا على فترات زمنية متباعدة واذا كانت تحدث عمليات ترميم بين حين وآخر، فإن الشيء الأغلب هو ترك الأطلال تتراكم [...] ويبدو أن مصر تغرق فى سبات عميق». أما أ. پوتى، الذى فعل الكثير على أية حال من أجل المساعدة على إعادة اكتشاف هذه الفترة، فإنه يعتقد ان من واجبه الاعتذار عن اهتمامه بالآثار المصرية العثمانية : «لابد من الاعتراف بأن شيئاً من الاستهانة يلزم هذا الفن، الذى يعتبر محلياً الى حد ما وذا أهمية جمالية محل شك»^(٩).

وهناك أسباب موضوعية لهذا التهوين الذى ينظر به الى النشاط المعمارى فى العصر العثمانى. لكنه يجد تفسيراً له أيضاً، فى جانب كبير منه، فى القصور البالغ الذى مازالت تتميز به درايتنا بهذه الفترة. فالآثار العثمانية، الحديثة نسبياً، قد جرى التضحية بها فى سياسات التنظيم المتبعة، بهذه الدرجة أو تلك من النجاح، فى مختلف البلدان العربية منذ أواخر القرن الأخير. ومن ثم فإن الكثير منها قد تلاشى. أما تلك التى كتب لها البقاء فقد درست دراسة جد طفيفة بل انفا، فى غالبية الحالات، لا نملك القوائم المعمارية الأكثر أولية. والمتخصصون فى الفن التركى لا يهتمون إلا بشكل هامشى بهذه الشواهد على فن اقليمى قليل التجديد بشكل لا مفر منه. والمتخصصون فى عمارة البلدان العربية المعنيون يعتبرون هذه الفترة قليلة التمثيل وقليلة الأصالة؛ ولا يوجهون لها غير القليل من الاهتمام وغالباً ما يميلون الى المسارعة الى حد ما بتسمية عمائر تدين بالقليل لمؤثرات العاصمة «عثمانية».

على ان هذه الحالة تعتبر أكثر ازعاجاً بقدر ما ان الفترة العثمانية كانت لها فى الواقع أهمية كبيرة فى تكوين الزخرفة المدنية. وقد تركت لنا (هذه الفترة)

آثاراً هامة و ، من زاوية كمية، يكفينا الإشارة الى انه حتى فى مدينة لم تكن فيها هذه الانشاءات موضع اهتمام كبير من جانب الأجهزة المعنية، وهى مدينة القاهرة، فإن عدد آثار العصر العثمانى المصنفة يرتفع الى ١٩٩ أثراً، وهو عدد قريب من عدد الآثار المملوكية (٢٣٣) فى فترة مدتها أطول بقليل (٢٨١ سنة فى مقابل ٢٥٧ سنة). وبوجه عام، فإن المدن العربية «التقليدية» التى نعرفها هى المدن التى خلفتها لنا الفترة العثمانية، التى دامت، بحسب الحالات، ثلاثة أو أربعة قرون ومن ثم ميزت البنية الحضرية بشكل بالغ القوة، على نحو لا مفر منه. وأخيراً، فإن من شأن دراسة متأنية لهذه العمارة، تحدد دور المؤثرات الخارجية التى تعرضت لها ودور التقاليد المحلية، أن تسمح باستخلاص استنتاجات حول طابع السيطرة العثمانية نفسه وحول الأسلوب الذى أثرت به على النشاط الثقافى والفنى فى البلدان التى مورست فيها.

الفن الإمبراطورى

إن الظاهرة التى تصدم المرء على الفور عندما ينظر فى انتاج يتميز بأهمية عديدة ملحوظة (نحو مائتى منشأة مصنفة فى القاهرة، أكثر من مائة أثر محفوظة فى حلب، نحو خمسين أثراً فى بغداد) هى ان عدد ما يمكن للمرء تسميته بآثار ذات أسلوب «عثمانى» هو ، فى نهاية الأمر، عدد جد محدود. ونحن لم نرصد بشكل اجمالى غير خمسة عشر أثراً كبيراً من نوع «المسجد» يمكن نسبتها الى النماذج التى تقدمها عاصمة الامبراطورية. ومن شأن تصنيف تاريخى لهذه الآثار أن يكون بالغ الدلالة من هذه الزاوية:

- مسجد سليمان باشا، الذى بناه هذا الوالى فى قلعة القاهرة، فى عام ١٥٢٨.
- مسجد خسراويه، أقدم أثر «عثمانى» شيد فى حلب، والذى بناه لخسرو باشا فى عام ١٥٤٤، المهندس المعمارى العظيم سنان، الذى كان آنذاك فى بداية عمله.

- مسجد العادلية، الذى بناه محمد باشا، فى حلب أيضاً، فى عام ١٥٥٥.
- التكية والمدرسة اللتان بنيتا بأوامر من السلطان سليمان فى دمشق، بين عامى ١٥٥٤ و ١٥٦٦.
- مسجد سنان باشا فى بولاق (١٥٧١) الذى سوف يكتفى محمد بك فيما بعد بتقليده بالكامل.
- مسجدا مراد ودرويش باشا، شبه المتزامنين، فى دمشق (١٥٧٢ و ١٥٧٤)
- مسجد البهرامية فى حلب، الذى بناه بهرام باشا، نحو عام ١٥٨٣.
- مسجد سنان باشا فى دمشق (١٥٩٠).
- مسجد الملكة صفية الذى بناه فى القاهرة، فى عام ١٦١٠، عثمان أغا دار السعادة ثم نسب فيما بعد الى مولاته، السلطانة صفية، زوجة مراد الثالث وأم محمد الثالث.
- المسجد الجديد (مسجد «المصائد»)، الذى بنى فى عام ١٦٦٠، بمبادرة من أوجاق مدينة الجزائر، لخدمة المذهب الحنفى.
- مسجد سيدى محرز، الذى بناه فى مدينة تونس الباي محمد، بين عامى ١٦٩٢ و ١٦٩٦.
- المدرسة العثمانية فى حلب، التى بناها فى عام ١٧٣٠ عثمان باشا الدوراكى.
- مسجد القايماريه، الذى بناه فى عام ١٧٤٣ فى دمشق فتحى أفندى، وهو دفتر دار ينتمى الى اسرة من الأعيان.
- المسجد الذى بناه محمد بك أبو الذهب، فى عام ١٧٧٤، فى وسط القاهرة، فى مواجهة الجامع الأزهر، والذى يعد نسخة مطابقة لمسجد سنان باشا فى بولاق.

وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار الآثار التي تلاشت، فإن هذا الانتاج «العثمانى» لا يمثل غير جزء جد هزيل من مئات الآثار الدينية التي شيدت من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر. ولا يجب لهذه الظاهرة أن تدهشنا. فعلى الرغم من ان العنصر التركى قد لعب، فى الامبراطورية العثمانية، دوراً بارزاً، فإن الحكومة السلطانية قد تركت قدراً كبيراً من الاستقلال الذاتى للجماعات الخاضعة و ، على المستوى الثقافى بوجه خاص، لا يبدو ان أية محاولة «تتريك» قد بذلت فى الأقاليم التى يسكنها العرب. والواقع ان الاحترام الذى كان الأتراك يكتونه للثقافة واللغة العربيتين، الوثيقتى الارتباط بالدين الاسلامى يفسر هذا الغياب لـ «الاستعمار الثقافى». ومن ثم فإن التأثير الذى مارسه فن العاصمة فى الولايات العربية كان يتميز بطابع عرضى، وتشير الشواهد، الى انه لم تكن هناك سياسة منهجية للاحتواء فى هذا المجال.

وشأنهما فى ذلك شأن عددها، القليل نسبياً، فإن التتابع الزمنى وتحديد مواقع الانشاءات المعمارية ذات الأسلوب «العثمانى» يبدو ان مهمين. فمن بين الآثار الخمسة عشر المبينة، تنتمى تسعة منها الى القرن السادس عشر، وترجع ثلاثة فقط منها الى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهو ما يبدو مطابقاً للتباين بين فترة أمكن فيها للسلطة الامبراطورية ولمثلها المحليين توخى تأكيد حضور القوة العثمانية، التى كانت آنذاك فى صعود سافر، وفترة انحدار للامبراطورية. وفيما يتعلق بالمواقع، فإننا نلاحظ صدارة سوريا (حلب : ٤ ، دمشق : ٥) ومصر (القاهرة : ٣) والمكانة الهزيلة للمغرب (مدينة تونس : ١، مدينة الجزائر : ١). ومن الواضح ان عدد العمائر «العثمانية» يرتبط بالقرب من مركز السلطة، وبحيوية الوجود العثمانى : فالمغرب البعيد يمس مسا هيناً من جانب حركة انشاء جد ملحوظة فى سوريا. أما الغياب الكامل للعراق فهو يدعو الى الاستغراب : فقد كان المتصور ان اسطنبول وممثليها، فى هذه الأرض التى ينازع فيها الفرس العثمانيين

على مدار زمن طويل، كان بوسعهم توخى تأكيد حضورهم بإنشاءات مهية تتبع الأسلوب «العثمانى». لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولا يمكننا أن نجد سبباً لذلك غير حيوية التقاليد والحماية المحلية، وكذلك، على ما يبدو، واقع أن السيطرة العثمانية فى العراق لم يتسن لها توطيد أركانها بشكل حاسم إلا فى القرن السابع عشر (بعد فترة من إعادة الاحتلال الإيرانى لبغداد)، فى زمن كانت المرحلة الأنشطة للعمائر من النمط «العثمانى» قد أوشكت فيه على الزوال.

ويبدو لنا أن الملاحظات السابقة تشير الى مدى وضوح الطابع السياسى لهذه الانشاءات المشيدة بأسلوب يمكن وصفه بالأسلوب الامبراطورى. ومن الواضح انه لا غرابة هناك فى ان هذه المنشآت الدينية الضخمة، التى يذكر أسلوبها نفسه بالحضور العثمانى، كانت، فى جميع الحالات تقريباً، من عمل ممثلين للباب (العالى) (٩ من ١٥) بل وأحياناً من عمل السلطان وحاشيته (أثران). ويبدو لنا ان هذا التفسير ينطبق على المساجد الكبيرة الثلاثة التى بنيت فى حلب فى القرن السادس عشر، وهى مساجد تجسد، فى المنطقة الأوسط للمدينة، فى داخل المدينة نفسه، السيادة العثمانية. ويجب النظر بالطريقة نفسها الى العمائر «الامبراطورية» الضخمة المزروعة فى دمشق، فى المنطقة الواقعة خارج الأسوار، فى غرب المدينة، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر (١٥٥٤ - ١٥٩٠). فالتكية والمدرسة توضحان، بشكل مثير، الأهمية التى يوليها السلطان للحج الذى كانت دمشق، مع القاهرة، نقطة تجميع لمن ينوون الرحيل لادائه. ومساجد مراد ودرويش وسنان - والثلاثة كلهم باشاوات - الكبيرة الثلاثة، تجسد القوة العثمانية على ذات الطريق الذى يسلكه الحاج. ومما لاشك فيه ان مسجد سليمان باشا، الذى بنى فى عام ١٥٢٨ فى القلعة، على موقع يهيمن على القاهرة، فى مواجهة مسجد السلطان حسن (الذى يرمز الى القوة المملوكية المغلوبة)، يتميز بالقيمة التوضيحية نفسها. أما مسجد سنان باشا فى بولاق (مرفأ القاهرة الرئيسى، خاصة بالنسبة للعلاقات

مع البحر المتوسط، أى مع تركيا وبلدان الامبراطورية) فقد كان العلامة المحسوسة الأولى للحضور العثمانى عند الوصول الى القاهرة.

والواقع ان المقصد السياسى، الواضح فى حالة الآثار المنشأة فى القرن السادس عشر، حيث تتأسس السلطة العثمانية وتتجه الى تأكيد نفسها من خلال انجازات الحكومة السلطانية وانجازات ممثليها فى الولايات، لا يبدو غائباً عن الانشاءات المتأخرة أكثر والتي يمكن تفسيرها على انها تجليات لولاء السلطات المحلية التى أصبحت شبه مستقلة. وانشاء مسجد المصائد، بناء على أمر من أوجاق مدينة الجزائر، فى عام ١٦٦٠، بعد قليل من ثورة عام ١٦٥٩، بأسلوب امبراطورى، يمكن ان يشكل نوعاً من اعادة تأكيد أثرية للاعتراف بالسيادة العثمانية على الجزائر. وفى مدينة تونس، فإن مسجد سيدى محرز قد بناه الباي محمد الذى تمكن أوجاق مدينة الجزائر من اعادة تنصيبه على عرشه (١٦٨٦) والذي أكد السلطان، فى عام ١٦٩١، سلطته على البيليك: فالأثر، الذى يتميز بطابع عثمانى شديد الوضوح، يشكل نوعاً من اعلان تبعية، يعتبر جد مناسب بقدر ما ان المصاعب التى تتراكم مع أوجاق مدينة الجزائر (والتي سوف تؤدى فى عام ١٦٩٤ الى حملة جديدة ضد تونس) تدفع الحاكم المرادى الى الأمل فى الفوز بمساندة، أو بحياة، الحكومة السلطانية. ويمكن أن نفسر بالطريقة نفسها بناء محمد بك أبو الذهب، فى القاهرة، لنسخة مكررة من مسجد سنان باشا فى بولاق : فالأمير المصرى يخلف على بك و ، على الرغم من طموحه، هو أيضاً، الى الفوز بسيطرة تامة على مصر، فقد كان مستعداً لمراعاة المظاهر الخارجية لخضوع شكلى على الأقل للباب العالى. وبناء مسجد بالأسلوب العثمانى، فى موقع مهيب، يشكل عملاً رمزياً من أعمال الولاء.

ويستحق حجم هذه الآثار ذات الأسلوب العثمانى شيئاً من التعليق. فهى انشاءات ذات مقاييس متواضعة إذا ما قورنت بالمجمعات الضخمة المشيدة فى

اسطنبول في العصر نفسه. والواقع ان محدودية الامكانيات التي كان يتمتع بها ولاية عاديون (كانوا بشكل عام أكثر انشغالاً بانتزاع أقصى حد من الربح من اقامتهم في عاصمة اقليمية مما بترك ذكرى ملحوظة في ختام رحلة قصيرة بوجه عام) تفسر تماماً هذا الاختزال للمقاييس بالمقارنة مع العماثر السلطانية، وكذلك بالمقارنة مع الآثار الأقدم التي تمكن ملوك سلالات حاكمة قوية من اقامتها سعياً الى كسب المجد لأنفسهم (ممالك القاهرة بوجه خاص). كما ان سحب الموارد المحصلة لحساب الخزانة السلطانية يسير في الاتجاه نفسه. ويفسر م. روجرز بالحرص على الاقتصاد النجاح الذي عرفه في القاهرة، في العصر العثماني، اثر ذو مقاييس متواضعة، هو سبيل الكتاب والذي سمح، بنفقات قليلة، بتحقيق عمل خيري يترك أثراً دائماً في المشهد الحضري.^(١٠)

ومن الممكن أيضاً ان عدداً من الأسباب التقنية يفسر في أن واحد العدد الصغير للآثار ومقاييسها. وكان التطور الاقتصادي قد زاد الزحام في المراكز الحضرية الى درجة لم يبق فيها مكان لانشاءات جديدة ذات اتساع ضخم : ولا بد ان هذا العامل قد مارس دوره بشكل خاص في حالة المنشآت الدينية ذات الاسلوب العثماني التي لا تتطور بشكل جيد إلا على مساحات جد واسعة، ذات شكل منتظم. وفي المقابل، في مصر مثلاً، أدى تراث معماري طويل الى إمداد البنائين بامكانيات إدماج الآثار ذات الأسلوب المملوكي في سياق حضري مكثف، وهو ما يمكن أن يفسر الايثار المستمر، في الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر، لهذا النوع من الانشاءات^(١١). وهكذا نفهم السبب في ان غالبية الآثار «العثمانية»، اللهم إلا في حلب حيث كانت توجد احتياطات مكانية في الجزء الجنوبي من المدينة، قد شيدت خارج المراكز.

وليس بوسعنا أن نتوقع ان هذه الآثار الاقليمية تشهد على أصالة معمارية كبيرة، كما لا يمكننا أن نتوقع أصلاً أن تتميز بطابع تجديدي. فهي تنتمي بوجه

عام الى نماذج جرت تجربتها بالفعل فى أماكن أخرى، غالباً فى اسطنبول وفى المدن التركية الكبرى للامبراطورية، وهى تندرج ضمن تراث كانت خصائصه الأساسية محددة تماماً. وهى تنبثق من ثم مما يمكن اعتباره المجال الاقليمى للعمارة العثمانية، التى تنبثق منها المقارنات التى نتجه أحياناً الى عقدها مع آثار اقليمية أخرى. على انها ليست بوجه عام نسخاً خالصة وبسيطة من الآثار المبنية فى مدن أخرى ويبدو ان مبدعين أصلاء يظهرون من جهة أخرى فى عدد معين من الحالات، كحالة سنان الشهير^(١٢).

كما ان المرء يدهش، أخيراً، تجاه اتجاه البنائين الى ادخال تفاصيل، فى آثار جد عظيمة، تشهد على حيوية التقاليد المحلية كما تشهد على نزوع القائمين على البناء والحرفيين الى ادماجها فى سياق معمارى مختلف. وفى غالبية المنشآت التى أشرنا اليها، تظهر هذه التقاليد بلمسات رصينة الى هذا الحد أو ذاك : الايوانات السورية للمدرسة العثمانية فى حلب، الرواق المحيط لمسجد محرز فى مدينة تونس، المنارات التى تنتمى الى التراث المحلى فى المسجد الجديد فى مدينة الجزائر، أو منارات مسجد محمد بك فى القاهرة، الواجهات المعالجة كلها بالأسلوب «القومى» فى مساجد دمشق ومسجد سنان باشا فى بولاق. فالفن الأكثر رسمية ينهل من أساليب اقليمية يعتبر توصلها، على مدار القرون الأربعة للسيطرة العثمانية، ظاهرة جد مثيرة.

دوام التقاليد الفنية المحلية

إن دوام التقاليد المحلية، المحسوس حتى فى العمائر المنشأة بالأسلوب «الرسمى»، يظهر خاصة فى الآثار ذات الأسلوب «المحلى» التى تشكل الجزء الأكبر من الانتاج المعمارى للولايات العربية للامبراطورية. والسيادة العديدة للآثار

التي تتجلى فيها هذه التقاليد القومية تعتبر واضحة حتى في الأقاليم التي عرف فيها الأسلوب الامبراطوري أوسع انتشار له : ففي حلب، لا تمثل العمائر «العثمانية» غير جزء صغير من المساجد المبنية في الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر (التي نعرف منها ثلاثين). أما في القاهرة فإن المساجد الأربعة التي اسلفنا الإشارة اليها تقارن باجمالى أربعة وثلاثين مسجداً بنيت بين عامى ١٥١٧ و ١٧٩٨ وجميع المعلومات المتعلقة بها متوافرة الآن. وهذه السيادة أكثر وضوحاً أيضاً في الولايات الأقل قرباً من المركز.

وتلك بوجه خاص هي حالة العراق حيث تعتبر الآثار التي خلفتها العمارة «الرسمية» غير ملحوظة، وحيث يتطور الفن الدينى، خلال أكثر من قرنين، بموجب التقاليد المحلية التي تعتبر من جهة أخرى شديدة التباين في مركزى الموصل وبغداد والتي يمكن للمرء أن يعتبرها، في الحالة الأولى، تقاليد شمال بلاد الرافدين وفي الحالة الثانية، تقاليد ايرانية. ففي الموصل، استند الانتاج المعماري الى حد بعيد على الحماية الخاصة، حتى خلال زمن الجليليين؛ ويمكن لهذا الوضع جد الاستثنائي أن يفسر استمرار عمارة دينية طابعها المميز أكثر من سواء هو استخدام الآجر في المنائر لأهداف زخرفية، بما يتمشى مع تراث جد قديم، كما يثبت ذلك مثال مسجد النورية الكبير (١١٧٠). وعلى نطاق أكثر تواضعاً تعاود الزخارف، ذات الافاريز المتناوبة، الظهور، خلال مجمل الفترة العثمانية : ففي مساجد العمرية (١٥٦٢) وخزم (قبل ١٥٧٧) وشهر سوق (١٦٨٢) يجرى تزيين زخارف الآجر بقواعد من الخزف الفيروزي؛ ويتواصل هذا التقليد في القرن الثامن عشر، ربما مع ميل الى رتابة معينة في التنفيذ، كما نرى ذلك في مسجد الأغوات (١٧٠٢) وأخيراً في مسجد باب البيض (١٧٧٩).

وتختلف تماماً عن فن شمال بلاد الرافدين هذا العمارة التي تظل حيوية في بغداد، خلال قرنين، وحيث يستحضر استخدام تربييعات الخزف لزخرفة القباب

والمفائر المؤثرات الفارسية، على الرغم من ان البناء يعتبرون هنا دائماً تقريباً باشوات. كما ان دوام وأصالة هذه الزخرفة يتجليان بوضوح مثير من أواخر القرن السادس عشر إلى مستهل القرن التاسع عشر : ولنذكر على سبيل المثال مساجد المراديه (١٥٧٠) والوزير (١٥٩٩) و الخاصيكي (١٦٥٨) وحسن باشا (١٧٠٤) وعلى أفندى (١٧١١) والعالليه (١٧٥٤) والنعمانية (١٧٧١) والأحمدية (١٧٩٦) وأخيراً، حيدر خانة (١٨٢٦). ففي الأشكال، وتقنية الخزف واستخدام الكتابات، تعتبر الاستمرارية مثيرة؛ وأياً كانت طبيعة السلطة (ولاة عثمانيون أم باشوات مملوكيون)، وبالرغم من العلاقات السياسية المتوترة باستمرار مع فارس، فإن بغداد تظهر بوصفها قطاعاً من العمارة الايرانية(١٣).

واذا ما أسهبنا بشكل أكثر استفاضة في الحديث عن بقاء التقاليد المحلية في القاهرة، فإن ذلك يرجع بطبيعة الحال إلى أصالة الفن الذي ترسخ فيها في العصر المملوكي والذي يفرض نفسه على الفاتحين العثمانيين.(١٤)

فعلى مدار ثلاثة قرون يواصل فن ديني التطور في القاهرة وفقاً للتراث المعماري الذي كان قد غطى المدينة بآثار رائعة في العصر المملوكي. وفيما عدا استثناءات قليلة، سوف يبنى الباشاوات والأمراء الحاكمون آثاراً بأسلوب يمكن تسميته بالأسلوب «المملوكي الجديد». فالتخطيطات المملوكية تظل محل استخدام حتى أواخر القرن الثامن عشر وتظل الزخرفة مملوكية بشكل سائد، وذلك بلاشك لأن حرفيي القاهرة كانوا متمرسين في تطبيق هذه التقنيات واستخدام هذه المواد، وكذلك، بالتأكيد، لأن هذا الفن كان يعتبر قومياً بشكل تام وكان يجري تقديره على هذا الأساس.

ولا نملك سوى حيرة الاختيار لتقديم امثلة لها دلالتها على هذا الاستعداد وعلى هذا الاخلاص الملحوظ للعمارة المملوكية:

- ان مسجد المحمودية، الذى بناه فى عام ١٥٦٨ محمود باشا، بين قلعة القاهرة ومدرسة السلطان حسن، هو مسجد مملوكى بشكل كامل فى تخطيطه (الذى يستحضر تخطيط المدرسة العظيمة المجاورة، ١٣٥٦) وفى جميع تفاصيل زخرفته، اللهم إلا فيما يتعلق بالملئذنة.

- ومسجد البردينى، المبنى فى أعوام ١٦١٦ - ١٦٢٩، يتعارض بشكل مثير مع المسجد المجاور له تماماً وشبه المعاصر له وهو مسجد الملكة صفية (١٦١٠) الذى يعتبر «عثمانياً» فى كل شىء: فهذا المسجد الذى يرجع الى القرن السابع عشر يثبت، بشكل مثير، رسوخ التراث المملوكى فى القاهرة؛ وتعتبر الملئذنة، بوجه خاص، محاكاة موفقة تماماً لآثار العصر الشركسى.

- والمسجد الذى بناه عثمان كتحودا القازدوغلى فى عام ١٧٣٤، قرب الأزبكية، ينتمى الى النوع المملوكى من المساجد ذات الصحن المفتوح، مع قاعة تقليدية للصلاة تضم ثلاثة صفوف من الأعمدة الموازية لحائط القبلة. أما الواجهة، جد المتقشفة، فهى تستعيد التيمات المملوكية. والملئذنة وحدها، العثمانية بشكل نموذجى وبعض التفاصيل الزخرفية (الخزفيات والسقف الخشبى ذو الكمرات والتجاويف الزخرفية) هى التى تسمح فعلاً بتحديد زمن هذا الأثر.

- أما مسجد يوسف شوريجى (الهياتم) (١٧٦٣) فهو أثر يستعيد تراث التخطيطات الصليبية الشكل، وتكوين واجهته ومدخله مملوكى، ولكن مع ثراء زخرفى يكشف عن تطور محسوس بالقياس الى النماذج المتبعة.

وهذا الالهام المملوكى لا يتوقف حتى آخر أعوام القرن الثامن عشر، حيث نلاحظ اخلاصاً بالغ الصرامة بحيث انه يكون من الصعب للغاية أحياناً تحديد ما إذا كان الأمر فى أثر من الآثار هو امر إعادة بناء أم مجرد ترميم : والنموذجى بشكل تام، من هذه الزاوية، هو مسجد محمود محرم الذى لا يشكل طابعه

الملوكى برهاناً على ان التاجر الكبير لم يعد تشييده بالكامل فى عام ١٧٩٢، وفق نموذج تقليدى فى القاهرة. والواقع ان دوام النماذج الملوكية يعتبر مثيراً بشكل خاص فى القاهرة فى الأسبلة العامة التى كانت نوع البناء الأكثر انتشاراً خلال الفترة العثمانية. وأحد أقدم أمثلة هذه الأسبلة، وهو السبيل الذى بناه فى عام ١٧٣٥ خسرو باشا، هو محاكاة، على نطاق أصغر الى حد ما، لسبيل الغورى، الأسبق الى حد ما (١٥٠٣ - ١٥٠٤)، والذى يقع على مسافة قريبة منه - على أن سبيل خسرو باشا لا يعد مع ذلك أثراً اقل روعة يذشن سلسلة طويلة من الأسبلة التى، بالرغم من تنوعها ومقاييسها، سوف تؤيد هذا التأثير الملوكى بلا انقطاع حتى قرابة عام ١٧٥٠ : فسبيل عبدالرحمن كتحودا (١٧٤٤)، بالرغم من أصالة زخرفته، يمكن أيضاً اعتباره «محاكاة ملوكية رشيقة»^(١٥).

التجديدات

لا يعنى هذا الدوام للأنماط المعمارية التقليدية انه كان هناك ركود تام فى الأشكال القومية، مع تخصيص مجال صغير لفن «عثمانى» مستورد. وقد أشرنا آنفاً الى ان المهندسين المعماريين والحرفيين قد تمكنوا من دمج عناصر مأخوذة من الذخائر القومية للأشكال والزخارف فى الآثار «العثمانية». وبالمقابل، فإن عمارة المدن العربية قد استخدمت عناصر مستمدة من النماذج العثمانية وأثرت بذلك الفن المحلى: وأخيراً، فإن تطوراً داخلياً من نوع ما قد ساعد على تقدم العمارة والزخرفة نحو أشكال جديدة. وبوسع المرء التشكيك، فى حالات معينة، فى جودة نتائج هذه التفاعلات، إلا ان المرء لا يمكنه انكار أهمية تطور نحو دمج نسبى بين عناصر مستمدة من تراث قومى وعناصر مستوردة.

ولا يبدو استيعاب العناصر العثمانية البتة واضحاً الى هذا الحد إلا فى الاعتماد، العام للغاية، للمئذنة العثمانية التى انتهى انتشارها بمنح بانورامات

المدن العربية واحداً من ملامحها المميزة. وبودنا أن نفهم الأسباب الجمالية والثقافية و ، لاشك، السيكولوجية لهذا النجاح^(١٦). فمن المثير للغاية ان اثنين من المساجد القاهرية الأربعة التى تستوحى التراث المملوكى بشكل نموذجى والمشار إليها آنفاً يشتملان على مآذن عثمانية (مسجد محمود باشا، مسجد عثمان كتحودا). والظاهرة جد منتشرة فى القاهرة بحيث انه من الأسهل، بدلاً من الافاضة فى الإشارة الى الأمثلة، الإشارة الى الاستثناءات لهذه القاعدة : ويشكل مسجد محمد بك (١٧٧٤) الاستثناء الأكثر وضوحاً. وتوجد أمثلة لذلك فى المدن العربية الكبرى الأخرى.

والمجال الثانى الذى لجأت فيه فنون العمارة المحلية الى الاستعارة من الذخائر العثمانية هو مجال الزخرفة، وخاصة استخدام الخزف على شكل اللوحات التى إما انها كانت تستورد مباشرة أو تصنع محلياً، على غرار خزف اسطنبول. وهنا أيضاً سوف يكون من الافراط الشديد ضرب أمثلة. ولنأخذ مدينة تونس حيث يترافق التأثير الخارجى مع تراث محلى بالغ الثراء، إذ تتمكن الفنون الحرفية المحلية من تقديم المنتجات التى يفرض الذوق السائد استخدامها : وهو ما يظهر فى رواق مدرسة السلیمانية (١٧٥٤)، فيما يتعلق بمبنى دينى؛ ودار عثمان (قبل عام ١٦١١) ودار حسين (أواخر القرن الثامن عشر)، بين الأمثلة التى لا حصر لها والتى تقدمها العمارة المحلية. وقد استخدمت الزخرفة الخزفية فى القاهرة على نطاق واسع فى الأسبلة من خلال لوحات القاشانى، وعلى الواجهات أو ، فى المجمعات الأكثر اتساعاً، على جدران قاعات توزيع المياه. والمثال الأكثر نموذجية هو مثال مسجد آق - سنقر (١٣٤٧) حيث نجد ان حائط القبلة، بمناسبة ترميم هام قام به ابراهيم أغا، فى عام ١٦٥٢، قد جرت تغطيته بالكامل بتربيعات من دمشق، محدودة الجودة من جهة أخرى، فى حين أن ضريح المرمم نفسه قد زين بزخرفة أكثر رهاقة.

كما شهدت الفترة العثمانية تطور أسلوب زخرفى أكثر تزييناً، أحياناً بقدر معين من المبالغة، ويدين بالكثير لمؤثرات جد متنوعة قادمة من اسطنبول بالتأكيد، ولكن أيضاً من أوروبا وخاصة إيطاليا (حيث اشترت البلدان العربية كمية كبيرة من العناصر الزخرفية، من الزجاج والخشب والرخام). وقد شكلت هذه المؤثرات المتنوعة زخرفة يمكن تسميتها بالزخرفة «المشرقية»، والتي تظهر جوانبها المتباينة فى اقاليم جد مختلفة من العالم العربى. وتكفينا الإشارة، مثلاً، الى العناصر الزخرفية الحجرية التي لقيت نجاحاً عظيماً فى حلب منذ القرن السابع عشر (بيت عاشق باش) أو الزخرفة، الباروكية بوضوح، لمسجد الحلاق فى القيروان. وهذا التقدم لنموذج زخرفة جد مشحون بالزينات يظهر فى القاهرة فى المحارب المملوكية الجديدة والتي تتميز أحياناً بمذاق مشكوك فيه بسبب محدودة جودة المواد المستخدمة وعدم المهارة فى التنفيذ. وعلى الواجهات، يقدم هذا التطور الحيوية جد المنهكة لسبيل على بك الدمياطى (١٧١٠) الذى جرت فيما بعد محاكاته. لكنه يقدم أيضاً نتائج أكثر اشباعاً، كما فى تفصيل زينات واجهة مسجد يوسف شوريچى (١٧٦٣) حيث يتم تحقيق التوازن الزخرفى بدءاً من عناصر مملوكية، أو أيضاً كما فى البنايات التي انشأها عبدالرحمن كتخودا، وخاصة فى سبيل الكتاب الذى بناه فى حى النحاسين (١٧٤٤)؛ وفى هذا الأثر الأخير لا تشكل محاكاة النموذج المملوكى غير عنصر الأرضية الذى تنتشر فى داخله زخرفة جد أصيلة فى القاهرة فى ذلك العصر، والذي يبدو، فى التفاصيل، أنه نتاج تأثير عثمانى. ويشكل الكل أثراً يعد، بلا جدال، واحداً من أكبر النجاحات المعمارية فى القاهرة، وليس فى العصر العثمانى وحده.

على ان التجديد فى المجال المعمارى خلال الفترة العثمانية لا يقتصر على عناصر الزخرفة : إذ تظهر نماذج جديدة بالفعل من الانشاءات. وسوف نقدم مثلين من شأن معلومات أفضل أن تسمح دون ريب بالكشف عن أمثلة كثيرة مثلهما.

ولاشك ان ظهور نموذج جديد هو نموذج المسجد - الأثر الجنائزى فى مدينة تونس ليس منبت الصلة بكونموپوليتية تونس فى القرن السابع عشر؛ فالعناصر العرقية جد المتباينة التى تألفت منها الطبقة الحاكمة قد حملت معها مؤثرات ثقافية أضافت الى الأسس الافريقية (الحفصية) عناصر شرقية (تركية)، وغربية (أندلسية)، ومن البحر المتوسط (عبر عناصر متحولة الى اعتناق الاسلام، ذات أصل ايطالى بشكل خاص)، لم يكن من شأن اضافتها غير تقديم فن مركب بشكل عميق وأصيل بشكل قوى.

وقد بنى مسجد الداى يوسف الجنائزى فى عام ١٦١٦ من جانب مهندس معمارى من أصل أندلسى (ابن غالب). ويضم هذا المسجد المعلق قاعة صلاة ذات ثمانية صفوف من ستة أعمدة (مع جناح مركزى أوسع) تتميز بطابع مغربى لا جدال فيه؛ أما الصحن المحيط من ثلاث جهات، مع رواق على الجهة الشمالية، فيبدو أنه يشكل تطويراً لتخطيطات الآثار الحفصية. وأما المنذنة، ذات القاعدة المربعة والمقطع المثلث المضلاع، فهى تذكر بالمآذن العثمانية، لكن شكل منور الدرج أصيل. ويذكر الضريح ذو التخطيط المربع المغطى بسقف هرمى مغطى بالقرميد الأخضر، بالعمارة الاسبانية - المورسكية (الحمراء)، لكن زخرفته تذكرنا بزخرفة قصر الداى عثمان، وهو لا يسبقه إلا بزمن قصير^(١٧).

ويعتبر مسجد حمودة باشا، الذى بنى فى عام ١٦٥٥، تطويراً لمسجد الداى يوسف: فقاعة الصلاة تحتفظ بطابعها المغربى (مع ٧ أجنحة بدلاً من تسعة)؛ ويحيط الرواق بالمسجد من جهاته الثلاث؛ أما المنذنة، برغم امتدادها الملحوظ، فهى تحتفظ بخصائص مسجد الداى يوسف؛ ويكشف الضريح فى زخرفته عن سمات ايطالية الأصل.

والواقع ان هذين الأثرين، جد الأصيلين وجد المنسجمين، بالرغم من طابعهما المركب، قد مارسا تأثيراً متواصلاً على العمارة الدينية التونسية : فالرواق المحيط

بمسجد حمودة باشا سوف يوجد حول مسجد سيدى محرز (١٦٩٢ - ١٦٩٦)، وهو أثر عثماني بشكل نموذجي كما رأينا؛ والمنذنة المثمنة الأضلاع مع منور الدرج تستنسخ بشكل دقيق في المسجد الجديد (١٧٢٧). وأخيراً، فإن مسجد صاحب التابع، الذى بنى فى عام ١٨١٤، سوف يكون نسخة شبه دقيقة من مسجد حموده باشا.

ونشهد تطوراً مماثلاً فى القاهرة بعد عام ١٧٥٠، بدءاً من نوع من الآثار مميز لهذه المدينة، هو الأسبلة^(١٨). فعلى مدار أكثر من قرنين، ظلت الأسبلة القاهرية متأثرة تأثراً عميقاً بالنماذج المملوكية. وقد انقطع هذا التراث، فى منتصف القرن الثامن عشر، مع ظهور نوع جديد من الأسبلة ذى شكل مكور ربما أمكن البحث عن أصله من جهة عاصمة الامبراطورية. ومن هذه الزاوية، وبسبب غياب أدلة أكثر حسماً، فإنه يبدو لنا ان مما له دلالة أن أول مثال لسبيل مكور فى القاهرة كان بالتحديد منشأة خيرية مرتبطة على نحو واضح بأحد السلاطين : ففي عام ١٧٥٠، يبنى بشير أغا دار السعادة سبيلاً باسم السلطان محمود يعتبر رائعاً من حيث جودة التخطيط (سبيل مكور له ثلاث فتحات، وتعلوه مدرسة ذات تخطيط متعدد الزوايا)، وأصالة العناصر الزخرفية (الأعمدة، الشبكات، العناصر النباتية)، وتطور الأفاريز (التي يذكر تعرجها بالأسقف الاسطنبولية).

وقد حقق هذا النوع الجديد من الأسبلة نجاحاً فقد حذت حذوه، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، أمثلة عديدة أخرى تعتبر من بين أهم آثار القاهرة (فقد بنيت ٧ أسبلة بالأسلوب الجديد من بين ٣٣ سبيلاً تأكدت اقامتها بين عامى ١٧٥٠ و ١٨٩٨): سبيل ابراهيم كتحودا مستحفظان (١٧٥٣)؛ سبيل السلطان مصطفى (١٧٥٩)؛ سبيل رقية دودو (١٧٦٠)؛ سبيل نفيسه البيضا (١٧٩٦)؛ سبيل مسجد جنبلط (١٧٩٧)؛ سبيل حسين الشعيبى (أواخر القرن الثامن عشر).

ويشير مثال الأسبلة هذا، بالرغم من حيوية التقاليد المحلية، الى ان العمارة القاهرية كانت قادرة على التجديد، وعلى استحداث أشكال جديدة و ، فى نهاية الأمر، على ادراجها ضمن الذخائر القومية.

حواشي الفصل الخامس عشر

١ - من الواضح تماماً أننا إذ نتحدث عن الفن الاسلامى نجد انفسنا مضطرين الى الاختصار على العموميات. ومن الممكن للعديد من الحالات الخاصة ان تتعارض مع ما نقوله.

٢ - إن مسجد الأمويين فى دمشق، الذى بنى فى عام ٧١٤، هو أول أكبر مسجد اسلامى فى العالم الاسلامى مع مسجد المدينة. فهو يضم، الى جانب الصحن ذى الأروقة الثلاثة، ثلاثة أجنحة متوازية على الحائط القبلى الذى يخرق مجازاً قاطعاً واسعاً وعالياً يؤدى الى المحراب.

٣ - التيموريون : عائلة من الأمراء الاتراك المنحدرين من تيمور لك (١٣٧٠ - ١٤٠٥) الذين سادوا فى آسيا الوسطى (سمرقند، هراة، الخ) حتى عام ١٥٠٦. الصفويون : سلالة حاكمة لايран سادت من عام ١٥٠٢ إلى عام ١٧٣٦. الموغول الكبار: سلالة حاكمة من اصل تركى (تيمورى) حكمت الهند من عام ١٥٢٦ إلى عام ١٨٥٨. وبالنسبة لشكل القباب، انظر بشكل خاص جور - اى - مير فى سمرقند، ومسجد شاه اصبهان (مسجد الامام اليوم)، ومسجد الجمعة فى دلهى.

٤ - الأرتوكيون : عائلة تركية حكمت عدة مدن فى الشرق الأدنى (ديار بكر، ماردين، مايفاريقين) من أواخر القرن الحادى عشر الى مستهل القرن الخامس عشر.

٥ - اليوغور : اترك من سين - كيانج (شينجيانج = تركستان الصينية)، أتباع لديانات مختلفة (البوذية، المانوية، النسطورية، الخ)، اشتهروا على نحو خاص برسومهم وبمخطوطاتهم.

٦ - يمكننا مقارنتها بأعظم قباب العالم : قبة كنيسة القديس بولس فى لندن (وقطرها ٤٦ متراً)، قبة پانشيون أجريبا (وقطرها ٤٣.٥٠ متراً) قبة كنيسة سان پيير فى روما (وقطرها ٤٢ متراً على ارتفاع ١٢٣ متراً). أما أجمل القباب الفرنسية، وهى قبة «اديز

إنقاذها، فقطرها ٢٥ متراً. وأكبر قبة هي قبة مقبرة بيچاپور (الهند)، الجول جومباد،
التي تغطي ١٦٠٠ متراً مربعاً.

٧ - هناك على أية حال «بحث» سابق: جامع فاتح باشا في ديار بكر، الذي بنى، بقبة مركزية
وأربعة أنصاف قباب، في ١٥١٦ - ١٥٢٠.

٨ - اننى استعيد هنا الأفكار الرئيسية التي وجدت تطويراً لها في الفصل الرابع من كتابي :

The Great Arab Cities in the 16th- 18 th

Centuries. An Introduction, New York

University Press, 1984, pp. 91 - 136

Marcel COLOMBE, La Vie au Caire

- ٩

au Xviiiie Siecle, Le Caire, 1951, 1.

Edmond PAUTY, "Étude Sur Les monuments

de L'Egypte de la période ottomane", Comité de conservation, 37, Le

Caire, 1933 - 1935, P.275

Michael ROGERS, article "Kahira", Encyclopédie de L'Islam, second - ١٠

édition, Leyde - PARIS, 1978, 1V, pp.455,458

J.A.Williams, " The monuments of Ottoman Cairo", dans Colloque in- ١١

ternational sur L'histoire du Caire, D.D.R., n.d., p.458

١٢ - حول هذه المشكلات، انظر:

G.GODWIN, A HISTORY of Ottoman Architecture, Londres, 1971;

A.GABRIEL, " Les Mosquées de CONSTANTINOPLE", Syria, 1926

١٣- أن الحالة الأكثر تميزاً هي حالة طرابلس الغرب حيث لا يتميز الوجود العثماني، الذي دام ثلاثة قرون ونصف قرن، بأي تأثير محسوس على تخطيط العمارة الدينية. وعلى مدار هذه الفترة كلها بنيت طرابلس الغرب الدينية وفق الأسلوب، "الليبي" بشكل نموذجي، للمسجد ذي القباب المتعددة، أنظر:

Gaspard MESSANA, Originalité de L'architecture musulmane Libyenne, Libye - Tunisie, 1977; Ali masoud El BALLUSH, A HISTORY of Libyan Mosque Architecture, during the Ottoman and Karamanli PERIOD, Tripoli, 1984

١٤- حول آثار القاهرة، يظل العمل الأساسي هو عمل:

L.HAUTECOEUR et G. WIET, les Mosquées du CAIRE, 2 vol., Paris, 1932

انظر أيضاً مقالات ١. بوتى وج. ١٠. ويليامز وم. روجرز التي اسلفنا الاستشهاد بها.

M.ROGERS, op.cit,P. 455 -١٥

WILLIAMS, op. cit., pp.456-457 -١٦

١٧- ما تزال هذه الآثار تفتقر الى الدراسات التي تستحقها، أنظر:

G.MARCAIS, L' Architecture musulmane d' Occident, PARIS, 1954.

A. RAYMOND, "les fontaines publiques (sabil) du Caire", Annales islamologiques, 15 (1979). -١٨

الفصل السادس عشر

الحياة الفكرية والثقافية فى الامبراطورية العثمانية

بقلم : لوه بازاج

اننا نسمى بـ «الامبراطورية» تلك الدولة العظمى المطلة على البحر المتوسط التى سمت نفسها دائماً، حتى نهايتها، بـ «الدولة العثمانية»، للإشارة بشكل مناسب إلى انها قد وحدثت، تحت قيادة تركية، جماعات سكانية عديدة، ذات لغات وديانات وثقافات متباينة، تجاوزت فيها وغالباً ما امتزجت على مدار قرون: أتراكاً، وعرباً وأكراداً ويونانيين وأرمن وسلافيين ولاتينيين وألبانيين، ألخ، مسلمين ومسيحيين من شتى الملل، ويهوداً...

والاضطلاع بتاريخ ثقافى لجميع هذه الجماعات السكانية من شأنه أن يكون مهمة جد معقدة، لاتكفى للوفاء بها عدة حيوات انسانية، بحيث اننا نجد أنفسنا مضطرين هنا إلى الاقتصار على اعطاء لمحة، ناقصة بالضرورة ولا تستحضر غير وقائع أساسية للتاريخ الفكرى والثقافى العثمانى فى تجلياته المرتبطة باللغة التركية وبالفكر الإسلامى.

وهذا التاريخ نفسه يتميز، كما هو الحال فى أية امبراطورية عظمى، بصهر قيم ثقافية متباينة صيغت بين الشعوب الموحدة تحت قيادة مؤسسيها فى ثقافة خاصة بهم. ويتعلق الأمر هنا بتركيب واسع، كذلك التركيب الذى تنتجه الدول الكبرى المتعددة القوميات فى الأزمنة القديمة أو الحديثة، والذى لا يعتبر مجرد جمع لحاصل مكوناتها، بل يقود إلى خلق ثقافة أصلية، ذات ثراء عظيم، تحقق

الانسجام بين عناصر كانت قبل ذلك غير منسجمة، وتكتسب، بحكم ذلك نفسه، قدرة قوية على الانتشار.

مكونات الثقافة التركية قبل الإسلامية

حتى نفهم تاريخ هذه الثقافة التركية العثمانية، لابد من العودة إلى الوراء، حتى نتذكر الخصائص الرئيسية لمكوناتها الأوليين: ثقافة الأتراك قبل الإسلامية قبل وصولهم إلى الأناضول، والثقافة الإسلامية، المركبة بالفعل، لكونها عربية - فارسية وليست عربية خالصة، والتي توصلوا إلى تمثيلها شيئاً فشيئاً، ليس عبر استعارة شاملة، بل عبر موائمة بطيئة، عندما أصبحوا مسلمين. ولابد أيضاً، في مرحلة ثانية (لن تكون الأخيرة)، من مراعاة الثقافة البيزنطية للامبراطورية الرومانية الشرقية، التي سادت قبل توسعهم، في أقاليم آسيا الصغرى والبلقان حيث تتحول إمارة العثمانيين الصغيرة، حتى الاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٤٥٣، إلى دولة أولى متعددة القوميات سرعان ما سوف تصبح امبراطورية.

إن القبائل التركية البدوية لوسط آسيا، في شرقي بحر قزوين، والتي سوف تشكل شبه اجمالى الوحدات والكوادر العسكرية التي كفلت، باسم الإسلام، فتح آسيا الصغرى المسيحية، كانت تنتمي إلى اتحاد الأوغوز. وهذا الاتحاد، الذي يتميز ببنية جد مرنة، يستمد أصوله من الاتحاد القديم لـ «الأغوز التسعة» (توكوز-أوغوز) الذي تشكل في شمالي منغوليا في مستهل القرن السابع وكان تابعاً، في أوقات مختلفة، لأول امبراطورية بدوية تحمل اسم الترك، وهي امبراطورية الأتراك الشرقيين (كوك - ترك)، التي امتد ملكوتها من سور الصين إلى جبال التاي (مهد قوتهم) منذ منتصف القرن السادس. وعلى مسافة أبعد جهة الغرب، سرعان ما سوف تمارس قبائل تحت قيادة الأخ الأصغر لمؤسس هذه الامبراطورية هيمنتها في آسيا الوسطى حتى الحوض الأعلى للأوكسوس (آمو - داريا) والواقع أن هبة

هؤلاء الأتراك، الشرقيين والغربيين، الذين سوف يبتكرون لأنفسهم كتابة خاصة وسوف يسيطرون على طرق القوافل التي تربط الصين بفارس وبالإمبراطورية البيزنطية، سوف تكون هبة جد ملحوظة بحيث أن غالبية الشعوب المنتمية إلى الأسرة اللغوية ذاتها سوف تحصل على اسم الأتراك أو سوف تتبناه.

تلك كانت حالة الأوغوز، وكذلك حالة إحدى قبائلهم القديمة، وهي قبيلة الأويغور (أويغور)، التي سادت بعد الأتراك على منغوليا (٧٤٤ - ٨٤٠)، ثم انسحبت صوب واحة سين - كيانج الحالية، حيث تطورت، في اتحاد مع الجماعات السكانية الهندو-أوروبية المحلية، حضارة رائعة مستقرة (غير رعوية)، تتميز بالتعايش السلمى بين المانوية، والبوذية (ديانة الأغلبية) والمسيحية النسطورية، التي تضاف مؤثراتها الثقافية المتنوعة إلى التأثير الثقافى، جد القوى، الذى تمارسه الصين.

وخلال القرن الذى سبق دخولهم الجماعى إلى الأناضول، كان الأوغوز منظمين على شكل قبائل مستقلة نسبياً، وذات مراتبية داخلية محكمة، كانت ترتحل فى سهوب آسيا الوسطى فى شمالى إيران، وكانت انشطتهم (شأنها فى ذلك شأن أنشطة أحفادهم المباشرين، التركمينيين) أنشطة رعوية وحربية بشكل أساسى. وقد ظلت تقاليدهم قريبة من تقاليد الأتراك الشرقيين. أوغوز منغوليا القدماء، التي استبقوا منها نوع الحياة، وكذلك القيم الأخلاقية (والتي تعتبر الشجاعة أعلاها شأنًا) وغالبية المعتقدات «الوثنية»: الأرواحية من النمط الشامانى، المتعايشة مع دين السماء المقدسة، تينجرى، واهبة القوة والنصر. أما الأديان التي كانت قد تقاسمت عطف الأويغور، الممائلين لهم (المانوية، البوذية، المسيحية النسطورية)، فهي لم تطبع ثقافتهم إلا بأثار متفرقة قليلة. وأما الإسلام، على أية حال، فإنه لم يكن قد تغلغل بعد فى صفوفهم إلا بشكل نادر وسطحى.

وهذا الإسلام الذى يصل إليهم تحت شكله العربى - الفارسى، يمس أولئك الذين يعملون من بينهم، وعددهم يتزايد نمواً خلال القرن الحادى عشر، كمرتزقة فى جيوش مختلف الدول الإسلامية، حيث يجرى تقديرهم تقديراً فائقاً لشجاعتهم، ولقوة فرسانهم. وهذه الكفاءة العسكرية تسمح لبعضهم بالإستيلاء على السلطة. وهكذا فى عام ١٠٥٨ يفوز خليفة بغداد سلطته الزمنية لطغول بك، زعيم قبيلة الكينيك، الذى أصبح سيداً لآيران والعراق، وأسس سلسلة السلاجقة. وفى المقابل، فإن السلاجقة، مع أوغوزهم الخاصين، يصبحون، ضد الشيعة، أنصاراً للإسلام السنى، الذى سرعان ما ينشرونه فى آسيا الصغرى المسيحية، باسم الجهاد. وذلك هو الأصل التاريخى لسيادة الإسلام السنى، الدين الرسمى، فى الامبراطورية العثمانية التى سوف تنشأ فى المستقبل.

وسرعان ما سوف يتم استيعاب سلاجقة ايران فى الثقافة العربية - الفارسية، التى تشكل تركيباً بين الإسلام وتقاليده ايران. وسوف تلعب دوراً محورياً فى القرون التالية فى التطور الفكرى والثقافى للدول ذات القيادة التركية فى الأناضول، ثم فى الدولة العثمانية. ومن المناسب هنا رصد الأهمية الملحوظة، عند سلاجقة «بلاد الروم»، ثم فى البيليكات، التى تتخذها الثقافة العربية - الفارسية، على الأقل فى الأوساط القيادية والفكرية. فهنا لا تعتبر التقاليد التركية بشكل محدد، المؤسمة إلى هذا الحد أو ذاك، حية إلا عند بدو الأوغوز الذين يسمون منذ ذلك الحين بالتركمينيين. فالعربية هى لغة الدين والقانون والعلم. أما الفارسية فهى لغة الادارة المدنية والبلاط، ومن حيث الأساس، الأدب، وخاصة الشعر. أما التركية، على الرغم من أن نسبة متزايدة من السكان تتكلم بها، فإنها تظل فى مرحلة لغة شفوية، تميز الأوغوز الرحل والمستقرين، وتظل محدودة الانتشار فى المدن، كما يشهد على ذلك قول ماثور قديم: «عندما يصل كلب التركى إلى المدينة فإنه ينبج بالفارسية». وسوف يتعين الانتظار حتى أواخر القرن الثالث عشر، بعد الغزو

المغولى وتدمير الدولة السلجوقية ذات الطابع الإيرانى، والذين ترتب عليهما تدفق جديد للأتراك من آسيا الوسطى، حتى تبدأ التركية فى الظهور كلفة أدبية. وتظل نتاجاتها الفنية ضمن مجال الفولكلور الأوغوزى والذي يتمثل نموذجه الوحيد، الرائع من جهة أخرى، الذى وصل إلينا، فى مجموعة الحكايات الملحمية، النثرية الممتزجة بالشعر، والمجموعة فى كتاب ديدى كوركوت، حيث تُروى، إلى جانب الأساطير، ومن بينها أسطورة السيكلوب، المأثر الحربية السامية للأوغوز المقاتلين فى سبيل الإسلام، وإن كانوا يظلون دائماً مخلصين لتقاليدهم القبلية قبل الإسلامية، حتى فى القرن الرابع عشر.

أما فيما يتعلق بالأساس البيزنطى - الأناضولى للثقافة التركية قبل العثمانية، فعلى الرغم من كونه بالغ الوضوح فى العمارة، فإنه يظهر بشكل أقل وضوحاً فى الحياة الفكرية، المصطبغة أساساً بالتراث الإسلامى العربى - الفارسى، والذي لم تكن المؤثرات الهيلينية من جهة أخرى غائبة عنه. على أن بالإمكان رصده استناداً إلى عدد من المؤشرات المتفرقة: فما تزال لدينا بعض الأشعار المكتوبة باليونانية (إلى جانب أشعار مكتوبة بالتركية) للشاعر الصوفى الكبير «الرومى» (أى الأناضولى) مولانا جلال الدين الرومى، الذى مات فى عام ١٢٧٣، كما أن التوافق مع حكاية پوليفيم الهوميرية، فى عدة تفاصيل هامة، لأسطورة السيكلوب الواردة فى كتاب ديدى كوركوت، يشير إلى انتقال شفهي بعيد للحكاية اليونانية إلى الوسط الأوغوزى.

تتريك ثقافة إسلامية توسع اللغة التركية

يكن غزو المغول الذين يستولون فى منتصف القرن الثالث عشر على الدولة السلجوقية فى إيران ويخضعون سلاجقة الأناضول فى أساس تغيرات اجتماعية

ثقافية عميقة. فالإضعاف، ثم الدمار الذي سوف ينزل بسلطة ذات طابع إيراني واضح، والوصول، خلف المغول، لمجموعات جديدة من الرحل الأتراك، والقلقل المتواصلة التي سوف تجتاح المنطقة، والتي سرعان ما تنقسم إلى إمارات متنافسة، سوف يترتب عليها تراجع للثقافة العربية - الفارسية الرفيعة في مجمل الأناضول الإسلامية، لحساب ثقافة جديدة، شعبية أو شبه شعبية، ذات تعبير تركي. ومن جهة أخرى فإن تقلب الزمن يستثير جيشاناً لنزعة صوفية، مصطبغة غالباً بأفكار مهرطقة مع وصول دراويش أتراك بدو من آسيا الصغرى.

وعندئذ يحدث توسع للغة التركية، بما في ذلك في المدن، بما يخلق في نهاية الأمر الحاجة إلى الكتابة. وفي تلك الأنواع من الجامعات الإسلامية المتمثلة في المدارس التي أنشأها السلاجقة وقاموا بتطويرها إلى حد بعيد، كانت اللغتان الوحيدتان اللتان يجرى تدريسهما هما العربية والفارسية، واللذان كانت الدراية الجادة بهما ضرورية وكافية في أن واحد للحصول ليس فقط على المعارف الفقهية في مختلف تخصصاتها (ومن بينها الشريعة والقضاء)، بل وعلى جميع العلوم المعتمدة في العالم الإسلامي. وكانت ثقافة المتعلمين، أكانت دينية أم أدبية أم علمية، عربية وفارسية. أما التركية، التي ينظر إليها بوصفها لغة عامية تفتقر إلى الأهمية الفكرية، فلم تكن تُدرسُ بالمرّة.

وفي هذا الصدد، نجد أن الأناضول المسلمة لم تكن قد سلكت بعد الطريق الذي شقه منذ القرن الحادي عشر المتعلمون الأتراك في آسيا الوسطى الذين كانوا قد شرعوا، في ظل سلالة الكاراخانيين الحاكمة السائدة آنذاك في كاشغار في سمرقند وبخارى، في كتابة التركية بحروف عربية وانتاج أعمال هامة. وعلى الرغم من أن أية شهادة تاريخية لا تسمح بتأكيد أن ابداع لغة أدبية تركية، في الأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ينبثق عن تأثير مباشر للتركية

الكاراخانية، فمن الممكن افتراض تأثير غير مباشر وجزئى لاحداهما على الأخرى، ليس فقط بحكم التشابه الكبير للشكل الذى جرى به تطوير فى التركية لتييمات متماثلة للدعاية الدينية جد مصطبغة بالصوفية، وإنما أيضاً بحكم ما يتجلى على ضوء مقارنة لغوية.

وأياً كان الأمر فإن لغة مكتوبة، كلغة الكتاب الأتراك الأناضوليين الأوائل، تظهر دفعة واحدة بوصفها متطورة فكرياً لا يمكن أن تكون قد انبثقت عبر معجزة من لهجات البدو الأوغوز ويلزم أن نتصور لها، علاوة على ثراء ثقافى عربى - فارسى واضح، تراثاً أدبياً سابقاً ما ذا تعبير تركى وفكر متأسلم، كتراث الكاراخانيين.

الأدب الصوفى

لأجل غايات دينية أساساً يجرى فى البداية استخدام لغة تركية مكتوبة فى الأناضول، وذلك فى عصر كانت الفارسية ما تزال فيه، فى كل مكان تقريباً، لغة المتعلمين والادارة. ويشار إلى إدخال التركية من حيث كونها لغة ادارية، فى عام ١٢٧٧، فى اماره محمد كرمان أوغلو، الذى ساد فى قونية، بوصفه تجديداً ملحوظاً. إلا أنه سعيّاً إلى نشر الإسلام وإلى تعميق الإيمان الإسلامى فى الوسط التركى سوف يكتب الكتاب الأوائل باللغة التى أصبحت لغة الجزء الأكبر من السكان.

وبينما كان مولانا جلال الدين الرومى قد كتب جميع مؤلفاته الكبرى بالفارسية أو بالعربية، فإن ابنه سلطان وليد (١٢٢٦ - ١٣١٢)، الذى خلفه كزعيم روحى لطريقة المولوية، قد بذل جهداً لكى يكتب، بشكل متناثر فى نصوصه المكتوبة بالفارسية، مائة قصيدة تركية (لم يصل إلينا من مولانا غير ٣٥ قصيدة)، ترتبط مصادر الهامها من جهة أخرى بمصادر الهام الشعر الفارسى.

وقبل ذلك، نحو عام ١٢٣٠، كان درويش من مرتبة أقل، هو أحمد الفقيه، قد ألف قصيدة بالتركية جد طويلة حول تقلب الأحوال على الأرض، هي التشرخ نامه (كتاب التقلبات) والعمل الأطول، والأكثر ركافة أيضاً، هو عمل شياد حمزه، الذي ربما كان أحد أتباعه.

والواقع أن مرحلة تالية للغة والثقافة الأدبيتين في الأناضول قبل العثمانية هي التي تبرز الشاعر الكبير الوحيد لذلك العصر، يونس ايمرى، الذي، وفقاً للبيانات التاريخية الأكثر رجحاناً، سوف يولد نحو عام ١٢٤٠ ويموت في الثمانين من عمره في عام ١٣٢٠. ويعتبر مسقط رأسه غير معروف، إلا أننا نعرف أنه كان من اتباع الدرويش تابدوك بابا، الذي أقام في منطقة نهر ساكاريّا، على مسافة شبه متساوية من أنقره وايسكيشيهير. ومن ثم فإنه قد قضى في الشمال - الغربى لوسط الأناضول فترة التلمذه الصوفية، في وسط إسلامى يتميز باتجاه باطنى قوى. ثم قضى فيما بعد حياة درويش متجول عبر الأناضول، خاصة في اقليمى قونية وقيصرية. وخلافاً للأسطورة (الحديث) التي تريد أن تجعل منه فلاحاً عبقرياً، وإن كان شبه أمى، فإن الشعر الدينى الرفيع الذى يهيم فى عمله يدل بوضوح على ثقافة فقهية وأدبية رفيعة، أرقى بكثير من ثقافة شياد حمزة، مثلاً. فهو يستخدم فيه بشكل وفير وغنى بالمعارف المعجم العربى - الفارسى، ويشير فيه، بين آخرين من ملهميه، إلى مولانا، الذى تمكن من التعرف عليه فى قونية. لكنه قد كتب أيضاً، بلغة تركية مألوفة، قصائد يمكن فهمها من جانب الجمهور الشعبى، ما تزال تسمع حتى أيامنا فى تركيا، حيث لم تفقد شيئاً من شهرتها.

وتتمثل احدى المآثر الكبرى لهذا الشاعر الملهم فى أصالته التلقائية. فهو يستخدم القوالب الأدبية لصوفية عصره استخداماً معتدلاً، لكى يبدع، بالتركية، صوراً جديدة. وإذ يضيف على رسالته الدينية غنائية حقيقية، تعبر عن المشاعر العميقة، وعن آلام وآمال شعب تعرض للمحن القاسية المترتبة على الغزو المغولى،

يستحضر بحرية مجريات الحياة اليومية وحياة الفلاح الشاقة. وفي نهاية الأمر يتخلى عن الشكل المعقد للشعر العروضي، لى يلجأ إلى شعر شعبي مقطعي، وصوفيته التي يجتمع فيها حب الرب مع حب الإنسانية (دون حصر ديني أو عرقي)، والتي تتميز أحياناً بنبرات حلولية، تعبر عن نفسها بشكل مألوف وبرموز ملموسة.

وفي حين أن أعمال معاصريه في الأدب التركي لاتهم بعد غير عدد قليل من المثقفين، فإن أعمال يونس ايمرى - أو المتاح منها أكثر من سواء على الأقل - تواصل الحياة في الوعي القومي لتركيا، والواقع أن شعبيته، التي تتزايد على مر العصور، قد جعلت منه شخصية أسطورية، وتضاف إلى مجموعات الشعرية قصائد منحولة كثيرة، موفقة في الأغلب. وقد أصبح أحد قديسي الدين الشعبي، وتتنازع تسع دساكر في الأناضول على شرف حيازة ضريحه. وإذا كان قد حظى بالتبجيل، في الامبراطورية العثمانية، من جانب عدة طرق صوفية، سنية أو مهرطقة، فإنه يحظى اليوم بالتمجيد في تركيا الجمهورية والعلمانية.

وإذا كانت شهرة يونس ايمرى قد طمست بسرعة شهرة معاصريه وخلفائه المباشرين، فسوف يكون من الحيف اعتباره النبراس الوحيد لعصره. فالواقع أن نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر تتميزان بنهوض للأدب التركي في الأناضول. ومما لاجدال فيه أن تحول مغول ايران، نحو عام ١٣٠٠، إلى الإسلام وإنشاء إمارات تركية، في آسيا الصغرى، على أنقاض دولة بلاد الروم السلجوقية، كان عدد منها مسرحاً لميلاد فكري وثقافي حقيقي جديد، تشكل عوامل مؤاتية لتنمية الأنشطة الفكرية في مجال جيولوجيا يتيكى يجرى تنريكه منذ ذلك الحين بشكل عميق.

وفى كيرشيهير، التى تسمى آنذاك بجولشيهير، «مدينة الورود»، انجز الشاعر جولشيهيرى - المرتبط بطريقة الآخى (الأخوة) الصوفية والفروسية - فى عام ١٣١٧، اقتباساً تركياً لكتاب «منطق الطير» الذى كتب به فريد الدين العطار الفارسى. وهو يضيف إليه نبذة ذات أهمية اجتماعية - تاريخية حول المبادئ الأخلاقية لطريقة الآخى وتنظيمها. كما أنه مؤلف قصائد غنائية قصيرة.

أما عاشق باشا (١٢٧١ - ١٣٣٢)، ابن أخ مؤسس طريقة البابائين المهرطقة، والذى عاش هو أيضاً فى كيرشيهير، فهو مؤلف قصيدة متبحرة من ١٥٠٠٠ بيت، هى قصيدة «غريب نامه»، (كتاب الحاج)، التى يشرح فيها أفكار نزعة صوفية فلسفية مؤكداً على وحدة الأديان الداعية إلى التوحيد الإلهى.

الأعمال النثرية الأولى. توسيع الثقافة

فى الوقت نفسه، يتطور النثر التركى فى الأناضول، وذلك بشكل أساسى تحت شكل ترجمات حرة إلى هذا الحد أو ذاك لنصوص فارسية (ولنصوص عربية. بشكل أكثر ندرة). وهكذا، فإن قول مسعود يهدى إلى أومور، أمير آيدين (١٣٣٩ - ١٣٤٨)، ترجمته، التى قام بها عن الفارسية، لكتاب **كليلة ودمنة**، وهو مجموعة حكايات ذات أصل هندى. والواقع أن النماذج الباقية من هذا العصر الأول للنثر التركى الأناضولى تعتبر مكرسة لجنس الحكاية الأدبى، خاصة للحكايات الباعثة على التقوى والتى تروى حياة الأنبياء. وسوف يتعين الانتظار إلى بدايات العصر العثمانى حتى نشهد تنوعاً لموضوعات هذا الجنس الأدبى.

ومنذ أن تكسب الإمارة التى أسسها عثمان فى شمال غربى الأناضول ركيزة هامة مع الاستيلاء على بورصا (١٣٢٦) ثم على نيقية (١٣٣٠ - ١٣٣١)، يتخذ أدباء عديدون موقف الولاء للحكام العثمانيين. تلك كانت بداية ما يمكن منذ ذلك الحين تسميته بالأدب العثمانى.

وهكذا فبعد ان أنجز أحمدى (١٢٣٥ - ١٤١٢) فى عام ١٣٩٠ كتاب الأسكندر (اسكندرنامه) الذى كتبه لأمير چيرمبيان، أهداه إلى سليمان العثمانى، المطالب بالعرش فى فترة الانتقال التى تلت موت بايزيد الأول فى عام ١٤٠٢. ويستلهم هذا العمل عمل نظامى الفارسى، الذى يجرى تحويله فى أن واحد فى اتجاه روائى وفى اتجاه تاريخى عن طريق ادخال تاريخ عالمى يجرى تكريس ٣٠٠ بيت فيه للعثمانيين. ويعتبر ذلك، بشكل ما، بحثاً أول فى الكتابة التاريخية العثمانية.

وينجز سليمان شلبى فى بورصا، عاصمة الامبراطورية، فى عام ١٤٠٩، قصيدته العظيمة عن مولد (النبي محمد)، وهى قصيدة المولد، التى ما تزال تنشد فى تركيا، منذ قرون، فى كل ذكرى سنوية لهذا المولد (١٢ ربيع الأول من التقويم الإسلامى) وبعد أربعين يوماً من موت مسلم. وهذه القصيدة، بدلاً من أن تكون سيرة، تعتبر تمجيداً لشخص النبي غير العادى، الذى يشكل تجسيداً لما هو مقدس، وهو تمجيد متأثر بالفرقة الصوفية مع بقائه ضمن حدود الأرثوذكسية السنية.

وليس من شأن الحديث عن الحياة الثقافية أن يقتصر على الأدب. ومما يؤسف له اننا لا نملك غير معلومات جد طفيفة عن أنشطة الفكر العلمى التركى فى الأناضول قبل العثمانية ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى الاقتصار على عدد قليل من العلامات ذات الدلالة.

يذهب التراث إلى أن أول مدرسة عثمانية قد أسسها أورخان بك نحو عام ١٣٣٠. وكما هو الحال فى المدارس السلجوقية، فقد تم فيها (علاوة على تدريس العربية وربما الفارسية) تدريس علوم الدين والفقه الشرعى الإسلامى والمنطق والميتافيزيقا والفلك والرياضيات والطب. وقد تأسست مدرسة ثانية بعد ذلك بوقت

قصير فى بورصا . وكان لدى المثقفين المسلمين إمكانية الدراسة فى أماكن أخرى من الديار الإسلامية، وهكذا فإن داود القيصرى، أول عميد لمدرسة نيسى، كان قد تلقى تعليمه فى القاهرة. كما كان العلماء يقومون بالترحال بحرية، وعلى سبيل المثال فإن عالم الفلك قاضى زاده (١٣٥٧ - ١٤١٢) مر بمدرسة بورصا، ثم أنهى حياته العملية كعميد لمدرسة سمرقند حيث شارك فى وضع جداول أولج بيج الفلكية الشهيرة . كما كتب بالعربية مبحثا فى الهندسة . أما حاجى باشا، وهو من قونيا، فقد أنهى دراسة الطب فى مصر ومارس الطب فيها، ثم عاد إلى الأناضول حيث أنجز عام ١٣٨٠ بحثه الشهير بالعربية : " شفاء الأمراض وعلاج الأوجاع " وأتبعه ببحث مماثل باللغة التركية.

وهكذا فإنه كان هناك فى الأناضول ، قبل التوسع الكبير للعثمانيين نشاط فكرى وثقافى حىّ ، لم يكن معروفا بدرجة كافية ، وهو يمثل محصلة للتقاليد الإسلامية، العربية - الفارسية، وللعبقورية التركية، وذلك فى مناخ دينى سعى التأثير الصوفى إلى تحريره.

الكلاسيكية العثمانية استمرارية ثقافية تركية

فى منتصف القرن الرابع عشر، الذى شهد ثقافة إسلامية تركية جديدة تتطور ، وتكتسب ملامح دقيقة فى الأناضول ، عبر العثمانيون المضايق ومروا بأوروبا . ومنذ عام ١٣٦٥ أقام مراد الأول عاصمته فى أندرىبول (إدرنا) ، ثم اتخذ بعد ذلك بقليل لقب السلطان. و تتحول الإمارة الصغيرة إلى امبراطورية تمتد بشكل متواز فى أوروبا وآسيا الداخلية . أما القسطنطينية التى حوصرت أكثر من مرة

يجرى فتحها فى عام ١٤٥٣ على يد محمد الثانى، وبعد ذلك بثلاثين سنة، سوف يحتل العثمانيون شبه إجمالى شبه جزيرة البلقان، من فالاشيا إلى البيلوبونيز ومن البحر الأسود إلى البحر الأدرياتي. وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، تمتد الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا حتى المجر؛ وفى آسيا فى العراق وسوريا وفلسطين؛ وفى افريقيا فى مصر وليبيا وتونس وشمال الجزائر.

وهو ما يعنى تنوع الجماعات السكانية والأديان واللغات والثقافات التى تتعايش فى هذا الكيان الجيوپوليتيكي الواسع. ويمكن للمرء توقع امتزاج فكرى وثقافى عظيم يودى إلى انصهار ما يشهد فيه العنصر التركى إما تحولاً عميقاً أو، على الضد من ذلك، فرضاً واسعاً له. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وصحيح أنه كانت هناك، عبر مؤثرات متبادلة، درجة معينة من التوحيد فى مختلف مجالات الحياة العادية: السكن، الملبس، أصناف المأكولات، الحرف، العمارة، الفنون الزخرفية، الموسيقى، الخ، وتبادلات لغوية عديدة، حيث تغفل المعجم التركى بشكل واسع فى غالبية لغات الامبراطورية، وحيث غزت المفردات العربية معجم التركية المكتوبة. كما كانت هناك، فى مناطق محددة، موجات تحول إلى اعتناق الإسلام، كما فى البوسنة وفى ألبانيا وجزر استيطان تركى صغيرة فى كل مكان إلى حد ما. لكن شعوب الامبراطورية العثمانية المختلفة، من حيث الأساس، سوف تحتفظ بلغاتها وبتقاليدها الثقافية، وفى أغلب الحالات بدياناتها، وبشعور قومى معين. يصبح، إذ يتأجج، بين المسيحيين، خلال القرن التاسع عشر، أحد الأسباب الرئيسية للتمزق النهائى.

وفيما يتعلق بالأترك، الذين تعودوا بالفعل منذ عدة قرون، فى الأناضول، على الصلات مع الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى، فإنهم سوف يظلون فى مجملهم متعلقين تعلقاً عميقاً بتقاليدهم وبديانتهم وبلغتهم. وإذا كان صحيحاً أنهم سوف

يتبنون، فى حياتهم المادية، وتقنياتهم وبعض فنونهم وتطورهم الاقتصادى وفى جانب من ادارتهم عناصر دخيلة عديدة، وإذا كان صحيحاً بدرجة مساوية ان استعدادهم الموروث للارتباط بغير الأتراك لم يكف عن خلطهم عرقياً بالسكان المحليين (وإن كان دائماً فى الاتجاه نفسه، عن طريق اتخاذ زوجات)، فإنهم على الرغم من ذلك، وحتى العقود الأولى للقرن التاسع عشر لم يغيروا بشكل عميق أساليب تفكيرهم، ذلك أن معتقداتهم، ومفهومهم عن العالم وعن المجتمع، واتجاهاتهم الفكرية، وأنواقهم الأدبية والفنية، وحساسيتهم لم تتطور كثيراً (فيما عدا استثناءات فردية قليلة) قياساً إلى ما يمكن رصده لدى أسلافهم الأناضوليين فى مستهل القرن الخامس عشر. فالمؤثرات التى أمكن لهم التعرض لها هنا أو هناك من جانب أوروبا المسيحية لم تكن غير مؤثرات سطحية و، من جهة أخرى، فإن شعورهم العميق بالتضامن، من حيث كونهم مسلمين، مع عرب الإمبراطورية لم يؤد (اللهم إلا فى المعجم المثقف) إلى تعريب للثقافة التركية الإسلامية، حيث حافظت الثقافة العربية، من جهتها، على أصالتها.

ومن ثم فإن الإستمرارية هى التى تتغلب فى التطور الفكرى والثقافى للإمبراطورية العثمانية، ولا يمكن للمرء فهم ذلك بشكل تام دون الرجوع إلى حضارة التركيب التى تشكلت فى الأناضول السلجوقية وقبل العثمانية.

بدايات حياة ثقافية إمبراطورية

مع اقامة بلاط السلاطين، بعد الفتح، فى القسطنطينية، التى أصبحت تسمى اسطنبول، تتخذ الحياة الثقافية العثمانية بعداً جديداً: فهذه الحياة التى كانت اقليمية إلى هذا الحد أو ذاك فى بورصا، ثم فى ادرنه، تصبح منذ ذلك الحين إمبراطورية وتنتظم حول مركز مهيب، يقع بشكل يدعو إلى الإعجاب بين أوروبا وآسيا.

والواقع أن محمد الثانى، الفاتح، وهو نفسه مثقف ممتاز، وشاعر، على دراية جيدة بالعربية وبالفارسية وواسع الاهتمام بالإلهيات وبالعلوم، سوف يعمل بشكل منهجى على تحويل عاصمته إلى بؤرة فكرية عظيمة. وقد تمثلت إحدى مهامه الأولى فى اصلاح المدارس، بتقسيمها إلى كليتين بما يتمشى مع مستويين من مستويات المعرفة. وفى هاتين الكليتين، يجرى تدريس العربية والفارسية والإلهيات والشريعة الإسلامية والمنطق والحساب والفلك والطب. وهو يؤسس، علاوة على ذلك، فى اسطنبول، جامعة كبرى من ثمانى كليات، ويستدعى إليها أفضل العلماء المسلمين، مع اتاحته تعليم الطب على أية حال لممارسين من جميع الطوائف (خاصة اليهود). ويجرى الحاق مستشفى بكلية الطب، وقد جرى إعداد بحث ضخيم بالتركية فى الجراحة، مصور بالمنمنمات، وأهداؤه إلى السلطان فى عام ١٤٦٥ (وهو يستعيد العمل الشهير الذى أعده الزهراوى بالعربية). كما تمت ترجمة مؤلفات علمية أو تاريخية يونانية مختلفة إلى العربية أو إلى الفارسية. وقد أبدى محمد الفاتح اهتماماً حيويًا بالمسيحية و (مع بقائه مسلماً صالحاً) بالحضارة الغربية؛ وقد استدعى إلى بلاطه عدة مثقفين وفنانين ايطاليين، من بينهم الرسام جنتيل بيليني، الذى خلف بورتريها رائعاً له.

وإذا كان مما لا مرأى فيه أنه كانت هناك، بالنسبة لصنع وتنويع الآلات، اضافات أوروبية إلى التراث الموسيقى التركى، الواضح الانتماء، فى مؤلفاته الرصينة، إلى تراث العالمين العربى والايرانى، فإننا قلما نستطيع رصد تأثير غربى فى التطور المتزايد الرهافة للموسيقى العثمانية، خاصة الموسيقى الاوركسترالية، المرتبطة ارتباطاً حميماً بأفراح البلاط، أو بإحياء الاحتفالات الرسمية. وتتميز المصاحبة الموسيقية لبعض الاحتفالات الدينية للطرق الصوفية كطريقة المولوية باستمرارية للتراث أيضاً.

وتظهر هذه الإستمرارية نفسها بجلاء فى تطور الأدب، الذى تعتبر أجناسه، وأشكاله موروثة، من حيث الجوهر، من قرون سابقة، والذى يعتبر المؤثر غير التركى الوحيد فيه دائماً، وبشكل متزايد، هو المؤثر العربى - الفارسى. فهو، كما كان الحال فى السابق، أدب إسلامى بشكل نموذجى، حتى فى المؤلفات الأكثر دنيوية. على أن مصدر الالهام السائد فيه ليس دينياً، لكن التعبير هو الذى يحيل فيه بإستمرار إلى الإسلام. بل إن الشعر الغزلى (وهو بوجه عام شعر جنسى مثلى) يتنكر فى شعر صوفى، حيث يأخذ الحب الإنسانى شكل توحيد فى الإلهى، ويوحد الشعر الباخوسى (الخمري) السكر مع النشوة الدينية. ونجد فى ذلك استعادة لخصائص الشعر الفارسى، الذى يواصل الهام الشعراء العثمانيين.

الشعراء العثمانيون. باقى وفوضىلى

إن عددهم وأهميتهم فى الحياة الثقافية للارستقراطية المتأدبة يتزايدان مع توسع الامبراطورية. وهم يتمتعون بالحماية، بل وبالإعاشة، من جانب السلاطين وكبار الوجهاء، الذين يتوقعون منهم، عبر الروائع الجمالية، إعلاء من شأن هيبتهم. كما أن بعض من يتميزون بينهم بصدق ايمانهم يلقون نجاحاً كبيراً بين الأعضاء، الأكثر عدداً دائماً، فى الطرق الدينية ذات الاتجاه الصوفى، التى تزدهر على مدار مجمل تاريخ الامبراطورية العثمانية.

والبلاط ساحة متميزة للشعر. وجميع السلاطين قريباً يقرضونه، وأحياناً بموهبه. وهو يتمتع بالاحترام بين سيدات الحريم السلطانى وسيدات الارستقراطية، حيث تهتم عديدات منهن به. كما أنه يهيمن على الأجناس (الأدبية) الأخرى فى المدن الكبرى للولايات، فى بورصا وأدرنه، العاصمتين السابقتين، أو أيضاً فى بغداد، التى تم فتحها فى عام ١٥٣٤.

والواقع أن شعراء البلاط العثمانيين قد تلقوا كلهم في شبابهم التعليم الكلاسيكي الذي كان يجري تقديمه، على مستوى عالٍ، في المدارس. وهم على دراية جيدة بالعربية وبالفارسية ومشربون بالثقافة الأدبية العربية-الفارسية. وبدءاً من المعجمين العربي والفارسي الثريين، وفي روح الشعر الفارسي الكلاسيكي، يطورون لغة شعرية مثقفة بشكل متزايد، تتميز، مع احتفاظها من حيث الجوهر ببنية اللغة التركية وبنحوها، باختزال استخدام الكلمات التركية اختزالاً فريداً.

وهم يستلهمون بشكل واسع، بالنسبة لتيماتهم ولصورهم، التراث الفارسي، لكنهم يبدون بوجه عام خيالاً واسعاً في تجديد الرموز والحيل اللفظية (ذات المعنى المزدوج أو الثلاثي بما يخلق التباساً بين المقدس والدنيوي) وموسيقية الشعر. ويتألق أغلبهم تألقاً أكبر بكثير بالتميق الزائد عن الحد لكتاباتهم، بل وبالحدائق فيها، وباتساق صوتيات لغتهم مما بمحتوى فكرهم. وهم يلجأون إلى المخططات العروضية العربية - الفارسية الأكثر حذقاً، وإلى الايقاعات الداخلية والخارجية أو إلى المجانسات الصوتية الأكثر براعة. وهم يعتبرون، دون صياغة نظرية لذلك، أتباعاً لدعوة الفن للفن، فيما عدا استثناءات قليلة.

ويطور أغلبهم دون توقف، ولكن ببراعة، التيمات الكلاسيكية للشعر الفارسي: التيمات الدينية، حيث يشار إلى تقلب أحوال الدنيا وتجري الدعوة إلى التأمل في الآخرة؛ التيمات الدنيوية، المقنعة إلى هذا الحد أو ذاك، حيث يدور الحديث عن عشق الغلمان والخمر، وآلام الفراق وتعاسات الشيخوخة. أما الأحساس بالطبيعة والذي يبين أحياناً في أشعارهم فهو بالأساس احساس عشاق مدينين للجمال يغنون للحدائق وللأزهار، وللطيور ولأحواض المياه في المتنزهات، مع ميل إلى طيور العندليب والورود، وإيثار لضوء القمر على حرارة الشمس وللربيع على أي فصل آخر.

وليس بإمكاننا هنا الإشارة إلى جميع الشعراء المشاهير في الامبراطورية العثمانية من منتصف القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر (حيث تبدأ حركة نحو الحداثة، تحت تأثير أوروبا). ولذا فسوف نقتصر على الحديث عن أعظمهم.

ومما لا مرء فيه أن من الجنوح أن ندرج بينهم أحمد باشا، أحد رجال الحاشية المقربين من محمد الثاني والذي عاش بعده حتى عام ١٤٩٧ في عهد بايزيد الثاني. فعمله يتميز في جانب كبير منه بأنه تقليد للشعراء الفارسيين، ومن بينهم حافظ، وقد رفع مديحه للسلطانين إلى أقصى حدود البلاغيات الطنانة. على أننا نعترف له بدور تاريخي هام، من حيث كونه مجدداً لشعر البلاط العثماني، عبر استغلال من المؤكد أنه يتميز بالفلو، لكنه، في نهاية الأمر، حاذق بشكل حقيقي، للمعجم اللغوي والبحور ولرمزية الشعر الفارسي، الذي تأثر به تأثراً عميقاً. كما أنه يعتبر مدشن سلسلة من شعراء البلاط الذين يستحق بعضهم مجداً أعظم.

والواقع أن أكثرهم تألقاً، وهو باقى (١٥٢٦ - ١٦٠٠)، الذي جاء بعده بقرن، في عهد سليمان القانوني، الذي تعرف بسرعة بالغة على موهبته وضمه إلى حلقة الأدبية، كان يسمى، حتى وهو ما يزال على قيد الحياة، بـ «سلطان الشعراء». وتحت حمايات امبراطورية، يحقق ابن المؤذن هذا، نو الثقافة العميقة، صعوداً سريعاً في زمرة العلماء، إلى أن يصل إلى الدرجة قبل الأخيرة في الهيراركية، وهي درجة قاضى عسكر روميليا. ويجرى التأكيد على أن موته قد عجل به الاكتئاب الذي سببه له فشل ترشيحه لدرجة شيخ الإسلام العليا. وقد قادت حياته كواحد من كبار رجال الدين إلى انتاج أعمال تعلو من شأن الأرثوذكسية الإسلامية الأكثر نقاءً، لكن قصائده الغنائية بوجه خاص هي مصدر شهرته. فالواقع أن هذا المتفقه

فى الدين كان أيضاً رجلاً دنيوياً، جيد المزاح، وكان ينتمى إلى حلقة عشاق جمال الثقافة العربية - الفارسية الرفيعة ويتظاهر على الأقل بالاستسلام لنوازعه. وتحتل الخمر والغلمان فى غنائياته، تبعاً للعرف ومراعاة للموضة، مكانة هامة لكنه يطور أكثر من الآخرين التيمات الدينية والصوفية. ويجمع أسلوبه الحاذق إلى أبعد حد بين القوة والرشاقة، بين الجذالة والرصانة، مع صقل أكاديمى إلى حد ما. ومن شأن موسيقية أشعاره، الخفيفة أحياناً، أن تصل إلى مستوى النبرات المهيبة لسيمفونية، كما يتجلى ذلك فى مرثيته الشهيرة لسليمان القانونى.

و «عصر سليمان»، القرن السادس عشر، العصر الذهبى للامبراطورية، هو العصر الذى ينضم فيه إلى العثمانيين شاعر تركى آخر، ربما كان أعظم شعراء زمانه، هو فوضولى (١٤٩٤ - ١٥٥٥). ولما كان قد انحدر من قبيلة البياتيين التركمينية فى العراق، ذات العقيدة الشيعية، فقد أهدى أعماله الأولى للخصم الرئيسى للعثمانيين، شاه اسماعيل، الزعيم الروحى والزمنى لایران الصفوية، المناضل باسم الشيعية ضد سنية سلاطين اسطنبول. ولما كان مثقفاً واسع الدراية، يكتب الشعر بسهولة بالعربية وبالفارسية، ويستمد الزاد من معين الشعر الغنائى والفارسى، فقد أجاد مختلف أجناسه فى لغته الأم، وهى لهجة تركية من النوع الآزيرى (لكنها جد مفهومة فى تركيا). وشأنه فى ذلك شأن شعراء الامبراطورية العثمانية المثقفين، فإنه يستخدم معجماً ثلاثى اللغات، حيث يهيمن الجزء العربى والفارسى المشترك على الجزء التركى، الذى يحتفظ منه من جهة أخرى ببنيته وينحوه. وهذا المنشد للعشق الصوفى، الذى ينظر إليه فى التراث اللاحق بوصفه صوفياً نقياً، يؤلف كذلك، إلى جانب الأعمال ذات النزعة الروحية الإسلامية السامية، كقصيدته العظيمة، ذات الموضوع الكلاسيكى، عن الحب الافلاطونى لىلى والمجنون، اللذين لا يلتقيان إلا فى الآخرة، قصائد عديدة رقيقة فى حب الغلمان، حيث تتبدى نزعة حسية غزلية - صوفية، تحت الالتباس المقصود للصور والرموز.

وهو يجدد بأسلوب معبر وبهيج هذا الجنس (الأدبي) التقليدي في الشعر الفارسي؛ وهو يجد في ذلك، للتعبير عن مكابدات الحب، نبرات صادقة تتقاطع مع رقة متكلفة تسم بعض الفقرات، و، في الغنائية الروائية لقصيدته ليلي والمجنون (التي تعتبر عمله الرئيسي)، يكتسب الهامه الصوفي قوة وعظمة. إلا أن بوسعنا التساؤل مع ذلك عن مدى عمق معتقداته الدينية، لأنه، عندما فتح السنّي سليمان بغداد في عام ١٥٣٤، سعى إلى كسب ود السيد الجديد للعراق وتصرف منذ ذلك الحين بوصفه أحد الرعايا المخلصين للعثمانيين. على أنه لم يجر السماح له مع ذلك بدخول بلاط اسطنبول، ومات من الطاعون في بغداد في عام ١٥٥٥. وم يكن من شأن مجده إلا أن يزداد بعد موته: فتركيا والعراق وإيران وأذربيجان ما تزال تتنازع عليه بوصفه أحد أبطال تراثها الشعري.

وأياً كان الأمر، في التو وال حال، فإن باقى، شاعر القصر العثماني، وليس فوضولى، الذى يبقى فى بغداد، هو الذى يحدد اتجاه الشعر العثماني الكلاسيكي، على مدار القرن الذى يعقب موته. وإن يتمكن أحد من مقلديه فى القرن السابع عشر من الاقتراب من أن يكون نداً له فى موهبته. والشاعر الأول المميز إلى حد ما لهذا العصر، وهو عطائى، يعتبر مقلداً للفرس، فهو، فى قصيدته الطويلة ساقى - نامه (كتاب الساقى)، يوحد بين التيمات الخالدة للغلمان والخمر، كما يكتب قصائد صوفية وأخلاقية. وتتميز بحيوية أكبر قريحة نافع (١٥٨٢؟ - ١٦٣٥)، جليس السلطان مراد الرابع، الذى كتب له قصائد مدح فخيمة، تعتبر نماذج فى بابها، دون أن ينسى مدح نفسه. كما ألف، بما يتمشى مع ذائقة الزمن، قصائد تتميز بموسيقية خفيفة وهجائيات لازعة سوف تكون فى آن واحد مصدر نجاحه وموته: فالسلطان، هذا المؤمن المشار إليه بالبنان، يأمر بقتله ويلقى بجثته إلى البحر.

وفى العقد الأخير للقرن السابع عشر، يكتب نبى (١٦٤٢؟ - ١٧١٢)، الذى رجع إلى حلب بعد أن كان محسوباً للصدر الأعظم قره مصطفى باشا (الذى أعدم

بعد فشله فى حصار قيينا)، كتاباً صغيراً لابنه يتضمن نصائح مكتوبة بشكل شعري، هو كتاب الخيرية، الذى يعتبر، من حيث محتواه بأكثر مما من حيث شكله (الفارسى الجديد دائماً)، أحد الأعمال الأكثر امتاعاً فى الشعر العثمانى: ففى استعراضه للأعمال الممكنة، قبل الانتهاء إلى الاعلاء من شأن الأدب، يصف نون مجاملة أحوال الحياة آنذاك، مع صعود الفساد، ويرسم لوحات للوسط السائد تتميز بحيوية فائقة. أما قصائده الخفيفة، التى تظهر فيها تيمات «الغزل» الكلاسيكى، فهى تتضمن عناصر ساخرة ذات نبرة جديدة.

تجديد الأدب

مهما يكن من أمر، لا يحدث تجديد عميق للأدب العثمانى إلا فى عهد أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠). ويحدث ذلك خلال الأعوام الاثنى عشرة للسلم المستمر (وهو ظرف نادر!) الذى سوف يتلو معاهدة عام ١٧١٨ بين الامبراطورية العثمانية والنمسا والبندقية، فى ظل صدارة إبراهيم باشا العظمى. وقد تميزت فترة الهدوء ودعة الحياة تلك، فى البلاط وفى العاصمة، بالأعياد وباشكال اللهو المختلفة، وبإنشاء الحدائق، وبظهور موضوعات جديدة. وكان هناك، فى القصر وبين صفوف الارستقراطية، افتتاحان غير عادى بأنواع زهرية مكلفة تشتري من هولندا مستنبطة من زهرة برية من الأناضول، ومن هنا اسم «عصر زهور الخزامى» الذى سميت به أزمنا المسرات الرسمية تلك.

وكان شاعر هذا العصر النزق هو نديم، ابن أحد قضاة اسطنبول، والذى كان هو نفسه أستاذاً فى المدرسة ومحسوباً لإبراهيم باشا، ولا تكمن أصالة هذا الشاعر من شعراء البلاط فى قصائد المديح الثلاثين (والتي تعتبر من جهة أخرى أقل خشونة وأكثر روحية من قصائد سابقه) التى كتبها تمجيداً للسلطان ولصدره الأعظم، بقدر ما تكمن فى القصائد القصيرة التى ألفها لكى تغنى فى الأعياد

بمصاحبة موسيقية. ومن المؤكد أننا نجد فيها موضوع عشق الغلمان الذى لا مفر منه، لكنه يعالج بنبرة مرحة ورشيقة تختلف عن النبرة الحزينة والطنانة المميزة للتراث السابق، وتتجنب الرياء الصوفى الكاذب. ثم ان جماليات شعر نديم تظهر هنا أقل تقليدية بكثير: فوصفه للحدائق والملابس والمشاهد الملاحظة يعطى انطباعاً بالتلقائية، كما هو الحال مع وصفه لابطال قصائده الرشيقين. ودون التخلّى بالكامل عن الصور المصطنعة الموروثة عن الفرس، فإنه يتجنب الأسلوب الملتبس المعقد ويخلق هو نفسه صوراً تتميز ببساطة معبرة. كما أننا لا نجد عنده بعد لا الوعظ الأخلاقى ولا التجديف المتخفى تحت طلاء دينى براق.

ومثل هذا القدر من الاستقلال الفكرى وعدم المبالاة بما هو مقدس ليس من شأنه إلا أن يغضب الأوساط السلفية، جد المؤثرة فى الفئات الفقيرة فى العاصمة، والتي يصدمها من جهة أخرى بذخ البلاط المنلفت الزمام، وبين صفوف الانكشارية، العاطلين والمفلسين بحكم سيادة السلم. وهكذا، فعندما سوف يتمرد هؤلاء الآخرون، فى عام ١٧٣٠، ويخلعون أحمد الثالث، سوف يكون شاعر البلاط من بين ضحايا هذه الثورة، التى سيذبح خلالها حاميه إبراهيم باشا.

ولا يبرز خلفاء لنديم ويدخل شعر البلاط، بعده، فى انحطاط. على أن العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر تتميز بنجاح شاعر حقيقى آخر، وإن كان مصدر الهامه والوسط الذى ينتمى إليه مختلفين: هو غالب ديدى (أو الشيخ غالب)، الذى ولد ومات، كنديم، فى اسطنبول، وهو درويش مولوى راسخ العقيدة. وكان رئيس تكية المولوية الكبرى فى جالاتا وقد مات فى أوائل عام ١٧٩٩، فى الحادية والأربعين من عمره. ويعتبر عمله الرئيسى، حُسن - أو - عشق (حُسن وعشق)، قصيدة رمزية طويلة، حيث يعتبر بطليها الخياليين، المولودين بشكل معجز، وهما عشق (ولد) وحُسن (بنت)، شابين بدويين من شبه الجزيرة العربية. أما الشخصيات الأخرى

فهي تشخيصات لمجردات، كالشهوة والحيرة والتواضع ... وهذه الاصطلاحات التي تعوزها الأصالة من شأنها استثارة الملل، لولا غزارة خيال الشاعر، الحالم الرؤيوى بالشياطين وبالملائكة، مبدع المغامرات الغريبة، الذى تلهمه نزعة صوفية صادقة. ومن جهة أخرى، فإن غالب ديدى، ذا المعرفة التامة بعمل الصوفيين الفارسيين ومولانا (جلال الدين الرومى)، يبدى براعة أدبية عظيمة وتبتكر نزعتة العقلانية الدينية أشكالاً جديدة للتجريد العاطفى، يجرى تقديمها بشكل مدهش فى إطار روائى.

وهو، فى ختام القرن الثامن عشر، آخر شاعر تقليدى عظيم فى الامبراطورية العثمانية. وحتى الأعوام الأولى للقرن العشرين، سوف يستمر تعاطى الأجناس (الأدبية) والقيمات الكلاسيكية، خاصة فى أوساط العلماء والدرائش، بدرجات متفاوتة من النجاح، عن طريق المحاكاة المحدثّة إلى هذا الحد أو ذاك لأعمال الإسلاف الكبار، دون اضافة الكثير من الأفكار الأصلية. فالواقع أن الرمزية الصوفية والغلمان والخمر والوردة والعنديل وقيمة العاشقين الأسطوريين سوف تواصل اثاره اهتمام الأدباء العثمانيين خلال القرن التاسع عشر، وإن كان بعدد أقل. وبدءاً من اصلاحات (تنظيمات) عام ١٨٣٩ وأوربة المؤسسات وتحديث التعليم سوف تتحول الصفوات العثمانية تدريجياً عن مخلفات الماضى الثقافية، وسوف يؤدى تأثير أوروبا الأدبى - تأثير الرومانسية، بالدرجة الأولى - إلى استثارة تغيير، إن لم يكن لأشكال الشعر العثمانى، فلمحتواه على الأقل.

الشعر الشعبى

إن الهيبة الارستقراطية لهذا الشعر المثقف، المحصور ضمن نادر الأدباء، لا يجب لها أن تدفعنا إلى نسيان وجود شعراء شعبيين أو شبه شعبيين جد عديدين فى الولايات التركية للامبراطورية، من المؤكد أن جمهورهم كان أوسع بكثير من

جمهور شعراء البلاط. والواقع ان الاهتمام باعمالهم (التي لم يتسن البقاء إلا لجزء جد صغير فقط منها، لأنها كانت تنتقل شفاهة أساساً) قد تزايد كثيراً في تركيا منذ قيام الجمهورية وذلك، خاصة، بسبب طابعها القومي بشكل حقيقى أكبر. وليس بوسعنا أن نذكر هنا غير بعض هؤلاء الشعراء، ممن أصبحوا موضع دراسات فى الفترة الأخيرة وإن كانت سيرهم ما تزال غير معروفة جيداً وغالباً ما تعرضت أعمالهم، عبر نقلها، لتغييرات أو لاضافات مختلفة.

وكانت طريقة البكتاشية الصوفية الشعبية، المهرطقة إلى هذا الحد أو ذاك، تضم عدداً كبيراً من الشعراء، أشهرهم كايغوسوز آبدل (القرن الخامس عشر)، «الخلى البال»، الذى يستمتع بالمزاح ولا يكن احتراماً للعقائد الجامدة، وپير سلطان آبدل (القرن السادس عشر)، الذى جره خروجه على الاتباعية الدينية والاجتماعية إلى تأييد الشاه الشيعى لايران الصفوية، شاه طهماسب، وإلى تزعم تمرد للفلاحين فى الأناضول الشرقية ضد السلطة العثمانية؛ وهو يصبح، بعد أسيرة وشنقه فى سيواس، بطلاً أسطورياً، مبعجلاً لدى العلويين (طائفة جد شعبية وكثيرة العدد فى تركيا، انبثقت عن الشيعية الايرانية للشاه اسماعيل، لكنها مستقلة عن الشيعية الاثنى عشرية الحالية فى إيران، التى تتميز عنها باتجاهاتها الغنوصية والإنسانية). وفى الأوساط العلوية التركية بالتحديد استمر التراث الشفهى للأعمال الشعرية لشاه اسماعيل، الذى ألفه لحساب دعوته الدينية بلغة تركية شعبية نسبياً. إلا أن من الصعب التمييز، فى هذا التراث، بين ما هو حقيقى وما هو منتحل، حيث أن هذا الشاه قد تحول إلى أسطورة، مما ينسب إليه مغامرات غير عادية، كما ينسب إليه اشعاراً يعتبر بعضها حديث التأليف نسبياً. وما يزال شعر البكتاشية والعلويين الصوفى حياً فى تركيا عند العاشقين، الشعراء الشعبيين المتجولين.

والواقع أن هؤلاء «الشعراء الشعبيين» الأتراك، الذين ينشدون قصائدهم بمصاحبة الساز (آلة ذات أوتار مضمومة)، كانوا يتواجدون أيضاً في القبائل البدوية في الأناضول، كقبائل اليوروك أو التركميين، وقد انتقل تراث اثنين منهما على الأقل إلى الأَخلاف: فكارجا أوغلان (مات في عام ١٦٧٩م)، الذي يتغنى على نحو حسي ومباشر بعشقه للنساء، دون أدنى إحالة صوفية، في لغة بسيطة ولمموسة وشجية، ما يزال حياً إلى أبعد جد، لأنه يعبر بشكل أفضل بكثير عن مشاعر الأتراك السائدة وهو ما لا يتوفر لشعراء البلاط. أما دادا لوغلو (القرن التاسع عشر)، فإنه يدين بشهرته أساساً للنفس الملحمي لقصائده، التي تذكر بتمردات التركميين ضد محاولات التسكين الإجباري التي قامت بها الحكومة العثمانية. والأول والأخير، شأنهما في ذلك شأن العاشقين، يستخدمان أساساً اللغة التركية الحية، لا اللسان الثلاثي اللغات للشعراء الكلاسيكيين؛ وهما يؤلفان قصائدهما في أبيات مقطعية (وليست عروضية)، وهو الشكل الطبيعي للشعر التركي العفوي.

والواقع أن هذا الشعر، في شكله الشفهي، لم يكف عن الازدهار وسط الشعب، مع آلاف من الكتاب المجهولي الأسماء والعرضيين، خاصة أولئك الرجال والنساء الذين يشاركون في مباريات الارتجال الشعري، حيث كان الشكل الأكثر انتشاراً هو شكل المائي، وهو عبارة عن رباعية سباعية المقاطع على قافية واحدة، تعلق في البيت الثالث. وقد جمع الباحثون في الفولكلور نماذج عديدة من هذه القصائد الصغيرة الخالية من الادعاء، والتي يعتبر الحب موضوعها الأثير، والتي كان بإمكانها أن تلعب دور تبادل تصريحات (الحب) بين الأولاد البنات في مجتمع قلما كان التعبير المباشر فيه عن الحب وارداً. على أننا لا نعرف من هذا الشعر غير أشكاله الحديثة، وإن كان بعض كتاب الحواريات قد استشهدوا به أحياناً، بشكل عرضي، منذ القرن الرابع عشر.

كما تنتمي إلى الأدب الشعبى المجهول المؤلفين قصائد أسطورية أو ملحمية - أسطورية طويلة، يصل الأمر أحياناً إلى حد اعتبار أبطالها (وهم، فى الأصل، غالباً، شخصيات تاريخية) المؤلفين لها. وتلك هى حالة كور أوغلو «ابن الأعمى» (نمط ماثل فى أساطير عدة شعوب)، الذى تحتل قصيدته الملحمية، التى تطورت فى تركيا وفى أذربيجان، مكانة هامة فى نتاج العاشقين. وهذا «اللس الشريف»، المحارب الشجاع الذى ينتزع الحقوق المهضومة، هو فى الأصل جندى شارك فى الحرب التركية - الإيرانية لأعوام ١٥٧٧ - ١٥٩٠ وأصبح زعيماً لفرقة من الجلالين فى ثورتهم الكبرى ضد العثمانيين. وقد واصلت أسطورته النمو حتى آخر أزمنة الامبراطورية.

وإذا كان صحيحاً، أن الشعر، الشعبى والارستقراطى على حد سواء، يحتل مكانة ممتازة فى الحياة الثقافية التركية والعثمانية، فإن النثر ليس غائباً عنها مع ذلك. ويحفظ التراث الشفهى شواهد جد عديدة على ذلك: الحكايات، الأساطير، والقصص الروائية (التي يرويها ويؤلفها فى نهاية الأمر محترفون، هم المداخون)، أو أجزاء من نصوص مركبة، نثرية وشعرية. أما فيما يتعلق بالنثر المكتوب، الذى ينتمى إلى التراث الكلاسيكى أو شبه الكلاسيكى، فيجد تمثيلاً واسعاً له فى الأدب التركى للامبراطورية العثمانية.

والواقع ان نتاجاته الأولى المعروفة (فى القرن الرابع عشر) متواضعة. وهى تتألف بشكل خاص من ترجمات أو اقتباسات لنماذج عربية - فارسية: الحكايات والأساطير الموجبة للعبارة، حول خلق العالم وحياة الأنبياء أو حياة أبطال الجهاد، وكذلك حكايات مسلية تمهد لآلف ليلة وليلة. ولغة هذه الحكايات بسيطة نسبياً وقريبة من التركية التى يتحدث بها العوام

الكتابة التاريخية

فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تظهر بوجه خاص، فى الاتجاه

الأسطوري نفسه، صياغات مكتوبة جد ممتعة لحكايات التراث الشفهي. وهذه الحكايات تعتبر بوجه خاص أنواعاً من روايات الفروسية الإسلامية، التي تبرز مقاتلين جسورين من أجل الإسلام، كالبطل الغازي، أو ملك دانشمند أو أبو مسلم، أو دراويش صانعين للمعجزات لهم مغامرات غير عادية، كساري سالتوك، كما تظهر الكتابة التاريخية، مع مزيج من الحقائق الواقعية وأساطير المجد، أكان الأمر يتعلق بالسلطين العثمانيين أو السلاجقة، أو كذلك، في الأوغوزنامات، بالتقاليد الأسطورية للأوغوز، التي تنبثق منها سلالاتهم الحاكمة. وتعتبر حوليات يازجي زاده، الذي عاش في غاليبولي (غليبولو) قبل الاستيلاء على القسطنطينية، في عهد مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١)، جد ممثلة لهذا الجنس الأدبي. وإلى جانب الحوليات، لابد من الإشارة إلى كتب المناقب نامه، التي تعتبر في آن واحد أدباً دينياً وبطولياً يجد أصله في الروايات الملحمية التركية وفي التراث الإسلامي للمغازي و لمناقب الأولياء. وقد روى فتح أوروبا البلقانية في هذه المناقبنامات التي كان يقصد بها أن تتلى في الأماكن العامة وفي الجيش بهدف تمجيد روح الغزو.

لكن البداية الحقيقية للكتابة التاريخية العثمانية ترجع إلى ما بعد الاستيلاء على القسطنطينية، في عهدى محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) وبايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢). وتعتبر الحوليات التركية المكتوبة آنذاك عن كتابة تاريخية رسمية، فهي تكتب بناءً على طلب السلاطين بهدف تمجيد مآثرهم ومآثر أسلافهم. وهذا التاريخ الرسمي بعيد عن التعبير عن الحقيقة الدقيقة، خاصة فيما يتعلق بسير الأحداث في ظل العثمانيين الأوائل؛ فأعمالهم يجرى تصويرها تصويراً ايجابياً على حساب أعمال البكوات الآخرين في آسيا الصغرى، بما يؤدي إلى الذروة مع محمد الثاني وبايزيد الثاني، صانعي توسع وتنظيم الامبراطورية. على

أن هذه النصوص تتضمن عناصر حقيقية يمكن رصدها من خلال المصادر اليونانية أو العربية المعاصرة، لكنها تستنسخ بعضها البعض إلى حد بعيد والأصالة ليست امتيازها.

على أن بعض الحوليات تسلم من هذا المصير، كحوليات عاشق باشا زاده (١٤٠٠ - ١٤٨٤)، الذي غالباً ما يعتبر سرده نتيجة شهادات مباشرة ويشكل، بالرغم من جزئيته، وثيقة أساسية. وينتمي إلى العصر نفسه الدستور - نامه الذي كتبه الأنورى (١٤٦٤)، وهو سرد شعري يروي مآثر أمراء أيدين في منتصف القرن الرابع عشر. وفي أواخر القرن الخامس عشر ومستهل القرن السادس عشر يكتسب التأثير الفارسي أهمية، حيث تعتبر الفارسية في بلاط القسطنطينية اللغة الأدبية بامتياز. وهكذا تكتب بالفارسية آنذاك الشاهنامات التي تمجد السلاطين (تبدأ آنذاك مهنة الشاهنامجي في الظهور)، والتاريخ العالمى لشكر الله وخاصة الهيشت بيهيشت (الفرايس الثمانية) لأدريس بتليسى (١٥٠١) الذي يتتبع في ثمانية فصول تاريخ السلاطين العثمانيين الثمانية الأوائل. وباللغة التركية، وإن كان بتفرسن بالغ، كتب كتاب تاريخ - اى ابو الفتح (تاريخ الفاتح) من تأليف دورسون بك، والذي يتميز بادعاء فلسفى. وبعد ذلك بوقت قصير، يجد المرء دراسات مكرسة لسليم الأول أو لسليمان القانونى، أو لحدث معين، أو لحملات عسكرية (سوريا، مصر، رودس، المجر، العراق). وغالباً ما تعتبر هذه الدراسات روايات امينة، تستند إلى الشهادات المباشرة أو إلى الوثائق. وهكذا تظهر السليم نامات و السليمان نامات و الفتح نامات، والتواريخ المحلية. واعتباراً من عهد محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) فقط تبدأ كتابة الشاهنامات بالتركية: على أن موضوعيتها ليست أقل عرضة للشك.

وتظهر بدعة في ذلك العصر: أخبار الحملات البحرية؛ إذ يجرى الاحتفاء بمآثر

كبار قراصنة القرن السادس عشر، كماثر خير الدين بارباروسا، فى الغزوات نامات، وهى شكل من أشكال الحكاية الشعبية ذات الاتجاه الروائى. كما يبرز أيضاً بحث الصدر الأعظم لطفى باشا، أساف نامه، وهو بحث تُعدُّ فيه مهام وواجبات كبار مسئولى الدولة.

وكبار كتاب الحوليات فى ذلك العصر هم كمال باشا زاده (مات فى عام ١٥٣٤)، مؤلف تواريخ - اى آل - اى عثمان (تواريخ آل عثمان) المكتوب بلغة مزخرفة وثرية، والذي يحتفى بانتصار السلطان سليم فى موهاكس فى عام ١٥٢٦؛ وسعد الدين أفندى (مات فى عام ١٥٩٩)، شيخ الإسلام ومؤلف تاج التواريخ، وهو تاريخ للعثمانيين منذ بداياتهم إلى موت سليم الأول، أكمله ابنه محمد أفندى، وقد ظل عملاً مرجعياً لزمان طويل؛ ومصطفى أفندى سيلانيكلى (مات نحو ١٥٩٩) الذى خلف قاريخاً يروى أحداث الفترة الممتدة من عام ١٥٦٣ إلى عام ١٥٩٩، وهو عمل هام لأن المؤلف، وهو شاهد مباشر على الأحداث التى يرويها، يظهر إلى أى حد بدأت ادارة الامبراطورية العثمانية فى الانحطاط فى أواخر القرن السادس عشر، ويستشعر المرء بالفعل جهداً شخصياً للنقد ورفضاً للمديح بمناسبة وبون مناسبة.

ويحدث فى القرن السابع عشر تجديد للكتابة التاريخية، مع كتاب يبدأ أكثرهم أهمية، عبر غربيين متحولين إلى اعتناق الإسلام، فى أخذ المصادر الأوروبية فى الحسبان، كحاجى خليفة (المعروف بكاتب شلبى، الذى مات فى عام ١٦٥٧)، أو إبراهيم بيتشيوى (مات نحو عام ١٦٥٠) أو حسين حيدر فى عام ١٦٩١. ومن بين كتاب الحوليات الآخرين فى ذلك العصر تجب الإشارة إلى كوتشى بك (مات نحو عام ١٦٥٠)، وهو مؤلف رسالة نجد فيها تحليلاً دقيقاً للمساوىء التى تشكو منها الامبراطورية وللإصلاحات الممكنة؛ ولما كان مستشاراً للسلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)، فقد حث هذا الأخير على أن يحكم بقوة؛

أما مصطفى على (١٥٤١ - ١٦٠٠) فهو مؤلف كنه الأخبار، وهو تاريخ عالمى حتى عهد محمد الثانى، يستند جزئياً إلى مصادر تعتبر اليوم غير معروفة، كما أنه مؤلف كتاب ارشادات للولاء حيث يسجل تأملاته فى أسباب انحطاط السلالات الحاكمة. وحاجى خليفة هو مؤلف كتابين حول الاصلاحات التى يجب ادخالها على الامبراطورية، وإن كانا لم يلقيا نجاحاً: ميزان الحق و دستور العمل. وقد خلف ابراهيم بيتشيوى، وهو تركى من المجر، تاريخاً اعتمد فى كتابته على مصادر غربية، مجرية بوجه خاص. أما حسين حيدر فين، موظف الخزانة، فربما كان على دراية بلغات اجنبية؛ وأياً كان الأمر، فقد كان على علاقة بالسفير نوانتيل وبأنطوان جالان، وبمارسيجلى، وهو مؤلف بحث حول الحالة العسكرية للامبراطورية العثمانية مستمد من عمل لحيدر فين، هو تلخيص البيان فى قوانين آل عثمان، وهو أحد أهم الكتب حول تنظيم الامبراطورية، يشير فيه، مستعيداً أفكار لطفى وحاجى خليفة، إلى أسباب انحطاط الدولة، خاصة فى مجال الشؤون المالية، والاصلاحات التى يجب ادخالها فى نهاية الأمر. كما كتب تنقيح تواريخ الملوك، وهو تاريخ عالمى ساعد فيما بعد ديميتري كا نتيير على كتابة مؤلفه تاريخ سمو وانحطاط الامبراطورية العثمانية، وقد استفاد فيه حيدر فين من مصادر يونانية ولاتينية ترجمها له ترجمة القصر.

ولامراء فى أن أبرز المؤرخين الرسميين للامبراطورية العثمانية هو نعيمه (١٦٥٥ - ١٧١٦)، الذى يغطى كتابه الفترة الممتدة من عام ١٥٩١ إلى عام ١٦٥٩. وإذا كان أسلوبه، المادح للسلطين، فى رواية التاريخ لا يختلف كثيراً عن أسلوب سابقه، فإن لغته، على أية حال، أقل زخرفة ومن ثم أكثر وضوحاً وحيوية. وبوجه خاص، فإنه يعتبر من الناحية الفعلية أول من يلجأ إلى تمحيص الحقائق وإلى نقد المصادر. كما انه يقدم، للمرة الأولى، إلى جانب سرد للأحداث، معلومات

حول ادارة الامبراطورية، ويبدى بشأنها تعليقات شخصية، بل ويقترح اصلاحات.

الأجناس الأدبية الأخرى

لكن الأكثر أصالة بين مزودينا بالمعلومات عن الحياة فى الإمبراطورية هو بالتاكيد أوليا شلبى (١٦١١ - ١٦٨٣)، الذى ما يزال كتابه سياحات - نامة (كتاب الرحلات)، وهو عمل ثرى وضخم يأخذ شكل مذكرات (حتى إذا تعلق الأمر بأماكن لم يزرها بالفعل)، مصدراً تاريخياً يتميز بأهمية من الدرجة الأولى حتى الآن. ولما كان مولوداً فى اسطنبول، وصهرراً لأحمد باشا ملك، الصدر الأعظم لمحمد الرابع (وصهره)، فقد كان على صلة جد وثيقة بالقصر وقد كلف بمهام فى مختلف أقاليم الامبراطورية، التى يصفها ويتحدث عن تاريخها ومؤسساتها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية وتقاليدها (الأسطورية فى نهاية الأمر)، بشكل بالغ الحيوية. ومن المؤكد أنه يجب التحسب لمبالغاته أو لمزاعمه، لكنه، بشكل عام، مراقب جيد، يهتم بكل شىء، وتعتبر لغته (وهى ليست لغة كاتب متبحر) طبيعية بشكل ممتع، مع بقاء تأثيرها بالمعجم العربى - الفارسى محل الإعتبار فى القصر.

أما الأعمال ذات الأهمية التاريخية الأكثر تمييزاً للفترة التالية فهى أخبار السفارات إلى الغرب. وكان محمد أفندى يرميزكيز انكشارياً من المرتبة العليا (كان رقم يرميزكيز (٢٨) هو رقم تشكيله العسكرى الأسمى) أرسله أحمد الثالث فى سفارة إلى فرنسا خلال سن القصور الشرعى للويس الخامس عشر، فى عام ١٧٢٠. ولما كان مراقباً لمأخاً، فإنه يصف بحياة القصر فى ظل الوصاية على العرش. كما أن ابنه سعيد محمد، الذى صحبه فى بعثته، قد سجل ملاحظات حول فرنسا، حيث يهتم على نحو خاص بالمؤسسات العلمية وبالمنجزات التقنية، ومن بينها منجزات الطباعة. وفيما بعد، سوف يكتب أيضاً رسمى أحمد، السفير

لدى فيينا فى عام ١٧٥٧ وفى برلين فى عان ١٧٦٣، تقريراً عن سفارته. وهذه الأعمال، التى سوف تستثير فضول الصفوات، سوف تكون أساساً ذات أهمية متزايدة بالنسبة للتجليات المختلفة (الغربية غالباً فى نظر العثمانيين) للثقافة الأوروبية.

والواقع أن الدراية بالعالم الخارجى بالنسبة لتركيا تتطور، فى الامبراطورية العثمانية، اعتباراً من القرن السادس عشر، وهو زمن توسع اقليمى سريع. وعندئذ يسهم البحارة فى ذلك بقسط رئيسى: ويعتبر كتاب الملاحة البحرية (بحرية كتابى) الذى ألفه الاميرال الأكبر الرئيس پيرى (مات فى عام ١٥٥٤) دليل سواحل للبحر المتوسط يتميز بثراء المعلومات ويستند إلى فن رسم خرائط علمى بما يشير إلى دراية جيدة بالأعمال الأوروبية فى هذا المجال. أما خليفته سيد على (مات فى عام ١٥٦٢)، الذى حارب فى المحيط الهندى ضد البرتغاليين، فقد قدم بحثاً فى العلوم الجغرافية والفلكية الملاحية حول هذه المنطقة من الأرض فى عمله الذى يحمل عنوان المحيط.

وباللغة العربية أولاً، وهى لغة العلوم، يكتب أول ملخص عثمانى للجغرافيا العالمية. ومؤلفه، حاجى خليفة (المعروف باسم كاتب شلبى، ١٦٠٩ - ١٦٥٧)، كاتب موسوعى تدور أعماله المكتوبة بالتركية أساساً حول التاريخ والجغرافيا والرياضيات (التى يدافع عنها - وهو واقع مثير - ضد هجمات السلفيين المسلمين)، مستخدماً فى آن واحد المصادر الإسلامية والغربية. وقد أبدى روحاً علمية وانتقادية، وشجب النزعة الاتباعية فى العاصمة، وأصدر أحكاماً لا تعرف المجاملة، بما فى ذلك حول بعض المؤسسات، وهو أعظم عالم عثمانى فى القرن السابع عشر.

وبعد سبعين عاماً من موته يحدث حدث ضخم النتائج بالنسبة لنشر العلوم والثقافة في الامبراطورية: انشاء أول مطبعة تركية في اسطنبول، بتشجيع من ابراهيم باشا، الصدر الأعظم لمحمد الثالث. وكان المسئول عن هذا العمل مجرى تحول إلى اعتناق الإسلام، هو ابراهيم متفرقه (١٦٧٤ - ١٧٤٥). وصحيح أن المطبعة كانت معروفة في الامبراطورية العثمانية منذ الأعوام الأخيرة للقرن الخامس عشر، فقد أدخلها يهود من أصل اسباني إلى اسطنبول آنذاك لاستخدامها في نشر الأدبيات العبرية. إلا أنه، علاوة على صعوبة انتاج كتابة متشابكة كالكتابة العثمانية (العربية - التركية) بحروف متحركة، فقد عارضت السلفية الإسلامية ميكنة كتابة تعتبر مقدسة، هي كتابة القرآن. وكان التصريح الممنوح لابراهيم متفرقه في عام ١٧٢٦ مشمولاً بحظر طبع مؤلفات دينية أو قانونية. وهو ما أدى إلى تخصص المطبعة العثمانية الأولى في نشر الكتب العلمية أو التقنية أو التاريخية أو الفيلولوجية. وكان البحث الجغرافي الكبير الذي كتبه كاتب شلبي، جيهان - نوما و «التحقيق» الذي كتبه محمد أفندي عن فرنسا، من بين أول الأعمال المنشورة، اعتباراً من عام ١٧٢٩. والحال أن أنشطة هذه المطبعة التي أوقفها للحظة تمرد الانكشارية وخلع محمد الثالث، قد جرى استئنافها (ولكن دون تصريح رسمي)، نحو عام ١٧٣٢، في ظل محمول الأول.

ومما لا مراء فيه أن المراء سوف يدهش لعدم مصادفة ذكر لاية امرأة في قائمة الكتاب العثمانيين المشاهير (غير الشاملة بالتأكيد) التي استعرضناها حتى الآن. لكن ذلك لا يعنى غياباً، لدى العثمانيين، لأدب نسائي بل يعنى أن هذا الأدب، المقتصر على أوساط الحريم، لم ينتشر خارجها، بين جمهور أدبي مذكر أساساً. والنصوص النادرة للعصر الكلاسيكي التي وصلت إلينا تنتمي إلى مجال الشعر الغنائي. ونشير في هذا الصدد إلى مجموعة من الأشعار، المكرسة للحب (الأفلاطوني فيما يؤكد التراث)، والتي كتبتها ميهري خاتون، التي ماتت في عام

١٥٠٦، وهى ابنة أحد قضاة آماسيا، والتي لقيت التقدير لموهبتها الأدبية فى بلاط بايزيد الثانى. كما نشير، فى القرن الثامن عشر، إلى أشهر الشاعرات العثمانيات، زبيده فتنه هانم، التى ماتت فى عام ١٧٨٠، وهى ابنة أحد شيوخ الإسلام، وزوجة (تعسة فيما يقال) لأحد قضاة عسكر روميليا. والواقع ان ارتباطاتها العائلية بالهيراركية الدينية الأعلى لن تمنعها (أو، ربما كان من الأدق القول بأنها سوف تمكنها) من المشاركة مع شعراء ذلك الزمان فى مباريات ارتجال ادبية، حيث يقال انها أبدت روح دعابة فائقة. والشذرات الباقية من قصائدها، القليلة إلى حد ما لسوء الحظ، تتميز بأسلوب حيوى وبهيج وبلغة طبيعية ورائقة. وقد بقى لها بورترية جميل، ذو أسلوب أوروبى. وخلافاً لميهرى خاتون، فقد عمرت طويلاً.

وكما ان الأحوال الاجتماعية - الثقافية للعصر العثمانى الكلاسيكى لم تسمح بنشر أدب نسائى إلا بشكل نادر، فقد حالت دون نشر الأجناس شبه الأدبية الصغرى، التى اعتبرتها النخبة المثقفة مبتذلة، وإن كانت قد لعبت دوراً أكيداً فى الحياة الثقافية للشعب التركى.

ومن حسن الحظ البالغ ان أديباً يعد من جهة أخرى من بين الأدباء الأكثر جدية، هو المترجم المثقف للشاعر الفارسى چامى، محمود شلبى، المسمى بلامنى (مات فى عام ١٥٣١)، قد راودته الفكرة النيرة المتمثلة فى جمع مجموعة من النوادر السارة والامثال الجميلة التى ما يزال الكثير منها يدخل السرور على أفئدة الأتراك حتى اليوم. وبوجه خاص، فإنه أول من يحدثنا عن البطل الشعبى خوجا (جحا) نصر الدين، الذى لاشك فى انه شخصية تاريخية أصبحت أسطورية، وهو إمام قرية يقال انه عاش فى الأناضول، فى اقليم ايسكيشيهير، فى أواخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر. والواقع ان الحكايات التى هو بطلها، والتى تتميز بطابع هزلى لكنه أيضاً غير اتباعى، والتى ضخمها التراث الشفهى من قرن

إلى قرن، قد انتشرت في العالم الإسلامي، من إفريقيا إلى آسيا الوسطى. ونصر الدين نموذج لـ «الفيلسوف الشعبي»، الساذج من الناحية الظاهرية والوقح إلى أبعد حد.

والواقع أن شخصية أسطورية أخرى، تتميز بدعابة ملحة وأحياناً ماجنة، تنازعه الحظوة الشعبية في مختلف أقاليم الامبراطورية العثمانية حتى أواخر القرن التاسع عشر: تلك هي شخصية قره - جوز (الأراجوز)، بطل مسرح الخيال (الذي ربما تم استيراد تقنيته من مصر عند فتحها على يد سليم الأول اعتباراً من عام ١٥١٧)، الذي يجسد رجل الشعب الساخر ويواصل، مع جاره حاجي واد، وهو كاريكاتير للأديب الدعي، ومع شخصيات أخرى تمثل مختلف الأنماط الاجتماعية، حوارات غريبة، مليئة بالدعابة، حيث ينبثق بوضوح نقد للمجتمع.

لم يتسن لنا هنا غير اعطاء فكرة (عبر اختيار، عشوائي حتماً، لحقائق تبدو لنا الأكثر تمييزاً) عن التاريخ الفكري والثقافي للامبراطورية العثمانية في عصرها الكلاسيكي كما أننا قد اقتصرنا على التاريخ الفكري والثقافي للجماعة التركية والإسلامية.

نحو الحداثة التأثير الغربي

إن انحدار الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر، في وجه أوروبا التي كانت قوتها تتنامى بالرغم من انقساماتها، قد دفع قادتها إلى التأمل في أسباب ما أخذوا هم أنفسهم يعتبرونه انحطاطاً. وبدون إثارة الشك في الإسلام، لُحمة الامبراطورية، رأوا مصدر الخلل في تزايد دونيتهم العلمية والتقنية (خاصة في المجال العسكري)، وسوف يصل الأمر بأكثريهم جسارة إلى حد تصور أن بعض مؤسساتهم قد أصبحت غير متوائمة مع عالم تطور سريعاً.

ويؤدي هذا التأمل إلى ظهور مفهوم الحداثة عندهم، والذي يتعارض مع المفهوم الذي كان سائداً من قبل، والذي يتحدث عن مجتمع ثابت من حيث المبدأ، وهو مفهوم استند أساساً على التحريم الفقهي لما عبر عنه مصطلح البدعة العربي، والذي يترجم عموماً بـ «التجديد»، وإن كان يتطابق على نحو أنسب مع مفهوم «المراجعة» الحالي، والذي يرتبط بمفهوم الخروج على الإتياع.

وبين صفوف جزء من الأوساط القائدة، يرى النور الرأي الذي يذهب إلى أنه إذا كان من الممنوع التجديد في الشؤون الدينية، فإن بالامكان التجديد على الأقل بالنسبة للشؤون الدنيوية التي لا ينظمها القرآن أو تراث أقوال وأفعال النبي محمد، وحيث تعتبر الإصلاحات، من ثم، مشروعة.

وتظهر أولوية ضرورتها في المجال العسكري، حيث يتعلق الأمر بالاقتراء بنموذج جيوش أوروبا الحديثة. وبعد عدة محاولات غير ناجحة بسبب المعارضات السلفية لأية «بدعة»، جرى اتخاذ إجراء حاسم في هذا الاتجاه في عام ١٨٢٦ من جانب السلطان محمود الثاني، الذي يرد على تمرد أخير من جانب الانكشارية بذبحهم بلا رحمة، ويجري حل قوات الانكشارية و السباهيين، وتنظيم الجيوش وفق المبادئ الأوروبية، مع الاعتماد على مدربين أجانب.

ويتشجيع من هذا النجاح، يمد محمود الثاني التحديث إلى مجالات أخرى، حيث يلزم الموظفين بارتداء الملابس الأوروبية مع لبس الطربوش وبنشوى وزارة للداخلية ووزارة للشؤون الخارجية مماثلتين لوزارات الداخلية والشؤون الخارجية الأوروبية. وسوف يمضى ابنه وخليفته عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير: ففي عام ١٨٣٩، يأمر بتلاوة، أمام اجتماع مهيب لكبار الشخصيات العثمانية والسفراء الأجانب، للائحة السلطانية التي تدشن الإصلاحات الكبرى الأولى (التنظيمات)، والتي يتمثل مشروعها الأساسى فى اعلان المساواة

القانونية بين جميع رعايا الامبراطورية، دون تمييز على أساس الدين أو القومية.

ومما له دلالة أن نص اللائحة قد صدر بالتركية وبالفرنسية في آن واحد. وبعد ذلك، فإن الفرنسية، التي كانت دراستها المعمقة قد أدخلت بالفعل بين صفوف الصفوات، تصبح، بالنسبة لجميع التشريعات التي لها مغزى دولي ما، اللغة الرسمية الثانية للامبراطورية، وسرعان ما تنتشر الدراية بها، والتي تحمل الثقافة والأفكار والأساليب الفرنسية، بين صفوف الارستقراطية وعالم المثقفين العثمانيين.

ويتطلب الأمر اسهات مطولة لوصف التوسع التدريجي للعلوم الغربية بين صفوف العثمانيين. وكفيينا القول أنه يبدأ بالعلوم التي بدت الأكثر فائدة بشكل فوري ومباشر بالنسبة للامبراطورية: العلوم المرتبطة بالفن العسكرى (كالرياضيات؛ بالنسبة للمدفعية) أو بالصحة العامة (كالعلوم الطبية) ويستمر هذا التوسع، شيئاً فشيئاً، عبر ادخال العلوم التطبيقية على التقنيات الجديدة الضرورية لتحديث البلاد (ومن أمثلتها أخرى، انشاء شركة للسفن البخارية، في عام ١٨٥١، لنقل المسافرين في مجال اسطنبول البحرى). وكان من نتائج التعاون العسكرى الفرنسى - الانجليزى - التركى فى حرب القرم ضد روسيا (١٨٥٤ - ١٨٥٦) ارسال شبان عثمانيين إلى الغرب لدراسة العلوم والتقنيات هناك.

وكان السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) نصيراً راسخاً لقريب المؤسسات والثقافة التركية. وتتأسس فى عهده فى اسطنبول أول جامعة حديثة، حيث يحذو تعليم العلوم حذواً أوروبياً وهو، أيضاً، الذى يأمر، فى عام ١٨٥٠، بانشاء اكاديمية العلوم العثمانية (انچومين - اى دانيش). ومنذ ذلك الحين، نجد أن الصفوة المثقفة، التي تهجر المدارس التقليدية (التي تتمثل مهمتها الوحيدة فى تكوين رجال دين)، تشارك فى الحياة العلمية الحديثة.

واقْتداءً بمِثال القصر، تتبنى الارستقراطية العثمانية بسرعة أسلوب الحياة الأوروبي، وتصبح الفرنسية، بالنسبة للكثيرين من أفرادها، لغتهم الثانية. وتتكاثر ترجمات المؤلفات الفرنسية. وبشكل متزايد باطراد يتأثر اختيار الثياب وتأثيث الدور والزخرفة والعمارة وتنسيق الحدائق بالأساليب الغربية.

كما أن هذا التأثير من جانب الغرب، وخاصة من جانب فرنسا، يمس الفكر السياسى: فافكار الثورة الفرنسية، وتأثير نابليون، ومفهوم الملكية الدستورية، وخاصة مفهوم الحرية، سوف تميز ايدىولوجية الأوساط القائدة، وسرعان ما سوف تجتذب الحركة الرومانسية جيلاً أدبياً جديداً.

وفى مجال الكتابة التاريخية، فإن أول عمل تأريخى ينتمى إلى فترة التنظيمات هو تاريخ - اى دوله - اى عثمانيه (تاريخ الدولة العثمانية) الذى كتبه أحمد جودت باشا، وهو مؤرخ رسمى يروى احداث الفترة الممتدة من عام ١٧٧٤ إلى عام ١٨٢٦، على شكل تأريخ مؤلف وفق تقاليد كتاب الحوايات؛ وقد واصل خليفته، أحمد لطفى (١٨١٥ - ١٩٠٧)، عمله بالتأريخ للفترة الممتدة من عام ١٨٢٦ إلى عام ١٨٦١. وقد كتب محمد ثريا (مات فى عام ١٩٠٩) سجل - اى عثمانى (السجل العثمانى)، وهو عمل يجمع سير جميع الشخصيات التى تتمتع بقدر من الأهمية فى التاريخ العثمانى. وينتمى إلى هذا النوع من أنواع الكتابة التاريخية عمل ابن الأمين محمود كمال اينال (١٨٧٠ - ١٩٥٧)، عثمانلى ديفرينده سون صدر أعظملاى (آخر الصدور العظام للعصر العثمانى)، وهو عبارة عن سير جد تفصيلية للصدور العظام من عام ١٨٥٢ إلى عام ١٩٢٠. لكن أحمد وفيق باشا (١٨٢٣ - ١٨٩١) بوجه خاص، هو الذى يدخل، من خلال كتابه فذلكه - اى تاريخ - اى عثمانى (موجز التاريخ العثمانى)، المفاهيم التاريخية الجديدة المؤسسة ليس على السلاطين بل على المراحل الكبرى للتاريخ العثمانى؛ وقد حذا حذوه عبد الرحمن شريف ومصطفى نورى باشا (١٨٢٤ - ١٨٩٠) الذى يعتبر كتابه نتائج

الوقوعات (نتائج الأحداث) تركيا للتاريخ العثماني يجرى فيه تناول أسباب ونتائج الأحداث، ودراسة المؤسسات والمشكلات الاقتصادية، وإن كان ليس دون الوقوع في أخطاء من جهة أخرى.

وكان لابد من انتظار انشاء جمعية التاريخ العثماني (تاريخ - اى عثمانى اينچومينى)، فى عام ١٩١١ واصدار مجلتها (ت. ع. ا. ميجمواسى) حتى يولد عصر حديث حقاً للكتابة التاريخية العثمانية.

وفى مواجهة تيار التغريب، الذى يدعمه رجال الدولة الرئيسيون، سوف يخوض المتمسكون بثبات التراث الإسلامى معركة يدعمها فى آن واحد العوام والعلماء. مع نجاحات متكررة لكنها عابرة (الاغلاق المؤقت للجامعة، تعطيل عدد من الصحف، حرمانات من النفوذ بسبب الهرطقة). ولن تتخلف السلطة نفسها عن الاعتداء على المصلحين نوى الأفكار التى تبدو لها تخريبية. لكن كل قمع يستتبع، من باب رد الفعل، تعزيزاً للحركات التجديدية، وتؤدى الفترة الطويلة للحكم المطلق الذى عرفه عهد عبد الحميد الثانى إلى بروز الحركة الثورية لجماعة العثمانيين الشبان (أو تركيا الفتاة)، التى تستولى على السلطة فى عام ١٩٠٨ وتحتفظ بها خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨.

ظهور الصحافة. المدارس والمجلات الأدبية

تلعب الصحافة دوراً أساسياً فى التجديد الفكرى والسياسى. وكانت الصحيفة العثمانية الأولى (١٨٣١) صحيفة رسمية، أما الصحيفة العثمانية الثانية (١٨٤٠) فقد كانت صحيفة شبه رسمية. وترجع إلى شينازى (١٨٢٦ - ١٨٧١) ماثرة كونه مشاركاً فى عام ١٨٦٠ فى تأسيس أول صحيفة خاصة، ثم مؤسساً ورئيس تحرير، اعتباراً من عام ١٨٦٢، لأول مجلة مستقلة كبرى، أدبية وسياسية، هى

مجلة تصوير - اى افكار (تصوير الأفكار)، التى تتميز بنزعة تقدمية راسخة، لكنها معتدلة، وتتميز بتأثير ثقافى فرنسى عليها (كان شينازى قد أقام فى فرنسا من عام ١٨٤٩ إلى عام ١٨٥٥). وقد أصبح هذا التجديد المثير ممكناً بفضل الاندفاع الجديد للحدثة والذى ميز عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦)، وهو عاهل أوروبى التفكير تلت زيارته الرسمية، فى عام ١٨٦٧، لـ نابليون الثالث (وهى أول زيارة من نوعها) رحلة إلى لندن وبرلين وفيينا: بما يشكل حدثاً جديداً كان مثيراً وأسهم فى تحريك الأذهان، بما فى ذلك بين الأوساط الدينية.

وفى ظل عبد العزيز يبدأ فى تركيا على نطاق واسع انشاء تعليم عام، حيث يصبح المدرسون موظفين: تعليم أولى، مخصص من حيث المبدأ للأطفال اعتباراً من السادسة من العمر؛ مدارس اولية عليا؛ كليات. وقد أنشئ اليسيه الأول فى جالاتا - سراى فى عام ١٨٦٨؛ وكان يجرى تدريس الفرنسية فيه، وقد أصبح بؤرة لتفريخ مثقفين وموظفين. وسرعان ما جرى التصريح بانشاء مدارس وكليات أجنبية (فرنسية فى غالبيتها وتدار من جانب رهبانيات كاثوليكية)، وكان يتردد عليها فى أن واحد أفراد من الأقليات وأتراك من الأسر الميسورة الحال. وقد أتيح للبنات، لأول مرة، الحصول على تعليم حديث. وبطبيعة الحال، فإن هذه التدابير تستتبع مقاومة من جانب رجال الدين، الذين كانوا حتى ذلك الحين المهيمنين على التعليم الأولى، والذين ظل نفوذهم كاملاً فى الأرياف. ويظل التعليم الدينى هو القاعدة بالنسبة للأطفال المسلمين، لكن المدارس الجديدة تقدم من جهة أخرى تعليماً أوروبى النمط.

واعتباراً من عام ١٨٩١، يشجع انشاء مجلة ثروة - اى فنون (ثروة الفنون) تحت اشراف أحمد احسان، على نشر الثقافة الحديثة بين المثقفين. إلا أنه، فى عام ١٨٩٦، بناءً على توصية من جانب أكرم رچائى زاده (١٨٤٦ - ١٩١٤)، الملهم

الفكرى لكل من أحمد احسان وتوفيق فكري (١٨٧٠ - ١٩١٥)، يصبح الأخير رئيس تحرير للمجلة ويجعل منها مجلة أدبية وفنية حديثة، كان تأثيرها بالغ القوة حتى عام ١٩٠١، وهو العام الذى جرى تعطيلها فيه بناءً على أمر عبد الحميد.

ولا يسعنا هنا ان نروى التاريخ الموار للصحافة العثمانية التى شهدت تطوراً سريعاً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (وبشكل أسرع بعد وصول جماعة تركيا الفتاة إلى السلطة فى عام ١٩٠٨)، إلا أنه يتعين علينا التشديد على الأهمية الخاصة تماماً للمجلتين اللتين أسلفنا الإشارة إليهما، تصوير - اى أفكار وثروة - اى فنون، فى الحياة الأدبية.

وعبر مقالاته بالدرجة الأولى فى المجلة الأولى يشتهر أعظم شاعر رومانسى فى الأدب التركى، والذى ما زال يعتبر إلى اليوم بطلاً قومياً، وهو ناهق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨)، الشاعر والكاتب المسرحى والروائى، الذى غالباً ما تجرى مقارنته بفيكتور هوجو. فهذا الرجل، الوثيق الارتباط بجماعة تركيا الفتاة، الذى يتعرض لمصائر تتناوب بين النفى (خاصة إلى باريس ولندن وبروكسل، ثم إلى فيينا بين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧٠) والتكريم، ويُبْعَدُ فى النهاية عن اسطنبول والياً على رودس، ثم على شيو (التي يموت فيها)، تبعاً لتقلبات السياسة الداخلية للإمبراطورية، يكتب نصوصاً سياسية حامية ومسرحيات وطنية أو عاطفية ورواية حب مأساوى طويلة تعتبر أول رواية تركية، وقصائد ذات مصدر الهام غنائى، ويحافظ نثره وشعره، من حيث الجوهر، على أشكال الأدب العثمانى الكلاسيكى، مع دفعه تعقيدات المعجم العربى - الفارسى الكلاسيكى إلى أقصى مدى، لكنها تحمل الأفكار الجديدة للرومانسية الغربية، أحياناً إلى حد التهمة الشفهية.

كما أن عبد الحق حميد (١٨٥١ - ١٩٣٧)، جد القريب إليه من حيث اللغة والأسلوب، والمتأثر هو الآخر بالرومانسيين الفرنسيين، وشاعر الحرية الشهير

(الذى يكتب كلمة الحرية بالفرنسية فى النص التركى - العثمانى)؛ قد عرف هو أيضاً أشكال التجريد من الحظوة بوصفه معارضاً، لكنه ينهى حياته الطويلة مكرماً، منذ استيلاء جماعة تركيا الفتاة على السلطة فى عام ١٩٠٨. وهو يكتب تراجيديات نثرية وشعرية، ذات مصدر الهام تاريخى - وطنى يشير تأملات سياسية، أو مسرحيات مكرسة لفواجع الحب والموت. وعلى الرغم من كونه تقليدياً فى معجمه، فإنه يجدد باللجوء أحياناً، فى الشعر، إلى أشكال مقطعية (وليست عروضية بعد)، وبرغم كونه فى آن واحد قومياً عثمانياً (ثم تركياً) ومدافعاً عن الثقافة الإسلامية ضد انتقادات الغربيين (شأنه فى ذلك شأن نامق كمال تماماً)، فإنه يميز نفسه عن الأرثوذكسية المسلمة بميتافيريقا تأليهية (تنكر الوحي والآخر) وذات نزعة انسانية مستمدة من فيكتور هوجو.

أما فيما يتعلق بجماعة كتاب مدرسة ثروة - اى فنون، فإنهم إن كانوا يتأثرون هم كذلك بالنزعة العاطفية الرومانسية وبالحدائث وبالعداء للحكم المطلق، فقد كانت لهم، تحت التأثير الرئيسى للكتابات النظرية لرجائى زاده، عميدهم، مفاهيم جمالية تميل إلى دعوة «الفن للفن»، المستمدة من البارناسيين. فهم مدفوعون، أكثر من أى شىء آخر، إلى محاكاة الأجناس الأدبية الفرنسية. وجناب شهاب الدين (١٨٧٠ - ١٩٣٤) هو الأكثر تمثيلاً لهذه الاتجاهات؛ فتأثير الرمزيين والبارناسيين على عمله الشعرى، المكرس أساساً لتيمتى الطبيعة والحب (والذى سوف يهجره بعد عام ١٩٠٨ لكى يتفرغ للعمل السياسى)، يدفعه إلى أن يبدع، على غرارهم، صوراً غريبة ونادرة، بما يشكل مصدر حيرة بالنسبة لقرائه الأوائل، وإن كانت تتميز بجودة فنية سوف تلقى التقدير فيما بعد. أما توفيق فكرت، طيلة بقائه على رأس مجلة ثروة - اى فنون (حتى أوائل عام ١٩٠١)، فإنه يكتب قصائد من النوع نفسه، بالنزعة الجمالية نفسها؛ لكنه سوف يشارك، بعد ذلك، فى المعركة السياسية بأشعار ساخرة ذات قوة عظيمة، وسوف يعبر عن آراء انتقادية تجاه النظام

الاجتماعى، كما سوف يعبر عن اتجاهات سلمية ومعادية للنزعة العسكرية ولا أدوية. وفى سنوات عمره الأخيرة، المكرسة للتعليم (كان مديراً لليسيه جالاتا - سراى)، لن يجمال هذا الخارج على الاتباعية الزعماء الذين يدشنون، بدفع من أنور باشا، عملية التحالف مع امبراطوريات وسط أوروبا، ممهدين بذلك السبيل أمام هزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى، وتدمير دولتهم.

ومنذ عام ١٨٩٦، برزت مجلة ثروة - اى فنون من خلال نشر المسلسلات الأولى للروائى الكبير خالد ضياء (١٨٦٧ - ١٩٤٥)، وهو ابن تاجر سجاد من عشاق، فى الأناضول (ومن هنا اسم عائلته، عشاقليجيل) وقد وفر هذا التاجر العصرى لابنه دراسات راسخة للفرنسية - بما يشكل علامة من علامات ذلك الزمن. ويدخل خالد ضياء إلى تركيا الرواية الأخلاقية والقصة ذات الموضوع الاجتماعى. وهو يميل فى أن واحد إلى الواقعية وإلى التفسير السيكولوجى، وغالباً ما يجعل من الأحياء الفقيرة فى المدن مسرحاً لقصصه. ولما كان كاتباً غزير الانتاج وناجحاً، فقد عمل على تحديث لغته فى الطبقات الجديدة لأعماله فى العصر الجمهورى.

وإذا كانت المسلسلات القصصية ذات مصدر الإلهام الثقافى بدرجة كبيرة والمنشورة فى مجلة ثروة - اى فنون قد مست جمهوراً من المثقفين العصريين، فقد كان هناك جمهور أوسع بكثير للرواية ذات النوع الشعبى، والتى كان رائدها أحمد مدحت (١٨٤٤ - ١٩١٣)، وهو كاتب يكتب فى موضوعات متباينة، ويتميز بنشاط بالغ، ويبسط ويقتبس ويقلد روايات المغامرات (كروايات دوما الأب ودما الابن وچول فيرن وآخرين كثيرين)، وهو مؤلف حكايات مسهب، يتحدث عن الأخلاق، ويتميز بالانفتاح على التقدم الاجتماعى، ويتبنى الروح العصرية، لكنه يتخذ موقفاً انتقادياً تجاه تبجح تغريبى معين. أما حسين رحى - جوربينار - (١٨٦٤ - ١٩٤٤)،

المتأثر بالمدرسة الطبيعية الفرنسية، فهو يحقق الكمال لجنس الرواية الشعبية بتعميقه للتأمل فى أحوال المجتمع فيها (عبر ابراز التناقضات بين التراث والحدائث)، وبتهديه للتحليلات السيكولوجية، دون اغفال الجنس، وبتحقيقه لبناء أفضل للحبكة، حيث تترايط المغامرة مع الحب، ويأدخاله جرعات من الهزل فى المناسبة.

وتعتبر هذه الروايات الشعبية صدى لـ «الأزمة الحضارية» للإمبراطورية العثمانية الآفلة، الممزقة بالفعل فى أوروبا وفى افريقيا، والمستعمرة اقتصادياً من جانب الدول الغربية العظمى، والتي تشهد غلياناً سياسياً سافراً. وهذا التطور المأساوى، بحروبه المحلية المتواصلة، وبما ينطوى عليه من إذلالات، يؤدى إلى بروز شعور قومى جديد، مختلف عن الوطنية العثمانية المتعددة القوميات، ومتمحور حول «النزعة التركية» وقوى الشبه بالنزعات القومية الأوروبية. وأول شاعر يعبر عن هذا الشعور هو محمد أمين (١٨٦٩ - ١٩٤٤)، وهو شاعر متقد الحماس، وعفوى ومستقل عن أية مدرسة أدبية، أصبح فجأة شهيراً من خلال مجموعته الشعرية تركتشى شعرلير (قصائد تركية، وليست «عثمانية»!)، بعد الحرب اليونانية - التركية فى عام ١٨٩٧. وسوف تتطور الحركة القومية «التركية النزعة» بسرعة وسوف تنظم نفسها بعد استيلاء جماعة تركيا الفتاة على السلطة، تحت قيادة لجنة الاتحاد والترقى (١٩٠٨)، التى سوف تهيمن على تركيا حتى عام ١٩١٨.

وقد تشكلت اللجنة فى سالونيك، المدينة الكوزموبوليتية والمركز الفكرى الكبير. وهناك، أيضاً، تأسست، فى عام ١٩١١، مجلة جينجى قلملير (الأقلام الشابة)، حيث تحدت الايديولوجية «التركية النزعة». وكان منظر هذه الايديولوجية هو ضياء جو قلب (١٨٧٦ - ١٩٢٤)، سوسيولوجى اللجنة، الذى استمد الالهام جزئياً من نوركايم، والذى مجدت قصيدته طوران (١٩١١)، ذات العنوان المستعار من ملحمة الشاه - نامه الفارسية (حيث يشير إلى آسيا الوسطى البدوية)، ذكرى الأتراك

قبل الإسلاميين. والواقع ان «النزعة الطورانية» التي راودتها الرغبة في عودة ثقافية إلى المصادر العرقية – اللغوية لآسيا الناطقة بالتركية، كان عليها مع ذلك التصالح مع الإسلام، لكنه اسلام «قومى» وليس عربياً، كما كان عليها، لتأمين قوة الأمة، الدخول فى الحداثة العلمية والتقنية. وقد طور ضياء جو قلب فى بحوث نظرية عديدة هذا المذهب الثلاثى الوجوه، الذى لخصه فى شعار «التتريك، الأسلمة، التحديث»، والذى لقى نجاحاً كبيراً.

اما الشخصية البارزة الأخرى فى جماعة الأقلام الشابة، عمر سيف الدين (١٨٨٤ – ١٩٢٠)، فهو روائى عظيم الموهبة، كان أول من أنجز، بعبقريته العفوية، أحد الأهداف الأساسية للأدب القومى التركى الجديد: كتابة تركية طبيعية (رشيقة)، مفهومة من الجمهور الواسع، متحررة من كل حذقة عربية فارسية، أقرب ما تكون من التركية التى يتحدث بها المتعلمون. وإلى جانب الموضوعات القومية (حول الفظائع التى ارتكبها العدو، مثلاً)، والمتكررة فى فترته الأولى، فإنه يعالج بقدر كبير من الدعابة والسخرية عيوب المجتمع (الخرافات، الرياء الدينى، الفساد، المتاجرة بكل شىء لاعتبارات أنانية، الوطنية الزائفة)، مع اشارته أيضاً إلى المزايا الأخلاقية للشعب التركى، وكل ذلك دون بلاغة طنانة، وبذكاء. وما زال الناس يستمتعون إلى اليوم بقراءة أعماله.

أما مجلة فجر – اى آتى (فجر المستقبل)، المنافسة ليجينچى قلمير، ولكن الأقل جمهوراً، والتى تأسست قبلها بوقت قصير (١٩٠٩)، فقد كانت أقل ميلاً إلى تناول الموضوعات السياسية (وإن كانت «قومية») وأكثر ميلاً إلى النزعة الجمالية الأدبية وقد برزت بشكل خاص من خلال ابداع أحمد هاشم (١٨٨٥ – ١٩٢٣)، الشاعر الرمضى والذى يعبر عن مشاعر النفس الحميمة، والذى كتب أشعاراً حساسة فى موسيقيتها، وذات نبرة جد جديدة فى الأدب التركى.

ويتميز بالتعبير عن مشاعر النفس الحميمة أيضاً عمل شاعرات الفترة الأخيرة
للامبراطورية العثمانية، اللاتي، كالأشهر بينهن، نيجار هانم (١٨٥٦ - ١٩١٨)،
يعبرن بشكل خاص عن خيبات الأمل في الحياة، بأسلوب كلاسيكي. إلا أنه، في
أواخر زمن الامبراطورية، تظهر روائية ذات مزاج جد مختلف، هي خالده أديب -
أديفار - (١٨٨٣ - ١٩٦٤)، المناضلة النسائية والقومية، والروائية المعروفة
أساساً بروايتها خاندان، التي تعبر بطلتها عن طموحاتها هي. وتنتمي بقية أعمالها
إلى الفترة الجمهورية.

وقد حقق كتاب كبار آخرون بداياتهم في الأعوام الأخيرة للامبراطورية، لكن
موهبتهم الحقيقية لا تعبر عن نفسها إلا في ظل الجمهورية.

الأشكال الأخرى للحياة الثقافية في القرن التاسع عشر

سوف يثور نقاش مسهب عن تاريخ المسرح في مختلف مراحل تحديث
الامبراطورية. فالتراث لم يكن يتضمن، مع مسرح خيالات القره جوز (الذي تحدثنا
عنه، والذي يبلغ آنذاك كماله في الهجاء الاجتماعي - وإن كان يتجنب التعرض
للسلطة)، غير عروض شعبية في الهواء الطلق، لموضوعات مماثلة وذات اتجاه
ساخر، تؤدي غالباً من جانب هواة (ذكور)، عرفوا في القرن التاسع عشر تحت
اسم اورطة اويونو. وسوف تظهر المسارح الأولى ذات النمط الغربي في عام
١٨٣٩، حيث تؤدي فرق فرنسية وإيطالية برامج عروضها. كما سوف تؤدي فرق
يونانية أو أرمنية في هذا المسارح كوميديات ذات حوارات مرتجلة (طلوعات)
جزئياً، إلا أنه سوف تكون هناك أيضاً عروض للأوبرات الإيطالية، تؤدي أمام
البلاط. وفي عام ١٨٦٧ يتأسس المسرح العثماني، تحت إشراف جوللو أجوب، مع
قيام فرقة أرمنية بأداء مسرحيات أوروبية بالتركية وبأداء عدد من الأوبريات
التركية الأولى. وسوف يأمر السلطان عبد الحميد باغلاقه في عام ١٨٨٢، وسوف

يهدمه بعد ذلك، باعتباره تخريبياً. وبعد ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨، سوف يتطور المسرح الحديث، بمختلف أشكاله، من خلال برنامج عروض تركى أصيل أو الترجمة وسوف يصبح شبيهاً بالمسارح الأوروبية. وسوف تطوف فرق الارتجال (طلوعات) بالولايات التركية، وتؤدي فيها مسرحيات مقتبسة من المسرحيات الغربية، بل وسوف تؤدي تراجيديات اغريقية .. وسوف يصبح الممثلون الأتراك أوفر عدداً، إلا أنه سوف يتعين الانتظار حتى قيام الجمهورية لى نرى تشكل فرق تركية بالكامل، مع ممثلات تركيات (وليس بعد أرمنيات أو يونانيات).

وبوجه عام، فقد كانت مختلف الأجناس الأدبية الأوروبية ممثلة فى تركيا عند نهاية الامبراطورية العثمانية، وقد وجدت العلوم الحديثة فيها بالفعل، بما فى ذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية أنصاراً أكفاء، مارس كثيرون منهم أنشطة تعليمية فعالة.

وقد مس التغريب، فى القرن التاسع عشر، الفنون الموسيقية، مع مجيئ أوركسترات أوروبية، واستيراد الآلات الموسيقية، وموضة البيانو التى انتشرت بين سيدات الارستقراطية. بل إن الأمر يصل إلى حد تأثر الموسيقى التقليدية بالألحان الأوروبية: ويقال أن الدرويش المولوى ديدى اسماعيل حمامى زاده (١٧٧٧ - ١٨٤٥) كان الرائد فى هذا الاقتباس فى مؤلفاته الموسيقية الروحية. ولن يكون هناك غياب للمؤلفين الموسيقيين للأوركسترات التركية «الحديثة» فى نهاية الامبراطورية.

وكان الرسم الزيتى «الحديث» محل احترام فى البلاط وفى الأوساط الاجتماعية العليا (وإن كان النحت قد ظل مشبوهاً لإعتبارات دينية؛ وسوف يتطور بشكل واسع فى ظل الجمهورية). وقد شهدت الزخرفة والعمارة الغربيتان توسعاً سريعاً، مما أدى أحياناً، إلى فن مختلط، من النوع «الكولونيالى».

وباختصار، ففي جميع مجالات الثقافة، يتحقق تحديث الامبراطورية العثمانية، في المدن، بشكل يتميز بالحيوية، ويقطع تأورب الطبقات الحاكمة شوطاً طويلاً. لكن الأرياف والأحياء المدينية الشعبية تواصل الحياة في عالم ثقافى تقليدى، صاغته قرون من إسلام محافظ.

ولم تك هذه الازدواجية الثقافية هي أبسط المشاكل التي سوف تواجه مصطفى كمال أتاتورك وأنصاره في سعيهم إلى أن يجعلوا من تركيا جمهورية علمانية وعصرية، توجه بصرها بثبات شطر أوروبا.

الملاحق

معالم تاريخية

أوروبا الغربية

١٢٨٥ - ١٣١٤ : فيليب الرابع الجميل

١٣٠٩ : البابوية في أفينون

١٣٣٧ : بداية حرب المائة عام

١٣٤٦ : معركة كريسي

١٣٤٧ - ١٣٤٨ : الطاعون الأكبر

١٣٧٧ : عودة البابوية إلى روما

١٣٧٨ - ١٤١٧ : انشقاق الغرب

الكبير

العثمانيون

نحو ١٢٩٠ - نحو ١٣٢٠ : عثمان

نحو ١٣٢٠ - ١٣٦٢ : أورخان

١٣٢٦ : الاستيلاء على بورصا

١٣٣٧ : الاستيلاء على نيكوميديا

١٣٥٤ : الاستيلاء على غاليبولي

١٣٦٢ - ١٣٨٩ : مراد الأول

١٣٧١ - ١٣٧٥ : غزو صربيا

١٣٨٩ : معركة كوسوفو

١٣٨٩ - ١٤٠٢ : بايزيد الأول

١٣٩٤ : احتلال بلغاريا

١٣٩٦ : هزيمة المسيحيين في

نيكوبوليس

١٤٠٢ : هزيمة العثمانيين في أنقره

على يد تيمور لنگ

١٤٠١ - ١٤١٣ : الصراع بين أبناء

بايزيد الأول

١٤١٢ - ١٤٢١ : محمد الأول

١٤٢١ - ١٤٥١ : مراد الثاني

١٤٤٤ : هزيمة المجريين في قارنا

١٤٥١ - ١٤٨١ : محمد الثاني الفاتح

١٤٥٣ : الاستيلاء على القسطنطينية

١٤٦١ : نهاية امبراطورية تريبزونند

اليونانية

١٤٦٢ : ضم البوسنة

١٤٧٤ : خانية القرم تحت السيادة

العثمانية

١٤٨١ - ١٥١٢ : بايزيد الثاني

١٤١٤ - ١٤١٨ : مجمع كونستانس.

نهاية الانشقاق الكبير

١٤١٥ : معركة أزينكور

١٤٢٩ : چان دارك في شينون

١٤٣١ : اداة وإعدام چان دارك

١٤٥٣ : معركة كاستيون. نهاية حرب

المائة عام

١٤٦١ - ١٤٨٣ : لويس الحادي عشر

١٤٦٧ - ١٤٧٧ : شارل الجسور

١٤٩٢ : كريستوفر كولومبوس في

جزر الأنتيل

١٤٨٥ - ١٤٩١ : الحرب مع المماليك

١٤٩٩ - ١٥٠٢ : الحرب مع البندقية

١٥٠١ : شاه اسماعيل يؤسس السلالة

الحاكمة الصفوية في ايران

١٥١٢ - ١٥٢٠ : سليم الأول

١٥١٤ : انتصار تشالديران على

الصفويين

١٥١٦ - ١٥١٧ : فتح سوريا ومصر

١٥١٦ : احتلال مدينة الجزائر

١٥٢٠ - ١٥٥٦ : سليمان القانوني

١٥٢٢ : الاستيلاء على رودس

١٥٢٦ : معركة موهاكس. غزو المجر

١٥٢٩ : فشل حصار فيينا

١٥٣٤ : الاستيلاء على بغداد

١٤٩٢ : استيلاء الاسبان على غرناطة

١٤٩٤ - ١٥١٧ : الحملات الفرنسية

في ايطاليا

١٤٩٨ : اكتشاف فاسكو دا جاما

لطريق الهند

١٥٠٩ - ١٥٤٧ : هنري الثامن ملك

انجلترا

١٥١٥ - ١٥٤٧ : فرانسوا الأول

١٥١٩ - ١٥٥٦ : شارل الخامس

١٥٢١ : حرمان لوثر

١٥٣٤ : هنري الثامن يعلن القطيعة مع

روما

١٥٣٦ : عقد امتيازات مع فرنسا

١٥٣٩ : الاستيلاء على عدن

١٥٤١ : ضم المجر

١٥٤٨ - ١٥٥٧ - ١٥٦٧ : بناء

المساجد الكبرى في اسطنبول

وفي ادرنه على يد سنان

١٥٦٦ : معركة زيجيد، موت سليمان

١٥٦٦ - ١٥٧٤ : سليم الثاني

١٥٧٠ - ١٥٧١ : احتلال قبرص

١٥٧١ : هزيمة ليبانت

١٥٧٤ : الاستيلاء على مدينة تونس

١٥٧٤ - ١٥٩٥ : مراد الثالث

١٥٩٥ - ١٦٠٤ : محمد الثالث

١٦٠٤ - ١٦١٧ : أحمد الأول

١٥٤٠ : بدايات رهبانية اليسوعيين

١٥٤١ : انشاء الكنيسة المصلحة على

يد كالفن

١٥٥٨ - ١٦٠٣ : اليزابيث الأولى

ملكة انجلترا

١٥٦٢ - ١٥٩٨ : حروب الدين في

فرنسا

١٥٧٢ : مذبحه سان - بارتليمي

١٥٨٩ : ١٦١٠ : هنري الرابع

١٥٩٨ : مرسوم نانت

١٦١٢ : منح امتيازات للهولنديين

١٦١٧ - ١٦١٨ : مصطفى الأول

١٦١٨ - ١٦٢٢ : عثمان الثاني

١٦٢٢ - ١٦٢٣ : مصطفى الأول

(الولاية الثانية)

١٦٢٩ - ١٦٤٠ : مراد الرابع

١٦٣٩ : إعادة الاستيلاء على بغداد

١٦٤٠ - ١٦٤٨ : ابراهيم الأول

١٦٤٤ : بداية حملة كريت

١٦٤٨ - ١٦٨٧ : محمد الرابع

١٦٥٦ - ١٦٦١ : صدارة محمد

كوبرولو العظمى

١٦٦١ - ١٦٧٦ : صدارة فاضل أحمد

باشا العظمى

١٦٦٤ : هزيمة سان جوتهارد

١٦١٠ - ١٦٤٣ : لويس الثالث عشر

١٦١٨ - ١٦٤٨ : حرب الثلاثين عاماً

١٦٢٤ - ١٦٤٢ : وزارة ريشيليو

١٦٢٥ - ١٦٤٩ : شارل الأول ملك

انجلترا

١٦٤٢ - ١٦٦١ : وزارة مازاران

١٦٤٣ - ١٧١٥ : لويس الرابع عشر

١٦٤٨ : معاهدة ويستفاليا

١٦٥٣ - ١٦٥٨ : ديكتاتورية اوليفير

كرومويل

١٦٥٩ : معاهدة البير ينيينر

١٦٦٠ - ١٦٨٥ : شارل الثاني ملك

انجلترا

١٦٦٥ - ١٦٨٣ : كولبير

١٦٦٩ : السفارة التركية في فرنسا

١٦٧٦ - ١٦٨٣ : صدارة مصطفى

قره باشا العظمى

١٦٨٣ : فشل حصار قبيينا

١٦٨٧ : العصابة المقدسة ضد

العثمانيين

١٦٨٧ - ١٦٩١ : سليمان الثانى

١٦٩١ - ١٦٩٥ : أحمد الثانى

١٦٩٥ - ١٧٠٣ : مصطفى الثانى

١٦٩٩ : معاهدة كارلوفيتز

١٧٠٣ - ١٧٣٠ : أحمد الثالث

١٧١٢ - ١٧١٣ : معاهدة

القسطنطينية وأندرينوپل

١٦٦٥ - ١٦٨٣ : كولبير

١٦٧٠ : انشاء شركة المشرق

١٦٨٥ : الغاء مرسوم نانت

١٦٨٥ - ١٦٨٨ : چاك الثانى ملك

انجلترا

١٦٨٩ - ١٧٢٥ : بطرس الاول

الأكبر، قيصر روسيا

١٦٩٧ : صلح ريسفيك

١٧٠٣ : انشاء سان بطرسبورغ

١٧٠٩ : معركة پولتافا

١٧١٣ : معاهدة اوتريشت

١٧١٤ : معاهدة راستات
١٧١٤ - ١٧٢٧ : جورج الأول ملك
انجلترا
١٧١٥ - ١٧٧٤ : لويس الخامس عشر
١٧٢٧ - ١٧٦٠ : جورج الثاني ملك
انجلترا
١٧٣٣ - ١٧٣٨ : حرب الخلافة في
بولندا
١٧٤٠ - ١٧٨٠ : ماري - تيريز،
امبراطورة النمسا
١٧٤٠ - ١٧٨٦ : فريدريك الثاني
الأكبر، ملك بروسيا
١٧٥٦ - ١٧٦٣ : حرب الأعوام السبعة
١٧٦٠ - ١٨٢٠ : جورج الثالث ملك
انجلترا
١٧٦٢ - ١٧٦٩ : كاترين الثانية،
قيصرة روسيا

١٧١ : معاهدة پاساروفيتز
١٧٢ - ١٧٢١ : سفارة محمد
في فرنسا
١٧٢ - ١٧٢٩ : المطبعة التركية
ذات الأحرف العربية
١٧٣ - ١٧٥٤ : محمود الأول
١٧٣ : صلح بلجراد
١٧٥ - ١٧٥٧ : عثمان الثاني
١٧٥٠ - ١٧٧٤ : مصطفى الثالث

١٧٦٣ : معاهدة باريس

١٧٦٨ : شاء كورسيكا من الجنوبيين

١٧٧٢ : التقسيم الأول لبولندا

١٧٧٤ - ١٧٩٢ : لويس السادس عشر

١٧٧٥ - ١٧٨٣ : حرب الاستقلال
الأمريكية

١٧٧٦ : إعلان استقلال الولايات
المتحدة

١٧٨٠ - ١٧٩٠ : جوزيف الثاني،
امبراطور النمسا

١٧٨٣ : معاهدة فرساي

١٧٨٩ : بداية الثورة الفرنسية

١٧٩٢ : معركة فالمي

١٧٩٢ : اعلان الجمهورية الفرنسية

١٧٩٣ : التقسيم الثاني لبولندا

١٧٩٣ - ١٧٩٤ : الارهاب

١٧٦٠ - ١٧٧٤ : الحرب مع روسيا

١٧٧٠ : هزيمة تشيكمه البحرية

١٧٧٤ : معاهدة كوتشوك - كاينارجا

١٧٧٤ - ١٧٨٩ : عبد الحميد الأول

١٧٨٣ : ضم الروس للقرم

١٧٨٧ - ١٧٩٢ : الحرب مع روسيا
والنمسا

١٧٨٩ - ١٨٠٧ : سليم الثالث

١٧٩٢ : صلح ياسي

١٧٩٣ : اعلان النظام الجديد

١٧٩٥ : التقسيم الثالث لبولندا
١٧٩٥ - ١٧٩٩ : حكومة الادارة
١٧٩٩ : انقلاب ١٨ برومير
١٧٩٩ : حكومة القنصلية. بونابارت
القنصل الأول
١٨٠٢ : صلح أميين
١٨٠٤ - ١٨١٤ : الامبراطورية
الأولى. نابليون امبراطوراً
١٨٠٥ : اولم، ترافالجار. أوسترليتز
١٨٠٧ : معاهدة تيلسيت
١٨١٢ : الحملة على روسيا
١٨١٤ : تنازل نابليون الأول
١٨١٤ - ١٨٢٤ : لويس الثامن عشر

١٧٩٨ - ١٨٠١ : الحملة الفرنسية في
مصر

١٨٠٣ : احتلال الوهابيين للمدينتين
المقدستين

١٨٠٣ - ١٨١٢ : انتفاضة صربيا

١٨٠٣ - ١٨٢٢ : تمرد على، باشا
چانينا

١٨٠٧ : خلع سليم الثالث

١٨٠٧ - ١٨٠٩ : مصطفى الرابع

١٨٠٨ : اعدام سليم الثالث

١٨٠٩ - ١٨٣٩ : محمود الثاني

١٨١٢ : معاهدة بوخارست

١٨١٢ - ١٨٢٠ : انتصارات محمد
على، والى مصر، على الوهابيين

١٨١٥ : ووترلو

١٨١٥ : مؤتمر فيينا. التحالف المقدس

١٨٢٤ - ١٨٣٠ : شارل العاشر

١٨٣٠ : الانزال الفرنسي في الجزائر

١٨٣٠ - ١٨٤٨ : لويس - فيليب

الأول

١٨٣٧ - ١٩٠١ : فيكتوريا، ملكة

انجلترا

١٨٤٨ - ١٨٥٢ : الجمهورية الثانية

في فرنسا

١٨٢١ - ١٨٢٩ : حرب الاستقلال

اليونانية

١٨٢٧ : هزيمة نافارين البحرية

١٨٣٠ : معاهدة أندرينوبل

١٨٣٠ - ١٨٣٩ : الاصلاحات الكبرى

الأولى

١٨٣٢ - ١٨٣٧ : احتلال محمد علي

لسوريا وللاناضول الجنوبية

١٨٣٣ : معاهدة هونكار- ايسكيليسى

١٨٣٣ : معاهدة كوتاهيه

١٨٣٩ : استيلاء الانجليز على عدن

١٨٣٩ - ١٨٦١ : عبد المجيد الأول

١٨٣٩ : خط جولخانه الشريف

١٨٤١ : الاتفاق مع مصر

١٨٥٣ - ١٨٥٥ : الحرب مع روسيا

١٨٥٦ : مؤتمر ومعاهدة باريس. الخط
الهائيوني

١٨٦٠ : الثورة في لبنان. التدخل
الفرنسي

١٨٦١ - ١٨٧٦ : عبد العزيز

١٨٦٢ : اتحاد مولدافيا وقلاشيا

١٨٦٣ : تأسيس البنك العثماني

١٨٦٩ : افتتاح قناة السويس

١٨٥٢ - ١٨٧٠ : الامبراطورية
الثانية. نابليون الثالث

١٨٥٤ - ١٨٥٥ : حرب القرم

١٨٦٢ - ١٨٦٧ : الحملة على المكسيك

١٨٦٦ : معركة سانبوفا

١٨٧٠ - ١٨٧١ : الحرب الفرنسية -
البروسية

١٨٧١ : معاهدة فرانكفورت

١٨٧١ : تيير، رئيس الجمهورية
الفرنسية

١٨٧١ - ١٩١٨ : امبراطورية المانيا

١٨٧٣ - ١٨٧٩ : ماكماهون، رئيس
الجمهورية

١٨٧٥ : تعديل والون بشأن
الجمهورية

١٨٧٦ : مراد الخامس

١٨٧٦ - ١٩٠٩ : عبد الحميد الثاني

١٨٧٦ - ١٨٧٨ : الحرب مع صربيا
وروسيا

١٨٧٦ : الدستور، الذي يعطل في عام
١٨٧٨

١٨٧٨ : معاهدة سان ستيفانو

١٨٧٨ : القنازل عن قبرص لانجلترا

١٨٧٨ : مؤتمر برلين. استقلال صربيا
ورومانيا وبلغاريا. احتلال
النمساويين للبوسنة والهرسك،
واحتلال الروس للأناضول
الشرقية

١٨٨١ : احتلال الفرنسيين لتونس

١٨٨١ : مرسوم محرم

١٨٨٢ : احتلال الانجليز لمصر

١٨٨٢ : التحالف الثلاثي (المانيا،
النمسا، ايطاليا)

١٨٩٤ - ١٨٩٦ : التمردات الأرمنية
وقمعها

١٨٩٤ - ١٨٩٥ : انشاء لجنة الاتحاد
والترقى

١٨٩٧ : الحرب مع اليونان. استقلال
كريت

١٩٠٨ : ثورة تركيا الفتاة

١٩٠٩ - ١٩١٨ : محمد الخامس

١٩١١ : فتح الايطاليين لطرابلس
الغرب

١٩١٢ : الحرب البلقانية الاولى

١٩١٣ : الحرب البلقانية الثانية

١٩١٤ : التحالف مع المانيا. الحرب
ضد فرنسا وانجلترا وروسيا

١٩١٤ - ١٩١٥ : الغزو الروسى فى
الأناضول الشرقية (أرمينيا)

١٨٩٤ : اغتيال سادى كارنو

١٨٩٤ - ١٩٠٦ : قضية دريفوس

١٨٩٤ - ١٩١٧ : نيقولا الثانى،
قيصر روسيا

١٩٠٤ : الوفاق الودى

١٩١٤ - ١٩١٨ : الحرب العالمية
الاولى

١٩١٤ : معركة المارن

١٩١٥ : إعادة الفتح التركي، مذابح
وترحيل الأرمن

١٩١٥ - ١٩١٦ : معركة الدردنيل

١٩١٦ : «الثورة العربية» ضد الأتراك

١٩١٧ : استيلاء الانجليز على
بغداد

١٩١٨ : الانسحاب من فلسطين ومن
سوريا

١٩١٨ : الهجوم ضد الأرمن

١٩١٨ - ١٩٢٢ : محمد السادس،
آخر سلطان عثماني

١٩١٩ : نزول اليونانيين إلى ازمير،
مصطفى كمال في سامسون،
مؤتمر أرضروم، مؤتمر سيواس

١٩٢٠ : الجمعية الوطنية الكبرى
الأولى في أنقرة، بداية حرب
الاستقلال

١٩٢٠ - ١٩٢١ : الاتفاق مع
السوفييت، استرداد الأناضول
الشرقية

١٩١٦ : معركة فيردان

١٩١٧ : دخول الولايات المتحدة
الحرب

١٩١٧ : الثورة الروسية

١٩١٨ : هدنة ريثوند

١٩١٩ : معاهدة فرساي

١٩٢٠ : عصبة الأمم في جنيف

١٩٢٠ : معاهدة سيفر

١٩٢١ : الاتفاق مع فرنسا

١٩٢٢ : استعادة ازمير

١٩٢٢ : هدنة مودانيا

١٩٢٢ : استيلاء موسوليني على
السلطة

١٩٢٢ - ١٩٢٤ : عبد المجيد، آخر
خليفة

١٩٢٣ : محاولة هتلر الانقلابية في
ميونيخ

١٩٢٣ : معاهدة لوزان

١٩٢٣ : دخول الأتراك إلى اسطنبول

١٩٢٣ (٢٩ أكتوبر) : اعلان
الجمهورية التركية. انقره
عاصمة. مصطفى كمال رئيساً

١٩٢٤ : مولت لينين

١٩٢٤ : تنهى الخلافة

قائمة سلاطين الامبراطورية العثمانية

- عثمان الأول، نحو ١٢٨٠ - نحو ١٣٢٤.
- أورخان، الغازي، نحو ١٣٢٤ - نحو ١٣٦٢.
- مراد الأول، خودافينديجار، نحو ١٣٦٢ - ١٣٨٩.
- بايزيد الأول، يلديريم، ١٣٨٩ - ١٤٠٢.
- محمد الأول، شلبي، ١٤١٣ - ١٤٢١.
- مراد الثاني، كوچا، ١٤٢١ - ١٤٤٤، ١٤٤٦ - ١٤٥١.
- محمد الثاني، الفاتح، ١٤٤٤ - ١٤٤٦، ١٤٥١ - ١٤٨١.
- بايزيد الثاني، ولي، ١٤٨١ - ١٥١٢.
- سليم الأول، ياووز، ١٥١٢ - ١٥٢٠.
- سليمان الأول، القانوني، ١٥٢٠ - ١٥٦٦.
- سليم الثاني، سارخوش، ١٥٦٦ - ١٥٧٤.
- مراد الثالث، ١٥٧٤ - ١٥٩٥.
- محمد الثالث، عدلي، ١٥٩٥ - ١٦٠٣.
- أحمد الأول، باختي، ١٦٠٣ - ١٦١٧.
- مصطفى الأول، دلي، ١٦١٧ - ١٦١٨، ١٦٢٢ - ١٦٢٣.
- عثمان الثاني، جينجي، ١٦١٨ - ١٦٢٢.
- مراد الرابع، الغازي، ١٦٢٣ - ١٦٤٠.
- ابراهيم الأول، دلي، ١٦٤٠ - ١٦٤٨.

- محمد الرابع، أوجي، ١٥٤٨ - ١٦٨٧.
- سليمان الثاني، ١٦٨٧ - ١٦٩١.
- أحمد الثاني، ١٦٩١ - ١٦٩٥.
- مصطفى الثاني، الغازي، ١٦٩٥ - ١٧٠٣.
- أحمد الثالث، ١٧٠٣ - ١٧٣٠.
- محمود الأول، كمبور، ١٧٣٠ - ١٧٥٤.
- عثمان الثالث، ١٧٥٤ - ١٧٥٧.
- مصطفى الثالث، ١٧٥٤ - ١٧٧٤.
- عبد الحميد الأول، ١٧٧٤ - ١٧٨٩.
- سليم الثالث، چيهاندار، ١٧٨٩ - ١٨٠٧.
- مصطفى الرابع، ١٨٠٧ - ١٨٠٨.
- محمود الثاني، عدلي، ١٨٠٨ - ١٨٣٩.
- عبد المجيد الأول، الغازي، ١٨٣٩ - ١٨٦١.
- عبد العزيز، ١٨٦١ - ١٨٧٦.
- محمد مراد الخامس، ١٨٧٦.
- عبد الحميد الثاني، ١٨٧٦ - ١٩٠٩.
- محمد الخامس، رشاد، ١٩٠٩ - ١٩١٨.
- محمد السادس، وحيد الدين، ١٩١٨ - ١٩٢٢.
- عبد المجيد الثاني (خليفة فقط)، ١٩٢٢ - ١٩٢٤.

XI. *Les débuts de la Question d'Orient (1774-1839)*

- ANDERSON (M.S.), *The Eastern Question, 1774-1923*, Londres-New York, 1966.
- BAILEY (F.E.), *British Policy and the Turkish Reform Movement : A Study in Anglo-Turkish Relations, 1826-1853*, Cambridge, 1942.
- DE LEONE (E.), *L'Impero ottomano nel primo periodo delle riforme (Tanzîmât) secondo fonti italiane*, Milan, 1967.
- EDMONDS (E.M.), *The Greek War of Independance, 1821-1833*, Chicago, 1968.
- L'Égypte au XIX^e siècle*, Groupe de recherches et d'études sur le Proche-Orient, Paris, 1982.
- FINDLEY (C.V.), *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire. The Sublime Porte, 1789-1822*, Princeton, 1980.
- HAJJAR (J.), *L'Europe et les destinées du Proche-Orient, 1815-1848*, Paris, 1970.
- HEYD (U.), « The Ottoman Ulama and westernization in the time of Selim III and Mahmud II », *Studies in Islamic History and Civilization, Scripta Hierosolymitana*, 9, 1961, pp. 63-96.
- JELAVICH (C. et B.), *The Establishment of the Balkan National States, 1804-1920*, Seattle-Londres, 1977.
- JUCHEREAU DE ST. DENYS, *Histoire de l'Empire ottoman depuis 1792 jusqu'en 1844*, 4 vol., Paris, 1844.
- KARAL (E.Z.), *Osmanlı Tarihi (Histoire ottomane)*, vol. V, *Nizam-i cedid ve Tanzimat devirleri, 1789-1856* (les époques du nizâm-i djedîd et des Tanzîmât, 1789-1856), Ankara, 1947.
- KAYNAR (R.), *Mustafa Reşid Paşa ve Tanzimat (Mustafâ Rechid Pacha et les Réformes)*, Ankara, 1954.
- LEWIS (B.), « The impact of the french revolution on Turkey », *Journal of World History*, I, 1953, pp. 105-125.
- , *The Emergence of Modern Turkey*, Londres-New York, 2^e éd., 1968, trad. fr., *Islam et laïcité. La Naissance de la Turquie moderne*, Paris, 1988.
- MILLER (A.F.), *Mustapha Pacha Bâiraktar*, trad. fr., Bucarest, 1975.
- REMERAND (G.), *Ali de Tébelen, Pacha de Janina, 1744-1822*, Paris, 1928.
- SABRY (M.), *L'Empire égyptien sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, 1811-1849*, Paris, 1930.
- SHAW (S.J.), *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century*, Cambridge (Mass.), 1962).
- , *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Cambridge (Mass.), 1964.
- , *Between Old and New : The Ottoman Empire under Selim III, 1789-1807*, Cambridge (Mass.), 1971.
- SVORONOS (N.G.), *Histoire de la Grèce moderne*, Paris, 1953.
- , *Le Commerce de Salonique au XVIII^e siècle*, Paris, 1956.

XII. *La période des Tanzîmât (1839-1878)*

- ANCEL (J.), *Manuel historique de la Question d'Orient*, Paris, 1923.
- BACQUÉ-GRAMMONT (J.-L.) et DUMONT (P.), *Economie et sociétés dans l'Empire ottoman (fin du XVIII^e - début du XX^e siècle)*, Paris, 1983.
- BATU (H.) et BACQUÉ-GRAMMONT (J.-L.), *L'Empire ottoman, la République de Turquie et la France*, Istanbul, 1986.
- BERKES (N.), *The Development of Secularism in Turkey*, Montréal, 1964.
- BRAUDE (B.) et LEWIS (B.), *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vol., New York, 1982.
- ÇELİK (Z.), *The Remaking of Istanbul; Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century*, Seattle et Londres, 1982.

- DAVISON (R.F.), *Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876*, New York, 1973.
- FINDLEY (C.V.), *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire. The Sublime Porte, 1789-1922*, Princeton, 1980.
- ISSAWI (C.), *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*, Chicago, 1966.
- , *The Economic History of Turkey, 1800-1914*, Chicago, 1980.
- KARAL (E.Z.), *Osmanlı Tarihi. Nizam-i Cedit ve Tanzimat Devirleri, 1789-1856* (Histoire ottomane. Les époques de l'ordre nouveau et des *Tanzîmât*, 1789-1856), 3^e éd., Ankara, 1970.
- , *Osmanlı Tarihi, Islahat Fermanı Devri, 1856-1861* (Histoire ottomane. L'époque de la charte de réforme, 1856-1861), Ankara, 1954.
- , *Osmanlı Tarihi, Islahat Fermanı Devri, 1861-1876* (Histoire ottomane. L'époque de la charte de réforme, 1861-1876), Ankara, 1956.
- , *Osmanlı Tarihi. Birinci Meşrutiyet ve Istibdat Devirleri, 1876-1907* (Histoire ottomane. Les époques de la première Constitution et de l'autocratie, 1876-1907), Ankara, 1962.
- KARPAT (K.H.), *Ottoman Population, 1830-1914, Demographic and Social Characteristics*, Madison, 1985.
- LEWIS (B.), *The Emergence of Modern Turkey*, 2^e éd., Oxford, 1968, trad. franç., *Islam et laïcité. La Naissance de la Turquie moderne*, Paris, 1988.
- MARDIN (S.), *The Genesis of Young Ottoman Thought*, Princeton, 1962.
- SHAW (S.J.) et SHAW (E.K.), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. II, *The Rise of Modern Turkey*, Cambridge, 1977.
- Tanzimat'tan Cumhuriyet'e Türkiye Ansiklopedisi* (Encyclopédie de la Turquie des *Tanzîmât* à la République), 6 vol., Istanbul, 1984-1985.

XIII. Le dernier sursaut (1878-1908)

- BERKES (N.), *The Development of Secularism in Turkey*, Montréal, 1964.
- ÇELİK (Z.), *The Remaking of İstanbul, Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century*, Seattle et Londres, 1986.
- ISSAWI (C.), *The Economic History of Turkey, 1800-1914*, Chicago, 1980.
- KARAL (E.Z.), *Osmanlı Tarihi, Birinci Meşrutiyet ve Istibdat Devirleri, 1876-1907* (Les Époques de la première Constitution et de l'autocratie, 1876-1907), Ankara, 1962.
- KARPAT (K.H.), *Ottoman Population, 1830-1914, Demographic and Social Characteristics*, Madison, 1985.
- KOLOĞLU (O.), *Abdülhamid'in Gerçeği* (La vérité sur 'Abdül-Hamid), Istanbul, 1987.
- KUSHNER (D.), *The Rise of Turkish Nationalism, 1876-1908*, Londres, 1977.
- LEWIS (B.), *The Emergence of Modern Turkey*, 2^e éd., Oxford, 1968.
- MCCARTHY (J.M.), *Muslims and Minorities, The Population of Ottoman Anatolia and the End of the Empire*, New York, 1983.
- ORTAYLI (I.), *İkinci Abdülhamid Döneminde Osmanlı İmparatorluğunda Alman Nüfuzu* (l'influence allemande dans l'Empire ottoman à l'époque de 'Abdül-Hamid II), Ankara, 1981.
- PAMUK (Ş.), *The Ottoman Empire and European Capitalism, 1820-1913*, Cambridge, 1987.
- QUATAERT (D.), *Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire, 1881-1908, Reactions to European Economic Penetration*, New York, 1983.
- RAMSAUR (E.E.), *The Young Turks, Prelude to the Revolution of 1908*, réimpr. Beyrouth, 1965.
- SHAW (S.J.) et SHAW (E.K.), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*,

- II, *The Rise of Modern Turkey (1808-1975)*, Cambridge, 1977.
Tanzimât'tan Cumhuriyet'e Türkiye Ansiklopedisi (Encyclopédie de la Turquie, des *Tanzimât* à la République), 6 vol., Istanbul, s.d.
 THOBIE (J.), *Intérêts et impérialisme français dans l'Empire ottoman (1895-1914)*, Paris, 1977.
 AHMAD (F.), *The Young Turks. The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914*, Oxford, 1969.
 AKŞIN (S.), *İön Türkler ve İttihat ve Terakki* (Les Jeunes-Turcs et l'Union et Progrès), Istanbul, 1987.
 ATATÜRK (M.K.), *Discours du Ghazi Mustapha Kemal Pacha, président de la République turque*, Leipzig, 1929.
 BAYSUR (Y.H.), *Türk İnkilabı Tarihi* (Histoire de la révolution turque), 10 vol., Ankara, 1940-1967.
 DUMONT (P.), *Mustafa Kemal invente la Turquie moderne*, Bruxelles, 1983.
 MCCARTHY (J.), *Muslims and Minorities. The Population of Ottoman Anatolia and the End of the Empire*, New York, 1983.
 GEORGEON (F.), *Aux Origines du nationalisme turc*, Yusuf Akçura, Paris, 1980.
 GÖKALP (Z.), *Turkish Nationalism and Western Civilization*, éd. par Niyazi Berkes, New York, 1959.
 GUNTER (M.), *Pursuing the Just Cause of Their People. A Study of Contemporary Armenian Terrorism*, New York, 1986.
 GÜRÜN (K.), *Le Dossier arménien*, Paris, 1983.
 HELLER (J.), *British Policy towards the Ottoman Empire, 1908-1914*, Londres, 1983.
 HUREWITZ (J.C.), *Diplomacy in the Near and Middle East*, II, rééd., New York, 1972.
 RENOUVIN (P.), *La Crise européenne et la Première Guerre mondiale*, 5^e éd., Paris, 1969.
 SHAW (S.J.) et SHAW (E.K.), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, II : *Reform, Revolution and Republic. The Rise of Modern Turkey, 1808-1975*, Cambridge, 1977.
 TERNON (Y.), *Les Arméniens. Histoire d'un génocide*, Paris, 1977.
 TOPRAK (Z.), *Türkiye'de « Milli İktisat » 1908-1918* (l'économie nationale en Turquie, 1908-1918), Istanbul, 1982.
 TUNAYA (T.Z.), *Türkiye'de de Siyasal Partiler*, I, *İkinci Meşrutiyet Dönemi* (Les Partis politiques en Turquie, I, L'époque du second régime constitutionnel), Istanbul, 1984.

XV. L'art ottoman

- ARSEVEN (C.E.), *Les Arts décoratifs turcs*, Istanbul, 1952.
 ASLANAPA (D.), *Turkish Art and Architecture*, Londres, 1971.
 —, *Turkish Arts : Seljuk and Ottoman Carpets, Tiles and Miniature Paintings*, Istanbul, 1961.
 DAVIS (F.), *The Palace of Topkapı in Istanbul*, New York, 1970.
 ELDEM (S.H.), *Türk mimari eserleri* (Works of Turkish Architecture), Istanbul, s.d.
 —, *Rölöve*, 2 vol., Istanbul, 1968, 1977.
 ESİN (E.), *Turkish Miniature Painting*, Tokyo, 1960.
 ETTINGHAUSEN (R.), *Miniatures turques* (Unesco), Paris, 1965.
 —, *Turkish Miniatures from the Thirteenth to the Eighteenth Century*, New York, 1965.
 —, İPŞİROĞLU et EYUBOĞLU, *Turquie. Miniatures anciennes* (Unesco), New York,

1961.

- GABRIEL (A.), *Châteaux turcs du Bosphore*, Paris, 1943.
—, *Monuments turcs d'Anatolie*, 2 vol., Paris, 1931-1934.
—, *Une Capitale turque. Brousse*, 2 vol., Paris, 1958.

—, *Voyage archéologique dans la Turquie orientale*, 2 vol., Paris, 1940.
GOODWIN (G.), *A History of Ottoman Architecture*, Londres, 1971.
HOAG (J.D.), *Architecture islamique*, Paris, 1982.
LANE (A.), *Later Islamic Pottery (Persia, Syria, Egypt, Turkey)*, Londres, 1957.
ÖZ (T.), *Turkish Ceramics*, Ankara, 1957.
—, *Türk kumaş ve kadifeleri*, Istanbul, 1951.
PAPADOPOULO (A.), *L'Islam et l'art musulman*, Paris, 1976.
ÜNSAL (B.), *Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoman Times, 1071-1923*, Londres, 1959.
—, *Mosquées*, Lausanne, 1975.
—, *Turquie ottomane*, Fribourg, 1965.
VOGT-GÖKNIL (U.), *Les Mosquées turques*, Zurich, 1953.
—, *Living Architecture : Ottoman*, Londres-Fribourg, 1966.
YETKIN (S.K.), *L'Ancienne Peinture turque du XII^e au XVIII^e siècle*, Paris, 1970.
—, *L'Architecture turque en Turquie*, Paris, 1962.

XVI. La vie intellectuelle et culturelle

- ADNAN (A.), *La Science chez les Turcs ottomans*, Paris, 1939.
BABINGER (F.), *Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke*, Leipzig, 1927.
BAZIN (L.) et DUMONT (P.), « Littérature turque » dans *Encyclopédie de la Pléiade, Histoire des littératures*, t. I, Paris, 1967.
BOMBACI (A.), *Histoire de la littérature turque*, trad. franç. par I. Mélikoff, Paris, 1968.
DINO (G.), « Littérature turque », dans *Encyclopaedia Universalis*, vol. 16, Paris, 1973.
GIBB (E.J.), *A History of Ottoman Poetry*, 6 vol., Londres, 1900-1909.
KÖPRÜLÜ (F.), « Littérature turque 'othmanli » », dans *Encyclopédie de l'Islam*, t. IV, Paris, 1931.
RESCHER (O.), *Ein Gesamtüberblick über die türkische Literatur*, Istanbul, 1941.

المحتويات

الفصل الحادى عشر : بدايات المسألة الشرقية (١٧٧٤ -

١٨٣٩) : ٥

روبير مانتران

عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩)

الوضع الداخلى - الإصلاحات المدنية - ضغط روسيا

سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧)

الإصلاحات : النظام الجديد (١٧٨٩ - ١٨٠٢) - المصاعب الداخلية،

الضغوط الخارجية - التمردات فى الولايات - سقوط سليم الثالث

الردة والردة المضادة

محمود الثانى وتقلبات السلطة (١٨٠٩ - ١٨٢١)

ضغوط النظام السياسى - محمد على فى مصر: نموذج يجب الاقتداء

به؟ حروب أم إصلاحات؟

الحروب (١٨٢١ - ١٨٣٩)

اليونان : من الانتفاضة الى الاستقلال - الحرب مع مصر - الضغط

الدولى . فتح الجزائر

الإصلاحات (١٨٣٠ - ١٨٣٩)

الشخصيات الفاعلة - التجديدات - الصحافة والمجتمع - خط جولخانه

الشريف

٦٣ الفصل الثانى عشر : فترة التنظيمات (١٨٣٩ - ١٨٧٨)، ..

بول دومون

المصلحون

سلاطين وباشاوات - أدباء وأيديولوجيون - جنود الإصلاح المجهولون

الإصلاحات

الباب العالى - نحو توحيد القانون - علمنة التعليم - الجيش الجديد -

إدارة الولايات والشئون المالية

التطور الاقتصادى والاجتماعى

أرياف فى حركة - الملمح الجديد للمدن - التوسع الاقتصادى - نهضة المثل

الرجل المريض

الشرق فى أزمة - حرب القرم - تقويض الصلح - الأزمة البلقانية

١٦١ الفصل الثالث عشر : النزاع الأخير (١٨٧٨ - ١٩٠٨)،

فرانسوا جورجو

الدولة العثمانية بعد معاهدة برلين

أعقاب الأزمة - الدولة الحميدية - الفكرة الكبرى للعهد - هيمنة الغرب

المجتمع العثمانى عند منعطف القرن

عدد وحركة السكان - الهجرة اليهودية - تحولات الأرياف والمدن -

اسطنبول والثقافة العثمانية

صعود الأخطار

الحركات القومية، المشكلة الأرمنية - ظهور المانيا على المسرح: سكة

حديد بغداد - مولد معارضة: جماعة تركيا الفتاة - نحو الثورة.

٢٤٣ الفصل الرابع عشر : موت امبراطورية (١٩٠٨ - ١٩٢٣)،

بول دومون وفرانسوا جورجو

الآمال وخيبات الأمل (١٩٠٨ - ١٩١٢)

الثورة والردة - الغليان الاجتماعى والفكرى - نشاط جماعة تركيا الفتاة

الانتكاسات الأولى: طرابلس الغرب، البانيا

الامبراطورية فى حرب (١٩١٢ - ١٩١٨)

الحروب البلقانية - من حرب الى أخرى؛ نشاط لجنة الاتحاد والترقى -

الحرب العالمية الأولى: الدوامه - سنوات الرماد - تعبئة المؤخرة

نهاية عالم (١٩١٨ - ١٩٢٣)

الفرق - من ثورة إلى أخرى - من معاهدة سيفر إلى معاهدة لوزان: موت وبعث تركيا.

الفصل الخامس عشر : الفن العثماني

٣٥١ - الفن العثماني في الأراضي التركية :

چان - پول رو

الفن الاسلامي والفن العثماني

المسجد - الفن السلجوقي - والفن العثماني - الزخرفة - التحف المصنوعة - الطنافس (الأبسطة)

المسجد العثماني

المسجد ذو القبة الواحدة - المسجد المتعدد القباب - مدرسة مدرسة بورصا - المساجد ذات التخطيط المسمى بالتخطيط على شكل حرف T مقلوب.

مقدمة للعصر العظيم

الفن في ظل محمد (الثاني) الفاتح - مساجد بايزيد الأول - تأثير أيا صوفيا - مسجدا بايزيد الثاني وسليم الأول في اسطنبول - سنان - مسجد شاهزاده - مسجد السليرية في ادرنه - تراث سنان.

الأشكال الأخرى للفن

البيت العثماني - العمارة المدنية - الفن الجنائزي - القصر - طب قاي - تزيين المخطوطات بالصور.

العمارة في البلدان العربية في العصر العثماني،

أندريه ريمون

الفن الامبراطوري

دوام التقاليد الفنية المحلية

التجديدات

الفصل السادس عشر : الحياة الفكرية والثقافية في

الامبراطورية العثمانية : ٤٢٧

لوى بازان

مكونات الثقافة التركية قبل الإسلامية

تتركب ثقافة اسلامية

توسع اللغة التركية - الأدب الصوفى - الأعمال النثرية الأولى. توسيع الثقافة

الكلاسيكية العثمانية

استمرارية ثقافة تركية - بدايات حياة ثقافية امبراطورية - الشعراء العثمانيون، باتى وفوضولى - تجديد الأدب - الشعر الشعبى - الكتابة التاريخية - الأجناس الأدبية الأخرى

نحو الحداثة

التأثير الغربى - ظهور الصحافة، المدارس والمحلات الأدبية - الأشكال الأخرى للحياة الثقافية فى القرن التاسع عشر.

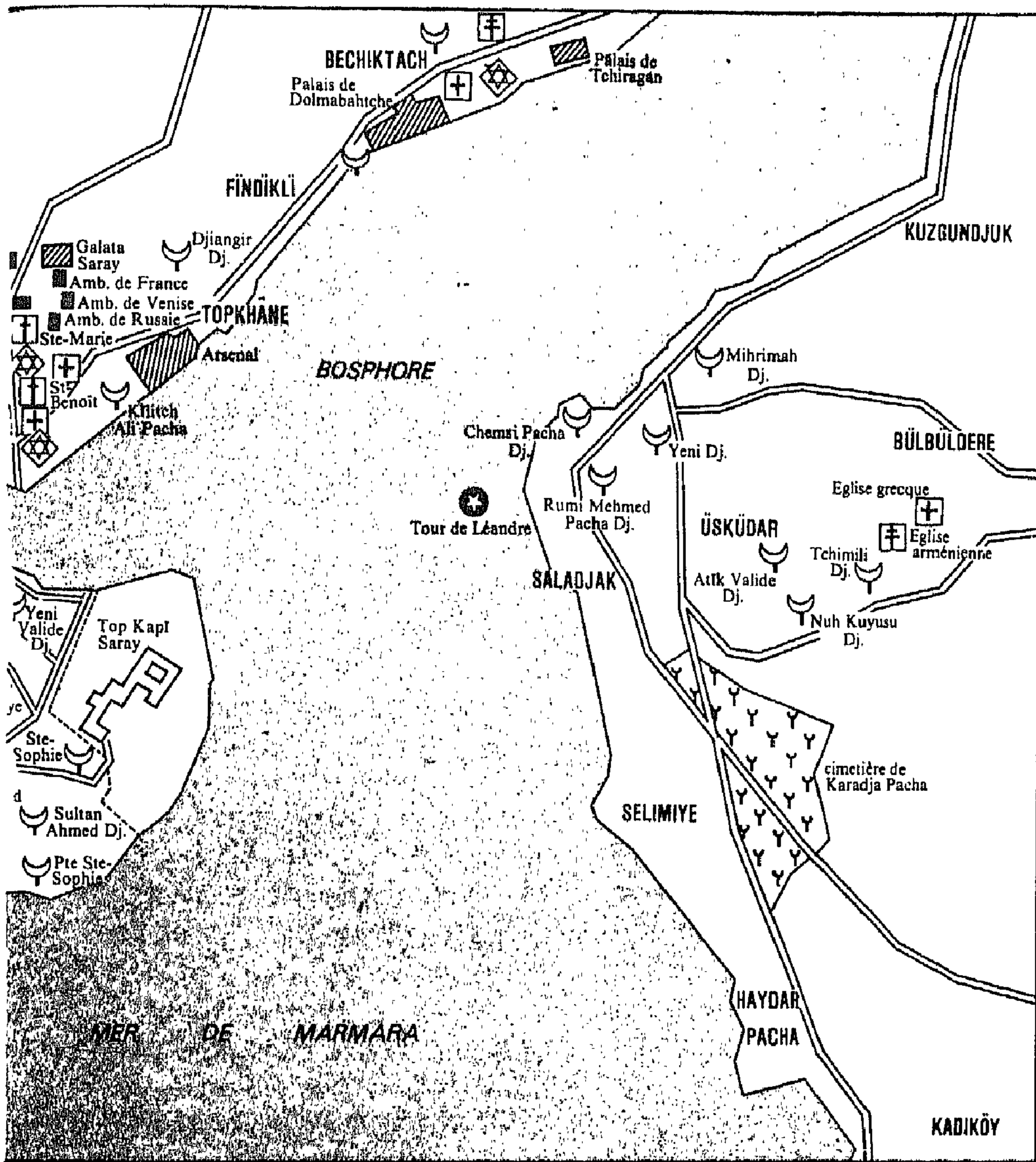
..... الملاحق ٤٧٥

- معالم تاريخية

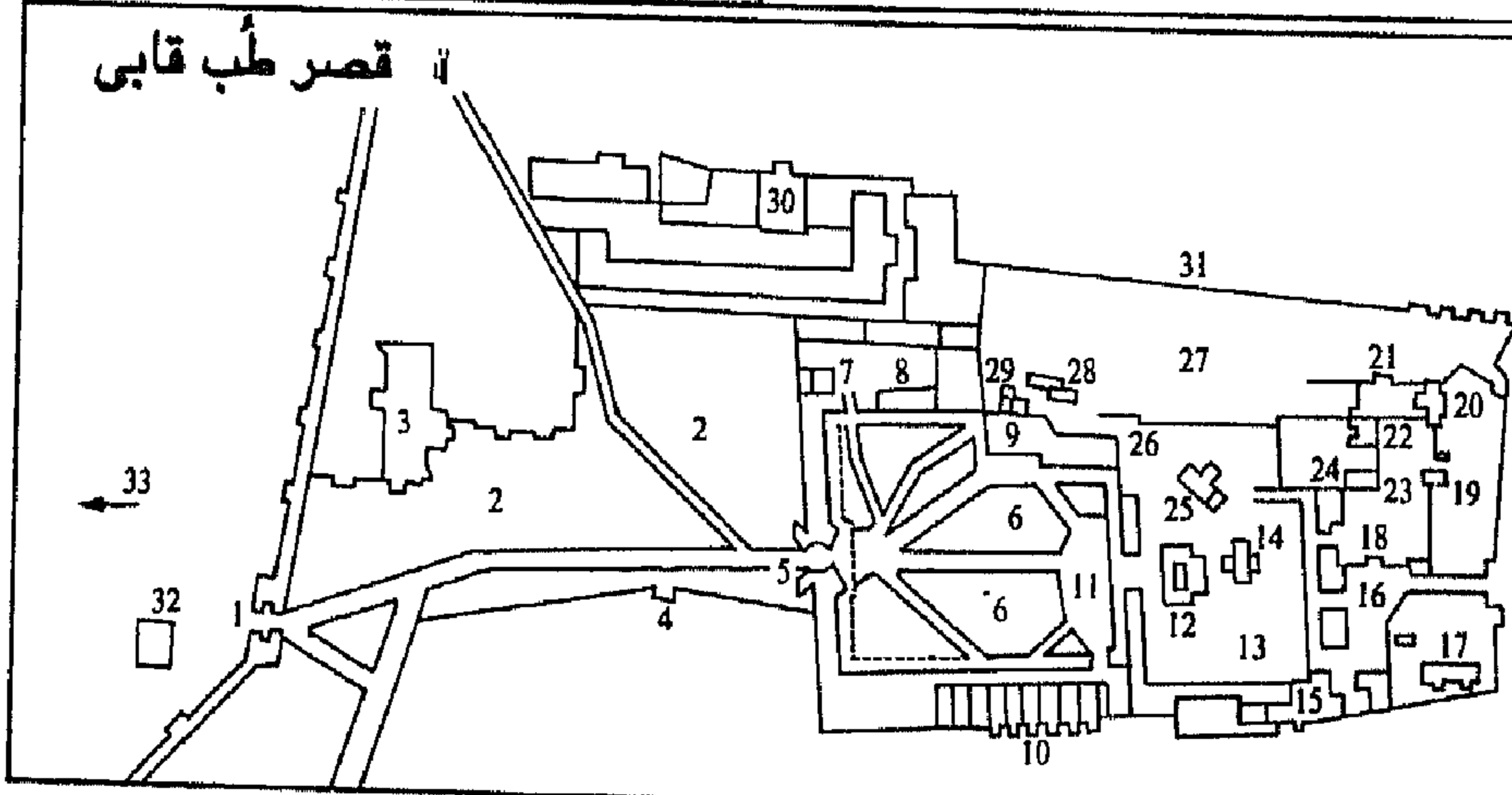
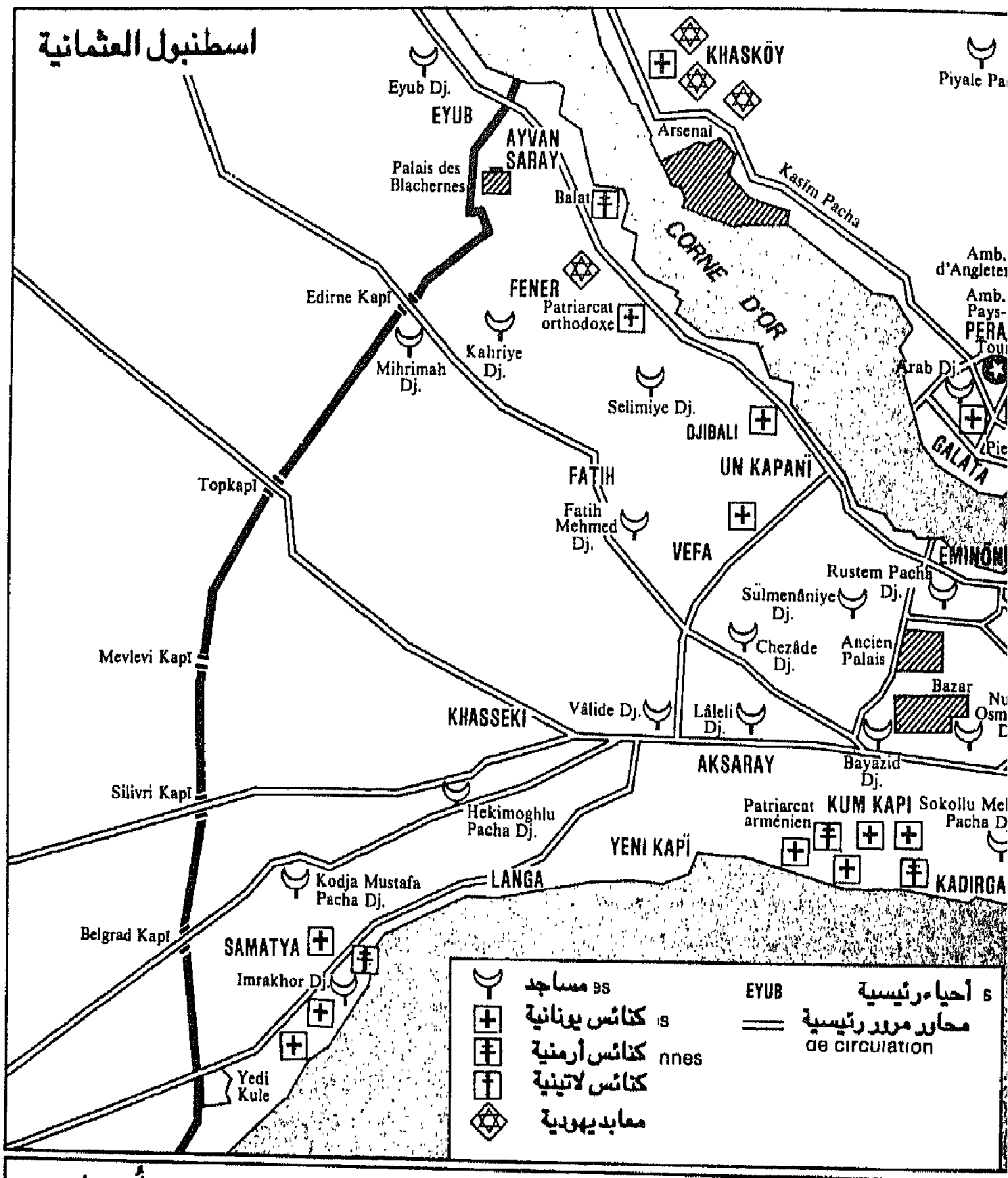
- قائمة سلاطين الامبراطورية العثمانية

..... بيبلوجرافيا ٤٩٨

المحتويات



باب - ای همایون	1	مکتبه أحمد الثالث	14	قاییسی کوفوش	26
الحوش الأول	2	الخزانة	15	الحريم	27
سانت ایرين	3	الحوش الرابع	16	غرفة الكيزلار أغاسی	28
سبیل الجلاء	4	کشک عبد المجید	17	مسجد الخصیان	29
أورطه قابی	5	بستان زهور الخزامی	18	تشیتیلی کشک	30
الحوش الثاني	6	کشک مصطفى باشا	19	منتزة جولخانه	31
مايه قاییس	7	کشک بغداد	20	سبیل أحمد الثالث	32
حوش الباطلیار	8	قبة السلطان ابراهيم	21	ایاصوفیا	33
قبة آلتی	9	سنة أوضاعی	22		
المطابخ	10	کشک بریقان	23		
باب السعادة	11	مخلفات النبی	24		
عرض أوضاعی	12	مسجد الأغوات	25		
الحوش الثالث	13				



رقم الإيداع ٢٦١٦ / ٩٣
I.S.B.N.: 977 - 5091 - 13 - 6

تاريخ الدولة العثمانية

الجزء الثاني

فى هذا الجزء الثانى من كتاب «تاريخ الدولة العثمانية»، يصحبنا روبير مانتوران ورفاقه من المؤرخين المتميزين فى رحلة النهاية للإمبراطورية العثمانية بعد أن تمزقت أوصالها، واقتسمت دول التحالف الأوروبى أملاك السلطان فيما بينها، بل وبدأت تعد لاحتلال قلب الإمبراطورية «اسطنبول» التى دخلها الجنرال الفرنسى دبسبيرى واجتازها على رأس قواته على ظهر حصان أبيض كما فعل محمد الفاتح من قبل.

الآن بدأت تركيا تصارع من أجل تجديد نفسها، من أجل طرد المحتلين، وإنهاء السلطنة وإقامة الجمهورية الحديثة.

تركيا الفتاة - الاتحاد والترقى - ثم الحركة الكمالية.

وينتهى هذا الجزء بفصلين عن الحضارة والأدب، والفن، والعمارة.. فلقد قدمت الدولة العثمانية الكثير فى هذه المجالات.

وهكذا يأتى هذا الكتاب، عملاً غير مسبوق، ودراسة موضوعية.. علمية، وثقافية لحقبة تاريخية كانت فيها الدولة العثمانية لعدة قرون من التاريخ التى تصنع تاريخ العالم.



والعصر الرابع

